رواية

مكتبة

آين راند

أطلس متململا

الجزء الثّالث الألف هي الألف

ترجمة: خالد حافظي

صفحة 7

الأطلس متململاً

« الجزء الثالث: الألف هي الألف »

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود
telegram @soramnqraa

صفحة

رواية

الأطلس متململا

« الجزء الثالث: الألف هي الألف »

المؤلف

آين راند

الطبعة الأولى :2021
الترقيم الدولي
978-603-91630-3-9
رقم الإيداع
1442/11081

copyright@Ayn Rand,1957.
Copyright@renewed Eugene Winick,Paul Gitlin,and Leonard Peikoff, 1985
Introduction copyright@Leonard Peikoff,1992.

حقوق الترجمة العربية محفوظة
© صفحة سبعة للنشر والتوزيع

E-mail: admin@page-7.com
Website: www.page-7.com
Tel.: (00966)583210696

مكتبة
t.me/soramnqraa
6 6 2024

تستطيع شراء هذا الكتاب من متجر صفحة سبعة
www.page-7.com

Atlas Shrugged
Ayn Rand

مكتبة
t.me/soramnqraa

الأطلس متململًا

« الجزء الثالث: الألف هي الألف »

ترجمة
خالد حافظي

صفحة

إلى فرانك أوكونور.....

الفهرس

الجزء الثالث: الألف هي الألف

الفصل الأول: أطلانتيس 11

الفصل الثاني: يوتوبيا الجشع 95

الفصل الثالث: الجشع المضادّ 205

الفصل الرّابع: الحياة المضادّة 285

الفصل الخامس: حرّاس إخوانهم 363

الفصل السادس: كونشرتو الخلاص 461

الفصل السابع: هذا جون جالت يتحدّث................................ 531

الفصل الثامن: الأنانيّ 633

الفصل التاسع: المولّد... 733

الفصل العاشر: باسم الأفضل فينا 769

الجزء الثالث

الألف هي الألف

الفصل الأول

أطلانتيس

مكتبة
t.me/soramnqraa

عندما فتحت داغني عينَيها، رأت ضوءَ الشمس والأوراقَ الخضراء ووجهَ رجلٍ. فقالت في نفسها: أنا أعرف هذا المكان. كان ذلك هو العالم كما توقّعت أن تراه وهي في سنّ السادسة عشرة -وقد وصلت إليه الآن- وبدا الأمر بسيطًا جدًّا، وغيرَ مذهلٍ، حتّى إنّ الشيءَ الذي شعرت به كان بمثابة نعمة تُنطق على الكون بكلماتٍ قليلة. لكنّني أعرف هذا المكان، طبعًا.

كانت تنظر إلى وجه رجلٍ راكع بجانبها، وتعرف أنّ ذلك مثّل، في كلّ السنوات الماضية، ما كانت ستتخلّى عنه لتراه: وجه لا يحمل أيّ علامة ألمٍ أو خوف أو ذنب. كان شكل فمه عنوانَ فخرٍ، بل أكثر من ذلك: كان كما لو أنّه هو الفخر بعينه. فزوايا خَدَّيْه المسطّحةُ جعلتها تفكّر في الغطرسة، والتوتّر، والازدراء، ومع ذلك لم يكن الوجه يحمل أيّ صفةٍ من تلك الصفات، بل يتضمّن خلاصتَها النهائيّة: بنظرة عزيمة وتصميم هادئ، ويقين، ونظرة براءة مطلقة لا تطلب الصفحَ ولا تمنحه. كان وجهًا ليس به ما يخفيه أو يهرب منه، وجه لا خوف من أن يُرى أو يَرى، ذلك أنّ أوّل ما التقطته عنه هو ما في عينيه من إدراكٍ شديدٍ. وبدا كما لو أنّ ملكة البصر هي أفضل أدواته المحبوبة، وممارسته للإبصار مغامرة مرحة لا حدود لها، وكأنّ عينيه كانتا تضفيان قيمة فائقة على نفسه وعلى العالم: على نفسه لقدرته على الإبصار، وعلى العالم لكونه مكانًا يستحقّ المشاهدة بشغف. وللحظة بدا لها الأمر وكأنّها أمام وجود كائن

يمثّل الوعي الخالص. ومع ذلك، لم تعرف قطُّ وعيًا بجسد أيّ إنسان بالقدر الذي اكتشفته عند رؤية ذلك الرجل. وبدا أنّ قماشَ قميصِه الخفيفَ كان يشدّد على بنيته الجسديّة، بدلًا من إخفائها. كانت بشرته سمراء بسبب لفحات الشمس، وكان جسده نحيلًا يَشِفُّ عن صلابة وقوّة شديدة، ودقّة نظيفة كما الشأن في صبّ مسبك، فبدا كأنّه سُكِب من أحد المعادن، من قبيل تلك الباهتة ذات اللمعان الناعم، مثل سبائك الألومنيوم والنحاس. لون بشرته مزج مع لون شعره البنّيّ الكستنائيّ، أمّا خصلاته المتدلّية فلونها يتدرّج في الشمس من البنّيّ إلى الذهبيّ، وأمّا عيناه فتستكملان تلك الألوان، كأنّها جزء من الصبّ تُرِكَ غير باهت ومصقول بحدّة. كان لون عينيه ضاربًا إلى ما في الضوء اللّامع المنعكس على المعادن من خضرة داكنةٍ. وكان ينظر إليها بنظرة جامدة، ليست نظرة اكتشاف، بل نظرة تأمّل مألوف، كما لو أنّه يرى أيضًا ما كان متوقّعًا منذ فترة طويلة وما لا يشكّ فيه أحدٌ.

كان ذلك هو عالمها، كما اعتقدت، وتلك هي الطريقة التي كان من المفترض أن يكون عليها البشر لمواجهة وجودهم. وكلّ ما تبقّى منه، من سنوات القبح والنضال، هو مجرّد مزحة شخصٍ لا معنى لها. ابتسمت له، كما هي حال المرء حين يبتسم لزميل متآمر تعبيرًا عن الارتياح والخلاص والسخرية الزاهية من كلّ الأشياء التي لن تضطرّ إلى اعتبارها مهمّة مجدّدًا. وكان ردّه أن بادلها الابتسامة نفسها، وكأنّما شعر بما شعرت به وعرف ما تعنيه.

همست: لم يكن علينا أن نأخذ أيّ شيء من ذلك على محمل الجدّ، أليس كذا؟

– طبعًا، ما كان علينا أن نفعل.

وبعد ذلك، عاد وعيها بشكل كامل، فأدركت أنّ ذلك الرجل كان غريبًا تماما. فحاولت أن تبتعد عنه، لكنّها لم تكن سوى حركة باهتة من رأسها على العشب الذي شعرت به تحت شعرها. وحاولت النهوض فأحسّت بألم اجتاح ظهرها فاستلقت على الأرض مرّة أخرى.

- لا تتحرّكي يا آنسة تاجارت، فأنت مجروحة.

- هل تعرفني؟

- لقد عرفتك منذ سنوات عديدة.

- وهل سبق أن تقابلنا؟

- نعم، أعتقد ذلك.

- فما اسمك؟

- جون جالت.

فنظرت إليه من دون أن تحرّك ساكنًا. فسألها: لماذا أنت خائفة؟

- لأنّني أُصدّقك.

فابتسم، كما لو أنّه التقط اعترافًا كاملا بالمعنى الذي ارتبط به اسمه، أمّا الابتسامة فحملت في طيّاتها قبولَ الخصم للتحدّي، وتسليةَ الكبار بخداع الطفل لنفسه.

شعرت كما لو أنّها تستعيد وعيها بعد حادث تحطّم الطائرة، ذلك الوعي الذي تشظّى أكثر من الطائرة. ولم تستطع إعادة ترميمه الآن، ولم تتمكّن من تذكّر الأشياء التي كانت تعرفها عن اسمه، فكلّ ما عرفته هو أنّ الأمر أشبه بفراغ مظلم ستضطرّ إلى ملئه ببطء. لم تستطع فعل ذلك الآن، فذاك الرجل قد أعماها بحضوره أيضًا، مثل أضواء كاشفة لم تسمح لها برؤية الأشكال المتناثرة في الظلام الخارجيّ.

سألته: هل أنت من كنتُ ألاحقه؟

- نعم.

فنظرت ببطء من حولها. كانت مستلقيةً على عشب حقلٍ عند سفح قطعة من الجرانيت تدلّت آلاف الأقدام في السماء الزرقاء. وعلى الحافّة الأخرى من الحقل، أخفت بعضُ الصخور وأشجارُ الصنوبر وأوراقُ أشجار البتولا المتلألئة المساحةَ التي

امتدت إلى جدارٍ بعيدٍ من الجبال المحيطة. لم تتحطّم طائرتها، بل كانت هناك، على بعد بضع أقدام، رابضةً على بطنها في العشب. ولم تكن هناك أيّ طائرة أخرى في الأفق، ولا أيّ هياكل، أو علامة على سكن الإنسان.

سألته: ما اسم هذا الوادي؟

قال وهو يبتسم: محطّة تاجارت.

- ماذا تعني؟

- ستكتشفين ذلك لاحقًا.

لقد جعلها دافعٌ خافتٌ، مثل ارتداد خصمٍ، تتحقّق من القوّة التي بَقِيَتْ لها. واستطاعت أن تحرّك ذراعيها وساقيها؛ وتمكّنت أيضًا من رفع رأسها؛ لكنّها شعرت بألم حادٍّ أثناء التنفّس بعمق؛ ورأت خيطًا رفيعًا من الدم لنزيف أسفل جوربَيها.

سألته: هل يمكن للمرء أن يخرج من هذا المكان؟

بدا صوته جادًّا، ولكنّ بريق عينيه الخضراوين في لون المعادن كان يبعث ابتسامة: في الواقع لا. مؤقّتًا... نعم.

فقامت بحركة لتنهض. فانحنى لرفعها، لكنّها استجمعت قواها في هزّة سريعة مفاجئة تكافح من أجل الوقوف وسلّت يدها من قبضته، ثمّ قالت:

- أعتقد أنّني أستطيع فعل ذلك.

ثمّ انهارت عليه لحظةً، فشعرت بطعنة من الألم في كاحلها الذي لم يعد قادرًا على حملها.

قال وهو يرفعها بين يديه: لا يمكنك المشي يا آنسة تاجارت.

ثمّ اندفع يعبر بها أرجاء الحقل. كانت مستلقيةً بثبات وذراعاها تحيطان به وقد أمالت رأسها على كتفَيه وقالت في نفسها: ليت كلّ هذا يستمّر للحظات قليلة أو يدوم

العمر كلّه. لا بأس في الاستسلام تمامًا له... لنسيان كلّ شيء... وتساءلت عن آخر مرّة شاهدت فيها مثل هذا الحدث؟ لقد خطرت تلك الكلمات ببالها لحظةً، لكنّها لم تستطيع التذكّر الآن. لقد عرفت مثل ذلك الحدث، مرّة واحدة، ذاك الشعور باليقين، والحسم النهائيّ، ببلوغ الهدف، والوصول إلى المقصد غير المشكوك فيه. ولكن كان من الجديد عليها أن تشعر بالحماية، وأن تجد الصواب في قبول الحماية، والاستسلام، لأنّ ذلك الشعور الغريب بالأمان لم يكن يمثّل حمايةً لها ضدّ المستقبل، بل ضدّ الماضي، ولم يكن حمايةً من كونها بمنأى عن المعركة، ولكن حماية لها بعد أن فازت بها، وليست الحماية الممنوحة لضعفها، ولكن لقوّتها... وإدراكًا منها لما في ضغط يديه على جسدها من كثافة غير طبيعيّة، وخصلات شعره التي تشبه خيوط الذهب والنحاس، وظلال رموشه على بشرة وجهه على بعد بوصات قليلة من وجهها، فتساءلت بشكل خافت: لكن أنا محميّة من ماذا؟ ألم يكن هو العدوّ... هل كان فعلًا؟ لماذا؟ لم تكن تعرف الإجابة، ولم تستطع التفكير في الأمر الآن. استغرق الأمر جهدًا لتتذكّر أنّها كانت تملك هدفًا ودافعًا حدّدته قبل بضع ساعات. فأجبرت نفسها على استعادته فسألته:

– هل تعلم أنّني كنت ألاحقك؟

– لا.

– أين طائرتك؟

– في حقل الهبوط.

– وأين هو حقل الهبوط؟

– على الجانب الآخر من الوادي.

عندما نظرت إلى الأسفل، لم ترَ في هذا الوادي حقلًا للهبوط. ولم يكن هناك أيضًا أيّ مرج. كيف وصلت كلّ تلك الأشياء إلى هنا؟

قال وهو ينظر إلى السماء: انظري بعناية. هل ترين أيّ شيء هناك؟

فانحنت برأسها إلى الخلف، تنظر مباشرةً إلى السماء، فلم تلاحظ سوى الزرقة الهادئة الصباحيّة. وبعد فترة من الوقت تعرّفت إلى بضع شرائط خافتة من الهواء المتلألئ. فقالت: إنّها موجات حراريّة.

أجابها: بل أشعّة الانكسار، فقاع الوادي الذي رأيته هو قمّة جبليّة يبلغ علوّها ثمانية آلاف قدم، أي على بعد خمسة أميال من هنا.

- قمّة... ماذا؟

- قمّة جبليّة شاهقة ولا يمكن لأيّ طائرةٍ الهبوطُ من ذلك الارتفاع. وما شاهدته كان انعكاسه المتوقّع على هذا الوادي.

- كيف؟

- الأمر شبيه بسراب الصحراء. إنّه صورة منكسرة من طبقة من الهواء الساخن.

- كيف؟

- بواسطة شاشة من الأشعّة بحسابات عالية الدقّة تضع في اعتبارها كلّ شيء، ما عدا شجاعة مثل شجاعتك.

- ماذا تعني؟

- لم أكن أعتقد أنّ أيّ طائرة ستحاول الهبوط على بعد 700 قدم من الأرض. لقد صدمت شاشة الشعاع. وبعض الأشعّة هي من النوع الذي يدمّر المحرّكات المغناطيسيّة. حسنًا، وهذه هي المرّة الثانية التي تهزمينني فيها، إذ لم يسبق لأحدٍ أن تعقّبني مطلقًا.

- ولماذا تحتفظون بهذه الشاشة؟

- لأنّ هذا المكان ملكيّة خاصّة تهدف إلى البقاء على هذا النحو.

- وما اسم هذا المكان؟

سأريك كلّ شيء الآن بما أنّكِ هنا بيننا يا آنسة تاجارت. سأجيبك على كلّ أسئلتك بعد أن رأيت ذلك.

فبقيت داغني صامتة. ثمّ لاحظت أنّها طرحت أسئلة حول كلّ موضوع، ما عدا أن تسأل عنه هو شخصيًّا. وبدا الأمر كما لو أنّه كان كلًّا متكاملًا، وأدركت ذلك منذ الوهلة الأولى عندما وقعت عيناها عليه، مثل إحدى القيم المطلقة التي لا يمكن اختزالها، أو مثل المسائل البديهيّة التي لا يمكن تفسيرها، وكأنّها كانت تعرف كلّ شيء عنه بالإدراك المباشر، وما ينتظرها الآن ليس سوى عمليّة تحديد معرفتها.

كان يحملها إلى أسفل درب ضيّق متعرّج يجوب قاع الوادي. وعلى المنحدرات من حولهما، وقفت أهرامات طويلة ومظلمة من أشجار الشوح المنتصبة بشكلٍ لا يصدّق، على نحوٍ ذكوريّ بسيطٍ، مثل منحوتة اختُزِلت في شكل أساسيّ، فتشابكت مع المشهد الأنثويّ المعقّد والدانتيل المليء بتفاصيل من أوراق أشجار البتولا المرتجفة تحت أشعّة الشمس. لقد سمحت أوراق الشجر بمرور أشعّة الشمس فطالت شعره، ووجهيهما. ولم تستطيع رؤية ما يكمن في الأسفل، ووراء منعطفات ذلك الدرب.

كانت عيناها مشدودتين إلى وجهه. بينما كان هو ينظر إليها من حين إلى آخر. في البداية، كانت تنظر بعيدًا، كما لو أنّها انبهرت بالنور. ثمّ أصبحت، بعد ذلك، كما لو أنّها تتعلّم منه التقاطَ نظرته كلّما اختار النظر إليها في الأسفل، وهو يعلم أنّه كان يعرف ما تشعر به وأنّه لم يخفِ عنها معنى نظرته.

كانت تعرف أنّ صمته هو اعترافها نفسه. لم يكن يحملها بحيادِ رجلٍ يحمل امرأة جريحة. لقد كان عناقًا، على الرغم من أنّها شعرت بعدم وجود أدنى تلميح منه إلى أنّه يعانقها؛ عدا شعورها بيقينٍ من أنّ جسدَه كلّه كان على وعي بأنّه يحملها.

ثمّ سمعت صوت الشلّال قبل أن ترى الخيط الهشّ الذي سقط في شرائط مكسورة لامعة أسفل الحوافّ. وانبعث الصوت من خلال بعض النبضات الباهتة في ذهنها، وبعض الإيقاع الخافت الذي لم يبدُ أعلى من صوت ذاكرةٍ تكافح من أجل لملمة شتاتها،

لكنّ كلّ الإيقاعات اختفت وبقي النبض؛ لقد استمعت إلى صوت خرير المياه، ولكن يبدو أنّ هناك صوتًا آخر رافقه وكان يزداد وضوحًا وارتفاعًا. لم يكن ذلك الصوت من وحي خيالها، ولكنّه يصدر من مكان مّا بين أوراق الشجر. ثمّ التفّ الدرب، وفي فسحة مفاجئة رأت منزلًا صغيرًا على الحافّة في الأسفل، وقد وقع على جزء من نافذة مفتوحة منه انعكاسُ ومضة من الشمس. وفي تلك اللحظة تذكّرت التجربة التي جعلتها تريد الاستسلام للحاضر المباشر. لقد تذكّرت ليلةَ كانت في العربة المتربة من القطار المذنّب، عندما سمعت لحن كونشرتو هالي الخامس لأوّل مرّة. كانت تعرف أنّها تسمعه الآن، تسمع اللحن وهو يرتفع من لوحة مفاتيح البيانو، يصدر من الأوتار الواضحة الحادّة من لمسة قويّة واثقة لشخص مّا.

فقاطعت تحرّكه بطرح سؤال مباشر في وجهه، كما لو أنّها ترغب في إرباكه: أليس هذا هو الكونشرتو الخامس لريتشارد هالي؟

- طبعًا.

- ومتى ألّفه؟

- لماذا لا تسألينه عن ذلك شخصيًّا؟

- هل هو هنا؟

- هو الذي يعزفه الآن. وهذا منزله.

- أوه..!

- ستقابلينه لاحقًا وسَيَسْعَد بالتحدّث معك. إنّه يعرف أنّ أعماله هي التسجيلات الوحيدة التي تحبّين عزفها في المساء عندما تكونين وحيدةً.

- وكيف علم بذلك؟

- لقد أخبرته.

لقد طرحت ملامح وجهها سؤالًا كان سيبدأ على النحو التالي: كيف تمّ ذلك بحقّ الجحيم..؟ لكنّها رأت نظرة عينيه، فضحكت ضحكةً أكسبتْ معنى نظرته صوتًا.

وقالت في نفسها إنّها لا يمكن أن تشكّك في أيّ شيء، بعد الآن. ليس بسبب سماع صوت تلك الموسيقى وهي ترتفع منتصرةً من خلال أوراق الشجر المنقوعة في الشمس، موسيقى الفرج والخلاص، تعزف بإتقان كما يفترض أن تعزف بحقّ، كما لو أنّ ذهنها يكافح لسماع ذلك في عربة تتأرجح من خلال صرير العجلات المجروحة. هذا ما تذكّره ذهنها ممّا شهدته في أصوات تلك الليلة. هذا الوادي وشمس الصباح و...

كانت تلهث، لأنّ الدرب تغيّر. ومن ارتفاع حافّة مفتوحة، رأت المدينة على أرضيّة الوادي.

لم تكن بلدةً، بل مجرّد مجموعة من المنازل المتناثرة عشوائيًّا تمتدّ من القاع إلى الخطوات الصاعدة من الجبال التي ترتفع فوق أسطحها، وتحيط بها في دائرة مفاجئة سالكة. كانت المنازل صغيرة وجديدة، بأشكال عارية وزاويا وبريق من النوافذ العريضة. وفي المسافة البعيدة، بدت بعض الهياكل أطول، تبرز منها لفائف الدخان الخافتة لتوحي بوجود منطقة صناعيّة. ولكن على بعد مسافة قريبة أمام داغني، وعلى ارتفاع عمود جرانيت نحيلٍ يمتدّ من الحافّة في الأسفل إلى مستوى عينيها. غطّى وهجها وأخفى بقيّة المشهد، توجد علامة الدولار ذات ارتفاع يبلغ ثلاث أقدام، مصنوعة من الذهب الصلب. علّقت العلامة في الفضاء فوق المدينة، مثل معطف من الأسلحة، وكأنّها علامتها التجاريّة أو منارتها، وكانت تمتص أشعّة الشمس، مثل أحد الأجهزة التي ترسل طاقةً تبثّ لهم نعمة مشرقة لتمتدّ أفقيًّا من خلال الهواء فوق السقوف.

قالت وهي تشير إلى اللّافتة: وما تلك العلامة.

- أوه، هذه طرفة فرانسيسكو الخاصّة.

همست، وهي تعرف الجواب: فرانسيسكو... أيّ فرانسيسكو؟

- فرانسيسكو دانكونيا.

- هل هو هنا أيضا؟

- سيكون هنا، ابتداءً من الآن.

- وماذا تقصد بأنّها طرفة فرانسيسكو؟

- لقد منح فرانسيسكو تلك اللّافتة هديّةَ عيد ميلادٍ لصاحب هذا المكان. وبعد ذلك تبنّيناها جميعًا كشعار خاصّ بنا. لقد أعجبتنا الفكرة.

- ألست مالك هذا المكان؟

- أنا؟ لا، لست مالك هذا المكان.

ثمّ نظر إلى أسفل على سفح الحافّة، وأضاف وهو يشير بيده: صاحب هذا المكان هو ذلك الشخص القادم الآن.

توقّفت سيّارة في نهاية الطريق الترابيّة أسفلهما، وكان هناك رجلان يسرعان في الدرب. لم تستطع داغني أن تتبيّن وجهيهما، ولكنّ أحدهما كان نحيلا وطويل القامة، أمّا الآخر فأقصر منه، لكنّه مفتول العضلات. لقد اختفيا عن ناظريها وراء منعطفات الدرب، بينما كان جون جالت يتّجه بها صوبهما.

ثمّ التقت بهما عندما خرجا فجأة من وراء زاوية صخريّة على بعد بضع أقدام. لقد صدمتها رؤية وجهيهما على نحوٍ مفاجئ.

قال الرجل صاحب العضلات المفتولة، الذي لم تكن تعرفه، وكان يحدّق في وجهها: حسنًا، ستحلّ بي اللعنة الآن!

كانت تحدّق في ملامح رفيقه الطويل والمتميّز: إنّه هيو أكستون.

كان هيو أكستون هو من تحدّث أوّلًا، فانحنى لها وحيّاها بابتسامةٍ مهذّبة على شكل ترحيب:

- أتعلمين يا آنسة تاجارت أنّ هذه هي المرّة الأولى التي يثبت فيها لي أحدهم أنّني مخطئ. لم أكن أعرف -عندما قلت لك إنّك لن تجديه- أنّي سأراك في المرّة القادمة بين ذراعيه.

- بين ذراعي مَن؟

- مخترع المحرّك.

فاندهشت وأغلقت عينيها؛ كان ذلك أحد الروابط التي كان عليها استنتاجها منذ البداية. وعندما فتحت عينيها وجدت نفسها تنظر إلى جون جالت الذي كان يبتسم، بشكل خافت وبسخريّة، كما لو أنّه يعرف تمامًا ما يعنيه ذلك لها.

ردّ الرجل ذو العضلات المفتولة، بقلقٍ غاضب لكنّه يشي بالمودّة: كان من الممكن أن يتسبّب لك ذلك في كسر رقبتك! ويا لها من حيلة استخدمها لسحبك من هناك... ذاك الشخص الذي أعترف له ببراعته، وماذا لو اخترت الخروج من الباب الأماميّ!

قال جالت: يا آنسة تاجارت، هل لي أن أقدّم إليك ميداس موليغان؟

همست وضحكت: أوه.. أكنت تتوقّع أنّي سأهلك في ذلك الحادث، وأنّ عمرًا آخر كتب لي؟

ردّ جالت: إنّه نوع آخر من العمر. لكن في خصوص القتل، ألا يشبه هذا الأمر شيئًا آخر غير القتل؟

همست: أوه نعم.. بلى...

ثمّ ابتسمت في وجه موليغان. وتساءلت: وأين الباب الأماميّ؟

قال وهو يشير إلى جبهته: هنا.

ردّت ببساطة: لقد فقدت المفتاح... لقد فقدت كلّ المفاتيح الآن.

- ستجدينها. ولكن أيّ مغامرة قادتك إلى استخدام تلك الطائرة؟

- كنت أقوم بعمليّة مطاردة.

قال وهو يشير إلى جون جالت: أكنت تلاحقينه؟

- نعم.

- أنت محظوظة لأنّك مازلت على قيد الحياة! هل تعرّضت لإصابة بالغة؟

- لا أعتقد ذلك.

- ثمّة أسئلة تنتظرك لتجيبي عليها، بعد أن تنامي وتأخذي قسطًا من الراحة.

ثمّ التفت بفظاظة، بينما كان يقودها أسفل الطريق إلى السيّارة، ثمّ نظر إلى جالت وقال: حسنًا، ماذا سنفعل الآن؟ هناك شيء لم نقدمّه لها: الجرب الأوّل.

سألته: الأوّل... ماذا؟

ردّ موليغان وهو ينظر إلى جالت: دعك من ذلك، وماذا سنفعل؟

قال جالت: تلك ستكون مهمّتي.. سأكون مسؤولًا عنها. وعليك بتحمّل مسؤوليّة كوينتين دانيلز.

- أوه، لا أعتقد أنّ دانيلز سيسبّب لي أيّ مشكلة على الإطلاق. فهو لا يحتاج إلى شيءٍ سوى التعرّف على المكان، ويبدو أنّه يعرف كلّ ما تبقّى من الأمور.

- نعم، فالحقّ أنّه هو الذي اختار السير في هذا الطريق بنفسه.

ثمّ لاحظ أنّها كانت تراقبه في حيرة، فقال: هناك شيء واحد يجب أن أشكرك عليه يا آنسة تاجارت، فقد أسديت لي معروفًا كبيرًا عندما اخترت كوينتين دانيلز بديلًا منّي في إعادة تركيب المحرّك. لقد كان اختيارًا معقولًا.

سألته: وأين هو الآن؟ وهل ستخبرني بما حدث؟

- ولماذا قابلنا ميداس في ميدان الهبوط، وقادني إلى منزلي وأخذ دانيالز معه؟ كنت سأنضمّ إليهما لتناول الفطور لكنّني رأيت طائرتك تحوم وتهوي ثمّ تسقط في ذلك

المرعى وكنت الأقرب إلى مكان الحادث.

قال موليغان: لقد وصلنا إلى هنا بأسرع ما يمكن. واعتقدت أنّ مَن كان بالطائرة – أيّا كان– يستحقّ أن يودي بنفسه إلى الموت. لم يخطر ببالي مطلقًا أنّ مَن كان على متن الطائرة هو أحد شخصين وحيدين في العالم كنت سأستثنيهما من مثل هذا حادث.

سألته: ومن هو الشخص الآخر؟

– هانك ريردن.

فارتعدت فرائص داغني وجفلت؛ لقد كان ذكر الاسم بمثابة صفعة مفاجئة قادمة من مسافة كبيرة أخرى. تساءلت لماذا بدا لها أنّ جالت يراقب ملامح وجهها عن قصد وأنّها لاحظت التغيّر في ملامح وجهه هو أيضا ولو لحظة وجيزة جدًّا يصعب تحديدها.

ثمّ وصلوا إلى السيّارة التي كانت من نوع هاموند القابلة للتحويل من أعلى إلى أسفل، وهي أحد النماذج الأكثر تكلفةً، وإن كان بها شيء من القِدَم لكنّها حافظت على مظهر مشرق يدلّ على حسن التعامل معها من قبل سائقها. وضع جالت داغني في المقعد الخلفيّ بحذرٍ. كان يحضنها في دائرة ذراعيه باحتراسٍ إلى أن جلست. لقد كانت تشعر بطعنة من الألم الموجع من حين إلى آخر، ولكن لم يكن يعنيها تجنّب ذلك. لقد انشغلت بمشاهدة المنازل البعيدة في المدينة، بينما كان موليغان يضغط على مفتاح التشغيل فانطلقت السيّارة إلى الأمام. وأثناء مرورهم بعلامة الدولار انعكس شعاع تلك العلامة الذهبيّ في عينيها، واجتاح جبهتها.

سألتهما: ومن هو صاحب هذا المكان؟

قال موليغان: أنا.

قالت وهي تشير إلى جالت: ومن يكون هذا؟

قال موليغان وهو يضحك: إنّه فقط يعمل هنا.

سألت مرافقهم: وماذا عنك يا دكتور أكستون؟

أجاب وهو ينظر إلى جالت: أنا أحد أبوَيه يا آنسة تاجارت. أنا الشخص الذي لم يخُنْه.

قالت: أوه! إنّه تلميذك الثالث؟

- هذا صحيح.

- المساعد الثاني للمحاسب!

تنهّدت فجأة، وهي تستدعي ذكرى إضافيّة، ثمّ أضافت: وما هي هذه الوظيفة؟

- هذا هو الاسم الذي كان الدكتور ستادلر يناديه به. لقد قال لي الدكتور ستادلر إنّه يعتقد أنّ تلميذه الثالث سيصبح مساعد محاسب.

ردّ جالت: لقد بالغ في التقدير. أنا أقلّ من ذلك بكثير وفقًا لمعاييره وعالمه.

ثمّ انحرفت السيّارة ودخلت زقاقًا يرتفع نحو منزل وحيدٍ يقع وسط سلسلة من التلال فوق الوادي. ورأت رجلًا يسير في الطريق أمامَهم، ويعجّل في خطاه باتّجاه البلدة. كان يرتدي سروال دجينز ويحمل صندوق غذاء. وكان في مشيته المفاجئة السريعة شيءٌ مألوف على نحو خفيٍّ. وعندما عبرت السيّارة بجانبه، التقطت داغني لمحة من وجهه. مالت قليلًا إلى الوراء، وارتفع صوتها فأطلق صرخةً من ألم الحركة ومن صدمة ما رأته: أوه، توقّف! توقّف! لا تدعه يذهب! إنّه إليس وايت.

ضحك الرجال الثلاثة، لكنّ موليغان أوقف السيّارة. أوه... همست معتذرةً، لقد أدركت أنّها نسيت أنّ هذا هو المكان الذي لن يختفي فيه وايت.

وكان وايت يركض نحوهم: لقد تعرّف عليها هو أيضًا. وعندما وصل بالقرب من السيّارة، كبح من سرعته، فرأت الوجه والابتسامة الشابّة المظفّرة التي رأتها، ولكن لمرّة واحدة من قبل ثمّ اختفى، على منصّة تقاطع وايت.

- أخيرًا يا داغني أنت أيضًا هنا. لقد أصبحت واحدة منّا.

ردّ جالت: لا، الآنسة تاجارت تائهة.

- ماذا؟

- لقد تحطّمت طائرة الآنسة تاجارت، ألم ترَها؟

- تحطّمت هنا؟

- نعم.

- لقد سمعت هدير الطائرة، لكن... فهمت ما حصل. أوه، أن أراك هنا يا داغني، إنّه لعمري أمر مستحيل!

كانت تحدّق فيه عاجزةً، غير قادرة على إعادة ربط الماضي بالحاضر. كانت عاجزة. قالت، وذكرى رنين الهاتف الذي لا يجيب منذ عامين تقريبًا لم تغادر خيالها، تلك الكلمات التي كانت تأمل في قولها لو سنحت الفرصة برؤيته مرّة أخرى: لقد... حاولت الاتّصال بك.

ابتسم بلطف وقال: نحن أيضًا كنّا نحاول الوصول إليك منذ ذلك الحين، يا داغني... سأراك الليلة لا تقلقي، لن أختفي، ولا أعتقد أنّك أنت أيضًا ستختفين.

ثمّ لوّح بيده للآخرين وواصل سيره وهو يحمل صندوق الغذاء. فنظرت داغني إلى أعلى، عندما بدأ موليغان تشغيل السيّارة، فرأت عيني جالت تراقبانها بانتباهٍ. لقد تصلّب وجهها، كما لو أنّها تعلن اعترافها المطلق بالألم وفي تحدٍّ للارتياح الذي قد يمنحه ذلك له، فقالت: حسنًا، أتفهّم نوع العرض الذي تريد أن تضعني فيه من خلال صدمة مشاهدتك إيّاي.

ولكن لم تكن في وجهه قسوةٌ أو شفقةٌ. هي فقط نظرة تشي بمستوى من العدالة. فأجابها: قاعدتنا الأولى هنا يا آنسة تاجارت، هي أن يهتمّ المرء، فقط ودائما، بنفسه.

توقّفت السيّارة أمام ذلك المنزل الوحيد المبنيّ من كتل الجرانيت الخام، وعلى معظم جداره الأماميّ قشرة من الزجاج. أوقف موليغان السيّارة وقال: سأرسل الطبيب،

بينما حملها جالت إلى أعلى الطريق.

سألته: أهذا منزلك؟

أجاب وهو يفتح الباب: نعم، إنّه لي.

حملها عبر العتبة إلى فضاء غرفة معيشته المتلألئ، حيث انعكست أعمدة أشعّة الشمس بجدران الصنوبر المصقول. لقد رأت داغني بضع قطعٍ من الأثاث المصنوع يدويًّا، وسقفًا من العوارض الخشبيّة العارية، وممرًا مقوّسًا مفتوحًا على مطبخ صغير برفوف خشنة، وطاولة خشبيّة عارية ومشهد مذهل من الكروم المتلألئ لموقد كهربائيّ. كان المكان يوحي ببساطة بدائيّة لكوخ حدوديّ، وقد اختُزِل في توفير الضروريّات الأساسيّة، ولكنّ الاختزال تمّ بمهارة عصريّة فائقة.

ثمّ حملها عبر أشعّة الشمس إلى غرفة ضيوف صغيرة ووضعها على السرير. لقد لاحظت وجود نافذة مفتوحة تطلّ على منحدر طويل من الصخور والصنوبر ينطلق في السماء. ولاحظت أيضًا وجود خطوط صغيرة تبدو وكأنّها نقوش مقطّعة في خشب الجدران. كانت عبارة عن بضعة خطوط متناثرة تبدو مكتوبة بخطوط يدويّة مختلفة. لكنّها لم تستطع تبيّن الكلمات. ثمّ لاحظت وجود باب آخر، وقد ترك نصف مفتوح؛ يؤدّي إلى غرفة نومه.

سألته: هل أنا ضيفة هنا أم سجينة؟

- الخيار يبقى لك يا آنسة تاجارت.

- لا يمكنني أن أقرّر حين أتعامل مع شخص غريب.

- لكنّك لست كذلك. ألم تطلقي اسمي على خطّ سكّة الحديد؟

- أوه! ... بلى فعلت ذلك...

واعترتها هزّة صغيرة لاكتشافٍ آخر قد أذاع سرّه، ثمّ أضافت: نعم، أنا...

كانت تنظر إلى قامته الطويلة ذات الشعر المائل الذي تخترقه الشمس، بابتسامة مكبوتة في عينيه المدركة بلا شفقة، فتذكّرت نضالها من أجل بناء ذلك الخطّ، وتذكّرت أيضًا ذلك اليوم الذي أطلقوا فيه القطار الأوّل. كانت تفكّر في أنّه إذا كان يمكن تشكيل شخصيّة بشريّة كشعارٍ لذلك الخطّ، فهذا هو الشكل. ثمّ استرسلت في الكلام: نعم ... فعلت.. لكنّني سمّيته باسم العدوّ.

قال وهو يبتسم: هذا هو التناقض الذي يجب عليك حلّه عاجلًا أم آجلًا يا آنسة تاجارت.

- أكنت أنت... أليس كذلك؟... أكنت أنت من دمّر خطّي.

- لمَ لا تقولين إنّ التناقض هو الذي دمّر خطّك؟

سألته: وكلّ تلك القصص التي سمعتها عنك.. أيّها كان صحيحًا؟

- كلّها صحيحة.

- هل أنت من نشرها؟

- لا، وما الغاية؟ لم أكن أرغب إطلاقًا في أن يأتي اسمي على ألسنة الناس.

- لكنّك تعرف أنّك أصبحت أسطورة.

- نعم.

- والمخترع الشابّ لشركة القرن العشرين للمحرّكات هو نسخة واحدة حقيقيّة من تلك الأسطورة، أليس كذلك؟

- نعم... تلك نسخة حقيقيّة ملموسة.

لم يكن بوسعها قول ذلك بلامبالاةٍ، ولكن كانت لا تزال تخاطبه بلهجة لاهثة، ثمّ خفّضت صوتها ليصبح همسًا فسألته: والمحرّك... ذلك المحرّك الذي وجدته... هل أنت مَن اخترعه؟

- نعم.

قالت وهي في كامل حماسها: وما سرّ تحويل الطاقة...؟

- يمكنني أن أشرح لك ذلك في خمس عشرة دقيقة... ولكن لا توجد قوّة على الأرض يمكن أن تجبرني على إخبارك بها. إذا فهمت ذلك، فسوف تفهمين كلّ شيء كان يحيّرك.

- أتذكّر تلك الليلة... قبل اثني عشر عامًا...تلك الليلة الربيعيّة التي خرجتَ فيها من اجتماع لستّة آلاف من القتلة.. هل كانت تلك القصّة صحيحة؟

- نعم.

- أخبرتهم بأنّك ستوقف محرّك العالم.

- لقد فعلت ذلك.

- وماذا فعلت؟

- لم أفعل شيئًا يا آنسة تاجارت، وهذا هو كلّ سرّي.

نظرت إليه في صمتٍ للحظة طويلة. بينما وقف هو منتظرًا، كما لو أنّه يستطيع قراءة أفكارها. ثمّ قالت: والمدمّر...

أجابها: أكثر مخلوق موجود ويحمل كلّ الشرور على الإطلاق.. ذلك الرجل الذي يستنزف أدمغة العالم.

سألته: كم كنت تراقبني؟ وكم دام ذلك؟

لم تتحرّك عيناه، ولكن بدا لها أنّ نظرته متوتّرة نسبيًّا، كما لو أنّه وعى رؤيتها على نحوٍ خاصّ، فالتقطت منه صوتًا به شيء من شدّة مخصوصة ثمّ أجابها بهدوء: لسنوات.

ثمّ أغلقت عينيها، واسترخت واستسلمت. لقد شعرت باللّامبالاة الغريبة والخالية من الهموم، كما لو أنّها لم تكن تريد فجأةً سوى راحة الاستسلام للعجز.

ثمّ وصل الطبيب، كان ذا شعر رماديّ، وذا وجه معتدل، تشي ملامح وجهه بالثقة والحكمة.

قال جالت: آنسة تاجارت، اسمحي لي أن أقدّم لك الدكتور هندريكس؟

ردّت بدهشةٍ، لأنّ هذا الاسم يذكّرها بجرّاح عظيم تقاعد واختفى قبل ستّ سنوات: أليس هوالدكتور توماس هندريكس؟

ردّ جالت: نعم، إنّه توماس هندريكس.

قال الدكتور توماس هندريكس وهو يبتسم: لقد أخبرني ميداس أنّه يجب معالجة الآنسة تاجارت من هول الصدمة، لكن ليست الصدمة التي لحقت بها، بل الصدمة القادمة.

قال جالت: سأترك لكي تؤدّي مهمّتك، سأذهب إلى السوق للحصول على بعض اللوازم لإعداد وجبة الفطور.

وظلّت داغني تراقب الكفاءة السريعة في عمل الدكتور هندريكس، بينما كان يفحص إصاباتها. لقد أحضر معه جهازًا لم ترَه من قبل: جهازًا محمولًا للأشعّة السينيّة. ثمّ علمت منه أنّها مزّقت غضروف ضلعين من أضلاعها، وأنّها تعاني من التواء في كاحلها، وبعض الخدوش السطحيّة التي طالت بشرة إحدى ركبتيها ومرفقيها، وقد لحقت بها أيضًا بعض كدمات انتشرت على كامل جسدها وأصبحت بقعًا أرجوانيّة. وبحلول الوقت الذي كانت فيه يدا الدكتور هندريكس السريعتين والمختصّتين تعدّان الضمّادات والأشرطة اللّاصقة الضيّقة لتطبيب الجروح، شعرت داغني كما لو أنّ جسدها كان محرّكًا يفحصه ميكانيكيٌّ خبيرٌ، ولم يكن من الضروريّ توفير المزيد من الرعاية.

– أنصحك بالبقاء في السرير يا آنسة تاجارت.

– أوه لا! سأتحرّك لكن بحذر وبطء، سأكون على ما يرام.

- يجب أن تخلدي للراحة.

- هل تعتقد أنّني أستطيع التحرّك؟

قال وهو يبتسم: لا أعتقد ذلك.

ثمّ ارتدت ملابسها في الوقت الذي عاد فيه جالت. فأعطى الدكتور هندريكس لجالت لمحةً تشخّص حالتها، مضيفًا: سأعود لعيادتها غدًا.

ردّ جالت: شكرًا يا دكتور، أرسل إليّ الفاتورة.

ردّت داغني بسخط: بالتأكيد لا! سأدفع المبلغ بنفسي.

فتبادل الرجلان نظرة، في تسلية تشبه تباهي المتسوّل.

قال جالت: سنناقش ذلك لاحقًا.

وغادر الدكتور هندريكس. أمّا داغني فحاولت الوقوف، وهي تعرج، وتمسك بالأثاث من أجل إسناد نفسها. فرفعها جالت بين ذراعيه وحملها إلى المطبخ ووضعها على كرسيّ أمام منضدة كان قد أعدّها لجلوس شخصين.

وأحسّت بالجوع، عند رؤية وعاء القهوة وهو يغلي على الموقد. وفوق الطاولة المصقولة كان هناك كوبان من عصير البرتقال، وأطباق الفخّار الأبيض الثقيلة المتألّقة بمفعول الشمس.

سألها جالت: ومتى كانت آخر مرّة نمتِ فيها أو أكلتِ فيها شيئًا مّا؟

- لا أعلم... لقد تناولت العشاء في القطار، مع...

ثمّ هزّت رأسها في تسلية مريرة بلا حول أو قوّة وقالت في نفسها: مع صعلوك له صوت يائس يتوسّل الهروب من المنتقم الذي لن يلاحقه أو يتمّ العثور عليه.

ذلك المنتقم الذي كان يجلس قبالتها عبر الطاولة، وهو يشرب كوبًا من عصير البرتقال.

ثمّ أضافت: لا أعلم... يبدو أنّني لم أفعل ذلك منذ قرون بعيدة.

- وما الذي جعلك تلاحقينني؟

- لقد هبطت في مطار أفتون، تحديدًا بينما كنت أنت تقلع. وقال لي الرجل الذي يعمل هناك إنّ كوينتين دانيالز قد رافقك على متن الطائرة.

- نعم لقد تذكّرت طائرتك وهي تحلّق استعدادًا للهبوط. لكنّها كانت المرّة الوحيدة التي لم أفكّر فيها بك، ولم يخطر ببالي أنّ في وسعك فعل ذلك. اعتقدت أنّك قادمة على متن القطار.

سألته وهي تنظر إليه مباشرة: وكيف تريدني أن أفهم ذلك؟

- فهم ماذا؟

- المرّة الوحيدة التي لم تفكّر فيها بي.

فالتقط نظرتها؛ فلاحظت الحركة الخافتة المميّزة له؛ حركة فمه المستعصي بفخرٍ، تلك الحركة التي تميل إلى تلميح بابتسامة. وأجابها: لك أن تفسّريها مثلما يحلو لك.

ثمّ تركت لحظةً تمرّ للتأكيد على اختيار لمحة الشدّة في وجهها، ثمّ سألته ببرود، في نبرة اتّهام عدوّ: هل كنت تعرف أنّني قادمة من أجل كوينتين دانيالز؟

- نعم.

- فحصلتَ عليه قبلي، وبسرعة، لكي لا أصل إليه. من أجل أن تهزمني.. وكنت تدرك تمامًا أيّ صفعة سأتلقّاها حين أكتشف هذا الأمر، أليس كذلك؟

- بالتأكيد.

ثمّ نظرت بعيدًا وبقيت صامتةً. أمّا هو فنهض لطهي ما تبقّى من فطورهما. وظلّت تراقبه وهو يقف عند الموقد، يحمّص الخبز، ويقلي البيض ولحم الخنزير المقدّد. كان يتمتّع بمهارة سلسة ومريحة في طريقة طبخه، ولكنّها مهارة تنتمي إلى مهنة أخرى؛

كانت يداه تتنقّلان بدقّة سريعة لمهندس يسحب روافع لوحة تحكّم. ثمّ تذكّرت فجأةً أين رأت مثل تلك الحركات المحترفة والمستحيلة.

سألته وهي تشير إلى الموقد: هل هذا ما تعلّمته من الدكتور أكستون؟

- تعلّمت ذلك من بين أمور أخرى.

قالت بنبرة ساخطة: وهل علّمكم طرق الاستمتاع بوقتكم... وقتك أنت بالذات! في هذا النوع من العمل؟

- إنّ ما أقضيه من الوقت في العمل أقلّ أهمّيّةً بكثير.

سألته وهو يضع الطبق أمامها: ومن أين تحصل على ذلك الطعام؟ هل لديهم متجر بقالة هنا؟

- أفضل متجر بقالة في العالم. ويديره لورانس هاموند.

- ماذا؟

- لورانس هاموند، صاحب مصنع سيّارات هاموند. ولحم الخنزير المقدّد هو من مزرعة دوايت ساندرز صاحب مصنع ساندرز للطائرات. أمّا البيض والزبدة فمن القاضي ناراغاناسيت، قاضي المحكمة العليا بولاية إلينوي.

فنظرت داغني إلى طبقها، بمرارةٍ، تقريبًا كما لو أنّها خائفة من لمسه. إنّها أغلى وجبة فطور سأتناولها على الإطلاق، بالنظر إلى قيمة وقت الطبّاخ وكلّ تلك المكوّنات الأخرى.

- نعم.. هذا من جانب. ولكن من جانب آخر، إنّها أرخص وجبة فطور ستأكلينها على الإطلاق، لأنّه لن يذهب أيّ جزء منها لإطعام اللصوص الذين سيجعلونك تدفعين ثمنها سنةً بعد أخرى ويتركونك فريسة للجوع في النهاية.

بعد لحظات من الصمت الطويل، سألته ببساطة وصوت لا يكاد يكون حزينًا: وماذا

تفعلون جميعًا هنا؟

- إنّنا نعيش.

وبدا لها أنّها لم تسمع تلك الكلمة من قبل على ذلك النحو الواقعيّ فسألته:

- وما هو عملك؟ قال ميداس موليغان إنّك تعمل هنا.

- أنا، على ما أعتقد، الرجل المفيد هنا.

- ماذا؟

- أنا على استعداد تامّ ورهن الطلب كلّما حدث أيّ شيء خاطئ داخل أيّ مُنشأَةٍ، كنظام الطاقة على سبيل المثال لا الحصر.

نظرت إليه، وفجأة حاولت المشي إلى الأمام، لتحدّق في الموقد الكهربائيّ، لكنّها سقطت مرّة أخرى على كرسيّها بسبب الألم.

قال جالت وهو يضحك: نعم، هذا صحيح، ولكن على رسلك.. وإلّا سيأمرك الدكتور هندريكس بالعودة إلى السرير.

قالت: نظام الطاقة... نظام الطاقة هنا... إنّه يعمل عن طريق محرّكك، أليس كذلك؟

- طبعًا.

- لقد تمّ بناؤه؟ هل يعمل؟

- طبعًا، إنّه يعمل، بفضله طبخت الفطور.

- أريد أن أرى ذلك!

- لا تشغلي نفسك بالنظر إلى هذا الموقد لأنّ ذلك قد يتسبّب لك في إعاقة. إنّه مجرّد موقد كهربائيّ عاديّ مثل أيّ موقد آخر، إلّا أنّ الاختلاف الوحيد هو أنّ تكلفة تشغيله أقلّ بكثير من تكلفة بقيّة المواقد. وهذا كلّ ما في الأمر يا آنسة تاجارت.

- لقد وعدتَني بأن تريني ذلك الوادي.

- سأريك ذلك. ولكن لن أريك مولّد الطاقة.

- هل ستأخذني لأرى المكان؟

- إذا كنت ترغبين في ذلك، وإذا كنت قادرة على التحرّك.

- سأقدر على ذلك..لا تهتمّ.

فنهض جالت واتّجه نحو الهاتف واتّصل بأحد الأرقام: مرحبًا، ميداس؟ نعم... لقد فعل ذلك؟ نعم، هي بخير... هل أستطيع أن أستأجر سيّارتك طيلة هذا اليوم؟ شكرًا. بالتعريفة المعتادة.. خمسة وعشرون سنتًا... هل يمكنك إرسالها؟ وهل لديك أيّ عكّاز لداغني؟ ستحتاج إليه الليلة؟ نعم، أعتقد ذلك. سنفعل ذلك. شكرًا.

ثمّ أغلق الخطّ بينما كانت تحدّق فيه بريبةٍ.

- هل أفهم ممّا قلته للسيّد موليغان -الذي تبلغ قيمة ثروته حوالي مائتي مليون دولار- أنّه سيكلّفك خمسة وعشرين سنتًا مقابل استخدام سيّارته؟

- هذا صحيح.

- يا إلهي، ألا يمكنه أن يعطيك إيّاها من باب الصداقة؟

فظلّ ينظر إليها لحظةً، وهو يتفحّص ملامح وجهها، كما لو أنّه يتعمّد السماح لها برؤية التسلية في وجهه، ثمّ قال: يا آنسة تاجارت، لا قوانين لنا في هذا الوادي، ولا قواعد، ولا تنظيم رسميّ من أيّ نوع. نحن نأتي إلى هنا لأنّنا نريد أن نرتاح ولكن لدينا عادات معيّنة، ونلاحظها جميعًا، لأنّها تتعلّق بالأشياء التي نحتاج إليها في راحتنا. لذلك سأحذّرك الآن من أنّ في هذا الوادي كلمةً واحدة ممنوعةً: كلمة 'أعطِ'.

قالت: أنا آسفة. أنت على حقّ.

ثمّ أعاد جالت ملءَ فنجان القهوة الخاصّ بها ومدّ إليها علبة السجائر. فابتسمت

وهي تأخذ سيجارةً، لأنّها كانت تحمل علامة الدولار.

قال: إذا لم يصبك التعب والإعياء في هذا المساء فيمكننا زيارة موليغان لأنّه دعانا لتناول العشاء. إنّه على موعد مع بعض الضيوف هناك، وربّما ترغبين في مقابلتهم.

- نعم، بالتأكيد! لن أتعب كثيرًا. ولا أعتقد أنّني سأشعر بالتعب مجدّدًا.

وما كادا ينهيان الفطور حتّى رأت سيّارة موليغان تقف أمام المنزل. ثمّ قفز السائق إلى الخارج، وسار بالطريق واندفع إلى الغرفة، دون أن يتوقّف ليدقّ الجرس أو يطرق الباب. واستغرق الأمر منها لحظةً لتدرك أنّ الشابّ الحريص، المتلهّف، غير المنظّم كان كوينتين دانيلز.

شهق من الدهشة: الآنسة تاجرت.. أنا آسف! لم يسبق لي أن أخلفت وعدي من قبل! ولا يوجد عذرٌ لما فعلته، ولا يمكنني أن أطلب منك مسامحتي، فأنا أعلم أنّك لن تصدّقي السبب، لكنّ الحقيقة هي أنّني نسيت!

ألقت نظرة خاطفة على جالت وردّت على دانيلز: أنا أصدّقك.

- لقد نسيت أنّني وعدتك بالانتظار، نسيت كلّ شيء.. إلى أن أخبرني السيّد موليغان قبل بضع دقائق، بأنّك سقطت في تلك الطائرة، فعلمت أنّه لو حدث لك أيّ شيء فسيكون بسبب خطئي.. يا الله، هل أنت بخير؟

- نعم. لا داعي إلى القلق. اجلس.

- لا أعلم كيف يمكن للمرء أن ينسى كلمة الشرف. ولا أعلم ما وقع لي.

- أنا أعلم ما وقع لك.

- يا آنسة تاجرت، كنت أعمل على ذلك المحرّك منذ شهور، بناءً على تلك الفرضيّة الخاصّة، وكلّما عملت أكثر، أصبح الأمر أكثر تعقيدًا. وكنت في مختبري خلال اليومين الماضيين، أحاول حلّ معادلة رياضيّة بدت مستحيلة. لقد شعرت بأنّني سأموت على تلك السبّورة، لكنّني لم أستسلم. كان الوقت متأخّرًا في الليل عندما دخل. ولا أعتقد

أنّي لاحظت ذلك، بل ولم أرَه في الحقيقة. قال إنّه يريد التحدّث معي فطلبت منه الانتظار، فذهب على الفور. أعتقد أنّي نسيت حضوره، ولا أدري كم من الوقت وقف هناك، وهو يراقبني، لكنّ ما أتذكّره هو أنّه مدّ يده فجأة، وأحاط بكامل جسدي ليجذبني بعيدًا عن السبّورة، ثمّ كتب معادلة موجزة. حينها لاحظت وجودَه! فصرخت، لأنّها لم تكن الإجابة الكاملة على المحرّك، لكنّها الطريق الذي يهدي إليها، بطريقة لم أرَها من قبل، ولم أكن أشكّك فيها، لكنّني عرفت أين تقود! أتذكّر أنّي صرخت حينها وقلت له: كيف عرفت ذلك؟ فأجاب وهو يشير إلى صورة محرّكك: أنا هو الرجل الذي صنعه أوّلًا وهذا آخر ما أتذكّره يا آنسة تاجارت.. أعني آخر ما أتذكّره من وجودي هناك، لأنّنا تحدّثنا بعد ذلك عن الكهرباء الساكنة وتحويل الطاقة والمحرّك.

قال جالت: لقد تحدّثنا عن الفيزياء في الطريق إلى هنا.

ردّ دانيلز: أوه، وأتذكّر عندما سألتني عمّا إذا كنت سأذهب معك، سواء كنت على استعداد للذهاب دون أعود أبدًا وأتخلّى عن كلّ شيء ... كلّ شيء؟ التخلّي عن معهد ميّت يتداعى ليصبح مثل الأدغال، والتخلّي عن مستقبلي بوصفي حارسًا عبدًا للقانون، والتخلّي عن ويسلي ماوش وأمره التوجيهيّ رقم 289-10 والتخلّي عن كلّ تلك المخلوقات التي تزحف على بطونها، وهي تشكو من انقراض العقل!... يا آنسة تاجارت.. كان يسألني عمّا إذا كان بوسعي التخلّي عن كلّ ذلك مقابل الذهاب معه! وكان عليه أن يطلب منّي ذلك مرّتين، فلم أستطع تصديق الأمر في البداية، ولم أستطع تصديق أنّ أيّ إنسانٍ يحتاج إلى أن يطلب ذلك أو يفكّر فيه كما لو أنّ أمامه خيارًا آخر. فهل كان لي أن أتردّد في الذهاب معه؟ طبعًا لا، لقد كنت مستعدًّا للقفز من ناطحة سحابٍ فقط لأتبعه وأسمع المزيد عن صيغته قبل أن نصل إلى الرصيف!

قالت: أنا لا ألومك.. لقد التزمت بالعقد. وقدتني إلى سرّ المحرّك.

قال دانيلز مبتسمًا بسعادةٍ: سأشتغل حارسًا هنا أيضًا. لقد وعدني السيّد موليغان بأنّه

سيمنحني وظيفة حارس ليليّ بمحطّة الطاقة. وعندما أتعلّم، سأرتقي لأكون مهندسًا كهربائيًّا. أليس السيّد ميداس موليغان برجل عظيم فعلًا؟ فهذا ما كنت أريد أن أكون عندما أبلغ سنّه. أريد أن أجني المال. أريد أن أجني الملايين. أريد أن أفعل ما فعله!

ضحكت وهي تتذكّر ما كان يتمتّع به دانيلز من صفاتٍ مثل ضبط النفس والهدوء، والدقّة البالغة، وما للعالم الشابّ الذي كانه من منطق صارم: دانيلز! ما خطبك؟ أين تخال نفسك؟ هل تدرك ما تقول؟

- أنا هنا يا آنسة تاجرت.. ولا توجد حدودٌ لما هو ممكنٌ هنا! سأكون أعظم كهربائيّ في العالم، بل وأغناهم! أنا ذاهب إلى..

قال جالت: أنت ستعود إلى منزل موليغان، وتنام لمدّة أربع وعشرين ساعة، وإلّا فلن أدعك تقترب من محطّة توليد الكهرباء.

ردّ دانيلز بتواضع: حاضر سيّدي.

كانت أشعّة الشمس تتسرّب إلى قمم الجبال وقد رسمت دائرةً من الجرانيت اللّامع والثلوج المتلألئة المحيطة بالوادي عندما خرجا من المنزل. شعرت داغني فجأةً وكأنّه لا يوجد شيء خارج تلك الدائرة، وتساءلت عن سبب تلك الراحة والسعادة والفخر التي يمكن العثور عليها في معرفة أنّ مجال قلق المرء يكمن في نطاق ما يراه. لقد أرادت أن تمدّد ذراعيها فوق أسطح البلدة في الأسفل، لتشعر بأنّ أطراف أصابعها ستلامس تلك القمم. لكنّها لم تستطع رفع ذراعيها. فاستندت على عصاها بيد واحدة وعلى ذراع جالت باليد الأخرى، وهي تحرّك قدميها بجهد وبطء ووعي، ومشت نحو السيّارة مثل طفل يتعلّم المشي للمرّة الأولى.

جلست إلى جانب جالت بينما كان يقود سيّارته، وهو يجوب المدينة، متّجهًا نحو منزل ميداس موليغان. كان المنزل يقع في سلسلة من التلال، بوصفه أكبر منزل في الوادي، وهو المبنى الوحيد المكوّن من طابقين، بتصميمٍ غريب يمزج بين شكل الحصن وشكل منتجع ترفيهيّ، وبجدران جرانيتيّة قويّة وشرفات واسعة مفتوحة.

توقّف جالت لينزل دانيلز، ثمّ قاد سيّارته على طريق متعرّج يرتفع ببطء في الجبال.

لقد جعلها التفكير في ثروة موليغان، وسيّارته الفاخرة ومشهد يدَي جالت على عجلة القيادة تتساءل لأوّل مرّة عمّا إذا كان جالت من الأثرياء أيضًا. فنظرت إلى ملابسه: بدا سرواله الرماديّ وقميصه الأبيض بجودة مخصّصة للارتداء الدائم. وقد ظهر تشقّق جلد الحزام الضيّق حول خصره؛ أمّا الساعة اليدويّة بمعصمه فكانت تشبه أداة دقيقة، ولكنّها مصنوعة من الفولاذ العاديّ المقاوم للصدإ. وكانت الإشارة الوحيدة للرفاهية فيه هي لون شعره، تلك الخصلات التي تتمايل في مهبّ الريح مثل الذهب السائل والنحاس.

لاحظت داغني فجأة وجود الأفدنة الخضراء من المراعي، خلف منعطف الطريق، الممتدّة إلى مزرعة بعيدة. وكانت هناك قطعان من الأغنام، وبعض الخيول، وساحات مسيّجة تحت الأشكال المترامية الأطراف من الحظائر الخشبيّة ترعى بها بعض قطعان من الخنازير، وعلى مسافة أبعد، برزت حظيرة معدنيّة من النوع الذي لا ينتمي إلى المزارع.

وكان هناك رجل يرتدي قميصًا لامعًا من أقمصة رعاة البقر يسرع نحوهما. فأوقف جالت السيّارة ولوّح له، لكنّه لم يقل شيئًا كردٍّ على نظرتها الاستجوابيّة. لقد تركها تكتشف الأمر بنفسها، وعندما اقترب الرجل، اكتشفت أنّه دوايت ساندرز.

قال مبتسمًا: مرحبًا يا آنسة تاجرت.

فنظرت بصمت إلى كُمَّي قميصه الملفوفين، وحذائه الثقيل، وقطعان الماشية. وقالت: هذا إذَن كلّ ما تبقّى من شركة ساندرز للطيران.

– طبعًا لا. هناك طائرة أحاديّة ممتازة، هي أفضل نموذج لي، وأنت أسقطتِها في التلال.

– أوه، هل علمت أنت أيضًا بذلك الأمر؟ نعم، لقد كانت إحدى طائراتك. وهي مركبة رائعة. لكن أخشى أنّي ألحقت بها ضررًا كبيرًا.

- يجب إصلاحها.

- أعتقد أنّي مزّقت قاعدتها الأساسيّة ولا أحد يمكنه إصلاحها.

- يمكنني إصلاحها.

كانت تلك هي الكلمات التي لم تسمعها منذ سنوات، وتلك هي الطريقة التي تخلّت عن توقّعها، لكنّ بداية ابتسامتها انتهت بضحكة مريرة فسألته: كيف يمكنك إصلاحها؟ أيمكنك فعل ذلك في مزرعة الخنازير هذه؟

- لمَ لا؟ سأصلحها في مصنع ساندرز للطائرات.

- وأين يقع هذا المصنع؟

- وأين تعتقدين أنّه سيكون؟ هل سيكون مثلًا في ذلك المبنى من ولاية نيوجيرسي، الذي اشتراه ابن عمّي تينكي هولواي من خلفائي المفلسين عن طريق قرض حكوميّ وتعليق ضريبيّ؟ ذلك المبنى الذي أُنتج فيه ستّ طائرات لم تغادر الأرض قطّ وثماني طائرات حلّقت لكنّها تحطّمت فأهلكت معها أربعين راكبًا؟

- أين يقع إذَن؟

- إنّه يقع حيثما أكون.

وأشار بيده من خلال الطريق. فنظرت داغني عبر قمم أشجار الصنوبر، فرأت في قاع الوادي مستطيلًا خرسانيًّا لمدرّج طائرات.

قال لها: لدينا عدد قليل من الطائرات هنا، ومن وظيفتي الاعتناء بها. فأنا مزارع وأربّي الماشية والخنازير وأعمل أيضًا مضيّفًا جوّيًّا بالمطار. لقد أبليت بلاءً حسنًا في إنتاج لحم الخنزير بنوعَيه العادي والمقدّد، من دون إعانة الرجال الذين اعتدت على شرائه منهم. لكنّ هؤلاء الرجال لا يستطيعون إنتاج الطائرات من دوني، لا يمكنهم حتّى إنتاج لحم الخنزير بنوعيه العاديّ والمقدّد.

- ولكنّك.. لم تكن مَن يصمّم الطائرات.

- لا، لم أفعل ذلك. ولم أصنع محرّكات الديزل التي وعدتك بها ذات مرّة. فمنذ آخر مرّة رأيتك فيها، صمّمت وصنعت جرّارًا واحدًا فقط. أعني، واحدًا فقط.. وقد أعددته يدويًّا.. لم تكن هناك حاجة إلى الإنتاج الضخم. لكنّ هذا الجرّار وفّر عليّ يوم عمل من ثماني ساعات إلى أربع ساعات.

لقد كان خطُّ ذراعه المستقيمُ، الممتدّ وهو يشير عبر الوادي، يتحرّك مثل الصولجان الملكيّ؛ فتبعته عيناها ورأت الحديقة الخضراء المتدرّجة من الحدائق المعلّقة على سفح الجبل البعيد: تلك مزرعة الدجاج والألبان للقاضي ناراغاناسيت.

ثمّ تحرّكت ذراعه ببطء إلى امتداد طويل ومسطّح بلون الذهب المائل إلى الخضرة عند سفح الوادي، ثمّ إلى مجموعة من الخضرة العنيفة، وأضاف: انظري إلى حقول القمح وبقعة التبغ تلك، إنّها لميداس موليغان.

ثمّ صعدت ذراعه إلى جناح من الجرانيت الذي يحتوي طبقات متلألئة من أوراق الشجر: انظري، هذه بساتين ريتشارد هالي.

ثمّ اتّجهت عيناها ببطء فوق المنحنى الذي كانت ذراعه تسير فيه مرارًا وتكرارًا، بعد فترة طويلة من سقوط ذراعها؛ لكنّها قالت فقط: فهمتك.

سألها:هل تعتقدين الآن أنّ بإمكاني إصلاح طائرتك؟

- نعم. ولكن هل رأيتها؟

- بالتأكيد. لقد اتّصل ميداس بطبيبَين على الفور - الدكتور هندريكس لمعالجتك، وأنا لإصلاح طائرتك. وبعد معاينتها تبيّن لي أنّه يمكن إصلاحها، ولكنّ التكلفة سكون باهظة جدًّا.

- وكم ستكلّف؟

- ستكلّف مائتي دولار.

قالت وهي مندهشة لأنّ السعر كان بخسا جدًّا: مائتا دولار؟

- بعملة الذهب يا آنسة تاجارت.

- أوه ...! حسنًا، وأين يمكنني شراء الذهب؟

قال جالت: لا يمكنك شراؤه.

قالت بنبرة من التحدّي: لا، وما المانع؟

- لا يمكنك فعل ذلك وفقًا لقواعد المكان الذي أتيت منه. إنّ قوانينكم تجرّم هذا الأمر.

- وهل قوانينكم أيضًا تجرّم هذا الأمر؟

- لا.

- إذَن هل يمكن أن تبيعني إيّاه. اختر سعر الصرف، وخذ أيّ مقابل تريده من أموالي.

- أيّ مال؟ أنت مفلسة يا آنسة تاجارت.

- ماذا؟

كانت كلمةً لا يمكن لوريثة تاجارت أن تتوقّع سماعها.

- أنت مفلسة في هذا الوادي. أنت تملكين ملايين الدولارات في أسهم شركة تاجارت العابرة للقارّات، لكنّها لن تستطيع شراء رطلٍ واحدٍ من لحم الخنزير المقدّد من مزرعة خنازير ساندرز.

- فهمت.

ابتسم جالت والتفت إلى ساندرز: انطلق وأصلح تلك الطائرة. وستدفع الآنسة تاجرت الثمن في نهاية المطاف.

أدار جالت مفتاح التشغيل وقاد سيّارته، بينما جلست داغني باستقامة، من دون أن تطرح أيّ سؤال.

شقّ امتدادٌ من اللون الأزرق الفيروزيّ العنيف المنحدراتِ أمامهما، ممّا أنهى الطريق. واستغرق الأمر منها ثانيةً لتدرك أنّ ذلك المكان بحيرةٌ. وبدا أنّ الماء غير المتحرّك يعكس بكثافةٍ زرقةَ السماء وخضرةَ الجبال المغطّاة بالصنوبر إلى لونٍ نقيّ ببراعةٍ حتّى إنّه يجعل السماء تبدو رماديّة باهتة شاحبة. ثمّ تلاه خطّ من الزبد المغلّى بين الصنوبر وسقط على الدرجات الصخريّة ليختفي في الماء الهادئ. وكان هناك هيكل من الجرانيت الصغير بجوار التيّار.

أوقف جالت السيّارة تمامًا بينما خرج رجل أجشّ يرتدي ملابس العمل إلى عتبة المدخل المفتوح. إنّه السيّد ديك ماكنمارا، الذي كان أحد أفضل مقاوليها.

قال بسرور: طاب نهارك يا آنسة تاجارت! أنا سعيد لأنّك لم تتأذّي بشدّة.

فمالت برأسها في تلميح إلى تحيّة صامتة، كانت بمثابة تحيّة خسارة رافقها ألم الماضي، فذكّرتها بتلك الأمسية المقفرة والوجه اليائس لإيدي ويلرز الذي حدّثها بخبر اختفاء ذلك الرجل. لقد حزّ في نفسها كثيرًا سماع ذلك الخبر. فقالت في نفسها لقد تألّمت بحدّة.. لقد تألّمت فعلًا، أكثر من الألم الجسديّ الذي رافق تحطّم الطائرة في ذلك المساء، وفي ذلك المكتب الفارغ ...فسألته بصوت عالٍ: ماذا تفعل هنا؟ وما الذي جعلك تخونني وأنا أمرّ بأصعب الظروف؟

فابتسم، وأشار إلى الهيكل الحجريّ وإلى الأسفل في الصخور المتهاوية حيث اختفى أنبوب الماء الرئيسيّ في الشجيرات وقال: أنا رجل المرافق العامّة هنا. أنا من يعتني بخطوط إمدادات المياه وخطوط الكهرباء وخدمات الهاتف.

- وحدَك؟

- لقد اعتدت أن أعمل وحدي. لكنّ أشغالي هنا تطوّرت كثيرًا في العام الماضي إلى درجة أنّني اضطررت إلى توظيف ثلاثة رجال لمساعدتي.

- أيّ رجال؟ ومن أين؟

- حسنًا، الأوّل أستاذ في العلوم الاقتصاديّة لم يتمكّن من الحصول على وظيفة في الخارج، لأنّه كان يعلّم الناس أنّ المرء لا يمكنه استهلاك أكثر ممّا ينتجه، والثاني أستاذ في التاريخ لم يتمكّن من الحصول على وظيفة لأنّه كان يعلّمهم أنّ سكّان الأحياء الشعبيّة الفقيرة ليسوا من يصنع تاريخ هذا البلد، والثالث أستاذ في علم النفس لم يتمكّن من الحصول على وظيفة لأنّه كان يعلّم الناس أنّ البشر قادرون على التفكير.

- وهل يعملون معك بوصفهم سبّاكين وعمّال أسلاك؟

- سوف تتفاجئين بمدى براعتهم في إتقان ذلك.

- ولمن تركوا جامعاتنا؟

- قال وهو يقهقه: لأولئك المطلوبين هناك. وكم دامت خيانتي لك يا آنسة تاجرت؟ لم يستغرق الأمر أكثر من ثلاث سنوات، أليس كذلك؟ لقد رفضت بناء خطّ جون جالت. فأين وصل خطّك الآن؟ لكنّ خطوطي نَمَت بسرعة في ذلك الوقت، بالمقارنة مع الأميال التي بناها موليغان عندما تولّيت المسؤوليّة، لقد نَمَت إلى مئات الأميال من الأنابيب والأسلاك، وكلّ ذلك في مساحة هذا الوادي.

رأى نظرة الحماس السريعة اللّاإرادية على وجهها، نظرة تقدير الشخص المختصّ؛ فابتسم ونظر إلى رفيقها وقال بهدوءٍ: كما تعلمين يا آنسة تاجارت، عندما يتعلّق الأمر بخطّ جون جالت.. لعلّي أنا مَن تابعته وأنت مَن خانه.

ثمّ ألقت نظرةً خاطفة على جالت. كان يراقب وجهها، لكنّها لم تستطع قراءة أيّ ملامح في وجهه.

وأثناء سيرهما على طول حافّة البحيرة، سألته: لقد حدّدت هذا الطريق عمدًا، أليس كذلك؟ أنت تريني جميع الرجال الذين...

ثمّ توقّفت عن الكلام، لأنّها شعرت بتردّد في تفسير الأمر، فقالت بدلًا من ذلك:

الذين فقدتهم؟

أجابها بحزم: أنا أريك جميع الرجال الذين سلبتك إيّاهم.

فقالت في نفسها هذا هو أصل براءة وجهه: لقد خمّن وتفوّه بالكلمات التي أرادت تجنّبها، ورفض حسن النيّة التي لا تستند إلى قيمه... ها هو يتباهى بما كانت تنوي اتّهامه به.

ثمّ رأت أمامهما رصيفًا خشبيًّا بارزا في مياه البحيرة. ورأت شابّة ممدّدة على الألواح التي غمرتها أشعّة الشمس، تراقب صنّارة صيد. وعندما تنبّهت إلى هدير محرّك السيّارة، قفزت بقدميها في حركة سريعة، رافقها تحرّك سريع لظلّها، فركضت باتّجاه الطريق. كانت ترتدي بنطلونا ملفوفًا فوق ركبتيها العاريتين، وكان شعرها داكنًا ومجعّدًا وعيناها كبيرتين. فلوّح لها جالت بيده.

خاطبته: أهلا جون! متى وصلت؟

أجابها مبتسما وهو يقود سيّارته: هذا الصباح.

فأمالت داغني رأسها بتشنّجٍ للنظر إلى الوراء، وظلّت تدقّق في النظرة التي كانت الشابّة تراقب بها جالت. وعلى الرغم من أنّ تلك النظرة شابَتْها معاني اليأس، الذي قُبِلَ بهدوءٍ، فإنّها تنبّهت إلى وجود شيء من العبادة فيها، إذ أحسّت بشعور لم تكن تعرفه من قبل: طعنة الغيرة.

سألته: من تكون هذه المرأة.

– إنّها أفضل بائعة للسمك لدينا. وهي توفّر الأسماك لمتجر بقالة هاموند.

– وهل تقوم بمهامّ أخرى؟

– مثلما لاحظت، لكلّ واحدٍ منّا «مهامّ أخرى» هنا، فهي كاتبة أيضًا من نوع الكتّاب الذين لم ينشروا في الخارج. وهي تعتقد أنّ المرء عندما يتعامل مع الكلمات فهو يتعامل مع العقل.

ثمّ انتقلت السيّارة إلى مسارٍ ضيّقٍ، غزته الخمائل البرّيّة وأشجار الصنوبر، فتسلّقته بشكل حادٍّ. كانت تعرف ما يمكن توقّعه عندما رأت لافتةً مصنوعةً يدويًّا مُسَمَّرَة على شجرة، بسهم يشير إلى الطريق: ممرّ بوينا إسبيرانزا.

لم يكن ممرًّا، بل جدارًا من الصخور المصفّحة بسلسلة معقدّة من الأنابيب والمضخّات والصمّامات التي تتسلّق مثل كرمة فوق حوافّها الضيّقة، ولكنّها تحمل بقمّتها علامةً خشبيّة ضخمة، وبحروفٍ كُتِبَت بعنف فاخر تعلن فحواها عن تشابكٍ لا يمكن عبوره من السرخس وفروع الصنوبر، أكثر خصوصيّة وأكثر دلالةً من الكلمات: إنّها حقول وايت للنفط.

كان النفط يتدفّق في منحنى متلألئ من فم الأنبوب إلى الخزّان عند سفح الجدار، باعتباره الاعتراف الوحيد للصراع السّرّيّ الهائل داخل الحجر، وباعتباره أيضًا الغرض غير المزعزع لجميع الآلات المعقّدة، ولكن لم تشبه الآلة منشآت روافع النفط، فعلمت داغني أنّها بصدد النظر إلى السرّ الذي لم يولد بعدُ لممرّ بوينا إسبيرانزا، وعلمت أيضًا أنّ ذلك النفط سُحِب من الصخر الزيتيّ بواسطة بعض الطرق التي اعتبرها الرجال مستحيلةً.

لقد وقف إليس وايت بأعلى سلسلة من التلال، يراقب القرص الزجاجيّ لمقياس مضمَّن في الصخرة. ثمّ شاهد السيّارة تتوقّف في الأسفل، فقال: مرحبًا داغني! سأكون معك خلال دقيقة!

وكان هناك رجلان آخران يعملان معه: أحدهما خشن ذو عضلات مفتولة، كان يعمل بالمضخّة في منتصف الطريق إلى أعلى الجدار، والآخر شابّ صغير يقف بجانب صهريج مثبّت على الأرض. كان لدى الصبيّ شعر أشقر ووجهٌ في شكله نقاءٌ غير عاديّ. فشعرت داغني باليقين من أنّها تعرف ذلك الوجه، لكنّها لم تتذكّر أين رأته. وألقى الصبيّ نظرة محيّرة، ثمّ ابتسم ابتسامة عريضة وكأنّه يساعدها في التعرّف عليه، ثمّ أطلق صفيرًا هادئًا، يكاد يكون غير مسموع، للنوتات الأولى من كونشرتو هالي

الخامس. لقد كان عامل المكابح الشابّ في القطار المذنّب.

قالت بعد أن ضحكت: لقد كان الكونشيرتو الخامس لريتشارد هالي، أليس كذلك؟

أجابها: بالتأكيد، ولكن هل تعتقدين أنّني سأنشد ذلك لأيّ فاسق؟

- ماذا؟

سأله إليس وايت وهو يقترب: ولماذا أدفع لك أجرتك؟

ضحك الشابّ، وتراجع إلى الخلف للاستيلاء على رافعة تخلّى عنها للحظة: لم تستطع الآنسة تاجرت طردك، أمّا أنا فأستطيع فعل ذلك متى أخطأت في عملك.

قال الصبيّ: يا آنسة تاجرت، ذاك أحد الأسباب التي دفعتني إلى ترك السكّة الحديدية.

قال وايت: هل تعلمين أنّني سرقته منك؟ لقد اعتاد أن يكون من بين أفضل رجال المكابح، وهو الآن أفضل قرد للشحوم لديّ، لكن لا أحد منّا سيحتجزه بشكل دائم.

- ومن يكون لكي يحظى بكلّ هذه الأهمّيّة؟

- إنّه يحفظ موسيقى ريتشارد هالي. بل هو أفضل تلميذ لهالي.

قالت وهي تبتسم: أعرف أنّ هذا هو المكان الذي لا يستخدم فيه المرء سوى الأرستقراطيّين لأصغر أنواع الوظائف.

ردّ وايت: إنّهم جميعًا أرستقراطيّون... هذا صحيح، فهم يعرفون أنّه لا يوجد شيء اسمه وظيفة رديئة، بل توجد الرداءة فقط بين البشر الذين لا يهتمّون بالعمل.

وكان الرجل الخشن يراقبها من فوق ويستمع بفضول. فنظرت إليه، وبدا وكأنّه سائق شاحنة، فسألته: وماذا كنت تعمل في الخارج؟ ربّما كنت أستاذًا في فقه اللغة المقارن؟

أجابها: لا يا سيّدتي، كنت سائق شاحنة. لكن هذا ليس ما أردت أن أواصل العمل

فيه.

وكان إليس وايت ينظر إلى المكان من حولهما بنوع من الفخر الشبابيّ الذي يتوق إلى الاعتراف. كان يشبه فخر المضيّف في حفل استقبال رسميّ بقاعة الاستقبال، وحماس فنّان أثناء افتتاح عرضه في رواق للفنون. فابتسمت وسألته وهي تشير إلى الآلات: وهل هذا النفط مُسْتَخْرَجٌ من الصخر الزيتيّ؟

- طبعًا.

- وهل هذه هي العمليّة التي كنت تعمل على تطويرها أثناء وجودك على الأرض؟

قال وهو يضحك: تقصدين عندما كنت في الجحيم... نعم. أنا على الأرض الآن.

- وكم تنتج؟

- أنتج مائتي برميل في اليوم.

فعادت ملاحظة الحزن إلى صوتها: إنّها العمليّة التي كنت تنوي من خلالها ملء خمسة صهاريج بقطارات الشحن يوميًّا.

فقال بجدّية، مشيرًا إلى خزّانه: يا داغني، إنّ غالونًا واحدًا منه يستحقّ أكثر من مجرّد قطار موجود في الجحيم، لأنّ هذا ملكي، كلّه لي، بكلّ قطرة منه، لن أنفق منه على شيء سوى نفسي.

ثمّ رفع يده الملطّخة، وعرض البقع الدهنيّة كما يعرض المرء كنزًا، فأومضت قطرة سوداء بطرف إصبعه مثل جوهرة في الشمس. فقال: إنّها لي. هل سمحت لهم بضربك حتّى ينسوك ما تعنيه هذه الكلمة، وما تشعرك به؟ يجب أن تمنحي نفسك فرصة لإعادة إدراكها.

ردّت بكآبة: أنت مختبئ في حفرة بالبرّيّة، وتنتج مائتي برميل من النفط، في حين كان بإمكانك إغراق العالم به.

- وما الغاية من فعل ذلك؟ هل لإطعام اللصوص؟

- لا! بل لكسب الثروة التي تستحقّها.

- لكنّني الآن أغنى ممّا كنت عليه في العالم. وما قيمة الثروة إن لم تكن من بين الوسائل التي تحقّق رفاهية المرء؟ توجد طريقتان لتحقيق ذلك: إمّا عبر إنتاج المزيد أو من خلال الإنتاج بشكل أسرع. وهذا ما أفعله: فأنا أمثّل عصر التصنيع.

- وماذا تعني بذلك؟

- إنّني أنتج كلّ ما أحتاج إليه، وأعمل على تحسين أساليبي، وكلّ ساعة أحفظها تضيف ساعة إلى حياتي. كان ملء هذا الخزّان يستغرق منّي خمس ساعات. وهو يستغرق الآن ثلاث ساعات فقط، والساعتان اللتان وفّرتهما هما لي، كما لو أنّني نقلت قبري على بعد ساعتين عن كلّ خمس ساعات كنت أسرفها. لقد أُفْرِجَ عن ساعتين في هذه المهمّة، لاستثمارهما في مهمّة أخرى، ساعتان إضافيّتان للعمل والنموّ والتقدّم. هذا هو حساب التوفير الذي أكسبه. فهل هناك أيّ نوع من خزائن الأمان التي يمكن أن تحمي هذا الحساب في العالم الخارجيّ؟

- ولكن ما هي مساحة التقدّم المتاحة لك؟ وما هي سوقك؟

ضحك وأخذ يقهقه وقال: سوق؟ أنا أعمل الآن من أجل الاستخدام، ولا أعمل من أجل الربح، أعمل من أجل استخدامي الخاصّ، وليس من أجل ربح اللصوص. وحدَهم أولئك الذين يضيفون إلى حياتي، وليس أولئك الذين يلتهمونها، هم سوقي. وحدهم أولئك الذين ينتجون، وليس أولئك الذين يستهلكون، يمكن أن يكونوا سوق أيّ شخص. فأنا أتعامل مع واهبي الحياة، وليس مع أكلة لحوم البشر. وإذا كان نفطي يستغرق جهدًا أقلّ لإنتاجه، فأنا أطلب أقلّ من الناس الذين أبيعهم إيّاه مقابل الأشياء التي أحتاج إليها، لأزيد فترة زمنيّة إضافيّة إلى حياتهم مع كلّ جالون من النفط الذي سيحرقونه. وبما أنّهم بشر مثلي، فإنّهم يواصلون اختراع طرق أسرع لصنع الأشياء التي يبتكرونها. وعلى هذا النحو يمنحني كلّ واحد منهم دقيقة أو ساعة أو

يومًا إضافيًّا مع الخبز الذي أشتريه منهم، والملابس والخشب، والمعادن.

ثمّ ألقى نظرة خاطفة على جالت، وأضاف: وسنة إضافيّة مع كلّ شهر من الكهرباء التي أشتريها. هذه هي سوقنا وهذه هي الطريقة الناجحة بالنسبة إلينا، ولكنّها لم تكن الطريقة الناجحة في العالم الخارجيّ. فأيّ بالوعة كانت تستنزف أيّامنا وحياتنا وطاقتنا هناك؟ وأيّ مجارٍ بلا نهاية أو مستقبل صُرِفَت من غير مقابل؟ هنا، نتاجر بالإنجازات، ولا نتاجر بالفشل، بالقيم وليس بالاحتياجات. نحن متحرّرون بعضنا من بعض، ولكنّنا ننمو معًا. فما هي الثروة يا داغني؟ وأيّ ثروة أعظم من تلك التي تجعلك تمتلكين حياتك وتنفقينها على النموّ؟ كلّ شيء حيّ يجب أن ينمو، ولا يمكن أن يقف ساكنًا، ويجب أن ينمو أو يهلك. انظري...

أشار إلى نبات يناضل للنموّ إلى أعلى من تحت ثقل صخرة، جذع طويل مشدود، محاط بنضال غير طبيعيّ، في تدلٍّ، وبقايا أوراق صفراء غير مشوّهة، وبرعم أخضر واحد ينطلق إلى أعلى نحو الشمس بجهد مستنفد: هذا ما يفعلونه بنا هناك في الجحيم. هل تراني أستسلم لمثل ذلك الفعل؟

همست: لا.

- قال وهو يشير إلى جالت: وهل تجدينه مستسلمًا؟

- يا إلهي، طبعًا لا!

- إذن لا تندهشي أثناء رؤية أيّ شيء تقع عليه عينُك في هذا الوادي.

وظلّت صامتة حين استقلّا السيّارة وواصلا مسيرهما. ولم يقل جالت شيئا أيضًا.

ثمّ شاهدت على سفح جبل بعيدٍ، في المنطقة الخضراء الكثيفة من الغابة، شجرةَ الصنوبر تنحدر فجأةً، وتتبع منحنى مثل عقرب الساعة، ثمّ تتحطّم فجأة بعيدًا عن الأنظار. لقد علمت أنّها حركة من صنع الإنسان.

سألته: ومن هو الحطاب هنا؟

- تيد نيلسن.

ثمّ أصبحت الطريق مُريحةً في منحنيات أوسع ودرجات أكثر رقّة، بين الأشكال الأكثر نعومة من سفوح التلال. فرأت داغني منحدرًا بلون الصدإ البنّيّ تشوبه بقعٌ مربّعة بخضرة لا مثيل لها، خضرة داكنة لنباتات البطاطس، وخضرة أخرى فضّيّة شاحبة لنبات الكرنب الملفوف. ورجل يرتدي قميصًا أحمر، كان يمتطي جرّارًا صغيرًا يجزّ الأعشاب.

سألته داغني: ومن هو زعيم زراعة الملفوف هنا؟

- إنّه روجرمارش.

فأغلقت عينيها وتذكّرت الأعشاب التي كانت تتسلّق درجات ذلك المصنع المغلق، فوق واجهة البلاط اللّامعة، على بعد بضع مئات الأميال، خلف الجبال.

لقد كانت الطريق تنزل إلى قاع الوادي. فرأت أسطح البلدة في الأسفل مباشرةً، ولاحظت وجود نقطةِ علامةِ الدولار الصغيرةَ اللّامعةَ، على بعد المسافة في الطرف الآخر. ثمّ أوقف جالت السيّارة أمام المبنى الأوّل على حافّةٍ فوق الأسطح، وهو مبنى من الآجرّ بمسحة باهتة من الحمرة تنفث برعشة فوق مدخنته. ولم تكد تُصدَم عند رؤية علامة منطقيّة جدًّا مثل مسبك ستوكتون مثبّتة فوق بابه.

فعندما كانت تمشي متّكئةً على عكّازها، وهي تبتعد عن أشعّة الشمس لتغمرها كآبة رطوبة المبنى، شعرت بالصدمة لا لأنّها تحسّ بأنّها تحيا في غير زمانها فحسب، بل لأنّها تحسّ بالغربة والحنين إلى الوطن أيضًا. لقد كان ذلك هو الشرق الصناعيّ الذي بدا في الساعات القليلة الماضية أنّه يقع خلفها بقرون. إنّه المشهد القديم، والمألوف، والمحبوب لموجة الحمرة المرتفعة في العوارض الفولاذيّة، والشرر الذي تطلقه صوب أشعّة الشمس من مصادر غير مرئيّة، من اللهب المفاجئ الذي يتخلّل الضباب الأسود، من قوالب الرمال المتوهّجة بالمعدن الأبيض. لقد أخفى الضباب جدران الهيكل، وأذاب حجمه. وللحظة، شاهدت أمامها ذلك المسبك العظيم الميّت في مصنع

ستوكتون، في ولاية كولورادو. لقد كان مصنع نيلسن للمحرّكات... وكان الصلب هو معدن ريردن.

- مرحبًا يا داغني!

كان الوجه المبتسم الذي اقترب منها من خلال الضباب هو أندرو ستوكتون، ثمّ رأت يدًا متّسخة ممدودةً إليها بإيماءة فخرٍ وثقةٍ، كما لو أنّها تمسك بكلّ رؤيتها أثناء تلك اللحظة في راحة يدها.

فتشابكت الأيادي وردّت داغني بهدوء: مرحبًا، من دون أن تعرف ما إذا كانت تلقي تحيّة على الماضي أم على المستقبل. ثمّ هزت رأسها وأضافت: كيف لا تزرع البطاطس أو تصنع الأحذية هنا؟ لقد حافظت بالفعل على مهنتك القديمة.

- أوه، إنّ كَالْفِن أتوود صاحب شركة أتوود للنور والطاقة في مدينة نيويورك يصنع الأحذية. إلى جانب ذلك، فإنّ مهنتي هي إحدى أقدم المهن وأكثرها أهمّيّة في أيّ مكان من العالم. ومع ذلك، فإنّه يتوجّب عليّ أن أحارب من أجلها. ويجب عليّ أوّلًا أن أدمّر منافسًا لي.

- ماذا؟

فابتسم وأشار إلى باب زجاجيّ من غرفة مغمورة بالشمس. وقال: هناك يوجد منافسي المدمّر.

فرأت داغني شابًّا منحنيًا على طاولة طويلة، يعمل على نموذج معقّدٍ لقالب رأسٍ للحفر. كان يملك يدين نحيلتين وقويّتين لعازف بيانو بإحدى الحفلات الموسيقيّة، ووجه قاتم لطبيب جرّاح وهو يركّز على مهمّته الدقيقة.

قال ستوكتون: إنّه نحّات. وعندما جئت إلى هنا كان يملك، هو وشريكه، نوعًا من أنواع الورشات التي تمزج بين الحدادة والإصلاح. ففتحت مسبكًا حقيقيًّا واستحوذت على جميع عملائهما. ولم يتمكّن الصبيّ من أداء العمل الذي قمت به، لقد

كان مجرّد عملٍ بدوامٍ جزئيّ، على أيّة حال، النحت هو عمله الحقيقيّ، لذلك قرّر العمل معي. إنّه يكسب المزيد من المال الآن، وفي ساعات أقصر، أكثر ممّا كان يكسبه في مسبكه. وكان شريكه عالم كيمياء، لذلك تحوّل إلى الزراعة وأنتج سمادًا كيميائيًّا ضاعف بعض المحاصيل هنا، هل ذكرت لي البطاطس؟ إنّه سماد مفيد للبطاطس على وجه الخصوص.

- لكن... هل يمكن لشخص مّا أن يوقفك أيضًا عن العمل؟

- بالتأكيد. وفي أيّ وقت. أعرف رجلًا يمكنه فعل ذلك، وربّما سيفعل عندما يصل إلى هنا. ولكن يا فتاة!.. لو قدم ذلك الرجل إلى هنا سأعمل عنده منظّفًا للرماد. إنّه سينطلق عبر هذا الوادي مثل الصاروخ. وسيضاعف إنتاج الجميع ثلاث مرّات.

- عمّن تتحدّث؟

- هانك ريردن.

همست: نعم.. نعم.. بالتأكيد!

وتساءلت عمّا جعلها تسرع إلى قول ذلك بكلّ تأكيدٍ. لقد شعرت، في الآن نفسه، أنّ وجود هانك ريردن في ذلك الوادي أمرٌ مستحيلٌ، وأنّ ذلك كان مكانه، بل ومكانه المميّز. إنّه بمثابة مكان شبابه، ومكان بدايته، بالإضافة إلى أنّه المكان المناسب الذي كان يبحث عنه طوال حياته، تلك الأرض التي كافح من أجل الوصول إليها، وكذا هدف معركته المعذّبة... وبدا لها أنّ لوالب الضباب الملتهب تشعل الوقت في دائرة غريبة، بينما خطرت ببالها فكرة عبرت خيالها مثل دفق جملة غير مكتملة: حمل شابّ لا يتغيّر ليصل، في النهاية، إلى الرؤية التي بدأ بها أحدهم.. وسمعت صوت الصعلوك أثناء العشاء وهو يقول: لقد وجد جون جالت نافورة الشباب التي أراد جلبها للناس. لكنّه لم يعد...لأنّه أدرك أنّه لا يستطيع جلبها.

ثمّ صعدت مجموعة من الشرر في عمق الضباب، فرأت الظهر العريض لرئيس العمّال الذي أدّت ذراعُه إيماءةً كاسحةً للإشارة والتوجيه إلى إنجاز بعض المهامّ غير

المرئيّة. لقد هزّ رأسه للحصول على أمرٍ، فالتقطت لمحةً من مظهره، فكتمت أنفاسها. فرآه ستوكتون فضحك وناداه من خلال الضباب:

- مرحبًا يا كين! تعالَ إلى هنا لتقابل أحد أصدقائك القدامى.

فنظرت داغني إلى كين داناغر وهو يقترب منهما. كان ذلك الرجل الصناعيّ العظيم، الذي حاولت يائسةً تثبيته بمكتبه، يرتدي ثيابًا ملطّخة.

- مرحبًا يا آنسة تاجرت. لقد أخبرتك بأنّنا سنلتقي قريبًا مرّة أخرى.

فانخفض رأسها كما لو أنّه تعبير عن الموافقة والتحيّة، ولكنّ يدها ظلّت تمسك عكّازها بشدّة، للحظة، بينما وقفت تسترجع آخر لقاء بينهما: وتذكّرت ساعة الانتظار المعذّبة، ثمّ رؤية ذلك الوجه اللطيف البعيد بجانب المكتب وصرير غلق الباب الزجاجيّ خلف شخصٍ غريبٍ.

لقد كانت لحظة وجيزة جدًّا إلى درجة أنّ الرجلين أمامها اعتبراها تحيّةً لهما، ولكنّها بمجرّد رفع رأسها وقعت عينها على جون جالت، فرأته ينظر إليها كما لو أنّه يعرف ما تشعر به. لقد جعلته يدرك في ملامح وجهها استنتاجًا بأنّه هو الذي خرج من مكتب داناغر في ذلك اليوم. لكنّ ملامح وجهه لم تعطها أيّ إشارة إلى جوابٍ: لقد كانت بمثابة نظرة من الاحترام الشديد جعلت الرجل يدرك أنّ الحقيقة هي الحقيقة.

قالت لداناغر برقّةٍ: لم أكن أتوقّع ذلك. أنا لم أتوقّع أن أراك مجدّدًا.

وكان داناغر يراقبها كما لو أنّها طفلة واعدة اكتشفها ذات مرّة وهو الآن يستمتع بمشاهدتها ثانيةً فقال: أعرف. لكن لماذا أنت مصدومة؟

قالت وهي تشير إلى ملابسه: أنا ... أوه، إنّه مجرّد أمرٍ منافٍ للعقل!

- وما الخطأ في ذلك؟

- هل هذه هي نهاية طريقك؟

- قطعًا لا! إنّها البداية.

- وما الذي تهدف إليه؟

- استخراج المعادن. ولكن لم أعد أهتمّ باستخراج الفحم، بل أستخرج الحديد.

- أين؟

قال وهو يشير إلى الجبال: تمامًا هنا. فهل بلغك أنّ ميداس موليغان يستثمر على نحو سيّئ جدًّا؟ ستندهشين ممّا يمكن للمرء أن يجده في هذا الامتداد الصخريّ، إذا كان يعرف كيف ينظر إلى الأشياء. وهذا ما كنت أفعله... انظري.

- وماذا إن لم تجد أيّ خام للحديد؟

قال: هناك أشياء أخرى يجب القيام بها. لطالما كنت أعاني من نفاد الوقت في حياتي، ولم أفكّر قطّ في استخدامه لصالحي.

نظرت داغني إلى ستوكتون بفضول وقالت: وهل أنت بصدد تدريب رجل يمكن أن يصبح أخطر منافسٍ لك؟

- هذا هو النوع الوحيد من الرجال الذين أحبّ توظيفهم. ألم تعيشي طويلًا بين اللصوص يا داغني؟ فهل فكّرت في أنّ قدرة الإنسان قد تشكّل تهديدًا لإنسان آخر؟

- أوه لا! لكنّي ظننت أنّه لم يبق من البشر من يفكّر على ذلك النحو سواي.

- إنّ أيّ شخص يخاف توظيف أفضل قدرة يمكنه العثور عليها هو غشّاش ويعمل في نشاط تجاريّ لا ينتمي إليه. فصاحب العمل الذي يرفض الناس لكونهم جيّدين جدًّا هو أقبح رجل على وجه الأرض، بل وأشدّ من المجرمين إثارةً للازدراء. هذا ما كنت أعتقده دائمًا، لكن قولي لي ما المضحك في الأمر؟

كانت تستمع إليه بابتسامة متلهّفة لا تصدّق. فقالت: من المذهل أن أسمعك تقول هذا، لأنّ كلامك في غاية الصحّة!

- وماذا يمكن للمرء أن يقول أكثر من ذلك؟

ضحكت بهدوء وردّت: كما تعلم، عندما كنت طفلة، توقّعت أن يؤمن كلّ رجال الأعمال بهذا الأمر.

- وماذا تغيّر منذ ذلك الحين؟

- منذ ذلك الحين تعلّمت ألّا أتوقّع هذا.

- لكن هذا صحيح، أليس كذلك؟

- لقد تعلّمت ألّا أتوقع الحقّ من الناس.

- ولكنّه أمر أقرب إلى العقل، أليس كذلك؟

- لقد تخلّيت عن توقّع وجود العقل.

قال كين داناغر: هذا ما يجب على المرء ألّا يتخلّى عنه أبدًا.

ثمّ عادا إلى السيّارة وانطلقا في النزول عبر منحنيات الطريق الأخيرة، وحين نظرت إلى جالت التفت إليها في الحال، كما لو أنّه كان يتوقّع حركتها. فسألته:

- لقد كنت في مكتب داناغر ذلك اليوم، أليس كذا؟

- نعم.

- وهل تعلم أنّني كنت أنتظره في الخارج؟

- نعم.

- وهل تعلم كيف كان الانتظار صعبًا خلف الباب المغلق؟

لم تستطع تحديد طبيعة النظرة التي ألقاها عليها. إذ لم تكن نظرة شفقة، بل نظرة تنمّ عن الإحساس بمعاناة الآخر، ولكنّه لم يبدُ عليه أنّه كان يرى معاناتها.

أجابها بهدوء وبخفّة: أوه نعم.

كان أوّل متجرٍ قابلها بجانب أحد الشوارع في الوادي يشبه مشهدًا مفاجئًا لمسرح مفتوح: لقد كان بمثابة إطار صندوق من دون جدار أماميّ، أنشئ مسرحه بألوان مشرقة للكوميديا الموسيقيّة بمكعّبات حمراء ودوائر خضراء ومثلّثات ذهبيّة، كانت عبارة عن صناديق من الطماطم، وأسطوانات من الخسّ، وأهرامات من البرتقال، وخلفيّة متلألئة بسبب سطوع الشمس في رفوف من الحاويات المعدنيّة. وأعلنت لافتة الاسم المعلّق بالخيمة: سوق بقالة هاموند. كان هناك رجل متميّز، ذو مظهر صارم وصدغَين رماديّين، يزن قطعة زبدة لامرأة شابّة جذّابة وقفت أمام النُّضد، وكانت هيئتها الخفيفة تشبه فتاة عرض بتنّورة فستانها القطنيّ المهتزّة في مهبّ الريح مثل زيّ الرقص. فابتسمت داغني بشكل لاإراديّ، على الرغم من أنّ الرجل هو لورانس هاموند.

كانت المتاجر عبارة عن هياكل صغيرة مكوّنة من طابقٍ واحدٍ، وعندما تجاوزاها، التقطت أسماء مألوفة على لافتاتها، مثل العناوين على صفحات كتاب تتصفّحه حركة السيّارة: متجر موليغان العامّ – متجر أتوود للجلود – شركة نيلسن للأخشاب– ثمّ برزت علامة الدولار فوق باب مصنع مبنيّ بالآجرّ الصغير نقش عليه: شركة موليغان للتبغ. فسألته:

– من يملك الشركة التي تقع إلى جانب مصنع ميداس موليغان؟

أجابها: إنّها في ملكيّة الدكتور أكستون.

كان هناك عدد قليل من المارّة، من بينهم بعض الرجال، وعدد أقلّ من النساء، يسيرون بسرعة هادفة، كما لو أنّهم مُلزَمُون بمهمّات معيّنة. توقّفوا واحدًا تلو آخر عند رؤية السيّارة، ولوّحوا إلى جالت، ونظروا إليها بفضول اعترافٍ غير رسميٍّ. فسألته:

– هل كانوا يتوقّعون مجيئي إلى هنا منذ فترة طويلة؟

أجابها: إنّهم ما زالوا ينتظرونك.

ثمّ رأت داغني على حافّة الطريق هيكلًا مصنوعًا من صفائح زجاجيّة يضمّها معًا

إطارٌ خشبيٌّ، ولكن للحظة بدا لها أنّها مجرّد إطار لرسم امرأة، امرأة طويلة رقيقة ذات شعر أشقر باهت ووجه ذي جمال يحجبه بعد المسافة، كما لو أنّ الفنّان الذي رسمه يلمّح إليه فقط من دون أن يجعله حقيقيًّا. وفي اللحظة الموالية، حرّكت المرأة رأسها، فأدركت داغني أنّ هناك أشخاصًا حول الطاولات داخل المبنى، وأنّ المكان هو كافتيريا، وأنّ المرأة التي تقف خلف المنضدة هي كاي لودلو، نجمة الأفلام، التي لا يمكن نسيانها أبدًا بمجرّد رؤيتها، تلك النجمة التي تقاعدت واختفت قبل خمس سنوات، لتحلّ محلّها فتياتٌ بأسماء لا يمكن تمييزها ووجوه أخرى قابلة للتبديل. لكن في صدمة الإدراك، فكّرت داغني بنوع الأفلام التي كانت تنتج في عهدها، ثمّ شعرت بأنّ الكافتيريا الزجاجيّة تكشف جمال كاي لودلو بشكل أوضح من دورها في صورةٍ تمجّد الشائع لعدم امتلاك أيّ مجدٍ.

وكان المبنى الذي تلا تلك الكافيتيريا عبارةً عن كتلة صغيرة من الجرانيت الخام المتينة والصلبة والمبنيّة بدقّة، وكانت خطوط شكله المستطيل دقيقة جدًّا مثل ثنايا الثوب الرسميّ، لكنّها رأت خطًّا طويلًا لناطحة سحاب ترتفع في لفائف ضباب شيكاغو، تلك الناطحة التي حملت في السابق العلامة التي تشاهدها الآن مكتوبة بأحرف ذهبيّة فوق باب متواضع من خشب الصنوبر: إنّها بنك موليغان.

لقد أبطأ جالت بالسيّارة أثناء مرورها أمام البنك، كما لو أنّها كانت تشدّد الحركة الخاصّة لبعض الحروف المائلة.

ثم تلا البنكَ بناءٌ صغير من الطوب، يحمل علامةً كتب عليها: دار موليغان لسكّ العملة. فسألت داغني جالت:

- دار السكّة؟ وما علاقة موليغان بسكّ العملات؟

مدّ جالت يده إلى جيبه فأخرج منه عملتين صغيرتين أسقطهما في راحة يدها. كانتا عبارة عن قرصين مصغّرين من الذهب اللّامع، أصغر من البنسات، من النوع الذي لم يكن متداولًا منذ أيّام نات تاجارت؛ لقد حملا رأس تمثال الحرّيّة من جهة، وعبارة:

الولايات المتحدّة الأمريكيّة - دولار واحد، من جهة أخرى، لكنّ التواريخ التي طُبعت عليهما كانت تعود إلى العامين الماضيين.

قال: هذه هي العملة التي نستخدمها هنا. لقد سكّها ميداس موليغان.

- لكن...بناءً على سلطة مَن؟

- هذا الأمور مذكورة في وجهَي العملة.

- وماذا تستخدمون كنقود للصرف؟

- لقد سكّ موليغان ذلك أيضا، إنّها عملة من الفضّة. نحن لا نقبل أيّ عملة أخرى في هذا الوادي. ولا نقبل بأيّ شيء سوى القيم الموضوعيّة.

فأخذت داغني تدرس القطع النقديّة ثمّ قالت: يبدو الأمر... وكأنّه الإطلالة الأولى لصباح عصر أجدادي.

قال جالت وهو يشير إلى الوادي: نعم، أليس كذلك؟

فأخذت تنظر إلى القرصين النحيفين، الرقيقين، الخفيفي الوزن في راحة يدها، وهي تعلم أنّ نظام شركة تاجرت العابرة للقارّات بأكمله يعوّل عليها، وأنّ ذلك كان حجر الزاوية الذي يدعم جميع الأحجار الرئيسيّة، وكلّ الأقواس، وجميع عوارض مسار تاجارت، وجسر تاجارت، ومبنى تاجارت... ثم هزّت رأسها وألقت العملات المعدنيّة في يده. وقالت بصوت منخفض:

مكتبة
t.me/soramnqraa

- أنت تصعّب عليه الأمور أكثر.

- بل أجعلها صعبة قدر الإمكان.

- لماذا لا تخبرني بكلّ شيء؟ لماذا لا تخبرني بكلّ الأشياء التي تريديني أن أتعلّمها؟

وأشارت حركة ذراعه إلى البلدة التي تقع بالطريق خلفهما فسألها: وماذا كنت أفعل؟

ثمّ واصلا مسيرهما في صمتٍ. فسألته بعد فترة بلهجة المحقّق: كم تبلغ الثروة التي

جمعها ميداس موليغان في هذا الوادي؟

قال: احكمي بنفسك.

كانت الطريق متعرّجةً عبر مساحات من التربة غير المستوية باتّجاه منازل الوادي. ولم تكن المنازل منتظمةً على طول الشارع، بل انتشرت على مسافات غير منتظمة فوق المرتفعات والأجزاء المجوّفة من الأرض، وكانت صغيرة وبسيطة، مبنيّة من موادّ محلّيّة، معظمها من الجرانيت والصنوبر، ببراعة فكريّة عبقريّة واقتصاد محكم للجهد البدنيّ. لقد بدا كلّ منزل كأنّما أُعِدّ بعمل رجل واحد، ولا وجود لمنزلين متشابهين، فكان عنوان الجودة الوحيد المشترك بينها هو ختم العقل الذي يمسك بالمشكلة وحلّها. وكان جالت يشير إلى أحد المنازل، من حين إلى آخر، باختيار الأسماء التي تعرفها داغني، فبدا لها الأمر مثل قائمة عروض الأسعار في أغنى بورصة في العالم أو مثل نداء لأسماء الشرف: كين داناغر... تيد نيلسن ... لورانس هاموند.. روجر مارش.. إليس وايت.. أوين كيلوج... دكتور أكستون.

كان منزل الدكتور أكستون هو الأخير في القائمة، وهو كوخ صغير بشرفة كبيرة، رُفِعَ على قمّةِ موجةٍ تواجه جدرانَ الجبالِ المرتفعةَ. وكانت الطريق تمرّ من أمامه وتصعد إلى لفائف من الدرجات الصاعدة. ثمّ تقلّص الرصيف إلى مسار ضيّق بين جدارَين من أشجار الصنوبر الكبيرة، وجذوعها الطويلة المستقيمة تضغط عليهما مثل الرواق القاتم، وتلتقي فروعهما أعلاه، فتبتلع المسار وتحوّله إلى ما في الشفق من صمتٍ وظلمة مفاجئة. لم يكن هناك أيّ أثر أو علامات على مرور عجلات فوق الشريط الرفيع من الأرض، وبدا المسلك المعبّد غير مستخدم ومنسيّ. وبمرور بضع دقائق واجتياز بعض المنعطفات القليلة، بدا الأمر وكأنّ السيّارة قد ابتعدت بأميال عن المساكن الآهلة. وبعدها لم يكن هناك ما يكسر ضغط السكون، سوى شعاع نادر من ضوء الشمس يقطع جذوعَ الأشجار في أعماق الغابة من حين إلى آخر.

ثمّ صدمها منظرٌ مفاجئ لمنزلٍ على حافّة المسار مثل صدمة صوت غير متوقّع: لقد

بُني ذلك المنزل في خلوة، منعزلًا عن جميع العلاقات المرتبطة بالوجود البشريّ، فبدا وكأنّه ملجأٌ سرّي يواجه تحدّيًا أو حزنًا عظيمًا. لقد كان المنزل الأكثر تواضعًا في الوادي، وهو عبارة عن كوخ خشبيّ انهالت عليه الخطوط الداكنة من الأمطار المنهمرة، ولم تقاوم فيه العواصف إلّا نوافذه العظيمة بصفائها السلس اللّامع الذي لم يُمَسّ.

- لمن هذا المنزل... أوه!

لقد ضربت بابه أشعّة الشمس، أمّا تصميمه فكان غامضًا وباليًا. وصفعته الرياح على مرّ القرون، وعُلِّق عليه شعار النبالة الفضّيّ لسيباستيان دانكونيا.

وكإجابةٍ متعمّدة على حركة هروب داغني اللّاإرادية، أوقف جالت السيّارة أمام المنزل. وللحظة، تلاقت أعينهما: كانت نظرتها عبارة عن سؤال، أمّا نظرته فعبارة عن أمرٍ. وكان وجهها صريحًا متحدّيًا، أمّا ملامح وجهه فكشفت عن شدّة لم تَبُحْ بأيّ شيءٍ؛ لقد فهمت هدفَه، لكنّها لم تفهم دافعه. فأطاعته وهي تستند على عصاها، وخرجت من السيّارة، ثمّ وقفت منتصبةً، تواجه المنزل.

ونظرت داغني إلى قمّة الفضّة التي جُلِبت من القصر الرخاميّ في إسبانيا إلى كوخ في جبال الأنديز ثمّ إلى مقصورة خشبيّة في كولورادو، وهي قمّة الرجال الذين لم يستسلموا. كان باب الكوخ مقفلًا، ولم تصل الشمس إلى الظلام القاتم وراء النوافذ المصقولة، وكانت أغصان الصنوبر معلَّقة وممدودةً فوق السطح مثل انتشار الأسلحة في الحماية، والرحمة، والبركة المهيبة. ولم يكن هناك أيّ صوت سوى طقطقة غُصَيْنٍ أو خرير قطرات المياه التي تسقط في مكان مّا من الغابة خلال فترات طويلة من الزمن، وبدا أنّ الصمت يحمل كلّ الألم الذي أُخْفِيَ هناك، ولكن لم يُمنَح قَطُّ صوتًا. وقفت داغني، وهي تستمع باحترامٍ لطيفٍ وخاضعٍ: دعينا نَرَ من سيحظى بشرف أكبر، أنت.. وما تمثّلينه لنات تاجارت، أو أنا.. وما أمثّله لسباستيان دانكونيا! ساعديني على البقاء. ساعديني على الرفض. على الرغم من أنّه على حقّ!

ثمّ التفتت لتنظر إلى جالت، وهي تدرك تمامًا أنّه الرجل الذي لا تملك أيّ مساعدة تقدّمها له. لقد جلس وهو يمسك بمقود السيّارة، ولم يتابعها أو يتحرّك لمساعدتها، كما لو أنّه يريدها أن تعترف بالماضي وتحترم خصوصيّة مصافحتها الوحيدة. لاحظت أنّه مازال يجلس كما تركته، ويميل بساعده على عجلة القيادة في الزاوية نفسها، وأصابع يده متدلّية في الوضع المنحوت نفسه. كانت عيناه تراقبانها، لكنّ ذلك هو كلّ ما استطاعت قراءته في ملامح وجهه: كان يراقبنا باهتمام، من دون أن يتحرّك.

وعندما جلست بجانبه مجدّدًا، قال: كان هذا أوّل رجل أخذته منك.

سألته بنبرة صارمة: وماذا تعرف عنه؟

- لا شيء ما عدا ما قاله لي من كلماتٍ. وكلّ ما أَخْبَرَتْنِي به نبرة صوته كلّما تحدّث عنك.

ثمّ ضغط جالت على مفتاح تشغيل السيّارة، وفجّر هديرُ المحرّك القصّةَ المضمّنة في الصمت، واستأنفا مسيرهما.

ثمّ اتّسع المسار قليلًا، وانساب نحو تجمّع لأشعّة الشمس أمامهما. وحين خرجا إلى مساحة خالية، رأت داغني بريقًا خاطفًا من الأسلاك بين أغصان الأشجار. فاكتشفت وجود مبنى صغير خفيّ قبالة منحدر التلّ، على ارتفاع متزايدٍ من الأرض الصخريّة. كان مكعّبًا بسيطًا من الجرانيت، بحجم مخزن للمعدّات، ولم تكن به نوافذ، ولا فتحات من أيّ نوع، فقط باب من الفولاذ المصقول ومجموعة معقّدة من هوائيّات الأسلاك المتفرّعة من السقف. كان جالت يقود سيّارته ويعبر أمامه فتركه من دون أن يبدي أيّ ملاحظة، عندما بادرته داغني بسؤالٍ مفاجئٍ: وما هذا المبنى؟

قال مبتسما: إنّه مركز توليد الطاقة.

- أوه، توقّف من فضلك!

فأطاعها، ورَكَنَ السيّارة عند سفح التلّ. كانت خطواتها الأولى في صعود المنحدر

الصخريّ هي التي أوقفتها، وكأنّه لم تكن ثمّة حاجة إلى المضيّ قدمًا، ولا وجود لأيّ مكان آخر ستصعده، ووقفت كما فعلت لحظةَ فتحت عينَيْها على أرض الوادي، لحظةَ توحّد بدايتها بهدفها.

وقفت تنظر إلى الهيكل، فاستسلم وعيُها لمشهد واحد وعاطفة منفردة بلا كلامٍ، لكنّها كانت تعلم دائمًا أنّ العاطفة حاصلُ ما تجمعه آلةُ العقل، وما شعرت به الآن هو مجموع فوريّ للأفكار التي لم يكن عليها تسميتُها، ذلك المجموع النهائيّ للتقدّم الطويل، مثل صوتٍ يخبرها عن طريق العاطفة: فلو أنّها تمسّكت من قبلُ بكوينتين دانيلز، دون أملٍ في فرصةٍ لاستخدام المحرّك، لمجرّد معرفة أنّ الإنجاز لم يمت على الأرض، ولو أنّها تمسّكت مثل غوّاص مثقل وهو يغرق في محيط من الرداءة، تحت ضغط البشر ذوي العيون الهلاميّة، والأصوات المطّاطيّة، والقناعات الحلزونيّة، والأرواح غير الملزمة والأيدي الملزمة، مثل خطّ حياتها وأنبوب الأكسجين، بفكرة الإنجاز الفائق للعقل البشريّ، ولو صرخ الدكتور ستادلر من أجل شيء، أثناء النظر إلى بقايا المحرّك، بشهيق مفاجئ من الاختناق، كاحتجاج أخير من فساده الذي أكل رئتيه، من دون أن ينظر إلى أسفل، ولكن إلى أعلى، وكانت تلك هي صرخة شوقها ووقتها ووقود حياتها، ولو أنّها تحرّكت، بسبب شبابها المتعطّش للحصول على مشهد من الكفاءة النظيفة والصعبة والإشعاعيّة، لما كان أمامها هنا فعلًا منجزًا وملموسًا، يمثّل قوّة عقلٍ لا مثيل له في شكل شبكة من الأسلاك المتلألئة بسلامٍ تحت سماء الصيف، ممّا يجذب قوّة لا تحصى من الفضاء إلى الداخل السرّيّ لكوخ حجريّ صغيرٍ.

ثمّ أخذت تتخيّل ذلك الهيكل، بنصف حجم عربة شحنٍ، وهو يعوّض محطّات الطاقة في البلاد، والكتل الهائلة من الفولاذ والوقود والجهد. وفكّرت في التيّار المتدفّق من ذلك الهيكل، وهو يرفع الأوقية، والأرطال، والأطنان من الجهد عن أكتاف أولئك الذين يصنعونه أو يستخدمونه، ويضيفون إلى حياتهم ساعاتٍ وأيّامًا وسنواتٍ من الوقت المحرّر، سواء كانت لحظة إضافيّة لرفع رأس المرء من عناء المهمّة وإلقاء نظرة على ضوء الشمس الساطع، أو الحصول على علبة إضافيّة من السجائر تُقْتَنَى بمالٍ يُوَفَّرُ

من فاتورة الكهرباء، أو توفير ساعة من يوم عمل بكلّ مصنع عبر استخدام الطاقة، أو توفير رحلة شهر كامل من خلال عرض مفتوح بالكامل على العالم، على تذكرة مدفوعة ليوم واحدٍ من العمل، أو على قطار تجذبه قوّة ذلك المحرّك، بكلّ طاقة ذلك الوزن، وتلك السلسلة من الأنشطة، وذلك الوقت الذي عُوِّضَ ودُفِع ثمنُه بطاقة عقل واحد كان يدرك كيفيّة جعل اتّصالات الأسلاك تتبع روابط فكره. لكنّ داغني أدركت أنّه لا يوجد معنى داخل المحرّكات أو المصانع أو القطارات، وأنّ معناها الوحيد كامنٌ في تمتّع الإنسان بحياته التي تخدمها مثل تلك الأشياء، وأنّ إعجابها المتضخّم عند رؤية الإنجاز كان بالرجل الذي اخترعه، من أجل ما بداخله من قوّة ورؤية مشرقة اعتبرت الأرض مكانًا للمتعة وعلمت أنّ العمل على تحقيق السعادة هو هدف الحياة والجزاء والمعنى.

كان باب الهيكل عبارةً عن صفيحةٍ مستقيمة وناعمة من الفولاذ المقاوم للصدإ، به لمعانٌ ناصع يميل إلى الزرقة أثناء مواجهة الشمس. وفوقه قطعٌ من الجرانيت، باعتبارها السمة الوحيدة لشكل المبنى المتقشّف المتعامد، وكان هناك نقش كتب عليه:

(أقسم بحياتي وحبّي لتلك الحياة أنّني لن أعيش من أجل إنسان آخر، ولن أطلب منه أن يعيش من أجلي).

فالتفتت داغني إلى جالت الذي كان واقفًا بجانبها؛ لقد تبعها لأنّه يعلم أنّ تلك التحيّة كانت له. فأخذت تنظر إلى مخترع المحرّك، ولكنّ ما لاحظته كان هو الشكل السلس وغير الرسميّ لعاملٍ يعيش في بيئته الطبيعيّة ووظيفته. لقد لاحظت ما في هيئته من خفّةٍ غير مألوفةٍ، وهي طريقة طريفة للوقوف دون وزنٍ أظهرت تحكّمًا خبيرًا في استخدام جسده، ذلك الجسد الطويل ذي الثياب البسيطة: بقميصه الرفيع، وبنطلونه الخفيف، وحزامه الجلديّ المحيط بخصره النحيف، وشعره المنساب الذي جعله يلمع مثل المعدن أمام هبوب تيّار الرياح البطيئة. وظلّت تنظر إليه وإلى هيكله في الآن نفسه.

ثمّ أدركت أنّ الجملتين اللتين تبادلاهما منذ البدء لا تزالان معلّقتين بينهما لملء الصمت، وأنّ ما قيل منذ ذلك الوقت، على نغمة تلك الكلمات، كان يعرفه، وقد احتفظ به، ولن يدَعها تنساه. ثمّ أدركت فجأةً أنّهما كانا وحدهما؛ بوعي يؤكّد الحقيقة التي لا تسمح بمزيد من التورّط، مع الاحتفاظ بالمعنى الكامل للمجهول في ذلك الضغط الخاصّ. كانا بمفردهما في غابة صامتة، عند سفح هيكل يشبه المعبد القديم، وأدركت أيّ نوع من الطقوس هو الشكل المناسب للعبادة التي تُقدَّم على مذبح من هذا النوع. لقد شعرت بضغط مفاجئٍ في أسفل حلقها، فانحنى رأسها إلى الخلف قليلًا، لتشعر بالتحوّل الخافت لتيّار الريح على شعرها، ولكنّ الأمر بدا كما لو أنّها مستلقية في الفضاء تواجه الريح، فلم تدرك سوى ساقيه وشكل فمه. ووقف جالت وهو يراقبها، بوجهه الساكن باستثناء حركة جفنَيه الباهتة وهما يضيقان كما لو أنّ ضوءًا قويًّا جدًّا قد بهره. كان الأمر أشبه بإيقاع لثلاث لحظات، وكانت تلك هي اللحظة الأولى، وفي اللحظة الثانية شعرت بطعنة من الانتصار الشرس عندما علمت أنّ جهده ونضاله كانا أقوى من طاقته، ثمّ حرّك عينيه ورفع رأسه لينظر إلى النقش المكتوب على المعبد.

لقد سمحت له بالنظر إليها لحظةً، تقريبًا كفعلٍ من أفعال الرحمة تجاه الخصم الذي يكافح لإعادة تزويد قوّته بالطاقة، ثمّ سألته، بملاحظة فخرٍ متغطرس في صوتها، وهي تشير إلى النقش: وما هذا؟

- إنّه القسم الذي يؤدّيه كلّ شخص في هذا الوادي باستثنائك أنتِ.

قالت وهي تنظر إلى الكلمات:

- لقد كانت تلك الجمل هي القاعدة التي أعيش وفقها دائمًا.

- أعرف ذلك.

- ولكن لا أعتقد أنّ قاعدتك هي الطريقة لممارستها.

- إذَن عليك أن تعرفي من منّا المخطئ.

صعدت داغني إلى الباب الفولاذيّ للهيكل، وقد انتابتها ثقة مفاجئة شدّدت عليها تحرّكات جسدها بشكلٍ خافتٍ، وتلميح خفيٍّ إلى التوتّر، أكثر من وعيها بالقوّة التي كانت تملكها بسبب ألمه، وحاولت ألّا تطلب منه إذنًا لتدير مقبض الباب. لكنّ الباب كان مغلقًا، ولم تشعر برعشة تحت ضغط يدها، كما لو أنّ القفل كان مسكوبًا ومختومًا على الحجر بصفيحة من الفولاذ الصلب.

- لا تحاولي فتح هذا الباب يا آنسة تاجارت.

اقترب منها جالت، وكانت خطواته بطيئة جدًّا كما لو أنّها تؤكّد معرفته بأنّها تعي كلّ خطوة. وقال:

- لن تقدر أيّ قوّة بدنية على فتح ذلك الباب. وحده العقل يفتح هذا الباب. وحتّى لو حاولت كسره عن طريق أفضل المتفجّرات في العالم، فسوف تنهار الآلة الموجودة بداخله وتتحوّل إلى أنقاض قبل وقت طويل من فتح الباب. ولكن إذا توصّلت إلى الفكرة التي يتطلّبها ذلك، فإنّ سرّ المحرّك سيكون لك... بالإضافة إلى أيّ سرّ آخر قد ترغبين في معرفته.

ثمّ واجهها لحظةً، كما لو أنّه كان يسمح لها بفهم أغوار نفسه بالكامل، ثمّ ابتسم على نحوٍ غريب بسبب بعض الأفكار التي ساورته هو أيضًا، فأضاف: سأوضّح لك كيف يتمّ ذلك.

فتراجع إلى الخلف، ثمّ وقف بثباتٍ ورفع رأسَه صوب الكلمات المنقوشة في الحجر، وكرّرها ببطء وبالتساوي، كما لو أنّه يؤدّي اليمين مجدّدًا. لم تكن في صوته أيّ عاطفة، لا شيء آخر سوى الوضوح المتباعد للأصوات التي أطلقها بمعرفة كاملة بمعناها، لكنّها علمت أنّها تشهد أكثر اللحظات المهيبة التي مُنِحَت لها على الإطلاق. كانت تشاهد رجلًا بروح عاريةٍ والثمن الذي دفعه لنطق تلك الكلمات، وكانت تسمع صدى اليوم الذي أعلن فيه جالت تلك اليمين أوّل مرّة بمعرفة كاملة بما سيقع في السنوات القادمة، وخبرت الطريقة التي وقف بها ذلك الرجل ليواجه ستّة آلاف

عامل في ليلة ربيعيّة مظلمة ولماذا كانوا يخافونه، وعلمت أنّ ذلك كان ولادةً وجوهرًا لكلّ الأشياء التي حدثت في العالم في الاثني عشر عامًا منذ ذلك الحين، وأدركت أنّ أهميّة ذلك كانت أكبر بكثير من المحرّك المخفيّ داخل الهيكل. لقد علمت كلّ ذلك استنادًا إلى نبرة صوت ذاك الرجل وهو ينطق بنبرة التذكير الذاتيّ وإعادة التكريس:

أقسم بحياتي... وحبّي لحياتي... أنّني لن أعيش أبدًا من أجل إنسان آخر... ولن أطلب منه... أن يعيش... من أجلي.

لم يذهلها الأمر، بل بدا غير مرغوب فيه وغير مهمّ تقريبًا، ولم تندهش حين شاهدت إثر نهاية آخر صوتٍ صدَر عن جالت، البابَ وهو يفتح ببطء، من دون أن يلمسه بشر، ويتحرّك إلى الداخل على امتداد شريط مظلم متزايد. ولحظةَ أضيئت الأنوار الكهربائية داخل الهيكل، أمسكَ جالت بالمقبض وسحب الباب، فأغلق قفله مجدّدًا.

قال: إنّه قفل يعمل بالصوت، وتلك الجمل هي مزيج من الأصوات اللّازمة لفتحه. لا مانع في إخبارك بهذا السرّ، لأنّني أعلم أنّك لن تنطقي مثل هذه الكلمات حتّى بلوغ مقاصدها بالطريقة التي نطقتها بها.

قالت: لن أفعل.

ثمّ تبعته إلى السيّارة ببطء، وقد شعرت فجأةً بإرهاق شديد لم تعد معه قادرةً على التحرّك. وعادت إلى المقعد، وأغلقت عينيَها، وهي لا تكاد تسمع صوت تشغيل السيّارة. لقد أصابها الإجهاد والصدمات المتراكمة على مدى ساعات نومها دفعة واحدة، واخترق كلّ ذلك حاجز التوتّر الذي تحمّلت أعصابُها تأخيرَه. كانت ساكنة، غير قادرة على التفكير أو الردّ أو النضال، مُستَنْزَفةً من كلّ المشاعر باستثناء شعور واحد. لم تتكلّم ولم تفتح عينيها حتّى توقّفت السيّارة أمام منزله.

قال: من الأفضل أن تستريحي وتخلدي للنوم الآن إذا كنت ترغبين في حضور عشاء موليغان الليلة.

فأومأت برأسها في طاعة وسارعت بالدخول إلى المنزل متجنّبة مساعدته. ثمّ بذلت

بعض الجهد لتقول له: سأكون بخير. وهربت صوب غرفتها، وعانت لفترة طويلة أثناء إغلاق الباب.

ثمّ انهارت بوجهها على السرير. لم تكن تعاني فقط من الإرهاق الجسديّ، بل اجتاحها أيضًا ذلك الهوس المفاجئ بإحساسٍ كامل لا يمكن تحمّله. وبينما خارت قوّة جسدها، وفقد عقلُها كاملَ وعيه، انتابتها عاطفةٌ وحيدة غذّتها بقايا طاقتها، وآثار فهمها، ومخلّفات حكمها، وما تبقّى من سيطرتها، ولم تترك لها أيّ شيء لمقاومتها أو لتوجيهها، ممّا جعلها غير قادرة على الرغبة، بل فقط على الشعور، واختزال ذلك في مجرّد إحساس، إحساس جامد دون بداية أو هدف. وواصلت رؤية جسده في ذهنها، وشكله عندما كان يقف عند باب المبنى. لم تشعر بأيّ شيء آخر، لا رغبة، ولا أمل، ولا أيّ تقدير لشعورها، ذلك الشعور الذي لا يحمل اسما. لم يكن هناك كيانٌ يمكن أن تصنّفه على أنّه يمثّل نفسها، فشعرت بأنّها لم تكن شخصًا، بل مجرّد وظيفة لرؤيته، وكان معنى رؤيته والهدف الخاصّ بها، بلا نهاية أخرى تودّ الوصول إليها.

ثمّ تذكّرت على نحوٍ خافت وبإحساس باهت، ووجهُها مدفون في الوسادة، لحظةَ إقلاعها من الشريط المضاء بمطار كانساس، حين شعرت بضربات المحرّك، وخطّ تسريع حركة جمع القوّة في خطٍّ مستقيم يسير نحو هدف واحد. وفي اللحظة التي غادرت فيها العجلات الأرض، استسلمت للنوم.

***

كانت أرضيّة الوادي مثل بِركة لا تزال تعكس توهّج السماء، لكنّ الضوء كان يزداد كثافة وقد تحوّل من اللون الذهبيّ إلى لون النحاس، وكانت الضفاف تتلاشى، وأصبحت قمم الجبال زرقاء مثل الدخان عندما توجّها إلى منزل موليغان.

لم يتبقّ أيّ أثر للإرهاق الذي كانت تحمله، ولا أيّ بقايا من العنف. لقد استيقظت عند غروب الشمس. وعندما خرجت من غرفتها، وجدت جالت ينتظرها، وهو جالس بلا حراكٍ تحت نور المصباح. كان ينظر إليها برفق؛ حين وقفت عند المدخل،

بوجهها الهادئ، وشعرها الناعم، وهيئتها المسترخية الواثقة. لقد بدت كما لو أنّها كانت تنظر إلى عتبة مكتبها في مبنى شركة تاجارت، ولكن باختلاف بسيط ومن زاوية طفيفة لجسدها المتّكئ على عصا. وظلّ جالت جالسًا وهو ينظر إليها لحظةً، فتساءلت عن السبب الذي جعلها تشعر باليقين من أنّه كان يراها بتلك الصورة، ويرى مدخل مكتبها، كما لو أنّه كان مشهدًا يتخيّله منذ فترة طويلة وحرم منه لمدّة أطول.

ثمّ جلست بجانبه في السيّارة، ولم تشعر برغبة في الكلام، وإن كانت تدرك أنّه لا يمكن لأيّ منهما إخفاء معنى صمتهما. وأخذت تراقب بعض الأنوار التي تضيء في منازل بعيدة بالوادي، ثمّ النوافذ المضيئة لمنزل موليغان بالضفّة القادمة. ثمّ سألته:

- ومن سيحضر هذا العشاء؟

أجابها: بعض من أصدقائك، وبعض من أصدقائي.

ثمّ التقاهما ميداس موليغان عند الباب. فلاحظت أنّ وجهه العابس والعريض لم يكن قاسيًا وبلا تعبير كما اعتقدت: بل حمل سمات الارتياح والرضا، لكنّ الرضا لم يستطع التخفيف من ملامحه، لقد شدّ انتباههما مثل لمعان حجر الصوّان وأرسل شرارات من الفكاهة بدت مثل لمعان خافت في زوايا عينيه، بروح دعابة كانت الأكثر فطنة، والأكثر تصنّعًا، لكنّها أكثر دفئا من مجرّد الابتسام.

فتح لهما باب منزله، بحركة من يده على نحوٍ أبطأ من المعتاد، مع التركيز بشكل خفيّ على حركته. وأثناء دخولها غرفة الجلوس، واجهت سبعة رجال رفعوا أقدامهم قليلًا تحيّةً لها.

قال ميداس موليغان: أيّها السادة.. أقدّم لكم شركة تاجارت العابرة للقارّات.

نطق ذلك وهو يبتسم بطريقة أقرب إلى الدعابة. ومن جودة صوته تحوّل اسم شركة السكك الحديديّة، كما كان له أن يبدو في أيّام نات تاجارت، كعنوان رنّان للشرف.

فأمالت رأسها ببطء، في تقدير للرجال أمامها، وهي تعلم أنّ هؤلاء هم الذين كانت

معايير قيمهم وشرفهم هي معاييرها ذاتها، أولئك الرجال الذين اعترفوا بمجد هذا اللقب كما كانت تعرفه، فأدركت طعنة مفاجئة من حزن ذكّرتها بمدى حنينها إلى مثل هذا الاعتراف طوال سنواتها الماضية.

ثمّ تحرّكت عيناها ببطء لتلقي التحيّة عليهم وجهًا لوجه: إليس وايت - كين داناغر - هيوأكستون - الدكتور هندريكس - كوينتين دانيلز - وأردف صوت موليغان بنطق اسمين لاثنين آخرين هما: ريتشارد هالي - القاضي ناراغاناسيت.

وأوحت لها الابتسامة الباهتة المرسومة على وجه ريتشارد هالي بأنّه أحدهما كان يعرف الآخر لسنوات مثلما كانتِ تفعل في أمسياتها المنعزلة بجانب جهاز الفونوغراف. وقد ذكّرها حزم شخصيّة القاضي ناراغاناسيت الذي غزا الشيبُ شعره بأنّها سمعت الناس يصفونه ذات مرّة بأنّه يشبه تمثالًا من الرخام معصوبَ العينين. وكان ذلك هو الشكل الذي اختفى من قاعات المحاكم في البلاد عندما اختفت العملات الذهبيّة من أيدي الدولة.

قال ميداس موليغان: يا آنسة تاجارت، لطالما كنت تنتمين إلى هنا لفترة طويلة، لم تكن هذه هي الطريقة المناسبة التي توقّعنا بها قدومك، ولكن على أيّة حال... مرحبًا بك في بيتك ووطنك.

- شكرًا.

قال لها إليس وايت، وهو يمسك بمرفقها ويقودها إلى كرسيّ: داغني، كم سنة ستستغرقين لكي تتعلّمي أن تكوني على طبيعتك؟لا تدّعي أنّكِ لا تفهميننا. فأنت تستوعبيننا بالكامل.

قال هيوأكستون: نحن لا نقدّم أيّ تأكيدات يا آنسة تاجارت. هذه هي الجريمة الأخلاقيّة الخاصّة بأعدائنا. نحن لا نخبر، بل نظهر. نحن لا ندّعي، بل نثبت. نحن لا نسعى إلى الفوز بطاعتك، بل نسعى إلى بلوغ اقتناعك العقلانيّ. لقد رأيتِ كلّ عناصر سرّنا ولك أن تستخلصي الاستنتاجات اللّازمة. إذ يمكننا مساعدتك على

تسميتها، ولكن لا يمكننا إجبارك على قبولها، فالرؤية والمعرفة والقبول يجب أن تكون من محض إرادتك.

أجابته ببساطة: أشعر وكأنّني أعرف ذلك، بل وأكثر، أشعر وكأنّني كنت أعرفه دائمًا، لكنّني لم أجده قطُّ، والآن أخشى، لا من سماعه، بل من اقتراب وقوعه.

قال أكستون وهو يبتسم: وكيف يبدو لك الجوّ هنا يا آنسة تاجارت؟

قالت وهي تضحك وتتأمّل وجوه الرجال: هنا؟ يبدو هذا... كما تعلم، لم أكن آمل مطلقًا في رؤية أيّ واحدٍ منكم مجدّدًا، وتساءلت في بعض الأحيان عن الثمن الذي يجب عليّ دفعه للحصول على لمحةٍ واحدة أو كلمة واحدة أخرى منكم. والآن، الأمر أشبه بذلك الحلم الذي تتخيّله في مرحلة الطفولة، عندما تعتقد أنّك سترى، ذات يوم مّا، في السماء، أولئك الذين رحلوا عنك ولم ترهم على الأرض مدّة سنين، وتختار، من جميع القرون الماضية، العظماءَ الذين ترغب في مقابلتهم.

قال أكستون: حسنًا، هذا دليل على طبيعة سرّنا. اسألي نفسك عمّا إذا كان حلم الجنّة والعظمة يجب أن يُترك في انتظارنا ونحن قابعون في قبورنا، أو ما إذا كان يجب أن يكون حلمنا هنا والآن على هذه الأرض.

قالت هامسة: أدرك ذلك.

سألها كين داناغر: وإذا قابلت هؤلاء العظماء في الجنّة، فماذا ستقولين لهم؟

- مجرّد... الترحيب، على ما أعتقد.

قال داناغر: هذا ليس كلّ شيء. ثمّة شيء سترغبين في سماعه منهم. لم أكن أعرف ذلك أيضًا، إلى أن رأيته أوّل مرّة.

وأشار إلى جالت، ثمّ أضاف: وقال لي ذلك، ثمّ عرفت ما الذي فاتني طوال حياتي. يا آنسة تاجرت، أنت تريدينهم أن ينظروا إليك ويقولوا: 'أحسنت'.

فخفضت رأسها إلى أسفل وأومأت في صمتٍ، كي لا تدعه يرى طفرة الدموع

المفاجئة في عينيها، ثمّ استرسل في الكلام: حسنًا، إذَن: أحسنت يا داغني!.. أحسنت صنعًا بشكل جيّدٍ جدًّا... والآن حان وقت الراحة من هذا العبء الذي لم يكن على أيّ واحدٍ منّا تحمّله.

قال ميداس موليغان، وهو ينظر إلى رأسها المنحني في قلق شديدٍ: اخرس!

لكنّها رفعت رأسها مبتسمةً وقالت لداناغر: شكرًا.

قال موليغان: إذا كنت تتحدّث عن الراحة، فدعها ترتاح. لقد قامت بأنشطة كثيرة من في يومٍ واحدٍ.

قالت وهي تبتسم: امض قُدُمًا ولا تهتمّ، قل ما تشاء مهما يكن.

ردّ موليغان: سأخبرك بذلك لاحقًا.

كان موليغان وأكستون هما اللذين قدّما العشاء، وقد ساعدهما كوينتين دانيلز في ذلك. لقد قدّموه على صَوَانٍ فضّيّة صغيرة وُضِعت على أذرع الكراسي، وجلسوا جميعًا داخل الغرفة، مع تلاشي ضوء السماء في النوافذ وتألّق شرارات من الضوء الكهربائيّ المتلألئ في كؤوس النبيذ. عمَّ الغرفةَ جوٌّ من الفخامة، لكنّها فخامة بساطة الخبراء؛ لقد لاحظت وجود أثاث باهظ الثمن، تمّ اختياره بعناية قصد الاستمتاع بأقصى درجات الرفاهية، وقد تمّ شراؤه في مكان مّا، في وقت كانت فيه الرفاهية لا تزال فنًّا. لم تكن هناك أشياء زائدة عن الحاجة، لكنّها لاحظت وجود لوحة زيتيّة صغيرة رُسِمَت بريشة سيّدٍ عظيم من عصر النهضة، تساوي ثروة كبيرة، ولاحظت أيضًا وجود سجّادة شرقيّة تنتمي بنسيجها ولونها إلى أروقة المتاحف فقط. واعتقدت أنّ ذلك هو مفهوم موليغان للثروة، تلك الثروة التي تُؤسَّس على الاختيار، لا على المراكمة.

وجلس كوينتين دانيلز على الأرض وصينيّته في حضنه؛ كان يبدو تمامًا كما لو أنّه في بيته، وظلّ ينظر إليها من حين إلى آخر، وهو يبتسم وكأنّه كان أخاها الصغير الوقح الذي أخفى عنها سرًّا لم تكتشفه بعد. لقد سبقها في الوصول إلى الوادي بحوالي عشر دقائق، لكنّه كان واحدًا منهم، أمّا هي فلا تزال غريبة.

جلس جالت جانبًا، خارج دائرة الضوء، على ذراع كرسيّ الدكتور أكستون. ولم ينبس ببنت شفة، بل تراجع عنها وسلّمها للآخرين، وجلس يراقبها كأنّما يراقب مشهدًا لا يوجد فيه دور آخر يلعبه. لكنّ عينيها لم تكفّا عن العودة إليه، في إشارة إلى تيقّنها من أنّ المشهد من اختياره وترتيبه، ومن أنّه كان يديره منذ فترة طويلة، ومن كون الآخرين عرفوه مثلما عرفته.

ثمّ لاحظت حضور شخص آخر بدا على دراية تامّة بحضور جالت: وكان هيوأكستون ينظر إليه من حين إلى آخر، بشكل لاإراديّ وسرّيّ تقريبًا، كما لو أنّه يناضل حتّى لا يعترف بوحدةٍ سبّبها هجرٌ طويل. لم يتحدّث إليه أكستون، وكأنّه يعتبر وجوده أمرًا مفروغًا منه. ولكن بمجرّد انحناء جالت إلى الأمام وسقوط خصلة من خصلات شعره على وجهه، مدّ أكستون يده لتصفيفها، فبدت تلك اليد معلّقةً في لحظة غير محسوسة على جبين تلميذه: كان ذلك هو انكسار العاطفة الوحيد الذي سمح لنفسه به، كمجرّد تحيّة؛ تشبه لفتة الأب.

لقد وجدت داغني نفسها تتحدّث مع الرجال من حولها، مسترخيةً في راحة خفيفة. واعتقدت أنّ ما عاشته في ذلك اليوم ليس إجهادًا، بل دهشةً خافتةً من عدم الشعور بالإجهاد؛ لقد كان شعورًا شاذًّا ولكنّه بدا عاديًّا وبسيطًا جدًّا.

كانت لا تكاد تعرف أسئلتها، وهي تتحدّث إلى الرجل منهم تلو الآخر، لكنّ إجاباتهم كانت تطبع سجلًّا في ذهنها، وتُحوّل كلّ جملة من جملهم إلى هدف.

قال ريتشارد هالي ردًّا على سؤالها: الكونشرتو الخامس؟ لقد كتبته قبل عشر سنوات. نحن نسمّيه هنا كونشرتو النجاة. أشكر لك تعرّفك إليه من بين بضع نوتات صدرت من صفير في الليل... نعم، أعرف ذلك... نعم، بما أنّك تعرفين عملي، فستدركين، عند سماعه، أنّ ذلك الكونشرتو يعبّر عن كلّ ما كنت أناضل من أجل قوله والوصول إليه. لقد أهديته إلى جون جالت.. ولماذا لا أهديه إليه يا آنسة تاجرت؟ فأنا لم أتخلَّ عن الموسيقى. وما الذي جعلك تعتقدين ذلك؟ لقد ألّفت في السنوات العشر الماضية أكثر

من أيّ فترة أخرى من حياتي. وسأعزف لك، شيئًا منها، عندما تزورينني في منزلي.. لا يا آنسة تاجرت، لن تُنشَر في الخارج. ولن يُسمع أيّ لحن خارج هذه الجبال.

قال الدكتور هندريكس ردًّا على سؤالها: لا يا آنسة تاجرت، لم أتخلّ عن الطبّ. لقد قضّيت السنوات الستّ الماضية في البحث. واكتشفت طريقة لحماية الأوعية الدمويّة في الدماغ من هذا التمزّق المميت الذي يعرف بالسكتة الدماغيّة. هذه الطريقة ستمحو من الوجود البشريّ التهديدَ الرهيبَ بالشلل المفاجئ... لا، لن تُسمَع أيّ كلمة عن طريقتي تلك في الخارج.

قال القاضي ناراغاناسيت: تسألينني عن القانون يا آنسة تاجرت؟ وأيّ قانون تسألين عنه؟ أنا لم أتخلّ عنه. لقد توقّف إنفاذ القانون في الوجود. لكنّني مازلت أعمل في المهنة التي اخترتها، وكرّستها لخدمة العدالة... لا، لم تتوقّف العدالة في الوجود. كيف يمكن ذلك؟ من الممكن أن يتخلّى الناس عن رؤيتهم إليها، ومن ثمّ فإنّ العدالة هي التي تدمّرهم. لكن لا يمكن للعدالة أن تخرج من الوجود، لأنّ أحدهما صفة للآخر، ولأنّ العدالة هي فعل الاعتراف بما هو موجود... نعم، أنا مستمرّ في مهنتي. وأنا بصدد كتابة أطروحة عن فلسفة القانون. سأثبت أنّ أحلك شرّ يتهدّد البشرية هو القانون غير الموضوعيّ... لا يا آنسة تاجارت، لن تنشر مقالتي في الخارج.

قال ميداس موليغان: تسألينني عن مهمّتي يا آنسة تاجرت؟ إنّها بمثابة نقل الدم، ومازلت أمارسها. وظيفتي هي تغذية وقود الحياة في النباتات القادرة على النموّ. ولكن اسألي الدكتور هندريكس عمّا إذا كانت أيّ كمّيّة من الدم ستنقذ الجسم الذي يرفض العمل، ذلك الهيكل الفاسد الذي يتوقّع وجوده من دون جهدٍ. بنك الدم عندي هو الذهب. فالذهب وقود يمكن أن يصنع العجب العجاب، ولكن لا يمكن لأيّ وقود أن يعمل حين لا يوجد محرّك...لا، لم أستسلم. لقد سئمت فقط وظيفةَ إدارة المسلخ، حيث يستنزف المرء الدم من الكائنات الحيّة الصحّيّة ويضخّه في أنصاف الجثث.

قال هيوأكستون: هل استسلمنا؟ تحقّقي من فرضيّاتك يا آنسة تاجارت. لم يستسلم أيّ واحدٍ منّا. بل إنّ العالم هو الذي يستسلم... فما الخطأ في أن يدير الفيلسوف مطعمًا على الطريق أو مصنعًا للسجائر كما أفعل الآن؟ فكلّ عمل هو فعل فلسفيّ. وعندما يتعلّم البشر التفكيرَ في العمل المنتج -والتفكير في مصدره- كمعيار لقيمهم الأخلاقيّة، فإنّهم سيصلون إلى حالة الكمال التي هي حقّهم الذي فقدوه... وما مصدر العمل؟ إنّه عقل الإنسان يا آنسة تاجرت، ذلك العقل المفكّر. وأنا أشتغل على كتاب حول هذا الموضوع، حدّدتُ فيه فلسفة أخلاقيّة تعلّمتها من تلميذي... نعم، يمكنها إنقاذ العالم... لا، لن ينشر هذا الكتاب في الخارج.

صرخت داغني: لماذا؟ لماذا؟ وماذا تفعلون جميعكم؟

ردّ جون جالت: نحن مضربون.

فالتفتوا إليه جميعًا، وكأنّهم كانوا ينتظرون صوته وتلك الكلمة. فأنصتت داغني إلى دقّات الزمن الفارغة بداخلها، وهي تُتَرجَم في الصمت المفاجئ الذي يخيّم على الغرفة، بينما ظلّت تنظر إليه عبر مدى الضوء. لقد جلس مستلقيًا على ذراع كرسيّ، يميل إلى الأمام وقد وضع ساعده على ركبتيه، ويده معلّقة بهدوء. وكانت الابتسامة الباهتة على وجهه هي التي منحت كلماته الصوتَ المميت الذي لا سبيل إلى ردّه:

- لماذا يجب أن يبدو هذا الأمر مذهلًا؟ يوجد نوع واحد فقط من البشر لم يُضْرِب قطّ في تاريخ البشريّة. فكلّ الفئات أو الطبقات الأخرى توقّفت عن العمل، متى رغبت في ذلك، وقدّمت مطالبَ للعالم، مدّعيةً أنّه لا غنى عنها في الوجود ما عدا البشر الذين حملوا العالم على أكتافهم، وأبقوه على قيد الحياة، وعانوا من التعذيب، لكنّهم لم يخرجوا على الإطلاق من الجنس البشريّ. حسنًا، لقد حان دورهم. دع العالم يكتشف من هم، وما يفعلون وماذا سيحدث عندما يرفضون العمل. إنّه إضراب رجال الفكر يا آنسة تاجارت. إنّه إضراب العقل.

قال جالت: كان يُنظر إلى العقل عبر كلّ العصور على أنّه مصدر كلّ الشرور، وأنّه

يمثّل كلّ أشكال الإهانة، فقد وصف بالزنديق المادّيّ ثمّ المُستَغِلّ، واتّهم بكلّ أشكال الإثم، وتعرّض للإقصاء والقمع والمصادرة وكلّ أشكال التعذيب، وواجه أيضًا عقوبات تتراوح بين السخرية والجلد ونُصِبَت المقاصل والمشانق لأولئك الذين تحمّلوا مسؤوليّة النظر إلى العالم من خلال وعي حيٍّ وأداءِ مَا للارتباط العقلانيّ من عمل حاسم. ولكن على الرغم من كلّ العذابات استمرّ بعض الناس في التفكير، وإلى حدودٍ معيّنة كانت البشريّة قادرة على البقاء. عبر كلّ قرون عبادة الجهلة، وأيّا كان الركود الذي اختارت البشريّة تحمّله، ومهما كانت الوحشيّة التي اختارت أن تمارسها، فإنّ ذلك لم يحدث إلّا بفضل نعمة البشر الذين أدركوا أنّ القمح يحتاج إلى الماء لينمو، وأنّ الأحجار لو رصّفت على شكل منحنًى فإنّها ستشكّل قوسًا، وأنّ جمع اثنين مع اثنين يساوي أربعة، وأنّ الحبّ لا يخدمه العذاب وأنّ الحياة لا تتغذّى على الدمار. لقد تحقّق ذلك فقط بفضل نعمة هؤلاء البشر، فتعلّم باقي الناس منهم أن يختبروا اللحظات عندما يمسكون بشرارة الوجود الإنسانيّ، ومجموع تلك اللحظات هي فقط ما سمح لهم بالاستمرار في الوجود. إنّ الإنسان العاقل هو الذي علّمهم طريقة إعداد خبزهم، ومداواة جروحهم، وصناعة أسلحتهم، وبناء السجون التي فيها زجّوا بالعقول. لقد كان إنسانًا ذا طاقةٍ مفرطة وسخاء متهوّر، وكان يعلم أنّ الركود ليس مصير الإنسان، وأنّ العجز ليس طبيعته، وأنّ براعة عقله هي أنبل قوّة امتلكها وأكثر مصدر لسعادته. ومن أجل خدمة ذلك الحبّ للوجود كان عليه أن يعاني بمفرده، ويستمرّ في العمل مقابل أيّ ثمن، من أجل لصوصه، وسجّانيه، ومعذّبيه، كما ضحى بحياته لإنقاذهم. وكان ذلك هو مجده ومقدَّسه. لقد سمح لهم بتعليمه أن يشعر بالذنب من مجده، وقبولِ دور كبش الفداء، ومعاقبته على خطيئة الذكاء، ليهلك على مذابح الوحوش. إنّ النكتة المأسويّة للتاريخ البشريّ تتمثّل في أنّ البشر كانوا دائما يضحوّن بالإنسان على أيّ مقصلة من المقاصل التي أقاموها، مثلما كانوا يقدّسون التضحية بالحيوان. ولطالما كانت صفات الحيوان، لا صفات الإنسان، هي المعبودة عند البشريّة: إنّ المتصوّفة والملوك عبدوا صنم الغريزة وصنم القوّة. فالمتصوّفة هم الذين عبّروا عن شوقهم إلى وعي غير مسؤول وحكموا العالم من خلال ادّعاء أنّ عواطفهم المظلمة متفوّقةٌ على

العقل، وأنّ المعرفة متأتّية من نوبات عمياء لا سبب لها، عمياء لكن يجب اتّباعها، دون الشكّ فيها. أمّا الملوك فهم الذين حكموا عن طريق المخالب والعضلات، الغزو طريقتهم والنهب هدفهم، بالهراوة أو البندقية معتمدين على السلطة والعنف لا غير. وكان المدافعون عن روح الإنسان معنيّين بمشاعره، والمدافعون عن جسده معنيّين أكثر بمعدته، لكنّ كليهما اتّحدا ضدّ عقله. ومع ذلك، لا أحد، بما فيهم من هو أدنى مرتبة في الإنسانيّة، قادر على التخلّي عن دماغه بالكامل. إذ لم يؤمن أحد باللّاعقلانيّ؛ وما يؤمنون به هو الظالم. وكلّما شجب الإنسان العقل، فذلك لأنّ هدفه ذو طبيعة لا يسمح العقل بالاعتراف بها. وعندما يبشّر بالتناقضات، فإنّه يفعل ذلك وهو يعلم أنّ شخصًا مّا سيقبل بتحمّل عبء المستحيل، وأنّ أحدهم سيعمل لصالحه على حساب معاناته أو حياته؛ فالدمار هو ثمن أيّ تناقض. والضحايا هم الذين جعلوا الظلم ممكنًا. وأنصار العقل هم الذين مكّنوا حكم المتوحّشين الغاشم من النجاح. وكان تدمير العقل هو الدافع وراء كلّ عقيدة مضادّة للعقل على الأرض. وكان استنزاف القدرة هو الغرض من كلّ عقيدة تبشّر بالتضحية بالنفس. ولطالما عرف الناهبون هذا الأمر. أمّا نحن فلم ندرك ذلك بعدُ، وقد حان الوقت لنبصر. فما يُطلب منّا عبادته الآن، هو نفسه ما كان يُلبّس في يوم من الأيّام بلباس الإله أو الملك. إنّه الجسد العاري، الملتوي، الأبله، للإنسان غير الكفء. ذلك هو المثل الأعلى الجديد، والهدف الذي نسعى إليه، والغرض الذي نعيش من أجله، ويجب مكافأة جميع البشر وفقًا لمدى اقترابهم منه. إنّه عصر الإنسان العاديّ، كما يقولون لنا – عنوان يمكن لأيّ فرد أن يدّعيه إلى حدّ التميز الذي لا يمكّنه من تحقيقه. سوف يرتقي إلى مرتبة النبلاء من خلال الجهد الذي فشل في بذله، وسيُكرَّم بالفضيلة التي لم يعرضها، وسيُدفَع ثمن البضائع التي لم ينتجها. لكنّنا –نحن الذين يجب علينا التنازل عن ذنب القدرة– سنعمل على دعمه كما يأمر، وتحقيق سعادته كمكافأة وحيدة لنا. نظرًا إلى أنّ لدينا أكبر قدر من المساهمة، فسيكون لدينا أقلّ ما يقال. ونظرًا إلى أنّ لدينا القدرة على التفكير بشكل أفضل، فلن يُسمح لنا بفكر خاصٍّ بنا. ونظرًا إلى أنّ لدينا حكمًا للتصرّف، فلن يُسمح لنا بإجراء أيّ اختيار من اختياراتنا. سنعمل بموجب توجيهات وضوابط

صادرة عن أولئك العاجزين عن العمل. وسوف يتخلّصون من طاقتنا، لأنّه ليس لديهم ما يقدّمون، ثمّ يتخلّصون من منتجاتنا، لأنّهم لا يقدرون على الإنتاج. هل تقولين إنّ هذا مستحيل، ولا يمكن إنجاحه؟ إنّهم يعرفون ذلك، ولكنّك لا تدركينه، وهم يعوّلون على عدم معرفتك. إنّهم يعتمدون عليك للمضيّ قدمًا، والعمل لبلوغ أقصى حدود اللّاإنسانية وإطعامهم مقابل بقائك على قيد الحياة. وعندما تنهارين، ستكون هناك ضحيّة أخرى تنطلق من نقطة البداية وتطعمهم، بينما تستمرّين أنت في الكفاح من أجل البقاء، ثمّ يقصر مدى حياة الضحيّة الموالية، فعندما تعانين من الاحتضار من أجل بناء سكّة حديديّة لهم، سيموت آخر سليل في روحك ليترك لهم رغيف خبز. وهذا الأمر لا يقلق لصوص اللحظة. إنّ خطّتهم -مثل جميع خطط كلّ اللصوص الملكيّين في الماضي- هي أن تستمرّ الغنائم طوال حياتهم. لقد استمرّ الأمر على هذا النحو دائمًا من قبل. لكن هذه المرّة لن يستمرّ ذلك، فالضحايا مضربون. نحن مضربون عن الاستشهاد، وضدّ الشريعة الأخلاقيّة التي تطالب به. نحن مضربون ضدّ أولئك الذين يعتقدون أنّه لا بدّ من وجود إنسانٍ من أجل مصلحة إنسان آخر. نحن مضربون ضدّ أخلاق أَكَلَة لحوم البشر، سواء أكانت تمارس في الجسد أم في الروح. لن نتعامل مع البشر وفق أيّ شروط إلّا شروطنا، وشروطنا هي قانون أخلاقيّ ينصّ على أنّ الإنسان غايةٌ في حدّ ذاته وليس وسيلةً لأيّ طرف آخر. نحن لا نسعى إلى فرض قانوننا عليهم. هم أحرار في تصديق ما يشاؤون. ولكن، هذه المرّة، سيكون عليهم أن يصدّقوا ذلك ويؤمنوا -مندون مساعدتنا- بوجوده. ولمرّة واحدة وإلى الأبد، سيتعلّمون معنى عقيدتهم. تلك العقيدة التي استمرّت لقرون بمباركة من الضحايا، واستمرّت في العيش من خلال قبول الضحايا للعقاب إذا كسروا قانونًا يستحيل تطبيقه. ولكن كان من المزمع كسر ذلك القانون. إنّه قانون لا يحقّق الرخاء لأولئك الذين يراقبونه، ولكن لأولئك الذين لا يولونه أيّ اهتمام. لقد توقّفنا عن كسر ذلك القانون الأخلاقيّ وسننسفه من الوجود وإلى الأبد عبر الطريقة الوحيدة التي لا يمكن مقاومتها: أي من خلال طاعته. نحن بصدد طاعته والامتثال له. وسنراقب مدوّنة قيمهم أثناء التعامل مع بني جلدتنا من البشر، بل سنراقبها حرفيًّا ونجنّبهم كلّ

الشرور التي يدينونها. فهل العقل شرّير؟ ها قد سحبنا أعمال عقولنا من المجتمع، ولم نترك أيّ فكرة من أفكارنا ليدركها الناس أو يستخدموها. وهل القدرة شرّ أنانيّ لا يترك فرصة لمن هم أقلّ اقتدارًا منّا؟ ها نحن قد انسحبنا من المسابقة وتركنا كلّ الفرص مفتوحةً أمام من لا يمتلكون الكفاءات. وهل السعي وراء الثروة جشع، وهو أصل كلّ الشرور؟ نحن لم نعد نسعى إلى كسب الثروات بعد الآن. نحن لم نختر سوى الوظائف الوضيعة، ومن خلالها ننتج، بجهد عضلاتنا، ليس أكثر ممّا نستهلكه لاحتياجاتنا المباشرة، ولم نترك قرشًا واحدًا أو فكرة مبتكرة لإيذاء العالم. فهل من الشرّ أن ينجح المرء، لأنّ النجاح يحقّقه القويّ على حساب الضعيف؟ لقد توقّفنا عن إثقال الضعفاء بطموحاتنا وتركنا لهم الحرّيّة في الازدهار من دوننا. وهل من الشرّ أن تكون صاحب عملٍ؟ نحن لم يعد لدينا عمل نقدّمه. وهل من الشرّ كسب الأموال؟ نحن لم نعد نملك أيّ شيء. وهل من الشرّ أن تستمتع بوجودك في هذا العالم؟ لا يوجد شكل من أشكال المتعة التي نسعى إليها من عالمهم. فما نشعر به الآن تجاه عالمهم هو تلك المشاعر التي يبشّرون بها على أنّها أحاسيس مثاليّة: من قبيل اللّامبالاة والفراغ وعلامات الاحتضار... نحن نهب البشر كلّ ما أعلنوا عن الرغبة فيه والسعي إليه بوصفه فضيلةً اعترفوا بها على مدى قرون. الآن دعيهم يَرَوْا ما إذا كانوا لا يزالون يريدونها.

سألته داغني: وهل أنت من بدأ هذا الإضراب؟

- نعم.

ثمّ نهض وظلّ واقفًا، ويداه في جَيْبَيْ بنطاله، ووجهه قبالة النور. لقد رأته وهو يبتسم بتسلية من يقينٍ سهلٍ وعنيدٍ لا يتطلّب مجهودًا. ثمّ قال:

- لقد سمعنا الكثير عن الإضرابات، وعن تبعيّة الإنسان غير العاميّ للإنسان العاميّ. وسمعنا أيضًا الأصوات التي تصيح بأنّ الإنسان الصناعيّ طفيليّ، وأنّ عمّاله هم من يدعمونه، ويخلقون ثروته، ويجعلون رفاهيته ممكنةً، فماذا سيحدث له إذا

غادروه؟ ممتاز. أعتزم أن أُظهِر للعالم حقيقةَ مَن يعتمد على مَن، ومَن يدعم مَن، ومَن هو مصدر الثروة، ومَن يجعل كسبَ لقمة العيش أمرًا ممكنًا. فماذا سيحدث لمن يغادر؟

أصبحت النوافذ الآن مثل صفائح من الظلام، تعكس نقاط السجائر المضاءة. فالتقط جالت سيجارةً من طاولة كانت بجانبه، وأثناء إشعاله عودَ الثقاب شاهدت بريقَ الذهب القصير لعلامة الدولار بين أصابعه.

قال هيو أكستون: لقد استقلت وانضممت إليه وأضربت، لأنّني لم أستطع تقاسم مهنتي مع الناس الذين يدّعون أنّ تأهيل المثقّف يتمثّل في إنكار وجود العقل. فالناس لن يوظّفوا سبّاكًا يحاول إثباتَ امتيازه المهنيّ من خلال تأكيد عدم وجود شيءٍ اسمه سِباكة، ولكن، يبدو أنّ معايير الحذر تلك لا تعتبر ضروريّةً في ما يتعلّق بالفلاسفة. ومع ذلك تعلّمت من تلامذتي أنّني مَن جعل ذلك ممكنًا. فعندما يَقْبَل المفكّرون أولئك الذين يُنكرون وجود التفكير، فإنّهم هُم الذين يعملون على تدمير العقل. إنّهم يعترفون بفرضيّة العدوّ الأساسيّة، وهكذا يعاقبون العقل بالخبل الرسميّ. فالفرضيّة الأساسية هي مطلقٌ لا يسمح بأيّ تعاون مع نقيضه ولا يتحمّل أيّ تسامح. وبالطريقة نفسها، وللسبب نفسه الذي لا يجوّز للمصرفيّ قبول الأموال المزيّفة وتمريرها، ومنحها جزاء شرفه وهيبته، تمامًا مثلما لا يجوز له أن يطلب من الغشّاش التسامحَ معه بسبب فارق بسيط في الرأي، فإنّه لا يمكنني منح لقب الفيلسوف للدكتور سيمون بريتشيت أو التنافس معه باعتباره أحد العقول المفكّرة. فليس لدى الدكتور بريتشيت ما يقدّمه لحساب الفلسفة، باستثناء نيّته المعلنة لتدميرها. إنّه يسعى إلى الاستفادة من قوّة العقل بين الناس عن طريق إنكارها. ويسعى كذلك إلى سكّ علامات العقل على خطط أسياده في النهب، وإلى استعباد الفكر عبر استخدام المكانة المرموقة للفلسفة. ولكنّ تلك المكانة حسابٌ لا يمكن أن يرى النور إلّا إذا كنت موجودًا لتوقيع شيكاته. دعيه يفعل ذلك من دوني. دعيه... ودعي أولئك الذين عهدوا إليه بعقول أبنائهم ينالوا بالضبط ما يطالبون به: عالم من مفكّرين بلا فكرٍ ومن مثقّفين يعلنون أنّهم لا يستطيعون التفكير. أنا أعترف بذلك. وأنا أمتثل لذلك. وعندما يرون الحقيقة المطلقة

لعالمهم غير المطلق، فإنّي لن أكون هناك ولن أكون أنا مَن يدفع ثمن تناقضاتهم.

قال ميداس موليغان: لقد استقال الدكتور أكستون استنادًا إلى مبدإ الخدمات المصرفيّة السليمة. لكنّني استقلت استنادًا إلى مبدإ الحبّ. فالحبّ هو الشكل النهائيّ للاعتراف الذي يمنحه المرء للقيم الفائقة. وما جعلني أستقيل هي قضيّة هانساكر، تلك القضيّة التي أمرتْ خلالها محكمةٌ قانونيّةٌ بأن أحترم، كحقّ أوّل أموال المودعين، مطلبَ أولئك الذين سيقدّمون دليلًا على أنّه ليس لديهم الحقّ في المطالبة به. لقد أُمِرت بتسليم الأموال التي كسبها الناس إلى إنسان قذرٍ لا قيمة له، وكان مطلبه الوحيد هو ألّا يقدر على كسبها. لقد ولدت في مزرعة وعرفت معنى المال. وتعاملت طيلة حياتي مع بشر كُثْرٍ وشاهدتهم وهم يزدادون ثراءً. وقد جنيت ثروتي من خلال القدرة على اكتشاف نوع معيّن من الناس، ذلك النوع الذي لا يطلب منك الإيمان والأمل والإحسان، لكنّه يقدّم لك الحقائق والبراهين والربح. فهل تعلمين أنّني استثمرت في أعمال هانك ريردن، أيّامَ كان يرتقي، وهو يشقّ طريقه إلى البروز في ولاية مينيسوتا حين اشترى مصانع الصلب في ولاية بنسلفانيا؟ حسنًا، وعندما نظرت إلى أمر المحكمة على مكتبي، كانت لديّ رؤية. لقد رأيت صورةً، ورأيتها بوضوحٍ إلى درجة أنّها غيّرت مظهر كلّ شيء عندي. رأيت الشابّ ريردن بوجهه المشرق وعينيه البرّاقتين، مثلما كان عندما التقيت به أوّل مرّة. رأيته مستلقيًا تحت مقصلةٍ، ودمه يُسْفَك على الأرض. والذي كان واقفًا عند تلك المقصلة هو لي هونساكر، بعينيه المليئتين بالمخاط، وهو يئنّ لأنّه لم تتح له الفرصة قطّ... ومن الغريب أن تصبح الأشياء بسيطة، بمجرّد رؤيتها بوضوح. إذ لم يكن من الصعب عليّ إغلاق البنك والرحيل. ولأوّل مرّة في حياتي حافظت على رؤية ما يعنيه الإنسان الذي نعيش من أجله ونحبّه.

فنظرت داغني إلى القاضي ناراغانسيت وسألته:

– لقد استقلت بسبب القضيّة نفسها، أليس كذلك؟

قال القاضي: نعم. لقد استقلت عندما ألغت محكمة الاستئناف حكمي. كان الهدف

من عملي هو حماية العدالة. لكنّ القوانين التي طلبوا منّي تنفيذَها جعلتني منفّذَ أرذلِ ظلمٍ يمكن تصوُّره. لقد طُلب منّي استخدام القوّة لانتهاك حقوق الناس الذين نُزِعَت أسلحتهم، ووقفوا أمامي يطلبون أن أضمن حقوقهم. والمتقاضون يا آنسة تاجارت يطيعون حكمَ المحكمة فقط على أساس وجود قاعدةٍ سلوكيّة موضوعيّة، يقبلها الجميع. حينها رأيت أنّ إنسانًا واحدًا كان يجب أن يكون ملزمًا بها، أمّا الآخر فلا، فكان على أحدهم أن يطيع القاعدة، أمّا الآخر فلم يفعل سوى تأكيد رغبة تعسفيّة - هي حاجته- وكان على القانون أن يقف إلى جانب تلك الرغبة. وكان على العدل أن يتمثّل في نصرة ما لا يمكن تبريره من جَوْرٍ. لذلك استقلت، لأنّني لا أستطيع أن أتحمّل سماع كلماتٍ من قبيل "يا حضرة القاضي" وهي تصدر من رجل شريف.

ثمّ انتقلت عيني داغني ببطءٍ إلى ريتشارد هالي، كما لو أنّها تتضرّع إليه أن يحكي قصّته، وهي في الآن نفسه خائفة من سماعها، فابتسم لها وقال:

- كنت سأغفر للناس ما تكبّدته من كفاحٍ. لكنّي لم أغفر لهم رأيهم بشأن نجاحي. فأنا لم أشعر بأيّ كراهية أو أيّ حقد تجاههم خلال كلّ السنوات التي رفضوني فيها. ولمّا كان عملي جديدًا، فقد وجب عليّ منحهم الوقت لفهمه، ولمّا كنت فخورًا بكوني أوّل من شقّ طريقًا نحو الشهرة معتمدا على ذاتي، فإنّه لا يحقّ لي إظهار أيّ شكوى من بطء الآخرين في المتابعة. وكان هذا هو الكلام الذي أُقنِع به نفسي طَوَالَ تلك السنوات إلّا في بعض الليالي، حيث لا أقوى على الانتظار لفترة أطول، حينها صرخت: لماذا؟ ولكن لم أجد أيّ إجابة. وبعد ذلك، وليلةَ اختاروا تشجيعي، وقفت أمامهم على خشبة المسرح، معتقدًا أنّ تلك كانت اللحظة التي عانيت فيها للوصول، متمنّيًا أن أشعر بها، لكنّي لم أشعر بأيّ شيء. كنت أرى كلّ الليالي الأخرى خلفي، وسمعت: لماذا؟ التي لم تجد جوابًا بعدُ، وبدت هتافاتهم فارغة مثل صخبهم. لو أنّهم قالوا: نأسف لأنّنا تأخّرنا كثيرًا، وشكرًا لك على انتظارنا لكنتُ طلبت شيئًا آخر ولكان بإمكانهم الحصول على أيّ شيء يجب أن أعطيهم إيّاه. لكنّ ما رأيته في وجوههم، وفي الطريقة التي تحدّثوا بها عندما تجمهروا لمدحي، كان الشيء نفسه الذي سمعته يلقى أمام عامّة

الفنانين، وكلّ ما في الأمر أنّي لم أعتقد مطلقًا أنّ أيّ شخص يمكن أن يعني ذلك. ويبدو أنّهم كانوا يقولون إنّهم لا يدينون لي بشيء، وإنّ صممهم قد أعطاني هدفًا أخلاقيًّا، وإنّه كان من واجبي أن أناضل، وأتألّم، وأتحمّل -من أجلهم- مهما يكن التهكّم والازدراء والظلم والتعذيب الذي اختاروا أن يُلْحِقُوه بي، وأن أتحمّله من أجل تهذيبهم على الاستمتاع بعملي، وإنّ ذلك كان حقّهم وهدفي المناسب. ثمّ استوعبت طبيعة روح الناهبين، وهو شيء لم أتمكّن قطُّ من تصوّره. لقد رأيتهم يصلون إلى روحي، تمامًا كما يصلون إلى جيب موليغان، ويصلون إلى مصادرة قيمة شخصيّتي، تمامًا كما يصلون إلى مصادرة ثروته. ورأيت خُبْثَ الرداءةِ المتهوّرَ وهو يتباهى بفراغه على أنّه هُوّة يجب ملؤها بأجسادٍ أفضل منه. ورأيتهم يسعون، تمامًا كما يسعون إلى تغذية أموال موليغان، ويقتاتون من تلك الساعات التي ألّفت فيها موسيقاي وعلى ما جعلني أكتبها، سعيًا منهم إلى شقّ طريقهم صوبَ تقديرهم الذاتيّ من خلال ابتزاز اعترافي بأنّهم كانوا الهدف من موسيقاي، وكي لا يكون سبب ما أنجزته هو اعترافهم بقيمتي، وإنّما انحنائي وإذعاني لهم... وفي تلك الليلة، أقسمت على عدم السماح لهم بسماع أيّ لحن آخر منّي. كانت الشوارع خاليةً عندما غادرت ذلك المسرح، وكنت آخر من غادر. ورأيت رجلًا لم أرَه من قبل، كان ينتظرني تحت ضوء عمود إنارة. لم يكن عليه أن يخبرني بالكثير. ولكنّ الكونشرتو الذي أهديته إيّاه يسمّى كونشرتو النجاة.

قالت داغني وهي تنظر إلى الآخرين: من فضلكم أخبروني بأسبابكم.

لقد عبّرت عن ذلك بضغط خافت من الحزم في صوتها، كما لو أنّها كانت تجلدهم، لكنّها ودّت إنهاء الأمر.

قال الدكتور هندريكس: لقد استقلت عندما جعلوا الدواء تحت تصرف الدولة. فهل تعرفين ما يلزم لإجراء عمليّة للدماغ؟ وهل تعرفين نوع المهارة التي تتطلّبها تلك العمليّة، وسنوات التفاني العاطفيّ، والقاسي، والمؤلم اللّازم لاكتساب هذه المهارة؟ هذا ما لم يكن لي أن أضعه تحت تصرّف رجالٍ مؤهّلهم الوحيد للسيطرة عليّ هو

قدرتهم على الإفصاح عن أساليب عامّة للاحتيال جعلتهم يختارون بامتيازٍ إنفاذ رغباتهم بفوهة البندقيّة. لن أسمح لهم بإملاء الهدف الذي قضّيت من أجله سنوات دراستي، أو ظروف عملي، أو اختياري للمرضى، أو مقدار مكافأتي. ففي جميع المناقشات التي سبقت استعباد الطبّ، لاحظت أنّ الناس ناقشوا كلّ شيء ما عدا رغبات الأطبّاء. لقد وضع البشر في اعتبارهم دائما 'رفاهية' المرضى، من دون التفكير في أولئك الذين سيقدّمونها. واعتبروا أمر امتلاك الطبيب أيَّ حقٍّ أو رغبة أو اختيار في الأمر أنانيّةً لا معنى لها؛ وقالوا إنّ رفاهيته ليست في أن يختار، بل في أن 'يعمل'. وأن يكون هذا الرجل الذي يرغب في العمل تحت الإكراه هو أيضًا خطر وحشيّ. وبالتالي يجب أن يعهد بوظيفة في حظائر الماشية ولم يخطر ببال أحد من أولئك الذين قدّموا أنفسهم لمساعدة المرضى عن طريق جعل الحياة مستحيلة على الأصحاء. لقد تساءلت في أحيانٍ كثيرةٍ عن التعجرف الذي يؤكّد به الناس حقَّهم في الاستعباد، والتحكّم في عملي، وإخضاع إرادتي، وانتهاك ضميري، وخنق ذهني. ومع ذلك، ما الذي يتوقّعون الاعتماد عليه عندما يستلقون على طاولة العمليّات تحت يدي؟ لقد علّمهم قانونهم الأخلاقيّ أن يعتقدوا أنّ من الآمن الاعتماد على فضيلة ضحاياهم. حسنًا، هذه فضيلة سحبتُها. فدعيهم يكتشفوا نوع الأطبّاء الذين سينتجهم نظامهم الآن. دعيهم يكتشفوا، في غرف عمليّاتهم وأجنحة المستشفى الخاصّة بهم، حيث يكون من غير الآمن وضع حياتهم في أيدي رجل خنقوا حياته. وأنّه من غير الآمن، إذا كان من النوع الذي يتساءلون منه، بل وأقلّ أمانًا، إذا كان من النوع الذي لا يفعل ذلك.

قال إليس وايت: لقد استقلت لأنّني لم أرغب في تقديم وجبةٍ لِأَكَلَة لحوم البشر وأكون الطبّاخ أيضًا.

قال كين داناغر: لقد اكتشفت أنّ الناس الذين كنت أقاتلهم كانوا عاجزين، كلّ أولئك العاجزين عن التغيير، الذين كانوا بلا هدفٍ، وغير مسؤولين، وغير عقلانيّين. لم أكن في حاجة إليهم، ولم يكن بوسعهم إملاء شروطهم، ولا كان عليّ أن أطيع مطالبهم. لقد استقلت، للسماح لهم باكتشاف ذلك أيضًا.

قال كوينتين دانيلز: لقد استقلت، لأنّه إذا كانت في اللعن درجات فإنّ العالم الذي يضع عقله في خدمة القوّة الوحشيّة هو القاتل الغاشم على المدى الطويل فوق البسيطة.

ثمّ خيّم عليهم الصمت فلجأت إلى جالت وسألته: وأنت؟ لقد كنت أوّل من استقال، فما الذي دفعك إلى هذا الأمر؟

قهقه قائلًا: السبب هو رفضي أن أولد بأيّ خطيئة أصليّة.

- وماذا تعني بذلك؟

- لم أشعر قطّ بالذنب لأنّني قادرٌ على الإبداع. ولم أشعر قطّ بالذنب لأنّني ماهرٌ في العمل. ولا شعرت بذنبٍ قطٌّ لأنّني رجلٌ. ولم أقبل بأيّ ذنب غير مستحقّ، وهكذا كانت لي الحرّيّة في الكسب ومعرفة قيمتي الخاصّة. ومازلت أذكر أوّل مناسبة شعرت خلالها بأنّني على استعداد لأقتل الرجل الذي يدّعي أنّني موجود من أجل تلبية حاجته، وكنت أعرف أنّ ذلك كان أعلى شعور أخلاقيّ ساورني. لقد وقع ذلك في تلك الليلة، في اجتماع مصنع القرن العشرين للمحرّكات، عندما سمعت شرًّا لا يوصف يتحدّث بلهجة البرّ الأخلاقيّ، فأدركت جذور مأساة العالم ومفتاحها وحلّها. ورأيت ما يجب فعله، فغادرت المصنع لأفعل ذلك.

سألته: ولماذا تخلّيت عن المحرّك؟ لماذا تركته لورثة آل ستارنيس؟

- لقد كان ملكيّة لوالدهم، لأنّه كان يدفع لي أجرا مقابل عملي عليه، ولأنّني أنجزت تلك المهمّة في زمنه. لكنّني كنت أعلم أنّه لن يفيدهم ولن يسمع أحدٌ عنه مجدّدًا. كان أوّل نموذجٍ تجريبيٍّ. ولا أحد سواك أو مَن يعادلك كان بإمكانه إكماله أو حتّى فهم ما هو عليه. وأدركت أنّه لا يوجد شخصٌ مثلي قد يقترب من ذلك المصنع منذ ذلك الحين.

- وهل كنت تدرك نوع الإنجاز الذي يمثّله محرّكك؟

- نعم.

- وهل كنت تدرك أنّك ستتركه ليهلك؟

- نعم.

ثمّ نظر إلى الظلام خلف النوافذ وضحك بهدوءٍ، ثمّ استأنف حديثه: لقد نظرت إلى محرّكي للمرّة الأخيرة قبل أن أغادر. وفكّرت في البشر الذين يدّعون أنّ الثروة مسألةٌ متعلّقة بالموارد الطبيعيّة، والناس الذين يدّعون أنّ الثروة مسألةٌ مرتبطة بالاستيلاء على المصانع، والبشر الذين يدّعون أنّ الآلات تعمل على تكييف أدمغتهم. حسنًا، لقد اخترعت المحرّك لتكييفها، لكنّه بقي هناك تمامًا كما هو دون عقل الإنسان الذي اخترعه، ككومةٍ من قصاصات المعادن والأسلاك التي سيفنيها الصدأ. أمّا أنت يا داغني فكنت تفكّرين في الخدمة العظيمة التي يمكن أن يقدّمها ذلك المحرّك للبشرية إذا وُضِعَ في عجلة الإنتاج. وأعتقد أنّه يومَ يفهمُ البشر ما يحمله من معنى في ذلك المصنع الذي يشبه كومة النفايات سيكون قد جعلهم أعظم.

- وهل كنت تتوقّع عندما تركت المحرّك أن ترى ذلك اليوم؟

- لا.

- وهل كنت تتوقّع وجود فرصة لإعادة بنائه في مكانٍ آخر؟

- لا.

- وهل كنت على استعداد للسماح له بالبقاء بين الأنقاض في كومة الخردة تلك؟

ردّ ببطءٍ: من أجل كلّ ما يعنيه ذلك المحرّك لي، وجب عليّ أن أكون مستعدًّا للسماح له بالانهيار والتلاشي إلى الأبد، تمامًا مثلما سيكون عليك الاستعداد لترك سكّة الحديد لشركة تاجرت العابرة للقارّات تتلاشى وتختفي.

فالتقت عينَي داغني بعينيه، وكانت قد رفعت رأسها، وقالت بهدوءٍ، وفي بنبرة التماس:

- لا تطلب منّي أن أجيبك الآن.

- لن أفعل. سنخبرك بكلّ ما ترغبين في معرفته ولن نؤثّر على قرارك.. لطالما قلت إنّ هذه اللّامبالاة تجاه عالمٍ كان ينبغي أن يكون عالمنا هي أصعب شيء يمكن إنجازه. أعلم ذلك. لقد مررنا جميعًا بمثل تلك الصعوبة.

ثمّ نظرت داغني إلى الغرفة الهادئة المنيعة، وانتقلت بنظرها إلى النور، ذلك النور الذي كان مصدره هو محرّكه. ثمّ ألقت نظرة على وجوه الرجال الذين كانوا يكوّنون أكثر تجمّع هادئٍ تملؤه الثقة، ولم يسبق لها أن رأت مثله من قبل. وسألته:

- وماذا فعلت عندما خرجت من مصنع القرن العشرين؟

- لقد خرجت لأصبح مراقبًا للّهب. وأوكلت إلى نفسي مهمّة مراقبة تلك القناديل الساطعة في ليل الوحشيّة المتزايد، التي كان رجال القدرة، ورجال العقل يمثّلونها لمشاهدة مسارهم، ونضالهم ومعاناتهم. وجذبهم، حين أدرك أنّهم عانوا بما فيه الكفاية.

- ماذا كنت تقول لهم حتّى يتخلّوا عن كلّ شيءٍ؟

- لقد قلت لهم إنّهم على حقٍّ.

وأضاف ردًّا على سؤال صامتٍ تضمّنته نظرتها: لقد منحتهم الفخر الذي لم يدركوا أنّهم يمتلكونه. ووهبتهم الكلمات للتعرّف عليه. لقد منحتهم المكسب الذي لا يقدَّر بثمنٍ، المكسب الذي افتقدوه، وكانوا يتوقون إليه، لكنّهم لم يعرفوا أنّهم يحتاجون إليه: تلك العقوبة الأخلاقيّة. أظنّك وصفتني حينها بالمدمّر وصيّاد البشر؟ والحال أنّي كنت المندوب المتجوّل لهذا الإضراب، وزعيمَ تمرّد الضحايا، والمدافع عن المظلومين، والمحرومين، والمستَغَلّين.

- من هو أوّل شخص اتّبعك؟

فسكت جالت لحظةً، بتأكيد متعمّد، ثمّ أجاب: أفضل صديقين لي. أنت تعرفين أحدهما، وربّما تعرفينه أفضل من أيّ شخص آخر، وتعرفين الثمن الذي دفعه مقابل

ذلك. والآخر هو أستاذنا الدكتور أكستون. لقد انضمّ إلينا في محادثة مساءٍ واحدٍ. أمّا ويليام هاستينغز، الذي كان مديري في مختبر أبحاث مصنع القرن العشرين للمحرّكات، فقد واجه وقتًا عصيبًا قضّاه في صراع مع نفسه لقبول الالتحاق بنا. لقد استغرق الأمر منه عامًا كاملًا، لكنّه انضمّ إلينا في آخر الأمر. ثمّ تلاه ريتشارد هالي، ثمّ ميداس موليغان.

قال موليغان: أمّا أنا فلم يستغرق الأمر منّي سوى ربع ساعة.

قالت وهي تلتفت إليه: وهل أنت من أسّس هذا الوادي؟

– ردّ موليغان: نعم. لقد كان مجرّد ملاذٍ خاصّ بي في البداية. اشتريته منذ سنوات، واشتريت أميالًا من هذه الجبال، بالأجزاء تدريجيًا من مربّي الماشية والسادة الذين لم يعرفوا قيمة ما كانوا يمتلكونه. إذ لم يكن هذا الوادي مدرجًا في أيّ خارطةٍ. ثمّ شيّدت هذا المنزل، عندما قرّرت الرحيل. لقد قطعت كلّ السبل الممكنة للاقتراب منه، باستثناء طريق واحدة كانت مخفيّة تتجاوز قدرة اكتشاف أيّ شخص، وجهّزتُ هذا المكان ليكون قادرًا على دعم نفسه ذاتيًا، وحتّى أتمكّن من العيش هنا لبقيّة حياتي من دون أن أرى وجه أيّ لصٍّ. وحين بلغني أنّ جون جالت أقنع القاضي ناراغانسيت بالانضمام إلينا أيضًا، دعوت القاضي للمجيء إلى هنا. ثمّ طلبنا من ريتشارد هالي الالتحاقَ بنا. وفي البداية ظلّ الآخرون في الخارج.

قال جالت: لم نضع أيّ قواعد ما عدا قاعدة واحدة. فعندما أدّى الرجل اليمين، كان ذلك يعني التزامًا واحدًا: ألّا يعمل في مهنته الخاصّة، وألّا يستفيد العالم من مجهوده الذهنيّ. وكلّ واحد منّا فعل ذلك بالطريقة التي اختارها. فأولئك الذين لديهم المال، تقاعدوا للعيش على مدّخراتهم. أمّا أولئك الذين اضطرّوا إلى العمل، فحصلوا على أدنى الوظائف التي يمكنهم العثور عليها. وكان البعض منّا مشهورًا، أمّا البعض الآخر فلم يكن كذلك، مثل ذاك الشابّ الذي كان يعمل في المكابح بشركتك، والذي اكتشفه هالي لاحقًا. لقد أوقفناهم قبل أن يشرعوا في التعرّض للتعذيب. لكنّنا لم نتخلَّ

عن عقولنا أو العمل الذي أحببناه. واستمرّ كلّ واحدٍ منّا في مهنته الحقيقيّة، بطريقة مّا ووفق وقت الفراغ الذي يقتنصه، لكنّه فعل ذلك سرًّا، لمصلحته الخاصّة، ولم يعطِ الآخرين شيئًا، ولم يشاركهم أيَّ شيء. كنّا مشتّتين في جميع أنحاء البلاد، وكنّا منبوذين دائمًا، إلّا أنّنا قبلنا الآن بتجميع شتاتنا بنيّةٍ واعيةٍ. وكان ارتياحنا الوحيد يتحقّق في مناسبات نادرةٍ يلتقي فيها بعضنا بعضًا. ثمّ اكتشفنا أنّنا أحببنا أن نلتقي من أجل التذكير بأنّ الكائنات البشريّة لا تزال موجودةً على قيد الحياة. لذلك جئنا إلى هنا لتخصيص شهرٍ واحدٍ من السنة نقضيه في هذا الوادي للراحة والعيش في عالم عقلانيّ رشيدٍ، ولإخراج عملنا الحقيقيّ من مخبئه، ومقايضة إنجازاتنا هنا، حيث الإنجازات تعني الدفع، وليس نزع الملكيّة. لقد بنى كلّ واحد منّا منزلَه الخاصَّ على نفقته الخاصّة. والشهر الذي نقضيه هنا يجعلنا نتحمّل عبء الأشهر الأخرى.

قال هيوأكستون: أترين يا آنسة تاجارت، الإنسان كائن اجتماعيّ، ولكن ليس بالطريقة التي يَعِظُ بها اللصوص.

قال ميداس موليغان: إنّ حدث تدمير ولاية كولورادو هو الذي أطلق إشارة البداية في نموّ هذا الوادي. لقد جاء إليس وايت والآخرون للعيش هنا بشكل دائم، لأنّهم اضطرّوا إلى الاختباء. ومهما يكن الجزء الذي كان بإمكانهم إنقاذه من ثرواتهم، فإنّهم حوّلوه إلى ذهب أو آلات وأحضروه إلى هنا مثلما فعلت. وكان هناك ما يكفي منّا لتطوير المكان وخَلْقِ فرص عملٍ لأولئك الذين اضطرّوا إلى كسب عيشهم في الخارج. لقد بلغنا الآن مرحلةً يمكن فيها لمعظمنا العيش هنا بدوام كامل. فالوادي يكاد يكون ذاتيَّ الدعم. وفي ما يخصّ السلع التي لم نتمكّن من إنتاجها بعدُ، فقد أشتريها من الخارج عبر خطّ الأنابيب الخاصّ بي من خلال وكيل خاصٍّ، إنّه رجلٌ لا يسمح لأموالي بالوصول إلى اللصوص. نحن لا نمثّل دولةً هنا، ولسنا مجتمعًا من أيّ نوعٍ. نحن مجرّد جمعيّة طوعيّة من البشر الذين لا يجمعهم شيء سوى ما لكلّ شخصٍ من مصلحةٍ ذاتيّة. وأنا أمتلك الوادي وأبيع الآخرينَ الأرضَ عندما يطلبون منّي ذلك. ويعمل القاضي ناراغانسيت قاضيًا هنا، إذا نشب خلافٌ، وحتّى الآن لم يتمّ استدعاؤه

للتدخّل. يقولون إنّ من الصعب على البشر التوافق، لكن ستتفاجئين بمدى سهولة هذا الأمر. فعندما يحمل كلا الطرفين مُثُلًا أخلاقيّةً مطلقةً تعلن أن لا وجود لأيٍّ منهما من أجل الآخر فسيكون هذا السبب هو الوسيلة الوحيدة للتجارة بينهما. إنّ الوقت يقترب وسيتعيّن علينا أن ندعو الجميع للعيش هنا، لأنّ العالم ينهار بسرعة كبيرة إلى درجة أنّه قريبًا سيتضوّر جوعًا. لكنّنا ستتمكّن من دعم أنفسنا في هذا الوادي.

قال هيو أكستون: إنّ العالم يتحطّم بشكلٍ أسرع ممّا توقّعنا. والناس بصدد التوقّف والاستسلام. فقطاراتك المجمّدة، وعصابات المغيرين، والفارّين، هم أناس لم يسمعوا بنا من قبل، وهم ليسوا جزءًا من إضرابنا، إنّهم يتصرّفون بمفردهم. وهي الاستجابة الطبيعيّة لأيّ عقلانيّةٍ لا تزال قائمةً فيهم. إنّها تشبه الاحتجاج نفسه الذي نفّذناه.

قال جالت: لقد بدأنا من دون تخطيط مسبّق. ولم نكن نعرف ما إذا كنّا سنعيش لنرى تحرير العالم أم إنّنا سنضطرّ إلى ترك معركتنا وسرّنا للأجيال القادمة. لم نكن نعلم سوى أنّ هذه هي الطريقة الوحيدة التي ستمكّننا من الاستمرار في العيش. لكنّنا نعتقد الآن أنّنا سنشهد قريبًا يوم انتصارنا وعودتنا.

همست داغني: ومتى سيحدث ذلك؟

- عندما ينهار قانون اللصوص... عندما تسري عقيدة التضحية بالنفس، ولو لمرّة واحدة، في مسارها غير المقنّع؛ وعندما لا يجد الناس ضحايا مستعدّين لعرقلة طريق العدالة وتجاهل القصاص من أنفسهم؛ وعندما يكتشف خطباء التضحية بالنفس أنّ أولئك الذين هُم على استعداد لممارستها، ليس لديهم ما يضحّون به، وأنّ الذين يستطيعون التضحية لم يعودوا مستعدّين لتقديمها بعد الآن؛ وعندما يدرك الناس أنّ قلوبهم أو حتّى عضلاتهم لا يمكنها إنقاذهم، وأنّ العقل الذي لعنوه ليس موجودًا للإجابة على صرخاتهم لحظة طلب المساعدة؛ وعندما ينهارون كما يجب، من حيث هم بشر بلا عقول؛ وعندما لا يدعون السلطة، أو أيّ بقايا من القانون أو أيّ أثر للأخلاق، بلا أمل أو طعام أو أدنى طريقة للحصول عليه؛ وعندما ينهارون وتصبح

الطريق واضحةً. عندها فقط سنرجع لنبني العالم من جديد.

فخطرت محطّة تاجارت ببال داغني؛ لقد سمعت وقع الكلمات وصداها يخترق خدر عقلها، كأنّه مجموع العبء الذي لم يكن لديها الوقت لتحدّد ثقله. وقالت في نفسها إنّ تلك الغرفة كانت محطّة تاجارت، وليست القاعة العملاقة في نيويورك. كان هذا هدفها، ونهاية المسار، والنقطة وراء منحنى الأرض حيث التقى خَطَّا السكك الحديديّة المستقيمان واختفيا، وجذباها إلى الأمام مثلما جذبَا ناثانيل تاجارت. كان ذلك هو الهدف الذي رآه ناثانيل تاجارت عن بعد، وتلك كانت النقطة التي ما تزال تحمل نظرةَ خطّ مستقيم من رأسه المرفوع فوق حركة الرجال اللولبيّة في ساحة الجرانيت. ومن أجل ذلك، كرّست نفسها لسكك حديد شركة تاجرت العابرة القارّات، مثلما يتعلّق جسدٌ بروحٍ لم يُعثَر عليها بعدُ. لقد وجدت تلك الروح، وعثرت على كلّ ما كانت تريده، هناكَ في تلك الغرفة، وأصبح في متناولها وملكها، ولكنّ الثمن كان شبكة السكك الحديديّة التي تركتها خلفها، تلك السكك التي ستختفي، والجسور التي ستنهار، وأضواء الإشارة التي ستنطفئ... ولكن... ستختفي كلّ الأشياء التي كنت أحبّها، هكذا قالت في نفسها وهي تنظر بعيدًا.

- ليس عليك الردّ علينا الآن.

رفعت داغني رأسها. كان يراقبها كما لو أنّه يتابع الأفكار التي خطرت بذهنها. وقال:

- نحن لا نطلب منك الموافقة. فنحن لا نخبر أحدًا بأكثر ممّا هو مستعدّ لسماعه. وأنت أوّل شخص عرف سرّنا. لكنّك هنا بيننا وعليك أن تعرفي. فأنت الآن تدركين الطبيعة الدقيقة للاختيار الذي عليك القيام به. وإذا كان الأمر يبدو صعبًا، فذلك لأنّك مازلت تعتقدين أنّه يجب ألّا يتمّ بهذه الطريقة وأنّه قد توجد حلول أخرى. وستعلمين أنّه يجب أن يتمّ على هذا النحو.

- وهل ستمنحني الوقت الكافي لاتّخاذ القرار؟

- الوقت وقتك وليس وقتنا حتّى نمنحك إيّاه. خذي وقتك بالكامل. ويمكنك وحدك تحديد ما ستختارين فِعْله ومتى ستتّخذينه. فنحن نعلم تكلفة هذا القرار. لقد دفعنا ثمن ذلك. إنّ قدومك إلى هنا قد يسهّل الأمر عليك، وقد يجعله أصعب.

همست: ربّما جعل الأمر أصعب بكثير.

- أعلم ذلك.

قال ذلك بصوت منخفض، هو ذاته صوتُ التحامل على تجاوز النفس، ففوّتت داغني لحظة من الوقت بصمتٍ يشبه السكون الذي عرفته إثر صدمة الوقوع بالطائرة، لأنّها شعرت بأنّ تلك اللحظات لم تكن تشبه تلك التي حمَلَها أثناءها بين ذراعيه على سفح الجبل، ولكنّها بمثابة اللقاء بين صوتَيهما، وكان ذلك أقرب اتّصال جسديّ بينهما.

كان البدر مكتملًا في كبد السماء فوق الوادي، عندما عادا إلى منزله الذي كان مضيئًا مثل فانوس مسطّح مستدير من دون أشعّة، بضبابٍ من الضوء معلّقٍ في الفضاء، لا يبلغ الأرضَ. وبدت الإضاءة تأتي من تلألؤ أبيض غير طبيعيّ انبعث من التربة. وفي سكون البصر غير الطبيعيّ من دون لونٍ، بدت الأرض محجوبةً بشريط بعيدٍ، فلم تندمج أشكالها بعدُ في منظر طبيعيّ واضح المعالم، لكنّها كانت تتدفّق ببطء، مثل طباعة صورة فوتوغرافيّة على سحابةٍ. فجأةً، لاحظت داغني أنّها تبتسم وهي تنظر إلى منازل الوادي. كانت النوافذ المضاءة خافتةً من خلال قالبٍ يميل إلى الزرقة، وتلاشت خطوطُ جدرانِها العريضةُ، وقد غمرتها لفائف طويلة من الضباب على شكل موجات فاترة بطيئة. لقد بدا الوادي وكأنّه مدينة تغرق تحت الماء.

سألته: وماذا يسمّون هذا المكان؟

قال: أنا وإيدي نسمّيه موليغان. أمّا الآخرون فيسمّونه إفجيج جالت.

قال دون أن تنهي كلامها: كنت سأسمّيه..

نظر جالت إليها، وأدركت ما رآه في وجهها، فالتفت، وأدار وجهه بعيدًا عنها. لقد شاهدت حركة باهتة في شفتيه، تشبه إطلاق نَفَسٍ كان مجبرًا على زفيره. فأنزلت نظرها إلى أسفل، وأسقطت ذراعها على جانب السيّارة، كما لو أنّ يدها أصبحت فجأةً في غاية الثقل بسبب الضعف في انحناء مرفقها.

لقد بدت الطريق أكثر ظلمةً، كلّما ازداد في الارتفاع والتقت أغصان الصنوبر فوق رأسيهما. شاهدت داغني ضوء القمر على نوافذ منزله فوق منحنى صخريّ يتحرّك لمقابلتهما. فسقط رأسها مرّة أخرى على المقعد وهي مستلقية بثبات، وفقدت وعيها بالسيّارة، ولم تعد تشعر إلّا بالحركة التي دفعتها إلى الأمام، ومشاهدة قطرات الماء المتلألئة في أغصان الصنوبر مثل النجوم.

وعندما توقّفت السيّارة، لم تسمح لنفسها بمعرفة السبب الذي جعلها لم تنظر إليه عندما نزلت. لم تكن تعلم أنّها وقفت برهةً، وهي تنظر إلى النوافذ المظلمة. ولم تسمعه يقترب منها. لكنّها شعرت بأثر قوّة شديدة يأتي من يديه، كما لو أنّه الوعي الوحيد الذي كان عليها اختباره. فرفعها بين ذراعيه وبدأ يسير ببطءٍ في الطريق إلى المنزل.

كان يسير، ولا ينظر إليها، وهو يمسك بها، وكأنّه يحاول الإمساك بتقدّم الزمن، كما لو أنّ ذراعيه لا تزالان مغلقتَين في مثل اللحظة التي رفعها فيها إلى صدره. شعرت داغني بخطواته كما لو أنّها تتنقّل وفق مدى واحدٍ من الحركة صوب هدفٍ مّا، وكأنّ كلّ خطوة هي لحظة منفصلة لم تجرؤ أثناءها على التفكير في الخطوة الموالية. وكان رأسها قريبًا من شعره، وشعره ينظّف خدّيها، فأدركت أنّ أيًّا منهما لن يحرّك وجهه بمسافة أنفاس أخرى أقرب من ذلك الحدّ. كانت حالة من النشوة الهادئة المفاجئة والمذهلة، ذلك الانتشاء المكتمل في حدّ ذاته، الذي اختلط فيه شعراهما مثل أشعّة جسمين في الفضاء حقّقا لقاءهما، فرأته يمشي بعينين مغمضتين، كما لو أنّ الإبصار في تلك اللحظة كان نوعًا من أنواع الانتهاك.

ثمّ دخل المنزل، وبمجرّد عبوره غرفة المعيشة، لم ينظر إلى يساره ولا هي فعلت ذلك،

لكنّها علمت أنّ كليهما كانا يريان على يساره البابَ المؤدّي إلى غرفة نومه. فسار عبر الظلام حتّى بلغ ضوء القمر النازل على سرير غرفة الضيوف، حيث وضعها، فأحسّت بلحظة توقّف يديه وهي لا تزال تمسك بكتفها وخصرها. وحين تركت يداه جسدَها، علمت أنّ اللحظة انتهت.

ثمّ تراجع إلى الوراء وضغط على زرّ الأنوار، مُسلِّمًا الغرفةَ لوهج الضوء المُشاعِ القاسي. وظلّ واقفًا، وكأنّه يطلب منها أن تنظر إليه، بوجهٍ مترقّب شديد. ثمّ سألها: هل نسيت أنّك كنت ترغبين في إطلاق النار عليّ بمجرّد لقائي؟

وخيّم سكونُ جسدِه المكشوفُ فجعل الأمر يبدو حقيقيًّا. وشعرت بقشعريرة جعلتها منتصبة مثل صرخة الرعب والإنكار؛ لكنّها التقطت نظرته وأجابته باتّزان: هذا صحيح، لقد كنت مصمّمة على فعل ذلك.

- فالتزمي بذلك إذَن.

كان صوتها منخفضًا، وقد حملت نبرة شدّته مزيجًا من الاستسلام والعتاب الساخر:

- أنت أعقل من أن تقول ذلك لي، أليس كذا؟

قال: لا. أريدك أن تتذكّري أنّ تلك كانت رغبتك. وقد أصبتِ الحقّ في الماضي. فطالما كنتُ جزءًا من العالم الخارجيّ، وكان عليك أن تسعي إلى تدميري. وسيقودك أحدُ المسارين المتاحَين لك الآن إلى يومٍ تجدين فيه نفسَك مضطّرةً إلى فعل ذلك.

لم تجبه داغني مباشرة، بل جلست تنظر إلى أسفل، فرأى خصلات شعرها تتأرجح بتمايلٍ وهي تهزّ رأسها في احتجاجٍ يائس. فقال لها:

- أنت الخطر الوحيد الذي يتهدّدني، لأنّك الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يسلّمني إلى أعدائي. وإذا بقيتِ معهم، فسوف تفعلين ذلك. لك أن تتّخذي هذا القرار، لكن أتمنّى أن يكون ذلك بوعيٍ كاملٍ. ولا تجيبيني الآن ولكن أجيبيني حين تقرّرين فعل ذلك..

همست: تمامًا كما أدرك ذلك؟

- تمامًا.

ثمّ استدار للذهاب عندما وقعت عيناها فجأةً على خربشاتٍ لاحظت وجودَها على جدران الغرفة ونسيتها. لقد نُقِشت في الخشب اللّامع، ولا تزال تُظهر قوّة ضغط الأيدي التي خطّتها على القلم الرصاص، كلٌّ وفق كتابة عنيفة مميّزة: سوف تتخطّى ذلك - إليس وايت سيكون كلّ شيء على ما يرام في الصباح - كين داناغر إنّ الأمر يستحقّ ذلك - روجر مارش. وكانت هناك كتابات أخرى لأناس آخرين.

سألته: وما كلّ هذه الخربشات؟

قال وهو يبتسم: هذه الغرفة هي المكان الذي قضّوا فيه الليلة الأولى في الوادي. والليلة الأولى كانت هي الأصعب. إنّها آخر شوط يقطعه المرء مع ذكرياته، وهي الأسوأ. لقد سمحت لهم بالبقاء هنا، حتّى يتمكّنوا من الاتّصال بي، متى أرادونني. وكنت أتحدّث إليهم حين يجافيهم النوم، وبالفعل لم يستطع معظمهم الخلود للنوم. لكنّهم بمجرّد حلول الصباح يتخلّصون من كلّ ذكرى... لقد مرّوا جميعًا بهذه الغرفة. الآن يسمّونها غرفة التعذيب أو قاعة الانتظار، لأنّه كان على الجميع دخول الوادي عبر منزلي.

ثمّ استدار للذهاب، لكنّه توقّف عند العتبة وأضاف: هذه هي الغرفة التي لم أكن أنوي أن تسكنيها من قبل. تصبحين على خير يا آنسة تاجارت.

الفصل الثاني

يوتوبيا الجشع

- صباح الخير.

نظرت إليه عبر غرفة المعيشة من خلال عتبة بابها. كانت النوافذ تطلّ على الجبال التي تحمل لونًا ورديًّا فضّيًّا يبدو أكثر إشراقًا من ضوء النهار. وقد ارتفعت الشمس في مكان مّا فوق الأرض، لكنّها لم تصل بعدُ إلى قمم الجبال، فكانت السماء تتوهّج بدلًا منها، معلنةً عن حركتها. لقد سمعت تحيّةَ شروق الشمس السعيدةَ، لم تكن أغنية طيور، بل رنينَ الهاتف منذ لحظة خَلَتْ؛ وشاهدت بداية اليوم، لا من خلال الاستمتاع بلون أغصان الأشجار الأخضر المشرق في الخارج، ولكن من خلال بريق الكروم بالموقد، وبريق منفضة سجائر زجاجيّة على الطاولة، وبياض كُمَّيْ قميصه الناصع. وسمعت بشكل لا يقاوم صوتَ ابتسامتها، المطابق لصوت ابتسامته، حينما ردّت:

- صباح الخير.

كان بصدد جمع ملاحظاتٍ عن بعض حساباتٍ دوّنها بالقلم الرصاص فنقلها من مكتبه إلى جيبه. وقال:

- يجب أن أذهب إلى محطّة توليد الطاقة الكهربائيّة. لقد اتّصلوا بي الساعةَ لأنّهم يواجهون مشكلةً مع الشاشة المخصّصة لقراءة الأشعّة. يبدو أنّ طائرتك أوقفت تشغيلها. سأعود خلال نصف ساعة، وبعد ذلك أعدّ فطورنا.

بدت بساطةُ صوته العابرةُ، وطريقةُ التعامل مع وجودها، وروتينُهم الداخليّ مثل أمر بديهيّ، وكأنّ تلك الأشياء لم يكن لها عندَهم أيُّ أهمّيّة، وهو ما أوحى إليها بأهمّيّة مؤكّدة وشعورٍ بأنّه يعرف ذلك.

أجابته بشكل عرضيّ: إذا أحضرت لي العصا التي تركتها في السيّارة، فستجد الفطور جاهزًا بمجرّد عودتك.

فنظر إليها مندهشًا، وجال بعينيه من كاحلها المضمّد إلى كُمَّيْ بلوزتها القصيرة التي تركت يديها عارية لإظهار الضمّادة الثقيلة في مرفقها. لكنّ البلوزة الشفّافة، والياقة المفتوحة، والشعر المتساقط على الكتفين، وقد بدا عاريًا ببراءة تحت طبقة رقيقة من القماش، جعلتها تبدو مثل تلميذة نجيبة.

فابتسم، ولكنّ ابتسامته لم تكن موجّهة إليها، بل بدت كما لو أنّه يستمتع بذكرى مفاجئة خاصّة به. فقال: إذا كنت ترغبين في ذلك.

كان من الغريب أن يتركها وحدَها في منزله. وكان جزءٌ من الغرابة عاطفةً لم تعشها من قبل: لقد اعتراها شعور مذهل بالاحترام جعلها تدرك التردّد الذي وجدته في يديها، كما لو أنّ لمس أيّ شيء من حولها كان أمرًا عظيمًا وسيكون ذا حميميّة بالغة جدًّا. أمّا الجزء الآخر فكان شعورًا مستهترًا بما وجدته من سهولة، فأحسّت كأنّها في منزلها، بل وكأنّها تمتلك صاحب المكان.

كان من الغريب أن تشعر بفرحة نقيّة جدًّا في مهمّة بسيطة هي إعداد فطور الصباح. لقد بدا العمل غايةً في حدّ ذاته، وكأنّ الحركات التي أدّتها لملء إبريق القهوة، وعصير البرتقال، وقصّ الخبز لهما، كانت من أجل نوع من المتعة التي يتوقّعها المرء ولكنّه نادرًا ما يجدها إلّا في حركات الرقص. لقد أذهلها ما أدركته من كونها لم تشهد هذا النوع من المتعة في عملها منذ أيّامها بمكتب عامل الهاتف في محطّة روكديل.

كانت ترتّب الطاولة، عندما رأت خيال رجلٍ يسير على عجلٍ في طريقه نحو منزل جالت. كان جسده سريعًا ورشيقًا وهو يقفز فوق الصخور بسهولة الطيران. ثمّ فتح

الباب وهو يقول: مرحبًا يا جون! وتوقّف قليلًا عندما رآها. كان يرتدي سترة زرقاء داكنة وبنطلونا، وذا شعر ذهبيّ ووجه مكتمل ذي جمال أخّاذٍ جعلها تقف بثبات وذهول، وهي تحدّق فيه، لا من هول الإعجاب في البداية، ولكن لأنّها ببساطة لم تصدّق رؤيته.

فأخذ ينظر إليها كما لو أنّه لم يتوقّع العثور على امرأة في ذلك المنزل. ثمّ لاحظت نظرة تقديرٍ تنقلب إلى نوع مختلف من الدهشة، تشوب التسلية جزءًا منها، وينصهر النصر في جزئها الآخر. فسألها: أوه، هل انضممت إلينا؟

أجابته: لا، لم أفعل. أنا مجرّد نزيلة هنا.

قال وهو يضحك: إذا كنت تدركين ما تقولينه، فلتعلمي أنّ ذلك غير ممكن هنا.

- لقد حطّمت البوابة.

فنظر إلى ضمّاداتها، فحدجها بنظرة متجاسرة من الفضول المفتوح ثمّ سألها: ومتى وقع ذلك؟

- بالأمس.

- وكيف تمّ ذلك؟

- بالطائرة.

- وماذا كنت تفعلين بالطائرة في هذا الجزء من البلاد؟

كان سلوكه مباشرًا ومتسلّطًا يشبه تصرّفات شخص أرستقراطيّ أو أحد الرجال ذوي الطبائع الخشنة العنيفة؛ الحقّ أنّه بدا مثل الأوّل، لكنّ ثيابه كانت توحي بانتمائه إلى الصنف الثاني. فنظرت إليه لحظةً، ثمّ تعمّدت تركَه ينتظر وأجابته: كنت أحاول الهبوط على سراب ما قبل التاريخ، وقد تمكّنت من فعل ذلك.

فردّ ضاحكًا، كما لو أنّه كان يستوعب كلّ تداعيات المشكلة: وأين جون؟

- السيّد جالت موجود بمحطّة توليد الطاقة الكهربائيّة، وربّما يعود في أيّ لحظة.

فجلس الرجل على كرسيّ بذراعَين، ولم يطلب منها إذنًا لفعل ذلك، وكأنّه كان في منزله. فأشاحت بوجهها عنه في صمتٍ وعادت إلى عملها. وجلس هو يراقب تحرّكاتها بابتسامة مفتوحة، كما لو أنّ رؤية وضع أدوات المائدة على طاولة المطبخ كان مشهدًا يوحي بمفارقة خاصّة.

سألها: وماذا قال فرانسيسكو عندما رآك هنا؟

فالتفتت إليه وقد انتابتها رعشة طفيفة، لكنّها أجابته باتّزان: فرانسيسكو لم يصل بعد إلى هنا.

قال والذهول يعتري محيّاه: لم يصل بعد؟ هل أنت واثقة من ذلك؟

- هذا ما قيل لي.

فأشعل سيجارةً. وتساءلت، وهي تراقبه، عن المهنة التي اختارها وأحبّها وهجرها للانضمام إلى هذا الوادي، لكنّها لم تستطع توقّع ذلك، فما من مهنة تناسبه؛ فخالجها شعور غير معقولٍ من التمنّي ودّت من خلاله ألّا تكون له مهنةٌ على الإطلاق، لأنّ أيّ عمل سيكون خطيرا على هذا الجمال الباذخ. لم يكن شعورًا شخصيًّا، إذ لم تنظر إليه على أنّه رجل، بل على أساس أنّه عملٌ فنّيّ متحرّك، وبدا أنّ من الإهانة المرهقة للعالم الخارجيّ أن يُضطَرّ كمالُه إلى التعرّض للصدمات والإجهاد والندوب التي تنتظر أيّ رجل يحبّ عمله. لكنّ الشعور أصبح أكثر عقلانيّة، لأنّ خطوط وجهه أظهرت نوعًا من الصلابة التي لم يكن على الأرض خطرٌ قد يهدّدها.

قال فجأة: لا داعي إلى الدهشة يا آنسة تاجارت، فأنت لم تريني من قبل.

فصدمت عندما أدركت أنّها كانت تراقبه عَلَنًا. فسألته: وكيف عرفت من أكون؟

- أوّلًا، لقد رأيت صورك في الصحف مرّات عديدةً. ثانيًا، أنت المرأة الوحيدة المتبقّية في العالم الخارجيّ، على حدّ علمنا، والتي سيسمح لها بدخول إفجيج جالت.

ثالثًا، أنت المرأة الوحيدة التي ستتحلّى بالشجاعة والحيويّة لتبقى مجرّد نزيلة هنا.

- وما الذي جعلك متأكّدًا من أنّني هنا مجرّد نزيلة؟

- إذا لم تكوني كذلك، فعليك معرفة أنّ سراب ما قبل التاريخ لا يوجد في هذا الوادي، هي فقط ما يحمله الناس في العالم الخارجيّ من نظرة إلى الحياة.

ثمّ سمعا صوت المحرّك فشاهدا توقّف سيّارة جالت أمام المنزل. ثمّ لاحظت داغني سرعة تنبّه الرجل عند رؤية جالت في السيّارة. ولولا تقديره الشخصيّ الواضح، لكان الأمر سيبدو كبادرة غريزيّة من الاحترام العسكريّ.

ثمّ لاحظت الطريقة التي توقّف بها جالت، عندما دخل ورأى زائره. ولاحظت أنّ جالت ابتسم، ولكنّ صوته كان منخفضًا بشكل غريب، كما لو أنّه مثقلٌ براحة غير مُعلَنة، عندما قال بهدوء شديد: مرحبًا.

ردّ الزائر بمرح: مرحبًا جون.

لاحظت أنّ مصافحتهما أتت في وقت متأخّر جدًّا واستمرت فترة طويلة جدًّا، مثل مصافحة رجلين لم يكونا متأكّدين من أنّ اجتماعهما السابق لن يكون الأخير.

فالتفت جالت إليها. وخاطب كلًّا منهما: هل سبق أن تقابلتما؟

قال الزائر: لم يحصل هذا الأمر في السابق.

- آنسة تاجارت، هل لي أن أقدّم لك راجنار دانيسكولد؟

كانت تدرك كيف بدا وجهها، عندما سمعت صوت دانيسكولد من مسافة بعيدة وهو يطمئنها: لا داعي إلى الخوف يا آنسة تاجارت. فأنا لا أمثّل خطرًا على أيّ شخص في إفجيج جالت.

فلم يكن بوسعها سوى أن تهزّ رأسَها قبل أن تستعيد صوتَها لتقول: ليس هذا ما تفعله بأيّ شخص...بل هذا ما يفعلونه بك...

فاجتاحها ضحكه وحملها بعيدًا عن شرود اللحظة وقال: كوني حذرة يا آنسة تاجرت. فإذا كانت هذه هي الطريقة التي تشعرين بها، فإنّك لن تظلّي نزيلة هنا فترةً طويلةً.. لكن يجب عليك أن تبدئي بتبنّي ما يأتيه الناس من أمور صائبة في إفجيج جالت، وأن تبتعدي عن أخطائهم: لقد أهدروا اثني عشر عامًا وهم قلقون منّي بلا مبرّرٍ منطقيٍّ.

سأله جالت: ومتى عدت؟

- في وقت متأخّر من الليلة الماضية.

- اجلس. ستتناول الفطور معنا.

- لكن أين فرانسيسكو؟ لماذا لم يصل إلى هنا بعد؟

ردّ جالت: لا أدري. لقد سألت عنه في المطار الآن. ولا أحدَ سمع بعدُ بخبر قدومه.

عندها التفتت داغني لتتوجّه إلى المطبخ، فتحرّك جالت للّحاق بها فقالت: لا، إنّ الإفطار هو مهمّتي اليوم.

- دعيني أساعدك.

- ألم تقل لي إنّ هذا الوادي هو المكان الذي لا يطلب فيه المرء أيّ مساعدة؟

قال وهو يبتسم: هذا صحيح.

لم تشعر قطُّ بمتعة في الحركة مثل تلك التي انتابتها حينَها، فغمرها الحبور إذ مشت كما لو أنّ قدمَيها لا تحملان أيّ وزنٍ، وسارت كأنّ دعم العصا في يدها مجرّد لمسة زائدة من الأناقة، فاجتاحتها متعة الشعور بخطواتها وهي تتّبع خطوطًا سريعة ومستقيمة، لتحسّ بدقّة صائبة وعفويّة في إيماءاتها كما عاشتها أثناء وضع طعامها على الطاولة أمام الرجلين. وأخبرهما سلوكها بأنّها كانت تعلم أنّهما يراقبانها، فرفعت رأسها وتصرّفت كممثّلة على خشبة المسرح، أو امرأة في قاعة الرقص، أو مثل الفائز في مسابقة صامتة.

قال دانيسكولد، عندما انضمّت إلى الطاولة: سيسعد فرانسيسكو حين يعلم أنّك أنت من يقف في صفّه اليوم.

- ماذا؟

- كما تعلمين، اليوم هو الأوّل من حزيران (يونيو)، وقد تناولنا نحن الثلاثة - أنا وجون وفرانسيسكو - الفطورَ معًا في أوّل أيّام شهر حزيران (يونيو) لمدّة اثني عشر عامًا.

- هنا؟

- لم نفعل ذلك عندما بدأنا. ولكن دأبنا على تلك العادة هنا، منذ أن بُنِي هذا المنزل قبل ثماني سنوات. وفي خصوص رجلٍ مثل فرانسيسكو، وهو يملك من التقاليد ما دَامَ قرونًا أكثر ممّا أملك، فمن الغريب أن يكون أوّل من يخرق تقاليدنا.

سألته: وماذا عن السيّد جالت.. كم من قرن مضى عليه؟

- جون؟ لاشيء على الإطلاق. لا قرن مضى عليه، ولكن تنتظره القرون كلّها.

- ردّ جالت: لا تهتمّ بالقرون والدهور. وأخبرني عن طبيعة السنة التي مررت بها. فهل فقدت أيّ رجل؟

- لا.

- وهل أضعت أيّ وقت؟

- تقصد، هل أصابتني أيّ جروح؟ لا، لم يلحق بي أيّ خدش منذ ذلك الحين، قبل عشر سنوات، عندما كنت لا أزال هاويًا، ولعلّي نسيت ذلك الأمر الآن. لم أتعرّض هذا العامَ لأيّ خطر من أيّ نوع. في الواقع، كنت أكثر أمانًا ممّا لو أنّني أدير صيدليّة ببلدة صغيرة بموجب القانون التوجيهيّ رقم 289-10.

- وهل خسرت أيّ معارك؟

- لا. كانت الخسائر كلّها على الجانب الآخر، هذا العام. لقد خسر اللصوص معظم سفنهم وسلّموني إيّاها، واستسلم معظم رجالهم لك. وأنت أيضًا مررت بسنة جيّدة، أليس كذلك؟ أعرف هذا لأنّني كنت أتابعك. وأعلم أنّك حصلت منذ فطورنا الأخير معًا على كلّ ما تريده من ولاية كولورادو، والتحق بك عددٌ قليل من الآخرين ومن بينهم كين داناغر الذي كان عندك بمثابة الجائزة الرائعة. ولكن اسمح لي بأن أخبرك عن جائزة أعظم، تكاد تكون من نصيبك. وسوف تحصل عليه قريبًا، لأنّه معلّق بخيط رفيع وهو على وشك السقوط أمام قدميك. هو رجل أنقذ حياتي، لذلك يمكنك أن تدرك حجم الأشواط التي قطعها.

فانحنى جالت إلى الخلف، وقد ضاقت عينيه وقال: لذلك قلت لي إنّك لم تتعرّض لأيّ خطر من أيّ نوع، أليس كذلك؟

فضحك دانيسكولد وردّ: أوه، لقد جازفت قليلًا. كان يستحقّ ذلك. إنّه اللقاء الأكثر إمتاعًا على الإطلاق. وكنت أنتظر إخبارك بذلك شخصيًّا. إنّها قصّة سترغب في سماعها. هل تعرف من كان الرجل؟ إنّه هانك ريردن. أنا...

- لا!

صرخ جالت؛ وكان صوت صراخه بمثابة إصدار أمرٍ؛ وقد حملت نبرته القصيرة مسحةً من عنفٍ لم يسمعها أحدٌ منهما عنه من قبل.

- سأله دانيسكولد بهدوء لا يصدّق: ما خطبك؟

- لا تخبرني عن ذلك الآن.

- لكنّك كنت تقول دائمًا إنّ هانك ريردن هو الرجل الوحيد الذي أردت رؤيته هنا أكثر من غيره.

- ومازلت أؤمن بذلك. لكنّك ستخبرني عنه لاحقًا.

فدرست داغني ملامح وجه جالت باهتمامٍ، لكنّها لم تلاحظ فيها وجودَ أيّ فكرة،

ولم ترَ سوى نظرة مغلقة وغير مخصوصة حملت في طيّاتها إمّا التصميم أو السيطرة، فزادت من شدّ بشرة عظام وجنتيه وخطّ فمه. وبغضّ النظر عمّا يعرفه عنها، فقد اعتقدت أنّه لا يملك أيّ طريقة لاكتساب المعرفة الوحيدة التي يمكنها تفسير ذلك.

ثمّ التفتت إلى دانيسكولد وسألته: وهل قابلت هانك ريردن؟ وهل أنقذ حياتك؟

- نعم.

- أريد معرفة ما يتعلّق بهذا الموضوع.

ردّ جالت: أنا شخصيًّا لا أرغب في سماع مزيد من التفاصيل عن ذلك.

- ولمَ لا تودّ سماع ذلك؟

- لأنّك لست منّا بعد يا آنسة تاجارت.

قالت وهي تبتسم: فهمتك. وهل كنت تعتقد أنّني قد أمنعك من الحصول على هانك ريردن؟

- لا ليس ذلك ما كنت أفكّر فيه.

ثمّ لاحظت أنّ دانيسكولد كان يحدّق في وجه جالت، كما لو أنّه هو أيضًا وجد الحادث غير قابل للتفسير. فغضّ جالت طرفه عن الموضوع عمدًا وعلنًا، كما لو أنّه يتحدّاه ليجد التفسير ويعده بأنّه سيفشل في إيجاده. كانت تعلم أنّ دانيسكولد فشل، عندما رأت حسًّا خافتًا من الفكاهة لَيّنَ جفون جالت. - سأله جالت: وماذا أنجزت أيضًا هذا العام؟

- تحدّيت قانون الجاذبيّة.

- لقد فعلت ذلك دائمًا. لكن وفق أيّ شكل فعلته الآن؟

- على شكل رحلة من وسط المحيط الأطلسيّ إلى ولاية كولورادو في طائرةٍ محمّلة بالذهب تجاوزت حدود الأمان لقدرتها على الشحن. انتظر حتّى يرى ميداس المبلغ

الذي يجب عليّ إيداعه. ستزداد ثروة زبائني هذا العام، وسيصبحون أكثر ثراءً من ذي قبل.. قل لي، هل أخبرت الآنسة تاجارت بأنّها من عملائي؟

- لا لم أخبرها بعد. يمكنك إخبارها إن شئت.

سألته داغني: ماذا قلت؟ هل أنا من عملائك؟

ردّ دانيسكولد: لا تندهشي يا آنسة تاجارت ولا تعترضي. لقد اعتدت على سماع الاعتراضات. فأنا غريب هنا مثلك على أيّة حال. ولا أحد منهم يوافق على طريقتي الخاصّة في خوض معركتنا بمن فيهم جون والدكتور أكستون. هم يعتقدون أنّ حياتي قيّمة جدًّا بالقياس إلى مثل هذا المهمّة. ولكن، كما ترين، لقد كان والدي أسقفًا، ومن بين جميع تعاليمه ثمّة جملة واحدة قبلتها: كلّ ما أخذ بحدّ السيف سيهلك بالسيف...

- وماذا تعني؟

- أعني أنّ العنف ليس حلًّا عمليًّا. فإذا كان رفاقي من البشر يعتقدون أنّ قوّة جماع وزن عضلاتهم هو الوسيلة العمليّة للسيطرة عليّ، فدعيهم يعلموا نتيجة مسابقةٍ ليس على أحد جوانبها سوى القوّة الوحشيّة، وأمّا الجانب المقابل فعليه القوّة التي يحكمها العقل. وحتّى جون نفسه يمنحني حقًّا أخلاقيًّا في عصرنا لاختيار المسار الذي اخترته. وأنا أفعل تمامًا ما يفعله، لكن بطريقتي الخاصّة. فهو يسحب الروح الإنسانيّة من اللصوص، أمّا أنا فأسحب منتجات روح الإنسان. إنّه يحرمهم العقلَ، أمّا أنا فأحرمهم الثروةَ. إنّه يستنزف روح العالم، أمّا أنا فأفرغ جسده. هذا هو الدرس الذي يجب عليهم تعلّمه، غير أنّني غير صبور، لذلك أعمل جاهدًا للتسريع في تقدّمهم الدراسيّ. ولكنّني ألتزم، مثل جون، بقواعدهم الأخلاقيّة وأرفض منحهم معيارًا مزدوجًا على حسابي أو على حساب ريردن أو على حسابك.

- عمّ تتحدّث؟

- عن طريقة لفرض الضرائب على الدخل. جميع طرق الضرائب معقّدة، ولكنّ هذه الطريقة في غاية البساطة، لأنّها الجوهر العاري لجميع الطرق الأخرى. دعيني

أوضّحها لك.

وظلّت تنصت إليه فسمعت تلاوة صوتيّة متلألئة، بنبرة قاسية لمحاسب دقيق جدًّا، تحمل تقريرًا عن التحويلات الماليّة، والحسابات المصرفيّة، وإقرارات ضريبة الدخل، كما لو أنّه كان يقرأ صفحات متربة من سجلّ حسابات، سجلّ يتمّ إدخال كلّ وسيلة لتقديم دمه كضمان ليتمّ تصريفه في أيّ لحظة، وفي أيّ زلّة من مسك قلم الدفاتر الخاصّ به. وبينما كانت تستمع، استمرّت في رؤية الكمال بوجهه، وظلّت تعتقد أنّ هذا هو الرأس الذي وضع العالم الملايين ثمنًا لإيصاله إلى عفن الموت... الوجه الذي خالته بكثيرٍ من أن تلحق به ندوب مهنة منتجة، واستمرّت في التفكير وهي مخدّرة، وقد فقدت نصف كلماته... ذلك الوجه الفائق الجمال يقوم بمثل تلك المغامرات الخطيرة... ثمّ أدهشها أنّ كماله الجسديّ كان مجرّد توضيح وتوثيق بسيط لدرس طفوليّ قدّم لها بعبارات جليّة وبشكل واضح عن طبيعة العالم الخارجيّ ومصير أيّ قيمة إنسانيّة في عصر مّا دون البشر. وقالت في نفسها: مهما يكن في مساره من عدالة أو شرّ، كيف يمكن لهم فعل ذلك به؟.. ثمّ قالت في نفسها: لا! لقد كان مساره عادلًا، وذلك هو الجانب المرعب فيه، حين لا يوجد خيارُ مسارٍ آخر للعدالة، وقالت إنّه لا يمكنها إدانته، وإنّها لا تستطيع الموافقة على إصدار كلمة عتاب أو نطقها في حقّه... وقد تمّ اختيار أسماء عملائي ببطءٍ يا آنسة تاجرت، واحدًا تلو آخر. كان عليّ أتأكّد من طبيعة شخصيّاتهم وطبائعهم ووظائفهم. وكان اسمك من بين الأسماء الأولى على قائمتي الخاصّة بأولئك الذين يجب استعادتهم بيننا.

فأجبرت داغني نفسها على إبقاء وجهها مشدودًا بلا تعبير، وأجابت باقتضاب: فهمتك.

- حسابك هو أحد آخر الحسابات التي بقيت من دون دفع. إنّه هنا، في بنك موليغان، لتطالبي به يومَ تنضمّين إلينا.

- فهمتك.

- لكنّ حسابك ليس ضخمًا مثل بعض الحسابات الأخرى، على الرغم من ابتزاز مبالغ ضخمة منك بالقوّة في الاثني عشر عامًا الماضية. سوف تجدين - كما هو موضّح في نُسخ عائدات ضريبة الدخل التي سوف يسلّمك إيّاها موليغان - أنّني أرجعتُ تلك الضرائب التي دفعتها فقط على الراتب الذي كسبته من موقع نائب رئيس تشغيل، ولكن لم تشمل الضرائب التي دفعتها على دخلك من أسهم شركة تاجرت العابرة للقارّات الخاصّة بك. أنت تستحقّين كلّ قرش من هذا المخزون، ولو حصل ذلك في أيّام والدك لكُنتُ عوّضتك عن كلّ قرش من أرباحك، ولكن تحت إدارة أخيك، استحوذت شركة تاجرت العابرة للقارّات على نصيبها من النهب، وحقّقت أرباحًا بالقوّة، عن طريق الامتيازات الحكوميّة والإعانات والإيقافات الاختياريّة والقوانين التوجيهيّة. لم تكوني مسؤولةً عن ذلك، بل أنت في الواقع أكبر ضحيّة لتلك السياسة، لكنّني لا أعوّض سوى الأموال التي جمعتها من خلال القدرة الإنتاجيّة البحتة، ولا أعيد المال الذي نُهب أيُّ جزءٍ منه بالقوّة.

- فهمتك.

ثمّ أنهوا وجبة الفطور. فأشعل دانيسكولد سيجارةً وشاهد داغني لحظةً من خلال أوّل نفث من الدخان، كما لو أنّه كان يعرف عنف الصراع داخل ذهنها، ثمّ ابتسم ابتسامةً عريضةً في وجه جالت ونهض. وقال: يجب عليّ الخروج الآن والجري طوال مسافة الطريق للوصول إلى المنزل، فزوجتي تنتظرني.

سألته داغني بذهول: ماذا تقول؟

كرّر بمرحٍ كما لو أنّه لم يفهم سبب صدمتها: زوجتي.

- ومن هي زوجتك؟

- كاي لودلو.

كانت الآثار التي صدمتها أكثر ممّا تستطيع استيعابه فسألته: ومتى... تزوّجتما؟

- منذ أربع سنوات.

وكيف نجحت في إقامة حفل زفاف على الرغم من ظهورك المتكرّر في مهامّ مختلفة؟

- لقد تزوّجنا هنا، والقاضي ناراغانسيت هو الذي أشرف على زواجنا.

- وكيف استطاعت فعلَ ذلك.

حاولت داغني التوقّف عن الكلام، لكنّ الكلمات انفجرت بشكل لاإراديّ، على نحو احتجاج ساخط وعاجز، لكنّها لم تعد تعلم ما إذا كان احتجاجها موجّهًا ضدّه أم ضدّ مصيره أم ضدّ العالم الخارجيّ، ثمّ أضافت: وكيف كانت تعيش وهي تدرك أنّك، وفي أيّ لحظة، قد...؟

ثمّ توقّفت عن الكلام. كان يبتسم لها، لكنّها رأت الجدّيّة الهائلة لما احتاج إليه هو وزوجته لكسب حقّهما في هذا النوع من الابتسامة فردّ قائلا:

- يمكنها تحمّل العيش على ذلك النحو يا آنسة تاجارت، لأنّنا لا نؤمن بأنّ هذه الأرض هي عالم البؤس حيث يحكم على الإنسان بالدمار. ولا نعتقد أنّ المأساة هي مصيرنا الطبيعيّ، ولا نعيش في خوف مزمن من الكوارث. ولا نتوقّع حدوث كارثة حتّى يكون لدينا سبب محدّد لتوقّعها. وعندما نواجهها، نكون أحرارًا في محاربتها. نحن لا نعتبر السعادة أمرًا غير طبيعيّ، بل نعتبر أنّ المعاناة هي الأمر المصطنع. ولا نرى أنّ النجاح هو الصيرورة غير الطبيعيّة، بل نعتبر أنّ المصائب والنوائب هي الاستثناء غير الطبيعيّ في حياة الإنسان.

ثمّ رافقه جالت إلى الباب، وعاد، فجلس على الطاولة ومدّ يده بطريقة متأنّقة لسكب فنجان قهوة آخر.

وظلّت داغني تنظر إلى أسفل عند قدميها وهي مصدومة، كما لو أنّها قذفت من طائرة نفّاثة بعد الضغط على صمّام الأمان. وقالت: وهل تعتقد أنّني سأقبل أمواله؟

فانتظر حتّى بلغ خطّ القهوة منحنى فنجانه، ثمّ نظر إليها وأجاب: نعم، أعتقد ذلك.

- حسنًا.. لن أقبلها! ولن أسمح له بالمخاطرة بحياته من أجلها!

- ليس لديك خيار بخصوص ذلك.

- لديّ خيار عدم المطالبة بذلك مطلقًا!

- بالتأكيد.

- ستبقى أموالك إذَن في ذلك البنك حتّى يوم القيامة!

- لا لن تظلّ كذلك.

-إذا لم تطالبي بها، فسيُسَلَّم جزء منها -جزء صغير جدًّا- لي باسمك.

- باسمي؟ لماذا؟

- لدفع ثمن غرفتك وطعامك.

فحدّقت به، وتحوّلت نظرتها من الغضب إلى الحيرة، ثمّ نزلت ببطء لتجلس في كرسيّها.

قال وهو يبتسم: إلى متى تعتقدين أنّك ستبقين هنا يا آنسة تاجارت؟.. أنت لم تفكّري في ذلك؟ لكنّني فكّرت. ستبقين هنا مدّة شهرٍ عطلةً كما نفعل نحن جميعا. أنا لا أطلب موافقتك، لأنّك أنت أيضًا لم تطلبي موافقتنا عندما جئت إلى هنا. لقد انتهكت قواعدنا، لذلك سيتعيّن عليك تحمّل العواقب. فلا أحد سيغادر الوادي خلال هذا الشهر. وبطبيعة الحال يمكنني السماح لك بالرحيل، لكنّني لن أفعل. ليست هناك قاعدة تلزمني بالإبقاء عليك هنا قسرًا، ولكن مادمت سلكت بنفسك طريقك إلى هنا، فإنّ لي الحقّ في اتّخاذ القرار الذي أراه مناسبًا، وعليه فإنّك ستبقين، لأنّني ببساطة أريدك هنا. وفي نهاية الشهر، إذا قرّرت العودة فأنت حرّة في ذلك، ولكن لن يكون لك هذا حتّى ذلك الحين.

وجلست باستقامة، وأرخت وجنتَيْها، فأوحى شكل فمها الناعم بابتسامة هادفة؛

كانت بمثابة ابتسامةِ خصمٍ خطيرةٍ ، لكنّ عينيها بَدَتَا وضّاءتين على نحوٍ فاتر، مثل عينَي عدوٍّ ينوي القتال بإطلاق، لكنّه يأمل في الخسارة.

قالت: جيّد جدًّا.

- سوف أتسلّم عمولةً نظيرَ مبيتك وطعامك، لكن هنا لا يجوز توفير دَعم غير مكتسب لإنسان آخر. فبعضنا لديه زوجات وأطفال، ولكن توجد تجارة متبادَلة متداخلة مع هذا الأمر، كما توجد مدفوعات متبادلة من النوع الذي لا يحقّ لي جمعه. لذلك سآخذ منك خمسين سنتًا في اليوم، وستدفعين لي عندما تقبلين الحساب المسجّل باسمك في بنك موليغان. وإذا لم تقبلي الحساب، فسيتحمّل موليغان دَيْنَك عليه ويمنحني المال عندما أطلبه.

أجابته: سألتزم بشروطك، لكنّني لن أسمح باستخدام هذا المال لتغطية ديوني.

- ماذا تقترحين للإيفاء بالتزاماتك؟

- أقترح أن أكسب مبلغ أجرة غرفتي وطعامي.

- بأيّ وسيلة؟

- بالعمل.

- وما هي قدراتك؟

- قدرة الطبخ وخدمة شؤون المنزل.

ولأوّل مرّة، لاحظت أنّه أصيب بصدمةٍ من شيءٍ لم يتوقّعه، بطريقة وعنف لم تتوقّعهما. إذ انفجر ضاحكًا، لكنّه ضحك كما لو أنّه تعرّض للضرب وراء دفاعاته، وكان الأمر أبعد بكثير من معنى كلماتها المباشر؛ فشعرت بأنّها كانت تضرب ماضيه، ممزّقةً شيئًا من ذاكرته ومن معانٍ خاصّة به لم تستطع معرفتها. لقد ضحك وكأنّه يرى بعض الصور البعيدة، فكان يضحك لمواجهتها كما لو أنّ ذلك مثّل انتصاره وانتصارها.

قالت: هذا إذا كنت ستوظّفني.

وانقلبت ملامح وجهها وأصبحت مهذّبة جدًّا، وقد تغيّرت نبرة صوتها لتكون واضحة جدًّا، وغير شخصيّة وعمليّة، فأضافت:

- سأطهى وجباتك، وأنظّف منزلك، وأغسل ملابسك، وأؤدّي الواجبات الأخرى المطلوبة من الخادم، وذلك كمقابلٍ لإقامتي وما سأحتاج إليه هنا من مطعم وملبس. قد تعيقني إصابتي في الأيّام القليلة القادمة، لكنّ هذا لن يستمرّ فترةً أطول، فأنا سأكون قادرة على إنجاز هذه المهمّة بالكامل وعلى أحسن وجه.

سألها: وهل هذا كلّ ما تودّين فعله هنا؟

أجابته: هذا ما أريد أن أفعله.

وتوقّفت عن الكلام قبل أن تلفظ بقيّة الإجابة التي في ذهنها: أكثر من أيّ شيء آخر في العالم.

كان لا يزال يبتسم، وكانت ابتسامته بمثابة فِعْلِ تسلية، ولكنّ الأمر بدا كما لو أنّه يمكن تحويل تلك التسلية إلى نوع من أنواع الفخر المشرق. فقال: حسنًا يا آنسة تاجرت، سأوظّفك.

فأمالت رأسها في شكل اعتراف رسميّ جافٍّ، ثمّ قالت: شكرًا.

- سأدفع لك عشرة دولارات شهريًّا، بالإضافة إلى مصاريف إقامتك وطعامك.

- ممتاز.

- وسأكون أوّل رجل في هذا الوادي يستأجر خادمًا.

ثمّ نهض، ومدّ يدَه إلى جيبه فأخرج قطعة ذهبيّة بخمسة دولارات وألقاها على الطاولة، ثمّ قال: هذا المبلغ هو مُقَدَّم أجرك.

وحين مدّت يدها للحصول على القطعة الذهبيّة، تفاجأت وذهلت، لأنّها شعرت

بالأمل المتلهّف، واليائس، والارتجاف وكلّ المشاعر التي تغمر فتاةً شابّةً في وظيفتها الأولى: ذلك الأمل في أنّها ستستحقّ ذلك.

ردّت: حاضر يا سيدي.

***

بعد ظهيرة اليوم الثالث من وصول داغني إلى الوادي، وصل أوين كيلوج. ولم تعرف أيَّ حدثٍ صَدَمَهُ أكثر: أكان مشهد وقوفها على حافّة المطار وهو ينزل من الطائرة أم مشهد رؤية ملابسها وهي ترتدى تلك البلوزة الناعمة الشفّافة، والمصمّمة في أغلى ورشات الخياطة بنيويورك، والتنّورة القطنيّة الواسعة التي اشترتها في الوادي مقابل ستّين سنتا، أم رؤية عصاها أو ضمّاداتها أو سلّة البقالة التي تحملها في ذراعها.

لقد نزل ضمن مجموعة من الرجال، وعندما رآها توقّف، ثمّ ركض نحوها كما لو أنّه مدفوعٌ بعاطفة قويّة، حتّى إنّ مشاعره، مهما تكن طبيعتها، بدت وكأنّها مرعبة. ثمّ همس: آنسة تاجارت...

ولم يقل شيئًا آخر، بينما كانت هي تضحك، وتحاول أن شرح له كيف سبقته إلى وجهته.

فاستمع لتلك التفاصيل، وكأنّها لم تكن مهمّة، ثمّ نطق بالأمر الذي كان عليه أن يتعافى منه: لكنّنا اعتقدنا أنّك في عداد الأموات.

- ومن اعتقد ذلك؟

- كلّنا ... أعني، الجميع في العالم الخارجيّ.

ثمّ توقّفت فجأةً عن الابتسام، بينما بدأ صوته يستعيد قصّته وظهرت منه أوّل نبرة فرح:

- يا آنسة تاجرت، ألا تتذكّرين أنّك طلبت منّي الاتّصال هاتفيًّا بمحطّة وينستون، من ولاية كولورادو، وإخبارهم بأنّك ستكونين هناك بعد ظهر اليوم الموالي. حدث

ذلك قبل يوم أمس، الحادي والثلاثين من مايو. لكنّك لم تصلي إلى محطّة وينستون. وبعد وقت متأخّر من الظهيرة، كانت الأخبار على جميع أجهزة الراديو تعلن أنّك لقيتِ حتفك في حادث تحطّم طائرة بمكانٍ مّا في جبال الروكي.

فأومأت برأسها في بطءٍ، مستوعبة الأحداث التي لم توليها أدنى تفكير. فقال:

- سمعت تلك الأخبار وأنا على متن القطار المذنّب عندما توقّفنا بمحطّة صغيرة في وسط نيو مكسيكو. لقد احتجزنا سائق القطار هناك فتأخّرنا مدّة ساعة، بينما كنت أساعده على التحقّق من حيثيّات الخبر بإجراء اتّصال هاتفيّ. وقد تأثّر كثيرًا -مثلي تمامًا- لسماع تلك الأخبار، إذ نزل علينا الخبر مثل الصاعقة. وصُدِم الجميع بمن فيهم طاقم القطار، ووكيل المحطّة، وعمّال التبديل. فاحتشدوا حولي بينما كنت أتّصل بصحف المدينة في كلٍّ من دنفر ونيويورك. لكنّهم لم يمدّونا بتفاصيل كثيرةٍ حول الموضوع، وأخبرونا فقط بأنّك غادرت مطار أفتون قبل الفجر مباشرةً في الحادي والثلاثين من مايو، ويبدو أنّك كنت تلاحقين طائرةً لأحد الغرباء، وأنّ مضيّف المطار شاهدك وأنت تغادرين نحو جنوب شرقيّ البلاد، وأنّه لم يرَك أحدٌ منذ ذلك الحين... وأنّ فرق البحث كانت تمشّط جبال الروكي من أجل العثور على حطام طائرتك.

سألته بشكل لاإراديّ: وهل وصل القطار المذنّب إلى مدينة سان فرانسيسكو؟

- لا أدري. كان يزحف شمالًا عبر أريزونا، عندما استسلمت. وكان هناك تأخير كبير، وأشياء كثيرة تسير بشكلٍ خاطئ، وحصل خلطٌ تامّ في الأوامر. فنزلتُ وقضّيت الليل كلّه وأنا أسافر ملتمسًا التنقّل بالمجّان، فكنت في طريقي إلى ولاية كولورادو مثل المتطفّل، أتنقّل في الشاحنات، والعربات، وعربات الخيل، للوصول إلى هناك في الوقت المحدّد، فوصلت إلى مكان اجتماعنا، أعني، حيث اجتمعنا لركوب طائرة ميداس التي التقطتنا وجلبتنا إلى هنا.

ثمّ بدأت داغني تمشي ببطءٍ في طريقها نحو السيّارة التي تركتها أمام سوق هاموند للبقالة. وتبعها كيلوج. لكنّه عندما أخذ في التحدّث مجدّدًا، انخفض صوته قليلًا،

وتباطأ بخطواته، كما لو أنّ هناك شيئًا يرغب كلاهما في تأخيره.

قال: لقد حصلت على وظيفة لجيف ألين، وقد احتفظ به وكيلك في شركة لورال وسلّمه العمل بمجرّد وصولنا إلى هناك. كان الوكيل بحاجة إلى كلّ رجل قادر... لا على التفكير، بل أيّ رجل يمكنه العثور عليه.

ثمّ وصلا إلى السيّارة، لكنّها لم تدخل.

- آنسة تاجرت هل لحق بك أذًى كبير؟ لقد قلت إنّك وقعت، لكنّ سقوطك بالطائرة لم يكن خطيرًا، أليس كذلك؟

- لا، لم يكن خطيرًا على الإطلاق. وسأكون قادرةً على التأقلم مع الوضع دون سيّارة السيّد موليغان بحلول الغد. خلال يومٍ أو يومين لن أحتاج أيضًا إلى هذه العصا.

ورمت عصاها في السيّارة بازدراء. ثمّ خيّم الصمت بينهما، وظلّت تنتظره. فقال ببطء:

- أمّا آخر مكالمة هاتفيّة بعيدة أجريتها من تلك المحطّة في نيومكسيكو فكانت إلى بنسلفانيا. لقد تحدّثت مع هانك ريردن وأخبرته بكلّ ما أعلم. فاستمع، ثمّ توقّف عن الكلام لحظةً وقال: شكرًا لك على اتّصالك بي.

فخفض كيلوج عينيه إلى أسفل، ثمّ أضاف: لا أريد أبدًا سماع ذلك النوع من التوقّف مرّة أخرى ما حييت.

ثمّ رفع عينَيه لرؤيتها؛ لم تحمل نظرتُه إليها أيَّ عتابٍ، بل وَدَّ معرفة ما لم يشكّ فيه عندما سمع طلبها، لكنّه كان قد توقّعه منذ ذلك الحين. فقالت: شكرًا.

وفتحت باب السيّارة ثمّ أضافت: هل تريد أن أوصلك إلى مكان مّا؟ يتعيّن عليّ العودة وإعداد وجبة العشاء قبل أن يعود ربّ عملي إلى المنزل.

ثمّ واجهت داغني المعنى الكامل لما شعرت به منذ اللحظة الأولى من عودتها إلى منزل جالت، وبمجرّد وقوفها وحدَها في الغرفة الصامتة المغمورة بالشمس. نظرت

إلى النافذة، وإلى الجبال التي حالت بينها وبين سماء الشرق. وفكّرت في هانك ريردن الجالس الآن بمكتبه على بعد ألفي ميل، بوجهه المشدود الذي تغيّر ليصبح جدارًا منيعًا يقي من العذاب. لقد اشتدّ عوده إثر ما تعرّض له من صدمات طوال سنواته الأخيرة، وانتابتها رغبة مستميتة ويائسة في خوض معركته، للقتال من أجله، ومن أجل ماضيه، ومن أجل ذلك التوتّر الذي يشوب وجهَه والشجاعة التي كانت تغذّيه، وأرادت القتال من أجل القطار المذنّب الذي كان يزحف بآخر جهدٍ وهو يعبر الصحراء على مسار متداعٍ. فارتجفت، وأغلقت عينيها، وشعرت كما لو أنّها مذنبة متّهمة بالخيانة المزدوجة، وشعرت أيضًا كما لو أنّها معلّقة في الفضاء بين هذا الوادي وبقيّة الأرض، دون حقٍّ في أيٍّ منهما.

ثمّ تلاشى ذلك الشعور عندما جلست قبالة جالت عبر مائدة العشاء. كان يراقبها، بصراحة ونظرة صافية، وكأنّما كان حضورها طبيعيًّا ورؤيتها هي كلّ ما رغب في السماح له باجتياح وعيه.

فاتّكأت قليلًا إلى الخلف، كما لو أنّها تمتثل لمعنى نظرته، وقالت، بكلّ كفاءة وبِأسْلُوب يَفْتَقِر إِلَى الحَرَارَة أَو العَاطِفَة، وفي إنكار متعمّد: لقد تفقّدت قمصانَك ووجدت أحدَهما بلا أزرار، والآخر مُتَهرِّئا من جانب المرفق الأيسر. هل تريدني أن أصلحهما؟

– لِمَ لا؟ حسنا يمكنك فعل ذلك إذا كنت قادرة عليه.

– بالتأكيد، أنا قادرة على ذلك.

لكن لم يبدُ أنّه غيّر من طبيعة نظرته إليها؛ لقد بدا الأمر وكأنّه يؤكّد رضاه، أو أنّ هذا هو ما أرادها أن تقوله، باستثناء أنّها لم تكن متأكّدة ممّا إذا كان الرضا هو اسم الشيء الذي لاحظت وجوده في عينيه، لكنّها كانت متأكّدة تمامًا من أنّه لم يرغب في أن تقول أيّ شيء.

لقد قضت غيوم عاصفةٍ على بقايا الضوء الأخيرة في السماء الشرقيّة المتسلّلة من وراء

النافذة، على حافّة الطاولة. وتساءلت لماذا شعرت بتردّدٍ مفاجئ رافق مراقبتها الحذرة، ولماذا شعرت كما لو أنّها تريد التمسّك ببقع الضوء الذهبيّة المنتشرة على خشب الطاولة، وعلى قشرة أرغفة الخبز الخارجيّة المدهونة بالزبدة، وعلى وعاء القهوة النحاسيّ، وعلى شعر جالت، فتشبّث بها كما يتشبّث المرء بجزيرة صغيرة على حافّة الفراغ.

ثمّ سمعت صوتها يسأل فجأةً، بشكل لاإراديّ، وأدركت أنّ تلك كانت الخيانة التي أرادت الهروب منها: هل تسمحون هنا بأيّ اتّصال بالعالم الخارجيّ؟

- لا.

- أليست هناك أيّ إمكانيّة مثل إرسال إخطار قصير من دون عنوان المرسل؟

- لا.

- ولا حتّى بعث رسالة، حتّى وإن لم تكن تحمل أيّ سرّ عنك؟

لن تبعث من هنا أيّ رسالة خلال هذا الشهر. فالأجانب لا يسمح لهم بذلك في أيّ وقتٍ.

ثمّ لاحظت أنّها كانت تتجنّب رؤية عينيه، فأجبرت نفسها على رفع رأسها ومواجهته. فانتبهت إلى أنّ نظرته تغيّرت؛ وصارت حذرةً، ثابتة، متبصّرة على نحوٍ صارم. فسألها وهو ينظر إليها كما لو أنّه يعرف سبب طلبها: هل تطلبين استثناء خاصّا؟

أجابته: لا.

وبعد الفطور من صباح اليوم التالي، عندما جلست في غرفتها، ترقّع كُمٍّ قميص جالت بعنايةٍ، بعد أن أغلقت بابها كي لا تسمح له برؤية مجهودها المتلكّئ في مهمّة لم تألفها، سمعت صوت سيّارة تتوقّف أمام المنزل.

ثمّ سمعت خطوات جالت وهي تسرع عبر غرفة المعيشة، وسمعته يفتح باب المدخل ويصرخ بشكل مريح وبهيج: لقد حان الوقت!

فهمّت بالنهوض، لكنّها توقّفت: لقد سمعت صوته، وقد تغيّرت نبرته فجأةً فأصبح حادًّا، كما لو أنّه يردّ على صدمةٍ من رؤية أحد المشاهد التي واجهته: ما خطبك؟

- مرحبًا يا جون.

ردّ أحدُ الأصوات الواضحة والهادئة، وقد بدا ثابتًا لكنّه مثقل بسبب الإرهاق. فجلست على سريرها، وشعرت فجأة بانهيار قواها: لقد كان صوت فرانسيسكو. وسمعت جالت وهو يسأله بنبرة من القلق الشديد: ما خطبك يا رجل؟

- سأخبرك بذلك لاحقًا.

- وما سبب تأخّرك؟

- يجب عليّ أن أغادر مجدّدًا بعد ساعة.

- تغادر؟

- جون لقد جئت لأخبرك بأنّني لن أتمكّن من البقاء هنا هذا العام.

ثمّ توقّف عن الكلام فسأله جالت بحدّة وفي صوت منخفض: هل الأمر بهذا السوء.. وما يكون هذا الأمر؟

- نعم... قد أعود قبل نهاية الشهر. لا أدري.. لا أعلم ما إذا كنت آمل أن يتمّ ذلك بسرعة ... أم لا.

- فرانسيسكو، هل تستطيع أن تتحمّل الصدمة الآن؟

- أنا؟ لا شيء يمكنه أن يصدمني الآن.

- يوجد شخص، هنا، في غرفتي، وعليك رؤيته. سيكون بمثابة صدمة لك، لذا أعتقد أنّ من الأفضل أن أحذّرك مسبّقًا من أنّ هذا الشخص لا يزال ضيفًا نزيلًا بيننا.

- ماذا؟ نزيل؟ وفي منزلك؟

- اسمح لي بأن أقول لك كيف حدث هذا الأمر.

- هذا أمر أريد أن أراه بنفسي!

فسمعت ضحكة فرانسيسكو المزعجة واندفاع خطواته، ورأت بابها وهو يفتح، ولاحظت بشكل خاطف أنّ جالت هو الذي أغلقه، تاركًا إيّاها بمفردها.

لم تعرف مدّة وقوف فرانسيسكو وهو ينظر إليها، لأنّ اللحظة الأولى التي أدركتها بالكامل كانت عندما رأته وهو جاثٍ على ركبتيه يمسك بها، ويضغط بوجهه على ساقيها، وهي لحظة شعرت فيها وكأنّ تلك الرعشة التي اجتاحت جسده وتركته ساكنًا، اجتاحتها هي أيضًا وجعلتها قادرة على التحرّك.

ولاحظت، بدهشةٍ، أنّ يدها كانت تتحرّك برفق فوق شعره، بينما اعتقدت أنّها لا تمتلك الحقّ في فعل ذلك، فشعرت كما لو أنّ تيارًا من الصفاء يتدفّق عبر يدها، يلفّهما معًا، لتهدئة الماضي. لم يتحرّك فرانسيسكو، ولم يُصدِر أيَّ صوت، وكأنّ فعل الإمساك بها عبّر عن كلّ ما كان عليه قوله.

عندما رفع فرانسيسكو رأسه، بدا لها الأمر شبيهًا بشعورها عندما فتحت عينيها في الوادي: لقد بدا وكأنّه ليس في العالم ألمٌ. وكان يضحك حين قال:

- داغني، داغني، داغني.. بالطبع أنا أحبّك. هل كنت خائفة عندما جعلني جالت أقول ذلك؟ سأردّدها على مسامعك كثيرًا مثلما يحلو لك.. أحبّك يا عزيزتي، أنا أحبّك، وسأظل أحبّك دائمًا.. لا تخافي عليّ، لن يهمّني إذا لم أكن معك مجدّدًا، فما أهمّيّة ذلك؟ كلّ ما يعنيني هو أنّك على قيد الحياة وأنّك هنا وتعرفين كلّ شيء الآن. الأمر بسيط جدًّا، أليس كذلك؟ هل تستوعبين الأمر ولماذا اضطررت إلى تركك؟

ولوّح بيده للإشارة إلى الوادي. ثمّ أضاف: إنّها هناك.. إنّها أرضك ومملكتك يا داغني، لطالما أحببتك وكان هجرك جزءًا من حبّي لك.

ثمّ أمسك بيديها وضغط بها على شفتيه واحتفظ بهما، من غير حراك، لا كقبلة، بل

كلحظة طويلة من الراحة، وكأنّ جهد الكلام كان يشتّت الانتباه عن حقيقة وجودها، أو أنّه كان ممزّقًا بأشياء كثيرة جدًّا يودّ قولها، بمفعول ضغط كلّ الكلمات المخزّنة في صمت السنوات.

- والنساء اللّائي كنت أطاردهنّ... أنت لم تصدّقي أنّي أقدمت على مثل هذا الفعل، أليس كذلك؟ وأنّني لم ألمس أيّ واحدةٍ منهنّ قطُّ، ولكن أعتقد أنّك خبرت ذلك، وأظنّ أنّك كنت على علمٍ بالأمر طوال الوقت. لقد كان عليّ أن أؤدّي دور المستهتر حتّى لا أدع اللصوص يشكّون بي بينما كنت أدمّر شركة دانكونيا للنحاس على مرأى من العالم كلّه ومسمعه. وهذا هو الجوكر في نظامهم، فهم مستعدّون لمحاربة أيّ رجل شريف وطموح، لكن بمجرّد رؤية أيّ فاسد لا قيمة له فسيعتقدون أنّه هو الصديق، وأنّه آمن، بل وآمن جدًّا! هذه هي وجهة نظرهم في الحياة، لكن ألا يتعلّمون! ألم يتعلّموا بعد ما إذا كان الشرّ آمنًا أم لا، وما إذا كان عدم الكفاءة أمرًا عمليًّا أم لا! داغني، لقد كانت الليلة التي عرفت فيها، لأوّل مرّة، أنّني أحبّك هي ما جعلني أدرك أنّ عليّ الذهاب. حَدَثَ ذلك عندما دخلت غرفتي بالفندق، في تلك الليلة، وعندما لاحظتُ ملامحكِ، وكيف كنتِ، ولماذا قصدتني... وما الذي كان ينتظرك في المستقبل. لو أنّك وصلت قبل ذلك الحين بقليلٍ، لربّما كان بإمكانك إيقافي فترةً. ولكنّك كنتِ أنتِ الحجّة الأخيرة التي جعلتني أتركك. لقد طلبتُ مساعدتك، في تلك الليلة لأواجه جون جالت. لكنّي عرفتُ أنّكِ كنت أفضل سلاح عنده ضدّي، رغم أنّه لا أحدَ منكما يعرف ذلك. لقد كنتِ تمثّلين كلّ ما كان يبحث عنه، وكلّ ما أخبرنا بأن نعيش أو نموت من أجله، إذا لزم الأمر... وكنتُ مستعدًّا لذلك، عندما اتّصل بي فجأةً للمجيء إلى نيويورك، في ذلك الربيع. فأنا لم أسمع أيّ شيء عنه منذ زمن. لقد كان يواجه المشكلة نفسها التي كنت أواجهها. أمّا هو فقد حلّها... هل تتذكّرين؟ وكان ذلك هو الوقت الذي لم تسمعي فيه عنّي أيّ خبرٍ، زمن هجرتك مدّة ثلاث سنوات. يا داغني، عندما تولّيت أعمال والدي، وما إن بدأت التعامل مع النظام الصناعيّ بأكمله في العالم، حتّى رأيت طبيعة الشرّ الذي كنت أشتبه في وجوده، لكنّني

اعتقدت أنّ من الوحشيّة الإيمان به. لقد تنبّهت إلى آفة جمع الضرائب التي نَمَتْ على مدى قرون مثل العفن الفطريّ في شركة دانكونيا للنحاس، واستنزفتنا من دون وجه حقٍّ... ورأيت اللوائح الحكوميّة التي تُمَرَّر لشلّ تقدّمي، لأنّني كنت ناجحًا، ولمساعدة المنافسين، لأنّهم كانوا يكرهون الفشل. ورأيت النقابات العمّاليّة التي فازت في كلّ دعوى قانونيّة رُفِعَت ضدّي، بسبب قدرتها على جعل معيشتهم ممكنةً. وتفطّنت إلى أنّ رغبة أيّ شخص في المال الذي لا يستطيع كسبه كانت تعتبر رغبة صالحة، لكن إذا حصل عليه فإنّه يصبح ملعونًا ويُرمى بالتُّهم مثل الجشع. ورأيت السياسيّين الذين يتغامزون عليّ، ويطلبون منّي ألّا أقلق، لأنّني يمكن أن أعمل أكثر بقليل وأتفوّق عليهم جميعًا. ونظرت إلى أرباح تلك اللحظة، ولاحظت أنّه كلّما عملت بجهد أكبر، شدّدت الخناق حول رقبتي أكثر، وانتبهت إلى أنّ طاقتي كانت تصبّ في المجاري، وأنّ الطفيليّات التي تتغذّى عليّ كانت هي أيضًا تغذّي، في مقابل ذلك، أطرافًا أخرى، وأنّه قُبِض عليهم ووقعوا في فخّهم الخاصّ وشرّ أعمالهم، وأنّه لم يوجد سبب لذلك، ولا توجد إجابة معروفة لأيّ شخص، وأنّ أنابيب الصرف الصحيّ في العالم، تلك التي تستنزف دمها المنتج، أدّت إلى وقوع بعض الضباب الشديد الرطوبة الذي لم يجرؤ أيّ أحدٍ على اختراقه، في حين تجاهل الناس الأمر وقالوا إنّ الحياة على الأرض لا يمكن إلّا أن تكون شرّيرة. ثمّ رأيت أنّ كامل المؤسّسة الصناعيّة في العالم، بكلّ أجهزتها الرائعة، وأفرانها التي يبلغ وزنها آلاف الأطنان، وكابلاتها العابرة للمحيط الأطلسيّ، ومكاتبها الماهوجنية، وبورصاتها، وعلاماتها الكهربائيّة المشتعلة، وقوّتها، وثروتها كلّها، شغَّلها، لا المصرفيّون ورؤساء مجالس الإدارة، بل رجال يقبعون في أيّ حانة بالطابق السفليّ، ووجوه عريضة مكتنزة يغمرها الخبث، لأولئك الذين بشّروا بأنّه يجب معاقبة الفضيلة لكونها فضيلةً، وأنّ الغرض من القدرة هو خدمة عدم الكفاءة، وأنّ الإنسان ليس له الحقّ في الوجود إلّا من أجل الآخرين...لقد عرفتُ ذلك ولم أجد أيّ طريقة لمحاربته، بينما وجد جون الطريق. وليلةَ أتينا إلى نيويورك ردًّا على مكالمته لم نكن سوى اثنين، راجنار وأنا. وقد أخبرنا بما يجب علينا فعله وأيّ نوع من البشر يجب أن نصل إليه. لقد استقال حينها من مصنع القرن العشرين. وكان يعيش

في غرفة عليّة بحيّ فقيرٍ. فأطّل برأسه من النافذة وأشار إلى ناطحات السحاب في المدينة. وقال إنّ علينا أن نطفئ أنوار العالم، وعندما نرى أضواء نيويورك تنطفئ، سنعلم أنّ مهمّتنا قد أنجزت. لم يطلب منّا الانضمام إليه في الحال. بل أشار إلينا بأن نفكّر في الأمر ونزن كلّ ما سنفعله في حياتنا. لقد أعطيته إجابتي في صباح اليوم الثاني، وبعد ذلك بساعات قليلة انضمّ راجنار بعد الظهر... يا داغني، لقد حدث ذلك في صباح اليوم التالي لليلتنا الأخيرة معًا، عندما رأيت ذلك الحلم الذي لم أستطع الهروب منه، وما كان عليّ سوى القتال من أجله، ومن أجل الطريقة نفسها التي نظرت بها أنتِ في تلك الليلة، وتحدّثت بها عن خطّ سكّة الحديد. ومن أجل الطريقة التي نظرت بها عندما حاولنا رؤية أفق نيويورك من أعلى صخرة فوق نهر هدسون، كان عليّ أن أنقذك، وأمهّد لك الطريق، للسماح لك بالعثور على مدينتك، ولا أسمح بتعثّرك في سنوات حياتك الباقية، وأنت تكافحين عبر ضباب مسموم، وعيناك مستمرّتان في النظر المباشر، تحدّقان مثلما تفعل أثناء النظر إلى أشعّة الشمس، تكافحان من أجل العثور، في نهاية طريقك، لا على أبراج المدينة، ولكن على شخص سمين عاجز وطائش، بلا عقل يستمتع بالحياة عن طريق ابتلاع النبيذ الروحيّ المقطّر الذي دفعت حياتك ثمنًا له! أنت... يا من آثرتِ أن تعرفي الفرح حتّى يعرفه! أنت.. يا من أصبحتِ علفًا من أجل متعة الآخرين؟ أنت... يا من صرتِ وسيلةً لغاية من هو دون الإنسان؟ داغني، هذا ما رأيته وهذا ما لم أستطع السماح لهم بأن يفعلوه بك! ليس بك فقط، بل بأيّ طفل سيكون في مظهرك عندما يواجه المستقبل، وبأيّ إنسان يمتلك مثل روحك وقادرٌ على تجربة لحظة من العيش بفخرٍ، بلا ذنب، وبثقة، وبفرح. كان هذا هو حبّي، تلك الحالة التي تعيشها الروح البشريّة، وتركتك لتقاتلي من أجلها، وعلمت أنّني إذا خسرتك، فإنّني مازلت سأفوز بك مع مرور كلّ عام على المعركة. ولكنّك تدركين حبّي لك الآن، أليس كذلك؟ رأيتِ هذا الوادي. إنّه المكان الذي خطّطنا، أنا وأنت، للوصول إليه عندما كنّا أطفالًا. لقد وصلنا إليه، فماذا يمكنني أن أطلب الآن أكثر من مجرّد رؤيتك هنا؟ هل قال جون إنّكِ مازلت نزيلة هنا؟ حسنًا، إنّها مسألة وقت فقط، لكنّك ستكونين واحدة منّا، لأنّك كنت دائمًا كذلك. ولكن إذا كنت لا

ترين ذلك فسننتظر، ولا يهمّني الانتظار مادمتِ على قيد الحياة، ومادمتُ لن أضطرّ إلى التحليق فوق جبال الروكي بحثًا عن حطام طائرتك!

كانت تُصدر شهقاتٍ قليلة عندما أدركت السبب الذي جعله لم يأتِ إلى الوادي في الوقت المحدّد.

فضحك وقال: لا تنظري إليّ هكذا. لا تنظري إليّ كما لو كنتُ جرحًا تَخشَين لمسه.

- فرانسيسكو، لقد آذيتك بطرق عديدة ومختلفة...

- لا! أنت لم تُلحقي بي أيّ أذًى وكذلك هو، فلا تذكري شيئًا عن هذا الموضوع لأنّه هو الذي أصيبَ، لكنّنا سننقذه وسوف يأتي إلى هنا أيضًا، إلى حيث ينتمي، وسيعرف كلّ شيء، ومن ثمّ، سيكون قادرًا أيضًا على الضحك حيال ذلك. يا داغني، لم أتوقّع منك الانتظار، ولم آمل فيه، كنت أعرف الفرصة التي انتهزتها، وإذا كان يجب أن يوجد أيّ شخص في حياتك، فأنا سعيد لأنّه هو ذلك الشخص.

فأغلقت داغني عينيها، وضغطت على شفتيها معًا حتّى لا تصدر أيّ أنين.

- حبيبتي، لا تتصرّفي هكذا! ألا ترين أنّني قبلت بهذا الوضع؟

فقالت في نفسها لم يكن هو من أحببت... ليس هو، وأنا لا أستطيع أن أقول لك الحقيقة، لأنّ من أحبّ هو رجل قد لا يسمعها منّي وقد لا أسمعها منه أبدًا.

ردّت: فرانسيسكو، لقد أحببتك فعلا..

وتمالكت أنفاسها من هول الصدمة، لأنّها لم تقصد قول ذلك، ولا أرادت رَبْط هذا الفعل بالماضي.

قال بهدوء وهو يبتسم: لكنّكِ مازلتِ كذلك. مازلت تحبّينني حتّى وإن وُجِد تعبيرٌ واحد تشعرين به تجاهي وتريدينه دائمًا، وكنت تودّين ألّا تعطيني المزيد. مازلت على ما كنت عليه، وسترين ذلك دائمًا، وستمنحنني الإجابة نفسَها دومًا، حتّى لو وُجِد ردّ أعظم تقدّمينه لرجل آخر. وبغضّ النظر عمّا تشعرين به تجاهه، فإنّ ذلك لن يغيّر ما

تشعرين به تجاهي، ولن يكون خيانةً لأيّ واحدٍ منّا، لأنّه يأتي من الجذر نفسه، إنّه العربون ذاته استجابةً للقيم ذاتها. وبغضّ النظر عمّا سيحدث في المستقبل، سنكون دائمًا ما كنّا عليه معًا، أنا وأنت، لأنّك ستظلّين تحبّينني دائمًا.

همست: فرانسيسكو، هل تعرف ذلك؟

- بالطبع، ألا تفهمين ذلك الآن؟ يا داغني، جميع أشكال السعادة واحدةٌ، وكلّ الرغبات ينشّطها المحرّك نفسه من خلال حبّنا لقيمة واحدة، لأعلى إمكانات وجودنا. وكلّ إنجاز هو تعبير عن ذلك. انظري حولك، ألا ترين الأمر كم هو مفتوح لنا هنا، على أرض خالية من العوائق؟ ألا ترين كم لديّ من حرّيّة لفعله، وعيشه، وتحقيقه؟ ألا ترين أنّ كلّ ذلك هو جزء ممّا أنت عليه بالنسبة إليّ، لأنّني أنا أيضًا جزءٌ منه بالنسبة إليك؟ وإذا رأيتك تبتسمين إعجابًا بمسبك جديد للنحاس بَنيتُه، فسيكون ذلك شكلًا آخر ممّا شعرت به عندما كنت مستلقيًا على السرير بجانبك. هل أرغب في النوم معك ومضاجعتك؟ نعم، أريد ذلك وبشدّة. وهل أحسد الرجل الذي يفعل ذلك؟ طبعًا وبكلّ تأكيد أحسده. ولكن هل يعنيني كلّ ذلك؟ إنّ ما يعنيني هو أن تكوني هنا معي، وأن أحبّك وأن أبقى على قيد الحياة.

فانخفضت عيناها، وأصبح وجهها قاسيًا، وطأطأت رأسها كما لو أنّها تصلّي، ثمّ قالت ببطء، وكأنّها كانت تفي بوعد رسميّ: وهل ستغفر لي؟

فبدا مندهشًا، وانفجر ضاحكًا، وهو يتذكّر، ثمّ أجابها: مازلت لم أغفر لك بعدُ. ولا يُوجَد شيءٌ يمكنني مسامحتك عليه، لكنّني سأغفر لك كلّ شيء عندما تنضمّين إلينا.

فنهض، وذبها فقامت هي أيضًا، وعندما أغلق ذراعَيه حولها، كانت قبلتُهما هي خلاصةَ ماضيهما ونهايتَه وخَتْمَ قبولهما ذلك المصيرَ.

والتفت إليهما جالت من خلال غرفة المعيشة عندما خرجَا. كان يقف عند النافذة، وينظر إلى الوادي، فشعرت باليقين من أنّه كان هناك طوال ذلك الوقت. ورأت عينيه تدرسان وجهيهما، وقد جال بنظره في بطءٍ بينهما. ثمّ بدت علامات الاسترخاء على

وجهه عند رؤية التغيير في ملامح وجه فرانسيسكو.

ابتسم فرانسيسكو وسأله: لماذا تحدّق فيّ على هذا النحو؟

- ألا تعرف كيف كنت تبدو عندما دخلت؟

- أوه، هل كنت أبدو مجهدًا؟ ربّما كنت كذلك لأنّني لم أنم مدّة ثلاث ليال متواصلة. جون، هل ستدعوني لتناول العشاء؟ أريد أن أعرف كيف وصلت نزيلتك إلى هنا، لكنّي أعتقد أنّني قد أنهار فجأةً وأخرّ نائمًا عند سماع منتصف أوّل جملة، على الرغم من أنّني أشعر الآن وكأنّني لن أحتاج إلى النوم على الإطلاق، لذلك أظنّ أنّ من الأفضل لي أن أذهب إلى المنزل وأبقى هناك حتّى المساء.

كان جالت يراقبه بابتسامة باهتة فقال له: لكن ألم تقل لي إنّك ستغادر الوادي بعد ساعة؟

ردّ بلطف: ماذا؟ طبعًا لا.. لا! لست مضطرًّا إلى فعل ذلك! صحيح، لم أخبرك بعدُ بما كنت أستعدّ للقيام به بعد ساعة، أليس كذلك؟ كنت سأبحث عن داغني في حطام طائرتها. لقد تمّ الإبلاغ عن فقدانها في حادث تحطّم بجبال الروكي.

ردّ جالت بهدوء: فهمتك.

قال فرانسيسكو بسعادة: لقد توقّعت كلّ شيء ما عدا أنّها ستختار الوقوع في إفجيج جالت.

لقد حملت نبرةُ صوته ذلك الارتياح البهيج الذي يكاد يستمتع برعب الماضي، ويتحدّاه عن طريق الحاضر. ثمّ أضاف: واصلتُ التحليق فوق المنطقة الواقعة بين أفتون، ويوتا، وونستون، وكولورادو، وفوق كلّ قمّة وفجّ، وفوق بقايا حطام أيّ سيّارةٍ، وكلّما رأيت واحدًا منها في أيّ الأخاديد بالأسفل. كنت..

وتوقّف عن الكلام؛ وبدا كأنّه يرتجف، ثمّ استأنف حديثه: ثمّ خرجنا ليلًا سيرًا على الأقدام – أنا وفرق البحث من رجال السكك الحديديّة بمحطّة وينستون – لقد ذهبنا

للبحث بشكل عشوائيّ، دون أيّ أدلّة، أو خطّة، وواصلنا البحث، حتّى بزوغ ضوء النهار مجدّدًا و...

ثمّ هزّ كتفيه، محاولًا رفض قول إنّهم قد استنتجوا موت داغني فابتسم وقال: لن أتمنّى ذلك حتّى لو كنت في أسوإ حالاتي.

ثمّ توقّف عن الكلام فترةً اختفت فيها ابتسامته وعاد إلى ملامح وجهه انعكاس خافت للمظهر الذي عانى منه ثلاثة أيّام متتالية، كما لو أنّه تذكّر صورة قد نسيها فجأة.

وبعد برهة طويلة، التفت إلى جالت وقال بلهجة بدت رصينة على نحوٍ غريب: هل يمكننا يا جون إخبار من هم بالخارج أنّ داغني مازالت على قيد الحياة... إذا وُجِد شخص يشعر... بما شعرت به؟

– قال جالت وهو ينظر إليه مباشرة: هل ترغب في مَنح أيٍّ غريب أيَّ راحة من عواقب البقاء في الخارج؟

أجابه فرانسيسكو بحزم: طبعًا لا.

– هل انتابتك الشفقة يا فرانسيسكو؟

– نعم. انسَ هذا الموضوع، فأنت على حقّ.

فتولّى جالت عنهما، ونظر بعيدًا بحركة بدت غريبة عن طبيعته: إذ حملت طابعًا لامتوازنًا ومفاجئًا لفعل لاإراديٍّ.

ولم يلتفت إليهما مجدّدًا؛ فراقبه فرانسيسكو في دهشةٍ، ثمّ سأله بهدوء: ما الأمر؟

فاستدار جالت ونظر إليه لحظةً، ولم يردّ. أمّا داغني فلم تستطع تحديد المشاعر التي خفّفت من حدّة تقاسيم وجه جالت: إذ بدت عليها ملامح الابتسامة، واللطف، والألم، وشيءٌ أعظم يبدو أنّه جعل تلك المفاهيم غير ضروريّة.

قال جالت: مهما كان الثمن الذي دفعه أيّ منّا في هذه المعركة، فأنتَ من تعرّض

للأذى الأكبر، أليس كذلك؟

قال فرانسيسكو وهو يبتسم: من؟ أنا؟ بالتأكيد لا! ما خطبك؟ أهي الشفقة يا جون؟

ردّ جالت بحزمٍ: لا.

رأت فرانسيسكو يراقبه بعبوس خافت وحيرة، لأنّ جالت قال ذلك، ولم ينظر إليه، بل كان ينظر إليها.

***

لم تكن جملة العواطف التي انتابت داغني انطباعًا فوريًّا داهمها أثناء دخول منزل فرانسيسكو لأوّل مرّة، أو تشبه مجموع المشاعر التي انتابتها أثناء رؤية مظهره الخارجيّ الصامت والمغلق. فأحسّت، لا بشعور الوحدة المأسويّة، بل بإشراقة محفّزة. لقد كانت الغرف مجرّدة وبسيطة، وبدا المنزل مبنيًّا على نحوٍ مَا يتّسم به فرانسيسكو من مهارة وحسم ونفاد صبرٍ. وبدا كأنّه يشبه كوخًا لأحد رجال التخوم بُني ليكون بمثابة نقطة انطلاق لرحلة طويلة نحو مستقبلٍ ينتظره فيه حيّز كبير من النشاط، على نحوٍ لا يمكن معه إضاعة الوقت في الراحة التي توفّرها بدايته. كان المنزل يتميّز بإشراقة لا تشبه ما في بقيّة المنازل، بل تشبه تلك التي قد توحي بها سقالة خشبيّة جديدة أقيمت لحماية ولادة ناطحة سحاب.

وكان فرانسيسكو واقفًا، وقد ارتدى قميصًا بكُمَّين، في منتصف غرفة المعيشة التي تبلغ مساحتها اثنتي عشرة قدمًا مربّعة، تعلوه نظرة مضيّف في قصر. لقد كان المكانَ الأمثل من بين جميع الأماكن التي شاهدته فيها، بمثابة الخلفيّة التي بدت ملائمة له على النحو الصحيح. ثمّ إنّ بساطة ملابسه، بالإضافة إلى سلوكه وتصرّفاته، منحته ملامحَ أرستقراطيّ متفوّق، لذلك أوحت إليها فظاظة الغرفة بمظهر ملاذ أرستقراطيّ؛ ما عدا إضافة لمسة ملكيّة واحدة إلى تلك الفظاظة: وجود كأسين من الفضّة القديمة في محراب صغير منحوت في جدار من الأخشاب العارية. لقد تطلّب

تصميمها المزخرف رفاهية عمل حرفيّ طويل ومكلف لأحد الحرفيّين المهرة، عمل لعلّه استغرق من الوقت والجهد أكثر ممّا استغرقه بناء الكوخ بأكمله، وله تصميم استغرق صقلُه دهورًا تفوق ما تستغرقه زراعة أشجار الصنوبر. لقد أضفى سلوك فرانسيسكو البسيط والطبيعيّ وسط تلك الغرفة لمسةً من الفخر الهادئ، كما لو أنّ ابتسامته كانت تخبرها بصمت: هذا ما أنا عليه وما كنت عليه طوال هذه السنوات. أمّا هي فظلّت تنظر إلى الكأسين الفضّيّين.

قال ردًّا على تخمينها الصامت: نعم، إنّهما يُرَدَّان إلى سيباستيان دانكونيا وزوجته. هذا هو الشيء الوحيد الذي أحضرته إلى هنا من قصري في بوينس آيرس، بالإضافة إلى تلك الخوذة التي علّقتها بالباب. ذلك كلّ ما أردت حفظه، فكلّ شيء آخر معرّض الآن للزوال في أشهر قليلة.

وأخذ يقهقه، ثمّ أضاف: سيستغلّون كلّ ذلك، إلى حدود آخر ما يتبقّى من شركة دانكونيا للنحاس، لكنّهم سيتفاجؤون ولن يجدوا الكثير من الحلول لمشاكلهم. وفي ما يخصّ ذلك القصر الذي تركته، فإنّهم لن يتمكّنوا حتّى من تحمّل دفع فاتورة التدفئة.

سألته: ثمّ ماذا سيقع بعد ذلك؟ وإلى أين ستذهب؟

- أنا؟ سأذهب للعمل لصالح شركة دانكونيا للنحاس.

- ماذا تعني؟

هل تتذكرين ذلك الشعار القديم: «مات الملك، عاش الملك؟» عندما ينزاح هيكل ممتلكات أجدادي بعيدًا عن طريقي، سيصبح منجمي الخاصّ بمثابة ذلك الجسم الشابّ الجديد لشركة دانكونيا للنحاس، وهو من نوع الممتلكات التي أرادها أجدادي، وقد عملوا من أجلها، واستحقّوها، لكنّهم لم يمتلكوها قطُّ.

- منجمك؟ أيّ منجم؟ وأين يوجد؟

قال وهو يشير إلى قمم الجبال: هنا. ألم تعلمي به بعد؟

- لا.

- أملك منجما للنحاس لن يصل إليه اللصوص، إنّه هنا في هذه الجبال. لقد أجريت عمليّة الاستكشاف والبحث، واكتشفته، فأقمت الحفريّات الأولى وانطلقت عمليّة التنقيب. وقد حدث ذلك منذ أكثر من ثماني سنوات. كنت أوّل رجل باعَه ميداس الأرضَ في هذا الوادي. فاشتريت هذا المنجم. وقد أنشأته بيديّ هاتين، مثلما أنشأ جدّي سيباستيان دانكونيا منجمَه الأوّل. لديّ الآن مشرف مسؤول عنه، اعتاد أن يكون أفضل فنّيّ تَعْدِينٍ في دولة الشيلي. والمنجم ينتج كلّ النحاس الذي نحتاج إليه. أمّا أرباحي فأودعها في بنك موليغان. وهذا كلّ ما سأحصل عليه، بعد بضعة أشهر من الآن، وهذا كلّ ما أحتاج إليه لغزو العالم.

وقف بالقرب من النافذة، كما لو أنّه يتأمّل ذروة الزمن، ثمّ خاطبها: يا داغني، إنّ إعادة ولادة شركة دانكونيا للنحاس وانبعاث العالم من جديد يجب أن يبدأ من هنا في الولايات المتّحدة الأمريكيّة. فهذه البلاد كانت على مرّ التاريخ الدولةَ الوحيدة التي لم تولد بالصدفة أو بسبب حرب قبليّة شعواء، بل بسبب ما بذله الإنسان من مجهود ذهنيّ. لقد بنيت هذه البلاد على أساس سيادة العقل، وخلال قرنٍ واحد نجحت في تحرير العالم. وسيتعيّن عليها أن تفعل ذلك مجدّدًا. ويجب أن تنطلق الخطوة الأولى من شركة دانكونيا للنحاس، مثل انطلاق أيّ قيمة إنسانيّة أخرى من هنا، لأنّ بقيّة الأرض بلغت مرحلة استهلاك جميع المعتقدات التي اكتسبتها عبر العصور: فَهَيْمَنَ فيها الإيمان الصوفيّ وساد كلّ ما هو غير عقلانيّ، ولم تُبقِ في نهاية المطاف إلّا مَعْلَمَيْنِ من المعالم الأثريّة: مستشفى المجانين والمقبرة... لقد ارتكب سيباستيان دانكونيا خطأً واحدًا: هو قبوله بنظام يعلن أنّ الملكيّة التي اكتسبها عن طريق الحقّ هي ملكه لا بموجب ذلك الحقّ، بل بموجب إذنٍ من ذلك النظام. وقد دفع أحفاده ثمن ذلك الخطإ. وأنا مَن دفع آخر قسط... وأعتقد أنّني سأرى اليوم الذي أنمو فيه من جذور أجدادي في هذه التربة، والمناجم، والمصاهر، وستنتشر أرصفة خام شركة دانكونيا للنحاس مرّة أخرى في جميع أنحاء العالم وصولًا إلى بلدي الأصليّ، وسأكون أوّل من

يشرع في إعادة بناء بلدي. قد أحيا حتّى رؤية ذلك اليوم، لكنّني لست متأكّدًا من ذلك. فلا يمكن لأيّ إنسان أن يتنبّأ بالزمن الذي سيختار فيه الآخرون العودة إلى العقل. وقد يتمّ ذلك في آخر أيّام حياتي، وحينها لن أكون قد أنشأت شيئًا ما عدا هذا المنجم الوحيد، منجم دانكونيا للنحاس، المنجم الذي سيكون الأوّل في إفجيج جالت، بكولورادو، من الولايات المتّحدة الأمريكيّة. لكن يا داغني، أتذكرين أنّ طموحي كان مضاعفة إنتاج أبي للنحاس؟ يا داغني، حتّى إن لم أنتج في نهاية حياتي سوى رطل واحد من النحاس في السنة، فسأكون أغنى من أبي، وأغنى من كلّ أسلافي بكلّ ما أنتجوه من آلاف الأطنان، لأنّ ذلك الرطل سيكون لي بموجب الحقّ وسيستخدم للحفاظ على عالم يؤمن بذلك!

كان ذلك هو فرانسيسكو الذي عرفته منذ زمن طفولتها، من خلال سلوكه وتصرّفاته وصفاء عينيه. فوجدت داغني نفسها تسأله عن منجم النحاس، كما سألته عن كلّ المشاريع الصناعيّة التي كان يحلم بإنشائها أثناء مشيهما على ضفاف نهر هدسون، لاستعادة الشعور الذي لا يواجهه أيّ عائق في المستقبل.

فقال لها: سآخذك لرؤية المنجم حالما يتعافى كاحلك تمامًا. وعلينا حينها تسلّق طريق وعرٍ للوصول إلى هناك، إنّه درب لا نتنقّل فيه إلّا بواسطة البغال، فحتّى الآن لا توجد هناك طريق للسير. دعيني أريك المصهر الجديد الذي أنا بصدد تصميمه. لقد اشتغلت على بنائه بعضَ الوقت، وهو هيكل معقّد جدًّا بالقياس إلى حجمنا الحاليّ من الإنتاج، ولكن عندما يزداد إنتاج المنجم فسيظهر المبرّر لذلك، وكلّ ما أريده منك هو فقط إلقاء نظرة على الزمن والعمل والمال الذي سيوفّره ذلك التصميم!

كانا جالسَين معًا على الأرض، ينظران في ورقة فَرَدَها، تحمل دراسة معقّدةً لأقسام المصهر، وقد أمعنا فيها الإمعانَ البهيج نفسه الذي رافقها أثناء دراسة بقايا تصميم المحرّك الذي عثرت عليه في ساحة الخردة.

انحنت داغني إلى الأمام بينما تحرّك هو للوصول إلى ورقة أخرى، فوجدت نفسها

تميل إلى كتفه. وبطريقة لاإراديّة بقيت كذلك لحظةً لم تكن أطول من اندفاع حركة واحدة منها، بينما ارتفعت عيناها لتلتقيا بعينيه. فنظر إليها وهي بالأسفل، فلم يخفِ ما شعر به ولم يخفِ أيضًا ما يعنيه أيّ طلب آخر. فتراجعت إلى الخلف وهي تدرك أنّها شعرت بما شعر به من رغبةٍ.

ولّما كانت ما تزال تحمل الإحساسَ نفسه الذي استعادته لما تكنّه له في الماضي، فقد أدركت الخاصيّة التي مثّلت دائما جزءًا منه، وهي خاصّيّة بدت فجأةً واضحةً لها الآن للمرّة الأولى: فلو كانت تلك الرغبة احتفالًا بحياة المرء، لكان ما شعرت به تجاه فرانسيسكو دائمًا ضربًا من ضروب احتفالها بالمستقبل، مثل لحظة روعةٍ مكتسبة دفعت في جزء منها غير معروف ثمنًا لخلاصة تؤكّد بعض الوعود. وأثناء اللحظة التي استوعبت فيها الأمر، كانت تعرف أيضًا الرغبة الوحيدة التي واجهتها لا على سبيل سمةٍ للمستقبل، بل على ضوء الحاضر الكامل والنهائيّ. لقد علمت ذلك من خلال صورةٍ لخيال رجل يقف على باب هيكل جرانيت صغير. وفكّرت في الشكل النهائيّ للوعد الذي أبقى حركتها، فكان الرجلَ الذي قد يبقى وعدًا لا يمكن الوصول إليه.

ولكنّ ما فكّرت فيه بذعرٍ كان الرأي الذي كرهته ورفضته بشدّة في ما يخصّ مصير الإنسان: ذلك الموقف الذي يعتبر أنّ الإنسان ينجذب في أيّ وقت إلى بعض الرؤى عن المستقبل البعيد المشرق، المحكوم عليه دائمًا بأن يكون طُموحًا غيرَ مُنْجَزٍ. فقالت في نفسها إنّ حياتها وقيمها لا يمكن أن توصلها إلى ذلك؛ فهي لم تجد الجمال في الشوق إلى بلوغ المستحيل ولم تجد قطُّ أنّ الممكن بعيد المنال. لكنّها بلغت ذلك من دون الحصول على أيّ إجابة.

واعتقدت، وهي تنظر إلى جالت في ذلك المساء، أنّها لن تستطيع التخلّي عنه أو عن العالم. وبدت الإجابة أصعب أثناء حضوره. بل شعرت بأنّه لا وجود لمشكلة أصلًا، وبأن لا شيء يمكن أن يواجه حقيقة رؤيته وبأن لا شيء على الإطلاق يقدر على جعلها تغادر المكان، وفي الآن نفسه أحسّت بأنّها لن تمتلك أيّ حقٍّ في النظر إليه إذا اضطُرّت إلى ترك السكك الحديديّة. لقد شعرت بأنّها تمتلكه، وبأنّهما استوعبا ذلك الشعور

المجهول منذ البداية، وأحسّت في الآن نفسه بأنّه كان قادرًا على الاختفاء من حياتها، وربّما يعترض سبيلها في المستقبل في أحد الشوارع بالعالم الخارجيّ، فيمرّ أمامها بلامبالاةٍ.

ولاحظت أنّه لم يسألها بشأن فرانسيسكو. وعندما تحدّثت عن زيارتها له، لم تجد في ملامح وجهه أيّ ردّ فعلٍ ينمّ عن الموافقة أو الاستياء. وبدا لها أنّها أمسكت بظلال غير محسوسة في تعبيره الشديد اليقظ: فبدا وكأنّه لم يولِ تلك المسألة أيّ اهتمامٍ.

وتحوّلت مخاوفها الباهتة إلى علامة استفهام، وتحوّلت علامة الاستفهام إلى ما يشبه المثقاب، الذي يخترق ذهنها بعمق خلال الأمسيات التي تلت ذلك، عندما كان جالت يغادر المنزل ويتركها وحيدة. وكان يغادر في كلّ ليلة بعد العشاء فلا يخبرها بالمكان الذي يقصده ثمّ يعود في منتصف الليل بل حتّى بعد ذلك الوقت بكثير أحيانًا. وحاولت ألّا تسمح لنفسها بأن تكتشف تمامًا مدى التوتّر والاضطراب الذي عانت منه أثناء انتظارها عودتَه. ولم تكن تسأله أين كان يقضّي وقته في تلك الليالي. وكان التردّد الذي يوقفها هو رغبتها الملّحة جدًّا في المعرفة؛ فتبقى صامتة على نحو متعمّد خافت يشوب نصفَه تحدّيها له ويشوب نصفَه الآخر تحدٍّ لقلقها.

ما كان لها أن تعترف بالأشياء التي كانت تخشاها أو تمنحها شكلَ الكلمات الصلبَ، فكانت تعرفها فقط من خلال جذب قبيح مزعج تمارسه عاطفةٌ مكتومةٌ. وقد تضمّن جزء من تلك العاطفة استياء وحشيًّا من النوع الذي لم تعرفه من قبل، والذي كان لها بمثابة جواب على رعب عانت منه مفاده أنّها قد تكون المرأةَ الوحيدة في حياته؛ لكنّ ما خفّف ذلك الاستياء هو مدى صحّة ما كانت تخشاه، كما لو أنّ ذلك التهديد كان يمكن مواجهته وحتّى قبوله. ولكن كان هناك رعب آخر أقبح من كلّ ما عانته: وقد أخذ أدنى شكل للتضحية بالنفس، والشكّ، والكتمان، وهو رعب يتولّد من كونه يرغب في إبعاد نفسه عن طريقها والسماح للفراغ بأن يجبرها على العودة إلى الرجل الذي كان من بين أعزّ أصدقائه.

ومرّت أيّام قبل أن تحدّثه في الأمر. حدث ذلك أثناء العشاء في إحدى الأمسيات حين همّ بالمغادرة بينما كانت تشعر بمتعة غريبة أثناء مشاهدته وهو يأكل الطعام الذي أعدّته. وفجأة وعلى نحوٍ لاإراديّ، كما لو أنّ المتعة أعطتها حقًّا لم تستطع تحديده، وأنّ التمتّع -وليس الألم- كسر مقاومتها إيّاه، فسمعت نفسها تسأله: ماذا كنت تفعل في كلّ مساء؟

أجابها ببساطة، كما لو أنّه اعتبر أمر معرفتها بذلك شيئًا مفروغا منه: كنت ألقي المحاضرات.

- ماذا تلقي؟

- كنت أعطي دروسًا ومحاضرات في الفيزياء، مثلما كنت أفعل في كلّ عام خلال هذا الشهر. إنّها لي... فعلامَ تضحكين؟

سألها وهو ينظر إلى علامات الارتياح والضحك الصامت الذي لم يبدُ أنّه موجّهٌ إلى كلامه، ثمّ ابتسم فجأة، قبل أن تجيبه، كما لو أنّه خمّن الجواب. فرأت داغني خاصّيّة شخصيّة بشكل مكثّف في ابتسامته كانت تتعارض مع هدوئه الذي ساد في طريقة حديثة تقريبًا بمجون العلاقة الحميميّة الطريقة غير الشخصية العارضة التي انتهجها في حديثه. ثمّ أضاف:

- أنت تعلمين أنّ هذا هو الشهر الذي نتبادل فيه جميعًا إنجازات مهننا الحقيقيّة. فيتكفّل ريتشارد هالي بتقديم الحفلات، وتمثّل كاي لودلو مسرحيّتين من تأليف الكُتَّاب الذين لا يكتبون للعالم الخارجيّ، وأقدّم أنا محاضرات للإبلاغ عن العمل الذي أنجزته خلال العام.

- وهل هي محاضرات مجّانيّة؟

- بالتأكيد لا. إنّها بعشرة دولارات لكلّ شخص مقابل كلّ درس.

- أريد أن أسمعك وأنت تلقي تلك المحاضرات.

قال: لا يمكنك ذلك. سيسمح لك بحضور الحفلات الموسيقيّة أو المسرحيّات أو أيّ شكل من أشكال العروض المقدّمة لمتعتك الخاصّة، لكن لا يمكنك حضور محاضراتي أو أيّ عروض أخرى للأفكار المدفوعة الثمن التي قد تحملينها معك خارج حدود الوادي. إلى جانب ذلك، فإنّ زبائني أو طلّابي هم فقط أولئك الذين لديهم هدف عمليّ من وراء حضور دروسي، ومن بينهم دوايت ساندرز، ولورنس هاموند، وديك مكنمارا، وأوين كيلوج... لقد أضفت طالبًا واحدًا لا يزال مبتدئا هو كوينتن دانيالز.

قالت في نبرة تشي بالغيرة: حقًّا؟ وكيف يمكنه تحمّل نفقات هذه المحاضرات المكلفة؟

- بالدَّيْن. لقد منحته جدولًا للدفع بالأقساط حسب روزنامة زمنيّة. إنّه يستحقّ ذلك.

- وأين تحاضر؟

- بسقيفة مزرعة دوايت ساندرز.

- وأين تعمل خلال السنة؟

- في مختبري.

سألته بحذر: وأين هو مختبرك؟ هل يوجد هنا في الوادي؟

حدّق في عينيها لحظةً، وأتاح لها رؤية التسلية في نظرته وإدراك أنّه يعرف هدفها، ثمّ أجاب: لا.

- وهل كنت تعيش في العالم الخارجيّ كلّ هذ السنوات؟

- نعم.

- هل زاولت مهنا أخرى مثل كلّ الناس؟

- بالتأكيد.

- لا تخبرني بأنّك اشتغلت مساعدَ محاسبٍ ثانٍ!

- لا، لم أزاول هذه المهنة.

- فيمَ كنت تعمل؟

- كنت أزاول العمل الذي يتمنّى العالم منّي أن أقوم به.

- أين؟

قال: لا يا آنسة تاجارت. إذا قرّرت مغادرة الوادي، فهذا من بين الأشياء التي لا يجب أن تعرفيها.

فابتسم مجدّدًا تلك الابتسامة المخصوصة الوقحة التي بدت الآن وكأنّها تقول إنّه يعرف التهديد الوارد في جوابه وما يعنيه لها، ثمّ نهض عن الطاولة.

وعندما ذهب، شعرت كما لو أنّ حركة الزمن كانت ثقلًا قمعيًّا مخيّمًا على سكون المنزل، مثل كتلة ثابتة شبه صلبة، تنزلق ببطء على شكل استطالة خافتة بواسطة إيقاع لم يسمح لها بالقياس لمعرفة ما إذا كان الزمن الذي مرّ هو دقائق أم ساعات. فاستلقت على كرسيّ بذراعين في غرفة المعيشة، نصفَ ممدَّدة وقد حطّمها ذلك الاسترخاء الثقيل اللّامبالي الذي لم يكن بإرادة الكسل، بل إحباطَ الإرادة وتحويلها إلى عنف سرّيّ لا يمكن أن يرضيه أيّ فعل.

وقالت في نفسها وهي ممَدَّدة من غير حراك بعينين مغمضتين وذهن شارد يتنقّل مثل الزمن عبر عوالم من البطء الخفيّ: تلك المتعة الخاصّة التي شعرت بها أثناء مشاهدته يأكل الطعام الذي أعدّته، مثّلت داعيًا من دواعي سرورها، إذ عرفت أنّها وفّرت له المتعة الحسّية، وأنّ أحد أشكال الإشباع الجسديّ الذي استمتع به كانت هي مصدره... وفكّرت في وجود سبب يجعل المرأة تتمنّى طبخ الطعام للرجل... ولكن لا بوصفه واجبًا، أو مهنة مزمنة، بل طقسًا نادرًا وخاصًّا فقط على شكل رمز... لكن

ماذا صنع به الوعّاظ المنادون بواجب المرأة؟ لقد كان الأداء المخصيّ للكدح المتعب يعتبر فضيلة مناسبة للمرأة، أمّا ما يعطيه معنى وجزاءً فهو يعتبر خطيئة مخزية... وأعمالٌ من قبيل التعامل مع الشحوم، والبخار والتقشير في مطبخ تفوح منه الروائح الكريهة سيعتبر أمرًا روحيًّا، وفعلًا يتناسب مع واجباتها الأخلاقيّة، أمّا اجتماع جسدين في غرفة نوم فسيُعتَبَر نوعًا من أنواع الانغماس الماديّ، وفعلًا من أفعال الاستسلام للغريزة الحيوانيّة، بلا عظمة أو معنى أو أيّ فخر روحيّ يمكن أن تطالب به الحيوانات المعنيّة بهذا الفعل.

ثمّ قفزت فجأةً ونهضت. لم تعد تريد التفكير في العالم الخارجيّ أو في قانونه الأخلاقيّ. لكنّها كانت تعلم أنّ ذلك ليس موضوع أفكارها. ولم تُرِد التفكير في الموضوع الذي كان عقلها مصممًا على متابعته، ذلك الموضوع الذي ظلّ يساورها على الرغم من إرادتها، بنوع من إرادته الخاصّة... ثمّ أخذت تقطع الغرفة ذهابًا وإيابًا وقد كرهت حركاتها القبيحة، الحمقاء، غير المنضبطة، الممزّقة بين الحاجة إلى السماح لحركتها بكسر السكون المخيّم على المنزل، ومعرفة أنّ ذلك ليس شكلًا من أشكال الكسر الذي أرادته. فأرادت إشعال إحدى السجائر، للحصول على وهم لحظة من العمل الهادف، وتجاهلتها في لحظة أخرى، لتشعر بكراهيتها المرهقة لإيجاد هدف بديل. ونظرت إلى الغرفة مثل شحّاذ قلق، تتوسّل الأشياء المادّيّة أن تمدّها بالدافع، متمنّيةً وجود شيئًا تنظّفه، أو تصلحه، أو تلمّعه حين لا يوجد شيءٌ يستحقّ الجهد، فقال أحد الأصوات الصارمة في عقلها: عندما لا يوجد عمل يستحقّ الجهد فاعتبري أنّه شاشة لإخفاء أُمْنيّة تستحقّ الكثير؛ فماذا تريدين؟ ثمّ التقطت عود ثقاب، وأضرمت النار بشدّة وقرّبتها بيدٍ مرتعشة إلى طرف سيجارة لاحظت أنّها كانت معلّقة، غير مشتعلة، بزاوية فمها... فماذا تريدين؟ كرّر الصوت الذي بدا قاسيًا مثل صوت القاضي. أريد منه أن يعود! أجابت، وهي تلقي الكلمات مثل صراخ بلا صوت، على بعض المتّهمين بداخلها، تقريبًا مثلما يرمي المرء عظمًا إلى أحد الوحوش الضارية التي تلاحقه على أمل صرف انتباهها عن الانقضاض عليه.

أريد استعادته، قالت بهدوء، للإجابة على الاتّهام بأنّه لا يوجد سبب لما تشعر به منذ نفاد الصبر... أريد عودته، قالت بتضرّع، ردّا على التذكير البارد بأنّ إجابتها لم تكن توازن كفّة القاضي... أريد عودته! صرخت بشجاعة وتحدٍّ، وهي تقاتل من أجل ألّا تسقط الكلمة الوقائيّة الزائدة في تلك الجملة.

ثمّ شعرت بأنّ رأسها يتدلّى بسبب الإرهاق، مثلما يحدث للمرء بعد التعرّض للضرب المبرّح والمطوّل. وقد أحرقت السيجارة التي رأتها بين أصابعها فلم تترك منها سوى نصف بوصة. فَرَمَتْها وأطفأتها، ثمّ ارتمت على الكرسي مجدّدًا.

قالت في نفسها: لست بصدد التهرّب من أيّ شيء، فكلّ ما في الأمر أنّني لا أرى أيّ سبيل للعثور على إجابة... هذا ما تريدينه، قال الصوت بداخلها، بينما تعثّرت خلال ضباب كثيف. إنّه لك فخُذيه، لكن ضعي في اعتبارك أنّ أيّ شيء أقلّ من قبولك الكامل، وأيّ شيء أقلّ من قناعتك الكاملة هو بمثابة الخيانة لكلّ ما هو عليه...إذن دعه يلعنني. واعتقدت أنّ الصوت قد ضاع الآن في الضباب ولن يسمعها، دعه يلعنني غدًا.... أريد... عودته... ولم تسمع أيّ ردّ لأنّ رأسها سقط بهدوء على الكرسيّ؛ لقد خلدت للنوم.

وعندما فتحت عينيها، رأته يقف على بعد ثلاثة أقدام منها، وهو ينظر إليها، كما لو أنّه ظلّ يراقبها بعضَ الوقت.

لقد رأت وجهه، بوضوح الإدراك الكامل، ورأت معنى التعابير التي حملتها تقاسيم وجهه: فكان ذلك هو المعنى الذي تصارعت معه ساعات. لقد رأت ذلك دون دهشة لأنّها لم تستعد وعيها بعدُ لتستوعب أيّ سبب قد يستدعي دهشتها.

قال لها بهدوء ولطف: هذه هي الحالة التي كنتِ تبدين عليها وأنت تغفين في مكتبك.

كانت تعلم أنّه هو أيضًا لم يكن على دراية تامّة بالسماح لها بسماع ما تخفيه نبرة كلامه: فالطريقة التي تحدّث بها أخبرتها بعدد المرّات التي فكّر بها في الأمر وغايته من قول ذلك. وأضاف:

- أنت تبدين كما لو أنّك كنت تستيقظين في عالم ليس لك فيه ما تخفينه أو تخافينه.

فعلمت أنّ الحركة الأولى لوجهها كانت ابتسامةً، لكنّها عرفت ذلك في اللحظة التي اختفت فيها تلك الابتسامة، عندما أدركت أنّهما كانا مستيقظين. ثمّ أضاف بهدوء وبوعي كامل: لكن هنا، كلّ ذلك صحيح.

وكان أوّل ما ساورها في عالم الواقع هو الشعور بالقوّة. فنهضت وجلست بحركة ثقة تدفّقت على مهل، وشعرت بتدفّق الحركة بين عضلات جسدها. ثمّ سألته، وقد أضفى البطءُ وصوتُ الفضول العابر ونبرةُ أخذ الآثار المسلّم بها نبرةَ ازدراء باهتة على صوتها: وكيف عرفت الحالة التي أبدو عليها في... مكتبي؟

- لقد سبق أن أخبرتك بأنّني كنت أراقبك سنوات.

- كيف تمكّنت من مشاهدتي بتلك الدقّة؟ ومن أيّ مكان؟

ردّ ببساطة: لن أجيبك الآن.

لقد تركت حركةُ كتفها المائلة إلى الخلف قليلًا، وتوقُّفها عن الكلام، ثمّ نغمةُ صوتها الرقيقةُ، تلميحًا بانتصار باسم يسهل تتبّعه خلف كلماتها، فسألته: ومتى رأيتني أوّل مرّة؟

أجابها، وهو ينظر إليها مباشرةً: حدث ذلك قبل عشر سنوات.

قالت بنبرة آمرة: أين؟

تردّد قبل أن يجيبها، فرأت ابتسامة خافتة ارتسمت على شفتيه، دون أن تبلغ عينيه، وهي ابتسامة من النوع الذي يودّ المرء يتأمّله -بشوق ومرارة وكبرياء- كملكيّة يتمّ شراؤها بتكلفة باهظة موجعة؛ ولم تبدُ عيناه موجّهتين نحوها بل صوب الفتاة الشابّة التي كانت عليها في ذلك الوقت. ثمّ أجابها:

- رأيتك في أنفاق محطّة تاجارت.

ثمّ أدركت فجأةً هيئتها: فتركت لَوْحَيْ كتفيها ينزلقان على الكرسيّ، بلامبالاة، وهي نصف مستلقية، بساق واحدة ممدودة إلى الأمام، وكانت تلبس بلوزة شفّافة مصمّمة بدقّة خصّيصًا لها، وتنّورة ريفيّة واسعة صُبِغت يدويًّا بألوان عنيفة، وجوربَين رقيقين وحذاءً ذا كعب عالٍ، فلم تكن تبدو مثل مديرة تنفيذيّة للسكك الحديديّة -فتنبّه وعيها للردّ على عينيه اللتين يبدو أنّهما كانتا تريان ما لا يمكن بلوغه- فاستعادت المظهر الذي كانت عليه: أي مظهر خادمته. وأدركت اللحظة التي أزال فيها بعضُ الضغط الخافت للتألّق في عينيه الخضراوين الداكنتين حجابَ المسافة، مستبدلًا برؤية الماضي فعلَ رؤية شخصها المباشر. وقابلت عينيه بتلك النظرة الوقحة التي كانت ابتسامة دون حركة لعضلات الوجه.

فأدار وجهه بعيدًا، ولكن عندما انتقل عبر الغرفة مشى بخطوات بليغة مثل صوت بشريّ. فعلمت أنّه يريد مغادرة الغرفة، لأنّه كان يغادرها دائمًا، ولم يمكث فترةً أطول، إذ كان لا يقضي إلّا الهزيع القليل من الليل عندما يعود إلى المنزل. وراقبت مسار مقاومته، سواء عن طريق خطواته، التي بدأت في اتّجاه واحد وانحرف في اتّجاه آخر، أو عن طريق يقينها من أنّ جسدها أصبح أداة للإدراك المباشر له، مثل شاشة تعكس كلا الحركتين ودوافعهما، لكنّها لم تستطع إخباره بذلك. كانت تعلم فقط أنّه هو الذي لم يبدأ أو يخسر معركة ضدّ نفسه، لكنّه الآن لا يملك القوّة لمغادرة تلك الغرفة.

ويبدو أنّ سلوكه لم يُظهر أيّ علامة على الإجهاد. لقد خلع معطفه ورماه جانبًا، وبقي بقميص ذي كُمّين، ثمّ جلس قبالتها عند نافذة الغرفة. لكنّه جلس على ذراع الكرسيّ، وكأنّه كان متردّدًا بين المكوث والمغادرة.

فشعرت داغني بإحساس طائش تافه لا يكاد يكون انتصارًا بمعرفة أنّها كانت تمسكه بوثوق كما لو أنّها تشدّه بلمسة جسديّة. وفي مدّة قصيرة وجيزة وخطيرة يصعب مقاومتها، شعرت بشكل من أشكال الاتّصال الأكثر إرضاءً.

ثمّ شعرت فجأة بصدمة تُعمي، كان نصفها يشبه الصفعة، والنصف الآخر يشبه

الصرخة التي بداخلها، فتخبّطت وذهلت من هولها لتدرك فقط أنّه قد انحنى قليلًا إلى جانبٍ واحدٍ ولم يكن أكثر من منظر عرضيّ للخطّ الطويل الممتدّ من كتفه إلى زاوية خصره، ووركيه، وأسفل ساقيه. فنظرت بعيدًا، حتّى لا تدعه يرى ارتعاشها، وأسقطت كلّ أفكار الانتصار وتلك التي تتعلّق بمن كانت له القوّة.

قال بهدوء وثبات، ولكن ببطء أكثر من المعتاد، كما لو أنّه كان يستطيع التحكّم في كلّ شيء ما عدا حاجته إلى التحدّث: لقد رأيتك مرّات عديدة منذ ذلك الحين.

- وأين رأيتني؟

- في أماكن عديدة.

- لكنّك كنت حريصًا على أن تبقى غير مرئيّ؟

- نعم.

- لماذا؟ هل كنت خائفًا؟

- نعم.

قالها ببساطة، واستغرق الأمر منها لحظةً لتدرك أنّه كان يعترف بأنّه يعلم ما تعنيه رؤيتها لشخصه، فسألته:

- وهل كنت تدرك من أكون عندما رأيتني أوّل مرّة؟

- نعم بالتأكيد، لقد كنتِ أسوأ عدوٍّ لي بعد عدوٍّ آخر.

- ماذا؟ ومن كان الأسوأ؟

- إنّه الدكتور روبرت ستادلر.

- وهل كنت تضعني معه في الخانة ذاتها؟

- لا. هو كان عدوّي الواعي. إنّه الرجل الذي باع روحه. ونحن لا ننوي استعادته. أمّا أنت، فكنت واحدة منّا. لقد أدركت ذلك، قبل وقت طويل من رؤيتك. وكنت

أعلم أيضًا أنّك ستكونين آخر من ينضمّ إلينا وأصعب من سيهزم.

- ومن قال لك ذلك؟

- فرانسيسكو.

سألته بعد لحظة من الصمت: وماذا قال لك عنّي؟

- قال إنّه من بين جميع الأسماء الموجودة في قائمتنا، ستكونين العنصر الذي سيصعب علينا كثيرا الفوز به. وكان ذلك عندما سمعت بك أوّل مرّة. وفرانسيسكو هو الذي وضع اسمك على قائمتنا. لقد أخبرني بأنّك كنت الأمل الوحيد لمستقبل شركة تاجرت العابرة للقارّات، وأنّك ستقفين ضدّنا فترةً طويلة، وستخوضين معركة مستميتة من أجل سكك الحديد الخاصّة بك، لأنّك كنت تتمتّعين بالكثير من القدرة على التحمّل والشجاعة والتفاني في العمل... هو لم يخبرني بأيّ شيء آخر. لقد تحدّث عنك كما لو أنّه يناقش فقط موضوع أحد مهاجمينا المستقبليّين. وكنت أعلم أنّكما صديقَا طفولةٍ، وهذا كلّ شيء.

- ومتى رأيتني؟

- بعد سنتين من ذلك.

- وكيف حدث هذا الأمر؟

- حدث هذا الأمر بالصدفة وكان الوقت متأخّرًا في الليل...على منصّة الركّاب في محطّة تاجارت.

كانت تعلم أنّ ذلك يمثّل شكلًا من أشكال الاستسلام، وأنّه لم يُرِدْ قولَ ذلك، ولكن كان عليه أن يتكلّم، وسمعت كلًّا من شدّة الصوت الصامت وسحب المقاومة بداخله. لقد كان عليه أن يتحدّث، لأنّ عليه أن يقدّم نفسه ويقدّمها هي أيضًا لهذا الشكل الوحيد من أشكال الاتّصال. ثمّ أضاف:

- كنت ترتدين ثوب سهرةٍ ورداءً ينزلق على جسدك، وما رأيته في البداية كان فقط

كتفيك العاريتَين وظهرَك وملامحَ جسدك، وبدا المشهد لحظةً كما لو أنّ الرداء سيسقط فتقفين عاريةً هناك. ثمّ لاحظت أنّك ترتدين ثوبًا طويلًا، بلون الجليد، مثل سترة آلهة إغريقيّة، لكنّك كنت بشعر قصير وبملامح سيّدة أمريكيّة متجبّرة. كنت في مكان غريب على منصّة للسكك الحديديّة. ولم أكن أنا على مثلها عندما نظرت إليك، بل كنت أرى مكانًا لم يعترضني من قبل، ولكن بعد ذلك، علمت فجأةً أنّك تنتمين إلى عالم القضبان والسخام والعوارض التي كانت المكان المناسب لثوب منساب وكتفين عاريتَين ووجه حيّ مثل وجهك. فمنصّة السكك الحديديّة هي مكانك المناسب، ومكانك ليس شقّة كثيرة الستائر. لقد بدوتِ وكأنّك رمز للرفاهية وانتميت إلى المكان الذي يمثّل مصدرها. وكان الأمر يبدو كما لو أنّك تجلبين الثروة والنعمة والإسراف والتمتّع بالحياة إلى أصحابها الشرعيّين، إلى الناس الذين أنشؤوا السكك الحديديّة والمصانع. كنت تملكين نظرة مفعمة بالطاقة تحمل معها كلّ مكافآتها، بالإضافة إلى نظرة تجمع بين الكفاءة والرفاهية. أمّا أنا فكنت أوّل رجل على الإطلاق يصرّح بأنّه لا يمكنه الفصل بين هاتين الخاصيّتين، واعتقدت أنّ عصرنا إذا أراد نحتَ شكل لآلهته الصحيحة وإقامة تمثال لمعنى السكك الحديديّة الأمريكيّة، فإنّك ستكونين هذا التمثال... ثمّ رأيت ما تفعلين، فعرفت من تكونين. لقد كنت تعطين الأوامر لثلاثة من مسؤولي المحطّة، فلم أتمكّن من سماع كلماتك، لكنّ صوتك بدا سريعًا وواضحًا وواثقًا. كنت أعلم أنّك داغني تاجارت. فاقتربت بما يكفي لسماع حديثكم. حينها، سأل أحد الرجال: من قال هذا؟ وكان جوابك: أنا من أمر بذلك وهذا كلّ ما سمعته. وقد كان ذلك كافيًا.

- وبعد ذلك؟

فرفع جالت عينيه ببطء، فالتقط نظراتها عبر الغرفة، ممّا خفّض الشدّة التي غمرت صوته، وحوّلت نبرته الغامضة إلى ليونة، ومنحت الصوت نوعًا من السخرية الذاتيّة التي بدت يائسة ولا تكاد تكون لطيفة:

- ثمّ أدركت أنّ التخلّي عن محرّكي لم يكن أصعب ثمنٍ سأضطرّ إلى دفعه مقابل هذا

الإضراب.

فتساءلت داغني أيّ ظلّ مجهول مرّ أمامها حينها -من بين الركّاب الذين تجاوزوها بسرعة، كما هي الحال مع تجاهل بخار المحرّكات- فكان ظلَّه ووجهَه؛ وتساءلت عن مدى قربها منه طوال تلك اللحظة المجهولة. فقالت:

- أوه، ولماذا لم تتحدّث معي حينها أو في وقت لاحقٍ؟

- وهل تتذكّرين ماذا كنت تفعلين في المحطّة تلك الليلة؟

- أتذكّر بشكلٍ ضبابيّ ليلةَ اتّصلوا بي وأنا في إحدى الحفلات. كان والدي آنذاك خارج المدينة، وكان مدير المحطّة الجديد قد ارتكب خطأ عقَّد حركة المرور في الأنفاق بأكملها. لقد استقال المدير القديم بشكل غير متوقّع في الأسبوع الذي سبق ذلك الحدث.

- أنا مَن ضغط عليه ليستقيل.

- فهمتكَ...

كان صوتها مشدودًا، كما لو أنّها تودّ التخلّي عن الكلام، بينما أغلقت جفنيها وتخلّت عن الإبصار. ثمّ قالت في نفسها: لو أنّه لم يتحمّل ذلك... ولو أنّه جاء للمطالبة بها، آنذاك أو في وقت لاحق، فما نوع المأساة التي كان عليهما مواجهتها؟.. وتذكّرت ما شعرت به عندما صرخت بأنّها ستطلق النار على المدمّر فور رؤيته. كانت مجرّد فكرة لم تصُغها في كلمات، بل شعرت بها كضغط مرتجف في معدتها. كنتُ سأطلق عليه النار بعد ذلك لو اكتشفت دوره... وكنتُ سأكتشف ذلك في كلّ الأحوال... وحتّى الآن.. فارتجفت لأنّها تعلم أنّها لا تزال تتمنّى أن يقصدها، وإن هي لم تعترف بعد بوجود تلك الفكرة في ذهنها، لكنّها كانت تتدفّق مثل دفء خفيّ في جسدها: ربّما كنتُ سأطلق عليه النار، ولكن ليس قبل...

ثمّ فتحت جفنيها، وعلمت أنّ تلك الفكرة كانت عارية ومكشوفة له في عينيها مثلما

كانت أفكاره صريحة في عينيه. لقد لاحظت نظرته المخفيّة وانشداد شكل فمه، ورأته وقد اختُزل في الوجع، فشعرت بأنّها كانت غارقة في رغبة منتشية هي التسبّب له في الألم، ورؤية ذلك الألم، ومشاهدته، ومشاهدة تأثيره في ما وراء تحمّلها وتحمّله، ثمّ اختزاله في المتعة العاجزة.

فنهض جالت، وأخذ ينظر بعيدًا، ولم تستطع معرفة ما إذا كان رفعه الطفيف لرأسه أو توتّر ملامحه هما اللذين جعلا وجهه يبدو هادئا وواضحا على نحوٍ غريب، كما لو أنّه جُرِّدَ من المشاعر حتّى بلغ نقاءَ شكلها التامَّ. ثمّ قال:

- كلّ رجل احتاجت إليه سكّة حديدك وخسرته في السنوات العشر الماضية، كنت أنا من جعلك تخسرينه.

لقد كانت في صوته دقّة فريدة وبساطة مشرقة لمحاسب يذكّر أحد الزبائن المتهوّرين بأنّ التكلفة هي حقيقة مطلقة لا يمكن الهروب منها. ثمّ أضاف:

- لقد سحبت كلّ ركيزة من تحت شركة تاجارت العابرة للقارّات، وإذا اخترتِ العودة إليها، فسأشاهدها وهي تنهار على رأسك.

ثمّ همّ بمغادرة الغرفة، فأوقفته. كان صوتها هو الذي أوقفه أكثر ممّا فعلت كلماتها: إذ جاء منخفضًا، خاليًا من مسحة العاطفة، ولم يكن غير نوع من أنواع الكتل الغارقة بلون وحيد خافتٍ، مثل صدى داخليّ، يشبه التهديد؛ كان صوت التماس لشخص لا يزال يحتفظ بمفهوم الشرف، لكنّ وقتًا طويلًا مضى عليه حتّى يُهتَمّ به:

- وهل تخطّط لاحتجازي هنا؟

- أكثر من أيّ شيء آخر في العالم.

- يمكنك الاحتفاظ بي إذَن.

- أعرف ذلك.

قال ذلك نبرة صوتها نفسها. ثمّ انتظر قليلا لاستعادة أنفاسه، وعندما تحدّث مجدّدًا

جاء صوته منخفضًا وواضحًا، ويشوبه بعض التشديد على سمة وعيه التي كانت تقريبًا بجودة ابتسامة تنمّ عن الفهم:

- إنّ ما أريده هو قبولك بهذا المكان. ما فائدة حضورك الجسديّ هنا؟ هذا هو الواقع المزيّف الذي يخدع به معظم الناس أنفسهم في حياتهم. أمّا أنا فلست قادرًا على فعل ذلك.

ثمّ التفت وهمّ بالذهاب وأضاف: ولا أنت قادرة على فعل ذلك أيضًا. طابت ليلتك يا آنسة تاجارت.

ثمّ خرج وقصد غرفة نومه وأغلق الباب.

وحلّقت داغني في عالم الفكر، وهي مستلقية على سريرها في ظلام غرفتها غير قادرة على التفكير أو النوم، فملأ عقلها الأنين العنيف الذي لم يبدُ سوى ضجّة كبيرة أحدثتها عضلاتها، لكنّ نبرته وظلاله الملتوية كانت تشبه صراخ التوسّل، الذي عرفته، لا بوصفه كلمات، ولكن بوصفه ألمًا: دعوه يأتِ إلى هنا، دعوه ينفطر، فلتحلّ اللعنة على كلّ الأشياء من السكك الحديديّة والإضراب وكلّ ما عشت من قبل! فليكن الأمر ملعونًا، كلّ ما كنّا ومازلنا عليه! ستحلّ به اللعنة إذا متّ غدا.. اتركوني إذَن أُمُت، ولكن دعوه يأتِ إلى هنا غدًا.. فليأتِ إلى هنا، مهما يكن الثمن الذي سيحدّده، فأنا لا أملك شيئًا لم يعد معروضًا للبيع.. فهل هذا ما يعنيه أن يكون المرء حيوانًا؟ طبعًا، أنا كذلك... ثمّ استلقت على ظهرها، وضغطت بكفّيها على الملاءة بجانبها، لتمنع نفسها من النهوض والدخول إلى غرفته، وهي تعلم أنّها لم تعد قادرة حتّى على فعل ذلك... فما أنا عليه ليس أنا، بل هو جسد لا أستطيع تحمّله ولا السيطرة عليه... ولكن في مكان مّا بداخلها كانت هناك نقطة ساكنة مشعّة، لم تكن كلمات، بل هي بمثابة حضور القاضي الذي بدا يراقبها، ولم يعد يقدّم لها أيّ إدانة جذريّة، بل يقدّم لها الموافقة والتسلية، كما لو أنّه يقول: جسدك؟ لو لم يكن كما تعرفينه، هل كان سيوصلك إلى هذا الحدّ؟ لماذا ترغبين في جسده هو بالذات، وليس في سواه؟ هل تعتقدين أنّك تلعنين

كلّ الأشياء التي عشتماها معًا من قبل؟ هل أنت بصدد إدانة ما تكرمينه في هذه اللحظة تحديدًا برغبتك؟ لم يكن عليها أن تسمع الكلمات، لأنّها كانت تعرفها، كما عرفتها دائما... لكنّها أضاعت بعد فترة توهّج تلك المعرفة، ولم يتبقّ منها شيء سوى الألم وكفّيها اللتين تضغطان على غطاء السرير، والتساؤل اللّامبالي عمّا إذا كان هو أيضًا مستيقظا ويصارع العذاب نفسه.

لم تسمع أيّ صوت في المنزل ولم ترَ انعكاس أيّ ضوء من نافذته على أغصان الأشجار في الخارج. لكنّها سمعت بعد فترة طويلة، من خلال ظلام غرفته، صوتين منحاها إجابة كاملة؛ فعلمت أنّه كان مستيقظا وأنّه لن يأتي؛ كان الصوت الأوّل هو صوت خطواته وأمّا الثاني فصوت ولاّعة السجائر.

***

توقّف ريتشارد هالي عن العزف وابتعد عن البيانو ونظر إلى داغني. لقد رآها وهي تلقي بوجهها في حركة لاإراديّة لإخفاء عاطفة قويّة جدًّا، فنهض، وابتسم وقال بهدوء: شكرًا.

- أوه لا...

همست داغني، وهي تعلم أنّها كانت ممتنّة له، وأنّها لم ترَ جدوى في التعبير عن ذلك الامتنان. كانت تفكّر في سنوات كتابته الأعمالَ التي كان يعزفها لها، هنا، في كوخه الصغير على حافّة الوادي، عندما شكّل كلَّ ذلك الصوت الرائع الموهوب كنصب تذكاريّ متدفّق لمفهوم يساوي معنى الحياة بإحساس الجمال، بينما كانت هي تمشي في شوارع نيويورك في بحث مستميت يائس عن شكل من أشكال المتعة، وتلاحقها جلبة سيمفونيّة حديثة وكأنّها كانت تنزلق من حلق مصاب عبر مضخّم صوت يسعل كراهيته الخبيثة للوجود.

قال ريتشارد هالي وهو يبتسم: لكنّني أعني ذلك، فأنا رجل أعمال ولا أقدّم أيّ شيء دون مقابل. لقد دفعت لي. فهل تعرفين السبب الذي جعلني أرغب في العزف لك في

هذه الليلة؟

فرفعت داغني رأسها، فلاحظت أنّه كان واقفًا في منتصف غرفة المعيشة. كانا وحدَهما وكانت النافذة مفتوحة تطلّ على ليلة صيفيّة، وعلى الأشجار الغارقة في الظلام الدامس على نطاق حوافّ تنحدر نحو بريق أضواء الوادي البعيدة.

- يا آنسة تاجرت، كم عدد الناس الذين يولون أعمالي القدرَ نفسه الذي تولينها إيّاه؟

أجابته ببساطة، وبنبرة فيها تكريم للقيم الدقيقة التي كان يعنيها: لا يوجد منهم الكثير.

- وهذا هو الثمن الذي أطالب به ولا أحد يستطيع تحمّل تكاليفه. فأنا لا أقصد متعتك، ولا أخاطب عواطفك، فلتحلّ اللعنة على كلّ العواطف! - أنا أخاطب فهمك وحقيقة أنّ متعتك من طبيعة متعتي، لأنّها تأتي من المصدر نفسه: أي من ذكائك، ومن الحكم الواعي للعقل القادر على تقييم عملي وفق القيم نفسها التي دفعتني إلى تأليفها. وأنا لا أعني الحقيقة التي شعرتِ بها، بل أعني أنّني جعلتك تشعرين بما كنت أرغب في أن تشعري به، ولا أقصد حقيقة أنّك معجبة بعملي، بل أقصد أنّك معجبة بالأشياء التي كنت أرغب في أن تنال إعجابك.

ثمّ أخذ يقهقه وأضاف: يوجد عشق وحيد يهواه معظم الفنّانين وهو أكثر عنفًا من رغبتهم في الإعجاب يتمثّل في خوفهم من تحديد طبيعة ذلك الإعجاب أثناء تلقّيه. لكنّه خوف لم أتقاسمه مع أيّ شخص من قبل. فأنا لا أخدع نفسي بشأن عملي أو الردّ الذي أسعى إليه، أنا أقدّر كليهما كثيرًا. ولا يهمّني أن تعاظم الإعجاب بي من غير سبب، سواء كان عاطفيًّا، أو حدسيًّا، أو غريزيًّا أو بشكل أعمى. أنا لا أهتمّ بالعمى بأيّ شكل من الأشكال، فلديّ الكثير لأظهره وأقوله. ولا يهمّني أن يكون المعجب قد أحبّني من قلبه، لكنّ ما يهمّني فقط هو أن أكون محلّ إعجاب عقل شخص مّا. وعندما أجد زبونا بتلك القدرة القيّمة سيكون أدائي تجارةً يربح فيها الطرفان معًا. فالفنّان تاجر يا آنسة تاجرت، بل هو أصعب التجّار وأكثرهم تشدّدًا. هل تفهمينني

الآن؟

ردّت بريبة: نعم، فهمتك.

كان جوابها محفوفًا بالريبة، لأنّها كانت تسمع رمز فخرها الأخلاقيّ الخاصّ وقد اختاره رجلٌ لم تكن تتوقّعه على الإطلاق.

- لكن إذا كنت تفهمينني، فلماذا بَدَوْتِ في حالة مأسويّة قبل لحظات؟ وما الذي ندمت عليه؟

- ندمت على السنوات التي بقي فيها عملك غير مسموع.

- ولكنّ ذلك لم يحدث، لقد قدّمت حفلتين أو ثلاثًا في كلّ عام هنا، في إفجيج جالت. وسأقدّم حفلًا آخر في الأسبوع القادم وأتمنّى أن تكوني حاضرة. سيكون سعر الدخول 25 سنتا.

لم تستطع داغني التوقّف عن الضحك. فابتسم هالي، ثمّ تغير وجهه تدريجيًّا فارتسمت عليه ملامح الجدّية، كما لو أنّه تحت تيّار جارف في التأمّل التلقائيّ. ثمّ نظر إلى الظلام وراء النافذة، في بقعة خالية من الأشجار، وكان ضوء القمر يستنزف لونه، تاركًا فقط بريقًا معدنيًّا لعلامة الدولار المعلّقة مثل منحنى من الفولاذ الساطع المنقوش في السماء.

- يا آنسة تاجرت، هل تعرفين السبب الذي يجعلني أعطي ثلاثة دستات من الفنّانين العصريّين لرجل أعمال حقيقيّ؟ ولماذا أجد قواسم مشتركة مع رجال من أمثال إليس وايت أو كين داناغر الذي يبدو أنّه يعاني من صمم في فهم النغمات، أكثر ممّا أجده مع رجال من أمثال مورت ليدي وبالف يوبانك؟ وسواء كان ذلك سيمفونيّة أو منجما للفحم، فإنّ كلّ عمل هو فعل خلق وإبداع يأتي من المصدر نفسه: من قدرة سليمة في الرؤية من خلال عينَي المرء، ممّا يعني القدرة على أداء التعرّف العقلانيّ الذي يعني من جهته القدرةَ على الرؤية والتواصل وجعل ما لا يُرى واضحًا وجليًّا للعيان. تلك الرؤية المشرقة التي يتحدّث عنها الناس فيصفونها على أنّها تنتمي إلى أصحاب

السمفونيّات والروايات. فكلّ ما يفكرون به هو ملكة القيادة عند البشر الذين اكتشفوا كيفيّة استخدام النفط، وكيفيّة تشغيل المنجم، وكيفيّة صناعة محرّك كهربائيّ؟ تلك النار المقدّسة التي يقال إنّها ملتهبة بداخل الموسيقيّين والشعراء، فما الذي يفترضون أنّه يدفع أحدَ الصناعيّين إلى تحدّي العالم كلّه من أجل معدنه الجديد، وكلّ ما يحرّك المخترعين إلى بناء الطائرات، ويحرّك بناة السكك الحديديّة، ومكتشفي الأنواع الجديدة من الجراثيم ومكتشفي القارّات الجديدة وما أنجزوه خلال كلّ العصور؟ هل هو تفانٍ عنيد للسعي وراء الحقيقة يا آنسة تاجرت؟ هل سمعت من قبل بأنصار الأخلاق ومحبّي الفنّ في القرون الماضية وهم يتحدّثون عن تفاني الفنّان العنيد في سعيه وراء الحقيقة؟ هات مثالا أعظم بكثير عن ذلك التفاني من فعل رجل يقول إنّ الأرض تدور، أو فعل رجل يقول إنّ لسبائك الصلب والنحاس خصائص معيّنة تمكّنها من تحقيق أشياء معيّنة. ودعِي العالم يمزّقه أو يدمره، فالعالم مهما فعل فإنّه لن يتحمّل قول شهادة زور على شواهد عقله! هذه هي الروح والشجاعة وحبّ الحقيقة التي أنشدها يا آنسة تاجرت في مواجهة صعلوك قذرٍ يتسكّع في جميع الأنحاء بفخر ليؤكّد لك أنّه وصل إلى ما يناهز كمال المجنون لأنّه هو الفنّان الذي لا يملك أدنى فكرة عن ماهية عمله الفنّيّ أو ما يعنيه. إنّه ليس مقيّدًا بمفاهيم خام من قبيل الكينونة أو المعنى. بل هو الوسيلة لنقل الألغاز العليا، فلا يعلم كيف ابتكر عمله أو السبب الذي جعله يختاره، بل خرج منه تلقائيًّا، مثلما يخرج القيء من سكّير، لأنّه لم يفكّر، ولم يخضع للتفكير، بل شعر بذلك، وكلّ ما كان عليه فعله هو الإحساس! أن يشعر بفم طليق ومرتخٍ، وعينين مراوغتين، ولعاب سائل، وارتعاش، مثل وغد غير متماسك! أنا الذي أعرف ماهية الانضباط، والجهد، والتوتّر الذهنيّ، والإجهاد الذي لا يلين والذي يضغط على قوّة ووضوح المرء المطلوبة لإنتاج عمل فنّيّ. أنا من يعلم أنّ الفن يتطلّب عملًا دؤوبًا قد يجعل من سلاسل العصابات تبدو مصدرًا للراحة ويفرض شدّة لا يستطيع جيش الحفر السياديّ فرضها. سآخذ مُشغِّل منجم الفحم ونمتطي أيّ عربة كاشفة لأعلى الأسرار. فالمشغّل يعلم أنّ مشاعره ليست هي ما يجعل عربات الفحم تتحرّك تحت الأرض، وهو يعلم السبب الذي يبقيها دائمة الحركة. أهي المشاعر؟ نعم،

نحن نشعر، وكذلك أنت وأنا وجميعنا. وفي الحقيقة نحن الوحيدون القادرون على الشعور، ونحن نعلم من أين تأتي مشاعرنا. ولكنّ ما لا نعرفه وما أجّلنا تعلّمه فترةً طويلة جدًّا هو طبيعة أولئك الذين يدّعون أنّهم لا يستطيعون التعويل على مشاعرهم. لم نكن نعرف ماهية مشاعرهم، ونحن بصدد معرفة ذلك الآن. لقد كان ذلك خطأ مكلفًا وسيدفع أولئك الذين اقترفوه ثمنًا باهظًا مثلما يتوجّب عليهم فعل ذلك أمام العدالة. إنّ أولئك المذنبين باقتراف ذلك الخطإ هم الفنّانون الحقيقيّون الذين سيرون الآن أنّهم أوّل من ستتمّ إبادتهم، وأنّهم منحوا مَن سيُبيدهم انتصارًا عبر مساعدته على تدمير حماتهم الوحيدين. لأنّه لو لم يكن رجل الأعمال هو الأكثر مأساوية وحمقًا ولا يعلم أنّه أحد أهم الدعاة الداعمين لأعلى الروح الإبداعية الخلاّقة عند الإنسان، فإنّ الفنان هو الذي يعتقد أنّ رجل الأعمال هو عدوّه.

فقالت داغني في نفسها: كلّ ذلك صحيحٌ، وتذكّرت حين كانت تسير في شوارع الوادي وتنظر إلى نوافذ المتاجر المتألّقة في الشمس مثل طفل متحمّس. فالشركات هنا هادفةٌ، وعندما فكّرت في الفنّ -حين جلست في الظلام أمام خشبة قاعة الحفل واستمعت للعنف المسيطر عليه والدقّة الرياضيّة في موسيقى هالي- أدركت أنّ فنّه يحتوي على الانضباط التجاريّ الصارم.

واعتقدت أنّ لكليهما تألّقًا هندسيًّا عندما جلست بين صفوف المقاعد تحت السماء المفتوحة وهي تشاهد كاي لودلو على خشبة المسرح. لقد كانت تجربة لم تعرفها منذ الطفولة، تجربة احتجازها مدّة ثلاث ساعات من قبل مسرحيّة تحكي قصّة لم ترَها من قبل، وسطورًا لم تسمعها من قبل، وتعالج موضوعًا لم يُتَعَرَّض له عبر تقلّبات القرون. تلك السعادة المنسيّة التي يجدها المرء عندما يُحتجز باهتمام منتشٍ من قبل مقاليد كلّ ما هو عبقريّ، وغير متوقّع، ومنطقيّ، وهادف، وجديد، فيراه يتجسّد في الأداء الفنّيّ الفائق لامرأة تمثّل شخصيّة يضاهي جمالُها الروحيّ كمالَها الجسديّ.

قالت كاي لودلو، وهي تبتسم ردًّا على تعليقها عليها بعد الأداء:

– لهذا أنا هنا يا آنسة تاجارت. فمهما تكُن العظمة البشرية فأنا أمتلك الموهبة لتصويرها، تلك الموهبة التي كان العالم الخارجيّ يسعى إلى تحطيمها. فهم لم يسمحوا لي إلّا بتمثيل أدوار ثانويّة ورديئة كدور العاهرة وخادمة البيوت، لقد استغلّوا موهبتي بهدف تشويه السمعة، ولهذا السبب قدّمت استقالتي.

واعتقدت داغني أنّها لم تعرف منذ نعومة أظافرها مثلَ ذلك الشعور بالنشوة بعد مشاهدة أداء المسرحيّة، ذلك الشعور بأنّ الحياة تحمل في طيّاتها أشياء تستحقّ بلوغها، وبذلك فهي لا تشمل الاهتمام بالقذارة والمجاري التي لا يوجد أيّ داعٍ لمشاهدتها. وبينما بدأ الجمهور يخرج في الظلام عبر صفوف المقاعد المضاءة، لاحظت وجود إليس وايت والقاضي ناراغاناسيت وكين داناغر وكلّ الرجال الذين قيل عنهم سابقًا إنّهم يحتقرون جميع أشكال الفنون.

وكانت آخر صورة التقطتها في ذلك المساء هي مشهد شخصين طويلين، سويّين، ونحيلين، يسيران معًا جنبا إلى جنب أسفل الدرب بين الصخور، بشعاع ضوئيّ يومض بين فينة وأخرى على شعرهما الذهبيّ. لقد كانا كاي لودلو ودانيسكولد وتساءلت عمّا إذا كان بإمكانهما تحمّل أعباء العودة إلى عالم حُكم عليهما فيه بالدمار.

وظلّ الشعور المستعاد من طفولتها الخاصّة يعود إليها كلّما قابلت وَلَدَيْ المرأة الشابّة التي كانت تملك متجر المخبز. وكانت تراهما غالبًا يتسكّعان في مسارات الوادي. كانا كائنين لا يعرفان الخوف وهما في عمر صغير جدًّا. ويبدو أنّهما يواجهان الحياة كما كانت تواجهها من غير أن تملك نظرةً مشابهة لما رأته في أطفال العالم الخارجيّ، نظرة الخوف التي تشوب نصفها السرّيّة، ويشوب الاستهزاء نصفها الآخر، بملامح دفاع الطفل ضدّ الكبار البالغين، وبنظرة كائن بصدد عمليّة اكتشافٍ يسمع خلالها الأكاذيب ويتعلّم الشعور بالكراهية. لقد كانت للولدين ثقة مفتوحة سعيدة وودّيّة تشبه ثقة القطط التي لا نتوقّع منها الأذى. كانا يتميّزان ببراءة طبيعيّة غير متبجّحة يخالطها بشعور بقيمتها الخاصّة، تلك البراءة الواثقة في أيّ شخص غريب يقدر على التعرّف إليها بسرعة. كانا يتمتّعان بفضول شديد من شأنه المغامرة بالخوض في أيّ مشروع في

أيّ مكان بيقينٍ من أنّ الحياة تشمل أيّ شيء يستحقّ الاستكشاف. لقد بَدَوَا كما لو أنّهما مضطرّان إلى مواجهة الحقد، ورفضه بازدراء، لا لكونه خطيرًا، بل لأنّه يمثّل الغباء، فهما لم يكونا مستعدّين لقبول استقالة مسحوقة واعتبارها قانونا للوجود.

قالت الأمّ الشابّة ردًّا على تعليقها، وهي تغلّف رغيف خبز طازج:

- إنّهما يمثّلان مسيرتي المهنيّة الخاصّة يا آنسة تاجارت. إنّها المهنة التي اخترت ممارستها، مهنة لا يمكن للمرء أن يمارسها بنجاحٍ في العالم الخارجيّ، على الرغم من كلّ الهراء حول الأمومة. وأعتقد أنّك قابلتِ زوجي، إنّه أستاذ في علم الاقتصاد ويعمل مراقبًا لخطوط الاتّصالات لدى ديك مكنمارا. أنت تعلمين، بطبيعة الحال، أنّه لا يمكن أن توجد في هذا الوادي التزاماتٌ جماعيّة وأنّ العائلات أو الأقارب لا يُسمَح لهم بالمجيء إلى هنا. لقد جئت إلى هنا، لا فقط بسبب مهنة زوجي، ولكن أيضًا من أجل ممارسة مهنتي الخاصّة. جئت إلى هنا من أجل تربية أبنائي بوصفهم بشرًا وأودّ ألّا أسلّمهم للنظم التعليميّة التي تعمل على استنزاف دماغ الطفل، من خلال إقناعه بأنّ العقل عاجزٌ وأنّ الوجود غير عقلانيّ وتسوده الفوضى التي لا يقدر على التعامل معها، وبالنتيجة اختزاله في حالة من الرعب المزمن. أتتعجّبين من الفرق الجليّ بين إيدي وأولئك الأطفال الموجودين في الخارج؟ السبب بسيط جدًّا ويتمثّل في أنّه هنا، في وادي جالت، لا يوجد شخصٌ لا يعتبر أنّ من الوحشيّة مواجهة طفل بأدنى إيحاء من اللّاعقلانيّة.

ففكّرت داغني في المعلّمين الذين فقدتهم مدارس العالم عندما نظرت إلى طلّاب الدكتور أكستون الثلاثة في مساء جمع شملهم السنويّ.

أمّا الضيف الآخر الوحيد الذي استدعاه الدكتور أكستون فكانت كاي لودلو. لقد جلسوا الستّة في الفناء الخلفيّ من منزله، وقد خيّم ضوء الغروب على وجوههم، وغمر أرضيّةَ الوادي أسفلهم بخارٌ أزرق ناعم كثيف.

فنظرت داغني إلى الطلّاب الثلاثة المنحنين، بخيالات رشيقة نصفها مستلقٍ على

الكراسي المغلّفة بالقماش في وضعيّة استرخاء واطمئنان، يرتدون بنطلونات، ومعاطف ثقيلة وقمصانا بياقات مفتوحة، هم على التوالي: جون جالت، وفرانسيسكو دانكونيا، وراجنار دانيسكولد.

قال الدكتور أكستون وهو يبتسم:

- لا تتعجّبي يا آنسة تاجارت، ولا ترتكبي خطأ التفكير في أنّ طلّابي الثلاثة هم من المخلوقات الخارقة للعادة. بل هم شيء أعظم من ذلك بكثير وأكثر روعة ممّا تتصوّرين: إنّهم بشر عاديّون، وهو شيء لم يشهده العالم قطُّ، وإنجازهم يتمثّل في أنّهم تمكّنوا من النجاة على ذلك النحو. إنّ الأمر يتطلّب أكثر ما يمكن من عقل استثنائيّ ونزاهة استثنائيّة حتّى يظلّ المرء بمنأى عن التأثيرات المدمّرة للدماغ في مذاهب العالم، ويظلّ إنسانًا، لأنّ الإنسانيّ هو العقلانيّ.

فشعرت داغني بطبيعة جديدة في موقف الدكتور أكستون، طبيعة تحمل بعض التغيير في صرامة تحفّظه المعتاد؛ وبدا كأنّه أدرجها في دائرتهم، وكأنّها كانت أكثر من مجرّد ضيفة. وتصرّف فرانسيسكو كما لو أنّ حضورها في اجتماعهم كان طبيعيًّا وبديهيًّا. أمّا ملامح وجه جالت فلم توحِ بأيّ تلميح إلى أيّ ردّ فعل؛ وكان سلوكه يشبه سلوك مرافق مهذّب جلبها إلى هناك بناءً على طلب الدكتور أكستون.

ولاحظت أنّ عيني الدكتور أكستون ظلّت تعاود النظر إليها من حين إلى آخر، كما لو أنّه يشعر بالفخر الرائق لما كان طلّابه يعرضونه لمراقب ممتنّ. واستمرّت محادثته في الدوران على موضوع واحدٍ، على طريقة الأب الذي وجد مستمعًا مهتمًّا بموضوعه الأكثر اعتزازا:

- كان يجب عليك رؤيتهم أيّامَ الجامعة يا آنسة تاجرت. لن يكون بوسعك حينها العثور على ثلاثة أولاد مكيّفين للتأقلم مع مثل تلك الخلفيّات المختلفة، لكن -اللعنة على من هيّأ لهم ظروف التكيّف تلك- لا شكّ أنّهم اختاروا بعضهم بعضًا من النظرة الأولى، من بين آلاف الطلبة في ذلك الحرم الجامعيّ. فرانسيسكو أغنى وريث في العالم،

وراجنار الأرستقراطيّ الأوروبيّ وجون ذلك الرجل العصاميّ. لقد كان جون في الحقيقة ابن ميكانيكيّ بمحطّة للوقود مهجورة في أحد مفترقات الطرق بولاية أوهايو. غادر المنزل في سنّ الثانية عشرة قصد تكوين ذاته وفقًا لطريقته الخاصّة، ولكن كنت دائما أعتقد أنّه جاء إلى العالم مثل مينيرفا، آلهة الحكمة، التي انبثقت من رأس المشتري ونَمَتْ وتجنّدت بشكل كامل... مازلت أتذكّر اليوم الذي رأيت فيه ثلاثتهم أوّل مرّة. كانوا يجلسون في الجزء الخلفيّ من الفصل، وكنت أقدّم دروسًا خاصّة لطلّاب الدراسات العليا، وهي دروسٌ صعبة بطبيعة الحال إلى درجة أنّ القليل من الطلبة الغرباء غامروا بحضور تلك المحاضرات. وكان ثلاثتهم يبدون صغارًا جدًّا حتّى بالمقارنة مع الطلبة المستجدّين. لقد كانوا في سنّ السادسة عشرة ذلك الوقت ولم أعلم بذلك إلّا لاحقًا. وفي نهاية تلك المحاضرة، نهض جون ليطرح عليّ سؤالًا. وهو سؤال كنت سأفخر بسماعه من طالب تلقّى ستّ سنوات في الفلسفة. وقد تعلّق بالميتافيزيقيا الخاصّة بأفلاطون، وهو سؤال لم يكن لدى أفلاطون الحسّ الكافي لطرحه على نفسه. فأجبته وطلبت منه أن يأتي إلى مكتبي بعد المحاضرة. لقد جاء -وفي الحقيقة جاؤوا ثلاثتهم- ورأيت الاثنين الآخرين في قاعة الانتظار فسمحت لهما بالدخول. وتحدّثت معهم مدّة ساعة ثمّ ألغيت كلّ مواعيدي واستأنفت حديثي معهم بقيّة اليوم. وبعد ذلك، قمت بالترتيبات اللّازمة للسماح لهم بتلقّي دروسي والحصول على الاعتمادات الضروريّة لذلك. فأنهوا الدورة كاملة وحصلوا على أعلى الدرجات في الصفّ... وقد تخصّصوا في مادّتين: الفيزياء والفلسفة. وأذهلت اختياراتهم الجميعَ باستثنائي: لقد اعتبر مفكرو عصرنا الحديث أنّ من غير الضروريّ إدراك الواقع، واعتبر الفيزيائيّون المعاصرون أنّ من غير الضروريّ التفكير. ثمّ شاهدت ما هو أفضل منهم؛ وما أدهشني هو أنّ هؤلاء الأطفال يعرفون ذلك أيضًا... وكان روبرت ستادلر حينها رئيسًا لقسم علم الفيزياء، أمّا أنا فكنت رئيس قسم الفلسفة. لقد ذلّل كلّ منّا جميع القواعد والقيود التي كانت مفروضة على هؤلاء الطلّاب الثلاثة، فأنقذناهم من كلّ الدورات الروتينيّة، وغير الضروريّة، ولم نشغل وقتهم سوى بأصعب المهامّ، وفتحنا طريقهم نحو التخصّص والتميّز في مادّتَينا خلال أربع سنوات من تكوينهم. فعملوا

بجدّ من أجل إنجاز ذلك خلال السنوات الأربع، كما عملوا من أجل كسب رزقهم. ففرانسيسكو وراجنار كانا يتلقّيان علاوات من أبويهما، أمّا جون فلم يكن يملك شيئًا، لكنّ ثلاثتهم كانوا يشغلون وظائف بدوامٍ جزئيّ لكسب خبرتهم ومالهم. لقد عمل فرانسيسكو في مسبك للنحاس، وعمل جون في السكك الحديديّة والقاطرات، أمّا راجنار فهو لم يكن أقلّ شأنًا منهما، ولكنّه كان أعظم مثابر رصين، فقد عمل موظّفًا في مكتبة الجامعة. لقد كان لديهم الوقت الكافي لإنجاز كلّ ما يريدونه، ولكن لم يكن لديهم الوقت للاختلاط بالناس أو أيّ وقت فراغ لممارسة أنشطة الحرم الجامعيّ المشتركة. هم... يا راجنار!

توقّف عن الكلام فجأة، وقال له بحدّة: لا تجلس على الأرض!

كان دانيسكولد قد انزلق حينها إلى أسفل وجلس على العشب، وأمال رأسه ووضعه على ركبة كاي لودلو. ثمّ نهض بطاعة وهو يقهقه. فابتسم الدكتور أكستون وردّ معتذرًا:

- إنّها إحدى عاداتي القديمة

شرح الدكتور أكستون هذه الواقعة لداغني قائلًا: ربّما تكون ردّ فعل شرطيّ على ما أعتقد. لقد اعتدت أن أقول له ذلك أثناء سنواته الجامعيّة، عندما كنت أقبض عليه وهو جالس على الأرض في فنائي الخلفيّ، في تلك الأمسيات الضبابيّة الباردة. كان متهوّرا على ذلك النحو، إلى درجة أنّه جعلني أشعر بالقلق عليه، وكان عليه أن يعلم أنّ مثل ذلك الفعل خطيرٌ و..

وتوقّف الدكتور فجأة؛ وتطلّع إلى عينَي داغني اللتين اعتراهما الذهول، فلاحظ أفكاره نفسها: التفكير في نوع المخاطر التي اختار راجنار البالغ مواجهتها. ثم قام أشرع الدكتور أكستون يدَيه في بادرة من السخرية الذاتيّة العاجزة. فابتسمت له كاي لودلو كإشارة إلى أنّها فهمته.

ثمّ استأنف حديثه: كان منزلي حينها يقع خارج الحرم الجامعيّ، بمنحدر شاهق

طويل فوق بحيرة إري. وكنّا أربعتنا نقضي أمسياتٍ كثيرةً معًا فنجلس على هذا النحو، في فنائي الخلفيّ، في ليالي الخريف الباكر أو في الربيع، بدلًا من هذا الجبل الجرانيتيّ، وكانت البحيرة تمتدّ أمامنا على مسافة غير متناهية. وكان عليّ أن أعمل معهم بجدّ في تلك الليالي أكثر من عملي في أيّ فصل، فكنت أجيب على كلّ الأسئلة التي يطرحونها عليّ، وأناقش معهم كلّ القضايا التي يثيرونها. ومع حلول منتصف الليل، أعدّ لهم مشروب الشوكولاتة الساخن وأجبرهم على شربه. كنت أشتبه في أنّهم لا يجدون الوقت الكافي لتناول الطعام بالشكل الصحيح. ثمّ نستأنف حديثنا، بينما تختفي البحيرة في الظلام الحالك وتبدو السماء أخفّ وزنًا من الأرض. وكانت تأتي أحيانٌ نبقى فيها هناك حتّى ألاحظ فجأةً أنّ السماء أصبحت أكثر ظلمة وأنّ البحيرة أصبحت باهتةً وأنّنا على وشك رؤية بزوغ الشمس. وكان عليّ أن أعرف أفضل من ذلك بكثير، لأنّني أعلم أنّهم لم يحصلوا على ما يكفي من النوم كما يجب، ولكنّني كنت أنسى من حين إلى آخر، وأفقد الشعور بالزمن. كما ترين، فهم عندما كانوا هناك، كنت أشعر دائمًا كما لو أنّنا أمام صباح باكر ويوم طويل لا ينتهي. لم يحدّثوني قطّ عمّا كانوا يتمنّون فعله في المستقبل، ولم يتساءلوا البتّة عمّا إذا كانت هناك قوّة مطلقة جبّارة وغامضة قد فضّلتهم على بقيّة البشر بموهبة لا يدركها أحدٌ لتحقيق ما يريدون، بل كانوا لا يتكلّمون إلّا عمّا سيفعلون. هل تميل المودّة إلى جعل المرء جبانًا؟ أعلم أنّ الأوقات الوحيدة التي شعرت فيها بالخوف كانت تلك اللحظات العرضية عندما أستمع إليهم وأفكّر أثناءها في ماهية العالم وما قد يواجهونه في المستقبل. هل كان ذلك هو الخوف؟ أجل لقد كان كذلك، بل إنّه أكثر من الخوف. كان الأمر مثل عاطفة تستطيع جعل البشر قادرين على القتل. عندما ظننت أنّ هدف الاتّجاه العالميّ هو تدمير هؤلاء الأطفال، وأنّهم كانوا يعدّون هؤلاء الثلاثة الذين هم بمثابة أبنائي ليضّحوا بهم، نعم كنت سأقتل، لكن من كان هناك لأقتله؟ لقد كنت مستعدًّا لقتل الجميع كما كنت غير قادر على قتل أيّ أحد، إذ لم يوجد عدوٌّ واحد، ولا مركزٌ واحد يمثّل بؤرة العداء، ولا وجود لأيّ شرّير، ولم يكن أمامي سوى العامل الاجتماعيّ البسيط الذي لا يقدر على كسب قرش أو السارق البيروقراطيّ الخائف من ظلّه، وكان كلّ ما في الأرض يسقط

في رعب فاحش، مدفوعًا بيد كلّ ما من شأنه أن يكون الإنسان اللّائق الذي يعتقد أنّ الحاجة أقدس من القدرة، وأنّ الشفقة أقدس من العدالة. لكن تلك كانت مجرّد لحظات عرضيّة ولم يكن ذلك هو شعوري الدائم. لقد استمعت لأطفالي وكنت أعرف أن لا شيء سيهزمهم. ونظرت إليهم وهم يجلسون في فنائي الخلفيّ، وخارج منزلي، حيث توجد مبانٍ عالية مظلمة لما كان ولا يزال نصبًا تذكاريًا لأفكار غير متحفّظة في ما يسمّونها جامعة باتريك هنري، وعلى مسافة أبعد من ذلك كانت هناك أضواء مدينة كليفلاند، والتألّق البرتقاليّ لمصانع الصلب وراء بطّاريّات المداخن، والنقاط الحمراء المتلألئة من الأبراج الإذاعيّة، والأشعّة البيضاء الطويلة للمطارات على الحافّة المظلمة للسماء... أتذكّر أنّني لاحظت ذات ليلة أنّ جون قد لزم الصمت فترةً طويلةً، ثمّ شاهدته وقد نام ممدّدا على الأرض. واعترف الآخران بأنّه لم ينم مدّة ثلاثة أيّام متتالية. فأرسلتهما على الفور إلى المنزل، لكن لم يسمح لي قلبي بأن أزعجه. كانت ليلة ربيعيّة دافئة، فأحضرت بطّانية لتغطيته، وتركته ينام حيث كان. وجلست بجانبه حتّى الصباح، وبينما كنت أراقب وجهه على ضوء النجوم، بزغ أوّل شعاع للشمس على جبينه الصافي وجفونه المغلقة، وما عشته لم يكن صلاةً، فأنا لا أصلّي، ولكن تلك هي حالة الروح في الصلاة وهي محاولة مضلّلة: فيها من التفاني الذاتيّ الكامل والواثق في حبّ الحقّ واليقين من أنّ الحقّ سيفوز، وأنّ هذا الولد سيحظى بالمستقبل الذي يستحقّه. ثمّ حرّك يده مشيرا إلى الوادي. لم أتوقّع أن يكون عظيمًا على هذا النحو.

ثمّ خيّم الظلام واندمجت الجبال مع السماء. وكانت أضواء الوادي معلّقة هناك في الفضاء تحتهم، وتوهّج أحمر يتصاعد من مسبك ستوكتون فوقهم، وسلسلة النوافذ المضيئة لمنزل موليغان التي بدت مثل عربة سكّة حديد مثبّتة في السماء.

قال الدكتور أكستون ببطء:

– كان لي منافس شرس هو روبرت ستادلر... لا تحزن يا جون، لقد انقضى الأمر... أحبّه جون في السابق مثلما أحببته أنا أيضًا، لكن ليس تمامًا، ولكنّ ما شعرت به تجاه عقل مثل عقل ستادلر كان بدرجات ألم الحبّ نفسها، كان شعورًا نادرًا وممتعًا: إنّه

الإعجاب. لا، لم أكن أحبّه، لكنّنا شعرنا دائما كما لو أنّنا الزملَين الوحيدين الناجيين من أحد العصور أو الأراضي الخالية وقد تُركنا في مستنقع من الرداءة. ولكنّ الخطيئة القاتلة لروبرت ستادلر تتمثّل في أنّه لم يتعرّف قطُّ على موطنه الحقيقيّ... كان يكره الحماقة، وهي العاطفة الوحيدة التي رأيته يصف بها الناس، بكراهية شديدة مريرة ومرهقة تجاه أيّ قصور يتجرّأ على معارضته. كان يريد فرض منهجِهِ الخاصّ، ورغب في أن يُترَكَ وحدَه لاتّباعه، وأراد إبعاد الناس عن طريقه، ولم يحدّد مطلقًا وسائل بلوغه أو طبيعة مساره وأعدائه. لقد أخذ طريقًا مختصرة. هل أنت بصدد الضحك يا آنسة تاجرت؟ أنت تكرهينه، أليس كذلك؟ نعم، أنت تعلمين الطريق المختصرة التي سلكها.. لقد أخبرك بأنّنا كنّا منافسين لهؤلاء الطلّاب الثلاثة. ذلك صحيح أو بالأحرى، ليست تلك هي الطريقة التي كنت أفكّر بها، ولكنّني كنت أعلم أنّه يفكّر على ذاك النحو. حسنًا، إذا كنّا منافسين لهم، فقد كانت لديّ ميزة واحدة: لقد علمت السبب الذي جعلهم بحاجة إلى اختصاصاتنا المهنيّة، لكنّه لم يفهم اهتمامهم بمجالي الخاصّ. ولم يفهم قطّ أهمّية ذلك لنفسه، وهو ما دمّره بالمناسبة. ولكن في تلك السنوات كان لا يزال متشبّثًا بالحياة بما فيه الكفاية لمسك هؤلاء الطلّاب الثلاثة بقبضة من حديدٍ. القبضة كانت الكلمة المناسبة لذلك. وبما أنّ الذكاء هو القيمة الوحيدة التي كان يقدّسها، فإنّه تشبّث بهم كما لو أنّهم كنزه الخاصّ. كان دائمًا إنسانًا وحيدًا، وأعتقد أنّه سيظلّ كذلك طوال حياته. وكان فرانسيسكو وراجنار يمثّلان حبّه الوحيد، أمّا جون فهو شغفه الأوحد إلى درجة أنّه كان يعتبره وريثه، بل ومستقبله وخلوده الخاصّ. كان جون ينوي أن يصبح مخترعًا بارعًا، ممّا يعني أنّه سيصبح فيزيائيًّا؛ وكان عليه أن يتلقّى دروسه العليا تحت إشراف روبرت ستادلر. وكان فرانسيسكو ينوي المغادرة بعد التخرّج والذهاب إلى العمل؛ وكان من المقرّر أن يصبح الخليط المثاليّ لكلينا، ولما زرعه أبواه: فكان أنجح رجل صناعيّ. هل تعلمين المهنة التي اختارها راجنار يا آنسة تاجارت؟ لا، لم يكن طيّارًا مثيرًا، أو مستكشفًا للغابات، أو غوّاصًا في أعماق البحار. لقد اختار أكثر المهن شجاعةً. راجنار كان ينوي أن يصبح فيلسوفًا؛ فيلسوفًا تجريديًّا، نظريًّا، أكاديميًّا، منعزلًا في برجه العاجيّ... نعم، روبرت ستادلر

أحبّهم. ومع ذلك، ومثلما قلت لك كنت مستعدًّا لقتل أيّ أحدٍ قَصْدَ حمايتهم، لكن لم يكن هناك أحد لأقتله. فلو كان ذلك هو الحلّ –وهو بالطبع ليس كذلك– لكان الشخص الذي يجب قتله هو روبرت ستادلر، فمن بين جميع الأشخاص، وكلّ الذنوب الشرّيرة التي هي بصدد تدمير العالم الآن، اقترف هو أكبر ذنب على الإطلاق. كان لديه عقل يمكّنه من حياة أفضل، فهو الاسم الوحيد للشرف والإنجاز، لكنّه سمح لعقله بإقرار حكم اللصوص. وكان يمثّل الإنسان الذي سلّم العلم إلى سلطة اللصوص وحوّله إلى سلاح بأيديهم. لكنّ جون لم يتوقّع ذلك ولا أنا أيضًا... عاد جون إلى دورة الدراسات العليا في الفيزياء لكنّه لم ينهِها، بل غادر يومَ أيّد روبرت ستادلر إنشاء معهد الدولة للعلوم. لقد قابلت ستادلر بالصدفة في ممرّ الجامعة، عندما خرج من مكتبه بعد محادثته الأخيرة مع جون. بدا حزينا، وآمل ألّا أضطرّ إلى رؤية تغيير من ذلك النوع في وجه أيّ إنسان. رآني أقترب، ولم يكن يعلم أنّني أعرف السبب الذي جعله يحيط بي ويبكي قائلًا:

– لقد سئمتكم جميعًا أيّها المثاليّون غير العمليّين!

فأدرت له ظهري وابتعدت. كنت أعلم أنّني بصدد سماع رجل ينطق بحكم الإعدام على نفسه..

– يا آنسة تاجرت، أتذكرين السؤال الذي طرحته عليّ بشأن طلّابي الثلاثة؟

همست داغني: نعم

– يمكنني أن أستنتج من سؤالك طبيعة ما قاله لك روبرت ستادلر عنهم. فأخبريني لماذا كان عليه أن يتحدّث عنهم أصلًا؟

فرأى في ابتسامتها المريرة حركة خافتة حين أجابته:

– لقد أخبرني بقصّتهم في إطار تقديم مبرّر لإيمانه بعقم الذكاء البشريّ. لقد أخبرني بذلك لكونه مثالًا مخيّبًا للآمال وقال: (كانوا يملكون نوع من القدرة التي يتوقّع المرء أن يراها تغيّر مسار العالم في المستقبل).

- حسنًا، ألم يفعلوا ذلك؟

فأومأت داغني برأسها إيماءةً بطيئةً على مدى لحظة طويلة لتشير إليه بمعنى القبول والولاء.

- ما أريدك أن تفهميه يا آنسة تاجرت هو الشرّ الكامل لأولئك الذين يزعمون أنّهم أصبحوا مقتنعين بأنّ هذه الأرض بطبيعتها مملكةٌ للضغينة لا يحظى فيها الإنسان الصالح بأيّ فرصة للنجاح. دعيهم يراجعوا فرضيّاتهم. دعيهم يراجعوا معايير قيمهم، -قبل أن يمنحوا أنفسهم رخصة مطلقة للشرّ بوصفه ضرورة- وما إذا كانوا يعرفون ماهية الخير وماهية الشروط التي يتطلّبها. إنّ روبرت ستادلر يعتقد الآن أنّ الذكاء عديم الجدوى وأنّ حياة الإنسان لا يمكن أن تكون إلّا غير عقلانيّة. فهل توقّع أن يصبح جون جالت عالمًا عظيمًا مستعدًّا للعمل تحت إمرة الدكتور فلويد فيريس؟ وهل توقّع من فرانسيسكو دانكونيا أن يصبح رجلًا صناعيًّا عظيمًا، مستعدًّا للإنتاج تحت أوامر ويسلي ماوتش ومصلحته؟ وهل توقّع من راجنار دانيسكولد أن يصبح فيلسوفًا عظيمًا، مستعدًّا للوعظ، تحت أوامر الدكتور سايمون بريتشيت؟ وهل كان ذلك هو المستقبل الذي اعتبره روبرت ستادلر عقلانيًّا؟ أريدك منك أن تلاحظي يا آنسة تاجرت أنّ هؤلاء الذين يصرخون بأعلى أصواتهم ليعلنوا عن خيبة أملهم إزاء إخفاق الفضيلة، وعقم العقل، وعجز المنطق، هم من حقّقوا النتيجة المنطقيّة الكاملة والدقيقة للأفكار التي بشّروا بها، بحدود منطقيّة لا ترحم جعلتهم لا يجرؤون على التعرّف إليها. وفي عالم يعلن عدم وجود العقل، والاستقامة الأخلاقيّة للحكم بالقوّة الغاشمة، ومعاقبة المختصّين لصالح غير الأكفاء، والتضحية بالأفضل لصالح الأسوإ، في مثل هذا العالم، من الأفضل أن ينقلب المرء ضدّ المجتمع ويصبح عدوّه الأكثر فتكًا. ففي مثل هذا العالم سيبقى جون جالت -رجل القوّة الفكريّة التي لا تقدَّر- مجرّد عامل غير ماهر. وسيصبح فرانسيسكو دانكونيا -منتج للثروة- مجرّد مبذّر. وسيصبح راجنار دانيسكولد -رجل التنوير- رجلًا عنيفًا. فالمجتمع، والدكتور روبرت ستادلر حقّقا كلّ ما كانا يدعوان إليه. فأيّ شكوى سيطلقانها الآن؟ هل

ستكون متعلّقة بأنّ الكون غير منطقيّ؟ وهل هو كذلك حقًّا؟

ثمّ ابتسم ابتسامةً كشفت عن يقينه الكيّس وقال: كلّ إنسان يبني عالمَه الخاصّ وفقًا لتصوّره الخاصّ عنه. فهو يملك القدرة على الاختيار، لكنّه لا يمتلك القوّةَ للهروب من ضرورة الاختيار. وإذا تنازل عن قوّته، فقد تنازل عن مكانة الإنسان في الكون. ومن خلال اختياره الخاصّ ستكون فوضى اللّاعقلانيّ الطاحنة هي ما يحقّقه كمجال لوجوده. وأيًّا كان من يحافظ على فكرةٍ واحدةٍ لم يفسدها أيّ تنازل لإرادة الآخرين، وأيًّا كان من يجلب إلى الواقع عودَ ثقاب أو جزءًا من حديقة كان قد رسمها في صورته الذهنيّة، فهو إلى حدٍّ مّا إنسانٌ وذلك الحدّ هو المقياس الوحيد لفضيلته. فهم..

أشار إلى طلاّبه والوادي، ثمّ أضاف: لم يقدّموا أيّ تنازلات. وهذا هو مقياس ما حافظوا عليه وماهيتهم... ويمكنني الآن أن أكرّر إجابتي على السؤال الذي طرحته عليّ، وكلّي علم بأنّك ستفهمينه تمامًا. لقد سألتني عمّا إذا كنت فخورًا بالحالة التي أصبح عليها أبنائي الثلاثة. نعم أنا أكثر فخرًا ممّا أمِلتُ في أن أكون عليه. فأنا فخور بكلّ أفعالهم وكلّ أهدافهم وبكلّ قيمة اختاروها، وهذه، يا داغني، هي إجابتي الكاملة.

وبصوته المفاجئ نطق اسمَها في وضوح، وبنبرة الأب؛ وخاطبها في الجملتين الأخيرتين من دون أن ينظر مباشرة إلى وجهها، ولكنّه كان يراقب جالت. فشاهدت جالت وهو يجيبه في لحظة بملامح مفتوحة وثابتة كإشارة تأكيد. ثمّ انتقلت عينا جالت إلى عينيها فرأته ينظر إليها كما لو أنّها تحمل لقبًا غير معلن كان معلّقًا في لحظات الصمت بينهما، ذلك اللقب الذي أعلنه الدكتور أكستون من دون نطقه ومن دون أن يلاحظه أيّ واحد من الآخرين، ورأت في عيني جالت لمحة من التسلية قابلت صدمتها ومنحتها دعمًا لا يصدّق من الرقّة واللطف.

***

لقد كانت شركة دانكونيا للنحاس الأولى تمثّل جزءًا صغيرًا مقابلًا للجبل، وبدت

وكأنّها سكّين اخترق بعض الزوايا المائلة، فتركت رفوفًا من الصخور الحمراء مثل جرحٍ بذلك الجناح الجبليّ البنّيّ المائل إلى الحمرة. وكانت الشمس تغرب مخيّمة على ذلك المكان بينما تقف داغني على حافّة الطريق ممسكةً بيد جالت من جهةٍ، ويد فرانسيسكو من جهة أخرى. وكانت الرياح تلفح وجوههم وتغمر الوادي كلّه على ارتفاع ألفي قدمٍ.

فقالت داغني في نفسها وهي تنظر إلى المنجم: هذه هي قصّة الثروة البشريّة المنقوشة بحروف من ذهب في الجبال؛ ببعض أشجار الصنوبر المعلّقة بذلك الفجّ، تلويها الغواصف المحتدمة في البرّية على مدى قرون عديدة. وكان هناك ستّة رجال يعملون بتلك الرفوف والمدرّجات الجبليّة، وقدرًا هائلا من الآلات المعقّدة تشقّ خطوطًا دقيقة قبالة السماء؛ فالمكنات هي التي تنجز معظم العمل.

ولاحظت داغني أنّ فرانسيسكو كان يعرض مجال عمله على جالت بالقدر نفسه الذي كان يعرضه به عليها أو أكثر:

- أنت لم تزر المنجم منذ السنة الماضية يا جون... انتظر يا جون وستراه بعد عام من الآن. سأكون في الخارج لأنهي ما تبقّى من أعمال خلال بضعة أشهر، وبعدها سيكون هذا كلّ عملي وبدوام كامل.

ثمّ ردّ ضاحكا في إجابة على سؤال طرحه جالت:

- بحقّ الجحيم، لا تقل ذلك يا جون!

فالتقطت داغني فجأةً خصوصيّة نظرته المميّزة إلى جالت: كانت بالخاصّيّة نفسها التي رأتها في عينيه وهو واقف في غرفتها ويمسك بحافّة الطاولة ويمرّ بلحظة مربكة؛ لقد بدا حينها كما لو أنّه رأى شخصًا أمامه؛ واعتقدت أنّ ذلك الشخص قد يكون جالت؛ بل إنّ صورة جالت هي التي جعلته يستمرّ في العيش.

ثمّ شعرت داغني بفزعٍ خفيّ حاصر جزءًا من كيانها: فالجهد الذي بذله فرانسيسكو في تلك اللحظة للقبول بأنّه خسرها لصالح منافسه، ثمنًا مقابل الفوز بمعركته، قد

كلّفه كثيرًا حتّى إنّه لم يقدر الآن على التشكيك في الحقيقة التي توقّعها الدكتور أكستون. ماذا سيفعل ذلك به عندما يعرف الحقيقة؟ تساءلت، ثمّ شعرت بصوت قاسٍ يذكّرها بأنّه قد لا توجد أيّ حقيقة من ذلك النوع لتعرفها.

وفي جزء آخر من كيانها شعرت أيضًا بتوتّر غامض وهي تشاهد الطريقة التي نظر بها جالت إلى فرانسيسكو: كانت نظرة منفتحة صريحة بسيطة مستسلمة لشعور غير متحفّظ. ثمّ أحسّت بقلق عجيب متلهّف لم تقدر على تحديده أو رفضه بالكامل، وتعجّبٍ ممّا إذا كان من شأن ذلك الشعور أن ينزله إلى قبح التنازل.

لكنّ إحساسًا هائلًا بالارتياح هيمن على معظم عقلها، كما لو أنّها كانت تضحك من كلّ تلك الشكوك. وظلّت نظرتها تعود إلى الطريق التي سافروا عبرها للوصول إلى هناك، على امتداد الميلين المتعبين من الدرب الملتوي الذي قطعوه، مثل مثقاب غير مستقرّ، من طرفَي قدمَيها إلى أسفل أرضيّة الوادي. واستمرّت عيناها تتفحّصان المكان، بينما كان عقلها يندفع لإنجاز هدف من تصميمه الخاصّ.

وكانت بعض الشجيرات، وأشجار الصنوبر، وسجّادة لاصقة من الطحالب نَمَتْ وتسلّقت بعض المنحدرات الخضراء بعيدًا في الأسفل، تمتدّ إلى تلال الجرانيت. ثمّ اختفت الطحالب والشجيرات تدريجيًّا، ولكنّ أشجار الصنوبر استمرّت في الظهور، تكافح واقفة على شكل خيوط رقيقة، حتّى تركت مثل بضع نقاط من الأشجار المنفردة، ترتفع بمستوى الصخور العارية أمام أشعّة الشمس البيضاء المنعكسة على الثلوج في شقوق القمم. ثمّ رأت داغني مشهدَ آلات التعدين الأكثر إبداعًا والتي لم تشاهدها من قبل في حياتها، ثمّ شاهدت الممرّ حيث آثار حوافر الدوابّ الثقيلة والأشكال المماثلة من البغال التي كانت هي الشكل الأكثر قدمًا من وسائل النقل.

سألت فرانسيسكو، وهي تشير إلى الآلات:

- فرانسيسكو، مَن صمّم تلك الآلات؟

- إنّها مجرّد تعديلات أجريناها على التجهيزات المألوفة.

- ومن صمّمها؟

- أنا من صمّمها. فنحن لا يمكننا توفير رجال كثيرين. وكان علينا أن نعوّض ذلك النقص.

- أجدك تهدر كمّيّة غير معقولة من القوى العاملة والوقت في نقل خامك من النحاس على ظهور البغال، ويجب عليك بناء سكّة حديديّة بالوادي.

وكانت داغني تنظر إلى أسفل، فلم تلاحظ مراقبته المفاجئة والحريصة لملامح وجهها أو نبرة الحذر التي رافقت صوته. فقال:

- أعرف ذلك، لكنّ تلك المهمّة متعسّرة جدًّا لأنّ إنتاج المنجم لا يقدر على الإيفاء بتكاليف ذلك المشروع في الوقت الحاضر.

- توقّف عن التفوّه بمثل هذا الهراء! فالأمر أبسط بكثير ممّا يبدو عليه. يوجد ممرّ باتّجاه الشرق، فيه مدرّجات سهلة وصخور أكثر ليونة، كنت قد تنبّهت إلى وجوده ونحن في طريقنا إلى هنا، ولن يحتاج المشروع إلى منحنيات كثيرة وأعتقد أنّ مسافة ثلاثة أميال من السكك الحديديّة أو أقلّ ستفي بالغرض.

كانت داغني تشير إلى الشرق، ولم تلاحظ الشدّة التي كان الرجلان يراقبان بها وجهها. ثمّ أضافت:

- كلّ ما تحتاج إليه هو مجرّد مسار ضيّق... مثل السكك الحديديّة الأولى... هناك حيث بدأت السكك الحديديّة الأولى في المناجم، إلّا أنّها كانت مناجم فحم... انظر، هل ترى تلك الحافّة؟ توجد بقع شاغرة كثيرة بمقياس ثلاثة أقدام، ولن تحتاج إلى عمل أيّ تفجير أو توسيع. هل ترى مكان ذلك المرتفع الضئيل مسافةَ نصف ميل تقريبًا؟ فدرجة انحنائه تناهز الأربعة في المائة، وذلك لن يكون سيّئًا ويمكن لأيّ محرّك أن يتدبّر أمر المرور عليه.

كانت داغني تتحدّث بيقينٍ سريع وقّاد، فلم تدرك أيّ شيء سوى بهجة أداء

وظيفتها الطبيعيّة في عالمها الطبيعيّ حيث لا شيء يمكن أن يكون له الأسبقيّة على عرض حلّ لمشكلة مّا، ثمّ استرسلت في الكلام:

وستغطّي هذه الطريق جميع تكاليفها خلال ثلاث سنوات. وأعتقد، حسب رؤيتي الأوّليّة، أنّ أغلى جزءٍ من العمل سيكون توفير دعامتين من الصلب. توجد كذلك بقعة واحدة فقط حيث من الممكن أن أحتاج إلى حفر نفق هناك لكنّه لن يأخذ إلّا حيّز مائة متر أو أقلّ. وسأحتاج إلى دعامة حديديّة لحمل المسار عبر ذلك الممرّ وإحضاره إلى هنا، لكنّ الأمر ليس صعبًا، دعني أريك، هل لديك ورقة؟

ولم تنتبه داغني إلى مقدار السرعة التي جلب بها جالت دفتر تدوين الملاحظات وقلمًا رصاصًا وقرّبهما من يدها، فأخذتهما، كما لو أنّها توقّعت أن يكونا هناك، وبدا المشهد وكأنّها تصدر أوامر في موقع بناء لم تفتها فيه تفاصيل من هذا النوع.

قالت وهي ترسم خطوطا على الورقة:

– اسمحا لي بأن أقدّم لكما فكرة تقريبيّة عمّا أعنيه. إذا أنشأنا أكوامًا حديديّة قطريّة في الصخر... سيبلغ الامتداد الفولاذيّ الفعليّ ستّمائة قدم فقط، وسيوفّر لنا قرابة نصف ميل من ذلك الدرب الملتوي مثل المثقاب، وسيكون بوسعي وضع السكّة أثناء ثلاثة أشهر و...

ثمّ توقّفت عن الكلام. وعندما نظرت إلى وجهيهما، استشاطت غضبًا. فمزّقت رسمها ورمته في غبار الحصى الأحمر، وقالت:

– ما الغاية من هذا كلّه؟

ثمّ بكت، وانتابها اليأس للمرّة الأولى، وأضافت:

ما الغاية من بناء ثلاثة أميال من السكك الحديديّة والتخلّي عن نظام عابر للقارّات!

وكانا الرجلان ينظران إليها، فلم ترَ أيّ ملامح عتاب في وجهيهما، ولم تلاحظ سوى نظرة تفهّم تشي بالتعاطف.

قالت بهدوء وقد طأطأت رأسها:

- أنا آسفة.

ردّ فرانسيسكو:

- إذا غيّرت رأيك، فسأوظّفك على الفور أو يعطيك ميداس قرضًا في خمس دقائق لتمويل بناء تلك السكّة الحديديّة إن كنت ترغبين في امتلاكها.

قالت:

- لا أستطيع.. لم يحن ذلك بعد...

ثمّ رفعت عينيها، وهي تعلم أنّهما عرفا طبيعة يأسها وأنّه لا فائدة ترجى من إخفاء كفاحها، وقالت:

- لقد جرّبت فعل ذلك سابقًا، وحاولت التخلّي عنها... وأدرك ما سيعنيه ذلك... وسأفكّر في الأمر مع كلّ تقاطع أراه ممتدًّا هنا، ومع كلّ مسمار يدقّ في هذه السكك... سأفكّر في النفق الآخر الذي سأنجزه هنا... وجسر نات تاجرت... أوه، فقط لو لم يكن عليّ أن أسمع عنها! ليتني أستطيع البقاء هنا ولا أعلم ما سيفعلون بسككي الحديديّة أو أعرف متى ستنتهي.

قال جالت:

- يجب أن تسمعي عنها.

وصاحبت ردَّهُ نبرةٌ قاسيةٌ، كانت مميّزةً وبَدَتْ عنيدةً على بساطتها، خاليةً من أيّ قيمة عاطفيّة، نبرة تحفظ للحقائق نوعًا من الاحترام. وأضاف:

- ستسمعين عن المعاناة الأخيرة التي ستواجهها شركة تاجرت العابرة للقارّات، وستسمعين أخبارًا عن كلّ حطام، وكلّ قطار متوقّف، وكلّ خط مهجور، وستأتيك أخبار عن انهيار جسر تاجرت. فلا أحد يبقى في هذا الوادي إلّا بخيار كامل واعٍ بناءً

على معرفة واعية كاملة بكلّ حقيقة متعلّقة بقراره. ولا أحد يبقى هنا من خلال تزييف الواقع بأيّ طريقة كانت.

فنظرت داغني إليه، ورفعت رأسَها وهي تعلم الخيار الذي كان يرفضه. وكانت تعتقد أنّه لا يوجد رجل في العالم الخارجيّ قد يجرؤ على أن يتفوّه بهذا الأمر في وجهها في هذه الآونة، وفكّرت في القوانين الأخلاقيّة التي تسيّر العالم وتقدّس الكذب الأبيض كفعل من أفعال الشفقة، وانتابها الاشمئزاز من تلك القوانين بعد أن لاحظت -فجأة وبوعي كامل- قبحَها لأوّل مرّة، وساورها الفخر تجاه ما في وجه الرجل الذي كان أمامها من نظافة وأناقة. أمّا هو فرأى شكل فمها المتجلّد في محاولة للسيطرة على ذاتها، وقد لطّفته عاطفة مضطربة، بينما كانت تجيبه بهدوء: أشكرك فعلا، فأنت على حقّ.

قال:

- ليس عليك أن تجيبي الآن، لأنّك ستخبرينني عندما تقرّرين، ولا يزال أمامك أسبوع للردّ.

قالت بهدوء:

- نعم لم يبق سوى أسبوع واحد.

فالتفت، والتقط ما خطّطته من رسومات، وطواها بعناية ووضعها في جيبه.

قال فرانسيسكو:

- عندما تتّخذين قرارك، يا داغني، فكّري في المرّة الأولى التي قدّمتِ فيها استقالتك، لكن ادرسي الأمر من كلّ الجوانب. ففي هذا الوادي، لن تضطرّي إلى تعذيب نفسك بتركيب الأسطح وبناء الطرق التي لا تؤدّي إلى أيّ مكان.

سألته فجأة:

- أخبرني كيف عرفت مكاني في ذلك الوقت؟

قال وهو يبتسم:

- كان جون هو من أخبرني بذلك. أتذكرين المدمّر؟ لقد تساءلتِ حينها لماذا لم يرسل المدمّر أيّ شخص ليتعقّبك. لكنّه فعل ذلك، فهو مَن أرسلني إلى هناك.

- هل أرسلك؟

- نعم.

- وماذا قال لك؟

- لا شيء. ولماذا تسألين عن هذا الموضوع؟

- ماذا قال لك؟ هل تتذكّر كلماته؟

- نعم أتذكّر. لقد قال: هذه فرصتك فاغتنمها. فأنت تستحقّ ذلك، أتذكّر هذا لأنّه..

ثمّ التفت إلى جالت بعبوسٍ، وسأله:

- يا جون أنا لم أفهم تمامًا السبب الذي جعلك تقول ذلك. لماذا قلت إنّها فرصتي؟

ردّ عليه جون:

- هل تمانع إذا لم أجبك الآن؟

- لا، لكن...

وقاطع كلامه شخصٌ لاح من بين أطراف المنجم، فحيّاه ثمّ انطلق بسرعة، كما لو أنّ الموضوع لا يحتاج إلى مزيد من الاهتمام.

أمّا داغني فكانت واعية بالمدّة الطويلة التي استغرقتها وهي تدير رأسها نحو جالت. كانت تعلم أنّها ستجده ينظر إليها. لكنّها لم تلاحظ شيئا في عينيه، ما عدا تلميحا من السخرية، كما لو أنّه كان يعرف الجواب الذي تسعى إليه وأنّها لن تجده في تقاسيم وجهه.

- هل منحته الفرصة التي أردتها؟

- لم أكن أحظى بأيّ فرصة حتّى يحظى بها هو بكلّ فرصة ممكنة.

- وكيف علمت بما كان يتحصّل عليه من معلومات؟

- لقد كنت أسأله عنك مدّة عشر سنوات، وكلّما سمحت الظروف بذلك، وبكلّ الطرق، ومن كلّ الزوايا. لكنّه لم يكن يخبرني بأيّ شيء عنك، وما أعرفه عنك من معلومات إنّما أخلص إليه من طريقة حديثه عنك. فهو لم يكن يرغب في الحديث عنك، لكنّه يتحدّث بلهفة وتردّد في الآن نفسه. ثمّ علمت فيما بعد أنّ ما كان يجمعكما ليس أكثر من صداقة طفولة. كنت أعرف مدى التضحيات التي قدّمها مقابل نجاح الإضراب وكم استمات من أجل ألّا يتخلّى عنه إلى الأبد. وماذا عنّي؟ لقد كنتُ مجرّد فرد يسأله عن أحد أهمّ المضربين المستقبليّين، مثلما أسأله عن الآخرين.

وظلّ تلميح السخرية في عينيه؛ وكان يعلم أنّها ترغب في سماع ذلك، ولكنّه لم يكن الجوابَ على السؤال الوحيد الذي كانت تخشاه.

ثمّ انتقلت لتنظر إلى وجهه فرانسيسكو الذي كان ظلّه يقترب منها. فهي لم تعد تخجل ولم تعد تخفي قلقها المفاجئ والثقيل والموحش الذي أصبح خوفًا من أن يرمي جالت بثلاثتهم في غمار شعور التضحية بالنفس.

اقترب منها فرانسيسكو، ونظر إليها باهتمامٍ، كما لو أنّه يعدّ أحد الأسئلة الخاصّة به، لكنّها كانت من الأسئلة التي أضفت على عينيه تألّقًا من المرح الجريء.

- داغني، لم يتبقّ سوى أسبوع واحد، فإذا قرّرتِ العودة، فستكون عودتك الأخيرة وعلى مدى زمن طويل.

لم يكن في نبرة صوته أيّ لوم أو حزن، بل بعض لينٍ مثّل دليلًا وحيدًا على حضور العاطفة، وأضاف:

- إذا غادرتِ الآن -طبعا سيكون بإمكانك العودة إلى هنا- لكنّ ذلك لن يكون

قريبًا. أمّا أنا فسأعود بعد بضعة أشهر، وسأعيش هنا بشكل دائم، لذلك فإن قرّرت الذهاب، فعليك أن تعلمي أنّني لن أراك مجدّدا، وقد تبقى الحال سنواتٍ على ما هي عليه. أريد منك أن تقضّي هذا الأسبوع الأخير معي وأريدك أن تنتقلي إلى منزلي بوصفك ضيفًا لا غير، ومن دون سبب ماعدا أنّي أودّ منك فعل ذلك.

قال ذلك ببساطة، كما لو أنّه لا يوجد شيءٌ يمكن إخفاؤه بين ثلاثتهم. فلم تلاحظ داغني أيّ ملامح دهشة في وجه جالت. فشعرت ببعض الانقباض الخاطف في صدرها. كان إحساسًا صعبًا ومتهوّرًا وشرّيرًا لا يكاد يكتسب خاصيّة حماس بائس يدفعها بشكل أعمى إلى الفعل.

ردّت بابتسامة غريبة وهي تنظر إلى جالت:

- لكنّني موظّفة، ولديّ عمل، ويجب عليّ إنهاؤه.

- قال جالت: أنا لن أمنعك من فعل ذلك.

فشعرت بالغضب الذي رافق نبرة صوته، وهي نبرة لم تمنحها أيّ أهمية خفيّة ولم تُجب على شيء سوى معنى كلماتها الحرفيّ، ثمّ أضاف:

- يمكنك التخلّي عن هذا العمل في أيّ وقت يحلو لك، الأمر يعود إليك.

- لا، لن أستطيع فعل ذلك، فأنا أبدو مثل سجينة هنا، ألا تتذكّر؟ فأنا أتلقّى الأوامر وليس لديّ أيّ خيارات أنجزها، ولا أيّ رغبات أعبّر عنها، ولا أيّ قرارات أتّخذها. أريد أن يعود القرار إليك.

- أتريدين أن يكون القرار قراري؟

- نعم!

- ها قد عبّرتِ عن أمنيّتك.

أجابها بتهكّم، فبدت سخرية صوته كامنة في جدّيّته، وردّت عليه بتحدٍّ، ولم تبتسم،

كما لو أنّها تتحدّاه في مواصلة التظاهر بأنّه لا يفهمها فقالت:

- حسنا. هذا ما أتمنّاه.

فابتسم، مثلما يبتسم المرء إزاء حيلة معقّدة لطفل كان قد استوعبها منذ فترة طويلة وقال:

- حسنًا.

لكنّه لم يبتسم عندما التفت إلى فرانسيسكو وقال له:

- إذَن فالإجابة هي لا.

ومن خلال ملامح وجهها، استنتج فرانسيسكو علامات التحدّي تجاه خصم كان من بين أقوى الأساتذة. فتجاهلها متأسّفًا لكنّه قال لجالت بمرح:

- لعلّك على حقّ. إن أنت لم تستطع منعها من العودة، فلا أحد يمكنه فعل ذلك.

لم تكن داغني تستمع لكلمات فرانسيسكو. لقد ذهلت من حجم الارتياح الذي صدمها في نبرة صوت إجابة جالت، ذلك الارتياح الذي أخبرها بحجم ما انزاح عن صدره من خوف. فعرفت بعد انقضاء مخاوفها ما تعلّق بقراره؛ وأدركت أنّ إجابته لو كانت مختلفة، لكان سيدمّر معالم الوادي في عينيها.

ثمّ أرادت أن تضحك، ورغبت في معانقتهما والضحك معهما على نحو احتفاليّ. فأمرُ بقائها هناك أو عودتها إلى العالم الخارجيّ لم يعد يهمّها، ومدّة أسبوع تبدو مثل فترة سرمديّة، ويبدو أنّ كلا المسارين غمرتهما أشعّة الشمس الثابتة. واعتقدت أنّ الصراع لم يعد صعبًا، إذا كانت تلك هي طبيعة الوجود. ولم ينبع ارتياحها من معرفة أنّه لن يتخلّى عنها، ولا من أيّ تأكيد لكونها ستفوز، بل كان مصدره اليقين من أنّ جالت سيظلّ دائما على النحو الذي كان عليه.

ردّت بعقلانية:

- أنا لا أعلم ما إذا كنت سأعود إلى العالم خارج الوادي أم لا.

لكنّ صوتها كان يرتعش بعنف خفيّ تشوبه متعة نقيّة، فأضافت:

- أنا آسفة لأنّني مازلت غير قادرة على اتّخاذ أيّ قرار، ولكنّني متأكّدة من شيء واحد فقط هو أنّني لن أكون خائفة من اتّخاذ ذلك القرار.

فاعتبر فرانسيسكو تألّق ملامح وجهها المفاجئ دليلًا على أنّ الأمر لم يكن يحظى بأيّ أهمّيّة. لكنّ جالت فهمها، فنظر إليها وكان في نظرته مزيجٌ من التسلية واللوم في الآن نفسه. ولم يقل شيئا وانتظر إلى أن أصبحا بمفردهما يسيران في الطريق صوب الوادي. ثمّ نظر إليها مجدّدًا، بتسلية بدت أكثر حدّة في ملامح عينيه وقال:

- كان عليك اختباري لمعرفة ما إذا كنت سأسقط في أدنى مرحلة ممكنة من الإيثار؟

فلم تجبه، لكنّها نظرت إليه باعتراف منفتح وغير مؤذٍ. فضحك ونظر بعيدًا، وقال مقتبسًا بعد أن خطا بضع خطواتٍ:

- لا أحد يبقى هنا بناءً على تزييف الواقع وفق أيّ أسلوب يختاره.

فقالت في نفسها، وهي تسير بصمتٍ إلى جانبه: إنّ جزءًا من شدّة ارتياحها مردُّه صدمةٌ مناقضة له: لقد لاحظت، انطلاقًا من إدراكها الحسّيّ المباشر الحيّ والمفاجئ، صورةً دقيقةً لما يعنيه رمز التضحية بالنفس لو أنّه طُبّق من قبل ثلاثتهم، كأن يتخلّى جالت عن المرأة التي أرادها ويضحّي بها من أجل صديقه، فيزيّف أعظم شعور لديه ويلغيه من الوجود ويخرج نفسه من حياتها، بغضّ النظر عن الثمن الذي سيدفعه كلٌّ منهما، فتذهب بقيّة سنوات حياته سُدًى عبر هدر ما لم يتحقّق وما لم ينجز فيها، أمّا هي فستلتفت لتعزية نفسها بخيارٍ آخر، وستزيّف الحبّ الذي لم تشعر به، بما أنّ إرادتها في خداع نفسها ستكون المطلب الأساسيّ المقابل لتضحية جالت، فتقضي بقيّة حياتها في الشوق واليأس والقبول بالراحة من جرحٍ لا يرجى شفاؤه والرضا ببعض لحظات من المودّة المرهقة، بالإضافة إلى تأييد الاعتقاد الذي يقول إنّ الحبّ عقيمٌ وإنّ السعادة لا يمكن العثور عليها في الأرض، أمّا فرانسيسكو فسيواجه الواقع الزائف الذي

يشوبه ضباب مضلّل، وسيخيّم على حياته احتيالٌ مَارَسَهُ اثنان من أعزّ الناس إلى قلبه، ليناضل من أجل فهم ما كان مفقودًا من سعادته، ويكافح فوق سِقالةٍ هشّة بُنِيت على كذبةٍ ستقوده إلى هاوية اكتشاف أنّه لم يكن الرجل الذي أحبّته، وأنّه كان مجرّد بديل سيّئ، نصفه مصاب يحتاج إلى الإحسان ونصفه الآخر معوّق يحتاج إلى عكاكيز، ويتحوّل إدراكه إلى خطر، ولن يحمي بناء سعادته المتداعي سوى الاستسلام لسبات الحماقة العميق، ليناضل ويتخلّى ويستقرّ في الروتين الكئيب ويقتنع بأنّ الإنجاز قيمةٌ مستحيلة بالنسبة إلى الإنسان. وسيصبحون ثلاثتهم، بعد أن كانت جميع هدايا الوجود منتشرة أمامهم، مجرّدَ هياكل تفنيها المرارة، وسيصرخون عندئذٍ في يأس ويعلنون أنّ الحياة هي الإحباط، الإحباط من عدم القدرة على تحويل ما هو غير واقعيّ إلى واقع حقيقيّ ملموس.

لكنّها اعتقدت أنّ كلّ ما تبادر إلى ذهنها كان بمثابة القانون الأخلاقيّ الذي يسيّر البشر في العالم الخارجيّ، ذلك القانون الذي يخبرهم بالعمل بناءً على فرضيّة أنّ بعضَهم يُضعف البعضَ الآخر ويخدعه ويستغبيه، وأنّ ذلك هو نمط حياتهم، ذلك الصراع الذي يشوبه ضباب التظاهر وعدم الاعتراف، وذلك الاعتقاد بأنّ الحقائق ليست صلبة أو نهائيّة، وتلك الحالة التي ينكر فيها البشر أيّ شكل من أشكال الواقع فيتعثّرون في جلّ مراحل حياتهم التي لن تكون إلّا مصطنعة ومشوّهة، فيموتون وهم لم يولدوا بعدُ. هنا فكّرت -وهي تنظر إلى أسفل عبر أغصان الأشجار الخضراء وفي تألّق أسطح الوادي- في الكيفيّة التي يتعامل بها المرء مع الناس، بالوضوح والثبات الذي في الشمس والصخور، وفي أنّ ارتياحها الهائل مردّه معرفة أن لا معركة تُعتبَر صعبة وأنّ اتّخاذ أيّ قرار ليس بالأمر الخطير وأنّ عدم اليقين أمر غير موجود، وكذا أيّ تهرّب من المواجهة بأيّ شكل من الأشكال.

قال جالت بلهجته المعتادة أثناء نقاش المواضيع المجرّدة وكأنّه قرأ أفكارها:

- هل صادف، يا آنسة تاجرت، أنّك لم تجدي أيّ تضارب في المصالح بين الناس في العمل أو في التجارة أو في معظم الرغبات الشخصيّة؟ وماذا لو ألغوا كلّ ما هو غير

عقلانيّ من وجهة نظرهم تجاه الممكن وحذفوا كلّ الدمار من نظرتهم إلى كلّ ما هو عمليّ؟ إذ لا يوجد تعارض أو أيّ أدنى حاجة إلى التضحية في ما بينهم، ولا يوجد أيّ إنسان يشكّل خطرًا على تحقيق أهداف إنسان آخر، فماذا لو استوعب البشر أنّ الواقع قيمة مطلقة لا يجب تزييفها، وأنّ الباطل والأكاذيب لا تنفع، وأنّ كلّ ما هو غير مكتسب لا يمكن امتلاكه، وأنّ غير المستحقّ لا يجوز منحه، وأنّ تدمير أيّ قيمة ذات أهميّة لن يجلب قيمة أخرى تافهة؟ فرجل الأعمال الذي يرغب في الحصول على السوق عبر كبح جماح منافسٍ متفوّق عليه، والعامل الذي يريد مشاركة صاحب العمل ثروتَه، والفنّان الذي يحسد منافسًا له يحظى بموهبة عظيمة، هم جميعًا يتمنّون أن تُحذَف الحقائق من الوجود وأن يكون التدمير وسيلتَهم الوحيدة لتحقيق رغباتهم. فإن استمرّوا في إنجاز ذلك، فإنّهم لن يحقّقوا سوقًا أو ثروة أو شهرة خالدة، بل سيدمّرون ببساطةٍ الإنتاج والعمالة والفنّ. فلا يمكن تحقيق أمنيّة غير عقلانيّة، سواء رغب الضحايا الذين يقدمّون أنفسهم قربانًا لذلك أو لم يرغبوا. ولكنّ البشر لن يكفّوا عن الرغبة في المستحيل ولن يفقدوا رغبتهم في التدمير، ماداموا يعظونهم بالتدمير الذاتي والتضحية بالنفس على أنّها وسيلة عمليّة لتحقيق سعادة المتلقّين.

ثمّ نظر إليها وقال ببطء، وقد حمّل نبرتَه تأكيدًا طفيفًا:

- أنا لا أكترث بسعادة أيّ أحدٍ، لا أكترث إلّا بسعادتي التي في وسعي تحقيقها أو تدميرها. وكان عليك احترامه واحترامي أكثر من أن تخافي ما كنت تخشينه.

فلم تجبه داغني، وشعرت كما لو أنّ إضافة أيّ كلمة أخرى ستفسد صفاء تلك اللحظة. واكتفت بالتفاتةٍ إليه في نظرة رضوخٍ وكأنّها كانت منزوعة السلاح، بتواضع طفوليّ يشبه الاعتذار، ما عدا بهجتها المشرقة.

فابتسم بمرح وتفهّم، معلنًا أنّه يرافقها بناءً على الأشياء المشتركة بينهما وأنّه قد غفر لها كلّ ما شعرت به.

وظلّ الصمت يخيّم عليهما، وبدا لها أنّ ذلك اليوم كان يومًا صيفيًّا لمرحلة شبابٍ

بهيجة لم تعشها من قبل، وأنّ ما عاشته كان مجرّد نزهة ريفيّة نظّمها شخصان متحرّران ورافقاها من أجل متعة الحركة وأشعّة الشمس، فلم يتركا أيّ أعباء إلّا وقد حُلّ أمرها وخُفِّفَ من وطأتها. واختلط إحساسها بالخفّة بمعنى انعدام الوزن حين كانت تمشي أسفل التلّ، وكأنّها لا تحتاج إلى جهد للمشي، فكانت تكبح جماح نفسها حتّى لا تطير، ومشت وهي تواجه سرعة الجذب إلى الأسفل فكان جسدها يميل إلى الخلف والريح تهبّ على تنّورتها مثلما تهبّ على شراع سفينة قصد كبح حركتها.

ثمّ افترقا أسفل الطريق، إذ ذهب جالت استجابةً لموعد مع ميداس موليغان، أمّا هي فذهبت إلى سوق هاموند لاقتناء قائمة من الموادّ لطعام العشاء، وقد مثّلت تلك القائمة شغلها الوحيد في العالم أثناء تلك اللحظة.

أنا زوجته، هكذا قالت في نفسها وقد استسلمت لتسمع بوعيٍ تلك الكلمة التي لم ينطقها الدكتور أكستون، الكلمة التي شعرت بها منذ فترة طويلة، لكنّها عجزت عن قولها. لقد كانت بمثابة زوجته مدّةَ ثلاثة أسابيع بكلّ المعاني ما عدا معنى واحد سيتعيّن عليها اكتسابه بمرور الزمن، ولكنّ ذلك القدر كان حقيقيًّا، واليوم يمكنها أن تسمح لنفسها بمعرفة ذلك، والشعور به، وعَيشه واقعًا ملموسًا وبأن ترافقها تلك الفكرة ذلك اليوم.

وبَدَت الخضر والغلال التي كان لورنس هاموند يصفّفها بنظامٍ في واجهة المتجر النظيفة أكثرَ نظارةً عندما انحنت داغني لاقتناء البعض منها. كانت نصف واعية ببعض العناصر المزعجة، وبأنّه يوجد خطب مّا، لكنّ عقلها كان أكثر انشغالا من التنبّه إليه. فلاحظت ذلك فقط عندما رأت هاموند صامتًا بعبوسٍ يحدّق إلى الأعلى في السماء خلف واجهة متجره المفتوح.

ورافقت الكلمات نظرته إلى أعلى: أعتقد أنّ شخصا مّا يحاول تكرار حيلتك يا آنسة تاجارت.

فأدركت وجود صوت طائرة فوقهما ودام هديرها هناك بعضَ الوقت، صوت لم

يكن من المفروض سماعه في الوادي بعد أوّل ذلك الشهر.

فهرع الجميع إلى الشارع. كان صليبُ الطائرة الفضّيُّ الصغير يحلّق فوق سلسلة الجبال مثل يعسوب متألّق، وكانت الطائرة على وشك مَسْح القمم بأجنحتها.

قال لورانس هاموند:

- ماذا يخال نفسه فاعلا بهذا التحليق؟

كان هناك أناس يقفون عند أبواب المحلّات ثابتين على تلك الحال في جميع أنحاء الشارع ينظرون إلى الأعلى.

سألته داغني مندهشة:

- وهل... تتوقّعون قدوم أيّ أحد إلى هنا؟

ردّ هاموند:

- لا، كلّ من يملك عملا هنا فهو موجود بيننا.

ولم يبد هاموند مضطربًا ولكنّ الفضول هيمن عليه هو أيضا. الآن أصبحت الطائرة مثل نقطة صغيرة، تشبه سيجارة فضّيّة، تندفع كلمح البصر وتواجه أجنحة الجبال. ثمّ انخفضت وهبطت.

قال هاموند:

- يبدو أنّها طائرة خاصّة أحاديّة السطح، فهي لا تشبه أيّ نموذج عسكريّ.

سألته بنبرة تضجّ استياءً:

- وهل ستصمد شاشة الأشعّة؟

- هل تشكّكين في صمودها؟

- وهل بإمكانه رؤيتنا؟

- يجب أن تعلمي أنّ تلك الشاشة أكثرُ أمانًا من أيّ قبو تحت الأرض يا آنسة تاجارت.

ثمّ ارتفعت الطائرة، وبدت لحظةً كما لو أنّها مجرّد شذرة مشرقة، مثل قطعة من الورق تحملها الرياح، تحوم بغموض، ثمّ تنخفض مجدّدًا لتقوم بدوّامة أخرى.

قال هاموند:

- ما الذي يسعى إليه صاحب هذه الطائرة؟

فأخذت عينا داغني تحدّقان في ملامح وجهه فجأةً.

قال هاموند:

- إنّه بصدد البحث عن شيء مّا. ما هو؟ لا أعلم.

- وهل يوجد تلسكوب في مكان مّا هنا؟

- ولماذا تسألين، نعم يوجد تلسكوب في المطار، ولكن...

كان على وشك أن يسألها عن سبب الارتباك الذي رافق صوتها، لكنّها كانت تسرع لقطع الطريق، ثمّ سلكت الدرب الذي يقود إلى المطار، من دون أن تعي أنّها تركض مدفوعة بسبب لم تجد الوقت ولا الشجاعة لذكره.

وجدت دوايت ساندرز يراقب الطائرة بالتلسكوب الصغير لبرج التحكّم بعناية وتجهّمٍ محيّر.

فقاطعت تأمّله وقالت: دعني أراه!

ثمّ أمسكت داغني ذلك الأنبوبَ المعدنيّ، ووضعت عينها على العدسة المكبّرة وظلّت يدها توجّه الأنبوب ببطء قصد متابعة الطائرة، ثمّ لاحظت أنّ يدها توقّفت، لكنّ أصابعها ظلّت متشبّثة بالأنبوب وبقي وجهها منحنيًا على التلسكوب ضاغطًا على العدسة، حتّى بدت لها صورة الطيّار عن قرب، لكنّها لاحظت أنّ العدسة كانت

تضغط على جبينها.

- ما خطبك يا آنسة تاجرت؟

فرفعت داغني رأسها ببطء.

- هل هو من بين الأشخاص الذين تعرفينهم يا آنسة تاجرت؟

لكنّ داغني لم تُجبه، بل هرعت بعيدًا عنه وحثّت خطواتها بتعرّج مشتَّت يشوبه عدم اليقين، ولم تجرؤ على الركض، لكنّها اضطرّت إلى الهروب والاختفاء، ولم تعلم ما إذا كانت تخشى أن يشاهدها الناس من حولها أو يشاهدها صاحب الطائرة التي كانت تحلّق فوقها، تلك الطائرة التي حملت أجنحتها الفضّيّة الرقم الذي ينتمي إلى هانك ريردن.

ثمّ توقّفت عندما تعثّرت بصخرةٍ وسقطت فلاحظت أنّها كانت تركض. وكانت على حافّة صغيرة لأحد المنحدرات المكشوفة على السماء فوق المطار وقد اختفت عن أنظار المدينة. فنهضت مستندةً إلى يديها اللتين كانتا تتلمّسان جدارًا من الجرانيت بحثا عن الدعم، بعد أن شعرت بدفء الشمس على الصخور تحت راحتيها، ثمّ وقفت وقد ضغطت بظهرها على الحائط، غير قادرة على التحرّك أو إبعاد عينيها عن الطائرة.

كانت الطائرة تحلّق ببطءٍ، فتنزل إلى أسفل، ثمّ ترتفع مجدّدًا، واعتقدت أنّها كانت تناضل بنضالها نفسه قصد العثور على حطام في مكان ميؤوس منه تنتشر فيه الأخاديد والشقوق والصخور، مكان وعر محيّر يشوبه الغموض فلا يسمح بهجره أو استكشافه. لقد كان هانك ريردن يبحث عن حطام طائرتها ولم يستسلم. ومهما يكُن ما كلّفته الأسابيع الثلاثة التي قضّاها في سعيه، ومهما يكُن شعورُه، فإنّ الدليل الوحيد الذي سيقدّمه للعالم وإجابته الوحيدة ستكون تكرّرَ هدير طائرته الثابت العنيد الصادر من محرّك يحمل مركبةً هشّةً تُحلِّق فوق كلّ قدم مميتة يتعذّر الوصول إليها في سلسلة تلك الجبال.

ومن خلال النقاء الرائع في الهواء الصيفيّ، بدت الطائرة قريبة جدّا، إلى درجة حميمية

كان يمكن لداغني أن تراها من خلالها وهي تناور التيّارات الهشّة وتتفادى دفعات الريح. كان بإمكانها أن تراها، لكن بدا من المستحيل عليها الظفر برؤية واضحة جدًا قريبة من عينيه. وبدا كلّ الوادي الذي يقع تحته، وهو مغمور بأشعّة الشمس الملتهبة، وقد انعكست أشعّتها على الألواح الزجاجيّة والمروج الخضراء. إنّها تدعوه إلى النظر إليها، وإنهاء عذاب سعيه وتحقيق أحد أهمّ رغباته، التي لم تكن إيجاد حطام طائرتها والعثور على جسدها، بل التأكّد من حضورها الحيّ ومن حرّيته، فكلّ ما كان يبحث عنه وما يسعى إليه في أيّ زمن بدا منتشرًا ومكشوفًا أمامه الآن، بل واضحًا للعيان وينتظر وصوله عن طريق الغوص في خطّ مستقيم عبر الهواء النقيّ الواضح.

صرخت داغني:

- هانك!

ولوّحت بيديها في إشارة يائسة، وهي تصرخ: هانك!

ثمّ سقطت مجدّدًا على الصخرة وقد أدركت أنّه لا سبيل إلى الوصول إليه، وأنّها لاتحظى بالقدرة الكافية للنظر إليه، وأن لا قوّة على الأرض كان بإمكانها اختراق تلك الشاشة باستثناء قوّة عقله ورؤيته. وشعرت فجأة، وللمرّة الأولى، بوجود الشاشة، لا لكونها أكثر شيء غير ملموس، بل لكونها حاجزًا مطلقًا هو الأكثر قسوة في العالم.

وشاهدت، وهي تنهار على الصخرة باستسلام صامت، الدوائرَ المستميتة لكفاح الطائرة وهدير محرّكها الصبور الذي يطلب المساعدة، هدير لم تجد أيّ سبيل للردّ عليه. ثمّ هبطت الطائرة واختفت فجأةً، لكنّها كانت تستعدّ فقط للبدء في ارتفاعها الأخير، لقطع مسار قطريّ سريع عبر الجبال، وانطلقت مثل الرصاصة في السماء المفتوحة. ثمّ اختفت ببطء وغابت بعيدًا عن الأنظار كما لو أنّها كانت عالقة على امتداد بحيرة بلا شواطئ أو أيّ منفذ.

وفكّرت، بشفقة مريرة، في مدى فشل رؤيته وفشلها هي أيضًا، وتبادر إلى ذهنها أنّها إذا غادرت الوادي، فإنّ الشاشة ستوصد أمامَها بإحكام، وستنزل مدينة أطلانطس

تحت قوس من الأشعّة الأكثر حصانة من قاع المحيط، وستُترَك داغني من جهتها للكفاح أيضًا من أجل الأشياء التي لم تعرف كيفيّة رؤيتها، ومحاربة سراب من الوحشيّة البدائيّة، وفي مقابل ذلك فإنّ حقيقة كلّ ما أرادته لن تكون أبدا في متناول يدها.

لكنّ القوّة التي كانت تجذبها إلى العالم الخارجيّ، تلك القوّة التي تجذبها لملاحقة الطائرة، لم تكن مرتبطة بصورة هانك ريردن، فهي تعلم أنّه لا يمكنها العودة إليه، حتّى إن عادت إلى العالم، لكنّ مصدر قوّة الجذب كان متأتّيًا من رؤية شجاعة هانك ريردن وشجاعة أولئك الذين مازالوا يكافحون من أجل البقاء على قيد الحياة. فهو لن يستسلم في بحثه عن حطام الطائرة مثلما فعل الآخرون منذ فترة طويلة، تمامًا مثل عدم تخلّيه عن مطاحنه، أو عدم تخلّيه عن أيّ هدف اختاره حتّى إن وُجِدت فرصة واحدة لإنجازه. لكن هل كانت متأكّدة من عدم وجود فرصة لعالم شركة تاجرت العابرة للقارّات؟ هل هي على يقين من أنّ شروط المعركة أعدّت بطريقة تجعلها لا تهتمّ بالفوز؟ كان ناس أطلانطس محقّين في الاختفاء حين علموا أنّهم لم يتركوا أيّ قيمة خلفهم، وكان هذا هو السؤال الذي صدمها على امتداد أسابيع، ولكنّه لم يدفعها إلى البحث عن الإجابة.

كانت مستلقية مستيقظة خلال ساعات تلك الليلة، بهدوء وبلا حراك، تتبّع -تمامًا مثل سائق القطارات ومثل هانك ريردن- عمليّة نزيهة ودقيقة، باعتبارات لا تكاد تكون رياضيّة من دون النظر في التكلفة أو المشاعر، والمعاناة التي عاشها هانك على متن طائرته، وكانت تشبه المعاناة التي عاشتها بين جدران مكعّب مظلم بلا صوت وهي تبحث من دون أن تهتدي إلى أيّ جواب. ثمّ نظرت إلى النقوش على جدران غرفتها، التي كانت مرئيّة بشكل ضبابيّ من خلال بقع ضوء النجوم، لكنّ المساعدة التي طلبها هؤلاء الرجال في أحلك ساعاتهم لم تكن هي ترغب في طلبها.

***

ما هو قرارك يا آنسة تاجارت هل اخترت: نعم أم لا؟

كانت داغني تتطّلع في وجوه الرجال الأربعة الذين حضروا في قاعة استقبال منزل موليغان التي كانت العتمة تغمر فضاءها، وهم على التوالي: جالت، وقد حملت ملامح وجهه الانتباهَ الصافي وغير الشخصيّ الذي يشبه ملامح العَالِمِ، وفرانسيسكو، بملامح وجه خالية من أيّ تعبير بابتسامة من شأنها أن تناسب أيّ إجابة، وهيوأكستون، الذي بدا رحيمًا ولطيفًا، وميداس موليغان، وهو مَن طرح السؤال من دون أن ترافق نبرةَ صوته أيُّ ضغينة. وفي مكان مّا على بعد ألفي ميل من هناك، وعلى ساعة الغروب، أعلنت صفحة التقويم بعد إضاءتها فوق أسطح ناطحات سحاب نيويورك: الثامن والعشرين من يونيو، وبدا لها الأمر فجأة كما لو أنّها كانت ترى ذلك التقويم معلّقًا فوق رؤوس هؤلاء الرجال.

ردّت بثبات:

- لا يزال لديّ يوم آخر، هلّا سمحتم لي بالاستفادة منه؟ أعتقد أنّي اتّخذت قراري، لكنّي لست متأكّدة تمامًا من ذلك، وسأحتاج إلى كلّ اليقين المتاح لي لبلوغ الخيار النهائيّ.

ردّ موليغان:

- بالطبع لا يزال لديك يوم كامل. في الواقع، سننتظرك حتّى صباح يوم ما بعد الغد.

قال هيو أكستون:

- بل سننتظرك حتّى بعد ذلك أيضا، على الرغم من غيابك، إذا كان ذلك ضروريّا.

كانت داغني تقف بجانب النافذة، وشعرت بلحظة من الرضا عندما علمت أنّها وقفت باستقامة أمامهم، وواجهتهم من دون أن ترتعش يداها، وأنّ صوتها بدا مثل أصواتهم قويّا، وغير متذمّر، ولا يرحم؛ لقد منحها لحظة شعور بالارتباط بهم.

قال جالت: إذا كان مصدر عدم يقينك في أيّ جزء من أجزائه هو الصراع بين قلبك

وعقلك، فعليك باتّباع عقلك.

قال هيوأكستون:

- فكّري في الأسباب التي تجعلنا متأكّدين وتخبرنا بأنّنا على حقّ، ولا تفكّري في حقيقة أنّنا متأكّدون من ذلك. إن كنت غير مقتنعة، فتجاهلي يقيننا. ولا تحاولي أن تستبدلي بحكمنا حكمك.

قال موليغان: لا تعتمدي على معرفتنا بما هو أفضل بشأن مستقبلك. فنحن نعلم ذلك، لكنّه لا يمكن أن يكون أفضل حتّى تهتدي إليه بنفسك.

قال فرانسيسكو: لا تضعي مصالحنا أو رغباتنا بعين الاعتبار. فأنت لست مرتبطة بأيّ واجب تجاه أيّ واحد منّا ما عدا واجبك تجاه نفسك.

فابتسمت داغني، من دون أن توحي ابتسامتها بأيّ حزن أو فرح، وهي متأكّدة من أنّه ما كان لها أن تتلقّى مثل هذه النصيحة في العالم الخارجيّ. ومع معرفتها بأنّهم تمنّوا مساعدتها بشكل يائس، إذ لا مساعدة ممكنة، شعرت بأنّ دورها تلخّص في منحهم الطمأنينة. فقالت بهدوء:

- لقد أجبرت على النزول إلى هنا، وأنا مطالبة بتحمّل عواقب ذلك. وأنا مستعدّة لتحمّلها.

وكانت جائزتها أن رأت ابتسامة جالت: كانت ابتسامة بمثابة نيشان عسكريّ مُنِحَت إيّاه.

وبالنظر بعيدًا، تذكّرت فجأة جيف ألين، ذلك الصعلوك الذي التقته على متن القطار المذنّب، لحظةَ أعجبت به لمحاولته إخبارها بأنّه يعرف وجهته التي سيقصدها، ليعفيها من عناء التخبّط بلا هدف. فابتسمت قليلا معتقدة أنّها كانت تعيش ذلك في كلا الدورين وعلمت أنّه لا يوجد فعل يمكن أن يكون أقلّ أو أكثر عقمًا لأيّ شخص من رمي عبء تنازله عن الاختيار لشخص آخر. لقد شعرت داغني بهدوء غريب،

وراحة شبه واثقة، وعلمت أنّه كان نوعًا من أنواع التوتّر، لكنّه توتّر ذو وضوح شديد. وتفطّنت إلى أنّها كانت غارقة في التفكير: إنّها تعمل بشكل جيّد في حالات الطوارئ، ستكونين على ما يرام معها، ثمّ أدركت أنّها كانت تخاطب نفسها.

قال ميداس موليغان:

- دعك من هذا الأمر واتركيه إلى ما بعد الغد يا آنسة تاجارت، فأنت مازلت ضيفتنا هذه الليلة.

ردّت عليه:

- شكرا جزيلا.

وظلّت قرب النافذة، بينما واصلوا هم مناقشة بقيّة الأعمال المتعلّقة بالوادي؛ وكان ذلك هو مؤتمرهم الختاميّ لذلك الشهر. كانوا قد أنهوا الساعةَ تناول عشاءهم، فتذكّرت أوّل عشاء جمعها بهم في ذلك المنزل منذ شهر؛ وقد لبست حينها الثياب نفسها التي لبستها في أوّل لقاءٍ، وهي تتكوّن من البدلة الرماديّة التي كانت ترتديها في مكتبها، ولم تكن تضع التنّورة الريفيّة التي كان من السهل عليها ارتداؤها في الخارج قبالة الشمس. وقالت في نفسها: مازلت سأمكث هنا هذه الليلة، وضغطت بيدها ضغطَ تملّكٍ على حافّة النافذة.

لم تكن الشمس قد اختفت وراء الجبال، لكنّ السماء بدت على نحوٍ مخادع زرقاء صافية مختلطة بغيوم غير مرئيّة تشوبها زرقة، غيوم انتشرت فحجبت الشمس؛ واعتقدت أنّ أطراف الغيوم بدت وقد حدّدها خيط رفيع من اللهب، متوهّجة مثل أنبوب صافٍ ملتوٍ من النيون... أو مثل رسم بيانيّ للأنهار المتعرّجة... أو مثل... أو مثل خارطة سكّة حديديّة مرسومة بنار بيضاء في السماء.

ثمّ سمعت موليغان وهو يعطي جالت أسماءَ أولئك الذين لم يعودوا إلى العالم الخارجيّ قائلًا:

- نملك وظائف لهم جميعًا. في الواقع، لم نشهد في هذا العام سوى عودة عشرة رجال أو اثني عشر فقط. وفي الغالب فهم سيعملون على التخلّص من كلّ ما يملكون وسيعودون هنا للعيش بشكل دائم. وأعتقد أنّ هذا الشهر كان بمثابة إجازتنا الأخيرة، فقبل انقضاء سنة أخرى سننتقل جميعا للعيش والاستقرار في هذا الوادي.

ردّ جالت:

- جيّد جدًّا.

- يجب أن تكون الظروف على ما يرام انطلاقًا من الطريقة التي تسير بها الأمور في الخارج.

- نعم.

قال موليغان:

- وهل ستعود بعد بضعة أشهر يا فرانسيسكو؟

ردّ فرانسيسكو:

- وفق أقصى تقدير سأحلّ هنا في نوفمبر. سأرسل إليك رسالة صوتيّة أبثّها عبر الموجات القصيرة عندما أكون مستعدّا للعودة، هل ستشغّل فرني المنزليّ أثناء عودتي؟

ردّ هيوأكستون:

- أنا من سيفعل ذلك، وسأعدّ لك عشاءك عندما تصل.

قال موليغان:

- جون، لن تعود أبدا إلى نيويورك هذه المرّة، هذا أمر لا جدال فيه.

فاستغرق جالت لحظة لإلقاء نظرة عليه، ثمّ أجاب باتّزان: أنا لم أقرّر بعد ما سأفعل حيال ذلك.

ثمّ لاحظت داغني العجلة الصادمة التي انحى بها فرانسيسكو وموليغان قصد

التحديق في جالت، والبطء الذي تحرّكت به نظرة هيوأكستون صوب ملامح وجهه؛ ولم يبد أنّ أكستون كان مندهشًا من ذلك.

قال موليغان:

- لا تخبرني بأنّك تفكّر في العودة إلى ذلك الجحيم سنة أخرى، أليس كذلك؟

- بلى، سأفعل.

- لكن، يا إلهي! لماذا يا جون؟

- سأخبرك عندما أقرّر.

- لكن لم يتبقّ لك شيء تفعله هناك. لقد حصلنا على كلّ شخص نعرفه أو أيّ شخص كنّا نتمنّى معرفته. فقائمتنا اكتملت باستثناء هانك ريردن، وسنحصل عليه قبل انتهاء العام، وكذلك الآنسة تاجرت إذا اختارت المصير نفسه. هذا كلّ ما في الأمر. لقد انتهى عملك ولا يوجد شيء يستدعي بحثك عنه في الخارج ماعدا الانهيار الأخير عندما سيسقط السقف على رؤوسهم.

- أعرف ذلك.

- جون، لا أودّ أن يكون رأسك هناك عندما يحدث ذلك.

- لكن لم يساورك القلق يومًا بشأني.

- لكن ألا تدرك المرحلة التي وصلوا إليها؟ إنّهم على بعد خطوة واحدة فقط من العنف المفتوح. لقد اتّخذوا تلك الخطوة وختموها وأعلنوها منذ فترة طويلة! لكن بعد فترة أخرى سيرون الحقيقة الكاملة لما اتّخذوه، وسينفجر كلّ شيء في وجوههم. سيشهدون عنفًا مجنونا سيطال، وبشكل عشوائيّ، أيّ شيء وأيّ شخص. وأنا لا أريد أن أراك وسط هذه النار التي لن تكون بردا وسلاما على أحد.

- لا تقلق، فأنا يمكنني الاعتناء بنفسي.

قال فرانسيسكو:

- جون، لا يوجد سبب يبرّر هذه المخاطرة.

- عن أيّ مخاطرة تتحدّث؟

- لقد بدأ اللصوص يقلقون بشأن مصير الرجال الذين اختفوا. إنّهم يشتبهون في شيء مّا. ومن بين كلّ الناس، يجب ألّا تبقى أنت هناك أبدًا. إذ توجد دومًا إمكانيّة قد تمنحهم فرصة اكتشاف هويّتك وما تبحث عنه.

- إنّها مجرّد فرصة ضئيلة لا غير.

- لكن لا يوجد سبب يبرّر مَنْحَهم تلك الفرصة. فأنا وراجنار لم يتبقّ لنا شيء لإنهائه هناك.

وكان هيوأكستون يراقبهم بصمت، متّكئًا على كرسيّه، وبدت ملامح وجهه شديدة الحدّة، ولم تحمل في طيّاتها لا المرارة ولا الابتسامة، تلك الملامح التي يراقب بها المرء تطوّرًا يثير اهتمامه، فيتأخّر بضع خطوات قبل البوح برؤيته.

قال جالت:

- إذا عدت، فلن يكون الأمر متعلّقًا بعملنا، بل سيكون للفوز بالشيء الوحيد الذي أريده من العالم لنفسي بمجرّد إنهاء ذلك العمل. فأنا لم آخذ شيئا من العالم ولم أرد شيئًا منه لي. لكن ثمّة شيء واحد مازال يحمله وهو ملكي ولن أدعه يحصل عليه. لا، لا أنوي كسر القسم الذي أخذته على نفسي، فأنا لن أتعامل مع اللصوص، ولن أقدّم أيّ قيمة أو مساعدة لأيّ شخص هناك كائنًا ما كان، سواء من الناهبين أو من المحايدين أو من المقاطعين للإضراب. فإذا ذهبت إلى هناك، فلن يكون ذلك من أجل أيّ أحد سواي، ولا أعتقد أنّني أخاطر بحياتي، ولكن إن حدث ذلك، فأنا أعتبر نفسي الآن حرّا للمخاطرة من أجل هذا الأمر.

لم يكن جالت ينظر إليها، لكنّ داغني كان عليها أن تلتفت وتقف وهي تضغط على

إطار النافذة، لأنّ يديها كانتا ترتجفان.

صرخ موليغان وهو يلوّح بيديه صوب الوادي:

- لكن، يا جون! إذا حدث لك أيّ مكروه، فماذا سنفعل؟..

ثمّ توقّف فجأة لأنّ تأنيب الضمير يخزه، فقهقه جالت وقال:

- هلّا أخبرتني بما كنت على وشك التفوّه به؟

فلوّح موليغان بيده على نحو خجول، في بادرة انصراف. ثمّ أضاف جالت:

- هل كنت على وشك أن تقول إنّه إذا حدث أيّ مكروه لي، فسأموت مثل أيّ أسوإ موت في العالم؟

قال موليغان:

- حسنًا، لن أقول ذلك. ولن أقول إنّنا لن نستطيع التقدّم من دونك، فنحن يمكننا فعل ذلك. ولن أتوسّل إليك أن تبقى هنا من أجلنا. ولا أعتقد أنّني سأعود إلى ذلك الالتماس القديم الفاسد، لكن يا فتى! يا له من إغراء، أستطيع تقريبًا فهم السبب الذي يجعل الناس يفعلون ذلك. وأنا أعلم أنّه مهما يكُن ما تريده، فإنّك إذا رغبت في المخاطرة بحياتك فستفعل ذلك، وهذا كلّ ما في الأمر، ولكن أنا بصدد التفكير في أنّ حياتك... يا إلهي يا جون، إنّها حياة ثمينة جدًّا!

قال جالت وهو يبتسم:

- أعرف ذلك. لهذا السبب فأنا لن أخاطر بنفسي، بل أعتقد أنّني سأفوز.

كان فرانسيسكو صامتا في تلك اللحظة، يراقب جالت عن كثب، بعبوس وحيرة، لا كما لو أنّه وجد إجابة، بل كما لو أنّه انتبه فجأة إلى سؤالٍ.

قال موليغان: انظر يا جون، مادمتَ لم تقرّر بعدُ ما إذا كنت ستذهب أم لا، فهل ستقرّر الذهاب؟

- لا، لم أقرّر بعد.

- مادمتَ لم تقرّر بعد، هلّا سمحت لي بتذكيرك ببعض الأشياء التي يجب أن تأخذها بعين الاعتبار؟

- تفضّل.

- إنّها مخاطر الاحتمالات التي أخشاها، تلك المخاطر غير المنطقيّة التي لا يمكن التنبّؤ بها في عالم سينهار. خذ بعين الاعتبار المخاطرَ المادّيّة للآلات المعقّدة في أيدي الحمقى العميان والجبناء المهووسين بالخوف. فكّر فقط في سكك حديدهم، فأنت ستخاطر كلّما صعدت على متن قطار. إنّك ستواجه الرعب مثلما وقع في حادثة نفق وينستون. ستحصل حوادث أكثر من ذلك النوع، وستقع على نحو أسرع. فهم سيصلون إلى مرحلة لا يمرّ فيها يوم من دون وقوع حطام كبير.

- أعرف ذلك

- وسيحدث الشيء نفسه في كلّ صناعة أخرى، حيثما تستخدم الآلات -تلك التي ظنّوا أنّها يمكن أن تحلّ محلّ عقولنا- ستقع حوادث من قبيل تحطّم الطائرات، وانفجار خزّانات النفط، وتَشَقُّق الأفران، والصعقات الكهربائيّة لأسلاك التوتّر العالي، وانهيارات الأنفاق ودعامات المترو، هم سيشهدونها كلّها. تلك الآلات ذاتها التي جعلت حياتهم آمنة جدًّا ستجعلها الآن في خطر مستمرّ.

- أعرف ذلك.

- أعلم أنّك تعرف ذلك، لكن هل أخذت كلّ جزئيّة محدّدة من تلك التفاصيل بعين الاعتبار؟ هل فكّرت في كلّ هذه الحوادث الأليمة التي تحدق بالناس في العالم الخارجيّ؟ أريدك أن تكون متأكّدًا من الأخطار الجسيمة التي تنتظرك هناك، قبل أن تقرّر ما إذا وُجِد أيّ شيء يمكن أن يبرّر الدخول في ذلك المعترك. أنت تعلم أنّ المدن ستتعرّض لأسوإ ما قد يصيب كلّ الأماكن الأخرى، فهي قائمة على السكك الحديديّة وستذهب معها.

- هذا صحيح.

- وعندما تقطع السكك الحديديّة فإنّ مدينة نيويورك ستتضوّر جوعًا خلال يومين. وسينفد كلّ ما تذخره من موادّ غذائيّة. فما يجلب لها الغذاء هو خطّ السكك القارّيّ الذي يمتدّ على مسافة ثلاثة آلاف ميل. فكيف سيجلبون الطعام إلى نيويورك؟ وهل سيتمّ ذلك بواسطة القوانين التوجيهيّة والعربات التي يجرّها الثيران؟ ولكن أوّلا، وقبل أن يحدث ذلك، هم سيواجهون معاناة عصيبة بسبب قلّة المؤونة، والحاجة، والخصاصة، وإضرابات الجوع، وستتصاعد موجات العنف في خضمّ الركود المتزايد.

- طبعا. سيمرّون بكلّ ذلك.

- وفي البداية سيخسرون طائراتهم، ثمّ سيّاراتهم، ثمّ شاحناتهم، ثمّ أحصنتهم.

- طبعًا، سيخسرونها.

- وستتوقّف مصانعهم، ثمّ أفرانهم وأجهزتهم اللاسلكيّة، ثمّ ينهار نظام التزويد الكهربائيّ

- سينهار طبعًا.

- يوجد فقط خيط مهترئ يربط تلك القارّة بعضها ببعض. سيكون هناك قطار واحد في اليوم، ثمّ قطار واحد في الأسبوع ثمّ ينهار جسر تاجرت...

- لا، لن ينهار ذلك الجسر!

كان ذلك هو صوتها، فالتفت الجميع إليها. بدا وجهها شاحبًا، ولكنّه أكثر هدوءًا ممّا كان عليه آخرَ مرّة ردّت فيها عليهم.

فنهض جالت وأمال رأسه، كما هي الحال في قبول الحكم وقال: لقد اتّخذتِ قراركِ إذَن.

- نعم، لقد فعلت.

- قال هيوأكستون بهدوء وجهد، كما لو أنّ كلماته تناضل لملء صمت الغرفة لكنّها فشلت: أنا آسف يا داغني. أتمنّى لو كان من الممكن ألّا نرى ذلك يحدث، إذ كنت أفضّل أيّ شيء إلّا أن أراك تبقين هنا وأنت غير مقتنعة بهذا الأمر.

فوضعت داغني يديها وكفّيها وذراعيها على جانبيها، في بادرة من الصراحة البسيطة، وقالت وهي تخاطبهم جميعا، بأسلوبها الهادئ الذي يتيح لها إظهار مشاعرها:

- أريدكم أن تعرفوا هذا الأمر: تمنّيت لو كان من الممكن لي أن أموت خلال شهر آخر، حتّى أتمكّن من إمضائه في هذا الوادي. هذا هو مقدار رغبتي في البقاء. لكن بما أنّني اخترت الاستمرار في العيش، فإنّه لا يمكنني التخلّي عن معركة أعتقد أنّها معركتي الخاصّة التي عليّ خوضها.

ردّ عليها موليغان بكلّ احترام:

- بالطبع لك هذا، إن مازلتِ تؤمنين بذلك.

- إذا كنتم تريدون معرفة السبب الوحيد الذي سيجعلني أعود إلى هناك، فدعوني أخبركم بأنّني لا أستطيع تحمّل ترك كلّ عظمة العالم للدمار، وترك كلّ ما كان لي ولكم، وكلّ ما صنعناه بأيدينا، ينتهي إلى الخراب. وطالما أنّ البشر مازالوا يرغبون في الحياة، فإنّني لا أستطيع أن أخسر معركتي.

ردّ هيوأكستون بهدوء:

- حقًّا؟ هل يرغبون في ذلك؟ لا، لا تجيبيني الآن. فأنا أعلم أنّ الإجابة كانت أصعب أمر كان علينا التقاطه وتقبّله. وعليك أن تحملي هذا السؤال معك أثناء عودتك، وهذه هي الفرضيّة الأخيرة التي ينبغي عليك التحقّق من صحّتها.

قال ميداس موليغان: سترحلين لكن ستظلّين صديقتنا، وسنحارب كلّ ما ستفعلينه، لأنّنا نعلم أنّك مخطئة، ولكنّنا لن ندينك أو نلومك.

قال هيوأكستون: ستعودين لأنّ ما ستقدمين عليه ليس سوى خطإٍ معرفيٍّ، وليس

فشلا أخلاقيّا، ولا هو بفعل استسلام للشرّ، ولكنّه فقط الفعل الأخير لتكوني ضحيّة فضيلتك الخاصّة. سننتظرك، وعندما تعودين، يا داغني، ستكونين قد اكتشفت أنّه لا حاجة أبدا إلى وجود أيّ تعارض بين رغباتك، وأنّه ليس بصراع القيم المأسويّ الذي يشبه ما تحمّلته جيّدًا.

ردّت وقد أغمضت عينيها:

- شكرًا.

خاطبها جالت بأسلوب موضوعيّ متجرّد يشبه أسلوب مدير تنفيذيّ:

- يجب أن نناقش شروط رحيلك؛ أوّلًا، يجب أن تعطينا وعدًا وكلمة شرف بأنّك لن تكشفي سرّنا أو أيّ جزء منه، وأنّك لن تبوحي بسرّ هذا الوادي، -لا مكان وجوده، ولا الأماكن التي زرتها خلال الشهر الماضي- لأيّ شخص في العالم الخارجيّ، وفي أيّ وقت أو لأيّ غرض.

- أقسم لكم بشرفي أنّني لن أُسِرَّ بأيّ شيء لأيّ شخص.

- ثانيا، يجب ألّا تحاولي أبدًا العثور على هذا الوادي مجدّدًا، لأنّك لن تأتي إلى هنا من غير دعوة. ويجب أن تعلمي أنّك حتّى لو خرقت الشرط الأول، فإنّ فعلك هذا لن يوقعنا في أيّ خطر جدّيّ. لكنّك إذا خرقت الشرط الثاني، فإنّك ستعرّضيننا للهلاك. فسياستنا لا تقع أبدا تحت الرحمة الاعتباطيّة لحسن نوايا شخص آخر، أو تحت رحمة وعد لا يمكن إنفاذه. ولا يمكننا أن نتوقّع منك وضع مصالحنا فوق مصالحك الشخصيّة. ومادمتِ تعتقدين أنّ مسارك صحيح، فإنّه قد يأتي اليوم الذي تجدين فيه من الضروريّ قيادة أعدائنا إلى هذا الوادي. لذلك، فإنّنا لن نترك لك أيّ وسيلة لفعل ذلك. وسيتمّ إخراجك من الوادي بطائرة ونت معصوبة العينين وستحلّق بك مسافةً كافيةً تجعل أمر تعقّب المسار مستحيلًا.

قالت داغني: أنت على حقّ.

- لقد أُصلِحت طائرتك. هل ترغبين في استردادها عبر توقيع شيك تحويل من حسابك في بنك موليغان؟

- لا.

- إذن يجب علينا احتجاز طائرتك حتّى يحين الوقت الذي تختارين فيه دفع ثمن إصلاحها. سآخذك بعد غدٍ في طائرتي إلى نقطة خارج الوادي وأتركك قرب أيّ وسيلة نقل أخرى.

قالت:

- حسنا.

كان الظلام قد حلّ، عندما غادر الجميع منزل ميداس موليغان. وكان درب العودة إلى منزل جالت يعبر الوادي، مرورًا بكوخ فرانسيسكو، فعادوا ثلاثتهم معًا. وظهرت من النوافذ المضاءة بضع مربّعات متناثرة في الظلام، وكانت أولى تيّارات الضباب تنسج ببطء على ألواح الزجاج، مثل الظلال التي قد يلقيها بحر بعيد. ساروا ثلاثتهم في صمتٍ، لكنّ صوت خطواتهم كان ممزوجًا بإيقاع واحد وثابت، يشبه الكلام الذي يجب فهمه وعدم نطقه بأيّ شكل آخر من أشكال التعبير.

بعد فترة من الصمت قال فرانسيسكو: إنّ قرارك لن يغيّر شيئًا، ولكنّه سيجعل الفترة تكون أطول قليلا، والمدّة الأخيرة هي الأصعب دومًا، لكنّها ستكون الأخيرة.

قالت داغني:

-آمل في ذلك.

وبعد لحظة كرّرت قول فرانسيسكو بهدوء: المدّة الأخيرة هي الأصعب.

ثمّ التفتت إلى جالت وقالت:

-هل لي أن أطلب منكم أمرا؟

- تفضّلي.

- هل أستطيع أن أغادر غدا؟

- طبعا إذا كنت ترغبين في ذلك.

وبعد لحظات تكلّم فرانسيسكو مجدّدًا، وبدا أنّه كان يخاطب الحيرة الغامضة التي تسيطر على عقلها؛ وقد حمل صوته نبرة الإجابة على سؤال: داغني، لقد وقعنا ثلاثتنا في الحبّ... ونرغب في الشيء نفسه، بغضّ النظر عن أشكاله. فلا تتعجّبي من غياب أيّ قطيعة بيننا. فأنت ستكونين واحدة منّا، ومادمت ستبقين مغرمة بسكك ومحرّكاتك، فهي ما ستقودك إلينا، مهما ضللت طريقك. إنّ الإنسان الوحيد الذي لا يمكن تعويضه هو الإنسان الذي يكون بلا عاطفة.

ردّت عليه بلطف:

-شكرًا.

- على ماذا؟

- على... الحالة التي تبدو عليها.

- وكيف أبدو يا داغني؟

- تبدو... كما لو أنّك سعيد.

- أنا وأنتِ نمرّ الآن بالحالة ذاتها. لا تخبريني بما تشعرين به، فأنا أعلم ما تمرّين به. لكن، كما ترين يا داغني، فالجحيم الذي كنت قادرة على تحمّله إنّما هو بمقدار حبّك نفسه. والجحيم الذي لا أستطيع تحمّل مشاهدته هو رؤيتك غير مبالية. فأومأت برأسها في صمت، غير قادرة على إلصاق صفة السعادة بأيّ جزء من الأشياء التي شعرت بها، ومع ذلك شعرت بأنّه كان على حقّ.

ثمّ انحرفت سحابة الضباب التي كانت مثل الدخان وحجبت ضوء القمر، ولم

تستطع داغني من خلال انتشار التوهّج تبيّنَ تعابير ملامح وجهيهما، بينما كانت تسير بينهما: والتعابير الوحيدة التي استطاعت إدراكها من خلال الضباب كانت خياليَ جسدَيهما، من دون انقطاع صوتِ خطواتهم، وشعورها بأنّها كانت ترغب في مواصلة السير إلى ما لا نهاية، ذلك الشعور الذي لم تتمكّن من تحديده، باستثناء أنّه لم يكن مَشُوبًا لا بالشكّ ولا بالألم.

ثمّ توقّف فرانسيسكو عندما اقتربوا من كوخه، وتحرّكت يداه لاحتضانهما، وأشار إلى كليهما نحو بابه وقال:

- هلّا تفضّلتما بالدخول مادامت ليلتنا الأخيرة معًا ولن تتكرّر إلّا بعد مرور بعض الوقت؟ لنشرب نخب ذلك المستقبل الذي أصبحنا ثلاثتنا متأكّدين منه.

سألته داغني: هل نحن متأكّدون فعلًا من ذلك؟

ردّ عليها جالت: نعم نحن كذلك.

فنظرت داغني إلى وجهيهما عندما أنار فرانسيسكو ضوء منزله. لكنّها لم تستطع تحديد ملامح تعابير ذينك الوجهين، وهي ملامح لم تكن توحي بالسعادة أو أيّ ضرب من ضروب العاطفة المتعلّقة بالفرح، بل كانت حازمة وجدّيّة، واعتقدت أنّه لو كان الأمر ممكنًا لأخبرها التألّق الغريب الذي شعرت به في داخلها بأنّ وجهها كان على الشاكلة نفسها.

ثمّ مدّ فرانسيسكو يده لأخذ ثلاث كؤوس من الخزانة، لكنّه توقّف، كما لو أنّ فكرةً خامرته فجأة. فوضع كأسًا واحدة على الطاولة، ثمّ مدّ يده لأخذ كأسَي جدّه سيباستيان دانكونيا الفضيّتين ووضعهما بجانب الكأس الأولى. ثمّ سألها، بنبرة المضيّف الهادئة، بينما كان يجلب زجاجة من النبيذ القديم: هل ستذهبين مباشرة إلى نيويورك يا داغني؟

أجابته بهدوء: نعم.

قال بعد أن ملأ الكؤوس:

-سأسافر إلى بوينس آيرس بالطائرة بعد غدٍ، ولست متأكّدا من عودتي إلى نيويورك لاحقًا، لكن إن تمّ ذلك، فسيكون من الخطر عليك مقابلتي.

ردّت عليه:

-لن أهتمّ بذلك، إلّا إذا كنتَ تشعر أنّه ليس من حقّي رؤيتك بعد الآن.

- هذا صحيح يا داغني. ليس مسموحًا لك برؤيتي في نيويورك.

ثمّ نظر إلى جالت وسأله: متى تقرّر ما إذا كنت ستعود أو ستبقى هنا؟

فنظر جالت مباشرة إليه، ثمّ قال ببطء، بلهجة الرجل الذي يعرف كلّ عواقب كلماته:

- لقد اتّخذت القرار يا فرانسيسكو وسأعود.

فتوقّفت يد فرانسيسكو لحظة طويلة، ولم يكن يرى سوى وجه جالت. ثمّ انتقلت عيناه إلى عينيها. وانزل القنّينة من دون أن يتراجع إلى الخلف، لكنّه بدا كما لو أنّ نظرته هي التي تراجعت إلى الوراء على مستوى مدى أوسع، يضمّ كليهما. وقال: لكن، بالطبع..

وبدا كما لو أنّه تحرّك إلى مدى أبعد من ذلك ويرى الآن الانتشار الكامل لسنواتهم؛ وكان صوته متّزنًا، بنبرة غير منحرفة، وبجودة عالية تناسب حجم الرؤية.

قال:

-كنت أعرف ذلك منذ اثني عشر عامًا. بل عرفته حتّى قبل أن تعرفه أنتَ، وكنت أنا من ينبغي عليه رؤية ما تراه. لقد فكّرت في ذلك تلك الليلة، عندما دعوتنا إلى نيويورك، واعتبرته...

كان يتحدّث إلى جالت، لكنّ عينيه انتقلتا إلى داغني، ثمّ أضاف: كما لو أنّه كان يمثّل

كلّ ما كنت تبحث عنه... وكلّ شيء أخبرتنا أن نعيش من أجله أو نموت إذا لزم الأمر. وكان يجب عليّ أن أرى أنّك ستؤمن بذلك أيضًا. ولا يمكن أن يكون على غير ذلك. فهو كما كان ويجب أن يكون. لقد تمّ تعيينه آنذاك، قبل اثني عشر عامًا.

ثمّ نظر إلى جالت وضحك برفق، وأضاف: وتقول إنّني أنا من تلقّى الضرب الأقسى؟

ثمّ التفت بحركة سريعة جدًّا، واستدار، ببطء شديد، كما لو أنّه يقوم بتأكيد متعمّد، فأكمل مهمّة سكب النبيذ، وملء الأوعية الثلاثة الموضوعة فوق الطاولة. والتقط كأسي الفضّة، ونظر إليهما وتوقّف لحظة، ثمّ مد إحداهما إلى داغني، والآخر إلى جالت. وقال: خذها لقد فزت بها، وهذا الأمر لم يكن مجرّد حظّ.

فأخذ جالت الكأس من يده، لكنّ القبول بدا كما لو أنّه تمّ بعيونهما حين نظر أحدهما إلى الآخر.

قال جالت:

-كنتُ مستعدًّا لتقديم أيّ شيء كي أسمح بحدوث غير ذلك، باستثناء ما هو أبعد من العطاء.

أمّا داغني فحملت كأسها، وأخذت تنظر إلى فرانسيسكو وتركته يرى عينيها وهما تسترقان النظر إلى جالت. ثمّ قالت:

- نعم، أمّا أنا فلم أكن أستحقّها، وما دفعته أنت، أنا بصدد دفعه الآن، ولا أعرف إن كنت سأكسب ما يكفي لحمل لقب واضح، لكن إن كان الجحيم هو الثمن والمقياس فدعني أكُن الأكثر جرأة من بيننا نحن الثلاثة.

وبينما كانوا يشربون، وهي واقفة بعينين مغلقتين، شعرت بحركة النبيذ السائلة داخل حنجرتها، فعلمت أنّ تلك اللحظة كانت هي الأكثر تعذيبًا لثلاثتهم، والأكثر انتشاءً، وأنّهم لم يشهدوا مثلها مطلقًا.

ولم تتحدّث داغني إلى جالت، بينما كانا يسيران في آخر امتداد من الطريق إلى منزله. بل إنّها لم تدر رأسها إليه، لأنّها شعرت بأنّ مجرّد النظر إليه قد يشكّل خطرًا عليها. وأحسّت، أثناء صمتهما، بهدوء سببه الفهم الكامل وتوتّر سببه معرفة أنّهما لم يرغبا في التعبير عن الأشياء التي فهماها.

لكنّها واجهته عندما كانا في غرفة المعيشة، بثقة كاملة كما لو أنّها أمام يقين مفاجئ من حقّها في الكلام، يقين من أنّها لن تكسر، وأنّ الوضع أصبح آمنا لتتحدّث. فقالت بشكل متّزن، لا بنبرة التصريح أو الانتصار، بل كبيان للحقيقة فقط: هل ستعود إلى العالم الخارجيّ لأنّني سأكون هناك؟

- نعم.

- أنا لا أريدك أن تغادر إلى هناك.

- ما من خيار في هذا الموضوع.

- وهل أنت ذاهب إلى هناك من أجلي؟

- لا، بل من أجلي.

- وهل ستسمح لي برؤيتك هناك؟

- لا.

- ألا يفترض بي أن أراك؟

- لا.

- ألا يفترض بي أن أعرف مكانك أو ماذا تفعل؟

- طبعًا لا.

- وهل ستستمرّ في مراقبتي كما كنت تفعل من قبل؟

- بل أكثر من قبل.

- وهل هدفك هو حمايتي؟

- لا.

- فما هو هدفك إذَن؟

- أن تكوني هنا يوم تقرّرين الانضمام إلينا.

فنظرت إليه باهتمامٍ، من دون أن تسمح لنفسها بالتعبير عن أيّ ردّ فعل آخر، ولكنّها بدت كما لو أنّها تتحسّس الطريق لإيجاد إجابة على النقطة الأولى التي لم تفهمها تمامًا.

قال وهو يشرح لها الأمر: سيرحل بقيّتنا قريبًا، إذ سيكون من الخطير البقاء هناك. أمّا أنا فسأبقى كمفتاحك الأخير، أمام باب هذا الوادي الذي سيغلق كلّيًّا.

- أوه!

لكنّها خنقت صوتها قبل أن يصبح أنينًا. ثمّ استعادت طريقة التنصّل غير المخصوص، وسألته: لنفترض أنّني كنت سأقول لك إنّ قراري نهائيّ وإنّني لن أنضمّ إليكم أبدًا؟

- سيكون كلامك حينها مجرّد كذبة.

- ولنفترض أنّني قرّرت الآن أنّي أريد جعله نهائيًّا وأتمسّك بهذا الموقف مهما كانت تداعيات المستقبل؟

- ومهما تكُن الأدلّة المستقبليّة التي ستلاحظينها وبغضّ النظر عن القناعات التي ستشكّلينها.

- نعم.

- سيكون ذلك أسوأ من الكذب.

- وهل أنتَ متأكّدٌ من أنّني اتّخذت القرار الخاطئ؟

- طبعًا.

- وهل تؤمن بأنّ المرء يجب أن يكون مسؤولًا عن أخطائه الخاصّة؟

- طبعًا أؤمن بذلك.

- إذَن لماذا لا تسمح لي بتحمّل عواقب أخطائي؟

- بل سمحت لك وسأسمح لك دائما بفعل ذلك.

- وماذا لو وجدت، عندما يفوت الأوان، أنّني أريد العودة إلى هذا الوادي، لماذا يجب أن تتحمّل أنت مخاطرة إبقاء ذلك الباب مفتوحًا لي؟

- ليس عليّ فعل ذلك. ولن أفعل، لولا أنّ لي نهاية أنانيّة سأكسبها من وراء ذلك.

- وأيّ نهاية أنانيّة ترومها؟

- أريدك هنا.

فأغلقت عينيها وأمالت رأسها في اعتراف صريح بالهزيمة، الهزيمة في الجدال وفي محاولتها مواجهةَ المعنى الكامل لما كانت ستتركه بهدوء وراءها.

ثمّ رفعت رأسها، كما لو أنّها استوعبت نوع صراحته، ثمّ نظرت إليه، من دون أن تخفي معاناتها ولا شوقها ولا هدوءها، وهي تعلم أنّ تلك الأمور الثلاثة كانت بادية في نظرتها.

وبدت ملامح وجهه مثلما كانت في ضوء الشمس لحظةَ رأته أوّل مرّة بوجه صافٍ لا يرحم وإدراك لا يتزعزع، من دون ألم أو خوف أو ذنب. واعتقدت أنّه كان من الممكن لها أن تقف وتنظر إليه، وترى خطوط حاجبيه المستقيمةَ التي كانت تزيّن عينيه الخضراوين الداكنتين، وتنظر إلى منحنى الظلّ الذي يؤكّد شكلَ فمه، وإلى بشرة صدغيه التي تشبه المعدن المسكوب، وإلى فتحة ياقة قميصه، وهيئة ساقيه المألوفة الثابتة. كانت ترغب في أن تقضّي بقيّة حياتها في ذلك المكان وبتلك الطريقة. وفي اللحظة الموالية علمت أنّه إذا تحقّقت أمنيتها، فإنّ تأمّلها سيفقد كلّ معناه، لأنّها كانت ستخون كلّ الأشياء التي أضفت على ذلك التأمّل قيمة.

ثمّ شعرت داغني بأنّها كانت تعيش اللحظة نفسها التي تشبه لحظة وقوفها عند نافذة غرفتها في نيويورك، لا بوصفها ذكرى، بل بوصفها تجربة حاضرة، وتشبه النظر إلى المدينة الضبابيّة، وإلى شكل مدينة أطلانطس الذي لا يمكن الوصول إليه وهي تغرق في مكان بعيد المنال، فعلمت أنّها أدركت الإجابة على تلك اللحظة. وشعرت، لا بالكلمات التي وجّهتها حينها إلى المدينة، لكن بذلك الإحساس غير المترجم الذي جاءت منه تلك الكلمات: أنت، يا من أحببته دائما ولم أجده قطُّ، أنت يا من توقّعت رؤيته عند نهاية سكّة الحديد خلف الأفق...

قالت بصوت عالٍ:

-أريدك أن تعرف هذا الأمر، لقد بدأت حياتي بقيمة مطلقة واحدة مفادُها أنّ العالم ملكي وأنّ عليّ تشكيله وفق صورة قِيمي العليا وأنّ عليّ ألّا أتخلّى عنه أبدا مقابل أيّ معيار أقلّ قيمة منه، بغضّ النظر عن طول الكفاح أو صعوبته... لقد علمت الآن أنّني أناضل من أجل هذا الوادي.. إنّ هذا الوادي هو الذي رأيته ممكنًا ولن أستبدل به أيّ شيء أقلّ منه ولن أتخلّى عنه مقابل أيّ شرّ طائش... سأعود للنضال من أجل هذا الوادي لتخليصه من عالمه السفليّ في الواقع، واستعادة مملكته الكاملة والشرعيّة، ولجعل الأرض تنتمي إليك في الواقع مثلما هي حالها في الروح، وأن ألتقي بك مجدّدًا يوم أكون قادرة على تقديم العالم كلّه لك، وإذا فشلت، فسأبقى في المنفى بعيدًا عن هذا الوادي إلى نهاية حياتي.. سأقاتل من أجل ذلك حتّى لو كان عليّ أن أقاتل ضدّك وحتّى لو أدنتني بالخيانة... وحتّى لو لم أرَك مجدّدًا. فوقف جالت بلا حراك. كان يستمع إليها من دون أن يحدث أيّ تغيير في ملامح وجهه، وكانت عيناه فقط تنظران إليها كما لو أنّه يسمع كلّ كلمة، حتّى الكلمات التي لم تنطقها. ثمّ أجابها بالنظرة نفسها، كما لو أنّها نظرة تحمل في طيّاتها بعض الدوائر التي لم تكسر بعدُ، فالتقط صوته بعض نغماتها، كأنّها إشارة إلى الشفرة نفسها، صوت بلا عاطفة ما عدا ما قد يلاحظ في المسافات بين الكلمات:

- إذا فشلتِ، فقد فشل بشرٌ قبلَك في سعيهم إلى الحصول على الرؤية التي كان ينبغي

عليها أن تكون ممكنة، ومع ذلك ظلّت بعيدة المنال إلى الأبد. وإذا أصبحتِ مثلهم تعتقدين أنّ أعلى قيم للفرد لا يمكن تحقيقها وأنّ أعظم رؤية له لا يمكن تصييرها واقعًا ملموسًا، فلا تلعني هذه الأرض كما فعلوا، ولا تلعني الوجود. لقد شاهدتِ أطلانطس التي كانوا يبحثون عنها، وهي موجودة هنا، ولكن على المرء أن يدخلها عاريًا ووحيدًا، من دون خرق بالية مرقّعة بأكاذيب القرون، بل بأنقى ما في العقل من صفاء، لا بقلب بريء، بل بقلب أندر بكثير: عقل عنيد بوصفه حيازة المرء الوحيدة ومفتاحه الأوحد. لن تدخليها حتّى تتعلّمي أنّك لست بحاجة إلى إقناع العالم أو غزوه. وعندما تتعلّمين ذلك، سترين أنّه خلال كلّ سنوات كفاحك، لم يمنعك شيء من أطلانطس وأنّه لم توجد أغلال تكبّلكما عدا الأغلال التي قيّدت بها نفسك بمحض إرادتك، وأنّ ما تمنّيتِ الفوز به خلال كلّ تلك السنوات، كان ينتظرك.

ثمّ نظر إليها كما لو أنّه يخاطب الكلمات غير المعلنة في عقلها، وأضاف: إنّه ينتظرك من دون كلل أو ملل بينما أنت تناضلين بشغف واستماتة، ولكن بيقين أكبر من يقينك. واصلي كفاحك، وواصلي حمل الأعباء التي لم تختاري تحمّلها، وتقبّلي العقاب غير المستحقّ، وواصلي الإيمان بأنّ العدالة يمكن أن تتحقّق بعرض روحك على أكثر العذابات الظالمة. ولكن تذكّري في أسوإ لحظاتك وأحلكها، أنّك رأيتِ نوعًا آخر من العالم. وتذكّري أنّه يمكنك الوصول إليه متى اخترتِ رؤيته. وتذكّري أنّه سيكون في انتظارك وأنّه واقع حقيقيّ، وأنّه لك.

ثمّ أدار رأسه قليلًا، وقال بصوت واضح، وقد أوقفت عيناه دورانَه: متى ترغبين في المغادرة غدًا؟

- أوه ...! في أقرب وقت ممكن يناسبك.

- إذَن تتناول وجبة الفطور التي ستكون جاهزة في السابعة ونقلع في الثامنة.

- سأحضر الفطور.

ثمّ أدخل يده إلى جيبه فأخرج منه قرصًا صغيرًا لامعًا لم تستطع تبيّنه في بداية الأمر

ومدّه إليها فوضعته على راحة يدها. كانت قطعة ذهبيّة بخمسة دولارات. وقال:

هذا آخر أجر لك هذا الشهر.

وظلّت أصابعها مغلقة على العملة بإحكام، لكنّها أجابت بهدوء ويسر: شكرًا.

- تصبحين على خير يا آنسة تاجارت.

- طابت ليلتك.

لم تنم داغني في ما تبقّى لها من ساعات، بل جلست على أرضيّة غرفتها، وضغطت بوجهها على السرير، ولم تشعر بشيء سوى وجوده خلف الجدران. وشعرت في بعض الأحيان كأنّما كان أمامها، وكأنّها تجلس عند قدميه. لقد قضّت ليلتها الأخيرة معه بتلك الطريقة.

***

غادرت داغني الوادي مثلما جاءت، ولم تحمل معها أيّ شيء ينتمي إليه. لقد تركت خلفها بعض ممتلكات حصلت عليها، من قبيل تنّورتها الريفيّة، والبلوزة، والمئزر، وبعض قطع من ملابس داخليّة كانت مطويّة بعناية في درج خزانة غرفتها. نظرت إلى تلك الأشياء كلّها لحظةً، قبل أن تغلق الدرج، معتقدة أنّها إذا عادت، قد تجدها هناك. لم تأخذ شيئًا معها سوى قطعة ذهبيّة بخمسة دولارات وشريط الضمّادة الذي لا يزال يكمّد الجرح بأضلاعها.

لامست الشمسُ قممَ الجبال، ورسمت دائرة مشرقة كأنّها حدود للوادي عندما صعدت داغني على متن الطائرة. ثمّ انحنت إلى الخلف في مقعد بجانب جالت ونظرت إلى وجهه الذي انحنى عليها مثلما فعل حين فتحت عينيها في الصباح الأوّل من نزولها بالوادي. ثمّ أغمضت عينيها، وشعرت بيديه وهما تربطان عصابة العينين حول رأسها.

ثمّ سمعت صوت هدير المحرّك، الذي لم يكن مجرّد صوت، بل ارتجافَ انفجار

داخل جسدها؛ فشعرت كما لو أنّه ارتجاف بعيد، وأنّ للشخص الذي سيشعر به أن يتأذّى، إن لم يكن بعيدا جدًّا.

ولم تكن تعرف متى غادرت العجلات الأرضَ أو متى عبرت الطائرة دائرة القمم. وظلّت مستلقية في سكون، ولم تجد من دليل لوعيها بالفضاء سوى هدير المحرّك الثقيل، كما لو أنّها محمولةٌ في تيّار صوتٍ جارفٍ يخلخلها من مكانها من حين إلى آخر. وكان الصوت متأتّيًا من محرّكه، ومن سيطرة يديه على عجلة القيادة؛ فتمسّكت به؛ أمّا الباقي فكان يجب عليها تحمّله، لا مقاومته.

وظلّت مستلقية في سكونٍ، وهي تمدّ ساقيها إلى الأمام، وتضع يديها على ذراعي المقعد، من دون أن تشعر بأيّ حركة -بما في ذلك حركتها- قد تعطيها إحساسًا بالزمن، أو الفضاء، أو البصر، أو المستقبل، بعد أن قضّت ليلة أغلقت فيها جفونها تحت ضغط من الغطاء، وهي تعلم وجوده بجانبها كما لو أنّه كان واقعها الوحيد الثابت.

وظلّا صامتين، إلى أن تكلّمت فجأة قائلة: السيّد جالت.

- نعم، ما حاجتك؟

- لا. لا شيء. أردت فقط أن أتأكّد ممّا إذا كنتَ لا تزال هنا معي.

- سأكون دائما هنا.

لم تكن تعرف عدد الأميال التي قطعت، فذكرى صوت الكلمات بدت مثل علامة بارزة صغيرة تتدحرج بعيدا في المسافة، ثمّ تختفي. ثمّ لم يكن هناك من شيء سوى سكون الحاضر غير القابل للتجزئة.

ولم تكن تعرف أنّ ما مرّ من الزمن يوم أو ساعة، عندما شعرت بحركة النزول، ممّا يعني أنّهما كانا على وشك الهبوط أو الاصطدام بشيء؛ فالاحتمالان كانا متساويين في عقلها.

ثمّ أحسّت برجّة العجلات على الأرض، وكان إحساسها متأخّرًا بشكل غريب:

وكأنّ جزءًا من الوقت قد انقضى لجعلها تصدّق ذلك.

ثمّ شعرت بسلسلة من الحركة المتشنّجة، تلتها رجّة التوقّف والصمت، ثمّ لمسة يديه على شعرها وإزالة عصابة العينين.

لقد رأت ضوء الشمس الساطع، وامتداد الأعشاب وقد تطاير بعضُها في السماء، من دون جبال لإيقافها، ورأت كذلك طريقًا سريعة مهجورة وخطوطا ضبابيّة لمدينة على بعد ميل تقريبًا. ثمّ لمحت ساعتها: كانت قبل أقلّ من أربعين دقيقة في الوادي.

قال جالت وهو يشير إلى البلدة:

-ستجدين محطّة تاجرت هناك، وستتمكّنين من ركوب القطار.

فأومأت داغني برأسها كما لو أنّها فهمته. لم يتبعها حين نزلت إلى الأرض، بل انحنى عبر عجلة القيادة نحو باب الطائرة المفتوح، وتبادلا نظرة. لقد وقفت، ووجهها مرتفع نحوه، وكانت رياحٌ خافتة تداعب خصلات شعرها، وقد نُحِتَ خطّ كتفيها المستقيم بواسطة بدلة أنيقة لأحد المديرين التنفيذيّين وسط مساحة شاسعة من المروج الخالية.

كانت حركة يده تشير إلى الشرق نحو بعض المدن الخفيّة، فقال: لا تبحثي عنّي هناك، فأنت لن تجديني، أمّا إذا رغبتِ فيّ كما أنا عليه الآن، فسأكون أسهل إنسان يمكنك العثور عليه.

ثمّ سمعت صوت الباب وهو يوصد عليه؛ وبدا الصوت أعلى من صوت هدير المروحة التي تلته. وبعد ذلك شاهدت تسارع دوران عجلات الطائرة وأثر الأعشاب التي سوّيت بالأرض خلفها. وبعد حين رأت شريطا في السماء بين العجلات والأعشاب.

ثمّ نظرت من حولها. لقد خيّم سديم حرارة يميل إلى الحمرة على محيط المدينة على بعد مسافة، وبدا المشهد كما لو أنّ الأشكال كانت تترنّح تحت صفيحة صدئة؛ فرأت داغني بقايا دخان منتشر فوق أسقف تلك الهياكل. ورأت قصاصة صفراء جافّة

ترتجف بشكل باهت في الأعشاب بجانبها: كانت قطعة من جريدة. ونظرت إلى تلك الأجسام بشكل فظّ، غير قادرة على جعلها حقيقيّة.

ثمّ رفعت عينيها إلى الطائرة. وشاهدت انتشار جناحيها وهما يزدادان صغرًا في السماء، ويستنزفان بعيدًا في أعقابها صوتَ محرّكها. وظلّت الطائرة ترتفع، وقد بدا منها الجناحان مثل صليب فضّيّ طويل، وبعد ذلك ظهر منحنى حركتها وقد اخترق السماء، وبعد حين انخفض ببطء أقرب إلى الأرض؛ ثمّ بدا أنّه لم يعد يتحرّك، ولكنّه يتقلّص فقط. كانت داغني تشاهد الطائرة مثل من يراقب نجمًا وهو يأفل في السماء، بينما كانت صورتها تنكمش من صليب إلى نقطة إلى شرارة مشتعلة لم تعد متأكّدة من رؤيتها. وعندما رأت أنّ صفحة السماء كانت ملطّخة بشرارات من ذلك القبيل في جميع الأنحاء، علمت أنّ الطائرة اختفت.

الفصل الثالث

الجشع المضادّ

سأل الدكتور روبرت ستادلر زميله الدكتور فلويد فيريس:

-ماذا أفعل هنا؟ ولماذا طُلب منّي المجيء إلى هنا؟ أطالبك بتفسير، فأنا لست معتادًا على أن أُجلَب في منتصف الطريق من دون مبرّر أو سبب أو أدنى تنبيه.

قال الدكتور فلويد فيريس وهو يبتسم:

-وهذا ما يجعلني أقدّر قدومك كثيرًا يا دكتور ستادلر.

كان من المستحيل معرفة ما إذا كانت نبرة صوته تتضمّن الامتنان أم الشماتة.

وكانت الشمس مسلّطة عليهما، فشعر الدكتور ستادلر بتصبّب العرق على صدغيه. ولم يستطع تحمّل نقاش خاصّ محرج وسط حشدٍ من الناس كانوا يتدفّقون لملء مقاعد المدرج حولهما، ذلك النقاش الذي كان يحاول الإعداد له وفشل في الحصول عليه خلال الأيّام الثلاثة الماضية. وخطر له أنّ ذلك تحديدًا هو السبب في تأخير لقائه مع الدكتور فيريس إلى تلك اللحظة؛ لكنّه طرد تلك الفكرة، تمامًا كما طرد إحدى الحشرات الطنّانة التي تحاول الوصول إلى صدغه الرطب.ثمّ سأله:

- لماذا لم أتمكّن من الاتّصال بك؟

بدا سلاح التهكّم المراوغ عنده أقلّ فعاليّة من السابق، ولكنّه كان سلاح الدكتور

ستادلر الوحيد: لماذا اضطررت إلى مراسلتي على نحوٍ رسميّ عبر كتابة رسالة شكليّة صيغت بأسلوب رسميّ، فأنا متأكّد من أنّ أسلوب صياغتها يشبه برتوكولات الجيش.

وكان على وشك أن ينطق بعبارة "أوامر الجيش"، لكنّه لم يجرؤ على ذلك، ثمّ أضاف: بأسلوب التواصل العسكريّ، لكنّني متأكّد من أنّه ليس أسلوب التراسل العلميّ؟

ردّ الدكتور فيريس بلطف:

-إنّها مسألة حكوميّة.

- ألا تعرف أنّني كنت مشغولا جدًّا وأنّ هذا الطلب يعني انقطاعي عن العمل؟

ردّ عليه الدكتور فيريس:

-أوه نعم.

- وهل تدرك أنّه كان يمكنني رفض المجيء؟

ردّ الدكتور فيريس بهدوء:

-لكنّك لم تفعل.

- لماذا لم تمدّنِي بأيّ تفسير؟ لماذا لم تأت إليّ شخصيًّا، بدلا من إرسال هذين الشابّين المشاغبين اللذين يهيمن على ثرثرتهما قليل من العلم وكثير من الخيال؟

قال الدكتور فيريس بطريقة ملطّفة:

-لقد كنت مشغولًا جدًّا.

- إذَن هل تمانع في أن تخبرني بما تفعلونه وسط أحد السهول بولاية أيوا؟ وهل يتعلّق جلبي إلى هنا بتلك المسألة؟

ثمّ لوّح بيديه في ازدراءٍ إلى الأفق الذي كان يغشاه الغبار صوب أحد المروج الخالية ونحو المدرّجات الخشبيّة الثلاثة. وكانت المدرّجات قد أقيمت حديثًا، ويبدو أنّ

الخشب أيضًا يتعرّق؛ لقد كان بإمكان الدكتور ستادلر رؤية قطرات من الصمغ تتلألأ في الشمس.

- نحن على وشك أن نشهد حدثًا تاريخيًا يا دكتور ستادلر، تلك المناسبة التي ستصبح علامة فارقة في درب العلم والحضارة والرفاه الاجتماعيّ والتكيّف السياسيّ.

كان الدكتور فيريس يتحدّث بنبرة رجل علاقات عامّة يسرد مذكّرة حفظها عن ظهر قلب، ثمّ أضاف: إنّها ستشكّل نقطة تحوّل في عصر جديد.

- عن أيّ حدث وأيّ عصر تتحدّث؟

- وكما ستلاحظ، فإنّ النخبة هي التي حظيت فقط بفرصة حضور هذه المناسبة، طبعًا لا يمكننا حذف اسمك من تلك القائمة، أليس كذلك؟ وبطبيعة الحال نحن نشعر يقينًا بأنّه يمكننا الاعتماد على ولائك وتعاونك.

لم يستطع الدكتور ستادلر الإمساك بعيني الدكتور فيريس. كانت المدرّجات تمتلئ سريعًا بالناس، وظلّ الدكتور فيريس يقاطع نفسه باستمرارٍ للتلويح إلى القادمين الجدد الذين لم يرهم الدكتور ستادلر من قبل، وكانوا يبدون وكأنّهم يعرفون جميعا الدكتور فيريس ويبحثون عنه، وكأنّه منظّم حفلات أو نجم تلك المناسبة.

قال الدكتور ستادلر:

- لو تتكرّم عليّ وتمنحني دقيقة من وقتك لتخبرني بما...

قال الدكتور فيريس وهو يلوّح إلى رجل بدينٍ أبيض الشعر مكتنز قد ملأ الزيّ الرسميّ الكامل الذي يلبسه جنرال:

-مرحبًا يا سبود!

فرفع الدكتور ستادلر صوته: قلت، أرجو منك التركيز فترة طويلة بما فيه الكفاية لشرح ما يجري...

- لكنّ الأمر بسيط جدًّا. إنّه الانتصار الأخير... هلّا عذرتني يا دكتور ستادلر، سأعود بعد دقيقة.

ردّ الدكتور فيريس على عجل، واندفع إلى الأمام مثل خادم مدرّب أثناء سماعه صوتَ الجرس، في اتّجاه ما يشبه مجموعة من الشيوخ المشاغبين؛ ثمّ التفت إلى الخلف فترةً وجيزةً لإضافة كلمة بدا فيها شيءٌ من التبجيل تقدّم شرحًا كاملًا: الصحافة!

جلس الدكتور ستادلر على المقعد الخشبيّ، وهو يشعر بعدم الرضا والنفور من مواجهة أيّ شيء حوله لأسباب مجهولة. وكانت المدرّجات الثلاثة متباعدة مثل صفوف صغيرة خاصّة بالسيرك في فضاء يتّسع لما يناهز ثلاثمائة شخص. ويبدو أنّها بنيت بغاية مشاهدة أحد العروض، لكنّها كانت تواجه المروج الخالية على مساحة شاسعة تمتدّ إلى الأفق، ولا شيء يُرى سوى بقعة مخفيّة لمزرعة بدت على بعد أميال.

وكانت هناك ميكروفونات لاسلكيّة أمام إحدى المنصّات التي يبدو أنّها مخصّصة للصحافة. وهناك أداة غريبة لأحد الاختراعات التي تشبه لوحة مفاتيح محمولة أمام المنصّة المخصّصة للمسؤولين، وبعض الأذرع المصنوعة من المعدن المصقول تلمع في الشمس على واجهة لوحة المفاتيح، بالإضافة إلى موقف للسيّارات أُعدّ على نحو مرتجل خلف المدرّجات، بدا فيه بريق السيّارات الجديدة الفاخرة مشهدًا مشرقًا مطمئنًا. لكنّ ما منح الدكتور ستادلر إحساسا غامضا بعدم الارتياح كان المبنى الذي يقع على ربوة على بعد حوالي ألف قدم منه. لقد كان هيكلًا صغيرًا يحتلّ المكان لهدف مجهول، بجدران حجريّة ضخمة بلا نوافذ ما عدا بضعة فتحات محميّة بقضبان حديديّة قويّة، وقبّة كبيرة بدت ثقيلة على نحو غريب مقارنة ببقيّة مكوّنات المبنى، ويبدو أنّها كانت تضغط على الهيكل إلى الأسفل في التربة. وكان هناك عدد قليل من المنافذ البارزة من قاعدة القبّة على أشكال فضفاضة غير منتظمة تشبه قمع الطين المسكوب بشكل سيّئ؛ ولا يبدو أنّ تلك الأشكال تنتمي إلى عصر الصناعة أو معدّة لأيّ استخدام. كان في المبنى جوٌّ من الحقد الصامت يشبه الفطر السامّ المنتفخ؛ إذ فقد بدا في ظاهره على هيئة حديثة، ولكنّ خطوطه الدائريّة غير المحدّدة كانت قذرة، فهي

لا تكاد تبدو كبناية بدائيّة مكتشفة في قلب الأدغال، مخصّصة لبعض الطقوس السرّيّة الوحشيّة.

تأفّف الدكتور ستادلر بانزعاج، لقد ملّ تلك الأسرار. سرّي وسرّي للغاية. كانت الكلمات المختومة على الدعوة التي طالبته بالسفر إلى ولاية آيوا في إشعار لمدّة يومين ولهدف غير محدّد. وقد ظهر في المعهد شابّان، يطلقان على نفسيهما صفة عالمي فيزياء، وقع اختيارهما لمرافقته؛ وبقيت مكالماته لمكتب فيريس في واشنطن من دون ردٍّ. وقد أزعجته ثرثرة الشابّين اللذين كانا يتحدّثان -خلال الرحلة المضنية بالطائرة الحكوميّة، ثمّ الركوب المريح الهادئ في سيّارة حكوميّة- عن العلوم، وحالات الطوارئ، والتوازنات الاجتماعيّة والحاجة إلى السرّيّة، إلى درجة أنّه عرف منهما أقلّ ممّا كان يعرفه في البداية؛ لقد لاحظ وجود كلمتين فقط ظلّا يردّدانها في معرض ثرثرتهما، وقد بدتا أيضًا في نص الدعوة، كلمتان قد لا تحمد عقباهما، لأنّهما تنذران بمآل مجهول، هما التعويل على الولاء والتعاون.

لقد وضعه الشابّان على دكّة في الصفّ الأماميّ من المدرّج واختفيا، مثل عتادٍ قابل للطيّ بإحدى الآليّات، تاركين إيّاه لحضور الدكتور فيريس شخصيًّا على نحو مفاجئ. ويبدو أنّه الآن —وهو يراقب المشهد من حوله ويشاهد حركات الدكتور فيريس الغامضة والمتحمّسة وغير الرسميّة بشكل فضفاض في وسط مجموعة من رجال الصحافة والأخبار- يعاني من الارتباك المحيّر، والشعور بعدم الكفاءة والفوضوية، كما لو أنّه كان آلة سلسة تعمل لتنتج الدرجة الدقيقة نفسها من ذلك الانطباع المطلوب في تلك اللحظة الدقيقة بالذات.

ثمّ شعر بومضة ذعر مفاجئة، تشبه ومضة البرق، سمحت له بإدراك أنّه شعر برغبة يائسة في الهروب. لكنّه أوصد جميع الأبواب على عقله وأجبره على تحمّلها. كان يعلم أنّ في تلك المناسبة سرًّا أكثر قتامة ممّا تصوّره، وأكثر أهمّيّة، بل حتّى أكثر فتكا من كلّ ما قد يخفيه ذلك المبنى، وهو ما جعله يوافق على المجيء.

وقال في نفسه إنّه لن يضطرّ أبدا إلى معرفة دافعه الخاصّ؛ لكنّه فكّر في ذلك لا عن طريق الكلمات، بل عن طريق شعور التشنّج الخبيث الوجيز الذي يشبه التهيّج والشعور بالحموضة. وظلّت الكلمات عالقةً بذهنه، على النحو نفسه حين وافق على المجيء، مثل صيغة إحدى التعويذات التي قد يردّدها المرء ساعة الحاجة ولا يجب عليه أن ينظر إلى ما أبعد منها: ماذا يمكنك أن تفعل عندما ستضطرّ إلى التعامل مع الناس؟

ثمّ لاحظ أنّ المنصّة المخصّصة لأولئك الذين سمّاهم فيريس النخبةَ المثقّفة كانت أكبر من المنصّة المعدّة للمسؤولين الحكوميّين. وبسرعة شعر بقليل من المتعة إزاء الفكرة، لأنّه كان يجلس في الصفّ الأمامي، فاستدار ليلقي نظرة على الصفوف الأخرى خَلْفَه. وكان الإحساس الذي واجهه بمثابة الصدمة: ذلك التجمّع العشوائيّ الباهت والمبتذل الذي لم يكن يتصورّ أن يمثّل النخبة المثقّفة. لقد رأى رجالا عدوانيّين على نحوٍ دفاعيّ شرس ونساء يلبسن ملابس بلا ذوق، ورأى وجوها خبيثة وحاقدة ومريبة تحمل العلامة الوحيدة التي لا تتّفق مع حامل لواء الفكر: هي علامة عدم اليقين. ولم يتمكّن من العثور على أيّ وجه يعرفه، أو أيّ وجه مشهور، فلا أحد منهم كان جديرًا بمعرفته. وتساءل عن المعيار الذي اختير وفقه هؤلاء الأشخاص.

ثمّ لاحظ وجود شخص طويل ونحيف يجلس في الصفّ الثاني، كان رجلا مسنًّا طويل القامة، ذا وجه مرتخٍ. بدا هذا الرجل مألوفًا، على الرغم من أنّه لم يستطع تذكّر شيءٍ عنه إلّا مجرّد ذكرى غامضة، مثل الصورة التي قد يراها المرء في منشور تافه. فانحنى على امرأة وسألها وهو يشير إليه: هل يمكنك أن تذكري لي اسم ذلك السيّد؟

أجابته المرأة بهمسة من الاحترام الشديد:

-إنّه الدكتور سيمون بريتشيت!

فالتفت الدكتور ستادلر ونظر بعيدا، متمنّيا ألّا يراه أحد، وألّا يعلم أحد أنّه كان عضوًا في تلك المجموعة.

ثمّ رفع عينيه ولاحظ أنّ فيريس كان يقود جميع الصحفيّين نحوه. وشاهده وهو

يحيطه بذراعه في أسلوب مرشد سياحيّ، معلنًا عندما اقترب الجميع منه بما فيه الكفاية: ولكن لماذا تضيّعون وقتكم في ملاحقتي، حين يكون معنا مصدر الإنجاز الذي سنشاهده اليوم، إنّه الرجل الذي جعل كلّ ذلك ممكنًا. إنّه الدكتور روبرت ستادلر!

وبدا له لحظةً أنّه رأى نظرة متناقضة على وجوه الصحفيّين المُهَترئة الساخرة ، نظرة لم تكن تمامًا تُكِنُّ الاحترام، أو الرجاء أو الأمل، بل صدًى لتلك الأشياء كلّها، مثل انعكاس خافت للنظرة التي كانوا يحملونها زمن شبابهم كلّما سمعوا اسم الدكتور ستادلر. في تلك اللحظة شعر بالدافع الذي لم يشأ الاعتراف به: الدافع إلى إخبارهم بأنّه لا يعلم شيئًا عن ذلك الحدث المزمع إعلانه في ذلك اليوم، وبأنّ سلطته أقلّ من سلطتهم، وأنّه قد أُحضر إلى هنا مثل بيدقٍ زُجّ به في لعبة مبنيّة على الثقة... أو كسجينٍ تقريبًا.

وبدلًا من ذلك، سمع نفسه يجيب على جميع أسئلتهم بنبرة متعجرفة ومتعالية لرجل يمتلك كلّ أسرار السلطات العليا: نعم، معهد الدولة للعلوم فخور بسجلّه في مجال خدمة عامّة الناس... معهد الدولة للعلوم ليس أداة لأيّ مصالح خاصّة أو أيّ جشع شخصيّ، بل هو مخصّص لرفاه البشريّة وخير الإنسانيّة جمعاء... ومثل جهاز الإملاء، أخذ ينفث العموميّات المقرفة التي دأب على سماعها من الدكتور فيريس.

لكنّه لم يسمح لنفسه بمعرفة أنّ ما شعر به كان يثير كراهيته لذاته؛ فقد حدّد العاطفة، لكنّه لم يحدّد الغاية منها؛ واعتقد أنّ ما شعر به أثار حتّى كراهيته للناس من حوله؛ لأنّهم هم الذين أجبروه على هذا الأداء المخزي. وقال في نفسه: ماذا يمكنك أن تفعل حين تضطرّ إلى التعامل مع الناس؟

وكان الصحفيّون يدوّنون ملاحظات موجزة عن إجاباته، وعلى وجوههم يبدو مظهر يشبه مظهر الشخصيّات الآليّة وهم يؤدّون روتين التظاهر بأنّهم كانوا يسمعون أخبارًا يردّدها إنسان آليّ آخر في مقولات فارغة.

سأله أحد الصحفيّين، وهو يشير إلى المبنى الواقع على الربوة:

-دكتور ستادلر، هل صحيح أنّك تعتبر المشروع إكس أعظمَ إنجاز لمعهد الدولة للعلوم؟

وبعد لحظة من الصمت، ردّ الدكتور ستادلر: المشروع... إكس..؟

كان يعرف أنّ هناك خطأ مشؤومًا في نبرة صوته، لأنّه رأى رؤوس الصحفيّين ترتفع، مثلما يحدث أثناء سماع صوت جرس إنذارٍ؛ ولاحظ أنّهم ينتظرونه، وأنّ الأقلام الرصاص الخاصّة بهم كانت تتأرجح.

وبينما شعر بعضلات وجهه تتحايل لاختلاق ابتسامة ولو لحظة واحدة، شعر برعب خارق تقريبًا بلا شكلٍ، ثمّ قال بهدوء وبنبرة متآمر غامضة: المشروع إكس؟ حسنًا، أيّها السادة، إنّ القيمة والدافع في أيّ إنجاز من إنجازات معهد الدولة للعلوم أمران لا يقبلان الشكّ لأنّها مؤسّسة غير ربحيّة، هل أنا بحاجة إلى قول المزيد؟

ثم هزّ رأسه ولاحظ أنّ الدكتور فيريس كان يقف على أطراف المجموعة خلال المقابلة كلّها. وتساءل عمّا إذا كان يتخيّل أنّ النظرة التي كانت بادية على وجه الدكتور فيريس هي الآن أقلّ توتّرًا، وأكثر وقاحة.

وبعد ذلك قدمت سيّارتان متألّقتان كانتا تسيران بأقصى سرعة في موقف السيّارات وتوقّفتا فأصدرت فراملهما صريرًا قويًّا. فهجره الصحفيّون وهو لا يزال في منتصف الإدلاء بجملة وتحوّلوا للقاء المجموعة التي كانت تنزل من السيّارتين.

فالتفت الدكتور ستادلر إلى فيريس وسأله بنبرة حادّة: ما هو المشروع إكس؟

أجابه الدكتور فيريس وهو يبتسم:

-إنّه مشروع غير ربحيّ.

ثمّ ذهب هو أيضًا للقاء القادمين الجدد.

وعلم الدكتور ستادلر من همسات الاحترام الصادرة عن الحشد أنّ الرجل الصغير الذي كان يرتدي بدلة الكتّان المرتخية في مظهر محتال، ويسير بخفّة وسط المجموعة

الجديدة، هو السيّد طومسون رئيس الحكومة. وكان السيّد طومسون يبتسم، وأحيانًا يردّ على الصحفيّين بعبوس، وأحيانًا أخرى كان يزمجر في وجوهه. أمّا الدكتور فيريس فكان يمرّ خلال الحشد متجنّبًا إيّاهم بكياسة تشبه رشاقة قطٍّ يفرك وبره على السيقان المختلفة.

ثمّ اقتربت المجموعة من الدكتور ستادلر مجدّدًا فلاحظ أنّ فيريس كان يوجّههم باتّجاهه. قال الدكتور فيريس بصوت رنّان، عندما اقتربوا منه: السيّد طومسون، هل لي أن أقدّم لكم الدكتور روبرت ستادلر؟

ولاحظ الدكتور ستادلر أنّ عينَي ذلك المخادع الصغير كانتا تحدّقان فيه جزءًا من الثانية، وقد حملتا لمسة من الرهبة الخرافيّة، كما لو أنّهما تراقبان ظاهرة ملغزة قادمة من عالم صوفيّ وستظلّ مبهمة إلى الأبد بالنسبة إلى السيّد طومسون، وكانت بهما أيضًا نظرة ثاقبة بدهاء حسابات ناشط سياسيّ واثق من أن لا شيء في مأمن من معاييره الخاصّة، وبلمحة تشبه النظير البصريّ للكلمات وكأنّهما تسألان: ما هي وجهة نظرك؟

قال السيّد طومسون بريسلي، وهو يمدّ يده ويصافح الدكتور ستادلر:

-إنّه لشرف لي يا دكتور، أنا متأكّد من أنّه شرف كبير أن أراك هنا.

ثمّ علم الدكتور ستادلر أنّ الرجل الطويل ذا المنكبين المحدّبين وذا قصّة الشعر التي تشبه حلاقة الطاقم المرافق للرئيس هو السيّد ويسلي ماوتش. لكنّه لم يعرف أسماء الآخرين الذين صافحهم حين كانت المجموعة تسير نحو منصّة المسؤولين. لقد تُرك بشعور ملتهب أمام الاكتشاف الذي لم يجرؤ سابقًا على مواجهته، بل شعر بسعادة شديدة إزاء اكتشاف إيماءة الموافقة من ذلك المحتال الصغير.

ثمّ برزت فرقة من الشباب الحاضرين، الذين بدَوا مثل بعض مرشدي مسارح يرافقون المشاهدين ليوصلوهم إلى مقاعدهم أثناء عرض فيلم، وظهروا من مكان مّا يدفعون عربات يدويّة بها أشياء تلمع كانوا سيوزّعونها على من حضر ذلك الاجتماع، وكانت تلك الأشياء مناظير ميدانيّة. وبعد ذلك أخذ الدكتور فيريس مكانه أمام

مضخّم للصوت معدّ لأنظمة الخطب العامّة بجانب منصّة المسؤولين. وإثر إشارة من ويسلي ماوتش، صدح صوته فجأة في فضاء تلك المروج، ذلك الصوت المتزلّف الذي حوّلته التقنية فأصبح مهيبًا على نحوٍ مخادع بعد أن ضُخّم ببراعة مخترع الميكروفون ليبلغ ما لرجل عملاق من صلابة وقوّة:

- أيّها السيدات والسادة ...!

فخيّم الصمت على الحشد، واشرأبّت الأعناق، وهي تنظر إلى الجسد الرشيق للدكتور فلويد فيريس.

- أيّها السيدات والسادة، لقد تمّ اختياركم -تقديرًا لخدماتكم الجليلة المتميّزة لعامّة الناس وولائكم الاجتماعيّ- لتشاهدوا كشف الستار عن إنجاز علميّ ذي أهمّيّة بالغة، وبإمكانيّات من صنع هذه الحقبة، وحتّى هذه اللحظة يعرفه فقط عدد قليل جدًّا من الناس تحت اسم مشروع إكس.

فركّز الدكتور ستادلر نظّارته الميدانيّة على الشيء الوحيد الذي كان يُرى فوق بقعة المزرعة البعيدة.

وكلّ ما رآه كان خرابًا لمزرعة مهجورة تُرِكَت خالية منذ سنين. وقد أظهر ضوء السماء أضلاع السقف العارية، وقطعًا من الزجاج المسنّن وقد أطّرت ظلام النوافذ الفارغة. ثمّ شاهد إسطبلًا مترهّلًا، وبرجًا صدئا لعجلة ماء، وبقايا جرّار مقلوب ظهرت دوّاسته في الفضاء.

وكان الدكتور فيريس يتحدّث عن فرسان العلم الصليبيّين وعن سنوات التفاني غير الأنانيّ، والكدح المستمرّ والبحث المثابر الذي كرّس في المشروع إكس.

واعتقد الدكتور ستادلر، وهو يدرس أنقاض تلك المزرعة، أنّ من الغريب وجود قطيع من الماعز وسط ذلك الخراب. كان هناك ستّة أو سبعة منها، بعضها يغرق في سبات، وبعضها الآخر مستعدّ ليجترّ بوهنٍ أيّ عشب يمكن أن يجده بين الأعشاب التي يبّستها الشمس.

وكان الدكتور فيريس يقول: لقد كُرّس المشروع إكس لإجراء بعض البحوث الخاصّة في مجال الصوت. فعلم الصوت له جوانب مذهلة، نادرًا ما شكّك فيها عامّة الناس...

ثمّ لاحظ الدكتور ستادلر وجودَ مبنى على بعد حوالي خمسين متر من تلك المزرعة، وكان من الواضح أنّ بناءه جديدٌ، لكنّ الغرض منه لم يكن جليًّا، وبدا أنّه يشبه بعض القناطر بدعامات فولاذيّة، مرتفعة في تلك المساحة الخالية، لكنّها لا تدعم أيّ شيء، ولا تؤدّي إلى أيّ مكان.

ثمّ أخذ الدكتور فيريس يتحدّث حينها عن طبيعة الاهتزازات الصوتيّة. أمّا الدكتور ستادلر فصوّب نظّاراته الميدانيّة لرؤية الأفق الذي كان خلف المزرعة، لكنّه لم يجد أيّ شيء آخر يمكن رؤيته على مدى عشرات الأميال. ثمّ تنبّه فجأةً إلى حركة ماعزٍ منهكة أعادت عينيه إلى النظر في القطيع. ولاحظ أنّ المعزاة كانت مقيّدة بالسلاسل إلى أوتاد شدّ وثاقها على مسافات متساوية في الأرض.

قال الدكتور فيريس:

-...لقد تمّ اكتُشِف وجود تردّدات معيّنة ذات اهتزاز صوتيّ لا يمكن لأيّ بنية، عضويّة أوغير عضويّة، أن تصمد أمامه...

ثمّ لاحظ الدكتور ستادلر وجود بقعة فضّيّة تثب فوق الأعشاب ضمن القطيع، لقد كان جديًا صغيرًا غير مقيّد، ظلّ يقفز ويمرح حول أمّه.

قال الدكتور فيريس وهو يشير إلى المبنى الذي يقع على الربوة:

-... يقع التحكّم في صدى الصوت عبر تلك اللوحة الموجودة داخل ذلك المختبر العملاق المبنيّ تحت الأرض، تلك اللوحة معروفة عندنا وجدانيًّا تحت اسم (إكسيلوفون) لأنّ المرء يجب أن يكون حذرا جدًّا أثناء عزف المفاتيح الصحيحة، أو بالأحرى سحب الأذرع الصحيحة. ومن أجل هذه المناسبة الخاصّة شُيِّد إكسيلوفون آخر إضافيّ، متّصل بالإكسيلوفون الداخليّ هنا.

وأشار إلى لوحة المفاتيح أمام منصّة المسؤولين، ثمّ أضاف: وهكذا يمكنكم مشاهدة العمليّة بأكملها ورؤية بساطة الإجراء بأكمله...

لقد وجد الدكتور ستادلر في مشاهدة الجدي متعة مهدّئة ومطمئنة. إذ بدا ذلك المخلوق الصغير مثل كرة من الفراء الأبيض بأرجل طويلة رشيقة، واستمرّ في الاندفاع بطريقة متعمّدة، وبارتباك عنيف على نحو مرح، وظلّت أرجله الأربع تحمله بقسوة واستقامة. ويبدو أنّه كان يقفز ويلاعب أشعّة الشمس في هواء الصيف، أمام بهجة اكتشاف وجوده الخاصّ.

... صدى الصوت غير مرئيّ، وغير مسموع ويمكن التحكّم فيه بالكامل في ما يتعلّق بهدفه واتّجاهه ومداه. وأوّل اختبار علنيّ له، وهو ما أنتم على وشك مشاهدته، تمّ إعداده لتغطية قطاع صغير، على بعد ميلين فقط، وفي أمان تامّ. ومعدّات التوليد تلك الموضوعة في مختبرنا قادرة على إنتاج صدى يغطّي -من خلال المنافذ التي ترونها تحت تلك القبّة- كاملَ الريف الذي يقع داخل دائرة شعاعها بطول مائة ميل، دائرة بمحيط يمتدّ من شاطئ نهر المسيسيبي، وما يقرب جسر شركة تاجارت العابرة للقارّات، إلى مدينتي دي موان وفورت دودج بولاية أيوا، إلى مدن من قبيل أوستن بولاية مينيسوتا، وودمان بولاية ويسكونسن، وروكايلند بولاية إلينوي، وهذه مجرّد بداية متواضعة. فنحن نمتلك المعرفة التقنية لبناء مولّدات تستطيع أن تغطي من مائتين إلى ثلاثمائة ميل، ولكنّ ذلك يعود إلى حقيقة أنّنا لم نتمكّن من الحصول على كمّيّة كافية من معدن يكون ذا درجة مقاومة عالية للحرارة مثل معدن ريردن، ولم يتمّ ذلك في الوقت المحدّد، وكان علينا أن نكون راضين على جاهزيّة معدّاتنا ولوحة التحكّم فيها. وتكريما لمديرنا التنفيذيّ العظيم، السيّد طومسون الذي منح معهد الدولة للعلوم، تحت إشراف إدارته الحكيمة، الأموالَ التي من دونها لم يكن المشروع إكس ممكنًا، وسنسمّي هذا الاختراع العظيم من الآن فصاعدا باسم منسّق طومسون!

فصفّق الجمهور بينما ظلّ السيّد طومسون جالسًا من دون حراك بوجه متصلّب على نحوٍ واعٍ. أمّا الدكتور ستادلر فشعر باليقين من أنّ ذلك المحتال الصغير لا علاقة له

بالمشروع مثله مثل أيّ واحد من ضيوف المسرح، وأنّه لا يملك لا العقل ولا المبادرة ولا حتّى ما يكفي من الخبث ليبتكر فخًّا جديد لسنجاب ويسوّقه للعالم، وأنّه هو أيضا مجرّد بيدق في آلة صامتة ليس لها مركز أو زعيم أو اتّجاه، آلة لم يتمّ تشغيلها من قبل أيّ كائن سواء أكان فيريس أم ويسلي ماوتش أم أيّ واحدٍ من تلك المخلوقات المتحجّرة في المدرّجات أم أيّ مخلوق من تلك التي كانت موجودة خلف الكواليس، آلة غير شخصيّة وغير عاقلة ولا يمكن تجسيمها، ولم يكن أيّ واحد منهم قائدها بل كانوا كلّهم بيادقها، كلّ حسب درجات الشرّ فيه. فأمسك الدكتور ستادلر بحافّة المقعد، وشعر برغبة في القفز والهروب.

... أما بخصوص الهدف من صدى الصوت ووظيفته، فلن أخبركم بأيّ شيء عنه. بل سأدع المشروع يتحدّث عن نفسه وسترونه الآن وهو يعمل. فعندما يسحب الدكتور بلودجيت أذرع الإكسيلوفون، سأطلب منكم أن تركّزوا أنظاركم على الهدف، وسيكون في تلك المزرعة على بعد ميلين. ولن تروا أيّ شيء آخر، فالصدى نفسه غير مرئيّ. منذ زمن طويلٍ، سلّم جميع المفكّرين التقدّميّين بأنّ الكيانات غير موجودة، وأنّ ما يوجد هو الأفعال وحدَها، وأنّه لا وجود لأيّ قيمٍ، وأنّ ما يوجد هو النتائج فحسب. الآن، أيّها السيّدات والسادة، سترون فعلَ منسّق طومسون ونتائجَه.

ثمّ انحنى الدكتور فيريس، ومشى ببطء بعيدًا عن الميكروفون والتحق بمقعده بجانب الدكتور ستادلر.

وحلّ محلَّه شابّ بَدينٌ وقف بجانب لوحة المفاتيح ورفع عينَيه بشكل متوقّع نحو السيّد طومسون. فبدا السيّد طومسون متحيّرًا جدًّا لحظةً كما لو أنّ شيئا مّا قد فاتَ عقله حتّى انحنى عليه ويسلي ماوتش وهمس بكلمة في أذنه. فقال السيّد طومسون بصوت عالٍ: اضغط على زرّ التشغيل!

لم يستطع الدكتور ستادلر تحمّل مشاهدة حركة يدِ الدكتور بلودجيت الرشيقة المتموّجة والمخنّثة وهي تسحب الرافعة الأولى من لوحة المفاتيح، ثمّ الثانية. فرفع

نظّارته الميدانيّة ونظر إلى بيت المزرعة.

وفي اللحظة التي ركّز فيها عدسته، كانت المعزاة تسحب سلسلتها، لتصل بشكل هادئ إلى نبات شوكيّ طويل جافٍّ. وفي اللحظة الموالية، انقلبت المعزاة في الهواء، وامتدّت أرجلها إلى أعلى وأخذت تهتزّ، ثمّ سقطت في مجموعة رماديّة متكوّنة من سبع عنزات متشنّجة. وفي الوقت الذي صدّق فيه الدكتور ستادلر ما رآه، كانت المجموعة بلا حراك ما عدا سيقانها المتوحّشة وهي تخرج عن القطيع متصلّبةً كالقضيب، وترتجف مثل الرياح القويّة. وقد تحطّم البيت الريفيّ وتحوّل إلى شرائط من الألواح الخشبيّة ثمّ سقط وانهار، ثمّ تلته مدفئة مبنيّة بالطوب أُنشِئت فوقها مدخنةٌ. واختفى الجرّار وأصبح مثل الفطيرة. وتصدّع برج الماء وارتطمت أشلاؤه بالأرض بينما ظلّت عجلته ترسم منحنى طويلا في الهواء، كما لو أنّها تفعل ذلك بمحض إرادتها. أمّا الروافد والعوارض الفولاذيّة للدعامة الجديدة الصلبة فانهارت مثل تداعي هيكلٍ من أعواد الثقاب عندما يتنفّس إنسانٌ الصعداء. لقد كان الانهيار سريعًا وبسيطا جدًّا، إلى درجة أنّ الدكتور ستادلر لم يشعر بأيّ رعبٍ، بل لم يشعر بأيّ شيء، فذلك لم يكن الواقعَ الذي يعرفه، بل عالمًا يمثّل كابوسًا لطفل، إذ يمكن للأشياء المادّيّة أن تنحلّ فيه بمفعول رغبة واحدة خبيثة.

ثمّ نزع الدكتور ستادلر نظّاراته الميدانيّة عن عينَيه ونظر إلى المكان فلم يجد سوى مروجٍ خالية، إذ لم تكن هناك أيّ مزرعة، ولم يتبقّ أيّ شيء في الأفق سوى شريط مظلم بدا مثل ظلّ سحابة.

وصدرت صرخة عالية وحادّة لامرأة تجلس بالصفوف الخلفيّة، أصابها الإغماء. وتساءل عن سبب صراخها فترةً طويلةً بعد وقوع الحادث، ثمّ أدرك أنّ الوقت الذي انقضى منذ لمسة الرافعة الأولى لم يكن سوى دقيقة كاملة.

ثمّ وضع نظّارته الميدانيّة مرّة أخرى، تقريبًا كما لو أنّه يأمل فجأةً في أن يكون ظلّ السحابة هو كلّ ما سيراه. لكنّ الأشياء المادّيّة كانت لا تزال هناك، عبارة عن جبل من

النفايات. وجال ببصره فوق الحطام. وفي لحظة، أدرك أنّه كان يبحث عن الجدي الصغير. لكنّه لم يتمكّن من العثور عليه، إذ لم يكن هناك أيّ شيء سوى كومة من الفراء الرماديّ.

عندما أنزل النظّارة واستدار، تفطّن إلى أنّ الدكتور فيريس كان ينظر إليه. فشعر باليقين من أنّ الهدفَ لم يكن خلال الاختبار كلّه محلَّ اهتمام فيريس، بل كان مهتمًّا برؤية وجهه، كما لو أنّه يراقب مدى تحمّل الدكتور روبرت ستادلر لتأثير صدى الصوت.

هذا كلّ ما في الأمر.

هكذا أعلن الدكتور البدين لودجيت عبر مضخّم الصوت، قبل أن يضيف: لم يتبقّ أيّ مسمارٍ أو برشام في إطار الهياكل ولا أيّ أوعية دمويّة في أجساد الحيوانات.

وعمّت الجَلَبَة الحشدَ فأصدروا حركات متشنّجة وهمسات عالية النبرة. كان بعضهم ينظر إلى بعضٍ، فينهضون أحيانًا من وقع شكوكهم ثمّ يجلسون ثانية مطالبين بلا هوادة بأيّ شيء ما عدا تلك الوقفة. كان هناك صوت لهستيريا مغمورة في همساتهم ويبدو أنّهم كانوا ينتظرون أن يتمّ إخبارهم بما يجب التفكير فيه.

ثمّ شاهد الدكتور ستادلر المرأةَ التي أُغْمِي عليها في أحد الصفوف الخلفيّة وهي تُحمَل خارج المدرّجات برأس منحنٍ ومنديل معلّق بفمها: لقد أصاب المرض معدتها.

والتفت، فلاحظ أنّ الدكتور فيريس لا يزال يراقبه. وبعد ذلك تراجع الدكتور ستادلر إلى الخلف قليلًا، بوجه قاسٍ ومزدرٍ، وجهِ أعظم عَالِمٍ في البلاد، فسأله: من اخترع ذلك الشيء المروّع؟

- أنا من اخترعه.

فنظر الدكتور ستادلر إليه بلا حراك. فقال الدكتور فيريس بسرور:

- إنّها مجرّد أداة عمليّة بناءً على اكتشافاتك النظريّة. استلهمناها من بحثك القيّم في طبيعة الأشعّة الكونيّة وانتقال الطاقة مكانيًّا.

- ومن عمل على المشروع؟

- عدد قليل من الأطراف. حقًّا، لم نواجه إلّا صعوبات صغيرة جدًّا. فلا أحد من تلك الأطراف استطاع البدء بتصوّر الخطوة الأولى نحو مفهوم نقل الطاقة الخاصّة بك. ولكن باستثناء ذلك فإنّ بقيّة الأعمال كانت سهلة.

- وما الغرض العمليّ من مثل هذا الاختراع؟ وما هي 'الإمكانات المتاحة لصناعة عصر جديد' من خلال هذا المشروع؟

- أوه، ولكن ألا ترى أنّه أداة لا تقدَّر بثمن للأمن العامّ. إذ لن يتجرّأ أيّ عدوٍّ على مهاجمة مالك هذا السلاح وسيحرّر البلد من الخوف من أيّ عدوان وسيسمح له بالتخطيط لمستقبله في أمان تامّ.

كانت في صوته نبرةٌ لا مبالاة غريبة، ونبرة ارتجال خرقاء، كما لو أنّه لم يتوقّع أو يحاول تصديق ما وقع. ثمّ أضاف:

- سيقلّص هذا السلاح من حدّة التقلّبات الاجتماعيّة. وسيعزّز السلام والاستقرار، ويضمن الوئام ويقضي على خطر الحرب.

- أيّ حرب؟ وأيّ عدوان؟ والعالم يشيع فيه الجوع، وكلّ الدول الأخرى تعيش على معونات هذا البلد، فأين خطر الحرب؟ هل تتوقّع من هؤلاء المتوحّشين المزَّقين أن يهاجموك؟

فنظر الدكتور فيريس مباشرة في عينَي الدكتور ستادلر وأجابه: قد يشكّل أعداء الداخل خطرًا كبيرًا على الناس أكثر من أعداء الخارج، بل ربّما يكونون أخطر منهم.

وبدا صوته هذه المرّة كما لو أنّه توقّع من ستادلر أن يستوعب كلامه، فتابع حديثه قائلًا: إنّ الأنظمة الاجتماعيّة محفوفة بالمخاطر. ولكن فكّر يا دكتور في ما يمكن أن يتحقّق من استقرار من خلال بعض المنشآت العلميّة في نقاط استراتيجيّة. إن هذا الأمر سيضمن حالة من السلام الدائم، ألا تعتقد ذلك؟

لم يتحرّك الدكتور ستادلر ولم يجبه، بينما كانت الثواني تمرّ ووجهه لا يزال يحمل تعبيرًا ثابتًا لم يتغيّر، فبدا وكأنّه مشلول. كانت عيناه تحدّقان برجلٍ رأى فيه فجأةً ما كان يعرفه منذ البداية، وأمضى سنوات يحاول ألّا يراه، فدخل معه الآن في منافسة بين رؤيته وقوّة إنكاره لوجوده، وفي الأخير ردّ عليه بغضب: أنا لا أعرف ما أنت بصدد الحديث عنه!

فابتسم الدكتور فيريس وقال بهدوءٍ: لم يموّل المشروع إكس من قبل أيّ رجل أعمال خاصّ أو أيّ صناعي جشع. إذ لم يكن أيّ واحد منهم ليتحمّل تكاليف ذلك المشروع. إنّه استثمار هائل، من دون أيّ فرصة لتحقيق أيّ مكسب مادّيّ. فما الفائدة التي يمكن أن يتوقّعها هؤلاء الرجال منه؟ فلا أرباح ستجنى من الآن فصاعدًا من تلك المزرعة.

وأشار بيده إلى الشريط المظلم على بعد المسافة، ثمّ أَضاف: لكن كما لاحظت جيّدًا، فإنّ المشروع إكس كان لا بدّ له أن يكون مشروعًا غير ربحيّ. وخلافا لما قد تواجهه أيّ شركة تجاريّة، فإنّ معهد الدولة للعلوم لم يواجه أيّ مشكلة في الحصول على تمويلات للمشروع. فأنت لم تسمع بأنّ المعهد عانى من أيّ صعوبات ماليّة في العامين الماضيين، أليس كذلك؟ لقد جعلناهم يصوّتون على الأموال اللازمة للنهوض بالعلم. فهم دائما يطالبوننا باختراع الأدوات مقابل تمويلاتهم كما كنت تقول. حسنًا، هذه أداةٌ سيقدّرها بعض الناس ممّن هم في السلطة. لقد أجبروا الآخرين على التصويت لدعمه، ولم يكن الأمر صعبًا في الواقع. فالكثير من هؤلاء شعروا بالأمان أثناء التصويت لتمويل المشروع الذي أُزْمِعَ على أن يكون سرّيًا. لقد كانوا متأكّدين من أنّه مشروع مهمّ، مادام تورّطهم غير مهمّ بما يكفي وغير علنيّ. وكان هناك بالطبع بعض المشكّكين، لكنّهم استسلموا عندما تمّ تذكيرهم بأنّ رئيس معهد الدولة للعلوم هو الدكتور روبرت ستادلر الذي لا يمتدّ الشكّ إلى حكمه ونزاهته.

كان الدكتور ستادلر ينظر إلى أظافره.ثمّ أُطلقت صيحة مفاجئة عبر المايكروفون استرعت انتباه الحشد عل نحوٍ فوريّ؛ وبدا أنّ الناس يستطيعون ضبطَ أنفسهم بعيدا عن الذعر ولو مدّة ثوانٍ. فتكلّم أحد المذيعين، بصوتٍ يشبه المدفع الرشّاش، وهو ينفث الابتسامات وينثرها في كلّ الاتّجاهات، ليعلن بفرح أنّهم سيستمعون عبر الراديو

إلى نقل خبر اكتشاف عظيم للأمّة كلّها. ثمّ أخذ ينظر إلى ساعته وإلى نصّه المعدّ في جذاذة وينتظر إشارة من يد ويسلي ماوتش، ثمّ صرخ في المايكروفون الذي كان يشبه رأس أفعى متألّق، ليصل أثيره إلى غرف المعيشة، والمكاتب، وأماكن الدراسة، ورياض الأطفال وكلّ أصقاع البلاد: أيّها السيّدات والسادة! نعلن عن انطلاق المشروع إكس!

فانحنى الدكتور فيريس على الدكتور ستادلر -خلال تقطّعات صوت المذيع العشوائيّة وهو يقرأ وصفًا للاختراع الجديد- ثمّ قال:

- من المهمّ جدًّا ألّا يوجد أيّ انتقاد للمشروع في البلاد خلال هذا الظرف المحفوف بالمخاطر.. يجب ألّا يوجد أيّ انتقاد لأيّ شيء في أيّ وقت.

وكان المذيع يصرخ عبر مضخّم الصوت: والآن سيخبركم زعماء الأمّة السياسيّة والثقافيّة والفكريّة والأخلاقيّة الذين شهدوا هذا الحدث العظيم، نيابةً عنكم، بآرائهم في هذا المشروع.

وكان السيّد طومسون هو أوّل من نهض من الدرج الخشبيّ، وتوجّه إلى منصّة المايكروفون وشقّ طريقه ليلقي خطابًا موجَزًا، مشيدًا بعصر جديد، معلنًا -بنبرة حربيّة متحدّية لأعداء مجهولين- أنّ العلم ينتمي إلى الشعب وأنّ لكلّ إنسان على وجه البسيطة الحقَّ في حصّة من المزايا الناجمة عن التقدّم التكنولوجيّ.

وبعد ذلك اعتلى ويسلي ماوتش المنصّة، فتكلّم عن التخطيط الاجتماعيّ وضرورة التحشيد الجماعيّ لدعم المخطّطين. وتحدّث عن ضرورة الانضباط والوحدة والتقشّف والواجب الوطنيّ الذي يتجلّى في تحمّل المشاقّ المؤقّتة: لقد جنّدنا أفضل العقول في البلاد للعمل من أجل رفاهيتكم. وهذا الاختراع العظيم هو نتاج عبقريّة رجل لا نشكّ في إخلاصه وتفانيه من أجل خدمة القضايا الإنسانيّة العادلة، رجل يشهد له الجميع بأنّه أعظم عقل في هذا القرن. إنّه الدكتور روبرت ستادلر!

شهق الدكتور ستادلر ملتفتًا صوب فيريس:

- ماذا؟

واجهه الدكتور فيريس بنظرة كياسة وصبر. وهمس الدكتور ستادلر في غضب: هو لم يطلب حتّى إذني لقول ذلك!

فأشرع الدكتور فيريس يديه في بادرة من العجز واللوم: أترى الآن، يا دكتور ستادلر، كم هو مؤسف أن تسمح لنفسك بالانزعاج من المسائل السياسيّة، التي كنت تعتبرها دائما غير جديرة باهتمامك ومعرفتك. كما ترى فإنّ وظيفة السيّد ماوتش لا تتمثّل في طلب الإذن.

ثمّ صعد الدكتور سايمون بريتشيت إلى المنصّة، كان يتحرّك بتراخٍ في فضاء منصّة المتكلّمين ويلتفّ ويدور حول مضخّم الصوت، ويتحدّث بنبرة مملّة ومحتقرة عن قصّة بلا مغزى أو طعم. كان يعلن أنّ الاختراع الجديد يمثّل أداة للرعاية الاجتماعيّة التي ستضمن الازدهار العامّ، وأنّ أيّ شخص سيشكّك في تلك الحقيقة البديهيّة هو في الواقع عدوّ للمجتمع، وأنّه يجب التعامل معه وفقًا لذلك: هذا الاختراع، هو من إنتاج الدكتور الجليل روبرت ستادلر، عاشق الحرّية البارز...

ثمّ فتح الدكتور فيريس حقيبةً، وأخرج منها بعض صفحات من نسخة مطبوعة بعناية والتفت صوب الدكتور ستادلر، وقال:

- ستكون أنت الشخصيّة التي ستصعد في ذروة البثّ، وستكون آخر من يخطب في نهاية الساعة.

ثمّ مدّ إليه تلك الصفحات وأضاف: وهذا هو الخطاب الذي ستلقيه.

استلم منه الدكتور ستادلر تلك الصفحات، لكنّه حملها بين طرفي إصبعين مستقيمين، مثلما قد يفعل المرء أثناء حمل قصاصة من ورق النفايات التي سيلقي بها في سلّة المهملات، وقال:

- لم أطلب منك أن تكتب بالنيابة عنّي.

ردّ عليه الدكتور فيريس:

- لم أكن أريد أن أهدر وقتك الثمين في كتابة الخطابات الإذاعيّة، وكنت متأكّدًا من أنّك ستقدّر هذا الفعل.

أزعجته إجابة الدكتور ستادلر: إذ لم يختر الإجابة أو إلقاء نظرة سريعة على المخطوطة.

وكان هناك متحدّث صغير يزمجر على المنصّة، في لهجة تشبه إحدى مشاجرات الشوارع: إنّ عدم الإيمان هو الشيء الوحيد الذي يجب أن نخشاه! فإذا كان لدينا إيمان في خطط قادتنا، فلمَ لا ندع الخطط تعمل وتنجح ليعمّ الازدهار والرفاه والوفرة. إنّهم الأشخاص الذين يشكّكون ويحطّمون معنويّاتنا، إنّهم هم من يبقوننا في نقص وبؤس. لكنّنا لن ندعهم يفعلون المزيد من ذلك، فنحن هنا لحماية الناس، وإذا قدم أيّ واحد من أولئك الأذكياء المشكّكين، فصدّقوا أنّنا سنتدبّر أمرهم.

قال الدكتور فيريس بصوت ناعم:

-سيكون من المؤسف إثارة استياء شعبيّ ضدّ معهد الدولة للعلوم في وقت عصيب مثل هذا الوقت. إذ يوجد قدرٌ كبير من عدم الرضا والاضطراب في البلاد، وإذا كان على الناس أن يسيئوا فهم طبيعة الاختراع الجديد فإنّهم سيلقون جام غضبهم على العلماء.

ثمّ صعدت امرأة طويلة إلى المنصّة وتنهّدت في مضخّم الصوت، وقالت:

- السلام عليكم، يمثّل هذا الاختراع أداة جديدة عظيمة لإحلال السلام. سيحمينا من المخطّطات العدوانيّة للأعداء الأنانيّين، وسيسمح لنا بالتنفّس بحرّيّة، وتعلّم محبّة إخواننا البشر.

كان لها وجه ذو نتوءات عظمية وفم متكّدر من كثرة حضور حفلات الاستقبال، وكانت ترتدي ثوبًا أزرق فاتحَ اللون، يوحي بملابس حفلة موسيقيّة لعازف قيثارة. ثمّ أضافت: هذه معجزة كانت بالأمس القريب شبه مستحيلة. إنّه حلم العصور، والمواءمة النهائيّة بين العلم والحبّ!

ثمّ نظر الدكتور ستادلر إلى الوجوه التي تقبع في المدرّجات. كانوا يجلسون بهدوء وينصتون في خشوع، لكنّ أعينهم تشي بخوف عميق. كانوا يعلمون، مثلما يعلم هو أيضًا، أنّهم هدف للأقماع البارزة بلا شكل من قبّة المبنى، والتي تشبه الفطر، وتساءل عن الطريقة التي كانوا يخمدون وفقها عقولهم ويهربون من تلك المعرفة؛ فهو يعلم أنّ الكلمات التي هم حريصون على تقبّلها والإيمان بها كانت مثل الأغلال التي تشدّ وثاقهم ويحملونها مثل الماعز، بأمان في نطاق تلك الأقماع. كانوا حريصين على الإيمان بها؛ ورأى ذلك في ضيق خطوط شفاههم، كما لاحظ في بعض الأحيان نظرات الشكّ التي كانوا يلقونها على جيرانهم، كما لو أنّ الرعب الذي يتهدّدهم لم يكن صدى صوت ذلك المشروع لكنّه مرتبط بالبشر الذين سيجعلونهم يعترفون به على أنّه الرعب. وكانت أعينهم تزيغ، لكنّها تحمل بقايا نظرة بها جرح يعلن نداء طلب للمساعدة.

قال الدكتور فيريس بهدوء:

-لماذا تعتقد أنّهم يفكّرون؟ فالعقل هو سلاح العلماء الوحيد، ولا يملك أيّ سلطة على البشر، أليس كذلك؟ وفي زمن مثل زمننا، وفي ظرف تنهار فيه كلّ البلاد، وأمام دهماء يقودها اليأس الأعمى إلى حافّة الإضرابات وأعمال الشغب والعنف، يجب الحفاظ على النظام بأيّ وسيلة متاحة. فماذا يمكننا أن نفعل عندما نتعامل مع الناس؟

لكنّ الدكتور ستادلر لم يجبه.

وكانت هناك امرأة بدينة، ثقيلة الظلّ، ترتدي حمّالة صدر غير ملائمة تحت ثوب غامق ملّطخ بالعرق، تقول عبر المايكروفون إنّ الاختراع الجديد ينبغي أن يستقبل بامتنانٍ خاصّ من أمّهات هذه البلاد.

فالتفت الدكتور ستادلر وأخذ ينظر بعيدًا. ولم يستطع فيريس، وهو يراقب ستادلر، ملاحظةَ أيّ شيء سوى أنفة جبهته المرتفعة والشدّة العميقة في زاوية فمه.

ثمّ التفت روبرت ستادلر فجأةً، من دون سياق أو تحذير، لمواجهة فيريس. كان الأمر أشبه بتدفّق مفاجئ لدم ينزف من جرح قد اندمل تقريبًا: وكان وجه ستادلر مكشوفًا،

بألم، ورعب، وصفاء، كما لو أنّه هو وفيريس كانا بشرًا في تلك اللحظة، بينما اشتكى هو من يأس مستراب قائلًا:

- يا فيريس، نحن في قرن متحضّر... نحن في قرن متحضّر!

ردّ عليه فيريس بعد لحظة:

-أنا لا أعرف ما أنت بصدد الحديث عنه!

فخفض الدكتور ستادلر عينيه إلى أسفل. وعندما تكلّم فيريس مجدّدًا، كانت نبرة صوته حادّةً، ولم يستطع ستادلر التعرّف إليها ما عدا أنّها لا تنتمي إلى أيّ نقاش متحضّر:

- سيكون من المؤسف أن يحدث أيّ شيء يهدّد معهدَ الدولة للعلوم. وسيكون من المؤسف جدًّا أن يغلق المعهد، أو إذا أُجبر أيّ منّا على تركه. فإلى أيّ مكانٍ سنذهب؟ فالعلماء يمثّلون في هذه الأيّام رفاهية مفرطة وترفًا مبالغًا فيه، ولا توجد مؤسّسات كثيرة أو أناسٌ كثيرون ممّن هم قادرون على تحمّل تكاليف الضروريّات، ناهيك عن الرفاهية والكماليّات. ولن تفتح في وجوهنا أبواب أخرى. فنحن لن نكون موضع ترحيب في قسم البحوث من مشروع صناعيّ مثل مخابر شركة ريردن للفولاذ. بالإضافة إلى ذلك، إذا صادف أن واجهنا بعض الأعداء، فإنّ الأعداء أنفسهم سيخشون أيّ شخص يميل إلى استخدام مواهبنا. فرجل مثل ريردن قد يقاتل من أجلنا، لكن هل سيفعل ذلك رجل مثل أورين بويل؟ ولكن هذه مجرّد تكهّنات نظريّة، أمّا الواقع العمليّ فيشير إلى أنّ جميع منشآت البحث العلميّ للقطاع الخاصّ قد أُغلِقت بموجب القانون التوجيهيّ رقم289-10، وقد يفوتك أنّ مَن أصدره هو السيّد ويسلي ماوتش. قد تفكّر في الالتحاق للعمل بالجامعات؟ لكنّ الجامعات تعاني هي أيضًا من المشاكل ذاتها، ولا يمكنها أن تصنع أعداء لها. فمن سيتحدّث بالنيابة عنّا؟ أعتقد أنّ رجلًا مثل هيوأكستون كان سيدافع عنا لو أنّه هنا. لكنّ مجرّد التفكير في ذلك سيجعلنا نشعر بالذنب ونواجه مفارقة تاريخيّة صعبة. فهو ينتمي إلى عصر مختلف، أمّا

الظروف التي تحدّد واقعنا الاجتماعيّ والاقتصاديّ فقد جعلت وجوده المستمرّ مستحيلا منذ زمن بعيد. وأنا لا أعتقد أنّ الدكتور سيمون بريتشيت، أو الجيل الذي نشأ تحت قيادته، سيكون قادرًا أو على استعداد للدفاع عنّا. أنا لم أؤمن قطّ بفعاليّة المثاليّين، ألا تشاطرني الموقف نفسه؟ هذا ليس عصر المثاليّة غير العمليّة. وإذا رغب أيّ شخص في معارضة سياسة الحكومة، فكيف له أن يجعل صوته مسموعًا؟ أمن خلال هؤلاء السادة الذين يمثّلون الصحافة يا دكتور ستادلر أم من خلال ذاك المايكروفون؟ هل توجد جريدة مستقلّة في البلاد أو محطّة راديو غير متحكّم فيها أو أيّ وسيلة أخرى تستطيع أن تذيع رأيًا مختلفا؟

كانت نبرة الصوت واضحة الآن، إنّها نبرة سفّاح دمويّ. ثمّ أضاف:

- الرأي الشخصيّ هو الترف الوحيد الذي لا يستطيع أحد تحمّله اليوم.

فتحرّكت شَفَتَا الدكتور ستادلر بقوّةٍ، وقال بنبرة صارمة:

- أذكّرك بأنّك تتحدّث إلى روبرت ستادلر.

- لم أنسَ ذلك إطلاقًا. فروبرت ستادلر اسم مشهور، وأكره أن أراه محطّمًا. لكن أيّ الأسماء يعتبر لامعًا في هذه الأيّام؟ وفي عين من؟

ثمّ أضاف وهو يشير إلى المدرّجات: أفي عيون الناس الذين تراهم من حولك؟ فإن كانوا سيصدّقون، عندما يقال لهم ذلك، أنّ أداة الموت تلك هي أداة للرخاء والازدهار، ألن يصدّقوا إذا قيل لهم إنّ روبرت ستادلر خائن وعدوّ للدولة؟ وهل ستعتمد على حقيقة أنّ هذا ليس صحيحًا؟ هل تفكّر في الحقيقة يا دكتور ستادلر؟ إنّ المسائل المتعلّقة بالحقيقة لا تدخل في القضايا الاجتماعيّة. والمبادئ لا تؤثّر على الشؤون العامّة. فالعقل ليس له سلطة على البشر. والمنطق عاجز والأخلاق غير ضروريّة. لا تجبني الآن يا دكتور ستادلر، لأنّك ستجيبني على مضخّم الصوت. أنت هو المتحدّث الموالي.

وبالنظر إلى شريط المزرعة المظلم عن بعدٍ، علم الدكتور ستادلر أنّ ما شعر به كان

مرعبًا، لكنّه لم يسمح لنفسه بمعرفة طبيعته. هو الذي كان قادرًا على دراسة جزيئات الفضاء الكونيّ ودراسة حتّى ما دونها من فروع، لا يستطيع الآن السماح لنفسه بدراسة مشاعره ومعرفة أنّها تتكوّن من ثلاثة أجزاء: جزء يتعلّق بالرعب المرتبط بإحدى الرؤى التي بدت جليّة أمام ناظريه، ورؤية ما نقش -في حقّه- من كلمات على باب المعهد: (تكريمًا للعقل الذي لا يعرف الخوف والحقيقة غير القابلة للانتهاك)، وجزء آخر يتعلّق بالخوف الحيوانيّ البهيميّ المجرّد المرتبط بالتدمير المادّيّ، وهو خوف مذلٌّ لم يتوقّع أن يواجهه في العالم المتحضّر الذي عاصره زمن شبابه، أمّا الجزء الثالث فهو الرعب المتعلّق بمعرفة أنّه من خلال خيانته للعالم الأوّل، سيسلّم نفسه إلى العالم الثاني.

فمشى نحو منصّة الخطابات، بخطواته الثابتة والبطيئة، رافعًا رأسه ومخطوطة الخطاب مجعّدة بين أطراف أنامله. ولم يكن متأكّدًا ممّا إذا كان يسير نحو منصّة أو مقصلة، كما لو أنّ حياته كلّها كانت تومض أمامه في لحظة وفاته، ومشى نحو صوت المذيع الذي عدّد على البلاد قائمة إنجازات روبرت ستادلر ومسيرته المهنيّة. فانتابه تشنّج خافت بدا واضحًا في ملامح وجهه أثناء سماع كلمات المذيع وهي تعلن: أقدّم لكم الرئيس السابق لقسم العلوم الفيزيائيّة بجامعة باتريك هنري.

فعلم على مدى بعيد -لا كما لو أنّ المعرفة كانت تنبع من داخله، بل كما لو أنّها تصدر من شخص تركه وراءه- أنّ ذلك الحشد على وشك مشاهدة فعل تدمير هو الأكثر فظاعة من تدمير تلك المزرعة.

وبينما كان يصعد أوّل ثلاث خطوات من السقالة، إذ بصحفيّ شابّ يندفع أمامه، وقد هرع إليه من تحت السياج فأوقفه وهو يقول: دكتور ستادلر! وبكى في همس يائس، ثمّ أضاف: قل لهم الحقيقة! أخبرهم أنّه ليس لك علاقة بالأمر! أخبرهم أيّ نوع من الآلات الجهنّميّة تنتمي إليه هذه الآلة، والغرض الذي صمّمت من أجله! أخبر البلاد أيّ نوع من البشر يحاولون حكمهم! فلا أحد يمكن أن يشكّك في كلماتك! أخبرهم بالحقيقة! أنقذنا! فأنت الوحيد الذي يستطيع فعل ذلك!

فنظر الدكتور ستادلر إليه. لقد كان شابًا أكفأ من كلّ زملائه الفاسدين، والذين يبيعون أقلامهم نظير إكراميّات ورشاوٍ. وكان بعينيه ذكاء حادّ جسور، على نحو ما ينبعث من العيون التي رآها الدكتور ستادلر وهي تنظر إليه في قاعات الفصول الدراسيّة. ولاحظ أنّ عيني ذلك الفتى كانتا عسليّتين بمسحة من اللون الأخضر.

فأدار الدكتور ستادلر رأسه ولاحظ أنّ فيريس قد هرع مسرعًا إلى جانبه، مثل خادم أو سجّان. فقال الدكتور ستادلر بصوت عال: لا أتوقّع أن أُهَان من قبل شباب أشرار تسيطر عليهم دوافع الخيانة.

والتف الدكتور فيريس إلى الصحفيّ الشابّ وزمجر في وجهه بكلام منفلت، يشوبه الغضب من الأشياء غير المتوقّعة وسخطه من الأحداث غير المخطّط لها قائلا: أعطني بطاقتك الصحفيّة ورخصة عملك!

ومن خلال الورقات التي سلّمت له وأمام يقظة الأمّة وصمتها، صرّح الدكتور روبرت ستادلر وهو يقرأ عبر مضخّم الصوت: أنا فخور بأنّ سنواتي التي قضّيتها في العمل من أجل خدمة العلم جلبت لي الشرف بأن أضع بين يدي قائدنا العظيم، السيّد طومسون، أداةً جديدة بإمكانيّات لا تحصى وبتأثيرات حضاريّة وتحرّرية على عقل الإنسان...

***

كانت في السماء أنفاسُ فرنٍ راكدةٌ، وشوارع نيويورك مثل الأنابيب التي تعمل، لا من خلال الهواء والضوء، ولكن من خلال الغبار المتراكم. وقفت داغني في زاوية الشارع، حيث تركتها حافلة المطار، تنظر إلى المدينة بدهشة سلبيّة. لقد بدت المباني مهترئة بسبب تأثير أسابيع من حرارة الصيف، لكنّ الناس بَدَوْا مهترئين بسبب قرونٍ من العذاب. لقد وقفت وهي تراقبهم، وقد أضناها شعور هائل من عدم الواقعيّة.

هيمن عليها ذلك الشعور منذ الساعات الأولى من صباح ذلك اليوم، منذ اللحظة التي نزلت فيها بالطريق السريعة الخالية وسارت إثرها في بلدة مجهولة، ثمّ توقّفت

لتسأل أوّل من وجدته من المارّة عن اسم المكان الذي كانت فيه.

أجابها الرجل: واتسونفيل.

سألته مجدّدًا: وفي أيّ ولاية من فضلك؟

قال الرجل وهو ينظر إليها: ولاية نبراسكا.

ثمّ سار بعيدًا عنها وهو في عجلة من أمره. فابتسمت بلامبالاةٍ، وهي تعلم أنّه ربّما كان يتساءل عن المكان الذي أتت منه وأنّه لم يجد أيّ تفسير يمكن له تخيُّله ليكون رائعًا وكأنّه الحقيقة. ورغم ذلك بدت مدينة واتسونفيل رائعةً أمامها، بينما كانت تمشي في شوارعها باتّجاه محطّة السكك الحديديّة. لقد افتقدت عادة مراقبة اليأس بوصفه الجانب الطبيعيّ والمهيمن على الوجود الإنسانيّ، تلك العادة التي بدت طبيعيّة إلى درجة أنّها لم تعد مرئيّة لأحد، لقد أذهلها النظر في أنحاء تلك المدينة التي اكتنفها معنى عبثيّ عقيم. ورأت علامات الألم والخوف على وجوه الناس، ونظرة التهرّب والمراوغة التي تكتنفهم، فتجعلهم يرفضون الاعتراف بذلك، وكانوا يسيرون وهم يتظاهرون بشكلٍ هائلٍ، ويتصرّفون وفق طقوس لتجنّب الواقع، فيتركون الأرض وكأنّها غير مرئيّة ويجعلون حياتهم وكأنّها غير جديرة بأن تعاش، في خوف من شيء محرّم وبلا اسم. لكنّ المحرّم كان مجرّد فعل بسيط ينظر في طبيعة ألمهم ويُسائل واجبهم في تحمّله. كانت داغني ترى الأمر بوضوح حتّى إنّها ظلّت ترغب في الاقتراب من الغرباء، وإثارتهم، والضحك والصياح في وجوههم: أفيقوا من هذه الغفوة!

واعتقدت أنّه لا يوجد سببٌ يجعل الناس غير سعداء على ذلك النحو.. ثمّ تذكّرت أنّ العقل هو القوّة الوحيدة التي ألغوها من وجودهم.

ثمّ استقلّت قطارًا من قطارات شركة تاجارت فنقلها إلى أقرب مطار؛ ولم تكشف عن هويّتها لأيّ شخص: إذ بدا الأمر غير ذي صلة. وبعد ذلك استقلّت حافلة وجلست بمقعد إلى جانب النافذة مثل غريب لا بدّ له من تعلّم اللّغة غير المفهومة لأولئك الذين كانوا حولها. ثمّ التقطت صحيفة مهملة؛ واستطاعت بعسرٍ فهمَ ما

كُتِب بها، لكنّها لم تستوعب السبب الذي جعلهم يكتبون ذلك: فكلّ ذلك بدا عبثيًّا جدًّا وبلا معنى على نحو صبيانيّ. وإثر ذلك حدّقت بدهشةٍ في فقرة كُتِبَت في أحد الأعمدة النقابيّة بنيويورك، ذُكِر فيها بتركيزٍ مفرط أنّ السيّد جيمس تاجارت يودّ أن يعلم الجميع أنّ أخته ماتت بسبب حادث تحطّم طائرة على عكس ما تقوله أيّ إشاعات غير وطنيّة مغرضة. فتذكّرت ببطء القانون التوجيهيّ رقم 289-10 وأدركت أنّ جيم كان محرجًا من اشتباه الجمهور في أنّها اختفت باعتبارها هاربة من الخدمة مثل بقيّة من اختفوا.

وتشير صياغة الفقرة إلى أنّ اختفاءها كان مسألة عامّة بارزة، ولم تُنْسَ بعدُ. وكانت هناك اقتراحات أخرى متعلّقة بذلك الحدث: تشمل ذكر موت الآنسة تاجارت المأسويّ في قصّة تسرد العدد المتزايد لتحطّم الطائرات. وقد كُتب على ظهر صفحة إعلانيّة عرضٌ بمائة ألف دولار مكافأةً للشخص الذي يعثر على حطام الطائرة وقّعها هنري ريردن.

فشعرت أثناء قراءة تلك الصفحة الأخيرة بطعنة من الإلحاح، أمّا بقيّة المعلومات فبدت بلا معنى. ثمّ أدركت، ببطء، أنّ حدث عودتها سيكون شأنًا عامًّا يؤخذ على أنّه خبر عظيم. وشعرت بالتعب والخمول أمام مواجهة العودة الدراميّة إلى الوطن، ومواجهة جيم والصحافة، ومشاهدة ما سيتبع ذلك من إثارة ودّت لو أنّهم انتهوا منها أثناء غيابها.

وفي المطار، رأت أحد المراسلين الصحفيّين المغمورين لإحدى القرى الصغيرة وهو يحاور بعض المسؤولين المغادرين. وانتظرته حتّى انتهى من حواره، ثمّ اقتربت منه، ومدّت إليه أوراق ثبوت هويّتها وقالت له بهدوءٍ، وهي تواجه التحديق الجذّاب في عينيه:

- أنا داغني تاجارت. هل يمكنك أن تخبر الناس بأنّني على قيد الحياة وأنّني سأكون في نيويورك بعد ظهر اليوم؟

وكانت الطائرة على وشك الإقلاع، فأنقذتها من كلّ الأسئلة التي ستطرح عليها.

ثمّ شاهدت البراري والأنهار والمدن، والطائرةُ تحلّق فوقها. وتنبّهت إلى أنّ الشعور بالانفصال الذي ينتاب المرء عندما ينظر إلى الأرض من الطائرة، كان هو الشعور نفسه الذي وجدته عندما كانت تنظر إلى الناس. وحدها المسافة بدت أطول.

وكان المسافرون يستمعون إلى إحدى الخطب الإذاعيّة، التي بدت مهمّة، بالنظر إلى اهتمامهم الشديد. والتقطت أحد المقتطفات القصيرة الصادرة عن أحد الأصوات المحتالة وهي تتحدّث عن نوع من أنواع الاختراعات الجديدة التي ستجلب بعض الفوائد غير المحدّدة للرفاه العامّ. وقد انتقوا الكلمات بوضوح كي لا تؤدّي أيّ معنى محدّد، مهما يكُن؛ وتساءلت كيف يمكن للمرء أن يدّعي أنّه بصدد سماع إحدى الخطب؛ لكنّ ذلك كان حال جلّ الركّاب. كانوا يشبهون في أفعالهم أداء طفل لم يتمكّن بعد من القراءة وهو يحمل كتابًا مفتوحًا فينطق أيّ شيء يريد تهجيته متظاهرًا بأنّ ما كان ينطقه مكتوب بخطوط سوداء غير مفهومة. لكنّها اعتقدت أنّ الطفل كان بصدد لعب لعبة؛ أمّا هؤلاء الناس فهم يتظاهرون أمام ذواتهم بأنّهم لا يتظاهرون؛ ولا يعرفون أيّ حال أخرى من الوجود.

وظلّ الشعور بانعدام الواقع ينتابها أثناء هبوطها، وأثناء هروبها من حشود الصحفيّين من دون أن يروها، وعن طريق تجنّب مواقف سيّارات الأجرة والقفز مباشرة في حافلة المطار، وأثناء صعودها إلى الحافلة، ثمّ وقوفها في زاوية الشارع والنظر إلى مدينة نيويورك. لقد شعرت كما لو أنّها تشاهد مدينة مهجورة.

ولم تجد في نفسها أيّ إحساس بالعودة إلى الوطن عندما دخلت شقّتها؛ فبدا المكان وكأنّه آلة مريحة يمكنها استخدامه لغرض لا يحظى بأيّ أهمّيّة تذكر.

لكنّها شعرت بلمسة سريعة من الطاقة، مثل أوّل انكسار للضباب -لمسة من المعنى- عندما التقطت سمّاعة الهاتف واتّصلت بمكتب ريردن في ولاية بنسلفانيا.

ردّت الآنسة إيفز بنبرة سعيدة:

-أوه، الآنسة تاجارت... آنسة تاجارت!

- مرحبًا يا آنسة إيفز. أتمنّى ألّا أكون قد أفزعتك، أليس كذلك؟ هل علمتِ أنّني على قيد الحياة؟

- أوه نعم! لقد سمعت الخبر في الراديو هذا الصباح.

- هل السيّد ريردن في مكتبه؟

- لا، يا آنسة تاجارت. إنّه... في جبال الروكي يبحث عنك... أعني...

- نعم، أعرف ذلك. هل تعرفين أين يمكنني الاتّصال به؟

- أتوقّع أن يتّصل بي في أيّ لحظة. الساعةَ توقّفَ بمدينة لوس غاتوس، في ولاية كولورادو. لقد هاتفته لحظةَ سمعتُ الأخبارَ لكنّه كان بالخارج فتركت له رسالة ليتّصل بي. كما ترين، فهو يخرج بالطائرة كلّ يوم ... لكنّه سيتّصل بي عندما يعود إلى الفندق.

- وما اسم الفندق الذي يقيم فيه؟

- فندق الدورادو، بمدينة لوس غاتوس.

- شكرًا يا آنسة إيفز.

كانت على وشك إغلاق الخطّ عندما نبّهتها مخاطبتها قائلة:

- أوه، يا آنسة تاجارت!

- ما خطبك؟

- ماذا حدث لك؟ وأين كنت؟

- سأخبرك عندما أراك، فأنا في نيويورك الآن. وعندما يتّصل السيّد ريردن أخبريه من فضلك بأنّني سأكون في مكتبي.

- حاضر يا آنسة تاجارت.

ثمّ أغلقت داغني الخطّ، لكنّ يدها بقيت على السمّاعة، متشبّثة بأوّل اتّصال لها يخصّ مسألة ذات أهمّيّة. ونظرت إلى شقّتها وإلى المدينة عبر النافذة، فشعرت برغبة في مقاومة الغرق مجدّدًا في ذلك الضباب الميّت الخالي من المعنى.

ثمّ رفعت السمّاعة مرّة أخرى واتّصلت بلوس غاتوس.

ردّ صوت نسائيّ ناعس في امتعاضٍ:

-فندق الدورادو.

- هل يمكنني أن أترك رسالة للسيّد هنري ريردن؟ اسأليه، عندما يعود...

قالت المرأة بصوت متشدّق ونبرة شخصٍ يمقت بذل أيّ جهد يكون مفروضًا عليه:

-دقيقة واحدة، رجاءً.

فسمعت داغني المرأة وهي تنقر على مفاتيح الهاتف، ثمّ بعضَ الطنين وبعض التقطّعات الصامتة، ثمّ صوتًا واضحًا وثابتًا لرجل أجابها: مرحبًا.

لقد كان هانك ريردن. فحدّقت في السمّاعة كما لو أنّها تحدّق في فوّهة بندقيّة، وشعرت كما لو أنّها محاصرة داخل فخّ، غير قادرة على التنفّس.

- كرّر مخاطبها: مرحبًا.

- هانك، هل هذا أنت؟

فسمعت داغني صوتا منخفضا كان أقرب إلى صوت تنهيدة منه إلى صوت لهاث، ثمّ سمعت طقطقة خالية بخطّ الهاتف.

صاحت في رعب:

-هانك! هانك!

لكن لم يكن هناك أيّ جواب، وظنّت أنّها سمعت جهد التنفّس، ثمّ بعضَ الهمس الذي لم يكن سؤالًا، ولكن كان بيانًا ينبئ بكلّ شيء: داغني.

- هانك، أنا آسفة.. أنا آسفة جدًّا يا عزيزي، ألم يبلغك خبر عودتي؟

- أين أنت يا داغني؟

- هل أنت بخير؟

- بالطبع.

ألم يبلغك خبر عودتي، و... أنّني مازلت قيد الحياة؟

- لا... لم أكن أعرف ذلك.

- يا إلهي، أنا آسفة لقد اتّصلت...

- عمَّ تتحدثين؟ داغني، أين أنت؟

- في نيويورك. ألم تسمع هذا الخبر في الراديو؟

- لا، لقد دخلت الساعةَ.

- ألم يطلبوا منك الاتّصال بالآنسة إيفز؟

- لا.

- هل أنت بخير؟

- الآن؟

سمعت ضحكته الناعمة الخفيفة وصوت الضحك المكتوم، ماء الشباب وهو يزداد باندفاع في صوته مع كلّ كلمة قالها:

- ومتى عدت؟

- هذا الصباح.

- وأين كنت يا داغني؟

فلم تجبه في الحال لكنّها قالت: لقد تحطّمت طائرتي في جبال الروكي. وأغاثني بعض الناس، لكنّني لم أتمكّن من إرسال أيّ كلمة إلى أيّ شخص.

قال ريردن وهويضحك:

-أكان الأمر بهذا السوء؟

- أوه... تقصد حادث التحطّم؟ لا، لم يكن بذلك السوء، ولم أتأذَّ، ولم أتعرّض لأدنى خطر.

- ولماذا لم ترسلي أيّ إشارة بخصوص وضعيّتك؟

- لم تكن هناك... أيّ وسيلة اتّصال.

- ولماذا استغرقتِ وقتًا طويلًا حتّى تعودي؟

- لا أستطيع أن أجيبك على هذا السؤال الآن.

- داغني، هل واجهتِ أيّ خطر؟

- أجابته بنبرة يختلط فيها الفرح بالندم: لا.

- هل سجنوك هناك؟

لا، لم يسجنوني.

- لماذا لم تعودي بسرعة إذَن مادامت إمكانيّة العودة موجودة؟

- هذا صحيح، لكن هذا كلّ ما أستطيع إخبارك به الآن.

- أين كنت يا داغني؟

- هل تمانع إذا لم نتحدّث عن ذلك الآن؟ لتنتظر حتّى أراك.

- بالطبع. لن أطرح عليك أيّ سؤال، أخبرني فقط هل أنت في أمانٍ الآن؟

- في أمان؟ أجل أنا في أمان.

- أعني، هل عانيت من أيّ إصابات أو أيّ عواقب وخيمة دائمة؟

- لا وجود لإصابات يا هانك. لكن لا أعلم ما إذا كنت سأعاني من أيّ عواقب دائمة.

- وهل ستمكثين في نيويورك الليلة؟

- نعم... لقد عدت وإلى الأبد.

- وهل ستبقين إلى الأبد فعلا؟

- ولماذا تسأل عن ذلك؟

- لا أعلم، أعتقد أنّني أصبحت معتادًا على أمر... عدم إيجادك.

- لقد عدت.

- نعم. سأراك بعد بضع ساعات.

وانكسر صوته، كما لو أنّ الجملة كانت أضخم من أن تُصدَّق. فكرّر بحزم: بعد بضع ساعات.

- سأكون هنا في انتظارك.

- داغني...

- نعم؟

قال وهو يضحك في هدوء:

-لا، لا شيء. أردت فقط سماع صوتك فترةً أطول، سامحيني. أعني، أنّني لا أريد أن أقول لك أيّ شيء الآن.

- هانك، أنا..

- يا حبيبتي، أخبريني بذلك عندما أراك. إلى اللقاء.

فوقفت تنظر إلى السّاعة الصامتة. وشعرت بالألم لأوّل مرّة منذ عودتها، ألم عنيف، لكنّه بثّ فيها طعم الحياة، لأنّه كان شعورًا يستحقّ أن يُعاش.

ثمّ اتّصلت بسكرتيرتها في شركة تاجارت العابرة للقارّات لتخبرها بأنّها ستكون في المكتب خلال نصف ساعة.

وبدا تمثال ناثانيل تاجارت حقيقيّا عندما وقفت أمامه في الرّدهة. بدا لها الأمر وكأنّهما وحيدان في معبدٍ واسع يُسمَع فيه الصدى، بلفائف ضبابيّة لأشباح عديمة الشكل تحوم حولهما وتختفي. فوقفت بلا حراك، وهي تنظر إلى التمثال، كما لو أنّها لحظة وجيزة من الإخلاص. لقد عُدْتُ، كانت تلك هي الكلمات الوحيدة التي أهدتها إلى التمثال.

كان اسم داغني تاجارت لا يزال منقوشًا على اللوحة الزجاجيّة المتجمّدة بباب مكتبها. وعندما دخلت غرفة الانتظار، كانت الملامح على وجوه طاقمها تشبه ملامحَ الغريق أثناء رؤية حبل النجاة. لقد رأت إيدي ويلرز يقف بمكتبه المسيّج بالزجاج وأمامه أحدُ الرجال. ثمّ تحرّك في اتّجاهها، لكنّه توقّف؛ فبدا مثل المسجون. ثمّ حيّت كلّ وجهٍ قابلَها، وهي تبتسم بلطف للجميع كما لو أنّهم كانوا أطفالًا منكوبين، ثمّ اتّجهت نحو مكتب إيدي.

كان إيدي يراقب اقترابَها كما لو أنّه لا يرى أيّ شيء آخر في العالم سواها، غير أنّ هيئته المتصلّبة بدَت مصمّمةً على التظاهر بأنّه بصدد الاستماع إلى الرجل الذي كان أمامه.

كان الرجل يتكلّم بنبرة صوت مفاجئة ومتقطّعة وبتشدّق أنفيّ غير منتظم، وهو يقول: تسألني عن القوّة الدافعة؟ لا توجد أيّ مشكلة بشأن القوّة الدافعة. خذ فقط...

قال إيدي بلطف وابتسامة صامتة: مرحبًا.

فالتفت الرجل ليلقي نظرة عليها. كان أصفر البشرة، مجعّدَ الشعر، ذا وجه متصلّب

بعضلات ليّنة، وبوسامة مقزّزة تنتمي إلى المعايير الجمالية لإحدى الحانات.

قال إيدي بنبرة رنّانة، نبرة صفعت الرجل وفاجأته بأساليب قاعة استقبال لم يدخلها قطّ: آنسة تاجارت... هل لي أن أقدّم لك السيّد ميغز؟

- كيف حالك؟

قال الرجل من دون اهتمام، ثمّ التفت إلى إيدي واستأنف حديثه، كما لو أنّ داغني لم تكن موجودة:

- كلّ ما عليك فعله هو فقط إلغاء رحلات القطار المذنّب من الجدول الزمنيّ المبرمج ليوم الغد وليوم الثلاثاء، ثمّ شغّل بقيّة المحرّكات المخصّصة لقطارات شحن الزنباع نحو ولاية أريزونا، وألْغِ عربات الشحن التي تنقل الفحم مثلما ذكرت لك. أرسل الأوامر حالا.

قاطعتهما على نحو غير متوقّع: لن تفعل شيئًا من هذا القبيل!

فلم يجبها إيدي. أمّا ميغز فقد رغب في النظر إليها، لو أنّه وجد في عينيه قدرةً على تسجيل أيّ ردّ فعل. فقال لإيدي من دون تأكيد: أرسل الأوامر. ثمّ رحل.

كان إيدي يدوّن بعض ملاحظات على ورقة. فسألته: هل أنت مجنون؟

فرفع عينيه إليها، كما لو أنّه كان منهكا بسبب طول ساعات العمل. ثمّ أجابها بصوت ميّت: يجب علينا فعل ذلك يا داغني.

سألته وهي تشير إلى الباب الخارجيّ الذي أُغلِق على السيّد ميغز: من يكون هذا الرجل؟

- إنّه مدير الاتّحاد.

- ماذا تقول؟

- إنّه الممثّل عن ولاية واشنطن والمسؤول عن خطّة توحيد السكك الحديديّة.

- وما هذا الأمر؟

- إنّه... أوه، انتظري يا داغني، هل أنت بخير؟ هل تأذّيت؟ هل تحطّم الطائرة هو ما تسبّب لك في كلّ هذا اللغط؟

لم تتصّور داغني على الإطلاق ما سيبدو عليه وجه إيدي ويلرز عندما يصبح شيخًا، لكنّها كانت ترى ملامحه الآن، إنّه يعاني من الشيخوخة وهو في عمر الخامسة والثلاثين، وفي مدّة شهر واحد من غيابها. لم تكن المسألة متعلّقة بنعومة البشرة أو بظهور التجاعيد، لأنّ إيدي كان بملامح الوجه نفسها وبالعضلات نفسها، ولكنّه كان مشبعًا بمظهر ذابل من استسلام مزعجٍ لألم قَبِلَه على أنّه ميؤوس منه.

فابتسمت داغني برفق وثقة وتفهّم، متجنّبةً إثارة كلّ المشاكل، وقالت وهي تمدّ يدها: حسنا، إيدي. أهلًا بك.

فمسك يدها وضغط بشفتيه عليها، وهو أمر لم يفعله من قبل.

ردّت عليه:

- لقد تحطّمت الطائرة يا إيدي، وحتّى لا تقلق، سأقول لك الحقيقة: لم أتأذَّ، ولم أواجه أيّ خطر جدّيّ. لكن هذه ليست القصّة التي سأبوح بها للصحافة وللآخرين، لذا لا داعي إلى ذكر ذلك.

- طبعًا.

- لم أجد أيَّ وسيلة للتواصل مع أيّ شخص، ولم ذلك لأنّني تعرّضت للأذى. وهذا كلّ ما أستطيع إخبارك به يا إيدي فلا تسألني أين كنت أو لماذا استغرقت وقتًا طويلًا للعودة.

- حاضر، لن أسألك.

- الآن قل لي ما هي خطّة توحيد السكك الحديديّة؟

- إنّها... هل تمانعين إن أنا لم أخبرك بها؟ دعي هذا الأمر لجيم فهو سيتكفّل بذلك قريبًا. فأنا لا أملك الجرأة الكافية للتحدّث عنها، إلّا إذا كنت تريدين منّي أن أفعل ذلك.

لقد كان يضيف الجمل بجهدٍ يقف خلفه ضميرٌ ينمّ عن قمّة الانضباط.

- لا لست بحاجة إلى فعل ذلك. فقط أخبرني بما إذا كنتُ قد فهمتُ ذلك الشخص على النحو الصحيح. إنّه يريدك أن تلغي رحلات القطار المذنّب يومين لكي تعطي محرّكاته قطارَ ولاية أريزونا الخاصّ المعدّ لشحن الزنباع، أليس كذلك؟

- هذا صحيح.

- وقد ألغى رحلات قطار نقل الفحم من أجل الحصول على عربات لجرّ شحنات الزنباع؟

- نعم.

- الزنباع؟

- هذا صحيح.

- لماذا؟

- في هذه الأيّام لم نعد نسأل عن الأسباب، يا داغني.

- وهل لديك أيّ توقّع حول السبب؟

- توقّع؟ ليس عليّ أن أتوقّع، لأنّني أعرف السبب.

- حسنا، فما هو السبب؟

إنّ القطار الخاصّ بنقل الزنباع هو في ملكيّة الإخوة سماثر. وهؤلاء اشتروا قبل عامٍ مزرعة للفواكه في ولاية أريزونا من رجلٍ أفلسه قانون تكافؤ الفرص بعد أن ملك المزرعة ثلاثين عامًا. أمّا الإخوة سماثر فكان مجال تخصّصهم هو صناعة ألواح اللعب

قبل عامٍ من شرائهم المزرعة. لقد اشتروها عن طريق قرض من واشنطن في إطار مشروعٍ لاستصلاح المناطق المنكوبة، مثل ولاية أريزونا. إنّهم يملكون أصدقاء في واشنطن.

- حسنًا، هل هذا كلّ شيء؟

- الجميع يعرفون ذلك يا داغني. الجميع يعرفون كيف يتمّ تشغيل جداول القطارات خلال الأسابيع الثلاثة الماضية، والسبب الذي يجعل بعض المناطق تتمتّع بالنقل على حساب مناطق أخرى. وما لا يجب علينا قوله هو أنّنا نعرفها، ويُفترَض بنا أن نتظاهر بتصديق أنّ (المصلحة العامّة) هي السبب الوحيد وراء أيّ قرار، وأنّ المصلحة العامّة لمدينة نيويورك تتطلّب التسليم الفوريّ لكمّيّات كبيرة من الزنباع... إنّ مدير الاتّحاد هو وحده من يقرّر مسألة المصلحة العامّة ويتمتّع بالسلطة الكاملة في ما يخصّ توزيع أيّ قوّة دافعة أو أيّ عربات بأيّ سكّة حديد في أيّ مكان من الولايات المتّحدة الأمريكيّة.

قالت داغني بعد لحظة من الصمت: فهمتك... وماذا حدث في نفق وينستون؟

- أوه، لقد وقع التخلّي عنه منذ ثلاثة أسابيع. ولم يزيلوا الأنقاض قطُّ عن القطارات. وقد توقّفت المعدّات عن العمل.

- وماذا حدث في مشروع إعادة بناء الخطّ القديم المحيط بالنفق؟

- لقد ركن في الرّفّ.

- هل تبقّى لنا إذَن أيّ حركة مرور عابرة للقارّات؟

حدجها بنظرة غريبة، ثمّ قال بمرارة:

- أوه نعم، لا يزال لدينا البعض منها.

- هل تقصد ذلك المنعطف الذي يلفّ منطقة كانساس الغربية؟

- لا.

- إيدي، ماذا حدث هنا خلال الشهر الماضي؟

أجابها وهو يبتسم:

-كنا نجني المال في الشهر الماضي.

ثمّ لاحظت فتح الباب الخارجيّ ودخول جيمس تاجارت برفقة السيّد ميغز. فسألت إيدي: هل ترغب في حضور المؤتمر يا إيدي أم إنّك تفضّل تفويته؟

- لا. أريد أن أكون حاضرًا.

وبدا وجه جيم مثل قطعة من الورق، بالرغم من أنّ لحمه الناعم المنتفخ لم يكتسب أيّ خطوط إضافيّة. فقال على نحوٍ صارخ، وقد سبق صوته المندفع تماسك شخصيّته:

- داغني، ثمّة أشياء كثيرة يجب مناقشتها، لقد وقعت تغييرات كثيرة مهمّة... أوه، أنا مسرور لرؤيتك مجدّدًا، وسعيد بأنّك على قيد الحياة... ثمّة بعض الأمور العاجلة...

قالت: دعنا نناقشها إذَن في مكتبي.

لقد شهد مكتبها إعادة بناء تاريخيّة، إذ رمّمه إيدي ويلرز وحافظ عليه. لقد أعاد خارطتها، وتقويمها، وثبّت صورة نات تاجارت على الجدران مثلما كانت في السابق، ولم يترك أيّ أثر لعصر كليفتون لوسي.

سألته، وهي تجلس على مكتبها:

-هل يمكن لي استنتاج أنّني مازلت نائبة للرئيس التنفيذيّ لهذه السكك الحديديّة؟

ردّ تاجارت على عجل:

- بالتأكيد، مازلت في الوظيفة نفسها، فلا تنسي ذلك، فأنت لم تستقيلي بل ما تزالين نائبة للرئيس، أليس كذلك؟

- لا، أنا لم أقدّم استقالتي.

- أمّا الآن فالشيء الأكثر إلحاحًا، والذي يجب علينا فعله هو أن نخبر الصحافة بكلّ شيء، أن نخبرهم بأنّك عدت إلى العمل، وبالمكان الذي كنت فيه عالقة. بالمناسبة، أين كنت يا داغني؟

قالت:

-هلاّ دونت هذه الملاحظة يا إيدي؟ ثمّ أرسلها بعد ذلك إلى الصحافة. لقد واجهت طائرتي عطلًا في المحرّك بينما كنت أحلّق فوق جبال الروكي متجّهةً نحو نفق تاجارت. فأضعت طريقي، وبحثت عن مكان أهبط فيه بشكل اضطراريّ، فتحطّمت الطائرة في قسم جبليّ غير مأهول بولاية وايومينغ. وعثر عليّ راعي غنم عجوز وزوجته، وأخذاني إلى كوخهما الذي يقع في أعماق البرّيّة، على بعد خمسين ميلًا من أقرب مستوطنة. لقد أصبت إصابة بليغة وكنت فاقدة الوعيَ على مدى أكثر من أسبوعين ولم يكن للزوجين العجوزين هاتفٌ ولا راديو ولا أيّ وسيلة اتّصال ولا أيّ وسيلة نقل، ما عادا شاحنة قديمة تعطلّت عندما حاولا استخدامها. وكان عليّ البقاء معهما حتّى تعافيت وصرت قادرة على المشي. لقد قطعت خمسين ميلًا من تلك التلال مشيًا على الأقدام، ثمّ استوقفت إحدى السيّارات فحملتني بالمجّان إلى محطّة تاجارت بولاية نبراسكا.

قال تاجارت:

-فهمتك.. حسنًا... لا بأس. الآن عندما تقدّمين المقابلة الصحفيّة...

- لن أُجري أيَّ مقابلة صحفيّة.

- ماذا تقولين؟ لكنّهم كانوا يتّصلون بي طوال اليوم. إنّهم ينتظرونك! وهذا الأمر ضروريّ! إنّه ضروريّ جدًّا!

- ومن كان يتّصل بك طوال اليوم؟

- الناس في واشنطن... وآخرون في... إنّهم ينتظرون إفادتك.

قالت وهي تشير إلى الملاحظات التي كان إيدي يدوّنها:

- تلك هي إفادتي.

- ولكنّ تلك الإفادة لا تكفي! يجب أن تقولي لهم إنّك لم تستقيلي.

- ألا يبدو ذلك واضحًا وجليًّا؟ لقد عدت، أليس ذلك كافيًا.

- يجب أن تقولي لهم شيئًا في هذا الموضوع.

- مثل ماذا؟

- شيئًا شخصيًّا.

- لمن؟

للبلاد قاطبة، فالناس كانوا قلقين عليك، ويجب أن تجعليهم مطمئنّين.

- ستطمئنهم القصّة، إن كان منهم من قلق بشأني.

- ليس هذا ما أعنيه!

- حسنا، ماذا تعني إذَن؟

- أعني...

ثمّ توقّف عن الكلام. لقد كان مذعورًا ومرتبكًا، وكان يبحث عن الكلمات، لكن بلا جدوى، وبعد جهد جهيد قال: أعني، الشعب...

فقالت وقد تفطّنت إلى ما يلمّح إليه: أعلم ما تعنيه. لا يا جيم، لن أطمئن الشعب عن حالة صناعتنا.

- الآن أنت...

- من الأفضل للشعب ألّا يكون مطمئنًّا. إنّهم يملكون ما يكفي من الذكاء لكي يفهموا الوضع. لنتحدّث الآن عن العمل.

- أنا...

- اشرع في الحديث عن العمل يا جيم.

فنظر جيم إلى السيّد ميغز الذي كان يجلس صامتًا، برجلين متشابكتين، يدخّن سيجارة. كان يرتدي سترة تشبه الزيّ العسكريّ. وبدا لحم رقبته منتفخًا بارزًا فوق الياقة، أمّا لحم بقيّة جسده فبدا مضغوطًا بجهدٍ عند مستوى خصره النحيف الذي كان ينوي من خلاله إخفاء بدانته. وكان يرتدي خاتما بألماسة صفراء كبيرة تومض عندما يحرّك أصابعه القصيرة.

قال تاجارت: أعتقد أنك قابلتِ السيّد ميغز. أنا سعيد جدًّا لأنّكما ستتوافقان.. السيّد ميغز هو ممثّل خطّة توحيد السكك الحديديّة. وثمّة فرص كثيرة لكي تتعاوني معه.

- وما هي خطّة توحيد السكك الحديديّة؟

إنّها... إجراء وطنيّ جديد دَخَل حيّز التنفيذ منذ ثلاثة أسابيع، وأعتقد أنّه سيروق لك وتوافقين عليه وتجدينه عمليًّا جدًّا.

فتعجّبت داغني من عقم منهجه. لقد كان يتصرّف كما لو أنّه يحدّد موقفها مسبّقًا، ليجعلها غير قادرة على تغييره. ثمّ أضاف:

- إنّه إعداد طارئ أنقذ نظام النقل في البلاد.

- وفيمَ تتمثّل الخطّة؟

- طبعًا، أنت تدركين الصعوبات المستعصية التي يواجهها أيّ نوع من أعمال البناء خلال هذه الفترة الطارئة. فمن المستحيل -مؤقّتا- وضع مسار جديدٍ. لذلك فإنّ أكبر مشكلة تعترض البلاد هي الحفاظ على قطاع النقل ككلّ، والحفاظ على مصانعه الموجودة وجميع مرافقه القائمة. فالنجاة الوطنيّة تتطلّب...

- فيمَ تتمثّل الخطّة؟

- وكسياسة للنجاة على الصعيد الوطنيّ، توحّدت شركات السكك الحديديّة في البلاد وحشدت جميع مواردها تحت راية فريق واحد، لتُسلِّم جميع عائداتها الإجماليّة إلى مجلس مجمع السكك الحديديّة في واشنطن، الذي يعمل وصيًّا على الصناعة ككلّ، ويقّسم إجماليّ الدخل بين مختلف شركات السكك الحديديّة، وفقًا... لمبدأ توزيع أكثر حداثة من السابق.

- عن أيّ مبدإ تتحدّث؟

- لا تقلقي بعد الآن، لقد تمّ الحفاظ على حقوق الملكيّة وحمايتها بالكامل، وكلّ ما تغيّر هو فقط منحها شكلًا جديدًا. وتحتفظ كلّ شركة للسكك الحديديّة بمسؤوليّة مستقلّة عن عمليّاتها وجداول قطاراتها وصيانة مساراتها ومعدّاتها. وكإسهام من كلّ شركة في المجمع الوطنيّ، يُسمَح لأيّ شركة أخرى باستخدام مساراتها ومرافقها دون مقابل، عندما تقتضي الظروف ذلك. وفي نهاية العام، يوزّع مجمع مجلس الإدارة إجماليّ الدخل لكلّ شركة على حدة، لا وفق الأساس العشوائيّ القديم الذي يقوم على عدد رحلات القطارات أو حمولة الشحن، ولكن على أساس الحاجة، أي الحفاظ على مسار عملها الذي يمثّل حاجتها الرئيسيّة، فيدفع لكلّ شركة وفقًا لعدد الأميال التي يقطعها المسار الذي تملكه وتحافظ عليه.

سمعت داغني الكلمات، وفهمت المغزى، ثمّ انتابها شعور بأنّه قُذِف بها في عالم ساقط، فسألته بصوت موضوعيّ جافّ:

- ومن هو صاحب المسار الذي نستخدمه في حركة مرورنا العابرة للقارّات؟

ردّ تاجارت في عجل:

-إنّه مسارنا بالطبع، أي ذلك المسار الممتدّ من مدينة نيويورك إلى مدينة بيدفورد، في ولاية إلينوي. أمّا خارج مدينة بيدفورد، فنحن ندير قطاراتنا على مسار شركة جنوب الأطلسيّ.

- وماذا عن المسار المتّجه إلى سان فرانسيسكو؟

- حسنا، هو الآن أسرع بكثير من ذلك المنعطف الطويل الذي حاولتِ تأسيسه.

- إذَن نحن ندير قطاراتنا بالمجّان مقابل استعمال ذلك المسار؟

- وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ المنعطف الذي برمجت إنشاءه لا يستطيع أن يستمرّ في العمل، لأنّ سكّة منطقة كنساس الغربيّة تحطمت، دون أن أذكر أنّ...

- أنت تقول إنّنا نستعمل، من دون مقابل، مسار شركة جنوب الأطلسيّ؟

- حسنًا، وهم أيضًا يستخدمون، بالمجّان، مسارنا على جسر المسيسيبي.

سألته بعد لحظة من الصمت: وهل نظرت إلى الخارطة؟

ردّ ميغز على نحوٍ غير متوقّع: بالتأكيد، أنتم تملكون أكبر شبكة خطوط تمتدّ على مسافة أميال وأميال، وهي أكبر من أيّ شركة أخرى للسكك الحديديّة في البلاد. لذا لا داعي إلى القلق.

فانفجر إيدي ويلرز ضاحكًا. ثمّ نظر إليه ميغز بذهول وسأله:

- ما خطبك؟

ردّ إيدي وهو يعاني من الإجهاد: لا شيء... لا شيء.

قالت داغني: يا سيّد ميغز، إذا نظرت إلى الخارطة، ستلاحظ أنّنا نستفيد مجّانًا من ثلثي تكلفة الحفاظ على عمل مسارنا العابر للقارّات.

ردّ ميغز: بالتأكيد.

كانت عيناه تحدّقان فيها بشكل مريب، كما لو أنّه يتساءل عن الدافع الذي جعلها تدلي بمثل ذلك البيان الصريح.

قالت: هم يدفعون لنا مقابل امتلاكنا أميالًا من الخطوط العديمة الفائدة التي لا تعرف أيّ حركة مرور.

فهم ميغز مغزى كلام داغني، فانحنى إلى الخلف كما لو أنّه فقد الرغبة في مواصلة

النقاش.

قاطعها تاجارت قائلا: هذا ليس صحيحًا! فنحن ندير عددًا كبيرًا من القطارات المحلّيّة لخدمة منطقة خطّنا العابر للقارّات -الخط الذي يمرّ من ولايات مثل أيوا ونيبراسكا وكولورادو- وكذا الجانب الآخر من النفق، عبر ولايات مثل كاليفورنيا ونيفادا ويوتا.

ردّ إيدي ويلرز، بلهجة بريئة كأنّه يقرأ تقرير عمل: نحن نشغّل قطارين محلّيّين في اليوم... بل أقلّ من ذلك في بعض الأماكن.

سألته داغني: وما الذي يحدّد عدد القطارات التي يجب على أيّ سكة حديد إدارتها؟

قال تاجارت: المصلحة العامّة.

ردّ إيدي: ومجمع مجلس الإدارة.

سألت داغني مجدّدًا: وكم عدد القطارات التي توقّفت في البلاد خلال الأسابيع الثلاثة الماضية؟

ردّ عليها تاجارت بلهفة: الحقّ أنّ الخطّة ساعدت على مواءمة الصناعة والقضاء على المنافسة الهدّامة.

قال إيدي: لقد قضت الخطّة على نسبة ثلاثين في المائة من القطارات التي تسير في البلاد. والشيء الوحيد الذي ما يزال نشيطا هذه الأيّام هو تقاطر الطلبات على المجلس للحصول على إذن بإلغاء نشاط بعض القطارات. والشركات الوحيدة التي ستنجو من هذا المأزق هي تلك التي ستتمكّن من عدم إدارة أيّ قطار على الإطلاق.

- هل حسب أحدكم الزمن المتوقّع الذي ستظلّ فيه شركة جنوب الأطلسيّ قادرةً على العمل؟

ردّ ميغز: هذا لا يعنيك.

صاح تاجارت: أرجوك يا ميغز.

قال إيدي: لقد انتحر رئيس شركة جنوب الأطلسيّ.

صاح تاجارت:

-هذه الحادثة لا تمتّ إلى الموضوع الذي نناقشه بأيّ صلة! إنّها مسألة شخصيّة!

ظلّت داغني صامتةً، ثمّ جلست وظلّت تنظر إليهم. فعقلُها ما يزال مخدّرًا بعنصر من الاستغراب واللّامبالاة. لقد نجح جيم دائمًا في تحويل خيباته الثقيلة، الناجمة عن منافسة أقوى المصانع من حوله، إلى نجاحات وبقي على قيد الحياة من خلال تدميرها وإجبارها على دفع ثمن تلك الأخطاء، مثلما فعل مع دان كونواي، ومثلما فعل أيضًا مع جلّ الصناعات في ولاية كولورادو. لكنّ ذلك السلوك لا تربطه أيّ علاقة بعقلانيّة اللصوص أو بمنطق الناهبين، ذلك الانقضاض على استنزاف هيكلٍ عظميّ لجثّة مَن هو أضعف منه، والهجوم على المنافس شبه المفلس، وتأخير إفلاسه فترةً وجيزة، بلا هدف سوى تكسير عظامه بين المهاجم والهاوية.

لم تكد عادة إعمال العقل تدفعُ داغني إلى الكلام، والجدال، والبرهنة على كلّ ما هو بديهيّ، لكنّها نظرت إلى وجوههم ولاحظت أنّهم يعرفون ذلك. ووفقًا لبعض المصطلحات المختلفة عن قاموسها، ووفقًا لسلوك واعٍ لا يمكن تصوّره، كانوا يعرفون كلّ شيء تستطيع إخبارَهم به، ويعرفون أنّ من غير المجدي أن تثبت لهم ما في مسارهم وعواقبه من رعبٍ غير عقلانيّ. وكان كلّ من ميغز وتاجارت يعرفان ذلك، ويكمن سرّ وعيهم به في الوسائل التي ساعدتهم على الهروب من غائيّة معرفتهم.

قالت بهدوء: فهمت.

صرخ تاجارت قائلًا: حسنا، وماذا كنتِ تريدينني أن أفعل؟ أن أتخلّى مثلا عن حركة مرورنا العابرة للقارّات؟ أن أفلس أو أحوّل حركة السكك الحديديّة إلى الساحل الشرقيّ البائس؟

يبدو أنّ كلمات داغني صفعته؟ كان يرتجف بسبب ردّها الهادئ والبسيط، ثمّ أضاف:

- لم يكن بوسعي منع ذلك! يجب علينا أن ندير مسارًا عابرًا للقارّات! ولم يكن هناك من طريقة للعبور والالتفاف حول ذلك النفق، ولا كان لدينا المال لدفع أيّ تكاليف إضافيّة! وكان لا بدّ لنا من فعل أيّ شيءٍ! وكان من الضروريّ أن ندير مسارًا.

كان ميغز ينظر إليه بنظرة يمتزج فيها الذهول والاشمئزاز، ثمّ ردّت داغني بجفافٍ:

- أنا لا أجادلك يا جيم.

- نحن لا نستطيع أن نسمح بانهيار شركة لسكك الحديد مثل شركة تاجارت العابرة للقارّات! وإن حصل ذلك فستكون كارثة وطنيّة! كان علينا أن نفكّر في كلّ المدن والصناعات والشاحنين والركّاب والأجراء وأصحاب الأسهم الذين تعتمد حياتهم علينا! ولم يكن ذلك من أجلنا فقط، بل من أجل المصلحة العامّة. والجميع يتّفقون على أنّ خطة توحيد السكك الحديديّة عمليّة! والأكثر إلمامًا...

ردّت عليه داغني: جيم، إذا كان لديك أيّ عمل آخر تريد مناقشته معي، فناقشه.

قال بصوت متجهّم: أنت لم تفكّري يومًا في البعد الاجتماعيّ لأيّ شيء.

فلاحظت أنّ ذلك الشكل من التظاهر لم يبدُ واقعيًّا بالنسبة إلى السيّد ميغز، كما الشأن بالنسبة إليها، وإن كان ذلك لسبب يقع على طرفي نقيض منه. لقد كان ميغز ينظر إلى جيم باحتقار مملّ. وبدا لها جيم فجأة مثل رجل يحاول أن يجد له طريقًا وسطًا بين قطبين -هي وميغز- ويرى الآن أنّ مساره كان يضيق وأنّه سيقع بين جدارَين مستقيمين.

سألت داغني السيّد ميغز وهي مدفوعة بلمسة من الفضول المرّ والمسلّي في آن واحد: ما هي خطّتك الاقتصاديّة للمستقبل المنظور، يا سيّد ميغز؟

ثمّ لاحظت عينيه البنّيتين النازفتين وهما تركّزان النظر عليها من دون تعبير. ثمّ

أجابها:

- أنت إنسانة غير عمليّة.

قاطعهما تاجارت قائلًا: إنّه من غير المجدي تمامًا الحديث عن النظريّات المتعلّقة بالمستقبل عندما يتوجّب علينا الاهتمام باللحظة الحاضرة الطارئة. فعلى المدى البعيد...

ردّ ميغز: على المدى البعيد، سنكون جميعًا موتى.

ثمّ نهض فجأة وقال بارتباك:

- يجب أن أغادر يا جيم، فأنا لا أملك وقتًا أضيّعه على مثل هذه المحادثات العقيمة. تحدّث معها في مسألة فعلِ شيء لوقف كلّ هذه الحوادث التي تتعرّض لها القطارات، إذا كانت -كما تقول- ساحرةً في مجال السكك الحديديّة.

قال تاجارت وهو يراقب خروج ميغز من دون أن ينظر إلى أيّ واحد منهما: سأراك لاحقًا يا ميغز

ثمّ نظر تاجارت إليها في رهبة، كما لو أنّه كان خائفا من تعليقها، ومع ذلك يأمل بشدّة في أن يسمع كلمة مّا منها، أيَّ كلمة.

سألته: حسنا، ثمّ ماذا؟

- ماذا تعنين؟

- هل لديك أيّ شيء آخر نناقشه؟

- حسنًا، أنا... نعم! لديّ أمر آخر أريد أن أناقشه، أهمّ شيء هو..

- عددُ حوادث القطارات المتزايدُ؟

- لا! ليس ذلك.

- ماذا إذَن؟

إنّه متعلّق... إنّك ستظهرين في برنامج بيرترام سكودر الإذاعيّ الليلة.

قالت وهي تنحني إلى الخلف:

-وسأفعل ذلك حقًّا؟

- داغني، إنّه أمر حتميّ، بل حاسم، والرفض أمرٌ مستبعد، فالمرء في مثل هذا الوقت لا يملك أيّ خيار...

قالت داغني بعد أن نظرت إلى ساعتها: سأمنحك ثلاث دقائق لتوضيح ضرورة ذلك وشرحها. ومن الأفضل لك أن تتحدّث بصراحة.

- حسنًا... هذا البرنامج الإذاعيّ هو الأهمّ، وستحضره شخصيّات مرموقة مثل تشيك موريسون وويسلي ماوتش والسيّد طومسون. ويجب عليك أن تلقي خطابا إلى الأمّة، لاستنهاض الروح المعنويّة... أنت تعلمين مدى أهمّيّة أن تقولي للناس إنّك لم تستقيلي.

- ولماذا؟

- لأنّ الجميع يعتقدون أنّك قدّمت استقالتك.. أنت لا تعرفين ما جرى في الآونة الأخيرة، ولكنّها... كانت فترة على شيءٍ من الغرابة. لقد ذاعت في البلاد الشائعات، كلّ أنواع الشائعات، وكلّها كانت خطيرة، أعني تخريبيّة. يبدو أنّ الناس لا يفعلون شيئا سوى بثّ الشائعات. إنّهم لا يصدّقون الصحف، ولا يصدّقون أفضل المتحدّثين، بل يصدقون كلّ ثرثرة شرّيرة، تثير الذعر وتنتشر كالنار في الهشيم. لم يعد هناك أيّ ثقة أو إيمان أونظام... ولا أيّ احترام للسلطة... ويبدو أنّ الناس على حافّة الذعر.

- وهل هذا أمر حسن؟

- إنّه حسن لسبب واحد، يرتبط بذلك العمل اللعين الذي أقدم عليه كلّ أولئك الصناعيّين الكبار الذين اختفوا وتبخّروا في الهواء! ولم يتمكّن أيّ واحد من تفسير هذه الظاهرة، الشيء الذي يزرع التوتّر بين الناس... قد تشكّكين في أنّك أصبحت مشهورة

جدًّا، لكنّك أصبحت كذلك منذ حادث تحطّم طائرتك. إذ لم يصدّق أحدٌ موضوع تحطّم الطائرة، لقد كان الجميع يقولون إنّك خرقتِ القانون، أي القانون التوجيهيّ رقم 289-10، وغادرت. ثمّة كثير من اللغط الشعبيّ... ومن سوء الفهم للقانون التوجيهيّ رقم 289-10، وثمّة أيضًا كثيرٌ من... البلبلة بخصوص هذا القانون. أنت الآن تفهمين مدى أهمّيّة الحضور المباشر بذلك البرنامج المذاع على الهواء لتخبري الناس بأنّ القول إنّ القانون التوجيهيّ رقم 289-10 يدمّر الصناعة هو قول خاطئ، وأنّه قانون تشريعيّ سليم سنّ من أجل تعميم الخير على الجميع، وأنّهم إذا تحلّوا بالصبر فترةً أطول قليلًا، فستتحسّن الأمور ويعمّ الرخاء. فهم ما عادوا يصدّقون أيّ مسؤول عامّ... أمّا أنت فتنتمين إلى طبقة الصناعيّين، بل أنت من القلّة التي تنتمي إلى المدرسة القديمة، والوحيدة التي عادت بعد أن ظنّوا أنّك غادرت نهائيًّا. لقد أصبحت معروفة بينهم... بأنّك إنسانة رجعيّة تعارضين سياسات واشنطن. وعلى هذا الأساس، فإنّ الناس سيصدّقونك وسيكون لك تأثير كبير عليهم وستعزّزين ثقتهم بك وسيساعدهم ذلك في رفع معنويّاتهم. هل تفهمين الآن وجهة نظري؟

لقد اندفع في الكلام، بتشجيع من نظرة غريبة أوحت بها تقاسيم وجهها، نظرة من التأمّل كانت تشبه ابتسامة خافتة.

أمّا هي فاستمعت إليه، وبدا لها صوته، وهو ينطق كلماته، شبيهًا بصوت ريردن الذي تذكّرت قوله في إحدى الأمسيات الربيعيّة منذ أكثر من عام خلا: إنّهم يحتاجون منّا إلى نوع من أنواع العقوبات. أنا لا أعلم طبيعة تلك العقوبات، لكن يا داغني، أعلم أنّه إذا كنّا نقدّر حياتنا، فيجب ألّا نعطيهم إيّاها. حتّى إذا وضعوك على طاولة التعذيب، لا تعطِهم إيّاها. دعيهم يدمّروا سكّة حديدك ومطاحني لكن لا تعطِهم إيّاها.

- هل تفهمين الآن ما أريد؟

- أوه نعم يا جيم، فهمتك!

لكنّ جيم لم يتمكّن من استيعاب إيحاءات صوتها الذي كان منخفضًا ويخيّم الأنين على جانب منه، وحمل في جانب آخر ملامح ضحكة مكتومة، وعَلَتْه من ناحية أخرى علامات الانتصار، لكنّه كان أوّل صوت عاطفة يصدر عنها. ثمّ قال:

- لقد وعدت من هُم في واشنطن بأنّك ستتكلّمين! ولا يمكننا أن نخذلهم في قضيّة من هذا النوع، فنحن لا نستطيع تركَهم يتّهموننا بالخيانة. لقد أُعدّ لكلّ شيء مسبّقًا وستكونين ضيفة ببرنامج بيرترام سكودر الليلة على الساعة العاشرة والنصف. فسكودر لديه برنامج إذاعيّ يلتقي فيه بشخصيّات عامّة بارزة ويتابعه الكثيرون على المستوى الوطنيّ يصل عددهم إلى أكثر من عشرين مليون شخص. لقد قام مكتب التكييف المعنويّ...

- مكتب ماذا؟

- دعاني مكتب التكييف المعنويّ الذي يشرف عليه تشيك موريسون ثلاث مرّات، للتأكيد على ضبط الترتيبات اللّازمة لتجنّب أيّ أخطاء. لقد أصدروا أوامر لجميع مذيعي الأخبار، الذين كانوا يعلنون عن ذلك طوال اليوم، في جميع أنحاء البلاد، لإخبار الناس بضرورة الاستماع إليك الليلة في برنامج بيرترام سكودر.

ونظر إليها كما لو أنّه يطالبها بإجابة واعتراف بأنّ إجابتها هي العنصر الأقلّ أهمّيّة في مثل تلك الظروف. فقالت:

- أنت تعرف رأيي في سياسات واشنطن والقانون التوجيهيّ رقم 289-10.

- في وقت كهذا لا يمكننا تحمّل تَرَف التفكير!

ضحكت داغني بصوت عال. فصرخ قائلا:

- لكن ألا ترين أنّك لا تستطيعين رفض التعامل معهم الآن؟ إذا لم تظهري بعد كلّ تلك الإعلانات، فأنت تدعمين بذلك الشائعات، وسيرقى فعلك هذا إلى إعلان مفتوحٍ للخيانة!

- لن ينجح فخّك يا جيم.

- أيّ فخّ؟

- ذلك الفخّ الذي كنتَ تعدّه دومًا.

- لا أعلم ماذا تعنين بذلك!

- أنت تعلم. وكنت تعلم -وكلّ واحد منكم يعلم- أنّني سأرفض. لذلك دفعتني إلى فخّ عامّ يكون فيه رفضي بمثابة فضيحة محرجة لك، أكثر إحراجًا ممّا ظننت أنّي سأجرؤ على التسبّب فيه. لقد كنتم تعوّلون عليّ لإنقاذ ماء وجوهكم وأعناقكم. لا لن أنقذكم.

- لكنّني وعدتهم!

- أمّا أنا فلم أعدهم بأيّ شيء.

- لكنّنا لا نستطيع رفض طلباتهم! ألا ترين أنّهم جرّونا إلى ملعبهم؟ إنّهم يمسكون برقابنا؟ ألا تعرفين ما يمكنهم فعله بنا من خلال مجمع سكك الحديد، أو من خلال مجلس الاتّحاد، أو من خلال وقف سنداتنا على نحوٍ اختياريّ؟

- لقد أدركت ذلك قبل سنتين.

كان جيم يرتجف؛ وقد اخترقه رعب لا يوصف، لا يكاد يكون رعبًا يائسًا بلا شكلٍ وبعمقٍ خرافيّة لا يناسب المخاطر التي سمّاها. فشعرت داغني فجأةً بأنّه كان متأتّيًا من شيء أعمق من خوفه من الانتقام البيروقراطيّ، وأنّ الثأر هو التعريف المناسب الوحيد له، تعريف سمح لنفسه بمعرفته، وهو مطمئن، وبه مظهر من مظاهر العقلانيّة لكنّه يخفي دافعه الحقيقيّ. كانت متأكّدة من أنّه لم يكن يريد تلافي خوفه على البلاد بل يرغب في تجنّب الذعر الذي اعتلاه هو من تلقاء نفسه، وأيقنت أيضًا أنّه هو وتشيك موريسون وويسلي ماوتش وكلّ من تبقّى من طاقم النهب كانوا بحاجة إلى تأييدها. ولم يكونوا بحاجة إلى طمأنة الضحايا بل إلى طمأنة أنفسهم، على الرغم من مزاعمهم

الماكرة، وتظاهرهم العمليّ بالفكرة التي يوهمون ضحاياهم بها، تلك الفكرة هي التعريف الخاصّ بهم وهي التي تَسِم دافعهم وإصرارهم الهستيريّ. وتساءلت باحتقار رهيب -زادت من رهبته جسامة الرؤية- عن مدى الانحطاط الداخليّ الذي يجب أن يبلغه هؤلاء الناس للوصول إلى مستوى خداع أنفسهم من أجل انتزاع موافقة الضحيّة غير الراغبة وابتزاز التأييد الأخلاقيّ الذي يريدونه، هم الذين اعتقدوا أنّهم لا يكادون يقدرون على خداع العالم.

صرخ جيم قائلا: لا نملك أيّ خيار! ولا أحد يملك أيّ خيار!

ردّت بصوت هادئ جدًّا: اخرج من هنا.

لقد صدمته نبرة صوتها فأثارت الاعترافات غير المعلنة بداخله، كما لو أنّها عبّرت عنها من خلال الكلمات، فأدرك جيم أسبابَها وخرج.

ثمّ أخذت داغني تنظر إلى إيدي؛ لقد بدا مثل رجل أعياه قتال آخر هجمات الغثيان التي تعلّم تحمّلها كحالة مزمنة.

وبعد مرور لحظة، سألها: داغني، ما كان مصير كوينتن دانيالز؟ لقد كنت تلاحقينه، أليس كذلك؟

قالت: نعم، لقد رحل.

- هل قصد المدمّر؟

فصدمتها الكلمة كما لو أنّها لطمة جسديّة. لقد كانت أوّل لمسة للعالم الخارجيّ أثّرت في الحضور المتألّق الذي رافقها طوال ذلك اليوم بوصفه نظرة ثابتة صامتة، نظرة خاصّة لا تتأثّر بأيّ شيء من الأشياء التي كانت حولها، ولا يمكن التفكير فيها إلّا بكونها مصدر قوّتها. وأدركت أنّ المدمّر كان اسم تلك النظرة ومعناها هنا في عالمهم.

ردّت بذبول: نعم، لقد التحق بالمدمّر.

ثم أمسكت يديها بحافة المكتب، لتثبيت هدفها وموقفها، وقالت وهي تبتسم:

- حسنا يا إيدي، دعنا نرى ما بوسع شخصين غير عمليين من أمثالنا أن يقوما به للحد من حوادث القطارات

وبعد مرور ساعتين -وعندما كانت وحدها بمكتبها منحنيةً تتصفّح أوراقًا لا تحمل سوى أرقامٍ، كما لو أنّها كانت تراقب فيلمًا سينمائيًّا يعرض أمامها ويروي لها القصّة الكاملة التي شملت ما وقع للسكك الحديديّة من أحداث خلال الأسابيع الأربعة الماضية- رنّ الجرس فأخبرها صوت سكرتيرتها: السيّدة ريردن ترغب في مقابلتك يا آنسة تاجارت.

سألتها بدهشة كأنّها لم تصدق ما قالته السكرتيرة: هل قلت السيّد ريردن؟

- لا، بل قلت السيّدة ريردن.

قالت بعد لحظة من الصمت:

-دعيها تدخل من فضلك.

كانت في سلوك ليليان ريردن مسحةٌ غريبةٌ من المبالغة عندما دخلت ومشت نحو المكتب. وكانت ترتدي بدلة مصمّمة خصّيصًا على مقاسها، بقوس فضفاض ساطع معلّق بشكل عرضيّ من الجانبين يوحي بتناقض أنيق، وقبّعة صغيرة مائلة بذكاء وعلى نحوٍ مسلٍّ؛ وبدا وجهها ناعمًا جدًّا، وخطواتها بطيئة جدًّا، إذ كانت تمشي تقريبا كما لو أنّها تتأرجح بوركيها.

قالت ليليان: كيف حالك يا آنسة تاجارت.

لقد حيّتها بصوت لطيف متثاقل، يشبه تلك الأصوات التي تتردّد في قاعات الاستقبال، فكان صادمًا في ذلك المكتب، بأسلوب التناقض نفسه الذي رافق بدلتها وقوسها.

فأمالت داغني رأسها بشدّةٍ. وأخذت ليليان تلقي نظرة في أرجاء المكتب؛ وكانت نظرتها تحمل الأسلوب المسلّي الذي بدت عليه قبّعتُها، تسلية ترمي إلى التعبير عن

النضج من خلال الاعتقاد بأنّ الحياة لا يمكن أن تعني أيّ شيء سوى السخافة.

قالت داغني: اجلسي من فضلك.

فجلست ليليان بثقةٍ وبهيئةِ استرخاءٍ عرضيّ على نحوٍ رشيق. وعندما التفتت بوجهها إلى داغني، كانت التسلية لا تزال تغشى محيّاها، ولكنّ ظلالها بدت الآن مختلفة: يبدو أنّها تشير إلى أنّهما تتقاسمان سرًّا مشتركًا من شأنه أن يجعل وجودَها هناك يبدو سخيفًا أمام أنظار العالم، لكنّه كان بديهيّا ومنطقيًّا لكليهما. وشدّدت على ذلك بالبقاء صامتةً.

قالت داغني: ما الخدمة التي يمكنني أن أسديها إلى حضرتك؟

ردّت ليليان بسرور: أتيت لأخبرك بأنّك ستظهرين الليلةَ في برنامج بيرترام سكودر.

ولم تلاحظ ليليان أيّ علامات على الدهشة في وجه داغني، ولا أيّ آثار للصدمة، وبدت عليها فقط ملامح مهندس يدرس محرّكًا يُصدِر صوتًا غير منتظم.

ردّت داغني: أفترض أنّك تدركين تمامًا شكلَ الجملة التي نطقت بها.

- ردّت ليليان: أوه نعم!

- واصلي إذَن دعم بيانك.

- عذرا، ماذا تقصدين؟

- واصلي إخباري بما جئت من أجله.

فضحكت ليليان فترةً وجيزةً، ودلّ إكراهها على الإيجاز في الضحك على أنّ الموقف لم يكن تمامًا ما توقّعت، فقالت:

- أنا متأكّدة من أنّه لن يكون من الضروريّ تقديم تفسيرات مطوّلة. فأنت تعرفين السبب الذي يجعل من ظهورك بهذا البرنامج مهمًّا لمن هُمْ في السلطة. وأعرف السبب

الذي يدفعك إلى رفض الظهور، كما أعلم قناعاتك بشأن هذا الموضوع. لعلّك لا تعلّقين أيّ أهمية على مثل هذا الحدث، لكنّك تعرفين أيضًا أنّ تعاطفي كان دائمًا مع النظام وفي صفّ من هم في السلطة الآن. لذلك، ستتفهّمين اهتمامي بالقضيّة ومكاني فيها. عندما أخبرني أخوك بأنّك رفضتِ، قرّرت أن أساعدك في هذه المسألة، لأنّني، كما ترين، واحدةٌ من بين القلائل الذين يعرفون أنّك لستِ في وضع يسمح لك بالرفض.

ردّت داغني: لم أُصْبِح بعدُ واحدةً من هؤلاء القلّة.

قالت ليليان وهي تبتسم: حسنًا إذن، يجب أن أشرح لك أكثر. أنت تدركين أنّ ظهورك الإذاعيّ مهمّ جدًّا لمن هم في السلطة. إنه سيحظى بالقيمة ذاتها التي حظي بها توقيع زوجي على شهادة الملكيّة. أنت تعرفين كم كانوا يكرّرون ذلك الحدث وكم استفادوا منه في كلّ حملاتهم الدعائيّة.

ردّت داغني بحدّة: لم أكن أعلم ذلك.

– بالطبع، فقد كنتِ غائبة على مدى أكثر من شهرين، وربّما فاتتك تلك الأخبار الدعائيّة التي كانت تتردّد باستمرار في الصحافة والإذاعة والخطب العامّة، والتي كانت تؤكّد أنّه حتّى هانك ريردن يوافق على القانون التوجيهي رقم 289-10 ويدعمه منذ أن أمضى طوعًا على التخلّي عن معدنه لصالح الأمّة. نعم حتّى هانك ريردن فعل ذلك وهذا يثبّط عزيمة عددٍ كبير من المتمرّدين ويساعد على محاصرتهم.

ثمّ انحنت ليليان إلى الخلف وسألت داغني: هل سبق أن سألته عن السبب الذي جعله يوقّع على التخلّي عن معدنه؟

لكنّ داغني لم تجبها؛ ويبدو أنّها لم تفهم أنّ ما قالته محدّثتها كان سؤالًا؛ بل جلست ساكنة، وكانت ملامح وجهها تخلو من أيّ تعبير، ولكنّ عينيها بدتَا متّسعتَين جدًّا ومثبّتتين على ليليان كما لو أنّها الآن عازمة على شيء واحد، وهو سماع ليليان حتّى النهاية.

قالت ليليان، بصوت أكثر سلاسة:

-لا، لا أعتقد أنّك تعرفين ذلك. ولا أعتقد أنّه كان سيخبرك بذلك أبدًا. ومع هذا يجب أن تعرفي السبب الذي جعله يوقّع، لأنّه السبب نفسه الذي سيجعلك تظهرين في برنامج بيرترام سكودر الليلة. مكتبة سُر مَن قرأ

وتوقّفت ليليان عن الكلام، ورغبت في أن تحثّها داغني على الاستمرار؛ لكنّ داغني كانت تنتظرها بصمت.

قالت ليليان: إنّه السبب الذي من شأنه أن يسعدك، مادام يتعلّق بأفعال زوجي. فقط ضعي في اعتبارك ما كان يعنيه ذلك التوقيع بالنسبة إليه. لقد كان معدن ريردن أعظم إنجازاته، وأفضل خلاصةٍ توّج بها حياته، والرمز الأخير لفخره. وزوجي، كما تعلمين، رجلٌ شغوف جدًّا بعمله، ومعتزّ بذاته وربّما يكون فخره بنفسه أعظمَ شغف له. ومعدن ريردن هو أكثر من إنجاز بالنسبة إليه، إنّه رمزٌ إلى قدرته على الإنجاز، ورمزٌ إلى استقلاليّته وكفاحه. لقد كان مُلكًا له، وامتلكه بموجب الحقّ. وأنت تعلمين ما تعنيه الحقوق لرجل صارم مثله، وما تعنيه الملكيّة لرجل متملّك غيور. إذ كان مستعدًّا للموت بكلّ سرور للدفاع عنه بدلًا من تسليمه للناس الذين لطالما احتقرهم. هذا ما كان يعنيه له، وهذا ما تخلّى عنه. ستسعدين بمعرفة أنّه تخلّى عن ذلك من أجلك يا آنسة تاجارت. ومن أجل سمعتك وشرفك. لقد وقّع على شهادة الهدايا بتسليم معدن ريردن تحت تهديد فضح الخيانة الزوجيّة التي اقترفها معك أمام أنظار العالم. نعم، لدينا الدليل الكامل على ذلك، بكلّ التفاصيل الحميمة الدقيقة. وأعتقد أنّ لديك فلسفةً ترفض التضحية، لكن في هذه الحال، وبما أنّك امرأة، فأنا متأكّدة من أنّك ستشعرين بالامتنان لحجم التضحية التي قدّمها هذا الرجل من أجل امتياز استغلال جسدك. فلا شكّ أنّك استمتعت أيّما استمتاع في الليالي التي قضّاها في سريرك. ويمكنك الآن أن تستمتعي بمعرفة ما كلّفته تلك الليالي، بما أنّك تحبّين الفظاظة، أليس كذلك يا آنسة تاجارت؟ وبما أنّ مكانتك التي اخترتِها وفضّلتِها هي أن تكوني مثل العاهرة، فأنا سأخلع قبّعتي لك في ما يتعلّق بالثمن الذي فرضته، والذي لا يمكن

لأيّ واحدة من مثيلاتك أن تأمل في طلبه.

وظلّ صوت ليليان يزداد حدّةً، بينما كانت داغني تواصل النظر إليها، لكنّ الحدّة تلاشت من عينيها وموقفها. وتساءلت ليليان لماذا شعرت كما لو أنّ وجه داغني قد سُلّطت عليه الأضواء. غير أنّها لم تتمكّن من اكتشاف أيّ تعبير معيّن فيه، بل بدا لها ذلك الوجه في راحة طبيعيّة. ويبدو أنّ الوضوح كان متأتّيًا من بنيته، ومن دقّة خطوطه الحادّة، وصلابة فمها، وثبات عينيها. ولم تتمكّن ليليان من فكّ شفرة تعابير عيني داغني، التي بدت غير متناقضة، وبهدوء لا يشبه هدوءَ امرأةٍ، بل يشبه هدوء عالم أكاديميّ، بخاصيّة مميّزة لامعة بدت بشجاعة المعرفة الراضية نفسها.

قالت ليليان بهدوء: أنا من أبلغت أولئك البيروقراطيّين بخيانة زوجي.

فلاحظت داغني أوّل وميض من الشعور في عيني ليليان الهامدتين؛ شعور يشبه المتعة، ولكنّه بدا من بعيد كأنّه يشبه ضوء الشمس المنعكس على سطحٍ ميّتٍ بالقمر، ومن ثمّ على المياه الراكدة لأحد المستنقعات؛ فأومض لحظةً ثمّ اختفى.

وواصلت ليليان كلامها قائلة: أنا من أخذ معدن ريردن منه.

بدا كلامها تقريبًا مثل الالتماس.

لم يكن بوسع عقلِ داغني فهمُ ذلك الالتماس أو معرفة أيّ ردّ كانت ليليان تأمل في سماعه؛ بل عرفت فقط أنّها لم تجده، عندما سمعت صياحَ صوتِ ليليان المفاجئَ: هل فهمتني؟

- نعم.

- إذن أنت تعرفين ما أطالبك به، ولماذا يتوجّب عليك طاعتي؟ أكنت تعتقدين أنّكما، أنت وهانك، لا تُقهران؟ أليس كذلك؟

وكان صوتها يحاول أن يكون سَلِسًا، لكنّه كان يرتجف من حين إلى آخر. ثمّ أضافت:

- لم تتصرّفي دائمًا وفق أيّ إرادة ما عدا إرادتك الخاصّة، وتلك رفاهية لم يكن بوسعي

تبنّيها. وهذه هي المناسبة الأولى -وهي بمثابة التعويض لي- التي سأراك تتصرّفين فيها وفقًا لطريقتي الخاصّة. فأنت لا يمكنك مواجهتي، لأنّك لا تستطيعين شراء طريقك للخروج من هذا المأزق، بتلك الدولارات التي أنت قادرة على كسبها، أمّا أنا فلا أستطيع. إذ لا يوجد أيّ ربح يمكنك تقديمه لي، أنا لست جشعةً، ولا أحد يدفع لي من أولئك البيروقراطيّين مقابل القيام بهذا العمل، أنا أقوم بهذا الأمر، ولا أبتغي أيّ ربح، فهل تفهمين ما أقصده؟

- نعم.

- إذَن لا حاجة بي إلى في ذكر مزيد من التوضيحات، فقط سأذكرك بأنّ جميع الأدلّة المادّيّة مثل سجلّات الفنادق، وفواتير المجوهرات وأشياء أخرى لا تزال في حيازة الأشخاص المناسبين، وستعرض في كلّ برنامج إذاعيّ غدًا ما لم تظهري الليلة في برنامج سكودر. هل هذا واضح؟

- نعم

- ما جوابك الآن؟

فلاحظت ليليان عينَي داغني وهما تنظران إليها بذاك البريق الذي تنظرُ به عينَا العَالِمِ، وفجأة شعرت كما لو أنّها رأت فيهما معاني كثيرةً، وفي الآن نفسه كما لو أنّها لم ترَ أيّ شيء منها على الإطلاق.

قالت داغني: أنا سعيدة لأنّك أخبرتني بذلك. سأظهر الليلة في برنامج بيرترام سكودر.

***

كان هناك شعاع من الضوء الأبيض ينعكس على المعدن اللّامع لمضخّم الصوت، وسط قفص زجاجيّ يسجن داغني مع بيرترام سكودر. وكانت شرارات اللمعان خضراء تميل إلى الزرقة؛ كان المايكروفون مصنوعًا من معدن ريردن.

كان يمكن لداغني تبيّن وجودِ مقصورة بصفين، خلفَ رُقاقةٍ من الزجاج أمامهما إلى أعلى، أثّثْها وجوهٌ تنظر إلى أسفل صوب وجهها: وبدا أيضا من بين تلك الوجوه، وجه جيمس تاجارت المرتخي والقلق. وكانت ليليان تجلس بالقرب منه، واضعةً يدها على ذراعه بحثًا عن الطمأنينة والراحة. ثمّ قدم رجل يبدو أنّه قد وصل للتوّ من واشنطن على متن طائرة، وَقُدِّم لها على أنّه تشيك موريسون الذي رافقته مجموعة من الشباب من موظّفيه، الذين كانوا يتحدّثون عن نسب مستويات التأثير الفكريّ لكنّهم يتصرّفون مثل رجال شرطة المرور.

ويبدو أنّ بيرترام سكودر كان خائفًا منها، لأنّه كان يتمسّك بمضخّم الصوت، وينفث الكلمات عبر شبكته الحسّاسة، في آذان سكّان البلاد، ليقدّم موضوع برنامجه. وكان يعمل جاهدًا حتّى يبدو ساخرًا ومشكّكًا، متفوّقًا وهستيريّا معًا، وحتّى يبدو وكأنّه رجل يسخر بغرور من كلّ المعتقدات البشريّة. وهكذا يطالب بتصديق فوريّ من مستمعيه. وكانت هناك بقعة صغيرة من الرطوبة انعكس ضوؤها على الجزء الخلفيّ من رقبته. كان بيرترام يصف بالتفاصيل الزائدة عن اللزوم شهرَ النقاهة الذي قضته داغني بكوخ راعي الغنم المعزول، وسيرها البطوليّ على مسافة خمسين ميلًا من الممرّات الجبليّة من أجل استئناف واجباتها تجاه الناس في تلك الظروف العصيبة من حالة الطوارئ الوطنيّة التي تعيشها البلاد.

... وإذا كان أيّ واحد منكم قد تعرّض للخداع بسبب الشائعات الخبيثة التي تهدف إلى تقويض إيمانكم ببرنامج قادتنا الاجتماعيّ العظيم...

وقفت داغني وهي تنظر إلى الشعاع الأبيض، وكانت هناك بقع من الغبار تحوم حوله، فلاحظت أنّ إحدى تلك البقع كانت متّقدة بالحياة: إنّها بعوضة صغيرة تحلّق بجناحين متألّقين، وتناضل من أجل تحقيق هدفٍ حدّدته لنفسها من تلقاء ذاتها، وظلّت داغني تراقبها فشعرت بالبعد عن هدفها والهدف من وجودها في هذا العالم.

وتعتبر الآنسة تاجارت بمثابة المراقب المحايد، فهي سيّدة أعمال رائعة اعتادت على

انتقاد الحكومة في ماضيها المشرّف، ويمكننا القول إنّها تمثّل الموقف المحافظ المتطرّف، الذي يتّخذه جلّ عمالقة الصناعة من أمثال هانك ريردن. لكن حتّى إن كانت هي..

وتساءلت داغني بداخلها عن مدى سهولة الأمر عندما لا يشعر المرء بأيّ شيء؛ فبدت وكأنّها تقف عارية أمام الملإ، وقد قدّم لها شعاع الضوء ما يكفي من الدعم، لأنّها لم تكن تحمل بداخلها وزرَ أيّ ألم في حياتها، بلا أمل، أو ندم، أو قلق، أو مستقبل.

... والآن، أيّها السيّدات والسادة، دعوني أقدّم لكم بطلةَ هذه الليلة، ضيفتنا الاستثنائيّة..

وعلى نحوٍ مفاجئ عاد الألم مجدّدًا إلى داغني، مثل طعنة خارقة أو شظيّة زجاج قذفت من جدار الحماية، وقد هشّمتها معرفة أنّ الكلمات الموالية ستكون كلماتها؛ لقد عاودها الألم فترةً وجيزةً تحت عنوان لطالما أعطته اسمًا بذهنها هو اسم الرجل الذي كانت تسمّيه المدمّر، فهي لا ترغب في أن يسمع ما ستقوله الآن. وإن سمعته -وكان الألم بمثابة صوت صارخ يبوح له بكلّ شيء- فلن تصدّق الأشياء التي سبق أن قلتها لك.. لا، بل وحتّى الأسوأ من ذلك، بما فيها الأشياء التي لم أقلها، ولكن التي عرفتها وصدّقتها وقبلتها، ستظنّ أنّني لم أكن حرّة لأقدّمها لهم وأنّ أيّامي معك كانت مجرّد كذبة، وهذا سيدمّر الشهر الذي قضّيته معك والعشرات من سنواتك، لكنّ هذه لم تكن الطريقة التي أردتك أن تعلم من خلالها، وليس على هذا النحو، وليس الليلة، لكنّك ستعلم بكلّ شيء، أنت يا مَن كنت تشاهدني عن قرب وتعرف كلّ حركاتي وسكناتي، أنت يا من تراقبني الآن، أينما كنت، ستنصت إلى كلّ شيء، ولكن يجب أن تسمع ما يجب أن يقال.

إنّها آخر سليلٍ لأشهر اسمٍ في تاريخنا الصناعيّ، إنّها المرأة التنفيذيّة الوحيدة في أمريكا، نائبة الرئيس التنفيذيّ لشركة السكك الحديديّة العظيمة: الآنسة داغني تاجارت!

ثمّ شعرت بلمسة معدن ريردن، عندما أغلقت يدها على جذع مضخّم الصوت،

وبدا الأمر سهلًا هيّنًا فجأةً، لكنّه لم يكن بسهولة تخدير اللّامبالاة، بل كان نابعًا من سلاسة الفعل الحيّة الواضحة الساطعة.

لقد جئت إلى هنا لأحدّثكم عن البرنامج الاجتماعيّ والنظام السياسيّ والفلسفة الأخلاقيّة التي تعيشون وفقها الآن.

كان هناك هدوء، طبيعيّ جدًّا، مليء باليقين التامّ في نبرة صوتها، ذلك الصوت النقيّ الذي بدا وكأنّه يحمل إقناعًا هائلًا.

لقد سمعتم ما قيل من اعتقادي أنّ الفساد هو دافع هذا النظام، وأنّ النهب هو هدفه، وأنّ الكذب والاحتيال والقوّة هي أساليبه، وأنّ التدمير هو نتيجته الوحيدة. وقد سمعتم أيضًا ما قيل عنّي من أنّني، مثل هانك ريردن، من المؤيّدين الموالين لهذا النظام، وأنّني أدعم بشكل طوعيّ السياسات الحاليّة مثل القانون التوجيهيّ رقم 289-10 . ولقد أتيت إلى هنا لأخبركم بالحقيقة في خصوص هذا الموضوع.

صحيح أنّني أشارك هانك ريردن في موقفه وأتبنّى قناعاته السياسيّة نفسها. لقد سمعتموه وهو يندّد في الماضي بكلّ خطوة من خطوات النظام الحاليّ وكلّ تدبير وكلّ شعار وكلّ فرضيّة. والآن أنتم تسمعون الإشادة به بوصفه أعظم صناعيّ لدينا، وأنّ حكمه على قيمة السياسات الاقتصاديّة يمكن الوثوق به في أمانٍ. هذا صحيح. يمكنكم أن تثقوا بأحكامه، وإن بدأتم الآن تخشون أن تكونوا قد وقعتم تحت طائلة قوّة شرّ غير مسؤول، وأنّ البلاد بصدد الانهيار، وأنّكم ستواجهون قريبًا خطر الجوع والمجاعة، فعليكم أن تأخذوا بعين الاعتبار وجهات نظر صناعيّينا الأقدر، فهو يعرف الظروف اللّازمة لجعل الإنتاج ممكنًا والسماح لبلدٍ مّا بالبقاء على قيد الحياة. ولتنظروا في كلّ ما تعرفون عن آرائه. فهو قادرٌ في مثل هذه الأوقات العصيبة على الكلام، وكنتم تنصتون إليه وهو يخبركم بأنّ سياسات هذه الحكومة تقودكم إلى العبوديّة والدمار. ومع ذلك لم يرفض الذروة النهائيّة لسياسات القانون التوجيهيّ رقم 289-10 . لقد سمعتموه وهو يناضل من أجل حقوقه وحقوقكم، وكذا من أجل استقلاليّته

وممتلكاته. ولكنّه لم يحارب القانون التوجيهيّ رقم 289-10. لقد وقّع طوعًا -وهذا ما أُخبِرْتُم به - على شهادة الهديّة التي سلّم بموجبها معدنَ ريردن إلى أعدائه. لقد أمضى الورقة الوحيدة التيكنتم تتوقّعون منه، وفقًا لكلّ سجلّاته السابقة، أن يقاتل من أجل رفضها حتّى الموت. ماذا يمكن أن يعني هذا الأمر؟ هو يعني أنّه اعترف بالحاجة إلى القانون التوجيهيّ رقم 289-10 وأنّه ضحّى بمصالحه الشخصيّة من أجل البلاد. ولقد قيل لكم باستمرارٍ أن تحكموا على آرائه من خلال الدافع الذي اضطرّه إلى ذلك الفعل. وعلى هذا النحو أوافق من دون تحفّظٍ على: الحكم على آرائه وفقًا للدافع الذي كان وراء ذلك الفعل. ومهما كانت القيمة التي تعلّقونها على وجهة نظري وعلى أيّ تحذير قد أطلعكم عليه، فعليكم أن تحكموا على آرائي أيضًا وفقًا للدافع نفسه الذي يحرّك ذلك الفعل، لأنّ قناعات ريردن هي نفسها قناعاتي.

على مدى سنتين متتاليتَين، كنت عشيقة هانك ريردن. وينبغي ألّا يوجَد سوء فهم بخصوص هذا الشأن: إنّني أقول هذا، لا بوصفه اعترافًا مخزيًا، بل لكونه أعلى درجة من درجات الفخر. كنت عشيقته ونمت معه في سريره، وفي حضنه. ولا يوجد شيءٌ يمكن لأيّ أحدٍ إخباركم به عنّي الآن، لأنّني سأكون أوّل من سيخبركم به. وسيكون من غير المجدي التشهير بي، فأنا أعلم طبيعة الاتّهامات التي ستوجّهونها إلى كلينا... حسنًا، سأقولها لكم بنفسي. فهل كنت أشعر برغبة جسديّة تجاهه؟ نعم كنت كذلك. وهل تأثّرت بمفعول عاطفتي الجسديّة الجيّاشة؟ نعم تأثّرت. وهل عشت معه أكثر أشكال المتعة الحسّيّة عنفًا؟ نعم لقد فعلت. فإذا كان هذا ما يجعلني الآن امرأةً مخزية في عيونكم... فدعوا تقديركَم يكون مشغّلَكم الخاصّ. فأنا سأقف عند مشاغلي أيضًا.

كان بيرترام سكودر يحدّق في وجهها. فخطابها هذا لم يكن متوقّعًا، لذلك شعر بذعر خفيّ جعله يقرّر أنّه ليس من المناسب السماح لها بالاستمرار في الحديث، لكنّها كانت ضيفته الخاصّة وقد أمره حكّامُ واشنطن أن يتعامل معها بحذرٍ؛ وأنّه لم يكن متأكّدًا ممّا إذا كان من المفترض به الآن أن يقاطعها أم لا؛ بالإضافة إلى أنّه من الصحفيّين الذين يستمتعون بهذا النوع من القصص. وفي مقصورة الجمهور، كان جيمس تاجارت

وليليان ريردن قد تجمّدا في مكانهما، مثل أيّ حيوان تشلّ الأضواءُ حركتَه؛ فهما الوحيدان اللذان يعرفان العلاقة بين الكلمات التي كانا يسمعانها وموضوع ذلك البرنامج الإذاعيّ؛ وقد فاتهما أوان التحرّك؛ فلم يتجرّأ على تحمّل مسؤوليّة الحركة أو ما سيعقبهما من أفعال. أمّا في غرفة التحكّم، فكان هناك شابّ مثقّف ينتمي إلى طاقم تشيك موريسون كان على استعداد لقطع البثّ المباشر في حالة وقوع أيّ مشاكل، لكنّه لم يلاحظ أيّ أهمّيّة سياسيّة في الخطاب الذي سمعه، إذ لم يَرَ أيّ عنصر يمكن أن يفسَّر على أنّه يشكّل خطرًا على أسياده. لقد كان معتادًا على سماع الخُطَب المنتزعة بالابتزاز من قبل مجهولين للضغط على الضحايا غير المستعدّين للخضوع، وخَلُصَ إلى أنّ تلك حالةٌ رجعيّة قسريّة أجبرت داغني على الاعتراف بفضيحة، لذلك فإنّ الخطاب قد يحظى ببعض القيمة السياسيّة، ثمّ إنّ فضوله قد ورّطه في سماع هذه القصّة.

أنا فخورةٌ بأنّه اختارني ليمنحني تلك المتعة، وبأنّه هو أيضا كان اختياري الشخصيّ، وأنّه لم يكن -مثلما هي الحال بالنسبة إلى معظمكم- فِعْلَ تساهلٍ عفويّ وازدراءٍ متبادل. لقد كان الشكل النهائيّ لإعجاب أحدنا بالآخر، وبمعرفة كاملة بالقيم التي اخترناها. فنحن من بين القلائل الذين لا يفصلون قيم عقولهم عن أفعال أجسادهم، أولئك الذين لا يتركون قيمهم لهامش الأحلام الخالية بل يجلبونها إلى الوجود، أولئك الذين يعطون الشكل الماديّ للأفكار ويحوّلون القيم إلى واقع معيشٍ، وأولئك الذين يصنعون الصلب والسكك الحديديّة والسعادة. أمّا أولئك الذين يكرهون التفكيرَ في فرح الإنسان وسعادته، ويرغبون في رؤية إخفاقات البشر ومعاناتهم، ويودّون رؤية الناس وهم يعتذرون عن قبول السعادة أو النجاح أو الثروة، فأقول لهم الآن: لقد رغبت فيه، ووصلت إليه، وكنت سعيدةً بذلك. لقد عرفت معنى الفرح النقيّ، الفرح الكامل والبريء، ذلك الفرح الذي كنتم ترهبونه أثناء سماع أيّ إنسان يعترف به، ذلك الفرح الذي يتلخّص في معرفتكم كراهيتكم لكلّ من يستحقّ الوصول إليه. حسنًا، لكم أن تكرهوني، لأنّني وصلت إليه!

قال بيرترام سكودر بعصبية:

– آنسة تاجارت، هل يمكننا الانتقال إلى موضوع آخر؟ ففي نهاية الأمر، علاقتك الشخصيّة بالسيّد ريردن لا تحظى بأيّ أهمّيّة سياسيّة...

– أنا أيضا لم أكن أعتقد أنّها تحظى بأيّ أهمّيّة سياسيّة. وبطبيعة الحال، لقد جئت إلى هنا لأخبركم عن النظام السياسيّ والأخلاقي الذي تعيشون وفقه الآن. حسنًا، لقد اعتقدت أنّني أعرف كلّ شيء عن هانك ريردن، لكن ثمّة خبرٌ واحد لم أعلم به إلّا اليومَ وهو أنّ هانك ريردن وقّع على شهادة تسليم معدن ريردن تحت التهديد، لقد هدّدوه بفضح علاقته بي إذا لم يوقّع على هذه الشهادة. كان ذلك الابتزاز صادرًا من مسؤولي حكومتكم وحكّامكم و..

ولحظةَ اندفعت يدُ سكودر للنقر على مضخّم الصوت، جاءت نقرةٌ خافتةٌ من المصدح تشبه وقوع تحطّمٍ على الأرضيّة، ممّا يدلّ على أنّ الشرطيّ الفكريّ قد قطع البثّ المباشر للبرنامج.

فضحكت داغني، لكنّه لم يكن هناك ليرى طبيعة ضحكاتها ويسمعها. وهرعت أجساد الحاضرين داخل ذلك القفص الزجاجيّ وهي تصرخ بعضها في وجه بعض. كان تشيك موريسون يصرخ بالشتائم السوقيّة وهو يلعن بيرترام سكودر، أمّا بيرترام فكان يصيح بأنّه عارض الفكرة بمجملها منذ البدء، لكنّه أُمِر بإنجازها، أمّا جيمس تاجارت فكان يشبه حيوانًا مكشّرًا عن أنيابه، بينما أخذ يزمجر في وجه اثنين من أصغر مساعدي موريسون، لكنّه تجنّب الصياح على مساعدٍ ثالث بدا أكبر سنًّا منهما. وكان بعضلات وجه ليليان ريردن بطءٌ غريب، وكأنّها تشبه أطراف حيوان ممدّدة على الطريق، سليمة لكنّها ميّتة. وكان مذيع البرنامج يصرخ ويقول: ماذا سأقول لهم؟ وهو يشير إلى مضخّم الصوت. السيّد موريسون، ثمّة جمهور ينتظر، فماذا أقول لهم؟ فلم يردّ عليه أحد. فهم لم يكونوا يتشاجرون على ما سيفعلونه، بل على مَن سيوقعون اللوم.

ولم يلقِ أحد أيَّ كلمة في وجه داغني، كما لم يوقفها أحد عندما خرجت.

ثمّ استقلّت أوّل سيّارة أجرة وجدتها في الخارج، ومدّت السائق بعنوان شقّتها. وبمجرّد انطلاق سيّارة الأجرة لاحظت أنّ راديو السائق كان يشتغل، لكنّ أثيره صامت ويحدث خشخشة موجزة، رافقها سعال متوتّر ثابت: كان الراديو معدًّلًا على المحطّة التي تذيع برنامج بيرترام سكودر.

ثمّ تمدّدت داغني على مقعدها، وهي لا تشعر بأيّ شيء سوى الدمار من معرفة أنّ أفعالها قد تجرف معها الرجل الذي قد لا يرغب في رؤيتها مجدّدًا. لقد شعرت للمرّة الأولى بضخامة اليأس من العثور عليه، إذا فضّل عدم الظهور في أيّ شارع من شوارع المدينة، أو في أيّ بلدة من بلدات القارّة، أو في أيّ فجّ في جبال الروكي حيث تسجن شاشةُ الأشعّة الهدفَ. لكنّ شيئًا واحدا بقي لها، مثل قشّة عائمة في الفراغ، تلك القشّة التي تشبّثت بها داغني من خلال بثّ ذلك البرنامج الإذاعيّ، وكانت تعرف أنّه لا يمكن لها التخلّي عنه، حتّى إن كان عليها أن تفقد آخر شيء تملكه؛ فأنصتت إلى صوته بداخلها وهو يقول لها: لا أحد سيبقى هنا عن طريق تزييف الواقع.

ثمّ أعلن صوت المذيع بيرترام سكودر فجأةً: سيّداتي سادتي، سيستمرّ انقطاع البثّ بسبب صعوبات تقنيّة خارجة عن إرادتنا، وذلك في انتظار إجراء التعديلات اللّازمة.

وأطلق سائق سيّارة الأجرة ضحكة خافتة وقصيرة، ثمّ أغلق الراديو.

وعندما خرجت داغني من السيّارة، سلّمت السائق ورقة نقديّة، فمدّ يده لإرجاع باقي نقودها، وانحنى فجأة إلى الأمام فألقى نظرةً أقرب على وجهها، فتأكّدت من أنّه تعرّف عليها. فنظرت إليه هي أيضًا بشكل خاطف نظرة دامت لحظةً. كانت تقاسيم وجهه توحي بالمرارة، أمّا قميصه المرقّع فدلّ على أنّه يعاني من صراع خاسر يائس. وبينما كانت تسلّمه البقشيش، قال بهدوء وتشديد حريص ينمّ عن اعترافه بجميلها وإحسانها من خلال قطع النقود: شكرا لك يا سيّدتي.

ثمّ التفتت بسرعة، وهرولت للدخول إلى المبنى، ولم تسمح له برؤية العاطفة التي غمرتها فجأةً بثقل كان أكثر ممّا تستطيع تحمّله.

كان رأسها يتدلّى وهي تفتح بابَ شقّتها، فسطعها الضوء من أسفل، وانعكس على السجّادة، قبل أن تهزّ رأسها في دهشةٍ من اكتشاف أنّ الشقّة مضاءة. ثمّ خطت خطوة إلى الأمام فرأت هانك ريردن واقفًا في الغرفة.

كانت لا تزال محتجزة بصدمتين: إحداهما اكتشاف وجوده هناك، إذ لم تتوقّع عودته بتلك السرعة؛ والأخرى أثناء رؤية وجهه. كان وجهه ثابتًا وواثقًا جدًّا، وبمظهر هادئ في غاية النضج، تعلوه نصفُ ابتسامة خافتة، بعينين صافيتين، إلى درجة أنّها شعرت كما لو أنّه تقدّم في السنّ عقودًا خلال شهر واحد من غيابها، ولكنّه تقدّم في العمر بالمعنى الصحيح للنموّ البشريّ، ونضج الرؤية، وازدياد القوّة والعنفوان. وشعرت أيضًا بأنّه هو من قضى شهرًا من العذاب وتأذّى عميقًا بسببها، وأنّها كانت ستؤذيه أكثر، ومع ذلك حضر إلى هناك ليقدّم لها الدعم والعزاء ويكون القوّة التي ستحميهما على حدّ سواء. فوقفت بلا حراك لحظةً فقط، لكنّها رأت ابتسامته تزداد عمقًا كما لو أنّه كان يقرأ أفكارها ويخبرها بأن ليس لديها ما تخشاه. ثمّ سمعت صوت خشخشة طفيفة ورأت الراديو وهو يشتغل في صمت على الطاولة التي كانت بجانبه، فانتقلت عيناها إليه وأشارت في شكل سؤال، وردّ عليها بإيماءة، فاستنتجت أنّه استمع إلى خطابها في الراديو.

ثمّ تحرّك أحدهما نحو الآخر في اللحظة نفسها. فأمسكها من كتفيها ليسندها، ورفع وجهها إلى شفتيه، لكنّه لم يلمس شفتيها، ثمّ أخذ يدها وقبّل معصمها وأصابعها وراحتَي يديها، كشكل وحيد لتحيّةٍ محَت الكثير من معاناته التي قضّاها في انتظارها. فجأة، وبسبب المشقّة التي عانت منها طوال ذلك اليوم والمعاناة التي سبقتها خلال ذلك الشهر، انهارت وبكت بحرقة بين ذراعيه، وارتمت في حضنه، وهي تنتحب بشكلٍ لم يصدر عنها قطُّ في سابق حياتها.

فأمسكها وظلّت متشبّثة به كي لا تقع، وتحرّكت بواسطة جسده، لا بواسطة جسدها، فقادها إلى الأريكة وحاول أن يجلسها بجانبه، لكنّها انزلقت على الأرض، وجلست عند قدميه وورات وجهها في ركبتيه وانتحبت من دون دفاع أو تمويه.

فلم يرفعها، وتركها تبكي، وذراعه تحيط بها. فشعرت بيده وهي تربّت على رأسها وكتفيها، وشعرت أيضًا بحمايته الحريصة، بحزم بدا كأنّه يخبرها بأنّ دموعَها هي في الحقيقة دموعُهما معًا. وقد أشارت إليها معرفتُه بأنّه كان يعلم ألمها ويفهم أسبابه، ومع ذلك فإنّه لم يكن قادرًا سوى على مشاهدته بهدوء، ويبدو أنّ هدوءه أزال العبء عنها من خلال منحها الحقّ في الانهيار هناك عند قدميه، فأخبرها بأنّه كان قادرًا على تحمّل ما لم يعد بإمكانها تحمّله. وكانت تقريبًا تعلم أنّ ذلك هو هانك ريردن الحقيقيّ، ومهما كان شكل القسوة المهينة التي عاملها بها سابقًا أثناء أولى لياليهما معًا، وبغضّ النظر عن عدد المناسبات التي بدت فيها أقوى من كليهما، فإنّ ذلك كان دائمًا يسكن في داخله وفي جذور رابطتهما، تلك القوّة التي كانت ستحميها إذا اختفت قوّتها.

عندما رفعت رأسها، كان هانك يبتسم لها، فهمست كما لو أنّها أرادت أن تكفّر عن ذنبها. وبحيرة شديدةٍ من انهيارها قالت: هانك...

ردّ عليها: اهدئي يا عزيزتي.

فتركت وجهَها يسقط مرّةً أخرى على ركبتيه، وظلّت ساكنةً تقاتل بحثًا عن الراحة، وتناضل في مواجهة ضغط فكرة صامتة تخصّ قدرته على تحمّل خطابها الإذاعيّ وقبوله فقط بوصفه اعترافًا لها بحبّها له؛ وهو ما جعل الحقيقة التي تريد إخباره بها تكون مثل أقسى صفعة غير إنسانيّة ليس لأيّ شخص الحقّ في القيام بها. فشعرت بالرعب من فكرة كونها لن تملك القوّة لفعل ذلك، والرعب من فكرة أنّها ستفعل ذلك.

وعندما نظرت إليه ثانيةً، مرّر يده على جبهتها، وسرّح خصلات شعرها النازلة على وجهها وقال:

- لقد انتهى الأمر يا عزيزتي. لقد انتهى أسوأ ما كان يواجهه كلّ واحد منّا.

- لا يا هانك، لم ينتهِ الأمر بعدُ.

فابتسم وأجلسها بالقرب منه ورأسها متّكئ على كتفيه وقال:

- لا تقولي أيّ شيء الآن، فأنت تعلمين أنّنا نستوعب معًا ما يجب أن يقال، وسوف نتحدّث عن ذلك، بشرط أن تتوقّفي عن جلد ذاتك.

ثمّ انتقلت يده إلى أسفل خطّ كُمَّيْها، وامتدّت أكثر إلى أسفل، فلمست إحدى ثنايا تنّورتها بضغط خفيف، حتّى بدا كما لو أنّ يده لا تتحسّس الجسد الذي بداخل الملابس، وكأنّه كان يستعيد حيازته فقط بسبب رؤيته.

قال: لقد عانيتِ الكثير وأنا كذلك، فدعيهم يجلدونا كما يحلو لهم.. ولا يهمّ ما سنواجهه، لأنّه لن يكون بيني وبينك أيّ سوء تفاهم. ولا داعي إلى مزيد من الألم. لندع الألم يأتِ من عالمهم لا منّا. لا تخافي يا داغني فلا أحد منّا سيؤذي الآخر بعد الآن.

فرفعت رأسها، وهزّته بابتسامة مريرة، وكان في حركتها عنفٌ يائس، ولكنّ الابتسامة كانت علامة تنمّ على التعافي، وعلى التصميم على مواجهة اليأس.

ردّت بصوت مرتجف: هانك، أدرك حجم المعاناة التي كابدتها في الشهر الماضي...

أجابها بصوت ثابت: إنّه لا شيء بالقياس إلى المعاناة التي تركتُك تواجهينها في الساعة الأخيرة.

فنهضت، وأخذت تذرع الغرفة جيئة وذهابا، لتثبت قوّتها، وكانت خطواتها مثل الكلمات التي تخبره بأنّها لن تنجو من هنا فصاعدًا. وعندما توقّفت واستدارت لمواجهته، نهض، هو أيضًا، كما لو أنّه فهم دافعها.

قالت وهي تشير إلى الراديو: أعلم أنّني عقّدت عليك الأمر أكثر.

- لا.

- هانك، ثمّة شيء يجب أن أخبرك به.

- وأنا كذلك، هلّا سمحت لي أن أتحدّث أوّلًا؟ يجب أن تفهمي أنّه شيء كان يجب أن أخبرك به منذ فترة طويلة. هلّا تركتني أتحدّث من غير أن تردّي حتّى أفرغ من

كلامي؟

فأومأت داغني برأسها في إشارة إلى موافقتها. واستنزف لحظةً وهو ينظر إليها بينما كانت تقف أمامه، كما لو أنّه يرغب في استيعاب رؤية كاملة إلى جسدها وإلى تلك اللحظة وكلٍّ ما قادهما إليها. ثمّ قال بهدوء وبساطة وبسعادة نقيّة لا يشوبها أيّ تجهّم: أنا أحبّك يا داغني.

كانت داغني على وشك التحدّث، لكنّها علمت أنّها لا تستطيع فعلَ ذلك حتّى لو أنّ هانك سمح لها به، فكتمت كلماتها، وكانت حركة شفتيها هي إجابتها الوحيدة، ثمّ انحنت برأسها في إشارة قبولٍ.

– أحبّك بالقدر نفسه، وبالكبرياء ذاته، وبالمعنى نفسه الذي أحبّ به عملي ومطاحني ومعدني وساعات عملي في المكتب وفي الأفران وفي مختبري وفي منجم الخام. أحبّك مثلما أحبّ قدرتي على العمل، ومثلما أحبّ فعلَ الإبصار والمعرفة، ومثلما أحبّ فعلَ ذهني عندما يحلّ معادلة كيميائيّة أو يمسك بشروق الشمس. أحبّك كما أحبّ الأشياء التي صنعتها والأشياء التي شعرت بها بوصفها منتجاتي، واختياراتي، وشكل عالمي، وبوصفها أفضل مرآة لي. أحبّك مثلما أحبّ الزوجة التي لم أحظَ بها، وبوصفك الكيان الذي يقدر على جعل كلّ الأشياء الأخرى ممكنةً. أحبّك بوصفك قدرتي على الحياة.

لم تخفض داغني وجهها إلى أسفل، بل أبقته في المستوى نفسه، منفتحًا للاستماع والقبول، كما أراد منها أن تفعل وكما يستحقّ.

– أحببتك منذ أوّل يوم رأيتك فيه، في عربة الشحن على جانب محطّة ميلفورد. وأحببتك عندما ركبنا في قمرة قيادة قاطرةِ المحرّك الأوّل بخطّ جون جالت. وأحببتك في شرفة منزل إليس وايت. وأحببتك في الصباح ذلك اليوم، وكنتِ تعرفين ذلك. ولكن أنا من يجب عليه قول هذا لك، مثلما أقوله الآن، إذا كان عليّ تعويض كلّ تلك الأيّام والسماح لها بأن تكون تمامًا كما كانت لكلينا. لقد أحببتك وكنت تعلمين ذلك،

لكنّني لم أكن أعرف. ولأنّني لم أعرف، كان عليّ معرفة ذلك عندما جلستُ بمكتبي ونظرتُ إلى شهادة الهديّة التي تخصّ معدن ريردن.

فأغلقت داغني عينيها. ولكن لم تكن في تقاسيم وجه هانك معاناةٌ، لا شيء سوى السعادة الهائلة والهادئة الناجمة عن الوضوح.

- (فنحن من بين الذين لا يفصلون قيم عقولهم عن أفعال أجسادهم) هذا ما قلته في خطابك الذي بُثّ الليلة، لكنّك أدركته سابقًا في ذلك الصباح بمنزل إليس وايت. كنت تعلمين أنّ كلّ تلك الإهانات التي ألقيتُها عليك كانت اعترافًا كاملًا بالحبّ الذي يمكن أن يصرّح به أيّ رجل. وكنت تعلمين أنّ الرغبة الجسديّة التي أَدَنْتُهَا على أنّها عارنا المتبادل لم تكن بالجسديّة ولا بالتعبير عن جسد المرء، بل كانت تعبيرًا عن قيم عقل الإنسان العميقة، سواء أكان يملك الشجاعة على معرفتها أم لا، لهذا ضحكت عليّ بتلك الطريقة، أليس كذلك؟

همست قائلة: نعم.

- لقد قلت لي سابقًا: (لا أريد عقلك، أو إرادتك، أو وجودك، أو روحك، مادمتَ تريد أن تأتي من أجل رغباتك الحيوانيّة الدنيا). وكنتِ تعلمين حينها، عندما قلت ذلك، أنّني كنت أهبك عقلي وإرادتي ووجودي وروحي من خلال تلك الرغبة. وأريد أن أقولها لك الآن، لأدع ذلك الصباح يعني ما يعنيه: يا داغني، إنّ عقلي وإرادتي ووجودي وروحي كلّها لك ما حييت.

كان ينظر إليها مباشرةً، فلمحت بريقا عاجلًا في عينيه، لم يكن بريق ابتسامة، ولكنّه كان بمثابة ما سمعه من صراخ لم تنطق به.

- اسمحي لي بأن أنهي كلامي يا عزيزتي. أريدك أن تعلمي أنّني أعرف بإدراكٍ كامل ما أقول. أنا، الذي اعتقدت أنّني كنت أحاربهم، ها إنّي قبلت بأسوإ عقيدة عند أعدائنا، وهذا ما دفعت ثمنَه منذ ذلك الحين ويجب عليّ أن أدفع ثمنه الآن. لقد قبلت العقيدة الوحيدة التي يدمّرون بها رجلًا قبل أن يبدأ، عقيدة القاتل: تلك الثغرة التي

تحدث بين عقله وجسده. لقد تقبّلت ذلك، مثل معظم ضحاياهم من دون معرفتي بها وحتّى معرفتي بوجود مثل هذه المسألة. لقد تمرّدتُ على عقيدتهم التي تكرّس العجزَ البشريّ وفخرتُ بقدرتي على التفكير والتصرّف والعمل من أجل إرضاء رغباتي ولكنّني لم أكن أعرف أنّ هذه القدرة فضيلةٌ، لم أكن أعرف مطلقًا أنّها قيمة أخلاقيّة، بل من أعلى القيم الأخلاقيّة، وأنّ المرء يجب أن يدافع عنها بوصفها أولويّة تفوق حياته، لأنّها هي التي تجعل الحياة ممكنةً. وقبلت العقاب، معاقبة الفضيلة على أيدي الشرّ المتغطرس، الذي زاد من جبروته فقط جهلي وخضوعي. لقد قبلت إهاناتهم وخداعهم وابتزازهم، وظننت أنّ بإمكاني تجاهلهم، كلّ أولئك الصوفيّين العجزة الذين لا يتقنون شيئًا سوى الثرثرة. وكنت أعتقد أنّ العالم لي، وأنّ أولئك العجزة الذين يثرثرون لا يشكّلون تهديدًا لقوّتي. ولم أستطع فهمَ السبب الذي جعلني أخسر كلّ معركة كنت أقودها. ولم أعرف أنّ القوّة التي أطلقت ضدّي كانت قوّتي. وبينما أنا مشغولٌ بقَهر عالم المادّة وغزوه، كنت قد سلّمتُهم مملكة العقل والفكر والقانون والقيم. قبلت، لكن عن غير قصد وبشكل افتراضيّ، العقيدةَ التي تقول إنّ الأفكار ليس لها أيّ أثر على وجود الفرد وعمله، وليس لها أيّ أثر على الواقع وعلى هذه الأرض، كما لو أنّ الأفكار لم تكن مقاطعة من مقاطعات العقل، بل مقاطعة من ذلك الإيمان الصوفيّ الذي كنت أحتقره. وهذا كلّ ما أرادوا منّي الاعتراف به فكان كافيًا لأسلّم ذلك الشيء القيّم لتفاهتهم المصمّمة على التخريب والتدمير: عقل الإنسان. لا، هم ليسوا قادرين على التعامل مع المادّة، وإنتاج الوفرة، والسيطرة على هذه الأرض. لم يكن عليهم فعل ذلك. فكلّ ما كانوا يستطيعون فعله هو السيطرة عليّ.

أنا، الذي كنت أعرف أنّ الثروة هي مجرّد وسيلة لتحقيق غاية، خلقت لهم تلك الوسائل وسمحت لهم بتحديد غاياتي. أنا، الذي كنت أفتخر بقدرتي على إرضاء رغباتي، تركتهم يحدّدون مدوّنة القيم التي بموجبها حكمت على رغباتي. أنا، الذي شكّلت المادّة لخدمة أهدافي، تُركتُ مع كومة من الفولاذ والذهب، وهزمت كلّ هدف من أهدافي، وخنت كلّ رغبة من رغباتي، وأحبطت كلّ محاولة من محاولاتي في تحقيق

السعادة.

لقد قسّمت نفسي إلى نصفين، كما كان الصوفيّون يعظون، وأدرت عملي وفقًا لقاعدة واحدة من القواعد، ولكنّي بدّلت حياتي الخاصّة بحياة أخرى. لقد تمرّدت على محاولة اللصوص تحديدَ سعرِ الفولاذ الخاصّ بي وقيمته، لكنّني سمحت لهم بأن يضعوا لحياتي قيمَها الأخلاقيّة. لقد تمرّدت على المطالب بالثروة غير المستحقّة، لكنّني ظننت أنّ من واجبي أن أمنح حبًّا غير مستحقّ لزوجة احتقرتها، واحترامًا غير مستحقّ لأمّ كرهتني، ودعمًا غير مستحقّ لأخٍ خطّط لتدميري. لقد تمرّدت على أضرار ماليّة غير مستحقّة، لكنّي رضيتُ بحياة مليئة بألم غير مستحقّ. لقد تمرّدت على العقيدة التي تقول إنّ قدرتي الإنتاجيّة كانت الذنب، لكنّي قبلت قدرتي على السعادة بوصفها تهمةً وذنبًا لا يغتفر. لقد تمرّدت على العقيدة التي تقول إنّ الفضيلة شيء مجهول وغير مجسّد للروح، لكنّي لعنتك أنت يا عزيزتي بسبب رغبتي في جسدك وجسدي. ولكن إذا كان الجسد هو الشرّ، فإنّ أولئك الذين يوفّرون وسائل البقاء على قيد الحياة هم الشرّ أيضًا، وكذلك هي الثروة المادّيّة وأولئك الذين ينتجونها. وإذا كانت القيم الأخلاقيّة في تناقضٍ مع وجودنا المادّيّ، فمن الصواب إذَن أن تكون المكافآت غير مستحقّة، وأن تتشكّل الفضيلة ممّا هو غير منجز، وأنّه ينبغي ألّا توجَد أيّ علاقة بين الإنجاز والربح، وأنّ الحيوانات التي هي أقلّ شأنًا منّا والقادرة على الإنتاج يجب أن تخدم تلك الكائنات المتفوّقة التي يتكوّن تفوّقها الروحي من عدم كفاءتها الجسديّة.

ولو أنّ رجلا مثل هيوأكستون أخبرني، منذ بدأت مسيرتي، أنّي إذ أقبل نظريّة الصوفيّين عن الجنس فأنا أقبل أيضًا نظريّة النهّابين عن الاقتصاد، لكنت ضحكت في وجهه. لن أضحك عليه بعد الآن. لأنّني أرى الآن معدن ريردن تحكمه حثالة من البشر، وأرى إنجاز حياتي يساهم في إثراء أسوإ أعدائي. أمّا الشخصان الوحيدان اللذان أحببتهما، فقد جلبت لأحدِهما إهانة مميتة وللآخر العارَ العامّ. لقد صفعت وجه الرجل الذي كان صديقي، والمدافع عنّي، ومعلّمي، ذلك الرجل الذي حرّرني من خلال مساعدتي في تعلّم ما تعلّمته. أنا أحبّه يا داغني. كان نِعْمَ الأخ والابن والرفيق

الذي لم أحظَ به طوال حياتي، لكنّني طردته من حياتي، لأنّه لم يساعدني على توفير الإنتاج للصوص. أودّ أن أتخلّى عن أيّ شيء الآن مقابل استعادته، فأنا لن أراه مجدّدًا، لأنّني أعلم أنّه لا توجد طريقة أكتسب بها حتّى الحقّ في طلب المغفرة.

لكنّ ما فعلته بك يا عزيزتي مازال سيّئا. فخطابك وكلّ ما كان عليك فعله هو ما جلبته للمرأة الوحيدة التي أحببتها، مقابل السعادة الوحيدة التي عرفتها. لا تقولي لي إنّه كان خيارك منذ البداية وإنّك قبلت كلّ العواقب، بما في ذلك ما وقع الليلة، وإنّ اللصوص أجبروك على الكلام، وإنّك تحدثتِ لتنتقمي لي وتحرّريني. فهذا لا ينفي حقيقة أنّني أنا من جعل خططهم ممكنة، وأنّ ما وظّفوه لإذلالك لم يكن قناعاتهم الخاصّة بالخطيئة والعار، بل كانت قناعاتي الخاصّة. لقد نفّذوا ما آمنت به وقلته لك في منزل إليس وايت. كنت المذنب في إخفاء حبّنا وجعله سرّا شائنًا، فتعاملوا معه كما صوّره تقديري الخاصّ. كنت أنا من أبدى استعدادا لتزوير الواقع من أجل الظهور في أعينهم، أمّا هم فكلّ ما فعلوه هو صرف المال بناءً على الحقّ الذي منحتهم إيّاه.

يعتقد الناس أنّ الكاذب يكسب انتصارَه على حساب ضحيّته. أمّا ما تعلّمته فهو أنّ الكذبَ فعلٌ من أفعال التنازل عن الذات، لأنّ المرء يسلّم حقيقتَه إلى الشخص الذي يكذب عليه ويجعل منه سيّدًا عليه، وفي مقابل ذلك يُدين ذاتَه منذ ذاك الحين لتزييف نوع الواقع الذي يحتاج ذاك الشخصُ إلى تزييفه. وإذا كان المرء يظفر بالغرض المباشر من الكذب، فإنّ الثمنَ الذي سيدفعه في مقابل ذلك هو تدمير ما كان ذاك الظفرُ يقصد إلى خدمته. فالإنسان الذي يكذب على العالم هو عبدُ ذلك العالم. وعندما اخترتُ إخفاءَ حبّي لك، بهدف التنصّل منه في العلن وعيشه مثل كذبةٍ، جعلته ملكيّةً عامّةً، ولم تكن لديّ أيّ وسيلة لتجنّب ذلك ولا أيّ قوّة لإنقاذك. وعندما استسلمت للصوص -بعد توقيع شهادة الهديّة قصدَ حمايتك- كنت لا أزال أزيّف الواقع، ولم يبقَ لي من حلٍّ آخر. فأنا يا داغني، كنت أفضّل أن يُنظَر إلينا بوصفنا أمواتًا على أن أسمح لهم باقتراف ما هدّدوا به. لكن لا توجد أكاذيب بيضاء، وما يوجد فقط هو سوداويّة الدمار، فالكذبة البيضاء هي الأكثر سوادًا على الإطلاق. ومازلت أزيّف الواقع، ولهذا

نتيجتُه الحتميةُ: فبدلًا من الحماية، جلبت لك نوعًا من أكثر أنواع المصائب فظاعةً، وبدلًا من حفظ اسمك، أجبرتك على تقديم نفسك لرجمٍ عامٍّ تُرمَى فيه الأحجار بيدك أنت شخصيًّا. أعلم أنّك كنت فخورة بالأشياء التي قلتها، تمامًا كما كنتُ فخورًا بسماعك، لكنّ ذلك الفخر كان يجب أن نَدَّعيه قبل عامين.

لا، أنت لم تسيئي إليّ، بل حرّرتني، وأنقذت كلينا، وافتدَيت ماضينا. ولا يمكنني أن أطلب منك مسامحتي فنحن بعيدان كلّ البعد عن مثل هذه الشروط. والشيء الوحيد الذي يمكنني تقديمه لك هو أنّني سعيدٌ. أنا سعيد يا عزيزتي، ولكنّ هذا لا ينفي أنّني أعاني. أنا سعيد لأنّني شاهدت الحقيقة، حتّى إن كانت قوّة الإبصار عندي هي كلّ ما تبقّى لي الآن. ولو أنّي أستسلم للألم والندم العقيم على أنّ خطئي هو الذي دمّر كلّ ما أملكه من الماضي، فإنّ ذلك قد يكون فعل الخيانة النهائيّة، والفشل الختاميّ تجاه تلك الحقيقة التي سأندم على إفشالها. لكن إن كان حبّي للحقيقة هو ثروتي الوحيدة، فإنّه كلّما ازدادت الخسارة خلفي، ازداد الكبرياء الذي سأجنيه مقابل الثمن الذي سأدفعه من أجل ذلك الحبّ، ولن يصبح الحطام جبلًا جنائزيًّا فوقي، بل سيكون بمثابة مرتفع تسلّقته لتحقيق مجالٍ أوسع من الرؤية. إنّ فخري وقدرتي على الرؤية كانا كلَّ ما أمتلكه عندما بدأت، ومهما يكُن ما حقّقته، فقد تحقّق من خلالهما. وهما أعظم الآن. فأنا أدرك الآن القيمة الفائقة التي فاتتني، ومن حقّي أن أكون فخورًا برؤيتي. أمّا الباقي فهو لي ويتعيّن عليّ بلوغه.

يا داغني، إنّ الشيء الوحيد الذي أردته، على أنّه خطوة أولى صوب مستقبلي، يتمثّل في أن أقول لك إنّي أحبّك، مثلما أقولها الآن. أحبّك، يا عزيزتي، بعاطفة جسدي العمياء تلك، العاطفة التي تأتي من أوضح تصوّر لعقلي. وحبّي لك هو الإنجاز الوحيد لماضيَّ الذي سيُترَك لي، من دون تغيير، خلال كلّ السنوات القادمة. لقد أردت أن أقول لك ذلك مادام لا يزال لديّ الحقّ في قوله. وبما أنّني لم أقلها لك في بدايتنا، فهذه هي الطريقة التي يجب أن أبوح بها في النهاية. الآن سأخبرك بالشيء الذي أردتِ إخباري به، فكما ترين، أنا أعرف ذلك وأقبله: في مكان مّا خلال الشهر الماضي، قابلتِ الرجل

الذي تحبّينه، وإذا كان الحبّ يعني الخيارَ الأخير الذي لا بديل منه، فهو الرجل الوحيد الذي أحببته.

- نعم!

كان صوتها مثل اللهاث والصراخ في الآن نفسه، كما لو أنّها تعرّضت لصفعة جسديّة، فكانت الصدمة هي وعيها الوحيد.

- هانك! كيف عرفت ذلك؟

فابتسم وأشار إلى الراديو وقال:

عزيزتي، أنت لم تستعملي في خطابك الليلة سوى الزمن الماضي.

- أوه... !

- فأنت لم تنطقي الكلمة الوحيدة التي ستصفعهم جميعًا. لقد قلت أردته، ولم تقولي أحبّه. وأخبرتني على الهاتف اليوم بأنّك كنت تستطيعين العودة باكرًا، وهكذا فإنّه لا يوجد سبب آخر يجعلك تتركينني كما فعلت. وذلك السبب الوحيد الذي جعلك تبقين هناك كان صائبًا وصحيحًا.

كانت متّكئة إلى الوراء قليلًا، كما لو أنّها تناضل من أجل تحقيق توازنها لتقف، إلّا أنّها كانت تنظر مباشرةً إلى وجهه بابتسامة لم تغادر شفتيها، لطّفتها عيناها فحوّلتاها إلى نظرة إعجاب، أمّا فمها فحوّلها إلى شكل من أشكال الألم.

- هذا صحيح. لقد قابلت الرجل الذي أحبّه وسأظلّ أحبّه دائمًا. لقد رأيته، وتحدّثت معه، لكنّه رجل لا يمكنني الحصول عليه، وقد لا أحظى به أبدًا، وقد لا أراه مجدّدًا.

- أعتقد أنّني كنت أعلم دائما أنّك ستجدينه، وأعلم ما شعرت به تجاهي، وأدرك حجمه، ولكنّني كنت أعلم أنّني لست خيارك النهائيّ. إنّ ما ستَهبينَه إيّاه ليس شيئًا يؤخَذ منّي، بل هو ما لم أحظ به قطّ. وأنا لا أستطيع التمرّد على هذا الأمر. فما كان

لديّ يعني الكثير عندي، وما حصلت عليه لا يمكن تغييره أبدًا.

- هل تريد منّي أن أقول ذلك يا هانك؟ هل ستفهم الأمر إذا قلت لك إنّني سأظلّ أحبّك دائما؟

- أعتقد أنّني فهمت، قبلك، هذا الأمر.

- لطالما رأيتك كما أنت الآن بعظمتك التي بدأتَ الساعةَ في السماح لنفسك بمعرفتها. لطالما علمت ذلك وشاهدت نضالكَ لاكتشافها. فلا تتحدّث عن التكفير، فأنت لم تؤذني قطّ، وأخطاؤك جاءت من نزاهتك الرائعة التي وقعت تحت طائلة تعذيب قانون مستحيل، ونضالك ضدّه لم يجلب لي المعاناة، بل جلب لي الشعور الذي وجدته نادرًا جدًّا: الإعجاب. فإذا قبلته، فإنّه سيكون لك دائمًا. وما كنت تعنيه لي لا يمكن تغييره أبدًا. لكنّ الرجل الذي قابلته هو الحب الذي أردت الوصول إليه منذ فترة طويلة من معرفتي بوجوده، وأعتقد أنّه سيبقى بعيدًا عن متناولي، لكن أن أحبّه سيكون كافيًا ليبقيني على قيد الحياة.

فأخذ يدها وضغطها على شفتيه وقال:

- أنت تعلمين، إذَن، ما أشعر به ولماذا ما أزال سعيدًا.

فنظرت إلى وجهه، وأدركت أنّه -ولأوّل مرّة- كان، كما اعتقدت دائمًا، رجلًا ذا قدرة هائلة على التمتّع بالوجود. فقد اختفت نظرة التحمّل الضيّقة، والألم الشديد المكتوم؛ والآن، وهو في خضمّ الحطام يواجه أصعب ساعاته، كان يشوبُ وجهَه صفاءٌ من القوّة النقيّة؛ بنظرة تشبه ما رأته في وجوه الرجال الذين كانوا يعمّرون الوادي.

- قالت: هانك، لا أحسبني قادرةً على شرح الأمر لك، لكنّي أشعر بأنّني لم أرتكب أيّ خيانة سواء في حقك أو في حقّه.

- أعرف ذلك.

ودبّت بعينيها الحياة على نحوغير طبيعيّ في وجهٍ كان قد استنزف من الألوان، كما

لو أنّ وعيها بقي غير متأثّر بجسدها الذي أنهكه الإعياء. فأجلسها بجانبه ومرّر ذراعه على امتداد جزء الأريكة الخلفيّ، من دون أن يلمسها، لكنّه كان يحيطها بحضنه الواقي. ثمّ سألها:

- الآن أخبريني أين كنت؟

- لا أستطيع قول ذلك لك. لقد عاهدت على ألّا أكشف أيّ شيء عنه. وكلّ ما أستطيع قولَه عنه هو فقط أنّه مكان وجدته بالصدفة عندما تحطّمت طائرتي، ثمّ غادرته معصوبة العينين، ولن أتمكّن من العثور عليه مجدّدًا.

- ألا يمكنك تتبّع طريق عودتك إليه؟

- لا، لن أحاول.

- وماذا عن الرجل؟

- لن أبحث عنه.

- هل بقي هناك؟

- لا أعلم.

- ولماذا تركته؟

- لا أستطيع إخبارك بذلك.

- ومن يكون؟

- قالت وهي تضحك: ومن هو جون جالت؟

فنظر إليها بدهشة، لكنّه أدرك أنّها لم تكن تمزح فسألها ببطء:

- يوجَد إذَن شخص يدعى جون جالت؟

- نعم.

- وهل تشيرُ إليه تلك العبارة العامّيّة الشهيرة؟

- نعم.

- ولتلك العبارة معنًى خاصٌّ، أليس كذلك؟

- أوه نعم!.. ثمّة شيء واحدٌ يمكنني إخبارك به عنه، لأنّني اكتشفته في وقت سابق، ولن أتكتّم عنه: إنّه الرجل الذي اخترع المحرّك الذي وجدناه.

فابتسم، كما لو أنّه كان يعرفه. ثمّ قال في هدوء، بنظرة كانت تقريبًا تخفي مشاعر الشفقة:

- إنّه المدمّر، أليس كذلك؟

ثمّ شاهد صدمتها فأضاف:

- لا تجيبني إذا كنت لا تستطيعين الإجابة. أعتقد أنّني أعلم أين كنت. لقد كنت تريدين إنقاذ كوينتن دانيالز من المدمّر، وكنت تلاحقين دانيالز عندما تحطّمت الطائرة، أليس كذلك؟

- نعم.

- يا إلهي! هل ذلك المكان موجودٌ حقًّا يا داغني؟ هل هم جميعًا أحياء هناك؟ أنا آسف، لا تجيبي.

قالت وهي تبتسم: إنّه موجود بالفعل.

ظلّ صامتًا فترةً طويلةً. ثمّ سألته:

- هانك، هل يمكنك التخلّي عن معدن ريردن؟

- أجاب بسرعة: لا، ليس بعد.

ثمّ نظر إليها، كما لو أنّه انتقل من خلال كلماته الثلاث تلك، ليعيش مسار عذابها في الشهر الماضي. ثمّ قال: فهمتك. ثمّ مرّر يده على جبينها، بلفتة لا تصدّق من التفهّم

والتعاطف والتعجّب وقال بصوت منخفض: أيّ جحيم ستتعهّدين بتحمّله!

فأومأت برأسها. ثمّ انزلقت لتتمدّد وتلقي بوجهها على ركبتَيه. فداعب شعرها وقال:

- سنقاتل اللصوص ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا. لا أعلم أيّ مستقبل ينتظرنا، لكنّنا سنفوز، وإذا لم ننجح في ذلك فلأنّه لا خير يرجى منه. وإلى أن نفعل ذلك، سنقاتل من أجل عالمنا. فنحن كلّ ما تبقّى لإنقاذ هذا العالم.

ثمّ خلدت داغني للنوم، وهي مستلقية هناك ويدها متشابكة مع يده. لقد كان وعيها الأخير -قبل أن تتخلّى عن مسؤوليّة الوعي- هو شعورها بالفراغ الهائل، فراغ يهيمن على المدينة والقارّة حيث لن تستطيع العثورَ على الرجل الذي لا تملك الحقّ في البحث عنه.

الفصل الرّابع

الحياة المضادّة

مدّ جيمس تاجارت يدَه إلى جيب سترة العشاء، فسحب منه أوّل ورقة وجدها، وكانت ورقة نقديّة من فئة المائة دولار، ثمّ أسقطها في يد الشحّاذ.

لقد لاحظ أنّ الشحاذ وضع المال في جيبه بطريقة غير مبالية مثل طريقته. شكرًا أيّها الصديق. قال الشحاذ بازدراء، ومشى بعيدًا.

وظلّ جيمس تاجارت واقفًا بسكون في منتصف الرصيف متسائلًا عن السبب الذي جعله يشعر بالصدمة والفزع. ولم تكن وقاحة ذلك الرجل هي السبب الذي جعله يشعر بتلك الأحاسيس. فهو لم يكن يطلب أيّ امتنان من الشحّاذ، كما لم تحرّكه الشفقة تجاهه، بل كانت لفتته تلقائيّة وبلا معنى. وربّما كان سلوك الشحّاذ هو السبب لأنّه تصرّف كما لو أنّه غير مبالٍ بما إذا كان سيتكرّم عليه بمائة دولار أو عشرة سنتات أو حتّى إذا تعذّر عليه العثور على أيّ مساعدة مهما يكن نوعها ومات من الجوع في تلك الليلة. فارتعش تاجارت ومشى بفظاظة، وأحدثت تلك الرعشة قطيعةً مع إدراك أنّ مزاج الشحّاذ كان مطابقا لمزاجه.

كانت جدران الشوارع من حوله تشدّد على المشهد غير الطبيعيّ من شفق الصيف، بينما كان ضبابٌ برتقاليّ يملأ قنوات التقاطعات التي تغشاها طبقات من الأسقف، تركته يمشي بانقباض فوق بقايا الأرضيّة. يبدو أنّ التقويم في السماء كان يقف بإصرار خارج الضباب، بلون أصفر مثل صفحة من الورق القديم، معلنًا: الخامس من

أغسطس.

قال في نفسه، كردّ على الأشياء التي لم يسمِّها: لا، إنّها ليست حقيقيّة. لقد شعر أنّه بخير، لذلك أراد أن يفعل شيئًا في تلك الليلة. ولم يستطع الاعتراف لنفسه بأنّ اضطرابَه الغريب كان متأتّيًا من رغبته في تجربة المتعة؛ ولم يستطع الاعتراف بأنّ المتعة المحدّدة التي أرادها هي الاحتفال، لأنّه لم يستطع الاعتراف بما كان يريد الاحتفال به.

كان ذلك اليوم حافلًا بالنشاط المكثّف، قضّاه في نثر الكلمات العائمة على نحوٍ مبهم مثل القطن، ولكنّه مع ذلك حقّق الهدف بدقّة مثل آلة جمع، لخّصت كلّ رضاه. غير أنّ غرضه وطبيعة رضاه كان يجب أن يبقيَا مخفيّين بعناية عن نفسه مثلما يجب إخفاؤهما عن الآخرين؛ لكنّ رغبته المفاجئة في المتعة شكّلت خرقًا خطيرًا.

لقد بدأ يومه بغذاء قليلٍ في أحد أجنحة الفندق مع وفد برلمانيّ أرجنتينيّ زائر يتضمّن عددًا قليلا من الناس من مختلف الجنسيّات تحدّثوا خلاله على مهل بشأن مناخ الأرجنتين، وتربتها، ومواردها واحتياجات شعبها، وقيمة النظرة الديناميكية والتقدّميّة إلى المستقبل. وأعلنوا، في معرض حديثهم المقتضب، أنّ الأرجنتين ستعلن نفسها دولة شعبيّة خلال أسبوعين.

ثمّ تلا ذلك الغذاء عدد قليل من حفلات الاستقبال في منزل أورين بويل مع رجل أرجنتينيّ سرّيّ كان يجلس بصمتٍ في الزاوية، بينما كان اثنان من المديرين التنفيذيّين من واشنطن وعدد قليل من الأصدقاء بمراتب غير محدّدة يتحدّثون عن الموارد الوطنيّة، والتعدين، وعلم المعادن، والواجبات المتعلّقة بدول الجوار ورفاهية العالم. وقد ذكروا أنّ قرضًا بقيمة أربعة مليارات دولار سيمنح خلال ثلاثة أسابيع لدولة الأرجنتين الشعبيّة ودولة الشيلي الشعبيّة.

ثم تلاه حفل استقبال صغير في قاعة خاصّة من حانة بُنِيَت مثل القبو على سطح ناطحة للسحاب. كانت حفلةً غيرَ رسمية قدّمها جيمس تاجارت على نخب الإداريّين الذين أسّسوا مؤخّرًا شركة الصداقة والتنمية بين دول الجوار، وترأّسها أورين بويل

وكان أمين مالها ذلك الرجل من دولة الشيلي، وهو رجل بدا رشيقًا ونشيطا جدًّا. كان اسمه السيّد ماريو مارتينيز، ولكنّ تاجارت اختلط عليه الأمر نظرًا إلى وجود بعض التشابه بينه وبين السيّد مغيز، فكان يدعوه باسم السيّد كوفي ميغز أحيانًا. لقد تحدّثوا في هذه الحفلة عن الغولف، وسباقات الخيول، وسباقات القوارب، والسيّارات والنساء. ولم يكن من الضروريّ عندهم إعلان أنّ شركة الصداقة والتنمية بين دول الجوار قد تلقّت عقدا حصريّا دخل حيّز التنفيذ ويمتدّ على مدّة عشرين عامًا من الإيجار الإداريّ يشمل جميع العقّارات الصناعيّة للدول الشعبيّة في النصف الجنوبيّ من الكرة الأرضيّة.

وكان الحدث الأخير لذلك اليوم هو حفل عشاء كبير أقيم في منزل السيّد رودريغو غونزاليس، وهو ممثّل دبلوماسيّ لدولة الشيلي. إذ لم يسمع أيّ أحدٍ عن السيّد غونزاليس منذ عامٍ، لكنّه أصبح مشهورا بالحفلات التي أقامها في الأشهر الستّة الماضية منذ وصوله إلى نيويورك. لقد وصفه ضيوفه بأنّه رجل أعمال تقدّميّ، خسر جميع ممتلكاته -كما قيل- عندما انتهجت الشيلي سياسة التأميم، بعد أن أصبحت دولة جماهريّة، إذ عادت جميع الممتلكات إلى الدولة، ما عدا تلك التي كانت في ملك أولئك الذين ينتمون إلى الدول المتخلّفة غير الشعبيّة مثل الأرجنتين؛ ولكنّه اتّخذ موقفًا مستنيرًا وانضمّ إلى النظام الجديد، واضعًا نفسه في خدمة بلده. كان منزلُه في نيويورك طابقًا بأكمله من فندق سكنيّ حصريّ. وكان ذا وجهٍ ضخم فارغ وعينَي قاتل. وعندما رآه تاجارت في حفل تلك الليلة، خلُص إلى أنّ الرجل كان كتومًا ولا يظهر أيّ نوع من أنواع الشعور، وبدا كما لو أنّ سكّينًا يمكنها أن تخترقه، من دون أن يلاحظها أحدٌ، فتقطع طبقات لحمه المتدلّي ما عدا تلذّذه الجنسيّ الفاحش في طريقة فرك قدميه فوق سجّاده الفارسيّ المكلف، أو تَرْبِيتِه المفرط على ذراع كرسيّه المصقول، أو ثني شفتيه أثناء وضع السيجار. وكانت زوجته، السيّدة غونزاليس، امرأةً شابّة وجذّابة، لكنّها ليست جميلة كما كانت تتصوّر، وإن كانت تتمتّع بسمعة الجمال عن طريق الطاقة العصبيّة العنيفة وسلوكها الفظّ الغريب الذي يتميّز بثقة ذاتيّة ساخرة

يبدو أنّها لم تكن تَعِدُ بأيّ شيء ولا تعفي أيّ شخص. وكان من المعروف عنها أنّ علامتها التجاريّة الخاصّة هي الأصول الرئيسيّة لزوجها، في عصر يتاجر فيه المرء، لا بالسلع، بل بالأفضال والخدمات التي يقدّمها للناس. وأثناء مشاهدتها بين الضيوف، وجد تاجارت بعض التسلية في التساؤل عن الصفقات التي أبرمت، والتوجيهات التي صدرت، والصناعات التي دمّرت مقابل بضع فرص تتيحها مثل تلك الليالي التي قد لا يسعى معظم هؤلاء الناس إلى اقتناصها أو تذكّرها. لقد شعر تاجارت بالملل في تلك الحفلة، إذ لم يكن أمامه سوى نصف دزينة من الأشخاص الذين حضروا من أجلهم، ولم يكن من الضروريّ له التحدّث إلى نصف الدزينة الأخرى، ولم يكن أمامه سوى مشاهدتهم وتبادل بضع نظرات معهم. وكان العشاء على وشك أن يقدَّم عندما سمع ما جاء من أجل سماعه: لقد ذكر السيّد غونزاليس -ودخان سيجاره يخيّم على أكثر من نصف دزينة من الرجال الذين انساقوا نحو كرسيّه- أنّه بالاتّفاق مع دولة الأرجنتين الشعبيّة المستقبلية، سيقع تأميم جميع عقّارات شركة دانكونيا للنحاس من قبل دولة الشيلي الشعبيّة في أقلّ من شهر، وبالضبط بداية من ثاني أيّام سبتمبر.

وكانت الأمور تسير وفق توقّعات تاجارت؛ لكنّ الأمر غير المتوقّع حدث عند سماع تلك الكلمات، فشعر برغبة لا تقاوم في الهروب. لقد شعر بأنّه غير قادر على تحمّل الضجر الذي سيرافق العشاء كما لو أنّه يوجد نوع آخر من النشاط مطلوب للاحتفال بإنجاز تلك الليلة. فخرج حين خيّم شفق الصيف على الشوارع، وهو يشعر كما لو أنّه كان يتعقّب شيئًا مّا، ويتعقّبه في الآن نفسه شيء آخر. كان يتعقّب المتعة التي لا يمكن لأيّ شيء أن يمنحه إيّاها، والاحتفال بشعور لن يجرؤ على تسميته. وفي الآن نفسه كان يتعقّبه خوفٌ من اكتشاف الدافع الذي أثّر فيه كي يخطّط لإنجاز تلك الليلة، واكتشاف أيّ جانب من ذلك الإنجاز منحه هذا الشعور المحموم بالإشباع.

ثمّ ذكّر نفسه بأنّه سيبيع أسهمه بشركة دانكونيا للنحاس، تلك الأسهم التي لم تعد بتلك القيمة المغرية خصوصًا بعد إفلاس الشركة في العام الماضي، وأنّه سيشتري أسهما في شركة الصداقة والتنمية بين دول الجوار، مثلما اتّفق مع أصدقائه، وهي الأسهم التي

من شأنها أن تجلب له الحظّ. لكنّ الفكرة لم تجلب له سوى الملل؛ إذ لم يكن ذلك ما أراد الاحتفال به.

لكنّه حاول إجبار نفسه على الاستمتاع به. وقال في نفسه إنّ المال كان دافعه، المال، ولا شيء غير ذلك. ألم يكن ذلك دافعًا طبيعيًّا ودافعًا صحيحًا؟ أليس ذلك ما سعى وراءه آل وايتس، وآل ريردن، وآل دانكونيا؟... ثمّ هزّ رأسه لإيقاف حمّى تلك الأسئلة: لقد شعر كما لو أنّ أفكاره تنزلق إلى منعرج أعمى خطير، ما كان له أن يسمح لنفسه برؤية نهايته أبدًا.

وقال في نفسه على نحوٍ كئيب في شكل اعتراف متردّد: لم يعد المال يعني لي أيّ شيء بعد الآن. وكان قد أنفق مئات الدولارات -في تلك الحفلة التي نظّمها ذلك اليوم- على المشروبات التي لم تشرب، والأطعمة الشهيّة التي لم تُؤكَل، والكمّ الهائل من البقشيش غير المبرّر، والأهواء غير المتوقّعة، والمكالمات الهاتفية المكلفة نحو الأرجنتين، لأنّ أحد الضيوف كان يريد التحقّق من الصيغة الدقيقة للقصّة الإباحيّة البذيئة التي بدأ في سردها، والحوافز التي كانت تصرف في أيّ لحظة، والغيبوبة الفاترة من معرفة أنّ دفع المال أسهل من التفكير.

ويبدو أنّ أورين بويل كان ثملًا عندما قال وهو يضحك على تاجارت:

- ليس لديك شيء تقلق بشأنه، فأنت محميّ بموجب خطّة توحيد السكك الحديديّة تلك.

وبموجب هذه الخطّة أفلست شركة محلّيّة للسكك الحديديّة في ولاية داكوتا الشماليّة، ووقع التخلّي عن المنطقة بأكملها فتركت لتواجه المجهول، وانتحر مدير مصرف محلّي بعد أن قتل زوجته وأطفاله، وألغي قطار شحن من الجدول الزمنيّ المعدّ لولاية تينيسي، فترك المصنع المحلّيّ من دون نقل وغادر ابن مالك المصنع مقاعدَ الدراسة الجامعيّة في يوم إشعارهم بإلغاء القطار وهو يقبع الآن في السجن وينتظر تنفيذَ حكم الإعدام عليه إثر جريمة قتلٍ نفّذها مع عصابة من الغزاة، وأُغلِقت محطّة

الطريق في ولاية كانساس، وانسحب وكيل المحطّة الذي أراد أن يكون عالمًا فانتهى به الأمر إلى غاسل صحون. كلّ ذلك وقع ليجلس جيمس تاجارت في حانة خاصّة ويدفع ثمن الكحول التي كانت تسكب في حلق أورين بويل، ويدفع للنادل الذي اضطّر إلى تنشيف ملابس بويل عندما دَلَقَ الشراب على صدره، ويدفع ثمن السجّادة التي أُحرِقَت بسجائر قوّاد سابق من الشيلي لم يشأ أن يتكبّد عناء الوصول إلى منفضة سجائر تقع على بعد مسافة ثلاث أقدام منه.

ولم تكن معرفته بعدم مبالاته بصرف المال هي ما جعله يرتجف الآن من الخوف، بل معرفته بأنّه سيكون غير مبالٍ حتّى إذا انحدر إلى حالة الشحّاذ. لقد كان يمرّ بوقت عصيب شعر فيه بقدر من تأنيب الضمير الذي تشكّل في أوضح صيغة من صيغ التكدّر، بسبب الوعي بفكرة أنّه كان يشارك في خطيئة الجشع الذي قضى كلّ وقته في رفضه والتنديد به. والآن أصابه وعيٌ بارد بأنّه في الواقع لم يكن منافقا على الإطلاق: فهو في الحقيقة لم يهتمّ قطّ بالمال. وهذا أيضًا ترك ثغرة أخرى مفتوحة أمامه، أدت إلى منعرج أعمى آخر لا يمكنه أن يخاطر برؤيته.

أريد فقط أن أفعل شيئًا الليلة! هكذا صرخ دون صوت احتجاجًا ضدّ أيّ شيء كان يضغط على تلك الأفكار التي تعشّش في عقله، وغضبًا من الكون الذي لم تسمح له فيه بعضُ القوى الشرّيرة بأن يجد متعته من دون الحاجة إلى معرفة ما كان يريده أو السبب الذي جعله يرغب في الاستمتاع.

وظلّ صوت أحد الأعداء بداخله يسأله: ما الذي تريده؟ فأخذ يحثّ الخطى، محاولًا الهرب منه. وبدا له أنّ دماغه كانت متاهة مفتوحة على منعرجات عمياء كثيرة في كلّ منعطف، ممّا أدّى إلى وجود ضباب يخفي هاويةً. وبدا له أيضًا أنّه كان يركض، في حين أنّ جزيرة الأمان الصغيرة تتقلّص أمام ناظريه ولا شيء سيبقى قريبًا منه سوى تلك الأزقة. وبدا له الأمر كما لو أنّه ترك ببقايا الوضوح الموجود في الشارع من حوله، بسديمٍ مخيّم يملأ جميع المخارج. لماذا كان عليها أن تتقلّص وتنكمش؟ قال في نفسه وقد سيطر عليه الذعر. وتلك كانت الطريقة التي عاش وفقها طوال حياته، محافظًا

على عينيه وهما تنظران بعناد وأمان إلى الرصيف القريب أمامه، ومتجنّبًا بحرفيّة رؤية الطريق والزوايا والمسافات والأبراج. لم يكن ينوي الذهاب إلى أيّ مكان، بل أراد أن يكون متحرّرًا من التقدّم، خاليًا من تتبّع خطّ مستقيم، ولم يُرِد من السنوات أن تضيف إليه أيّ مبلغ آخر، فما الذي جمعه خلال كلّ تلك السنوات؟ ولماذا وصل إلى وجهة لم يختَرْها ولا يمكن لأحدٍ فيها أن يقف بثبات أو يتراجع؟ انظر إلى أين تسير يا أخي! زمجر أحد الأصوات، عندما دفعه مرفق صاحب ذلك الصوت إلى الخلف، فأدرك حينها أنّه اصطدم بجسد ضخم تنبعث منه رائحة كريهة وأنّه كان يجري.

فأبطأ خطواته واعترف في ذهنه بأنّه أصبح يميّز الشوارع التي اختارها أثناء هروبه العشوائيّ. ولم يكن يرغب في معرفة أنّه كان عائدًا إلى منزله وزوجته، فذلك أيضًا منعطفٌ ضبابيّ، لكن لم يبقَ له من مكان آخر يلجأ إليه سوى ذلك المكان.

وأدرك -أثناء اللحظة التي رأى فيها هيئة جسد تشيريل الصامتة والثابتة وهي تنهض عند دخوله إلى غرفتها- أنّ ذلك المكان كان أكثر خطورة عليه وأنّه لن يجد ما يريد. ولكنّ ما بدا له خطرًا كان إشارةً إليه بأن يغلق عينيه ويعلّق حكمه ويتابع مسيره بثبات من دون تغيير، بناءً على فرضيّة غير معلنة تقول إنّ الخطر سيظلّ غير واقعيّ أمام السلطة السياديّة لرغبته التي تشير عليه بألّا يراه مثل صافرة الضباب بداخله، تلك التي تصفّر لا لإعلان صوت إنذار، بل لجلب الضباب.

قال بلهجة مجاملة هادئة:

- نعم، لقد كان عليّ حضور عشاء عمل مهمّ لكنّني غيّرت رأيي، وشعرت أنّ من الأفضل لي تناول العشاء معك الليلة.

- فهمتك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

كان هذا هو الجواب الوحيد الذي حصل عليه.

فشعر بالانزعاج من طريقتها الفاترة ووجهها الشاحب غير الجذّاب. وقد أزعجته أيضًا الكفاءة السلسة التي كانت تصدر بها التعليمات للخدم، ثمّ تضايق عندما وجد

نفسه أمام ضوء الشموع في غرفة الأكل، وهو يواجهها وبينهما طاولة مجهّزة على نحوٍ مثاليّ توسّطها كوبان من الكريستال وأطباق من الفاكهة وسلطانيّات فضّية من الجليد.

كان اتّزانها هو الذي هيّجه أكثر من أيّ وقت مضى؛ فهي لم تعد ذلك المسخ الصغير المتناقض الذي قزّمه ترفُ إقامة وفخامة مسكن صمّمه فنّان مشهور؛ بل كانت متلائمة مع المكان. فجلست بجانب الطاولة كما لو أنّها من نوع المضيّفات الذي يحقّ له أن يطالب بحرّيّته في ذلك الفضاء. وكانت ترتدي جلبابًا منزليًّا مصممًّا خصّيصًا من الديباج باللون الخمريّ المزوج بلون شعرها البرونزيّ، وكانت بساطةُ تقاسيمه الشديدةُ بمثابة الزخرفة الوحيدة التي كانت تزيّنها. أمّا هو فكان يفضّل أن يراها مرتديةً زينة الماضي من الأساور المجلجلة والأبازيم المصنوعة من حجر الراين. وأزعجته نظرة عينيها، كما كانت تزعجه منذ أشهر: فهما لم تُبْدِيا ودّيّة أو عدائيّة الواضحة، ولكنّهما كانتا حذرتَين ومشكّكتين.

- قال بنبرة فخرٍ: لقد أنهيت اليوم صفقة كبيرة، ستشمل هذه القارّة بأكملها ونصفَ دزينة من الحكومات.

ثمّ أدرك أنّ الرهبة، والإعجاب، والفضول المتلهّف الذي توقّعه، كانت صفاتٍ تنتمي إلى وجه فتاة التسوّق الشابّة التي لم تعد موجودة أمامه. ولم يرَ أيّ واحدة منها في ملامح وجه زوجته؛ حتّى الغضب أو الكراهية كانا سيمثّلان صفتَين أفضل من نظرتها اليقظة المتّزنة؛ فنظرتها بدت أسوأ من اتّهامه، لقد كانت بصدد مساءلته.

- عن أيّ صفقة تتحدّث عنها يا جيم؟

- ماذا تعنين بسؤالك هذا؟ ولماذا تشكّكين؟ ولماذا تتطفّلين؟

- أنا آسفة. لم أكن أعلم أنّ الأمر سرّيٌّ. إذَن لا يجب عليك أن تجيبني.

- إنّه ليس سرّيًا.

ثمّ انتظر ردّها لكنّها ظلّت صامتةً فقال:

- حسنًا؟ ألن تقولي أيَّ شيء آخر؟

ردّت ببساطة كما لو أنّها تريد إرضاءه:

-لا، ليس عندي ما أقول.

- إذَن أنت لستِ مهتمّة مطلقًا بالموضوع؟

- لكنّني ظننت أنّك لا تريد مناقشته.

قال وقد استشاط غضبًا:

-أوه، لا داعي إلى الخداع! إنّها صفقة تجاريّة كبيرة. والصفقات الكبيرة هي ما يثير إعجابك، أليس كذلك؟ حسنًا، إنّها أضخم من أيّ شيء حَلُمَ به هؤلاء الأولاد. سيقضّون حياتهم في البحث عن ثرواتهم بالملّيم، بينما أستطيع أنا أن أكوّنها في مناسبة واحدة على هذا النحو.

ثمّ سرّح أصابع يديه وأضاف: تماما على هذا النحو. إنّها أكبر حيلة على الإطلاق.

- أتسمّيها حيلةً يا جيم؟

- بل هي صفقة!

- وهل أنت من عَقَدَ هذه الصفقة؟

- أتراهنين على أنّني لم أعقدها! ذلك الأحمق البدين، أورين بويل، لن يستطيع الفوز بها حتّى إن ترنّح مدّة مليون سنة. فهذا يتطلّب معرفة ومهارة...

فلاحظ بريقًا من الاهتمام في عينيها، ثمّ أضاف: وإلمامًا بعلم النفس.

لكن سرعان ما اختفى ذلك البريق، غير أنّه واصل حديثه بلامبالاةٍ قائلًا:

- على المرء أن يعرف كيفيّة التعامل مع ويسلي، وكيفيّة إبعاد التأثيرات الخاطئة عنه، وكيفيّة الحصول على اهتمام السيّد طومسون من دون السماح له بمعرفة الكثير، وكيفيّة إقحام تشيك موريسون في الأمر، لكن في الوقت نفسه ينبغي إبعاد تنكي هولواي،

وينبغي معرفة كيفيّة الحصول على الأشخاص المناسبين لإقامة بعض الحفلات واستدعاء ويسلي في الوقت المناسب... تشيريل، هل توجد أيّ شمبانيا في هذا المنزل؟

- شمبانيا؟

- ألا يمكننا أن نفعل شيئًا مميّزًا الليلة؟ ألا يمكننا أن نحتفل معًا؟

- نعم يا جيم، بطبيعة الحال، يمكننا الحصول على الشمبانيا

فدقّت تشيريل الجرس وألقت الأوامر بطريقتها الغريبة التي تفتقر إلى الحياة، طريقة تنمّ عن الامتثال الدقيق لرغباته، وإن كانت لا تتجرّأ على إظهار أيّ رغبة من رغباتها.

قال: لا يبدو أنّك معجبة جدًّا بهذه الصفقة. لكن ماذا تعرفين أنت عن مجال المال والأعمال؟ أنت لن تكوني قادرة على فهم أيّ شيء. فقط انتظري حتّى الثاني من سبتمبر. وانتظري حتّى يسمعوا عن هذه الصفقة.

- يسمعوا؟ من تقصد هنا؟

فنظر إليها جيم، كما لو أنّه ترك كلمة خطيرة تنزلق من لسانه لاإراديًّا.

- لقد نصبنا فخًّا سيسمح لنا -أنا وأورين وبعض الأصدقاء- بالتحكّم في كلّ ملكيّة صناعية تقع جنوب الحدود.

- ملكيّة مَن؟

- لماذا تسألين... إنّها ملك للشعب. فهذا ليس استيلاءً من الطراز القديم لتحقيق ربح خاصّ. إنّها صفقة عقدناها من أجل إدارة الممتلكات المؤمّمة لمختلف الدول الشعبيّة بأمريكا الجنوبيّة، وتعليم عمّالها تقنيات إنتاجنا الحديثة، ومساعدة المحرومين الذين لم تتح لهم الفرصة.

ثمّ توقّف فجأة عن الكلام، رغم أنّها كانت جالسة تنظر إليه دون أن تحيد ببصرها عنه. فقال فجأة بعد أن أصدر ضحكة صغيرة فاترة:

- إذا كنت قلقة جدًّا لأنّك تخفين انحدارك من الأحياء الفقيرة، فيجب أن تكوني أقلّ اهتمامًا بفلسفة الرفاه الاجتماعيّ. فالفقراء هم دائمًا من يفتقرون إلى الغرائز الإنسانيّة. ويجب أن يولد المرء وهو مالك للثروة لكي يعرف أفضل مشاعر الإيثار.

ردّت بنبرة بسيطة لتصحيح الوقائع التي ذكرها:

-لم أحاول قَطُّ إخفاء انحداري من الأحياء الفقيرة، وليس لي أيّ تعاطف مع فلسفة الرفاه الاجتماعيّ. لقد رأيت ما يكفي منها لمعرفة ما يجعل هذا النوع من الفقراء الذين يريدون شيئًا من أجل لا شيء.

لكنّ جيم لم يجبها، فأضافت فجأة، بصوت مندهش، لكنّه ثابت، كما لو أنّها تقدّم تأكيدًا نهائيًّا لشكّ قديم ساوَرَها:

- جيم، أنت أيضًا لا تهتمّ بهذه الفلسفة. ولا تكترث بهذا الهراء الذي يدعى الرفاه الاجتماعيّ.

قال وقد جنَّ جنونه: -حسنًا، إذا كان المال هو كلّ ما يسترعي اهتمامك فاسمحي لي بأن أقول لك إنّ هذه الصفقة ستدرّ عليَّ مالا كثيرا. الثروة هي ما كان يثير إعجابك على الدوام، أليس كذلك؟

- لا، إنّ إعجابي يعتمد على أشياء كثيرة.

ردّ من دون أن يسألها عن الأشياء التي يعتمد عليها إعجابها:

- أعتقد أنّني سأكون في نهاية المطاف واحدًا من بين أغنى الرجال في العالم. ولن يوجد شيء لا أكون قادرًا على امتلاكه. لا شيء على الإطلاق. اطلبي أيّ شيء، وأنا سأوفّره لك. هيّا، افصحي عن طلباتك.

- يا جيم، أنا لا أريد أيّ شيء.

- لكنّني أودّ أن أعطيك هديّة للاحتفال بهذه المناسبة، ألا ترين أنّني أرغب في ذلك؟ أيّ شيء يخطر لك. أيّ شيء يمكنني أن أفعله من أجلك. أريد أن أريك أنّني أستطيع

أن أحقّق لك أيّ رغبة يمكنك تخيّلها، فقط سمِّيها.

- ليست لديّ أيّ رغبات.

- أوه، هيّا فقط سمِّيها! أتريدين يختًا؟

- لا.

- أتريدين منّي أن أشتري الحيّ الذي كنت تعيشين فيه بمدينة بافالو؟

- لا.

- أتريدين جواهر تاج ملكة إنجلترا؟ قد تكون صعبة المنال، فالناس هناك لطالما لّمحوا إلى وجود هذه المجوهرات في السوق السوداء فترة طويلة. لكن لا يوجد رجل أعمال من الطراز القديم يقدر على شرائها. أمّا أنا فأقدر على شرائها أو ربّما يكون ذلك أيسر بالنسبة إليّ بعد الثاني من سبتمبر. أتريدينها؟

- لا.

- ماذا تريدين إذَن؟

- أنا لا أريد أيّ شيء، يا جيم.

- لكن يجب عليك أن تبوحي برغباتك! يجب أن تعبّري عن أيّ رغبة، عليك اللعنة!

فنظرت إليه، بذهول خافت، لكنّها كانت غير مبالية. فقال وقد بدا مندهشًا من اندفاعه وغضبه:

- أوه، حسنا، أنا آسف، لقد أردت فقط أن أرضيك.

ثمّ أضاف على نحوٍ كئيب: ولكن أعتقد أنّك لا تستطيعين فهم ذلك على الإطلاق. فأنت لا تعرفين حجم الرجل الذي تزوّجته.

قالت ببطء:

-أنا أحاول معرفة ذلك.

- هل مازلت تعتقدين، كما تقولين عادةً، أنّ هانك ريردن رجل عظيم؟

- نعم يا جيم، مازلت أعتقد هذا الأمر.

- حسنًا، لقد هزمته. فأنا أعظم من أيّ إنسان تعرفينه، أعظم من ريردن وأعظم من أيّ حبيب آخر لأختي...

ثمّ توقّف عن الكلام كما لو أنّه شعر بأنّه حاد عن جادّة الصواب بعيدًا. فسألته بشكل متّزن:

- جيم، ماذا سيحدث في الثاني من سبتمبر؟

فألقى عليها نظرة فاترةً، بينما انسابت عضلات وجهه لإبداء شبه ابتسامة، كما لو أنّه كان يخرق بسخريّةٍ حدودَ ضبطِ النفسِ المقدّسةَ فقال:

- سيؤمّمون شركة دانكونيا للنحاس.

ثمّ سمع ضجيجًا طويلًا قاسيًا لدوران أحد المحرّكات في الخارج، حين مرّت طائرة بمكان مّا في الظلام فوق السطح، وسمع صوت طنطنة رقيقة حين أسقط قطعة من الثلج فاستقرّت وذابت بالوعاء الفضّيّ الذي كان يحتوي على مشروب من الفواكه قبل أن تجيبه قائلة:

- ألم يكن صديقك؟

- أوه، اصمتي!

ثمّ ظلّ صامتًا من دون أن ينظر إليها. وعندما عادت عيناه إلى وجهها، كانت لا تزال تراقبه، ثمّ بادرت بالكلام قبله في صوت غريب:

-ما فعلته أختك في خطابها الإذاعي كان رائعًا.

- نعم، أعلم ذلك، فقد كنتِ تردّدين ذلك مدّة شهر.

- لكنّك لم تجبني بعد.

- وما هو السؤال كي أجيبك عليه...

- أنت تفعل تمامًا مثلما فعل أصدقاؤك في واشنطن، فهم لم يتفاعلوا مع خطابها.

ظلّ جيم صامتًا، فواصلت حديثها قائلة:

- جيم، سأستمرّ في طرح هذا الموضوع.

فلم يجبها.

- أصدقاؤك في واشنطن لم ينطقوا بكلمة عنه. فهم لم ينكروا ما قالته، ولم يقدّموا أيّ تفسيرات، بل إنّهم لم يحاولوا حتّى إيجاد أيّ تبريرات لأنفسهم. لقد تصرّفوا كما لو أنّها لم تتكلّم مطلقًا. وأعتقد أنّهم يأملون في أن ينسى الناس ذلك. قد ينسى بعض الناس، لكنّ بقيّتنا يعرفون ما قالته، ويدركون أنّ أصدقاءك كانوا خائفين من مواجهتها.

هذا ليس صحيحًا! لقد اتُّخِذَ الإجراء المناسب، وانتهت الحادثة، وأنا لا أرى سببًا يجعلك تستمرّين في ذكرها.

- عن أيّ إجراء تتحدّث؟

- لقد حُذِف برنامج بيرترام سكودر من البثّ الإذاعيّ، لأنّه لا يخدم المصلحة العامّة في الوقت الحاليّ.

- هل هذا هو الردّ المناسب عليها؟

- إنّه ينهي القضيّة من جذورها، ولا يمكن قول أكثر ممّا قيل عنها.

- وماذا عن الحكومة التي تعمل عن طريق الابتزاز والاغتصاب؟

- لا يمكنك قول شيء لم يحدث. لقد أعلن للعموم أنّ برنامج سكودر مخرّبٌ ومدمّر وغير جدير بالثقة.

-جيم، أريد أن أفهم هذا الأمر؛ سكودر لم يكن في صفّها، بل في صفّك. بل إنّه لم

يرتّب لذلك اللقاء. كان يتصرّف بناءً على أوامر من واشنطن، أليس كذلك؟

– كنت أعتقد أنّك لا تحبّين بيرترام سكودر.

– لم أحبّه ولن أفعل أبدًا. لكن...

– إذَن لماذا تهتمّين بأمره؟

– لكنّه كان بريئًا في ما يتعلّق بما كان يشغل أصدقاءك، أليس كذلك؟

– أتمنّى ألّا تشغلي بالك بالسياسة، فأنت تتحدّثين مثل الحمقى.

– كان بريئًا، أليس كذلك؟

– ثمّ ماذا؟

فنظرت إليه، وكانت عيناها شاخصتين بشكل لا يصدّق، وقالت:

– لقد حوّلوه إلى كبش فداء، أليس كذلك؟

– أوه، لا تقفي هناك، فأنت تبدين مثل إيدي ويلرز!

– حقًّا؟ أنا أحبّ إيدي ويلرز. إنّه إنسان صادق.

– بل إنّه أحمق لعين، ولا يملك أيَّ فكرة عن كيفيّة التعامل مع الواقع العمليّ!

– أمّا أنت فتعلم كيفيّة التعامل مع الواقع العمليّ، أليس كذلك يا جيم؟

– أتراهنين على أنّني لا أعلم!

– لماذا لم تستطع مساعدة سكودر إذَن؟

فانفجر ضاحكًا، لكنّه كان ضحكا ممزوجا بالغضب والعجز، ثمّ قال:

– أنا؟ أوه، لماذا لا تنضجين؟ لقد فعلت ما في وسعي لألقي بسكودر في هاوية لا يطلع منها أبدًا! كان من الضروريّ أن نضحّي بشخص مّا. ألا تعلمين أنّني كنت مهدّدًا أيضًا وأنّهم كانوا سيضحّون بي لو لم يعثروا على شخص آخر؟

- ولماذا لا يضحّون بداغني إذا كانت هي المخطئة؟ أَلِأنّها لم تكن كذلك؟

- إنّ داغني من فئة مختلفة تمامًا! أمّا كبش الفداء فكان يجب أن يكون إمّا سكودر أو أنا.

- لماذا؟

- وكان من الأفضل للسياسة الوطنيّة أن تختار التضحيّة بسكودر. وبهذه الطريقة، ليس من الضروريّ الجدال حول ما قالته داغني. وإذا ذكر أيّ شخص الأمرَ، فسنقول إنّه قيل في برنامج سكودر وإنّ هذا البرنامج فقد مصداقيّته وإنّ سكودر في حدّ ذاته أثبت أنّه محتال وكاذب... وهل تعتقدين أنّ الجمهور سيكون قادرًا على فكّ شفرة نباحنا؟ لم يثق أحد ببيرترام سكودر على أيّة حال. أوه، لا تحدّقي إليّ على هذا النحو! هل كنت تفضّلين أن يختاروني لتشويه سمعتي؟

- لماذا لم يختاروا داغني؟ أَلِأنّ خطابَها لا يمكن أن يفقد مصداقيّته؟

- إن أنت تأسّفتِ جدًّا لما حصل لبيرترام سكودر، فكان عليك رؤيته وهو يبذل كلّ ما في وسعه لجعلهم يكسرون رقبتي! لقد فعل ذلك منذ سنوات. هل ترين أنّه كان يستطيع بلوغ المنزلة التي بلغها لو لم يكن يجيد التسلّق على الجثث؟ كان يعتقد أنّه قويّ جدًّا. وكان عليكِ أن تَرَي كيف كان رجال الأعمال الكبار يهابونه! لكنّه سمح لهم بأن يتفوّقوا عليه هذه المرّة ببراعة، لأنّه انتمى إلى الصفّ الخطإ.

ومن خلال الاسترخاء المذهل الممتع وتمدّده على كرسيّه وابتسامته، علم خفيةً أنّ تلك كانت المتعةَ التي أرادها: أن يكون على طبيعته، وأن يتجاوز تلك الحالة المزعزعة المخدّرة فيطفو وينجو من المنعرجات العمياء الأكثر فتكًا، تلك المنعرجات التي كانت تؤدّي إلى السؤال عن كينونته.

- كما ترين، لقد انتمى إلى صفّ تينكي هولواي. كان من النوع الذي يشبه الأرجوحة، تأرجح فترة طويلة بين صفّ تينكي هولواي وصفّ تشيك موريسون. لكنّنا فزنا وهزمناه. لقد عقد تينكي صفقةً ووافق على إغراق صديقه بيرترام مقابل

بعض الأشياء التي احتاج إليها منّا. وكان عليك سماع عواء بيرترام من هول الصدمة! لكنّه كان يعلم أنّه يشبه البطّة الميّتة.

ثمّ بدأ يصدر ضحكة خافتة متقلّبة سرعان ما كتمها عندما انزاح كلّ الضباب ورأى وجه زوجته وهي تهمس: جيم، هل هذا هو نوع... المعارك التي تفوز فيها؟

فصرخ وضرب الطاولة بقبضته، فانقلبت كأسه وانتشر الماء في بقع داكنة على فراش المائدة، وقال:

- أوه! أين كنت تعيشين كلّ هذه السنوات؟ أيّ عالم كنت تعيشين فيه؟

- همست: أنا أحاول أن أكتشف المكان الذي كنت أعيش فيه.

ثمّ أرخت كتفيها فبدت فجأة ملامح وجهها متعبة بمظهر غريب يشبه مظهر امرأة مسنّة. كانت تبدو متردّدة وتائهة.

فانفجر جيم خلال الصمت الذي خيّم بينهما وقال:

- لم أستطع مدَّ يد المساعدة إليه! أنا لا أتحمّل المسؤوليّة.. يجب أن أتقبّل الأشياء تمامًا كما هي... فأنا لست من صنع هذا العالم.

ثمّ صُدم عندما رأى ابتسامتها. كانت ابتسامة احتقار شديد المرارة بدا لا يصدّق على وجهها المريض؛ هي لم تكن تنظر إليه، بل تنظر إلى إحدى صورها. وقالت:

- هذا تمامًا ما كان والدي يقوله عندما يثمل في حانة الزاوية بدلًا من البحث عن عمل.

- كيف تجرئين على مقارنتي بـ..

بدأ كلامه، لكنّه لم ينهِه لأنّها لم تكن تسمعه. وأدهشته كلماتها، عندما نظرت إليه ثانية، لأنّها لم تكن تمامًا ذات صلة بالموضوع. وسألته بصوت حزين:

- هل أنت من حدّد تاريخ التأميم الذي سيدخل حيّز التنفيذ في الثاني من سبتمبر؟

- لا. لا علاقة لي بهذا الأمر. إنّه تاريخ جلسة خاصّة حدّدته هيئتهم التشريعيّة. فلماذا تسألين؟

- إنّه يصادف تاريخ الذكرى الأولى لزواجنا.

- أوه؟ أوه، نعم هذا صحيح!

فابتسم وأعلن ارتياحه بسبب الانتقال إلى الحديث عن موضوع أكثر أمانًا، وقال:

- يا إلهي لقد مضت على زواجنا سنة دون أن أحسّ بها، لم تكن مدّة طويلة!

- ردّت عليه: بل تبدو أطول بكثيرٍ

ونظرت إليه من جديدٍ، فشعر بعدم الارتياح المفاجئ وكأنّ الموضوع لم يعد آمنًا على الإطلاق؛ فتمنّى ألّا تبدو على ذلك النحو كما لو أنّها كانت ترى المسار الكامل لتلك السنة ولزواجهما.

وقالت في نفسها، أنا أفعل هذا لا من مغبّة الخوف، بل لأتعلّم. كلّ شيءأفعله، فهو ليس بدافع الخوف، بل بدافع التعلّم. جاءت الكلمات من جملة كانت تكرّرها على نفسها في أحيان كثيرة إلى درجة أنّها شعرت بأنّها أصبحت تشبه عمودًا مصقولًا بنعومةٍ قُدَّ من وزن جسدها العاجز، ذلك العمود الذي كان يسندها طوال العام الماضي. وحاولت أن تكرّر تلك الكلمات، لكنّها شعرت وكأنّ يديها تنزلقان على ذلك العمود المصقول، كما لو أنّ الجملة لم تعد تمنع ذلك الرعب، لأنّها بدأت تفهم.

إذا كنت لا تعرفين، فإنّ الشيء الذي يجب عليك فعله ينبغي ألّا يكون دافعه الخوف، بل التعلّم. تلك هي الجملة التي قالتها لنفسها في الأسابيع الأولى من زواجها. لقد قالت ذلك في نفسها للمرّة الأولى حين لم تتمكّن من فهم سلوك جيم، أو فهم غضبه الكئيب الذي بدا كأنّه ضعف، أو فهم إجاباته المراوغة الغامضة على أسئلتها، والتي بدت تشبه الجبن؛ ومثل هذه الصفات لم تكن ممكنة في جيمس تاجارت الذي تزوّجته. حينها أخبرت نفسها بأنّها لا تستطيع إدانته من دون أن تفهمه، وأنّها لا تعرف شيئا عن

عالمه، وأنّ جهلها هو الذي يقود إلى تفسير أفعاله على نحوٍ سيّئٍ. لقد تقبّلت اللوم، وطعنات التأنيب الذاتيّ في مواجهة اليقين العنيد الذي أخبرها على نحوٍ كئيب بأنّ شيئًا مّا كان خاطئا، وأنّ هذا الشيء الذي شعرت به هو الخوف.

يجب أن أتعلّم كلّ شيء يُتَوقَّع من السيّدة تاجارت معرفته ويجب أن تكون عليه، تلك كانت الطريقة التي شرحت بها هدفها لمعلّم الآداب الذي انتدبته لهذا الغرض. لقد بدأت بتعلّم التفاني، والانضباط، ونهج سلوك الطالب العسكريّ أو الناشئ المتديّن. تلك كانت الطريقة الوحيدة التي ظنّت أنّها من خلالها ستكسب المكانة العالية التي منحها زوجُها كلّ ثقته، والتي وفقها سترتقي إلى الرؤية التي حدّدها لها، وهي الآن بمثابة الواجب الذي عليها تحقيقه. ومن دون أن تعترف بذلك لنفسها، شعرت أيضًا بأنّها في نهاية تلك المهمّة الشاقّة الطويلة ستستعيد رؤيتها إليه، وأنّ تلك المعرفة ستعيد إليها الرجل الذي رأته ليلةَ انتصار شركته.

لم تستطع تشيريل فهم موقف جيم عندما أخبرته عن الدروس التي كانت تتلقّاها. لقد انفجر ضحكًا، ولم تكن قادرة على تصديق أنّ ضحكه ينطوي على احتقار خبيث. لماذا يا جيم؟ لماذا؟ علامَ تضحك؟ فلم يجبها ولم يقدّم أيّ شرح كما لو أنّ حقيقة احتقاره كانت كافيةً ولا تتطلّب ذكر أيّ سببٍ.

لم تستطع اتّهامَه بالخبث. كان هو أيضا يتجاوز عن أخطائها. وبدا حريصًا على أن يقدّمها لأفضل حفلات الاستقبال في المدينة، ولم يتلفّظ بأيّ كلمة لومٍ لها تجاه جهلها، أو تجاه سوء تصرّفها، ولم يعاتبها قطّ على تلك اللحظات الرهيبة التي تتبادل فيها النظرات الصامتة بين الضيوف فينفجر دم الخجل بوجنتَيها منبّهًا إيّاها إلى أنّها قالت شيئًا خطأً مجدّدًا. أمّا هو فكان لا يُظهِر أيّ علامة من علامات الإحراج، بل يرمقها بابتسامة خافتة. وعندما عادا إلى المنزل بعد إحدى تلك الأمسيات، بدا مزاجه مبتهجًا بشغف. فظنّت أنّه كان يحاول أن يسهّل الأمر عليها، فقادها الامتنان إلى أن تدرس بجدّ وتتعلّم سلوك الطبقات الرفيعة.

كانت تتوقّع مكافأتها في ذلك المساء حين اكتشفت، بعد انتقال غير محسوس، أنّها تستمتع للمرّة الأولى بحفلة. لقد شعرت بأنّها حرّة في أن تفعل ما تشاء، لا وفق قواعد الآداب، ولكن وفق متعتها الخاصّة بثقةٍ مفاجئة في أنّ تلك القواعد قد انصهرت في عادتها الطبيعيّة. لقد علمت أنّها كانت تسترعي اهتمام الجميع، ولكنّها الآن وللمرّة الأولى، لم تكن محطّ سخريّة، بل محطّ إعجاب أغلب الحاضرين. كانوا ينظرون إليها، على أساس جدارتها الخاصّة بكونها السيّدة تاجارت، ولم تكن مجرّد ذلك الكائن الثقيل الذي يعتمد على إحسان جيم، وينتظر تسامحه المؤلم. كانت تضحك بمرح وترى ابتسامات التجاوب والتقدير على وجوه الحاضرين، فظلّت تنظر إليه في جميع أنحاء الغرفة، بنظرة مشرقة، مثل طفل حصل على درجات ممتازة في المدرسة، وتتوسّل إليه أن يكون فخورًا بها. غير أنّ جيم جلس وحيدًا في زاوية، يراقبها بنظرة لم تقدر على فكّ طلاسمها.

ولم يشأ جيم أن يتحدّث إليها في طريق عودتهما. ثمّ عندما وصلا إلى المنزل قاطع الصمت المخيّم بينهما ومزّق ربطة عنقه وسط غرفة المعيشة وقال:

- لا أدري أيّ سبب يجعلني أحضر مثل هذه الحفلات. لم أحضر في حياتي حفلة بمثل هذا الابتذال والملل. لقد كانت مضيعة للوقت!

ردّت عليه بذهول:

- لماذا تقول هذا يا جيم، كنتُ أعتقد أنّها حفلة رائعة.

- ربّما كانت كذلك عندك! ويبدو أنّك كنت تتصرّفين بأريحيّة كما لوأنّك في المنزل تماما، أو كما لوأنّك في جزيرة كوني. أتمنّى أن تتعلّمي المكوث في مكانك من دون أن تحرجيني أمام الناس.

- وهل أحرجتك الليلة؟

- لقد أحرجتني فعلًا!

- كيف؟

ردّ عليها بلغة المتصوفة:

-إذا كنت لا تفهمين ذلك، فأنا لا أستطيع شرحَه لك.

قالت بحزم:

- أنا لا أفهم ذلك.

ثمّ خرجت من الغرفة، وأوصدت الباب بعنف. وشعرت أنّ ما لا يمكن تفسيره ليس مجرّد فراغ هذه المرّة. كان يحتوي على طيفٍ من الشرّ. ومنذ تلك الليلة، ظلّت بداخلها نقطةٌ قاسية صغيرة من الخوف، تشبه بقعة ضوء أماميّ لقطار بعيد يتقدّم صوبها في مسار خفيّ.

لا يبدو أنّ المعرفة كانت ستجلب لها رؤية أوضح عن عالم جيم، بل حوّلته إلى لغز أكبر. ولم تكن ترى أيّ قيمة للمعارض الفنيّة التي دأب أصدقاؤه على حضورها، وللروايات التي كانوا يطالعونها، والمجلّات السياسيّة التي كانوا يناقشونها، تلك العروض التي تعيد إنتاج طفولتها في الأحياء الفقيرة، وتلك الروايات التي تزعم إثباتَ عقمِ العلوم والصناعة والحضارة والحبّ، باستخدام لغة لن يجرؤ والدها على استخدامها حتّى لو كان في أقصى لحظات سكره، وتلك المجلّات التي كانت تشجّع التطرّق إلى العموميّات التي يشوبها الجبن والخوف بأسلوب غامض عفا عليه الزمن يشبه المواعظ التي كانت تدين بها واعظَ بعثة الأحياء الفقيرة بكونها ليست سوى حيلٍ قديمة نثرها فمٌ مخادع. لم تكن تشيريل ترى في تلك الأشياء الثقافة ما كانت تتطلّع إليه باحترام وتنتظر اكتشافه بشغف. لقد شعرت كما لو أنّها تسلّقت جبلًا لتصل إلى شكل مُسَنَّنٍ متعرّج بدا لها مثل القلعة، لكنّها عندما دخلته وجدته مجرّد خراب متهدّم لمستودع مُنْهَارٍ.

ثمّ قالت له ذات مرّة، بعد أمسية أمضياها بين الناس الذين كانوا يسمّونهم النخبةَ المثقّفةَ في البلاد:

- إنّ الدكتور سيمون بريتشيت إنسان كاذب. إنّه دجّال قديم ورجل خبيث وجبان.

أجابها:

-هل تعتقدين أنّك مؤهّلة لإصدار الأحكام على الفلاسفة؟

- أنا مؤهّلة للحكم على المحتالين. لقد قابلت ما يكفي منهم في حياتي لأكتشف أيّ واحدٍ منهم عندما أراه.

- وهذا هو السبب الذي يجعلني أقول إنّك لن تتجاوزي خلفيّتك الاجتماعيّة أبدًا. فلو أنّك فعلت ذلك، لقدّرتِ فلسفة الدكتور بريتشيت أيّما تقدير.

- عن أيّ فلسفة تتحدّث يا جيم؟ إذا كنت أنتَ بنفسك لا تفهمها وأنا لا أستطيع شَرْحَها.

ولم تسمح له بأن ينهي المحادثة وفق الصيغة التي يفضّلها. فقالت:

- يا جيم إنّه دجّال، هو وبالف يوبانك وكلّ عصابتهم، وأعتقد أنّك وقعت في أحابيلهم.

وبدلا من رؤية الغضب الذي توقّعت أن يعتريه، رأت ومضة صغيرة من التسلية عندما رفع جفونه وأجابها: هذا اعتقادك الخاصّ.

ثمّ شعرت بلحظة من الرعب عند التقاطها أوّلَ مفهومٍ لم تكن تعرف أنّه قد يكون ممكنًا: ماذا لو كان جيم رهينة عندهم فعلًا؟ لقد اعتقدت أنّها تستطيع فهم زيف الدكتور بريتشيت. وكان هذا الزيف بمثابة المضرب الذي يوفّر له دخلًا غير مستحقّ؛ وكان بإمكانها حتّى الاعتراف بإمكانيّة أن يكون جيم أيضًا دجّالًا ويدير أعمالًا زائفة؛ لكنّ ما لم تستطع تحمّله هو أن يكون جيم كاذبًا، ذلك الدجّال المفلس الذي لا يحصل على أيّ مقابل؛ فهو مجرّد مقامر متلاعب أو محتال يبدو من خلال المقارنة أنّه نافع وبريء. لكنّها لم تستطع تخيّل الدافع الذي جعله يكون على ذلك النحو، بل شعرت فقط بأنّ دائرة ذلك الضوء الأماميّ الذي كان يتحرّك صوبها قد أصبحت في اتّساعٍ

متزايد.

ولم تتمكّن من تذكّر الخطوات، وما تراكم من ألم، ذلك الألم الذي كان في البدء بمثابة خدوش صغيرة من عدم الارتياح، ثمّ تطوّر ليصبح طعناتٍ حادّة من الحيرة، وتحوّل ليصبح مصدر خوف مزمن ومزعج، فبدأت تشكّ في مكانة جيم في مجال السكك الحديديّة إلى أن فاجأها بغضبه حين قال: إذَن أنت لا تثقين بي؟ لقد قاطعها حينها ليردّ على أسئلتها الأولى البريئة التي جعلتها تدرك أنّها لم تكن كذلك... وكانت تتوقّع تمامًا أنّ إجاباته ستطمئنها. لقد خبرت، في الأحياء الفقيرة من طفولتها، أنّ الناس الصادقين لم يكونوا حسّاسين على الإطلاق بشأن مسألة الثقة.

أنا لا أهتمّ بالتحدّث عن العمل، تلك كانت إجابته عندما ذكرت أمامه موضوع السكك الحديديّة. لقد حاولت سابقًا مناقشتَه في مثل هذه المسألة عندما قالت له:

- جيم، أنت تعرف حقّ المعرفة موقفي من عملك وكم أنا معجبة بك حقًّا لأنّك في هذا المجال؟

- حقًّا! هل تعتقدين أنّك تزوّجت رجلًا أم رئيسَ شركةٍ لسكك الحديد؟

- أنا... لم أفكّر قطّ في الفصل بين الاثنين.

- حسنا، أنا لا رأى في هذا الأمر مدحًا يُعلي من قيمتي.

فنظرت إليه بحيرة. إذ كانت تعتقد أنّه سيرى في كلامها مدحًا لكنّه قال:

- أودّ أن أصدّق أنّك تحبّينني لذاتي، وليس بسبب شركة السكك الحديديّة التي أملكها.

قاطعته قائلة:

- يا إلهي، يا جيم، أنت لم تعتقد أنّني..!

ردّ بابتسامة حزينة:

- لم أكن أعتقد أنّك تزوّجتني من أجل أموالي أو منصبي. فأنا لم أشكّ في أمرك مطلقًا.

لقد أدرك، بارتباك مدهش واتزّان معذّب، أنها قد تكون منحته أرضيّةً لإساءة تفسير شعورها، وأنّها ربّما نسيت عددَ خيبات الأمل المريرة التي لا شكّ في أنّه عانى منها على يد النساء اللّائي كنّ يتصيّدن ثروته، فلم يكن بوسعها فعل أيّ شيء سوى أن تهزّ رأسها وتقول:

- أوه يا جيم، ليس هذا ما قصدته!

فضحك بهدوء، مثل طفل صغير، ووضع يده حولها وسألها:

- هل تحبّينني؟

- همست: نعم.

- إذن فأنت تؤمنين بي لأنّ الحبّ كما تعلمين هو الإيمان. ألا ترين أنّني أحتاج إليه؟ فأنا لا أثق بأيّ أحدٍ من أولئك الذين يحيطون بي، ولا أملك أيّ غير الأعداء، أنا إنسان وحيد. ألا تعلمين أنّني في أمسّ الحاجة إليك؟

أمّا الشيء الذي جعلها تجوب غرفتها جيئة وذهابا -بعد ساعات في قلق معذّب- فكان رغبتها اليائسة في تصديقه على الرغم من أنّها لم تصدّق أيّ كلمة من كلامه، لكنّها كانت تعلم أنّه صدَقَها القول.

لقد كان صادقًا، لكنّ صدقه لم يكن مبطّنًا في الطريقة التي أضمرها، ووفقًا لأيّ طريقة أو معنى أَمِلَت في أن تفهمه. كان صادقًا في قوله إنّه يحتاج إليها، ولكنّ طبيعة حاجته بدت مراوغة، فلم تستطع تحديدها. ولم تعرف ما كان يريد منها. فهو لم يكن يبحث عن الإطراء، إذ لطالما راقبته وهو يستمع إلى المجاملات الواهية من الكاذبين، فكان ينصت إليهم بنظرة من عدم الرضا، تشبه تقريبًا نظرةَ مدمن مخدّرات في جرعة غير كافية لإثارة نشوته. لكنّها راقبته وهو ينظر إليها نظرة المرء إلى جرعة إنعاش، وفي

بعض الأحيان، بدا كما لو أنّه يتوسّل. كانت قد رأت وميض الحياة في عينيه كلّما منحته علامةً من علامات الإعجاب. ومع ذلك كان جوابه انفجارًا من الغضب، كلّما ذكرت له سبب إعجابها به. وبدا كما لو أنّه يريدها أن تعتبره إنسانًا عظيمًا، لكنّه لم يجرؤ قطّ على أن ينسب أيّ محتوى محدّد إلى عظمته.

لم تفهمه تشيريل في تلك الليلة، من منتصف شهر أبريل، عندما عاد من سفرة إلى واشنطن. لقد وضع باقة من زهور الليلك بين ذراعيها وقال بصوت عالٍ:

- مرحبًا يا طفلتي! إنّ الأيّام السعيدة ستحلّ هنا ثانية! لقد رأيت تلك الزهور ففكّرت فيك. الربيع على الأبواب يا عزيزتي.

ثمّ سكب لنفسه شرابًا وأخذ يجوب الغرفة ويتحدّث بأسلوب مرح يشوبه السرور والفخر. وكان في عينيه بريقٌ محمومٌ، وبدا أنّ صوته تتخلّله بعض الإثارة غير الطبيعيّة. فبدأت تتساءل عمّا إذا كان مبتهجًا أم محطّمًا.

قال فجأة من دون تمهيد: أعرف ما يخطّطون له.

فألقت نظرة خاطفة على ملامح وجهه، فأدركت معنى أحد أصواته الداخليّة المنفجرة. ثمّ أضاف:

- قليلون هم الذي يعرفون هذا الأمر في البلاد، وأنا واحد منهم! فالأولاد الكبار يُبْقُون الأمرَ سرًّا حتّى يكونوا مستعدّين لإعلانه للأمّة. فهل سيُفاجأ الكثير من الناس يا ترى! وهل سيُصدَم الكثير منهم! وهل سيطرحهم أرضًا بالضربة القاضية؟ قد يصيب كلّ فرد في هذا البلد! ويؤثر على كلّ شخص. إنّه أمر بالغ الأهمّيّة.

- كيف سيؤثّر يا جيم؟

- سيؤثّر عليهم! فهم لا يعلمون ما هو قادم، أمّا أنا فأعلم. إنّهم يجلسون هناك الليلة.

وأشار إلى النوافذ المضيئة في المدينة، ثمّ أضاف:

-يخطّطون ويعدّون أموالهم، ويعانقون أطفالهم أو أحلامهم وهم لا يعلمون، أمّا أنا فأعلم أنّ كلّ ذلك سيُحَطَّم، ويُوقَفُ، ويُغَيَّر!

- وهل سيتغيّر إلى الأسوأ أم إلى الأفضل؟

فأجابها على عجل كما لو أنّ سؤالها لم يكن مهمّا، وبدا أنّ صوته فَقَدَ بريقه وتحوّل إلى صوت محتال يحرّكه دافع الواجب:

- إلى الأفضل، بالطبع. إنّها خطّة لإنقاذ البلاد، وإيقاف انحطاطنا الاقتصاديّ، والحفاظ على ثبات الأشياء، وتحقيق الاستقرار والأمن.

- عن أيّ خطّة تتحدّث؟

- لا أستطيع إخبارك بها. فهي خطّة سرّيّة، بل وسرّية جدًّا. وأنت لا تملكين أدنى فكرة عن عدد الأشخاص الذين يودّون معرفتها. إذ لا يوجد رجل صناعيّ في البلاد لا يودّ أن يضحّي ببعض أفرانه لمجرّد الحصول على تلميح واحد من التحذير، لكنّه لن يحصل عليه! مثل هانك ريردن الذي كنت معجبة به كثيرا.

ثمّ أخذ يضحك ويتطلّع إلى المستقبل. فسألته، وقد خيّمت نبرة الخوف على صوتها لتعلمه بما بدا عليه صوت ضحكته، وقالت:

- لماذا تكره هانك ريردن؟

فالتفت إليها وأخذ يحوم حولها وبدا أنّ ملامح وجهه تفضح قلقه ورعبه وقال:

- أنا لا أكرهه! ولم أقل قطّ إنّني أكرهه. فلا تقلقي فهو أيضا سيوافق على الخطّة وكذلك سيفعل الجميع. فالخطّة أعدّت من أجل مصلحة الجميع.

لقد بدا كما لو أنّه يتوسّل إليها. فتأكّدت بذهولٍ أنّه يكذب، لكنّ توسّله كان صادقًا كما لو أنّه يرغب في طمأنة نفسه.

فأجبرت نفسها على تكلّف ابتسامة. وأجابته، وقد تساءلت في أغوار ذاتها عن

الغريزة التي أثيرت فيها في خضم تلك الفوضى المستحيلة التي جعلتها تقول ذلك كما لو أنّها كانت تؤدّي دورها في طمأنته: نعم، يا جيم، بالطبع.

فكانت النظرة التي لاحظتها بملامح وجهه تشبه الابتسامة والامتنان.

- كان يجب عليّ إخبارك عن تلك الخطّة الليلة. لقد أردتك أن تعلمي حجم القضايا الهائلة التي أتعامل معها. فأنت دائمًا تتحدّثين عن عملي، لكنّك لا تفهمينه مطلقًا، إنّه أوسع بكثير مما تتخيّلين. فهل تعتقدين أنّ تشغيل السكّك الحديديّة هي مسألة وضع المسار والمعادن المتقنة والحصول على القطارات هناك في الوقت المحدّد؟ إنّه ليس كذلك، فأيّ عامل بسيط يمكنه أن يفعل ذلك. أمّا القلب الحقيقيّ للسكك الحديديّة فهو في واشنطن. وظيفتي هي السياسة وصناعة القرارات التي تتّخذ على المستوى الوطنيّ والتأثير على كلّ شيء والسيطرة على كلّ فرد ببضع كلمات تكتب على الورق، وبتوجيهات قادرة على تغيير حياة كلّ شخص في كلّ ركن وفجّ من هذه البلاد!

ّردت وهي تتمنّى تصديق أنّه يحظى فعلا بمكانة مهمّة في عالم واشنطن الغامض: نعم، أعلم ذلك يا جيم.

قال وهو يجوب الغرفة:

-سترين ذلك. قد تعتقدين أنّهم أقوياء؛ هؤلاء العمالقة في مجال الصناعة الذين هم أذكياء جدًّا في اختراع المحرّكات والأفران. سيتمّ إيقافهم! وتجريدهم من كلّ شيء، وسوف يسقطون واحدًا تلو آخر، وسوف...

ثمّ لاحظ الطريقة التي كانت تحدّق بها فأضاف على عجلٍ: إنّ هذا الإجراء لن يخدم مصالحنا الشخصيّة بقدر ما سيخدم الصالح العامّ. وهذا هو الفرق بين عالم المال والأعمال وعالم السياسة، فنحن لا نملك غايات أنانيّة في آرائنا، ولا أيّ دوافع خاصّة، ولا نسعى وراء الربح، ولا نفني حياتنا ونحن نلهث وراء المال. نحن لسنا بحاجة إلى ذلك! لهذا السبب نتعرّض للذمّ وسوء الفهم من قبل كلّ الجشعين الذين يلهثون وراء الربح، والذين لا يستطيعون إدراك الدافع الروحيّ أو المثاليّة الأخلاقيّة أو... نحن

ليس بوسعنا إلّا أن نكون على هذا النحو!

ثمّ صاح فجأةً والتفت إليها وقال: كان علينا صياغة تلك الخطّة! بعد أن انهار كلّ شيء وتوقّف، كان لا بدّ لنا من فعل شيء مّا! وكان علينا منعها من التوقّف! فنحن لا نستطيع تحمّله!

كانت عيناه يائستَين؛ فلم تعرف ما إذا كان يتباهى أم يتوسّل المغفرة؛ ولم تعرف ما إذا كان ذلك انتصارًا أم إرهابًا. فقالت:

- جيم، هل تشعر بأنّك على ما يرام؟ لعلّك أجهدت نفسك في العمل وأنت مرهق الآن.

ردّ وقد فقد أعصابه:

-لم أشعر في حياتي بحال أفضل مثل الآن.

ثمّ استأنف مشيه وقال:

هل كنت تراهنين على أنّني أجهدت نفسي في العمل. إنّ عملي هو أكبر من أيّ وظيفة يمكنك تخيّلها. إنّه يفوق أيّ شيء يقوم به الميكانيكيّون من أمثال ريردن وأختي. وأيًا كان ما يقومون به، فإنّ بإمكاني إلغاءه. دعيهم يَبْنُوا أيّ مسار، فأنا أستطيع أن أحطّمه تمامًا كما يحطّم العمود الفقريّ لأيّ إنسان!

همست وهي ترتجف:

-أتريد تحطيم العمود الفقريّ لأيّ إنسان؟

صرخ قائلا:

-أنا لم أقل ذلك! ما خطبك؟ لم أقل ذلك!

قالت وقد صدمت من كلماتها ومن الرعب الذي كان في عينيه:

-أنا آسفة يا جيم! أنا فقط لم أستوعب ما قلت... لكنّي أعلم أنّه يجب ألّا أزعجك

بالأسئلة عندما تكون متعبًا جدًّا.

كانت تكافح بشدّة لإقناع نفسها بما تقول، ثمّ أضافت:

-ويجب ألّا أزعجك عندما تكون لديك أشياء كثيرة تشغل بالك... مثل تلك... الأشياء العظيمة... تلك الأشياء التي لا أجرؤ على التفكير فيها...

فارتخ كتفاه وشعر بالارتياح، ثمّ اقترب منها وجثا على ركبتيه ووضع يديه حولها وقال بعطف: أيّتها المجنونة الصغيرة المسكينة!

فتمسّكت به، وقد تأثّرت بكلامه وحركاته. لكنّه رفع رأسه وألقى نظرة على وجهها، وبدا لها أنّها نظرة تحمل معنى الامتنان والاحتقار في الآن ذاته. تقريبًا كما لو أنّها كانت تعرّض نفسها لنوع مجهول من العقوبات، وكانت تعفو عنه وتلعن نفسها في الوقت ذاته.

ثمّ وجدت في الأيّام الموالية أنّه من غير المجدي إخبار نفسها بأنّ تلك الأشياء كانت خارج إدراكها وفهمها، وأنّ من واجبها أن تؤمن به، وأنّ الحبّ هو الإيمان. وظلّ شكّها ينمو، فقد أخذت تشكّ في عمله غير المفهوم وعلاقته بالسكك الحديديّة. وتساءلت عن سبب استمرار تزايد شكّها في تناسب مباشر مع تحذيراتها الذاتيّة بأنّ الإيمان هو الواجب الذي تدين به له. ثمّ أدركت، بعد ليلة قضّتها بلا نوم، بأنّ جهودها لتحقيق ذلك الواجب كانت تتكوّن من الابتعاد عنه كلّما ناقش الناس وظيفته، ورفض الاطّلاع على أيّ صحيفة تأتي على ذكر شركة تاجارت العابرة للقارّات، وأوصدت أيضًا أبواب الاجتهاد، وأبقت عقلها صامتًا أمام أيّ دليل وفي مواجهة كلّ تناقض. ثمّ توقّفت وصعقت عندما فوجئت بسؤال جال بخلدها: ما هو هذا الشيء الذي يجعلها تتصرّف على هذا النحو، أهو الإيمان مقابل الحقيقة؟ وأدركت أنّ جزءًا من تحمّسها إلى الإيمان به كان مرتبطًا بخوفها من المعرفة، لأنّها شرعت في معرفة الحقيقة، بشعور صائب نقيّ وهادئ قدّم لها العون أكثر ممّا قدّمه لها جهد الاحتيال الذاتيّ المطيع.

ولم تستغرق وقتا طويلا لتتعلّم حيلَ المديرين التنفيذيّين في شركة تاجارت، عندما

طرحت عليهم بعض أسئلة عرضيّة، ولم تجد في إجاباتهم سوى عموميّات فاسدة، وسلوك مجهد عند ذكر رئيسهم في العمل، وتردّد واضح أثناء مناقشته، ولم تكن كلّ تلك التصرّفات تخبرها بشيء ملموس، ولكنّها أعطتها شعورًا يعادل معرفة الأسوإ. أمّا عمّال السكّك الحديديّة فكانوا أكثر دقّة، ولاسيّما عمّال التبديل، وحرّاس البوّابات، وباعة التذاكر الذين حظيت بفرصة محادثاتهم في محطّة تاجارت والذين كانوا لا يعرفونها. فكانت تسمع منهم ردودًا من قبيل: جيم تاجارت؟ ذلك الطفيليّ الأبله المشهور بالأنين والبكاء وإلقاء الخطابات! جيمي الرئيس؟ حسنا، سأخبرك عنه: إنّه ذلك المتشرّد الذي يسيّر قطارَ الكسب غير المشروع الرئيس؟ السيّد تاجارت؟ أنت تقصدين الآنسة تاجارت، أليس كذلك؟

وكان إيدي ويلرز هو من أخبرها بالحقيقة الكاملة. لقد علمت أنّه كان يعرف جيم منذ الطفولة، فطلبت منه أن يشاركها وجبة الغداء. وعندما قابلته على المائدة لاحظت في نظرة عينيه جدّيةً صريحةً، مثلما لاحظت تشدّده الحرفيّ في بساطة كلماته، فأسقطت كلّ محاولاتها العارضة لحثّه على الكلام، وأخبرته بكلّ ما تريد معرفته وبأنّ السبب الوجيز الذي جعلها تلتجئ إليه ليس شخصيًّا، ولا يحتوي على أيّ دعوة للمساعدة أو الشفقة، بل هو فقط من أجل معرفة الحقيقة. فأجابها بالطريقة نفسها. لقد أخبرها بالقصّة الكاملة في هدوءٍ، من دون أن ينطق بأيّ حكم أو يعبّر عن أيّ رأيٍ، ومن دون أن يؤذي مشاعرها أو يثير أيّ علامة تدلّ على القلق تجاهها، وكان يتحدّث برصانة مشرقة وقوّة رائعة لكشف الحقائق. لقد أخبرها بمَن يدير شركة تاجارت العابرة للقارّات. وسرد لها قصّة خطّ جون جالت. وظلّت تستمع إليه، وما شعرت به لم يكن صدمةً، بل أسوأ من ذلك بكثير، لأنّها لم تحسّ بأيّ صدمة، كما لو أنّها كانت تعرف ذلك دائما. شكرًا يا سيّد ويلرز كان ذلك هو كلّ ما قالته له عندما انتهى من حديثه.

ثمّ انتظرت عودة جيم إلى المنزل في ذلك المساء، أمّا الشيء الذي امتصّ كلّ ألم أو سخط فكان شعورها الخاصّ بانفصالها عنه، وكأنّ الأمر لم يعد يعنيها مطلقًا، وكما لو أنّها كانت مطالبة بفعل أيّ شيء، ولكنّ الأفعال والنتائج لم تعد تعنيها ولن تُحدِث أيّ

فارق.

وعندما رأت جيم وهو يدخل الغرفة لم يساورها الغضب تجاهه، بل أحسّت بذهول غامض، إلى درجة أنّها تساءلت من هو؟ ولماذا يجب التحدّث معه الآن؟ ثمّ أخبرته بما علمته، على مدى فترة وجيزة، بصوت متعب باهت. وبدا لها أنّه فهم ذلك من جملها الأولى القليلة، كما لو أنّه كان يتوقّع أن يحدث ذلك عاجلا أم آجلا.

- سألته: لماذا لم تخبرني بالحقيقة؟

قال وهو يصرخ: هذه، إذَن، هي فكرتك عن الامتنان والعرفان بالجميل؟ وهذا هو ما تشعرين به بعد كلّ ما فعلته من أجلك؟ لقد نبّهني الجميع إلى أنّني لن أنال سوى الفظاظة والأنانيّة عندما أنتشل قطّة الزقاق الصغيرة والرخيصة من الغرق!

فنظرت إليه كما لو أنّه كان يصدر أصواتًا غير واضحة لا علاقة لها بشيء داخل ذهنها وكرّرت: لماذا لم تخبرني بالحقيقة؟

قال: هل هذا هو كلّ الحب الذي شعرت به تجاهي أيّتها المنافقة المخادعة؟ وهل هذا هو الجزاء الذي أستحقّه مقابل إيماني بك؟

- لماذا كذبت عليّ؟ ولماذا جعلتني أفكّر فيك على ذلك النحو؟

- يجب أن تخجلي من نفسك، يجب أن تخجلي من مواجهتي أو التحدّث معي.

والتقت الأصوات المتشابكة بداخلها وتواصلت، لكنّها لم تصدّق جملة ما أحدثته تلك الأصوات فسألته بنبرة مريبة متقطّعة: أنا؟ ماذا تحاول فعله يا جيم؟

- هل فكّرتِ في مشاعري؟ هل فكّرتِ بما سيفعله ذلك بمشاعري؟ كان يجب أن تفكّري بمشاعري أوّلًا، لأنّ هذا هو أوّل التزام لأيّ زوجة وامرأة في مكانتك على وجه الخصوص، فلا يوجد شيء أقلّ وأقبح من الجحود!

وأدركت في لمح البرق الحقيقةَ غير المتوقّعة عن رجل مذنب ويعرف أنّه كذلك ويحاول التملّص عبر تحميل الضحيّة وزر ذلك. لكنّها لم تستطع تحمّل الحقيقة فشعرت

بطعنة من الرعب، وبتشنّج عقلها الرافض لرؤية من يريد تدميره، لقد كانت طعنة تشبه الارتداد السريع من حافّة الجنون. وفي الوقت الذي خفضت فيه رأسها وأغمضت عينيها، علمت أنّها شعرت بالاشمئزاز، بل بالاشمئزاز المقرف من سبب مجهول.

وعندما رفعت رأسها، بدا لها أنّها لمحته وهو يراقبها بنظرة ماكرة غير مؤكّدة، متراجعة، لرجل استوعب أنّ حيلته لم تنجح. ولكن قبل أن يتيح لها الوقت لتصدّق ذلك، أخفى وجهه مرّة أخرى خلف تعابير تشي بتأذّيه وغضبه منها.

فقالت، كما لو أنّها تعلن أفكارها تجاه كائنٍ عقلانيّ لم يكن حاضرًا، ولكنّه كان عليها أن تفترض حضوره لأنّها لم تستطع مخاطبة أيّ شخص آخر:

- في تلك الليلة... كلّ تلك العناوين الرئيسيّة في الصحف والإعلام... وكلّ تلك العظمة... لم تكن تتحدّث عنك على الإطلاق... بل تتحدّث عن داغني.

- اخرسي أيّتها العاهرة الصغيرة المتعفّنة!

فنظرت إليه بشكل فظّ، ودون ردّ فعل. وكانت تبدو كما لو أنّها لن تتأثّر بأيّ شيء، لأنّها نطقت كلماتها المميتة وأصابت بها هدفها.

فتنهّد جيم، ثمّ بكى وقال: تشيريل، أنا آسف، أنا لم أعنِ ما قلته، وأسحب كلّ كلامي فأنا لم أقصد ما قلت...

ظلّت تشيريل واقفةً، متكئةً على الحائط، مثلما كانت تقف منذ البداية.

ثمّ ارتمى جيم على حافّة الأريكة، في موقف من الاكتئاب العاجز وقال بلهجة من فقد الأملَ:

- كيف يمكنني أن أشرح لك هذا؟ فالأمر كبير ومعقّد جدًّا. فكيف لي أن أخبرك بأيّ شيء عن شركة سكّة حديد عابرة للقارّات إلّا إذا كنت تعرفين كلّ التفاصيل والتداعيات؟ وكيف لي أن أشرح لك سنوات عملي... وما الفائدة من ذلك؟ لقد كان

الجميع يسيئون فهمي دائمًا وكان يجب عليّ أن أتعوّد على ذلك الآن، وكنت أعتقد أنّك مختلفة عنهم وأنّني وجدت أخيرًا من سيفهمني.

- لماذا تزوّجتني يا جيم؟

فضحك بحزن وقال:

- هذا هو السؤال الذي ما انفكّ الجميع يطرحونه عليّ، ولم أعتقد أنّك ستطرحينه عليّ يومًا. لماذا؟ لأنّني أحبّك.

فتساءلت في أعماقها كيف بدت تلك الكلمة غريبة عليها، تلك الكلمة التي كان يُفتَرض بها أن تكون أبسط لفظة موجودة في اللغة البشريّة، تلك الكلمة المفهومة بين الجميع بوصفها رابطًا كونيًّا يجمع كلّ البشر، لكنّها لم تشِ بأيّ معنى لها. ولم تدرك المعنى الذي تحمله تلك لكلمة في ذهنها.

قال:

- لم يحبّني أحد قطُّ ولا يوجد أيّ حبّ في العالم. إنّ الناس يفتقدون إلى العاطفة. فأنا أحسّ بأشياء، لكن لا أحد يكترث لما أشعر به. كلّ ما يهتمّون به هو الجداول الزمنية والشحن والمال. وأنا لا أستطيع العيش بين هؤلاء الناس. أنا وحيد جدًّا. لطالما كنت أتوق إلى من يفهمني. وربّما أنا مجرّد إنسان مثاليّ يائس أبحث عن المستحيل ولن يفهمني أحدٌ أبدًا.

ردّت عليه قائلةً:

- جيم، إنّ كلّ ما كافحت من أجله طوال هذا الوقت كلّه هو أن أفهمك.

- كنت أعتقد أنّك تستطيعين فعل ذلك، فأنت كلّ ما أملك في هذا العالم. لكن لعلّ التفاهم أمرٌ غير قابل للتحقّق بين البشر.

- لماذا يجب أن تكون على ذلك النحو؟ ولماذا لا تخبرني بما تريده؟ ولماذا لا تساعدني على فهمك؟

قال بعدما تنهّد:

- هذا كلّ ما في الأمر. وتلك هي المشكلة. فأنت تسألين دومًا عن الأسباب التي تكمن وراء أيّ شيء. أمّا ما أتحدّث عنه فلا يمكن التعبير عنه بواسطة الكلمات ولا يمكن تسميته، بل يجب أن تشعري به، فإمّا أن تشعري به وإلّا فلا. لأنّه لا ينبع من العقل، بل من القلب. ينبغي أن تشعري بهذا الأمر دون أن تطرحي أيّ سؤال. ألا يمكنك أن تفهميني بوصفي إنسانًا لا كما لو أنّني كائن علميّ موضوع في مختبر؟ ذلك الفهم العظيم الذي يتجاوز كلماتنا الرثّة وعقولنا العاجزة ويتعالى عليها... لا، أعتقد أنّه لا يجب عليّ أن أبحث عنه، لكنّني سأسعى دائمًا إليه وآمل في الحصول عليه. أنت أملي الأخير وأنت كلّ ما أملك.

لكنّ تشيريل ظلّت متّكئة على الحائط بلا حراك. فأخذ يبكي وينوح في هدوءٍ، ثمّ قال:

- بي حاجة إليك. فأنا وحيد وأنت لست مثل الآخرين. وأنا أؤمن بك وأثق فيك. ماذا جنيت من وراء كلّ هذا المال والشهرة والعمل والكفاح؟ أنت كلّ ما أملك...

فظلّت تشيريل بلا حراك، ولم تُعِرْهُ سوى نظرةٍ موجّهة إلى أسفل صوب وجهه، فكانت بمثابة الشكل الوحيد للاعتراف بوجوده أمامها. واعتقدت أنّ كلّ الأشياء التي ذكرها عن معاناته كذبٌ. أمّا معاناته فكانت حقيقيّة؛ فهو بمثابة رجل مزّقته كآبةٌ مستمرّة لم يستطع الإفصاح عنها، ولكن لعلّها كانت تستطيع استيعابها، فهي لا تزال مدينةً له بقدر من الامتنان، هكذا قالت في نفسها كأنّها تؤدّي واجبا كمقابل للموقف الذي منحها إيّاه، ولعلّه كان كلَّ ما أمكنه تقديمه، وهي مدينة ببذل جهدٍ لفهمه.

لكنّ ما شعرت به في الأيّام التي تلت ذلك كان غريبًا. لقد شعرت كما لو أنّها أصبحت غريبة عن نفسها، غريبة لا تملك أيّ هدف. فبدلًا من التمتّع بالحبّ الذي كانت تحرّكه نار متّقدة تشبه عبادة الأبطال، تُرِكت ملتاعة بشفقة كئيبة. وبدلًا من أن تجد الناس الذين كافحت من أجل العثور عليهم، أولئك الذين حاربوا من أجل

أهدافهم ورفضوا المعاناة، فقد تُرِكَت مع رجل كانت معاناته هي مطالبته الوحيدة بالقيمة وعرضه الوحيد مقابل حياتها. لكنّ ذلك لم يعد يشكّل فارقًا لديها بعد الآن. فهي إنسانة كانت تنظر بحرص إلى كلّ منعطف وفي كلّ زاوية وُجِدت أمامها؛ أمّا الإنسانة الغريبة السلبيّة التي حلّت مكانها، فكانت تشبه كلّ الناس المفرطين في التأنّق والتزيّن من حولها، أولئك الناس الذين قالوا إنّهم كانوا كهولًا بَالِغِين لأنّهم لم يحاولوا التفكير أو الرغبة.

أمّا تلك الإنسانة الغريبة فكانت لا تزال مطاردة ومسكونة بشبح هو في حدّ ذاته نفسها، وهذا الشبح كانت تنتظره مهمّة لإنجازها. وكان عليها أن تتعلّم كيفيّة فهم الأشياء التي دمّرتها. وكان عليها أن تعرف، فعاشت بشعور الانتظار المستمرّ. وكان عليها أن تعرف أكثر، على الرغم من أنّها شعرت بأنّ الضوء الأماميّ للقطار الذي يطاردها كان يقترب أكثر فأكثر، وأنّها يمكن أن تصطدم به قريبًا.

وما انفكّت تطرح على نفسها سؤالًا ظلّ ينبض في عقلها بمثابة الدليل: ماذا تريد منّي؟ وظلّت تصيح بلا صوت في مآدب العشاء، وفي قاعات الاستقبال، وأثناء الليالي الطوال التي جافاها فيها النوم، تصيح في وجه جيم وأولئك الذين كانوا يقاسمونه السرّ مثل بالف يوبانك، والدكتور سيمون بريتشيت، فتسألهم من دون أن تظهر سؤالها للعلن: ماذا تريدون منّي؟ لكنّها علمت أنّهم لن يجيبوها. ماذا تريد منّي؟ سألت، وشعرت كما لو أنّها تركض، لكن لم تكن هناك طريق سالكة للهروب. ماذا تريد منّي؟ سألت، بالنظر إلى التعذيب الطويل الكامل الذي عاشته في زواج لم يستمرّ سوى فترة سنة واحدة.

سألته بصوت عالٍ: ماذا تريد منّي؟

ولاحظت أنّها كانت جالسة أمام الطاولة في غرفة أكلها، وهي تنظر إلى جيم، ووجهه المحموم، وبقعة الماء التي جفّت على الطاولة.

ولم تعرف كم دام الصمت الذي خيّم بينهما، لكنّها كانت مندهشةً من صوتها ومن

السؤال الذي لم تَنْوِ التفوّه به. ولم تتوقّع منه أن يفهمها، إذ يبدو أنّه لم يستطع مطلقًا فهمَ تساؤلات أبسط من ذلك بكثير، ثمّ هزت رأسها، وهي تكافح من أجل استعادة حاضرها. واندهشت لرؤيته وهو ينظر إليها بملامح من السخرية، كما لو أنّه كان يسخر من تقديرها لفهمه.

أجابها: أريد الحبّ.

فشعرت أنّها تتهاوى بيأس في وجه تلك الإجابة التي كانت بسيطة جدًّا وبلا معنى في الآن نفسه.ثمّ اتّهمها قائلًا:

أنت لا تحبّينني... فلو أنّك تحبينني حقًّا لما طرحت عليّ مثل هذا السؤال.

ردّت عليه بصوت خافت: لقد أحببتك سابقًا، لكنّك لم ترغب في حبّي. لقد أحببتك لشجاعتك وطموحك وقدرتك، لكنّ كلّ تلك الأشياء لم تكن حقيقيّة، ولم تكن تملك أيًّا منها في الواقع.

فتضخّمت شفته السفلى قليلًا في قوّة دفع خافتة وقال:

- يا لها من فكرة بالية عن الحبّ!

- جيم، ما الشيء الذي سيجعلني مغرمةً بك؟

- يا له من تصرّف رخيصٍ لصاحب متجر!

لكنّ تشيريل لم تنبس ببنت شفة؛ وظلّت تنظر، وكانت عيناها شاردتَين أمام سؤال صامت.

ردّ بنبرة تمتزج فيها السخرية بالجدّيّة:

-أن يحبّ الإنسان من أجل شيء مّا! إذَن أنت تعتقدين أنّ الحبّ مسألة رياضيّات وحسابات وتبادل ووزن وقياس مثل رطلٍ من الزبدة على منضدة البقالة؟ أنا لا أريد أن أحبّ من أجل شيءٍ. أريد أن أكون محبوبًا لذاتي وليس من لشيءٍ مّا أفعله أو أقوله

أو أفكّر فيه، أن أحبّ لذاتي، وليس لجسدي أو عقلي أو كلماتي أو أعمالي أو أفعالي.

- إذَن ... ما هي ذاتك؟

قال بعصبية:

-لو كنت تحبّينني لما طرحت عليّ مثل هذا السؤال. ينبغي ألّا تطرحي أيّ سؤال، وإنّما ينبغي عليك معرفتي والشعور بي. فلماذا تحاولين دائمًا الاستفسارعن كلّ شيءٍ؟ ولماذا يجب عليك تسمية كلّ شيء؟ ألا يمكنك الترفّع عن تلك التعريفات المادّيّة التافهة؟ إذ لا يجدر بك أبدًا دفع مقابل بشأن هذه الأمور! فقط اشعري بها؟

ردّت بصوت منخفض:

- نعم يا جيم، أنا أشعر بها لكنّني أحاول ألّا أفعل... لأنّ ما أشعر به هو الخوف.

سألها وكلّه أمل:

-هل تخافينني؟

- لا، أنا لا أخاف ما يمكن أن تفعله بي، ولكن أخاف ما أنت عليه.

فخفض جفونَه بسرعةٍ تشبه سرعةَ صفع الباب، لكنّها التقطت بريقًا من الرعب في عينَيه على نحوٍ لا يصدَّق. ثمّ صرخ في وجهها بنبرة تنمّ عن رغبته في إيذائها:

- أنت لست قادرة على الحبّ، أنت مجرّد باحثة صغيرة ورخيصة عن الذهب! نعم، أنت مجرّد باحثة عن الذهب. توجَد أشكال عديدة لذلك الأمر، فبالإضافة إلى الحبّ والطمع، يوجد ما هو أسوأ من ذلك. أنت باحثة عن ذهب الروح لأنّك لم تتزوّجي بي لمالي، بل لقدرتي أو شجاعتي أو أيّ قيمة أخرى وضعتها في حساباتك مقابلًا لحبّك.

- هل تريد ... أن يكون... الحبّ... بلا سبب؟

- إنّ الحبّ سبب خاصّ في حدّ ذاته! الحبّ فوق الأسباب والمسبّبات. الحبّ أعمى. لكنّك لست قادرة على فهمه وعيشه لأنّك تملكين روحًا خبيثة، وماكرة، تضع في

اعتباراتها كلّ الحسابات مثل نفسٍ لئيمة لصاحب متجرٍ لا يستوعب سوى التجارة والمبادلة، من دون أن يعطي أو يهب أيّ شيء أبدًا! الحبّ هديّة عظيمة مجّانيّة بلا شروطٍ تتجاوز وتسامح وتتعالى على كلّ شيء. فأين الكرم في محبّة رجل لفضائله؟ وماذا ستعطيه؟ لا شيء. لن تعطيه أكثر من العدالة الباردة، وليس أكثر ممّا يستحقّ.

وعمّت الظلمة ناظريها بسبب الشدّة الخطيرة التي لمحت بها هدفها. ثمّ قالت، في نبرة تشبه نبرة الحُكم لا السؤال:

-أنت تريد منه ألّا يكون مستحقًّا.

- أوه، أنت لا تفهمين!

- نعم، جيم، أنا لم أفهمك وهذا ما تريده، وهذا ما تريدونه جميعًا، فأنت لا تريد المال، ولا المنافع المادّيّة، ولا الأمن الاقتصاديّ، ولا أيّ شيء من الصدقات التي تطلبونها.

لقد تحدّثت على نحوٍ روتينيّ بسيط، كما لو أنّها تقرأ أفكارها لنفسها، عازمة على منح كلماتها هويّةً صلبةً، وأضافت:

- جميعكم يا دعاة الرفاه الاجتماعيّ... لا تسعون وراء المال غير المستحقّ. بل تريدون الصدقات، ولكنّها صدقات من نوع مختلف. لقد قلتَ إنّي باحثة عن ذهب الروح لأنّي أبحث عن القيمة. إذَن فأنتم يا دعاة الرفاه الاجتماعيّ... تريدون سلب الروح. لم أفكّر قطّ ولم يخبرني أحدٌ كيف يمكن التفكير في ذلك وما الذي يعنيه نهب روح غير مستحقّة. لكن هذا ما تريده: أنت تريد حبًّا غير مستحقّ وإعجابًا غير مستحقّ وعظمةً غير مستحقّة. أنت تريد أن تكون رجلًا مثل هانك ريردن من دون حاجة إلى أن تكون ما هو عليه ومن دون حاجة إلى أن تكون أيّ شيء. ومن دون... حاجة... إلى الكينونة.

- قال صارخًا: اخرسي!

ثمّ تبادلا النظر، وقد هيمن عليها الرعب، وكانا يبدوان وكأنّهما يتأرجحان على حافّة لم يستطيعا تسميتها، وكلاهما يعرفان أنّ الإقدام على خطوة أخرى سيكون قاتلًا.

سألها وكأنّها يحاول تهدئة الوضع:

-ماذا تقولين؟ أيّ نوع من المواضيع الميتافيزيقيّة تحاولين مناقشتها؟

فردّت بضجر، وطأطأت رأسها كما لو أنّها تحاول التقاط شكل مّا حاولت الإمساك به لكنّه أفلت من قبضتها مجدّدًا: لا أعلم... فذلك لا يبدو ممكنًا...

- من الأفضل ألّا تحاولي الخوض في مسائل تفوق مداركك العقليّة وإلّا...

ثمّ توقف عن الكلام، لأنّ كبير الخدم دخل جالبًا معه الوعاء المتلألئ الذي يحتوي على قطع الثلج وزجاجة الشمبانيا التي طلباها.

وظلّا صامتين، فسمحا للغرفة بأن تمتلئ بالأصوات التي أصدرها البشر قرونًا من النضال كرمز إلى تحقيق الفرحة: أصوات الانفجار التي تعقب نزع غطاء الفلّين عن زجاجة الشمبانيا، والخرير الباسم لذلك السائل الذهبيّ الشاحب هو يسكب في قدحَين تنعكس عليهما أنوارُ الشموع المتموّجةُ، وهمس فقاقيع الشراب وهي تتصاعد خلال في قدحَي الكريستال مطالبة بأن ينهض كلّ شيء في الأفق أيضًا بالانبعاث نفسه.

وظلّا صامتين حتّى ذهب كبير الخدم وبقي تاجارت ينظر إلى الفقاعات ممسكًا بجذع كأسه بين إصبعين عفويّين. ثمّ أغلق يده فجأة حول الجذع فتشنّجت قبضته بشكل غريب ورفع قدحَه، لا كما يرفع المرء كأس الشمبانيا، بل كما يرفع جزّار سكّينه. وقال: على نخب فرانسيسكو دانكونيا.

قالت تشيريل وهي تضع كأسها: لا.

- قال صارخا: اشربيه!

- لا.

ثمّ أحجما عن تبادل النظر الحظة، وتراقص الضوء مخترقًا السائل الذهبيّ، من دون أن يصل إلى وجهيهما أو عيونهما.

- صاح قائلا: أوه، فليذهب إلى الجحيم!

ثمّ نهض، ورمى كأسه على الأرض فحطّمها وخرج بسرعة من الغرفة، بينما ظلّت هي أمام الطاولة، بلا حراك فترةً طويلةً، ثمّ نهضت ببطء وضغطت على الجرس.

وسارت نحو غرفتها، بخطوات متّزنة على نحوٍ غير طبيعي، ثمّ فتحت باب خزانة، ومدّت يدها وأخرجت بدلة وزوجا من الأحذية، ثمّ خلعت جلبابها، وتحرّكت بدقّة حذرة، كما لو أنّ حياتها كانت تعتمد على عدم زعزعة أيّ شيء بداخلها. وتمسّكت بفكرة واحدة: الخروج من ذلك المنزل، فقط الخروج منه ولو فترة وجيزة، ولو ساعة واحدة فقط. وبعد ذلك، ستكون قادرة على مواجهة كلّ ما يجب مواجهته.

***

كانت الخطوط مشوّشة على الورقة أمامها، وعندما رفعت رأسها، أدركت داغني أنّ الظلام حلّ منذ فترة طويلة.

فدفعت الأوراق جانبًا، غير راغبة في تشغيل ضوء المصباح، فسمحت لنفسها بترف الكسل والظلام. لقد أحدث الظلام قطيعة بينها وبين المدينة خلف نوافذ غرفة معيشتها وكان التقويم يشير على بعد مسافة: الخامس من أغسطس.

لقد انقضى الشهر الفارط، ولم يترك شيئا سوى فراغ الوقت الميّت. قضّته في سباق جاحد بلا خطّة، تتنقّل من حالة طوارئ إلى أخرى، لتأخير انهيار شركة سكّة حديدها. كان شهرًا يشبه كومة نفايات على مدى أيّام منقطعة، قضّت كلّ يومٍ منها وهي تتجنّب كارثة اللحظة. ولم يكن الشهر الماضي حافلًا بالإنجازات، فهو لم يجلب أيّ فتح للوجود، بل كانت الإنجازات جملة من الأصفار، ولم تُحدِث أيّ شيء سوى منع مزيد من الكوارث، ولم تكن مهمّة داغني هي خدمة الحياة، بل مجرّد سباق ضدّ الموت.

مرّت داغني بأوقات واجهت فيها رؤية غير مستحبّة -رؤية الوادي- وهي تبرز أمامها، لا كمظهر مفاجئ، بل كوجود مخفيّ ثابت اختارَ فَرْضَ نفسه فجأةً على أنّه واقع ملحّ. فواجهته خلال لحظات من السكون الأعمى، في منافسة بين قرار ثابت لا يؤثّر وألم عنيد لا يقهر، ألمٍ يجب محاربته عبر الإقرار والقول: حسنًا، يجب المواجهة حتّى لو كان الأمر على هذا النحو.

وفي أحد الصباحات عندما استيقظت وقد تسلّلت أشعّة الشمس إلى وجهها، ظنّت أنّها يجب أن تنهض وتسرع في الذهاب إلى سوق هاموند للحصول على البيض الطازج لإعداد الفطور، ثمّ استعادت وعيها بالكامل أثناء رؤية الضباب الذي كان يخيّم على مدينة نيويورك خارج نافذة غرفة نومها. فشعرت بطعنة ممزّقة، مثل لمسة من الموت أو لمسة من رفض الواقع. وقالت في نفسها بحدّة: لقد كنت تعلمين كيف سيكون الأمر عندما اتّخذت قرارك. ثمّ سحبت جسدها من الفراش، مثل كتلة لا ترغب في التحرّك، وغادرت السرير لمواجهة يوم غير مرحبّ به، وهمست: حسنا، حتّى هذا اليوم سيمرّ بالوتيرة نفسها.

وكان أسوأ عذاب ينتظرها هو تلك اللحظات التي ترى فيها فجأة، أثناء سيرها في الشارع، ملامحَ خصلات شعر كستنائيّة بلون الذهب المتوهّج بين رؤوس الغرباء، فتشعر كما لو أنّ المدينة اختفت، وكأنّها لم تكن أمام أيّ شيء سوى السكون العنيف في داخلها لتؤخّر اللحظة التي ستندفع فيها نحوه وتعانقه، لكنّ اللحظة القادمة قد تتحقّق على مرأى بعض الوجوه التي لا معنى لها. وهكذا تقف غير راغبة في العيش خلال الخطوة الموالية، وغير راغبة في توليد طاقة الاستمرار في الحياة. لقد حاولت تجنّب مثل هذه اللحظات، كما حاولت منع نفسها من النظر؛ فكانت تمشي، مبقية عينيها على الأرصفة. لكنّها فشلت: لأنّ بصرها ظلّ يقفز ليرى خصلات الذهب بإرادة ذاتيّة.

كانت تبقي ستائر نوافذ مكتبها مرفوعةً، متذكّرة وعدَه، ولم تفكّر سوى في قولها لنفسها: ليتك كنت تراقبني، أينما كنت... ولم يكن في المباني القريبة أيُّ مبنى بالارتفاع

نفسه الذي يقع فيه مكتبها، لكنّها كانت تنظر إلى الأبراج البعيدة وتتساءل: من أيّ نافذة يراقبها؟ ثمّ تساءلت: ألم يخترع شيئًا يسمح له بمراقبتها من بعيد؟ وقالت في نفسها: أريد فقط أن أعرف أنّك تراني، حتّى لو أنّي لا أراك مجدّدا.

وتذكّرت ذلك، الآن، في ظلام غرفتها، فنهضت وأشعلت الضوء. ثمّ دَلَّتْ رأسها لحظةً، مبتسمة في تسلية مرحة من نفسها. وتساءلت عمّا إذا كانت نوافذها المضاءة، في الظلمة الشاسعة للمدينة، مثل شعلات الطوارئ، تستدعي مساعدته أو مثل منارة لا تزال تحمي بقيّة العالم.

ثمّ رنّ جرس الباب. وعندما فتحت، رأت خيال فتاة ذات وجه مألوف. كانت مذهولة قبل أن تدرك أنّ الزائرة هي تشيريل تاجارت، فهما لم تلتقيا منذ حفل الزفاف باستثناء التبادل الرسميّ للتحيّات في بضعة لقاءات عن طريق الصدفة بقاعات مبنى شركة تاجارت.

وكان وجه تشيريل هادئًا ويفتقر إلى الابتسامة عندما قالت: هل تسمحين لي بالتحدّث إليك يا آنسة تاجارت؟

– قالت داغني بحزمٍ: بالطبع، ادخلي.

ومن خلال الهدوء غير الطبيعيّ في أسلوب تشيريل، شعرت داغني بأنّها تعاني من حالة طارئة يائسة؛ ثمّ تأكّدت من تلك الحالة عندما نظرت إلى وجه الشابّة على ضوء غرفة المعيشة وقالت لها: اجلسي، لكنّ تشيريل ظلّت واقفة.

قالت تشيريل بصوت رصين رافقه جهدٌ منها كي لا تتسلّل أيّ عاطفة إلى صوتها: -لقد جئت إلى هنا لأقضي دَيْنًا. أريد أن أعتذر منك عن الأشياء التي قلتها في حفل زفافي. ولا يوجد سببٌ يبرّر وجوب مغفرتك لي، لكنّ من واجبي الاعتراف بأنّني أهنت كلّ شيء يستحقّ الاحترام ودافعت عن كلّ شيء يستوجب الاحتقار. وأنا أعلم أنّ الاعتراف بهذا الذنب الآن لا يعوّض ذلك، وحتّى المجيء إلى هنا مجرّدُ افتراض آخر، ولا يوجد سبب يبرّر ضرورة سماعك هذَا، لذلك لا يمكنني حتّى إلغاء الدَّيْن،

بل يمكنني فقط طلب إكراميّة، أن تسمح لي بقول الأشياء التي أريد قولَها لك.

كانت صدمة داغني العاطفيّة مثيرة للشكّ، دافئة ومؤلمة في الآن نفسه، وردّت على جدّيّة صوت تشيريل بتقديم يد العون، وهي تعلم أنّ الابتسامة في مثل هذه المواقف قد تزعج توازنَ ضيفتها غيرَ المستقرّ فقالت:

– لكنّ مجيئك يعوّض عن ذلك، وأودّ أن أسمعك.

– أعلم أنّك أنت من كان يدير شركة تاجارت العابرة للقارّات وأنت من أنشأ خطّ جون جالت، وأنّك أنت من يملك العقل والشجاعة التي أبقت كلّ شيء على قيد الحياة. وأفترض أنّك تعتقدين أنّني تزوّجت جيم من أجل ماله مثلما قد تفعل أيّ عاملة متجر، أليس كذلك؟ ولكن، كما ترين، لقد تزوّجت جيم لأنّني... ظننت أنّه هو من قام بدورك أنت واعتقدتُ أنّه هو من كان يدير شركة تاجارت العابرة للقارّات. الآن أنا أعرف أنّه..

وتردّدت قليلا، ثمّ واصلت حديثها بثبات، كما لو أنّها لا تودّ إعفاء نفسها من أيّ شيء: إنّه متسكّع شرّير، من نوع المتسوّلين الذين يريدون الحصول على أيّ شيء من دون مقابل، على الرغم من أنّني لا أستطيع فهمَ الطينة التي ينحدر منها أو سببَ تصرّفه على ذلك النحو. وعندما خاطبتك في زفافي، كنت أعتقد أنّني أدافع عن العظمة وأهاجم عدوّها... لكنّ كلامي كان في الاتّجاه المعاكس... لقد كان في غير محلّه برعب عكسيّ لا يصدّق!.. لذا أردت إخبارك بأنّني أعرف الحقيقة... لا من أجل مصلحتك، فليس لي الحقّ في افتراض أنّك ستهتمّين بهذا، ولكن... من أجل الأشياء التي أحببتها.

قالت داغني ببطء:

–بالطبع، سأغفر لك هذا.

ردّت هامسة:

– شكرًا لك.

ثمّ همّت بالذهاب. فقالت داغني: اجلسي

فهزّت تشيريل رأسها وقالت: هذا... كلّ ما في الأمر، يا آنسة تاجارت.

فابتسمت داغني لأوّل مرة في وجه زائرتها ثمّ قالت: تشيريل، اسمي داغني.

قالت تشيريل: لم أكن أعلم ما إذا كان ينبغي عليّ...

- نحن أُخْتَانِ، أليس كذلك؟

قالت وهي تبكي بشكل لا إراديّ:

-لا! ليس من خلال جيم!

- طبعًا، بل من خلال اختيارنا الخاصّ. اجلسي يا تشيريل.

فأطاعتها الفتاة، وهي تناضل من أجل ألّا تُظهِر لهفةَ قبولها، لا من أجل الحصول على السَّنَدِ، ولا من أجل إعلان انكسارها.

سألتها داغني:

- لقد مررتِ بوقتٍ عصيب، أليس كذلك؟

- نعم... لكن هذا لا يهمّ... فهذه مشكلتي... وغلطتي.

- لا أعتقد أنّها كانت غلطتك.

لكنّ تشيريل لم تجبها، بل قالت فجأةً وبيأسٍ: انظري...ما لا أريده هو الصدقة.

- لا شكّ في أنّ جيم أخبرك -وهذا أمر صحيح - بأنّني لا أهتمّ بالصدقات ولا أورّط نفسي أبدًا في الأعمال الخيريّة.

- نعم، لقد أخبرني جيم بذلك... لكنّ ما أعنيه هو..

- أنا أعرف ما تعنينه.

- لكن لا يوجد سبب يجعلك تشعرين بالقلق تجاهي... فأنا لم آتِ إلى هنا

لأشتكي... وأحمّلك عبئًا آخر على كتفيك... فمعاناتي يجب ألّا تعطيني الحقّ في مطالبتك بأيّ شيء.

- لا، أعرف أنّك لم تأتِي من أجل ذلك، لكنّك تقدّرين كلّ الأشياء التي أقدّرها.

- أتقصدين... أنّك إذا كنت تريدين التحدّث معي، فأنت لا تفعلين ذلك من باب الإحسان ولا لأنّك تشعرين بالأسف من أجلي؟

- بل أشعر بالأسف الشديد من أجلك يا تشيريل، وأودّ أن أساعدك، لا لأنّك تعانين، ولكن لأنّك لا تستحقّين المعاناة.

- أتعنين أنّك لن تكوني رحيمة تجاه ضعفي أو أنيني أو عجزي بل ستهتمّين فقط بأيّ شيء ترينه جيّدًا في ذاتي؟

- بالطبع.

لم تحرّك تشيريل رأسها، لكنّه بدا وكأنّه مرفوع، كما لو أنّ إحدى النسائم العليلة كانت تهدّئ ملامحها فحوّلتها إلى تلك النظرة النادرة التي تجمع بين الألم والكرامة.

- إنّ ما أفعله ليس من باب الصدقة والإحسان يا تشيريل، فلا تخافي من التحدّث إليّ.

- هذا غريب... أنت أوّل شخص يمكنني التحدّث إليه... ويبدو أنّ الأمر سهل جدًّا... ومع ذلك فأنا... كنت خائفة من التحدّث إليك. لقد أردت أن أطلب مغفرتك منذ وقت طويل... منذ أن عرفت الحقيقة. وذهبت إلى باب مكتبك، لكنّني توقّفت وجلست هناك في البهو ولم أملك الشجاعة لمواجهتك... لم أكن أنوي المجيء إلى هنا الليلة. لقد خرجت فقط بقصد... التفكير في شيء مّا، ثمّ فجأة، عرفتُ أنّني أردت رؤيتك، وأنّ المكان الوحيد الذي يجب أن أتوجّه إليه في هذه المدينة بأكملها هو منزلك وأنّ الشيء الوحيد الذي ما زال عليّ فعله هو زيارتك.

- أنا سعيدة لأنّك زرتني.

قالت بهدوء وتعجّب:

-أتعلمين يا آنسة تاجارت، أعتذر، أعني يا داغني، أنت لست كما توقّعت، إطلاقًا... فجيم وأصدقاؤه يقولون إنّك قاسية وباردة وخالية من أيّ عاطفة.

– لكنّ هذا الأمر حقيقيّ يا تشيريل. فأنا كذلك وفق المعنى الذي يقصدونه، فهل أخبروك فقط بالمعنى الذي يقصدونه؟

– لا. هم لم يفعلوا ذلك قطّ. إنّهم يسخرون منّي فقط عندما أسألهم عمّا يعنون بشيءٍ مّا... وبخصوص أيّ شيء، مهما يكن. فماذا كانوا يعنون بذلك عندما يتحدّثون عنك؟

– عندما يتّهم شخصٌ مّا شخصًا آخر بأنّه (عديم الشعور) فهو يعني أنّ ذلك الشخص عادلٌ. وهو يعني أنّ هذا الشخص لا يحمل أيّ مشاعر مصطنعة بلا سبب، وأنّه لن يمنحه الشعور الذي لا يستحقّه. إنّه يعني أنّ (الشعور) متناقضٌ مع العقل، وضدّ القيم الأخلاقيّة، وضدّ الواقع. إنّه يقصد... ما خطبك يا تشيريل؟

سألتها بعد أن لاحظت وجود اشتدادًا غير طبيعيّ في ملامح وجه الفتاة.

قالت تشيريل: إنّه شيء حاولت جاهدة فهمه... وقتًا طويلًا...

– حسنًا، لاحظي أنّك لن تسمعي أنّ الاتّهام سببُه الدفاع عن البراءة، فهو دائمًا دفاعٌ عن الذنب. لن تسمعي مثل هذا الأمر يصدُر عن إنسانٍ صالح بشأن أولئك الذين يفشلون في تحقيق العدالة له. لكنّك ستسمعينه دائمًا يقال من شخص متعفّنٍ بشأن أولئك الذين يعاملونه على أنّه متعفّنٌ، أولئك الذين لا يشعرون بأيّ تعاطف مع ما يرتكبه من شرّ أو تجاه ما يعانيه من ألمٍ نتيجةَ ذلك الشرّ. حسنًا، هذا أمر صحيحٌ. وهذا ما لا أشعر به. لكنّ أولئك الذين يشعرون به لا يشعرون بأيّ نوع من العظمة البشريّة، وبأيّ شخص أو فعلٍ يستحقّ الإعجاب والقبول والتقدير. هذه هي الأشياء التي أشعر بها وستجدين أنّك أمام هذا أو ذاك من طينة أولئك الذين يتعاطفون مع الذنب لا مع البراءة. اسألي نفسك من أيّ النوعين هم الأشخاص غير المؤثّرين؟ وبعد ذلك سترين ما هو الدافع المناقض للصدقة.

همست تشيريل: ماذا؟

- أعني العدالة يا تشيريل.

فارتجفت تشيريل فجأة وخفضت رأسها، وقالت بتذمّر:

- يا إلهي! لو عرفت الجحيمَ الذي عيّشني فيه جيم لأنّني اعتقدت تمامًا في مثل ما قلته!

ثمّ رفعت رأسها وقد انتابتها رعشة أخرى، كما لو أنّ الأشياء التي حاولت السيطرة عليها قد انفلتت منها؛ وكانت نظرة عينيها توحي بالرعب. ثمّ همست وقالت:

- داغني، أنا خائفة منهم... أنا مرعوبة من جيم ومن الآخرين... لست خائفة من شيء سيفعلونه... فلو أنّ الأمر كذلك لهربتُ... لكنّني خائفة... وكأنّه لا وجود لمخرج من هذا المأزق... خائفة ممّا هم عليه... ومن وجودهم على الأرض.

ثمّ تقدّمت داغني بسرعة للجلوس على ذراع كرسيّها وأمسكت كتف تشيريل بقبضة ثابتة وقالت:

- اهدئي أيّتها الفتاة، فأنت مخطئة ويجب ألّا تشعري بالخوف من الناس بهذه الطريقة. ويجب ألّا تعتقدي أبدًا أنّ وجودهم يهدّدك. هذا هو كلّ ما كنتِ تفكّرين فيه.

- نعم ... نعم، أشعر بأن لا فرصةَ لي في الوجود، إذا فعلوا ذلك... لا فرصة، أو فضاء، أو عالمًا يمكنني التعامل معه... أنا لا أريد أن أشعر بذلك، وسأظلّ أدفعه إلى الخلف، لكنّه يقترب وأنا أعلم أنّه ليس لي مكانٌ ألجأ إليه... لا أستطيع أن أشرح لك طبيعة هذا الشعور، فأنا عاجزة عن الإمساك به. وهذا جزءٌ من الرعب، فأنت ستشعرين كما لو أنّك لا تستطيعين الإمساك بأيّ شيء، كما لو أنّ العالم كلّه قد دمّر فجأةً، ولكنّه دُمّرَ لا بسبب انفجار، بل سيُدمَّر... بنوع فظيع من النعومة... وكأنّ كلّ الأشياء لم تكن صلبة، ولا هي احتوت على أيّ حجم أو شكل على الإطلاق، ويمكن لإصبعك حينها أن يعبر الجدران الحجريّة لأنّ الحجارة ستتحوّل إلى هلام، وستخرّ

الجبال وتتغيّر أشكال المباني لتصبح مثل الغيوم... وهكذا ستكون نهاية العالم، بلا نارٍ أوكبريت، بل سيتحوّل إلى مادّة لزجة.

- تشيريل ... تشيريل، يا فتاتي المسكينة، لقد مضت قرون خطّط فيها الفلاسفة لتحويل العالم إلى ذلك الشكل، خطّطوا فيها لتدمير عقول الناس بجعلهم يؤمنون بكلّ شيء يرونه. لكن ليس عليك أن تقبلي بذلك، إذ يجب ألّا نرى من خلال عيون الآخرين، بل تمسّكي بما ترين وتشبّثي بأحكامك، فأنت تعرفين ما يجب عليك قوله، صرّحي به عاليًا مثل أقدس الصلوات، ولا تسمحي لأحدٍ بأن يقول لك خلاف ذلك.

- لكن... لا شيء سيكون كما هو باستثناء جيم وأصحابه. فأنا لا أعرف ما أبحث عنه، عندما أكون بينهم، ولا أعرف ما كنت أستمع إليه عندما يتكلّمون... فكلامهم لم يكن حقيقيًا، إنّه نوع من التصرّف المروّع الذي يمرّون به جميعًا... وأنا لا أعرف ما يسعون إليه... داغني، لطالما قيل إنّ الإنسان يمتلك قوّة المعرفة العظيمة التي تجعله أعظمَ بكثير من الحيوانات، لكنّني أشعر الآن بأنّني عمياء أكثر من أيّ حيوان، وأكثر عجزًا من جلّ الحيوانات. فالحيوان على الأقلّ يعرف أصدقاءه وأعداءه، ومتى يدافع عن نفسه ولا يتوقّع من صديقٍ أن يهجم عليه أو يقطع رقبته ولا يتوقّع أن يقال له إنّ الحبّ أعمى، وإنّ النهب إنجاز، وإنّ العصابات رجالُ دولةٍ وإنّه من الرائع كسر العمود الفقريّ لهانك ريردن!.. يا إلهي، ماذا قلت؟

- أنا أدرك ما أنت بصدد قوله.

- أعني، كيف سأتعامل مع الناس؟ أعني، إذا كان لا يوجد أيّ شيء يَثْبُت مدّةَ ساعة واحدة، فهل بوسعنا الاستمرار في الحياة؟ حسنا، أنا أعلم أنّ الأمور صلبة، ولكن ماذا عن الناس؟ داغني هم لا شيء، هم ليسوا كائنات، هم فقط مفاتيح تبديل، فقط مفاتيح ثابتة من دون أيّ شكل. ولكن يجب أن أعيش بينهم، فكيف لي أن أفعل ذلك؟

- تشيريل، إنّ ما أنت بصدد مكافحته لَهُوَ أعظم مشكلة في التاريخ البشريّ، بل هي مشكلة تسبّبت في كلّ المعاناة الإنسانيّة. لقد تحمّلتِ أكثر بكثيرٍ من معظم الناس،

أولئك الذين يعانون ويموتون من دون معرفة السبب الذي قَتَلَهُم. سأساعدك في الفهم، إنّه موضوع كبير ومعركة صعبة لكن أوّلًا وقبل كل شيء يجب عليك ألّا تخافي.

كانت النظرة التي بدت على وجه تشيريل غريبة ممتزجة بشوق حزين، كما لو أنّها ترى داغني من مسافة كبيرة، فتحاول جاهدة أن تقترب منها، لكنّها تفشل في ذلك. ثمّ قالت بهدوء:

- أتمنّى لو أنّني أقدر على المواجهة، لكنّي لم أعد قادرة على ذلك، ولم أعد أريد الفوز بعد الآن. يوجد تغيير واحد يبدو أنّني لا أمتلك القوّة لإنجازه. كما ترين، فأنا لم أتوقّع حدوث شيء مثل زواجي بجيم. ثمّ عندما حدث ذلك، اعتقدت أنّ الحياة ستكون أكثر روعة ممّا توقّعتُ. والآن تعوّدت على فكرة أنّ الحياة والناس هم أكثر فظاعة بكثير من أيّ شيء تخيّلته وأنّ زواجي لم يكن بتلك المعجزة العظيمة ولكنّه بات نوعًا من أنواع الشرور التي لا توصف ومازلت أخشى استيعابه بالكامل. وهذا ما لا أستطيع أن أجبر نفسي على تحمّله ولا يمكنني تجاوزه.. داغني، كيف نجحتِ في فعل هذا؟ وكيف تمكّنتِ من البقاء بلا ارتباط؟

- عن طريق التمسّك بقاعدة واحدة فقط.

- ما هي؟

- ألّا أخضع أيّ شيء لرأيي الشخصيّ.

- لقد كابدتِ متاعبَ جمّة... وربّما أسوأ ممّا كابدتُه أنا... وأسوأ من ممّا كابده أيّ واحد منّا.. فما الذي جعلك تتحمّلين ذلك؟

- معرفة أنّ حياتي هي أعلى القيم، فهي عالية جدًّا إلى درجة أنّها تجعلني لا أستسلم من دون قتال.

ثمّ لاحظتْ على وجه تشيريل نظرةً من الدهشة، ومن الاعتراف المشكّك، كما لو أنّ الشابّة كانت تكافح لاستعادة أحد الأحاسيس المفقودة على مدى سنوات. وكان

صوتها يشبه الهمس عندما قالت:

- داغني... هذا ما شعرت به عندما كنت طفلة... وهذا أكثر شيء أتذكّره عن نفسي... هذا النوع من الشعور... ولم أفقده قطّ، بل ظلّ موجودًا دائمًا هنا، ولكنّني عندما كبرت، ظننت أنّه شيء يجب أن أخفيه... لم أكن أعرف له اسمًا، لكن الآن، عندما أفصحت عنه، شدّ انتباهي... داغني، هل هذا الشعور الذي تعيشين به حياتك أمر جيّد؟

- انصتي إليّ جيّدًا يا تشيريل، إنّ هذا الشعور-بكلّ ما يتطلّبه وينطوي عليه- هو أعلى وأنبل من أيّ شيء، وهو كلّ الخير الموجود على الأرض.

- إنّ السبب الذي جرّني إلى طرح سؤالي هذا يتمثّل في أنّني... لم أكن لأجرأ على التفكير في ذلك. فبطريقة مّا، جعلني الناس دائما أشعر كما لو أنّهم يحسبونه خطيئة... وكما لو أنّهم مستاؤون من ذلك الأمر الذي كان بداخلي... ويريدون تدميره.

- هذا صحيح، فبعض الناس يريدون تدميره وعندما تتعلّمين فهمَ دافعهم ستدركين الشرّ الأكثر بشاعة في العالم، لكنّك ستكونين في أمان وبعيدةً عن متناول أيديهم.

فبدت على محيّا تشيريل ابتسامةٌ مثلَ بصيص من الوميض يكافح للحفاظ على سيطرته على بضع قطرات من الوقود، حتّى يمسكها، ويضرم النار. ثمّ همست:

- منذ شهور، هذه هي المرّة الأولى التي شعرت فيها كما لو أنّه ... لا تزال هناك فرصة.

ثمّ نظرت إلى عينَي داغني، وظلّت تراقبها بقلق شديد وقالت:

- سأكون بخير... دعيني أعتاد على ذلك.. لأجلك ولأجل كلّ الأشياء التي قلتها. أعتقد أنّني سأؤمن بذلك... وسأؤمن بأنّه حقيقيّ... وأنّ أمر جيم لا يهمّني.

ثمّ نهضت مثبّتة قدميها، كما لو أنّها تحاول المحافظة على لحظة الأمان تلك. فقالت

داغني بحدّة: تشيريل، لا أريدك أن تذهبي إلى البيت الليلة.

- أوه لا! أنا على ما يرام. لست خائفة إلى ذلك الحدّ. ولا أخشى العودة إلى البيت.

- ألم يحدث شيء هناك الليلة؟

- لا... ليس تمامًا... لا شيء أسوأ من المعتاد. فما حدث فقط هو أنّني بدأت أرى الأشياء بشكل أكثر وضوحًا، هذا كلّ ما في الأمر... أنا على ما يرام. يجب أن أفكّر، وأفكّر أكثر من أيّ وقت مضى... وبعدها سأقرّر ما يجب عليّ فعله. هل لي أن..

- نعم ماذا تريدين؟

- هل لي أن أعود إلى الحديث معك مرّة أخرى؟

- بكلّ سرور.

- شكرًا، أنا... ممتنّة جدًّا لك.

- هل تعديني بأنّك ستعودين؟

- أعدك.

ثمّ رأت داغني تشيريل وهي تمشي في البهو متّجهةً صوب المصعد، ولاحظت ارتخاء كتفيها، ثمّ لاحظت المجهود الذي بذلته لرفعهما، وراقبت جسدها النحيف الذي بدا وكأنّه يتأرجح ثمّ يحشد كلّ قوّته ليظلّ منتصبًا. كانت تبدو مثل نبتة ذات جذع مكسور لا يزال يمسكها ليفٌ واحد وهي تكافح من أجل شفاء تلك الثغرة التي ستنهيها عاصفة رياح أخرى.

***

رأى جيمس تاجارت، من خلال الباب المفتوح من مكتبه، تشيريل وهي تعبر غرفة الانتظار وتخرج من الشقّة. فأغلق بابه وتمدّد على الأريكة، وبقع الشمبانيا المسكوبة على سرواله بعد أن كسر كأسه ما تزال موجودة، كما لو أنّ عدم ارتياحه الخاصّ كان

انتقاما من زوجته وانتقامًا من الكون الذي لم يوفّر له ما أراد من احتفال.

ثمّ نهض بعد فترة، ونزع معطفَه وألقى به في الغرفة. ومدّ يدَه لأخذ سيجارة، لكنّه قسم السيجارة إلى نصفَين ورماها على لوحة زيتيّة كانت مثبّتة فوق الموقد.

ثمّ لاحظ وجود مزهريّة زجاجيّة من الطراز الفينيسي، كانت تشبه قطعة أثريّة نادرة تعود إلى قرون من الزمن وقد حُفِظت بمتحفٍ، بنظام ألوان معقّد يحتوي على خطوط مثل الشرايين الزرقاء والذهبيّة الملتوية على كيانها الشفّاف. فأمسك بها ورماها على الحائط؛ فتهشّمت ونثرت مطرًا من الزجاج الرقيق مثل مصباح كهربائيّ محطّم.

وكان جيم قد اشترى تلك المزهريّة لإرضاء رغبة جميع الخبراء الذين لم يكن بوسعهم اقتناؤها. والآن شعر بالرضا إثر الانتقام من القرون التي زادت من قيمتها المادّيّة والرضا عن التفكير في وجود الملايين من العائلات اليائسة التي كان يمكن لأيّ واحدة منها العيش والاسترزاق مدّة عام من ثمن تلك المزهريّة.

رمى حذاءه، ثم تمدّد على الأريكة، وترك رجليه تتدلّيان في الهواء.

لكنّ صوت جرس الباب أفزعه؛ وبدا مطابقًا لمزاجه. كان يشبه ذلك النوع من الأصوات الفظّة الملحّة وغير الصبورة التي كان هو أيضًا سيصدرها لو أنّه ضغط بأصبعه على جرس أحد أبواب أيّ واحد من أصدقائه.

ثمّ استمع لخطوات رئيس الخدم، فمنّى نفسه بالسرور لرفض قبول أيّ شخص يبحث عنه. وفي لحظة، سمع الطرق على بابه فدخل كبير الخدم ليعلن: السيّدة ريردن تودّ رؤيتك يا سيّدي.

- ماذا؟.. أوه ... حسنا! دعها تدخل!

ثمّ أرجح قدمَيه إلى الأرض، لكنّه لم يقدّم أيّ تنازل آخر، وانتظر بنصف ابتسامة من الفضول الحذر، واختار عدم النهوض حتّى بعد دخول ليليان الغرفة.

كانت ترتدي فستانًا بلون نبيذ العشاء، في تقليدٍ لفساتين السفر الإمبراطوريّة، بسترة

صدريّة مضاعفة ومصغّرة غطّت تقاسيم خصرها العالي فوق اكتساح تنّورة وقبّعة صغيرة مثبّتة بأذن واحدة، بها ريشة ممتدّة إلى أسفل تبلغ حدود تحت ذقنها. لقد دخلت بحركة فظّة، غير متناسقة، وأذيال ثوبها وريشة قبّعتها الدوّارة ترفرف قبالة ساقَيْها وحنجرتها، مثل أعلام في إشارة إلى عصبيّتها وغضبها.

- ليليان عزيزتي، هل ما أشعر به هوالسرور أم الذهول؟

- أوه، لا تثر كلّ هذه الضجّة حول مجيئي! كان لا بدّ أن أراك، وكان لا بدّ أن يكون لقاؤنا فوريًا، هذا كلّ ما في الأمر.

وكان نفاد صبرها ولهجتها العاجلة وحركة جلوسها الدكتاتوريّة اعترافًا بضعفها: فمن بين القواعد غير المكتوبة والمتعارف عليها فيما بينهم، ألّا يجرؤ أيّ منهم على تقديم مطالب ملحّة إلّا إذا كان يسعي وراء معروفٍ لا قيمة له، ولا تشكّل مقايضته أيّ خطر.

- سألته بابتسامتها العاديّة التي فشلت في إخفاء نبرة غضبها: لماذا لم تمكث في حفل استقبال غونزاليس؟ لقد مررت عليهم بعد العشاء، فقط لأقابلك، لكنّهم قالوا إنّك لم تكن على ما يرام، فقرّرت العودة إلى المنزل.

فقام جيم وجاب الغرفة، ثمّ أجابها: لقد شعرت حينها بالملل.

ردّت وهي ترتجف قليلا:

-لا أستطيع تحمُّلهم.

فنظر إليها بدهشة، إذ بدت كلماتها صادقة. ثمّ أضافت: لا أطيق السيّد غونزاليس وتلك العاهرة التي اتّخذها زوجة. إنّه لمن المقرف أنّهما أصبحا عصريّين جدًّا، هما وحفلاتهما. لم أعد أشعر بالرغبة في الذهاب إلى أيّ مكان بعد الآن. فالأسلوب لم يعد هو نفسه، ولا الروح كذلك. فأنا لم أقابل بالف يوبانك أو الدكتور بريتشيت أو أيّ واحد من الأولاد منذ أشهر. وما كلّ تلك الوجوه الجديدة التي تبدو مثل مساعدي

أحد الجزّارين! ففي نهاية المطاف مجموعتنا كانت تنتمي إلى طبقة السادة.

ردّ عليها:

-نعم، يوجد فارق مضحك تمامًا كما هي الحال في مجال السكك الحديديّة، إذ يمكنني أن أتوافق مع كليم ويذربي، لأنّه إنسان متحضّر، لكنّ التعامل مع كوفي ميغز يعتبر أمرًا آخر، إنّه...

ثمّ توقّف عن الكلام فجأةً.

ردّت بنبرة تحدٍّ:

-هذا مناف للعقل تمامًا... لا يمكنهم أن يفلتوا بفعلتهم تلك.

غير أنّها لم تحدّد الجهة التي تقصدها أو الفعل الذي صدر منها، أمّا جيم فكان يعرف ما تعنيه. ومرّت لحظة صمت، كانا فيها متشبّثين أحدهما بالآخر من أجل الإحساس بالطمأنينة.

وفي اللحظة الموالية، تبادر إلى ذهن جيم، بتسلية ممتعة، أنّ ليليان كانت تحاول إظهار كبر سنّها. كان فستانها ذو اللون العنّابيّ الغامق غير مناسب، فبدا كما لو أنّه يزيد من المسحة الأرجوانيّة على لون بشرتها، مسحة تجمّعت مثل الشفق في التجاعيد الصغيرة من تقاسيم وجهها الذي لانت عضلاته في نسيج من التراخي المتعب، ممّا غيّر مظهر سخريتها المشرقة بمظهر الخبث الذي لا معنى له.

ثمّ لاحظ أنّها كانت تتطلّع إليه، وتبتسم، ثمّ قالت: أنت مريض يا جيم، أليس كذلك؟ تبدو مثل صبيّ إسطبل غير منظّم.

فضحك وقال: أستطيع تحمّل ذلك.

- أعرف ذلك يا عزيزي. فأنت من بين أقوى الرجال في مدينة نيويورك... ستكون نكتة جيّدة في هذه المدينة.

- وهو كذلك.

- أعترف بأنّك في وضع يسمح لك بفعل أيّ شيء. لهذا السبب كان عليّ رؤيتك.

ردّ بصوت مريح:

- جيّد.

- كان عليّ أن آتي إلى هنا، لأنّني اعتقدت أنّ من الأفضل، في هذه المسألة بالذات، ألّا يرونا معًا في العلن.

- هذا تصرّف حكيم دائمًا.

- أتذكر أنّني كنت مفيدة لك في الماضي.

- في الماضي، طبعًا.

- أنا متأكّدة من إمكان اعتمادي عليك.

- بالطبع، لكن، أليست تلك ملاحظة غير فلسفيّة ومن الطراز القديم؟ فكيف لنا أن نتأكّد من أيّ شيء؟

ردّت بغضب على نحو مفاجئ:

-جيم، يجب أن تساعدني!

- عزيزتي، أنا رهن إشارتك، ومستعدّ لفعل أيّ شيء قد يساعدك.

ردّ عليها وهو يدرك أنّ قواعد لغتهم تشترط أن يبتدئ أيّ بيان مفتوح بينهما بكذبة صارخة. واعتقد جيم أنّ ليليان كانت تنزلق في مأزق خطير، فشعر بالسرور والمتعة بسبب التعامل مع خصم غير كفء.

لاحظ أيضًا أنّ ليليان كانت تهمل زينتها وتبرّجها الذي كان علامتها التجاريّة المميّزة. إذ كان هناك عدد قليل من الجدائل الهاربة من خصلات شعرها المتموّجة، أمّا أظافرها، التي كانت متطابقة مع ثوبها، فبدت شبيهة بالظل القاتم لدم متخثّر، الأمر

الذي سهّل ملاحظة طلاء أطرافها المشقّق...

قالت ليليان، بنبرة نداء حرب:

- عليك أن تمنعه! ويجب أن توقفه!

- حقّا؟ أن أمنع ماذا؟

- طلاقي.

- أوه..!

- أنت تعلم أنّه سيطلقني، أليس كذلك؟

- لقد سمعت ببعض الشائعات عن ذلك.

- لقد حدّد الشهر القادم لإتمام ذلك. وعندما أقول حدّد فهذا بالضبط ما أعنيه. طبعًا سيكلّفه هذا الأمر مالًا كثيرًا، لكنّه اشترى القاضي، وبقيّة الموظّفين، ومؤيّديهم، ومؤيّدي مؤيّديهم، وبعض النوّاب، ونصف دزينة من المديرين. لقد اشترى العمليّة القانونيّة برمّتها، كما اشترى أيّ سبيل خاصّ، ولم يتبقّ لي من سبيل للضغط عليه من أجل إيقافه!

- فهمت.

- أنت تعرف، بطبيعة الحال، السببَ الذي جعله يبدأ في إجراءات الطلاق، أليس كذلك؟

- أستطيع تخمين الأمر.

- لقد فعلت ذلك لأنّني كنت أسدّد معروفا لك.

ثمّ ازدادت نبرة صوتها حدّة وقوّة:

- لقد أخبرتك بموضوع تورّط أختك مع زوجي من أجل السماح لك بالحصول على شهادة الهديّة لأصدقائك...

فصاح بسرعة وقال: أقسم أنّي لا أعرف من أذاع ذلك الخبر! قلّة قليلة ممّن في السلطة تعرف أنّك مخبرنا، وأنا متأكّد من أنّه لا أحد يجرؤ على ذكر ذلك...

- أوه، أنا متأكّدة من أنّه لا أحد أفشى هذا السرّ. لكن هانك ذكيّ ويستطيع أن يصل إلى هذا الاستنتاج.

- نعم، أفترض ذلك. حسنا، إذَن أنت تعلمين أنّك سمحتِ له بالوصول إلى هذا الاستنتاج.

لم أتصوّر أنّه سيذهب إلى هذا الحدّ. ولم أعتقد أظنّ قطّ أنّه سيطلّقني. لم أكن...

وفجأة، ضحك بشدّة، وبلمحة من الإدراك المدهش وقال: أنت لم تعتقدي أنّ ذلك الذنب حبل متنكّر على شكل خيط رقيق، أليس كذلك يا ليليان؟

فنظرت إليه بدهشة، ثمّ أجابت بشكل متحجّر: لم أحسبه كذلك.

- إنّه كذلك يا عزيزتي بالنسبة إلى رجل مثل زوجك.

صرخت على نحو مفاجئ:

-لا أريد منه أن يطلّقني! لا أريد أن أطلق سراحه! لن أسمح بذلك! ولن أدع حياتي كلّها تنتهي بفشل ذريع.

ثمّ توقّفت فجأة عن الكلام، كما لو أنّها اعترفت لجيم بأشياء أكثر من اللّازم.

فضحك جيم بهدوء، ثمّ هزّ رأسه بحركة بطيئة توحي بأنه فهم المسألة على نحوٍ جيّد.

ردّت وهي تدافع على وجهة نظرها:

-أعني ... أنّه في نهاية المطاف يبقى زوجي.

- نعم يا ليليان، نعم أعرف ذلك.

- هل تعلم ما يخطّط له؟ هو سيحصل على المرسوم ويقاطعني من دون أن أحصل

على أيّ فلس أو تسوية أو نفقة أو أيّ شيء! فهو الذي سيحظى بالكلمة الأخيرة. ألا ترى؟ إذا أفلت بفعلته هذه... فإنّ شهادة الهديّة لن تعود انتصارًا لي على الإطلاق.

- نعم، يا عزيزتي، فهمتك.

- وإلى جانب ذلك... من المستحيل أن أفكّر في أمر حياتي بعده، فكيف سأعيش؟ والأموال القليلة التي أملكها لا تساوي شيئًا هذه الأيّام. إنّها بالأساس أسهم في مصانع قديمة تعود إلى عصر والدي وقد أغلقت منذ زمن بعيدٍ. فماذا سأفعل؟

ردّ بهدوء:

- لكن يا ليليان، كنت أعتقد أنّك لا تولين أيّ أهمّيّة لعدم حصولك على المال أو المكافآت المادّيّة.

- أنت لا تفهم! أنا لا أتحدّث عن المال، بل أتحدّث عن الفقر، ذلك الفقر الحقيقيّ النتن الذي يتجاوز غرف النوم... يجب أن أقلق بشأن الطعام والإيجار؟

كان يراقبها بابتسامة خافتة؛ ولأوّل مرّة بدا وجهه الناعم الهرم مشدودًا بنظرة من الحكمة؛ فكان يكتشف متعة الإدراك الكامل، في واقع يمكن أن يسمح لنفسه بإدراكه.

- جيم، يجب عليك أن تساعدني! فالمحامي الذي عيّنته عاجز. لقد صرفت القليل من المال الذي أملكه عليه وعلى محقّقيه وأصدقائه ومعاونيه، لكن كلّ ما استطاعوا أن يقدّموه لي هو أنّهم لا يستطيعون فعل أيّ شيء. لقد أعطاني المحامي تقريره النهائيّ بعد ظهر اليوم. وأخبرني بصراحة أنّني لا أحظى بأيّ فرصة لإفشال هذا الطلاق. ولا يبدو أنّني أعرف أيّ شخص يستطيع أن يمدّ لي يد المساعدة في هذا الموضوع. لقد اعتمدت على بيرترام سكودر، ولكن... حسنا، أنت تعلم ما حدث لبيرترام. وذلك أيضًا لأنّني حاولت مساعدتك. لقد أخرجتَ نفسك من ذلك المأزق. جيم، أنت الشخص الوحيد الذي يمكنه إخراجي الآن من هذه الورطة. فأنت تملك شبكة علاقات تمكّنك من الوصول إلى أعلى هرم السلطة في البلاد. قل كلمة لأصدقائك ليلقوا كلمة لأصدقائهم ويحسموا هذا الأمر. فكلمة واحدة من ويسلي ستفي

بالغرض. اجعلهم يأمرون برفض أمرِ الطلاق. فقط اجعلهم يرفضونه.

فهزّ جيم رأسه ببطء في ما يشبه التعاطف، مثلما يفعل ممثّل محترف متعب تجاه ممثّل هاوٍ متحمّس أكثر من اللّازم، وقال بحزم:

- لا يمكنني فعل ذلك يا ليليان. فأنا أودّ أن أفعل ذلك للأسباب ذاتها التي تملكينها، وأعتقد أنّك تعرفين هذا. لكن مهما تكن القوّة التي أملكها فهي لا تكفي في مثل هذه الحال.

كانت ليليان تنظر إليه، وعيناها داكنتان بثبات غريب يفتقر إلى الحياة؛ وعندما تكلّمت، كانت حركة شفتيها ملتوية باحتقار شرّير شديد حتّى إنّه لم يجرؤ على فهمه من دون أن يعرف أنّه كان شعورًا اشتركا فيه معًا؛ وقالت:

- أعلم أنّك تودّ فعل ذلك.

ولم يشعر بأيّ رغبة في التظاهر؛ ومن الغريب أن تبدو الحقيقة، ولأوّل مرّة، أكثر القيم ممتعةً. فهذه هي هذه المناسبة الوحيدة التي خدمت فيها الحقيقة نوعَه الخاصّ من المتعة، فقال:

- أظنّك تعلمين أنّي لا أستطيع فعل ذلك. فلا أحد في الوقت الحاضر يسدي معروفًا لإنسان آخر، إذا لم يكن هناك مقابل مغرٍ. وتعلمين أنّ المخاطر في اطّراد كبير، وأنّ شبكة العلاقات -التي تحدّثت عنها- معقّدة جدًّا، وملتوية، ومتداخلة إلى حتّى إنّ كلّ فرد يملك سجلًا أسود على فرد آخر ولا أحد يجرؤ على التحرّك لأنّه لا يمكن معرفة مَن سيحطّم أيّ طريق أو متى. لذلك لا أحد يتحرّك إلّا حين يجب عليه فعل ذلك، وعندما تكون المخاطر مسألة حياة أو موت. وهذا عمليّا هو النوع الوحيد من الرهانات التي صرنا نلعبها الآن. حسنًا، ماذا تمثّل حياتك الخاصّة لأيّ واحد من هؤلاء الأولاد؟ إنّك تريدين التمسّك بزوجك، فما الفائدة التي سيجنونها من وراء ذلك؟ وكلّ الأسهم الشخصيّة التي استثمرها في التجارة لا تستطيع فعل أيّ شيء... حسنًا، لا يوجد ما يمكن أن أقدّمه لهم في هذه اللحظة مقابلَ محاولة تفجير زمرة مَن

هم في المحكمة مقابل صفقة مربحة جدًّ. وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ الأولاد الكبار في هذا الوقت بالذات لن يحقّقوا ذلك مقابل أيّ ثمن. يجب عليهم أن يكونوا حذرين جدًّا من زوجك. إنّه الرجل الذي أمن شرّهم الآن منذ خطاب أختي في الإذاعة.

- لقد طلبتَ منّي إجبارها على الكلام في ذلك البثّ!

- أعلم ذلك يا ليليان. كِلانا خسرنا في تلك المناسبة وها نحن الاثنين بصدد الخسارة معًا الآن.

ردّت بالاحتقار المظلم ذاته الذي بدا في عينيها: - نعم، كلانا خسرنا هذه المرّة.

لقد أسعده ذلك الاحتقار؛ وكانت متعته غريبة، متهوّرة، غير مألوفة لمعرفة أنّ هذه المرأة رأته كما كان، ومع ذلك ظلّ محتجزا بحضوره، وبقيت هي على كرسيّها وانحنت إليه، كما لو أنّها تعلن عبوديّتها. وقالت:

- أنت شخص رائع يا جيم.

كان في صوتها نوع من الإدانة. ومع ذلك بدا كلامها تكريما له، وقد قصدت به ذلك وعلى ذلك النحو. وقد أتت تلك المتعة من معرفة أنّهما كانا يعيشان في عالم تبدو الإدانة فيه ذات قيمة. فردّ فجأة:

- أنت مخطئة بشأن مساعدي جزّارٍ من قبيل غونزاليس، فهم يملكون وظائفهم الخاصّة. هل سبق أن أحببتِ فرانسيسكو دانكونيا من قبل؟

- أنا لا أستطيع تحمّل ذلك الشخص.

- حسنًا، وهل تعرفين الغرض الحقيقيّ من مناسبة حفل الاستقبال التي نظّمها السيّد غونزاليس الليلة؟ كانت تلك المناسبة احتفالًا بالاتّفاق على تأميم شركة دانكونيا للنحاس خلال شهر.

فنظرت ليليان إليه لحظة وكانت زوايتا شفتيها تتحرّكان ببطء لترسما ابتسامة، ثمّ قالت: لقد كان صديقك، أليس كذلك؟

وكانت في صوتها نبرة لم يحظَ بها جيم من قبل، نبرة من المشاعر التي كان يلتقطها من الناس فقط عن طريق الاحتيال، ولكنّها مُنحت له الآن، وللمرّة الأولى. كانت نبرةَ إعجاب.

ثمّ أدرك فجأةً أنّ ذلك كان هدف ساعاته المضطربة، والمتعة التي يئس من إيجادها، وأنّه كان الاحتفال الذي أراده. فقال: دعينا نشرب يا ليليان.

وهو يسكب الخمر، نظر إليها، بينما كانت ممدّدة على كرسيّها وقال: دعيه يحصل على طلاقه، فهو لن يكون صاحب الكلمة الأخيرة، بل ستكون لمساعدي الجزّار: غونزاليس وميغز.

لكنّ ليليان لم تجبه، بل أخذت الكأس منه عندما اقترب منها، ومدّت يدها على نحو غير مبالٍ. وأفرغت كأس نبيذها تمامًا مثلما يفعل سكّير وحيد في حانة... من أجل الأثر الجسديّ الذي تحدثه الخمور.

ثمّ جلس جيم على ذراع الأريكة، بالقرب منها على نحو غير لائق، واحتسى شرابه، وظلّ يراقب وجهها. ثمّ سألها بعد فترة: ما رأي هانك فيّ؟

ولم يدهش السؤال ليليان فأجابت: يعتقد أنّك أحمق. ويعتقد أنّ الحياة أقصر من أن ينتبه فيها إلى وجودك.

- سيلاحظ ذلك لو...

ثمّ توقّف عن الكلام.

- لو ضربته على رأسه بهراوة؟ لست متأكّدة ممّا سيحدث معه حينها. ربّما سيلوم نفسه لعدم تجنّبه ضربةَ الهراوة، وتلك ستكون فرصتك الوحيدة.

ثمّ تحرّكت بجسدها، وتمدّدت على الكرسيّ، فبرزت معدتها إلى الأمام، وكأنّها كانت تمنحه نوعًا من أنواع العلاقة الحميمة التي لا تتطلّب اتّزانًا ولا احترامًا. وقالت:

- هذا كان أوّل شيء لاحظته فيه عندما قابلته أوّل مرّة: فهو لم يكن خائفًا. وبدا كما

لو أنّه متأكّد من عدم وجود شيء يمكن لأيّ منّا أن يفعله له، كان متأكّدًا جدًّا إلى درجة أنّه لم يكن يعلم حتّى طبيعة المسألة أو طبيعة ما يشعر به.

- ومتى رأيته آخر مرّة؟

- منذ ثلاثة أشهر، ولم أرَه منذ ذلك الحين... منذ توقيعه على شهادة الهديّة...

- لقد رأيته في اجتماع صناعيّ حدث قبل أسبوعين. وهو ما زال يبدو على تلك الحال وربّما أكثر الآن، إنّه يبدو كما لو أنّه يعرف هذا الأمر... لقد فشلتِ يا ليليان.

غير أنّ ليليان لم تُجِبْه. لقد خلعت قبّعتها بمؤخّرة يدها، فتدحرجت على السجادة، والتفّت ريشتها مثل علامة استفهام. ثمّ قالت:

- أذكر المرّة الأولى التي رأيت فيها طواحينه! لا يمكنك تخيّل شعوره تجاهها. أنت لا تعرف نوع الغطرسة الفكريّة التي تجعله يشعر كما لو أنّ أيّ شيءٍ يتعلّق به، وأيّ شيء يلمسه، يمكن أن يجعله مقدّسًا من خلال اللمس فقط. طواحينه، ومعدنه، وماله، وسريره، وزوجته!

ثمّ نظرت إليه، فاخترق بصيصٌ من النور فراغَ عينيها الخاملَ، وأضافت:

- هو لم يتنبّه قطّ إلى وجودك ولم يهتمّ بوجودي مطلقًا. ومع ذلك مازلت السيّدة ريردن شهرًا آخر، على الأقلّ.

ردّ وهو ينظر إليها باهتمام مفاجئ: نعم...

قالت وهي تقهقه:

-السيّدة ريردن! أنت لا تعرف ما الذي يعنيه ذلك له. لا يوجد سيّد إقطاعيّ شعر بمثل هذا الوقار أو طالب به من أجل لقب زوجته أو اعتبره رمزًا للشرف، مشتقًّا من شرفه الثابت المصون الذي لا يمسّ وغير القابل للصدإ!

ثمّ لوّحت بيدها في حركة مبهمة، ممّا يشير إلى طول جسدها الممشوق الممتدّ،

وقهقهت ثانية وهي تضيف: زوجة قيصر! هل تتذكّر ما كان يفترض بها أن تكون؟ لا، طبعًا أنت نسيت. لقد كان من المفترض بها أن تكون فوق أيّ لوم وفوق كلّ الشبهات.

كان جيم يحدّق فيها بنظرة شديدة، ثمّ استرسلت في الكلام: لم يعجبه الأمر عندما ألقى معدنه لفائدة استعمال عامّ شائع، لصالح أيّ متطفّل يريد اقتناص فرصة للعبور... فهل أعجبه ذلك؟

- لا، لم يعجبه هذا الفعل.

وكانت كلماته مشوّشة قليلًا وضبابيّة، كما لو أنّها مثقلةٌ بقطرات من الخمور التي احتساها وقال:

- لا تقولي لي إنّك ساعدتِنا في الحصول على شهادة الهديّة دون أن تكسبي –في مقابل ذلك– أيّ شيء... فأنا أعرف السبب الذي جعلك تفعلين ذلك.

- كنت أعرف السبب في ذلك الوقت.

- بالتأكيد. لهذا أحبّك يا ليليان.

وظلّت عيناهُ تعاودان النظر إلى الجزء السفليّ من فستانها. ولم تكن البشرة الناعمة هي التي جذبت بصره، ولا نهداها المكشوفان، بل احتيال دبّوس أمان التنّورة الذي كان يلمع وراء الحافّة. وقال:

- آه، كم أودّ أن أراه معذّبًا. وكم أودّ أن أسمعه وهو يصرخ، ولو مرّة واحدة فقط، من الألم.

- لن تحظى بذلك يا جيمي.

- لماذا يعتقدان، هو وشقيقتي، أنّهما أفضل من الجميع؟

ضحكت ليليان ملء شدقيها. فنهض جيم كما لو أنّها صفعته. ثمّ ذهب إلى الحانة

وسكب لنفسه كأس شراب أخرى، لكنّه لم يعرض إعادة ملء كأسها. أمّا هي فكانت تتحدّث في الفضاء ونظراتها تمرّ به، ثمّ قالت:

- هو لم ينتبه إلى وجودي بالرغم من أنّني لا أستطيع وضعَ مسارات السكك الحديديّة وإقامة جسور لمجد معدنه. فأنا لا أستطيع بناء طواحينه، لكن يمكنني تدميرها. ولا أستطيع إنتاج معدنه، لكن يمكنني أخذه منه. ولا أستطيع أن أُركِّع الرجال ليعبّروا عن إعجابهم، لكن يمكنني أن أجعلهم يركعون ليعبّروا عن خضوعهم.

- اخرسي!

صرخ في رعب، كما لو أنّها كانت تقترب جدًّا من ذلك المنعطف الضبابيّ الذي كان لا بدّ له أن يبقيه غير مرئيّ. فألقت نظرة على ملامح وجهه وقالت:

- يا لك من جبان يا جيم.

ردّ، وقد جنّ جنونه:

-لماذا لا تشربين حدّ الثمالة؟

ثمّ وضع كأسه الممتلئة في فمها، كأنّما أراد أن يهاجمها. فأحاطت أصابعها بالكأس وعبّت منها، غير أنّ الخمر انسكب أسفل ذقنها وصدرها وفستانها. فقال:

- أوه.. يا ليليان لقد تسبّبت في الفوضى!

ومن دون أن يزعج نفسه بمدّ يده إلى منديله، مدّ يده لمسح المشروب الكحوليّ بكفّه. فانزلقت أصابعه تحت رقبتها، واقترب من نهديها، فالتقط أنفاسه عبر أخذ جرعة هواء مفاجئة. فأغلق جفونه، لكنّه لمح وجهها وهو يميل إلى الخلف بلا مقاومة، وانتفخ فمها بنفور واشمئزاز. وعندما وصل إلى فمها، احتضنته بيديها وتجاوبَ معه فمُها، لكنّ الردّ كان مجرّد ضغطة، ولم يكن قبلةً.

ثمّ رفع رأسه ليلقي نظرة على وجهها. فكانت أسنانها مكشوفة على شكل ابتسامة،

لكنّها كانت تحدّق بجانبه، وكأنّها تسخر من حضور كيان خفيّ، أمّا ابتسامتها فبدتْ بلا حياة، على الرغم من أنّها كانت صاخبة ومليئة بالخبث، مثل ابتسامة جمجمة بلا لحم.

فسحبها ليقرّبها منه أكثر حتّى يكبح جماح بصره وارتجافه. كانت يداه تمرّان بحركات حميمة تلقائيّة، وامتثلت له، لكن بطريقة جعلته يشعر كما لو أنّ نبضات شرايينها تحت وقع لمسته كانت بمثابة قهقهة ضاحكة. كان كلاهما يؤدّيان روتينًا متوقّعًا، روتينًا اخترعه شخص مّا وفرضه عليهما، يؤدّيانه في سخرية، وكراهية، وتدنيس لمحاكاة مخترعه على نحوٍ ساخر.

ثمّ شعر بغضب أعمى لا يطاق، اختلط بالرعب في جزء منه وبالمتعة في جزئه الآخر، وكان رعبه متأتّيًا من ارتكابه فعلًا لن يجرؤ أبدًا على الاعتراف به لأحدٍ، أمّا المتعة فكانت متأتّية من ارتكابه تحدّيًا كافرًا بأولئك الذين لن يجرؤ على الاعتراف أمامهم بما فعل. كان على طبيعته! أمّا الجزء الواعي الوحيد من غضبه فيبدو أنّه كان يصرخ ويعلن له: أنّه، أخيرًا، كان على طبيعته!

ولم يتحدّثا، بل ظلّا صامتين لأنّهما كانا يعرفان دافع كلّ منهما. فقط كلمتان أعلنتا بينهما حين قال: السيّدة ريردن.

ولم ينظر أحدهما إلى الآخر عندما دفعها إلى غرفة نومه وألقى بها على سريره، ثمّ سقط على جسدها، كما لو أنّه سقط على جسم ناعم مفعم. أمّا وجهاهما فقد كان بهما ملامح من السرّيّة، ملاح شريكين وقعا في الذنب والخطيئة، وملمح قذر خفيّ لأطفال يدنّسون سورًا نظيفًا لشخص مّا بخربشات تخدش الحياء.

وبعد ذلك، لم يخيّب ظنّه أنّ ما كان يملكه هو جسد جامد بلا مقاومة أو استجابة. لم تكن المرأة التي أراد أن يمتلكها، ولم يكن الفعل الذي يرغب في إتيانه عملًا احتفاليّا بالحياة، بل عملًا احتفاليًّا بانتصار العجز الجنسيّ.

***

فتحت تشيريل البابَ وتسلّلت إلى المنزل خلسةً وبهدوءٍ كما لو أنّها تأمل في ألّا يراها أحدٌ أو ترى المكانَ الذي يمثّل منزلَها. لقد دعمها الإحساس بوجود داغني، وساعدها عالم داغني في طريق عودتها، لكن عندما دخلت شقّتها الخاصّة، بدا الأمر لها كما لو أنّ الجدران ستبتلعها مجدّدًا وترمي بها في فخٍّ خانقٍ.

كانت الشقّة صامتةً، وكانت هناك حزمة ضوءٍ تقطع غرفة الاستقبال وقد تسلّلت من الباب الذي بقي نصف مفتوحٍ. فجرّت تشيريل نفسَها آليًّا باتّجاه غرفتها، ثمّ توقّفت.

وكانت حزمة الضوء تنبعث من باب مكتب جيم، وعلى الشريط المضيء من سجّاده رأت قبعةَ امرأةٍ بريشةٍ يحرّكها الهواء بشكلٍ خافتٍ.

ثمّ تقدّمت خطوةً إلى الأمام، فلاحظت أنّ الغرفة فارغة، ورأت كأسين، واحدةً على الطاولة، والأخرى على الأرض، وحقيبةَ امرأةٍ وُضِعَتْ على ذراع المقعد. وقفت، في غيبوبتها، حتّى سمعت صدًى مكتومًا لصوتين وراء باب غرفة نوم جيم؛ لكنّها لم تستطع تبيّن الكلمات، بل أدركت فقط نوع الأصوات: صوت جيم الذي يضجّ غضبًا، وصوت امرأةٍ يضجّ ازدراءً.

ثمّ وجدت نفسها في غرفتها الخاصّة، تتخبّط بشكلٍ محمومٍ لتغلق بابها. لقد ألقى بها الذعر الأعمى في براثن الهروب إلى هناك، كما لو أنّها كانت هي مَن يجب عليه أن يختبئ، وهي التي كانت تهرب من القبح مخافة أن يراها الناس، ذلك الذعر الناتج عن الاشمئزاز والشفقة والإحراج، وعن عقليّة العفّة التي ترتدّ أمام مواجهة الرجل مع الدليل القاطع على شرّه.

ثمّ وقفت في منتصف غرفتها، غير قادرةٍ على فهم أيّ فعلٍ يمكنها الإقدام عليه الآن. وخارت قواها، فركبتاها ما عادتا تقدران على حملها وانثنتا بلطفٍ. ثمّ وجدت نفسها جالسةً على الأرض وبقيت هناك، تحدّق في السجّادة التي كانت تهتزّ.

وما حيّرها لم يكن غضبًا أو غيرةً أو سخطًا، بل رعبًا فارغًا من التعامل مع أمرٍ فظيعٍ

بلا معنًى. وما زاد من خوفها كان معرفةَ أنّه لا زواجها ولا حُبّه لها ولا إصراره على التمسّك بها ولا حبّه لامرأة أخرى ولا خيانته الزوجيّة غير المبرّرة، تحمل أيّ معنى، وأنّه لا وجود لذرّة شعور بأيّ شيء من ذلك، وأنّه لا توجد ضرورة لالتماس الأعذار. كانت دائمًا تعتبر أنّ الشرّ أمرٌ هادفٌ، وأنّه وسيلة لتحقيق غاية مّا، وما كانت تشاهده الآن هو الشرّ من أجل الشرّ.

ولم تعلم كم من الوقت لبثت جالسةً هناك، عندما سمعت خطوات كلّ منهما وأصواتهما، ثمّ صوت الباب الأماميّ وهو يغلق. فنهضت، بلا هدف، وقد دفعتها غريزة قديمة، كما لو أنّها كانت تتصرّف في فضاء فارغٍ لم يعد فيه الشرف مهمًّا بعد الآن، من دون أن تعرف أيّ طريقة أخرى للتعامل مع الأمر.

ثمّ قابلت جيم في غرفة الانتظار. ونظر أحدهما إلى الآخر لحظةً كما لو أنّ كلًّا منهما لم يعد يثق في الواقع الذي سيسرده الآخر.

قال وقد استشاط غضبًا: متى عدتِ؟ منذ متى وأنت في المنزل؟

- لا أعلم...

وأخذ ينظر إلى وجهها وقال: ما خطبك؟

فقاومت نفسها قليلًا، ثمّ استسلمت ولوّحت بيدها نحو غرفة نومه وقالت: جيم، أنا أعلم.

- ماذا تعلمين؟

- لقد كنتَ هناك... مع امرأة.

فكان أوّل فعلٍ أقدَم عليه هو دفعها إلى مكتبه وإغلاق الباب، كما لو أنّه يريد إخفاء كليهما، ولم يتجرّأ أن يقول لها ممّن كانا يختبآن. وكان الغضب غير المبرّر يغلي في عقله، ويكافح بين الهروب والانفجار. ثمّ انفجر إلى إحساس بأنّ تلك الزوجة الصغيرة التافهة كانت تسلب منه انتصاره، وأنّه يجب ألّا يسلّم لها متعته الجديدة.

- قال وهو يصرخ: بالتأكيد! وماذا في ذلك؟ وماذا ستفعلين حياله؟

فحدّقت فيه بشكل باهت. فأضاف: بالتأكيد! كنت هناك مع امرأة! هذا ما فعلته، لأنّ هذا ما أردت فعله! هل تعتقدين أنّك ستخيفينني بصياحك وشهيقك ونظراتك، وفضيلتك المتفجّعة؟

ثمّ سرّح أصابعه وقال: لقد فعلت هذا كردّ على رأيك! فأنا لا أعير رأيك أيّ اهتمامٍ! وعليك أن تتقبّلي هذا الأمر!

كان وجه تشيريل الشاحب الأعزل هو الذي قاده إلى حالة من المتعة، متعة الشعور بأنّ كلماته كانت كما لو أنّها ضربات تشوّه أحد الوجوه البشريّة. واستمرّ في كلامه:

- هل تعتقدين أنّك ستجعلينني أختبئ؟ لقد أصبت بالمرض بسبب الاضطرار إلى أن تبدو لك أفعالي مرضيّةً! من أنت أيّتها النكرة الرخيصة؟ سأفعل ما يحلو لي، وسوف تُبقِين فمَك مغلقًا وتذهبين لتنفيذ حيلك الصائبة في العلن، مثل أيّ شخص آخر، وتتوقّفي عن المطالبة بألّا أتصرّف في بيتي الخاصّ كما يحلو لي! فلا أحد يعتبر فاضلًا في بيته، وهذا الأمر مجرّد مسرحيّة تعرض للأصحاب! لكن إذا كنت تتوقّعين منّي أن أعني ذلك، فأنا أعني ذلك حقًّا أيّتها الحمقاء الصغيرة اللعينة، ومن الأفضل لك أن تنضجي بسرعة!

ولم يكن جيم ينظر إلى وجهها، بل كان يرى وجه الرجل الذي أراد أن يوجّه إليه كلّ أفعاله في تلك الليلة، لكنّ تشيريل كانت تقف دائما في موقف المصلّي، والمدافع، ووكيل الرجل الذي كان يتحدّاه في عينيه. لقد تزوّجها لذلك السبب، وحتّى تخدم هدفه الآن. فصرخ مجدّدًا وقال:

- هل تعرفين اسم المرأة التي كنت أضاجعها؟ إنّها...

ردّت في عجلة من أمرها:

-لا! يا جيم! ليس عليّ معرفتها!

- إنّها السيّدة ريردن... زوجة هانك ريردن!

فتراجعت تشيريل إلى الخلف وشعرت بالرعب، لأنّها كانت تنظر إليه كما لو أنّها ترى ما يجب أن يظلّ مكتومًا عنده وغير معترف به. ثمّ سألته بصوت منخفض: أفترض أنّك ترغب الآن في طلاقنا، أليس كذلك؟

فانفجر ضحكًا وقال: أيّتها الحمقاء اللعينة! مازلت تريدين الفضائح العلنيّة! وتريدينها ضخمة وكبيرة! أنا لا أفكّر في الطلاق، ولا تتخيّلي أنّني سوف أتيح لك طلب الطلاق منّي! هل تعتقدين أنّ الأمر بهذه السهولة؟ اسمعي، أيّتها الحمقاء، لا يوجد زوج لا ينام مع نساء أخريات ولا توجد زوجة لا تعرف ذلك، لكنّهنّ لا يتحدّثن عن هذا الأمر! سوف أضاجع أيّ امرأة تروق لي، وأنت ستذهبين وتفعلين الشيء نفسه، مثل كلّ أولئك العاهرات، فقط أبقي فمَك مغلقًا!

ثمّ لاحظ في عينيها نظرة مفاجئة مذهلة وقاسية، تفتقر إلى أيّ إحساس، وتنمّ عن ذكاء خارق لاإنسانيّ. وقالت له:

- جيم، لو كنتُ من النوع الذي يفعل ذلك أو يقدر عليه، لما كنتَ تزوّجتني.

- لا. لم أكن لأفعل ذلك.

- لماذا تزوّجتني إذَن؟

فشعر جيم كما لو أنّه دوّامةً تسحبه، تحمل في جزء منها ارتياحًا لأنّه تجاوز لحظة الخطر وفي جزئها الآخر تحدّيًا لا يقاوم الخطر نفسه، وقال:

- لأنّك كنت قنّاصة رجال رخيصة وعاجزة وحمقاء، ولا فرصة أمامك لتكوني على قدم المساواة معي! لأنّني اعتقدت أنّك ستحبّينني وستعلمين أنّ عليك أن تحبّيني.

- أن أحبّك كما أنت؟

- من دون أن تتجاسري على سؤالي عن هويّتي... ومن دون أسباب...

- وهل أحببتني... لأنّني كنت بلا قيمة؟

- حسنا، وماذا كنت تعتقدين؟

- وهل أحببتني لأنّني فاسدة؟

- وماذا كان لديك أيضًا لتقدّميه لي؟ ولكن لم تكوني متواضعة لتقدّري ذلك. لقد أردت أن أكون كريما معك، وأردت أن أمنحك الأمان. أيّ أمان في أن يكون المرء محبوبًا لفضائله؟ فالمنافسة مفتوحة على مصراعيها، مثل سوق في غابة، يفوز فيها الشخص الأفضل الذي سوف يأتي دائما قبلك ليضربك! ولكنّني كنت على استعداد لأحبّك بغضّ النظر عن عيوبك وأخطائك ونقاط ضعفك وجهلك وفظاظتك وابتذالك. وأنت آمنة الآن وليس هناك ما يمكن أن تخافي منه أو تخفيه. ويمكنك أن تكشفي عن حقيقتك وتظهري ذاتك النتنة والشريرة والقبيحة، فذات كلّ واحد منّا مثل قنوات المجاري والبالوعات، لكن هل يمكنك التمسّك بحبّي من دون أن أطالبك بأيّ شيء آخر!

- لقد أردت منّي أن... أقبل بحبّك... كما يقبل المرء صدقةً.

- هل كنت تعتقدين أنّك تستحقّينه؟ هل تعتقدين أنّك تستحقّين الزواج بي أيّتها المتشرّدة الفقيرة؟ لقد كنت متعوّدًا على شراء أمثالك بسعر وجبة! وأردتك أن تعلمي، مع كلّ خطوة قمت بها، ومع كلّ قطعة من الكافيار ابتلعتها، أنّك مدينة لي بكلّ شيء، وأنّك لا تملكين أيّ شيء، وأنّك لا شيء، وأنّك لن تستطيعي أبدًا أن تأملي في أن تكوني على قدم المساواة معي، أو تكوني بالقيمة نفسها والجدارة نفسها، ولن تستطيعي سدادَ ذلك الدَّيْن!

- لقد... حاولت... أن أكون جديرة بذلك.

- وما الفائدة التي سأجنيها لو فعلتِ ذلك؟

- هل كنتَ لا تريد منّي أن أصل إلى مستواك؟

- آوه، أنت حمقاء ملعونة!

- ألم تكن تريد منّي أن أتطوّر وأن أنهض؟ هل كنت تراني فاسدة، ولذلك ينبغي أن أظلّ فاسدة؟

- ما الفائدة التي سأجنيها، إذا كسبتِ كلّ تلك الفضائل، فكلّ ما عليّ فعله هو التمسّك بك، وكلّ ما يمكنك فعله هو أن تتاجري بنفسك في مكان آخر إذا فضّلت فعل ذلك؟

- وهل أردت الأمر أن يكون بمثابة الصدقة... لكلينا ومن كلينا؟ وأردت منّا أن نكون مثل شحّاذَين مقيّدين أحدنا بالآخر؟

- نعم، أيّتها الداعية الإنجيليّة اللعينة! أجل، أيّتها البطلة اللعينة! نعم!

- وهل اخترتني لأنّني كنت بلا قيمة؟

- نعم!

- أنت تكذب يا جيم.

فكان جوابه مجرّد لمحة مفاجئة من الذهول.

- أولئك الفتيات اللائي كنت تشتريهنّ مقابل وجبة، كنّ سيسعدن بترك أنفسهنّ الحقيقيّة تصبح مثل البالوعات، وكنّ سيأخذن صدقاتك ولن يحاولن النهوض، ولكنّك لم تكن لتتزوّج أيّ واحدة منهنّ. لقد تزّوجتني، لأنّك أدركت أنّي لن أقبل بأن أكون مثل البالوعة، لأنّني كنت أكافح من أجل النهوض.

قال وهو يصيح: نعم!

ثمّ لاحظت أنّ الضوء الأماميّ الذي كانت تشعر به وهو يسرع نحوها قد أصاب هدفه، فصرخت على شكل انفجار ساطع يشبه الاصطدام، وصرخت أمام الرعب البدنيّ الذي ارتدّ منه.

فصاح وارتجف من دون أن يجرؤ على النظر في عينيها ليلاحظ ما رأته وقال: ما خطبك؟

فحرّكت تشيريل يدَيها في إيماءات متردّدة، نصفها تلّوح بعيدًا ونصفها الآخر في محاولة للفهم؛ وعندما أجابت لم تستطع كلماتها التعبير عمّا أرادت قوله، لكنّها كانت الكلمات الوحيدة التي يمكنها أن تجدها: أنت... قاتل... وتقتل من أجل القتل...

كانت لا تكاد تقدر على تسمية ذلك المجهول غير المسمّى؛ وكانت ترتجف من الرعب وتتأرجح بشكل أعمى عندما صفعها على وجهها. فسقطت على حافّة الكرسيّ ذي الذراعَين، فارتطم رأسها بالأرض، لكنّها رفعته بسرعة ونظرت إليه بصراحة، ومن دون دهشة، كما لو أنّ الواقع المادّيّ أخذ ببساطةٍ الشكلَ الذي توقّعته. وبدت قطرة واحدة من الدم على شكل كمّثرى انحرفت ببطء من زاوية فمها.

أمّا هو فوقف بلا حراك، ونظر أحدهما إلى الآخر وهلةً، كما لو أنّ أيّ واحد منهما لم يجرؤ على التحرّك.

وكانت هي مَن تحرّك أوّلًا فنهضت، وأطلقت ساقيها للريح وغادرت الغرفة، ثمّ غادرت الشقّة. سمعها وهي تركض في البهو، ثمّ فتحت بابَ سلّم الطوارئ الحديديّ، من دون أن تضغط على زرّ المصعد وتنتظره.

ثمّ ركضت عبر الدرج، وفتحت بطريقة عشوائيّة أبواب ذات مخارج مختلفة، وعبرت ممرّات المبنى الملتوية ، ثمّ أسفل الدرج مرّةً أخرى، حتّى وجدت نفسها في الردهة، ثمّ ركضت إلى الشارع.

بعد فترة، لاحظت أنّها كانت تمشي على رصيف تملؤه الأوساخ في حيٍّ مجاور مظلم، بمصباح كهربائيّ مضيء في كهف مدخل مترو الأنفاق ولوحة إعلانيّة مضاءة تعلن عن بسكويت الصودا على السطح الأسود من محلٍّ لغسل الملابس. لم تتذكّر تشيريل كيف وصلت إلى هناك. إذ يبدو أنّ ذهنها كان مشوشًا ويعمل وفق نبضات مكسّرة وصور متقطّعة، وبلا روابط. لقد علمت فقط أنّ عليها أن تهرب وأنّ ذلك الهروب

مستحيلٌ.

واعتقدت أنّ عليها الهروب من جيم. وسألت نفسها: لكن أن تهرب إلى أين؟ ثمّ نظرت من حولها بلمحة تشبه صرخة داعٍ أثناء الصلاة. ربّما كانت ستحظى بوظيفة في أشهر المغازات، أو في ذلك محلّ غسيل الملابس ذاك، أو في أيّ واحدٍ من المحلّات الكئيبة التي مرّت بها. وقالت في نفسها إنّها كانت ستعمل هناك، وكلّما عملت بجدّ، لن تلاحظ إلّا مزيدا من الحقد والمكر من حولها، ولن تعلم متى سيطلبون منها قول الحقيقة ومتى سيطلبون منها قول الكذب، ولكن كلّما ازدادت صرامة صراحتها، ازداد قدر الزيف الذي ستعاني منه بسببهم. لقد رأت ذلك من قبل وتحمّلته في بيت أسرتها، وفي محلّات الأحياء الفقيرة، لكنّها اعتقدت أنّ تلك كانت استثناءات رديئة ومصادفات شرّيرة لا تستحقّ سوى الهروب والنسيان. غير أنّها علمت الآن أنّ أولئك الناس لم يكونوا استثناء، بل هم مدوّنة أخلاقيّة يقبلها العالم كلّه، فكانت مدوّنتهم بمثابة عقيدة حياتيّة يعرفها الجميع، لكنّها أُبقِيت من دون أن يكشف عن اسمها، ويُنظَر إليها شزرًا وباحتقارٍ في عيون الناس على شكل تلك النظرة الخبيثة المذنبة التي لم تكن قادرة على فهمها. وفي جذور تلك العقيدة، المخفيّة بين ثنايا الصمت، والتي بقيت تنتظرها في أقبية المدينة وفي أقبية النفوس، كان هناك شيء واحد لا يمكن للمرء أن يعيشه.

لماذا تفعل هذا بي؟ صرخت بلا صوت في وجه الظلام من حولها. ألأنّكِ كنت جيّدة. فردّ عليها ضحك هائل من قمم الأسقف والبالوعات. لم أعد أريد أن أكون جيّدة بعد الآن، لكنّكِ ستكونين كذلك... لا ليس عليّ أن أكون كذلك.. بل ستكونين كذلك.. لا أستطيع تحمّل ذلك.. بل ستتحمّلين.

فارتجفت، ثمّ مشت بنسق أسرع، لكنّ ما اعترضها، عبر مسافة من الضباب، كان التقويمَ الذي رأته فوق أسطح المدينة. كان يشير إلى ما بعد منتصف الليل ويعلن عن: اليوم السادس من أغسطس. ولكنّه بدا لها فجأةً وكأنّها رأت "الثاني من سبتمبر" مكتوبةً في سماء المدينة بحروف مزاجيّة، وقالت في نفسها: لو أنّها عملت، وكافحت،

ونهضت، لتعرّضت لضربات أقوى في كلّ خطوة من صعودها، وحتّى إن وصلت في النهاية، ومهما تكن الدرجة التي ستصل إليها، سواء أكانت شركة للنحاس أم كوخًا غير مرهون، فإنّها ستشاهد جيم وهو يستولي عليه بتاريخ الثاني من سبتمبر وسترى إنجازاتها تختفي لدفع ثمن الحفلات التي نظّمها جيم كي يعقد صفقاته مع أصدقائه.

إذَن لن أكون ما أريد! صرخت وظلّت تدور وتركض مجدّدًا على طول الشارع، لكن بدا لها في السماء المظلمة خيالٌ يبتسم لها من خلال بخار محلّ غسيل الملابس، ثمّ تشكّل الخيال في جسمٍ هائل لم يكن له شكل، لكنّ ابتسامته ظلّت كما هي على وجوهه المتغيّرة، فجمع بين وجه جيم ووجه الدعاة الدينيّين أثناء طفولتها والمرأة التي كانت أخصّائيّة اجتماعيّة من قسم شؤون الموظّفين بالمتجر المشهور الذي ودّت أن تعمل فيه، ويبدو أنّ الابتسامة كانت تقول: سيظلّ أمثالك من الأشخاص صادقين دائمًا، وسيكافحون دائمًا من أجل النهوض، وسيعمل الأشخاص من أمثالك دائمًا، لذلك نحن آمنون وليس لديك أيّ خيار.

ثمّ هربت مجدّدًا. وعندما نظرت من حولها مرّة أخرى اكتشفت أنّها كانت تسير في شارع هادئ، وتمرّ أمام الأبواب الزجاجيّة حيث الأنوار تضيء مداخل المباني الفاخرة التي كانت أرضيّاتها مفروشة بالزرابي الباهظة الثمن. ثمّ لاحظت أنّها كانت تعرج، ورأت كعبَ حذائها مفكّكًا، لعلّها كسرته في مكان مّا طيلة فترة ركضها العقيمة.

وخلال فضاء مفاجئ في تقاطع عريض، نظرت إلى ناطحات السحاب العظيمة التي بدت على بعد مسافة. لقد اختفت تلك الناطحات بهدوءٍ في ستار من الضباب، صاحبتْه نسماتٌ خافتة لوهج كان يحوم وراء المباني، وصاحبته أيضًا بعض الأضواء مثل ابتسامة وداع. كانت تلك المباني ذات مرّة بمثابة الوعد. وفي خضمّ الوسط المتكاسل الراكد من حولها، كانت تنظر إليها لإثبات وجود نوع آخر من البشر. لقد علمت الآن أنّ تلك المباني كانت شواهد لقبور، ومجرّدَ أبراج نحيلة تحلّق في ذاكرة الناس الذين وقع تدميرهم لأنّهم شيّدوها، كانوا الشكل المتجمّد من صراخ صامت يعلن أنّ جائزة الإنجاز هي الاستشهاد.

واعتقدت أنّ داغني هناك في مكان مّا بأحد تلك الأبراج التي كانت تتوارى، لكنّ داغني كانت ضحيّة وحيدة، تخوض معركة خاسرة، لتهلك وتغرق في الضباب مثل الآخرين.

وقالت في نفسها: لا يوجد مكان أستطيع الذهاب إليه. ثمّ تعثّرت.. أنا لا أستطيع أن أقف ساكنة وليس بوسعي التحرّك مدّة أطول... وليس بوسعي لا العمل ولا الراحة... ولا الاستسلام ولا القتال، ولكن... هذا ما يريدونه منّي، هذا هو المكان الذي يريدونني فيه، لا حيّة ولا ميّتة، لا عاقلة ولا مجنونة، بل مجرّد لبّ يصرخ من الخوف يشكّلونه كما يحلو لهم، هم الذين ليس لديهم شكلٌ خاصّ بهم.

ثمّ غرقت في الظلام الدامس خلف الزاوية، منكمشةً على ذاتها خوفًا من ظهور أيّ كائن بشريّ. وقالت في نفسها إنّه يوجد قلائل من الناس ليسوا أشرارًا... .ن هم فقط الضحايا الأوائل لأنفسهم، لكنّهم جميعًا يؤمنون بعقيدة جيم، وأنا لا أستطيع التعامل معهم بمجرّد معرفتي بتلك العقيدة... وإذا تكلّمت معهم، فهم سيحاولون إبداء نواياهم الحسنة، لكنّني أعلم ما يحملونه من فضائل حسنة كما يمكنني رؤية الموت عندما أحدّق في عيونهم.

ثمّ تقلّص رصيف المشاة إلى شريط مكسور، وتناثرت بُقَعُ القمامة فوق العلب عند منصّات المنازل المتداعية. وخلف لافتة مضيئة ومتربة لإحدى الحانات، رأت إشارة مضيئة فوق باب مغلق مكتوب عليها: نادي استراحة الشابّات.

كانت تعلم طبيعة هذا النوع من المؤسّسات والنساء اللّائي يُدرنها، والنساء اللّائي كنّ يقلن إنّ وظيفتهنّ هي مساعدة المصابين. وعندما تعثّرت أمام ذلك المبنى، بدا لها أنّها إذا دخلت وقابلتهم وتوسّلت مساعدتهم، فإنّهم سيسألونها: أيّ ذنب اقترفت؟ أهو إدمان الكحول أم إدمان المخدّرات أم هو الحمل غير القانونيّ أم سرقة المتاجر؟ وكانت ستجيبهم: لم أقترف أيّ ذنب، فأنا بريئة، ولكن أنا... سيردّون عليها حينها: نحن آسفون، إنّنا لا نهتمّ بألم الأبرياء.

فهربت مجدّدًا، ثمّ توقّفت في زاوية شارع واسع وطويل لتستعيد بصرها. وكانت المباني والأرصفة قد اندمجت مع السماء، وظلّ خطّان من الأضواء الخضراء المعلّقة في الفضاء المفتوح يخرجان في نهاية المسافة، كما لو أنّهما يمتدّان إلى مدن أخرى ومحيطات أراضٍ أجنبية، لتطويق الأرض. وكان الوهج الأخضر يحمل مظهرًا يوحي بالسكينة مثل مسار يدعو إلى السفر الواثق دعوةً مفتوحة لا حدّ ها. ثمّ تغيّرت الأضواء إلى اللون الأحمر، وانخفضت بشكل كبير، لتتحوّل من الدوائر الحادّة إلى لطخات ضبابيّة، ثمّ إلى تحذير من الخطر غير المحدود. فوقفت تشيريل وشاهدت شاحنة عملاقة تمرّ، وقد كانت عجلاتها الهائلة تسحق طبقة أخرى من الحصى اللّامعة في الشارع المسطّح.

ثمّ عادت الأضواء إلى لون الأمان الأخضر، لكنّ تشيريل ظلّت واقفة ترتجف، غير قادرة على الحركة. واعتقدت أنّ تلك هي الطريقة التي يعمل وفقها سفر جسد المرء، ولكن ماذا فعلوا بحركة مرور الأرواح؟ لقد وضعوا الإشارات في الاتّجاه المعاكس. والطريق آمنة عندما تكون الأضواء حمراء من الشرّ، ولكن عندما تكون الأضواء خضراء من الفضيلة، في جميع أنحاء العالم، ظنّت أنّ تلك الأضواء المقلوبة تصل إلى كلّ أرض، وتستمرّ، وتطوّق الأرض. كانت الأرض مليئة بالفضلات والمُقعَدين المشوّهين، الذين لا يعرفون ما أصابهم أو لماذا أصيبوا، والذين كان يزحفون بكلّ ما أوتوا من قوّة مستعملين أطرافهم المسحوقة خلال أيّامهم التي تفتقر إلى النور، بلا إجابة ما عدا تلك التي تعلن أنّ الألم هو جوهر الوجود، وأخلاقيّات رجال شرطة المرور الذين كانوا يضحكون ويقولون لهم إنّ الإنسان-بطبعه- لا يستطيع المشي.

لم تكن تلك هي الكلمات التي تجول بخاطرها ولم تجد القدرة للعثور عليها، بل كانت الكلمات التي من شأنها أن تسمّي ما عرفته فقط من هيجان مفاجئ جعلها تضرب بقبضتيها عمودَ إشارة المرور الحديديَّ وهي في حالة من الرعب العقيم الذي لا طائل منه، وقد ضربت أيضًا الأنبوبَ المجوّف الذي كان بجانبها فسمعت صوتًا أجشّ لضحكة خافتة صدئة أصدرتها آليّة استمرّت في الصرير بلا هوادة.

لم يكن بوسعها تحطيمها بقبضتَيها، ولم تستطع ضربَ أعمدة الشارع الممتدّ، تلك

التي تتجاوز مدى بصرها واحدة تلو أخرى، لأنّها لم تستطع تحطيم تلك العقيدة التي تهيمن على أرواح بشر ستواجههم واحدًا تلو آخر. فهي لم تعد تستطيع التعامل مع الناس بعد الآن، ولم يعد بوسعها أن تنتهج ما سلكوه من طرق، لكن ماذا بوسعها أن تقول لهم، إذا لم تكن لديها كلمات تسمّي بها ذلك الشيء الذي تعرفه وإذا لم يكن لديها أيّ صوت يسمعه الناس؟ فماذا بوسعها أن تقول لهم؟ وكيف يمكنها الوصول إليهم جميعا؟ وأين هم البشر الذين يمكنها أن تحدّثهم؟

لم تكن تلك هي الكلمات التي تجول في خاطرها، بل كانت فقط ضربات قبضتها على المعدن، ثمّ راقبت نفسها فجأة، وهي تضرب مفاصلها حتّى أحدثت نزيفًا دمويًّا على العمود الثابت، وتلك الرؤية جعلتها ترتجف، ثمّ تعثّرت وابتعدت. واستمرّت في المشي، من دون رؤية أيّ شيء من حولها، فشعرت كما لو أنّها محاصرة في متاهة بلا مخرج.

لا يوجد مخرجٌ، هكذا حدّثتها نُتَفٌ من الوعي، وكان تردّد صداها في الأرصفة وفي صوت خطواتها، لا يوجد مخرج... أو مأوى... أو أيّ إشارات للنجاة.. ولا توجد طريقة لمعرفة الهلاك من الأمان، أو العدو من الصديق... واعتقدت أنّها تشبه ذلك الكلب الذي سمعت عنه... كلب شخص مّا في مختبر شخص مّا... الكلب الذي حصل على إشارات تُفتَح أمامه ولا يرى أيّ طريقة لمعرفة الرضا من التعذيب، لكنّه رأى الغذاء يتحوّل إلى نوع من الضرب والضرب إلى نوع من الغذاء، ثمّ رأى أنّ عينيه وأذنيه كانت تخدعه وأنّ حكمه أصبح عقيمًا ووعيه أصبح عاجزًا في عالم متحوّل وعائم وبلا شكل، فاستسلم رافضا أن يأكل مقابل ذلك الثمن أو أن يعيش في عالم من ذلك النوع... لا! كانت الكلمة الواعية الوحيدة التي عشّشت في دماغها.. لا.. لا.. لا.. فهذه ليست طريقتك، وهذا ليس عالمك حتّى لو كانت (لا) هي كلّ ما تبقّى لي!

ثمّ التقت بالأخصّائيّة الاجتماعيّة، وكان ذلك في أحلك ساعات الليل، وفي زقاق بين رصيف الميناء والمستودعات. كانت الأخصّائية الاجتماعيّة امرأة ذات وجه أسمر امتزج لون بشرتها ومعطفها الرماديّ بجدران المنطقة. وقد رأت فتاة شابّة ترتدي بدلة

أنيقة ومكلفة جدًّا بالقياس إلى حيّ فقير مثل ذلك الحيّ. كانت الفتاة بلا قبّعة، أو مال، بحذاء ذي كعب مفكّك، وشعر أشعث وكدمة في زاوية فمها، فتاة تترنّح على نحوٍ أعمى لا تميّز ممرّ المشاة من الأرصفة. وكان الشارع مجرّد صدع ضيّق بين جدران التخزين الفارغة المطلقة، ولكنّ شعاعًا من الضوء سقط من خلال الضباب الرطب مختلطًا برائحة المياه المتعفّنة؛ وقد أنهى حاجز حجريّ الشارعَ على حافّة ثقب أسود شاسع دمج النهر والسماء.

ثمّ اقتربت الأخصّائيّة الاجتماعيّة منها وسألتها بحدّة: هل تواجهين أيّ مشكلة؟ فلاحظت منها عينًا حذرة، وأخرى حجبتها خصلةُ من الشعر، ووجه كائن برّيّ نسي طبيعة الأصوات البشريّة، لكنّه يستمع إلى صدى بعيد ينوس بين الشكّ والأمل.

فأمسكت الأخصّائيّة الاجتماعيّة بذراعها وقالت:

- من العار أن تصلي إلى مثل هذه الحال... لو كان لَكُنَّ شيءٌ تفعلنَه يا فتيات الشوارع، بالإضافة إلى الانغماس في رغباتكنّ ومطاردة المتعة، لما كنتنّ تتجوّلن ثملاتٍ كالمتشرّدين في هذه الساعة من الليل... فلو توقّفتِ عن العيش من أجل متعتك الخاصّة، وتوقّفتِ عن التفكير في نفسك ووجدت أعلى...

ثمّ صرخت الفتاة، وارتدّ صدى الصرخة على جدران الشارع الفارغة مثلما يصرخ حيوانٌ من الرعب في غرف التعذيب. ثمّ نزعت ذراعها وانطلقت إلى الخلف، ثمّ صاحت بصوت واضح:

- لا.. لا.. لا.. هذا ليس نوع عالمك!

ثمّ ركضت بسرعة، تمامًا مثل أيّ مخلوق يجري لينجو بحياته. ركضت مباشرة في الشارع الذي كان ينتهي عند النهر. وفي مسارٍ واحد من السرعة -بلا انقطاع أو توقّف، وبوعي كامل- واصلت الركض إلى أن أعاق الحاجز الحجريّ طريقها، فلم تتوقّف وظلّت تركض إلى ما لا نهاية منطلقةً في الفضاء.

الفصل الخامس

حرّاس إخوانهم

في صباح الثاني من شهر سبتمبر انقطع أحد الأسلاك النحاسيّة في ولاية كاليفورنيا، بين عمودَين من أعمدة الهاتف كانا بجانب مسار خطّ فرع المحيط الهادئ لشركة تاجارت العابرة للقارّات.

وكانت هناك زخات رقيقة ظلّت تهطل منذ منتصف الليل. لم تشرق الشمس كالعادة، بل تسرّب فقط شعاع رماديّ فاتحٌ عبرَ سماء رطبة. وكانت قطرات المطر الرائعة تسيل على أسلاك الهاتف مشكّلة شررًا متألّقًا قبالة السحب التي كانت تتّخذ لون الطباشير، وقبالة المسار الذي يؤدّي إلى المحيط وفولاذ أبراج النفط الهابطة مثل لون شعيرات معزولة أسفل التلال المقفرة. وقد اهترأت الأسلاك، ليس فقط بسبب الأمطار، بل لأنّها أيضًا لم تخضع لعمليّات الصيانة منذ زمن بعيد. وظلّ أحدها يترنّح، ذلك الصباح، بسبب ثقل قطرات المطر. ومع سقوط قطراتها الأخيرة على منحنى السلك وتعلّقها به مثل خرزة الكريستال، وتجمّع ثقلها عدّة ثوان، استسلمت الخرزة والأسلاك معا، بلا صوت مثل سقوط الدموع، وانقطع السلك وسقط مع سقوط الخرزة.

وتجنّب الرجال في مقرّ قسم شركة تاجارت العابرة للقارّات النظر بعضهم إلى بعض عندما اكتُشِف انقطاع خطّ الهاتف، ثمّ إنّهم لم يبلغوا عنه. لقد أدلوا بتصريحات تحتوي على حسابات وتقديرات خاطئة على نحو مؤلم، ويبدو أنّها كانت تشير إلى المشكلة،

لكنّها لم تذكر شيئًا، فلا أحد منهم كان يخدع الآخر. كانوا يعلمون أنّ الأسلاك النحاسيّة باتت سلعة مهدّدة بالاختفاء من الأسواق. لقد كانت أغلى من الذهب أو حتّى الشرف. وكانوا يعلمون أيضا أنّ أمين مخازن القسم قد باع مخزونه من تلك الأسلاك منذ أسابيع إلى تجّار مجهولين جاؤوا إلى هنا ليلا، تجار ليسوا في الواقع رجال أعمال، بل هم فقط رجال يحظون بأصدقاء في مدينتي سكرامنتو وواشنطن. ثمّ إنّ أمين المخازن عُيّن مؤخّرا بالقسم، وكان له صديق في نيويورك اسمه كوفي ميغز، الذي لم يجرؤ أيّ واحد منهم على البحث في هويّته. وكانوا يعلمون أنّ الرجل الذي يتحمّل الآن مسؤوليّة إجراء الإصلاحات اللّازمة، سيكتشف أنّ الإصلاحات لا يمكن أن تتمّ، وسيتسبّب هذا الأمر في انتقام أعداء مجهولين. وكانوا يدركون أيضًا أنّه من أجل مساعدته سيدفعُ زملاءَه العمّال إلى الصّمت على نحو غامض، ولن يدلوا بشهادتهم، وأنّه لن يقرّ بأيّ شيء حتّى إن حاول أداء عمله، ولن يتحمّل أيّ مسؤوليّة في ذلك الأمر. فهم لم يتمكّنوا من استيعاب ما هو آمن أو خطير في تلك الأيّام، في زمن لا يعاقب فيه المذنبون، بل المُتَهِمُون. كانوا يدركون مثل الحيوانات أنّ الجمود هو الحماية الوحيدة لحظةَ يكون المرء في شكّ من أمره وفي حالة خطرٍ. لقد ظلّوا جامدين، ولم يتحدّثوا إلّا في الإجراء المناسب، وهو إرسال التقارير إلى السلطات المختصّة وفي المواعيد المناسبة.

ثمّ خرج من القاعة الشابُّ المسؤول عن صيانة الطرقات وإصلاحها، خرج من مبنى المقرّ إلى برّ الأمان يبحث عن كشك هاتف في إحدى الصيدليّات ليُجري مكالمة على نفقته الخاصّة. وتجاهل طبقات المسؤولين التنفيذيّين بالشركة، واتّصل هاتفيًّا بداغني تاجارت في نيويورك.

تلقّت داغني اتّصالًا وهيَ في مكتب شقيقها، فقاطعت مؤتمرا طارئا لها وتحدّثت إلى الشابّ. ولم يخبرها ذلك الشابّ المسؤول عن صيانة الطرقات وإصلاحها إلّا عن حادثة انقطاع خطّ الهاتف، وعن عدم وجود طريقةٍ لإصلاحه. ولم يقل شيئا آخر، ولم يشرح السبب الملحّ الذي جعله يتّصل بها شخصيًا. أمّا هي فلم تستجوبه، بل تفهّمت

الأمر وقالت:

- شكرا لك.

كان هذا كلّ ما نبست به في وجه ذاك الشابّ.

كانت تحتفظ في مكتبها بملفّ طوارئ يحتوي على جميع الموادّ التي ما تزال متوفّرة في كلّ قسمٍ من أقسام شركة تاجارت. وكان ذلك الملفّ يشبه أرشيف رجل أعمال مفلس، يوَثِّقُ كلَّ الخسائر، بينما كانت الإضافات النادرة للوازم الجديدة تبدو مثل ضحكات خبيثة لبعض المعذِّبين الذين كانوا يرمون الفُتات إلى قارّة تعاني المجاعة. وتصفّحت داغني الملفّ، ثمّ أغلقته، وتنهّدت وقالت:

- اتّصل بولاية مونتانا، يا إيدي. اتّصل بخطّ مونتانا لشحن نصف حصصهم من الأسلاك إلى ولاية كاليفورنيا. فولاية مونتانا قد لا تحتاج إلى تلك الأسلاك مدّةَ أسبوع آخر.

وعندما كان إيدي ويلرز على وشك الاحتجاج، أضافت:

- بسبب النفط يا إيدي. فولاية كاليفورنيا هي إحدى آخر المناطق المنتجة للنفط التي ما تزال تعمل في البلاد. ونحن لا نجرؤ على فقدان خطّ المحيط الهادئ.

ثمّ عادت إلى المؤتمر في مكتب أخيها. وبينما كانت داغني تلقي نظرة غريبة على المدينة خلف بلور النافذة، قال جيمس تاجارت:

- هل نعاني من مشكل في الأسلاك النحاسيّة؟ لا أظنّ أنّنا سنعاني من أيّ مشكلة بشأن النحاس على المدى القصير.

فسألته داغني:

- لماذا؟

لكنّه لم يجبها. ولم يكن خلف النافذة شيء خاصّ تراه داغني، فقط سماء ملبّدة في

يوم مشمسٍ، بنور هادئ في وقت مبكّر من الظهيرة على أسطح المدينة، وفوقها كانت صفحة التقويم تشير إلى: الثاني من أيلول / سبتمبر.

لم تكن تعلم السبب الذي جعله يصرّ على عَقْد ذلك المؤتمر في مكتبه، والسبب الذي جعله يصرّ على التحدّث إليها وحدَها، وهو شيء كان يحاول دائمًا تجنّبه، ثمّ قال:

- يبدو لي أنّ الأمور تسير على نحو خاطئ، ويجب أن نفعل شيئًا حيال ذلك. يبدو أنّ هناك حالة من التفكّك والارتباك تتّجه نحو سياسة غير منسّقة وغير متوازنة. ما أعنيه هو أنّ هناك طلبًا وطنيًا هائلا على النقل، ومع ذلك فإنّنا نخسر أموالًا طائلة. يبدو لي...

جلست داغني تنظر إلى خارطة أسلافها لشركة تاجارت العابرة للقارّات، وكانت معلّقة بجدار مكتبه. وأخذت تحدّق في الشرايين الحمراء التي تلفّ كامل القارّة الملوّنة بالأصفر. كان هناك زمن وُسِمَتْ فيه سكّة الحديد بأنّها النِّظام الدَّمويّ للأمّة، وكان فيه تيّار القطارات مثل دائرة حيّة من الدم، يجلب معه النموّ والثروة إلى كلّ رقعة من البرّيّة التي يطالها. هو الآن ما يزال كذلك مثل تيّار الدم، لكنّه أصبح شبيهًا بتيّار أحاديّ الاتّجاه يدار من جرح يستنزف آخرَ ما في الجسد من غذاء وحياة. فقالت داغني في نفسها بلامبالاةٍ:

- حركة السير في اتّجاه واحد تعني حركة المستهلكين. فالقطار رقم 193 مثلا، أُرسل قبل ستّة أسابيع بحمولة من الصلب، لكنّه لم يتوجّه إلى مدينة فولكتون بولاية نبراسكا، حيث ما تزال شركة سبنسر لتجهيز الآلات متوقّفة عن العمل، فتجهيز أفضل الآلات ما يزال قائمًا، لكنّ الشركة ما تزال تنتظر الشحنة مدّةَ أسبوعين، والشحنة أرسلت إلى مدينة ساندكريك بولاية إلينوي، حيث كانت الشركة الكونفدراليّة للآلات تغرق في الديون مدّة أكثر من سنة، وتنتج السلع التي لا يمكن الاعتماد عليها في الأوقات الصعبة. لقد تمّ تخصيص ذلك الصلب وفقًا لقانون توجيهيّ يؤكّد أنّ شركة سبنسر غنيّة وقادرة على الانتظار، أمّا الشركة الكونفدراليّة

فكانت على أبواب الإفلاس، ولا يمكن السماح لها بالانهيار، لأنّها مصدر الرزق الوحيد لمدينة ساندكريك بولاية إلينوي. لذلك أغلقت شركة سبنسر أبوابَها منذ شهر، ثمّ تبعتها الشركة الكونفدراليّة بعد أسبوعَين.

ووضع الناس في مدينة ساندكريك من ولاية إلينوي على قائمة الإغاثة الوطنيّة، لكنّهم لم يعثروا على أيّ طعام في مخازن الحبوب، وكذلك الحال مع حبوب مزارعي ولاية نبراسكا التي تمّ الاستيلاء عليها بأمرٍ من مجلس الاتّحاد، فحمل القطار رقم 194 معه حصاد شعب ولاية نبراسكا ومستقبلهُ ليستهلكه شعبُ ولاية إلينوي. فقال يوجين لاوسون في بثّ إذاعي:

- في هذا العصر المستنير، وصلنا أخيرًا إلى مرحلة أدركنا فيها أنّ كلّ واحد منّا هو حارس لأخيه.

فقال جيمس تاجارت، بينما كانت أخته تنظر إلى الخارطة:

- في فترة طوارئ هشّة وغير مستقرّة كالتي نشهدها في الوقت الحاضر، من الخطير أن نجد أنفسنا مضطرّين إلى تأخير دفع الأجور في بعض الأقسام. إنّها حالة مؤقّتة بالطبع، ولكن...

فضحكت داغني وقالت:

- لقد فشلت خطّة توحيد السكك الحديديّة، أليس كذلك يا جيم؟

- عذرًا، ماذا تقصدين؟

- أنت ستتحصّل على حصّة كبيرة من الدخل الإجماليّ لشركة جنوب الأطلسيّ، من المجمّع المشترك في نهاية العام، لكن لن يتبقّى أيّ دخل إجماليّ يستطيع ذلك المجمّع الاستيلاء عليه، أليس كذلك؟

- هذا ليس صحيحًا! كلّ ما في الأمر أنّ المصرفيّين يخرّبون الخطّة، هؤلاء الأوغاد الذين اعتادوا في الأيّام الخوالي على إعطائنا قروضًا بلا ضمانات ما عدا سككنا

الحديديّة. الآن هم يرفضون ذلك، ولا يسمحون لي بالحصول إلّا على قرض بمبلغ قليل وتافه لا يتجاوز مئات الآلاف، ويسدّد على المدى القصير، فقط للعناية ببعض كشوف المرتّبات، والحال أنّني أملك مصنعًا كاملًا متخصّصًا في جميع السكك الحديديّة في البلاد يمكن أن أقدّمه لهم ضمانًا للحصول على القرض.

فضحكت ملْء شدقَيها مجدّدًا. فصاح وقال:

- لم يكن بوسعنا تجنّب ذلك! فهو ليس عيبًا في الخطّة حين يرفض بعض الناس تحمّل نصيبهم العادل من أعبائنا.

- جيم، هل هذا كلّ ما أردت إخباري به؟ إذا كان الأمر كذلك فإنّني سأغادر، لأنّ ثمّة عملا ينتظرني.

فألقى نظرة على ساعة معصمه وقال:

- لا، لا، هذا ليس كلّ شيء. من الضروريّ جدًا أن نناقش الوضع ونتوصّل إلى قرار مّا...

واستمعت داغني بشكل فظّ إلى العموميّات التي تفوّهَ بها شقيقُها، ثمّ تساءلت عن دافعه. وكان يتفقّد الوقت من حين إلى آخر، وقد بدا متردّدًا، فتأكّدت من أنّه كان يحتجزها هناك لغرض محدّد.

تلك كانت سمة جديدةً فيه، بدأت تلاحظها منذ وفاة تشيريل. لقد هرع إليها باندفاع، ومن دون سابق إنذار حين كانت في شقّتها مساءَ اليوم الذي وجدوا فيه جثّة تشيريل التي ملأت قصّةُ انتحارها أعمدة الصحف بناء على شهادة أخصّائيّة اجتماعيّة قدّمت نفسها شاهدةً عيانًا على تلك الحادثة الأليمة.

- انتحار لا يمكن تفسيره.

هكذا وصفت الصحف هذه الواقعة دون أن تكشف عن الأسباب التي دفعت تشيريل إليها.

- لم يكن خطئي.

هكذا صاح جيم أمامها، كما لو أنّها هي القاضية الوحيدة التي كان عليه أن يسترضيها. ثمّ أضاف:

- أنا لا أتحمّل المسؤوليّة. ولا ذنب لي في ذلك.

كان يرتجف من الرعب، ومع ذلك رأتْ بعض نظرات ملقاة أمامها بدهاء، وقد بدت، على نحو لا يصدّق، وكأنّها تنقل لمسةً من الانتصار.

- اخرج من هنا يا جيم.

كان ذلك كلّ ما تفوّهت به في وجه جيم.

ومنذ ذلك الحين لم يتحدّث معها مرّةً أخرى عن تشيريل، لكنّه بدأ يزورها في مكتبها أكثر من المعتاد، ويوقفها أحيانًا في القاعات ليسترق منها بعض لحظات للدخول في نقاش لا طائل يرجى منه، مثل تلك المناسبات التي ازداد عددها حتّى بلغت درجة أثارت عندها شعورًا غير مفهوم. كان يتشبّث بها كما لو أنه يرغب في الحصول على الدعم والحماية لمواجهة رعب مجهول، فيحتضنها، وفي الآن ذاته يغرس سكّينا في ظهرها.

وكان يقول لها بإصرارٍ، عندما تنظر بعيدًا:

- أنا متلهّف إلى معرفة آرائك. من الضروريّ جدًّا أن نناقش الحالة... فأنت لم تَنْبُسِي بأيّ شيء.

فظلّت ثابتة من دون أن تلتفت إليه، فأضاف:

- كما لو أنّنا لا نجني المال من السكك الحديديّة، لكن..

فنظرت إليه داغني بحدّة، فتجنّبتها عيناه وأخذتا تنظران بعيدًا، ثمّ ردّ على عجل:

- ما أعنيه هو وجوب وضع سياسة بنّاءة. ويجب أن نفعل شيئًا... بواسطة شخص

مّا. في أوقات الطوارئ...

كانت تدرك الأمر الذي يفكّر فيه، ومع ذلك لم يُرِد منها أن تعترف به أو تناقشه. وكانت تعلم أيضًا أنّه لا توجد جداول أوقات للقطارات يمكن الاحتفاظ بها فترةً أطول، أو الإيفاء بأيّ وعودٍ، أو ملاحظة وجود أيّ عقود أبرمت في الآونة الأخيرة، وتعرف أنّ رحلات القطارات العاديّة كانت تُلغَى في أيّ لحظة تحت تعليمات من هبّ ودبّ، وتتحوّل إلى قطارات طوارئ خاصّة ترسل وفقًا لأوامر غير مبرّرة وإلى وجهات غير متوقّعة، وأنّ الأوامر كانت تصدر من كوفي ميغز؛ الحَكَمُ الوحيد الذي يحدّد حالات الطوارئ والرفاه العامّ. لقد علمت أنّ المصانع كانت توصَد أبوابها، وأنَّ منها ما أُغلِق ومازالت آلاته خامدة بسبب نقص الإمدادات التي لم تَرِدْ بعد، بينما بقيت المصانع الأخرى بمستودعات مليئة بالسلع التي لم تستطع تسليمها. علمت أيضًا أنّ الصناعات القديمة والعمالقة الذين أنشؤوا سلطتهم بعد مشوار هادف امتدّ فترةً من الزمن استمرّوا في الوجود أمام نزوة لحظة لا يمكنهم التنبّؤ بها أو السيطرة عليها. وعلمت أنّ الأفضل من بين هؤلاء، أولئك الذين يتمتّعون بخبرة أطول ووظائف أكثر تعقيدًا، قد اندثر منذ فترة طويلةٍ، وأنّ تلك المصانع التي ما تزال تكافح من أجل الإنتاج وتناضل بوحشيّة للحفاظ على المدوّنة الأخلاقيّة لعصر كان فيه الإنتاج ممكنًا، هي الآن تحاول تضمين سطرٍ في عقودها يجلب العار لسليل ناث تاجارت، في جملة تقول: «مع السماح بالنقل».

ومع ذلك كان هناك أناس -وهي تعرف أسماءهم - يستطيعون الحصول على وسائل النقل في أيٍّ وقت يحلو لهم، كما هي الحال في السرّ الصوفيّ الغامض. إنّهم أناس تعتبِر بقيّة الشعب أنّ تعاملهم مع كوفي ميغز كان بمثابة العقائد الصوفيّة المجهولة التي ترى في النظر خطيئةً يُضرَب بسببها مُرتكِبُها، لذلك أبقى الناس أعينهم مغلقة، وكانوا خائفين، لا بسبب الجهل، بل بسبب المعرفة. وكانت داغني تعلم أنّ هناك صفقات يتمّ بموجبها بيع هؤلاء الناس سلعةً تعرف تحت اسم «سحب النقل»، وهو مصطلح يفهمه الجميع، ولكن لا أحد يجرؤ على تعريفه. وكانت تعلم أنّ هؤلاء يتمتّعون

باستغلال قطارات حالات الطوارئ الخاصّة، وأنّهم يستطيعون إلغاء رحلات كلّ قطاراتها المبرمجة وفق جدول مضبوط، ثمَّ يرسلونها إلى أيّ مكان عشوائيّ من القارّة بواسطة ختمِهم السحريّ، ختمٍ يبطل التعاقد، والملكيّة، والعدالة، والعقل، والحياة، ختمٍ يشير إلى أنّ «الصالح العامّ» يستدعي فورًا إنقاذَ تلك البقعة. فقد أرسلت قطاراتها أكثر من مرَّةٍ لإغاثة الإخوة سماثر وفواكه الزنباع في ولاية أريزونا، وإغاثة مصنع في ولاية فلوريدا متخصّصٍ في مجال إنتاج آلات المسامير الكرويّة، وإغاثة مزرعة الخيول في ولاية كنتاكي، وإغاثة مصنع الصلب التابع لأورين بويل.

كانت هناك فئة تعقد صفقات مع الصناعيّين اليائسين لتوفير النقل لبضائعهم المركونة في المستودعات، عندما يتعذّر عليهم الحصول على نسبة الطلب المرجوّة لشراء السلع حين يغلق المصنع ويُعلن عن بيعه وهو في حالة إفلاسٍ مقابل عشرة سنتات، فيعجّلون في نقل البضائع بعيدًا عبر عربات الشحن التي تصبح فجأة متاحة، وتنقل بعيدًا إلى الأسواق حيث يكون تجّار من النوع نفسه جاهزين لتنفيذ عمليّة القتل. وكانت هذه الفئة تحوم حول المصانع، في انتظار آخر نفس للفرن، من أجل الانقضاض على المعدّات، وحول الحوافّ المهجورة، للانقضاض على عربات شحن البضائع غير المسلّمة. إنّهم تجّار الكرّ والفرّ، الذين لا يمكثون في أيّ مجال عمل فترةً أطول من فترة صفقة واحدة، والذين لا يكون لديهم كشوف رواتب يُوفون بها، ولا نفقات إضافيّة يتحمّلونها، ولا أيّ عقّارات يمتلكونها، ولا أيّ معدّات للبناء، فأصولهم الوحيدة واستثمارهم الوحيد يكمنُ في عنصر يُعرف بـ«الصّداقة». وتوصف هذه الفئة في الخطب الرسميّة بأنّها فئة «رجال الأعمال التقدميّين في عصرنا الديناميكيّ»، لكنّ عامّة الناس تعرفهم تحت اسم «باعة السحب المتجوّلين». كانوا يقومون بأعمال عديدة، فمنهم من هو متخصّص في سحب وسائل النقل، ومنهم من هو متخصّص في سحب الصلب، ومنهم من هو متخصّص في سحب النفط، ومنهم من هو متخصّص في سحب خطط الرفع من الأجور، ومنهم من هو متخصّص في سحب أحكام موقوفة التنفيذ. هؤلاء كانوا نشطين، وحافظوا على اندفاعهم في جميع أنحاء البلاد، وفي مقابل

ذلك لا أحد آخر كان باستطاعته التحرّك. لقد كانوا نشطين، ولكن بلا عقلٍ. كانوا نشطين، لا كالحيوانات، بل مثل تلك السلالات التي تتغذّى وتقتات على سكون الجثث الهامدة.

كانت داغني على علمٍ بوجود مالٍ يمكن جنيه من أعمال السكك الحديديّة، تمامًا كما كانت تعرف مَن كان يستفرد به الآن. لم يكن كوفي ميغز يبيع القطارات فقط، بل يبيعُ أيضًا آخر لوازم السكك الحديديّة، وذلك كلّما أمكن له إعداد تلاعب لا يمكن اكتشافه أو إثباته. كان يبيع السكك الحديديّة مقابل إنشاء الطرق في دولة غواتيمالا أو لصالح شركات صناعة العربات في كندا، ويبيع أيضًا أسلاك النحاس للشركات المصنّعة لصناديق الجوك، ويبيع روابط السكك مقابل الحصول على الوقود أثناء التنقّل بين منتجعات الفنادق.

ثمّ قالت داغني في نفسها وهي تتطلّع إلى الخارطة: هل كان مهمًّا أن تعلم أيّ جزء من الجثث استُهلِك، ومِن قبل أيّ نوع من الدود؛ وما إذا كان قد التهم من قبل أولئك الذين يلتهمون أنفسهم أو أولئك الذين يقدّمون الطعام للديدان الأخرى؟ مادام اللحم الحيّ فريسة تُلتهم، فهل يهمّ الآن مَن يفترسها؟ لم تكن هناك طريقة لمعرفة أيّ خراب أنجزه العاملون في مجال حقوق الإنسان، وأيّ خراب أنجزته العصابات غير المخادعة. ولم تكن هناك أيّ طريقة لمعرفة أيّ أعمال نهب كانت مدفوعة برغبة عائلة لوسن الخيريّة، ولا تلك التي كانت تحرّكها شراهة كوفي ميغز، أو أيّ طريقة لمعرفة أيّ المجتمعات تمّت التضحية به من أجل تغذية مجتمعٍ آخر كان على وشك السقوط في أتون المجاعة خلال أسبوعٍ، وتلك التي تمّت التضحية بها من أجل توفير اليُخُوت لباعة السّحب المتجوّلين. هل كان ذلك مهمًّا؟ كلاهما متشابهان في الواقع، لأنّهما متساويان من حيث الروح. وكلاهما متساويان في الحاجة، بما أنّ الحاجة تعتبر العنوانَ الوحيدَ للامتلاك. وكلاهما يتصرّفان على نحو صارم وفقًا للقانون الأخلاقيّ ذاته. وكلاهما اعتبرا التضحية بالبشر أمرًا لائقًا. وكلاهما كانا يحقّقان ذلك. ولم تكن هناك أيّ طريقة لمعرفة مَن هم أكلة لحوم البشر ومَن هم الضحايا، فالمجتمعات التي قبلت

بمصادرة حقّها في الملابس أو الوقود من قِبَل قرية تقع شرقها، ستجد في الأسبوع الموالي أنّ مخازن حبوبها قد صودرت لإطعام بلدة أخرى في الغرب. والبشر الذين كانوا يحقّقون المثل العليا على مدى قرون، مارسوا ذلك على نحو متكامل وبلا عوائق. لقد كانوا يخدمون الحاجة بوصفها الحكم الأعلى ومطلبهم الأوّل ومعيار قيمهم، وبوصفها أيضًا العملة الأكثر قداسة في عالمهم. لقد دُفِع بالبشر إلى غياهب جبٍّ وهم يصرخون أنّ الإنسان حارسٌ لأخيه الإنسان، بينما كان كلّ فرد يَلْتَهِم جاره، ويُلْتَهَمُ هو في الوقت نفسه من قبل شقيق جاره. وكلّ واحد منهم كان يطالب بنصيبه من أشياء لا يستحقّها. ثمّ يتساءل بعد ذلك عمّن كان يسلخ جلدَ ظهره. وكلّ فرد منهم كان يلتهم نفسه، وفي الآن ذاته يصرخ في رعب من وجود شرٍّ مجهول يدمّر الأرض.

ثمّ سمعت صوت هيو أكستون الهادر بداخلها وقد خطر ببالها:

- أيّ شكوى سيعلنونها الآن؟ هل سيشتكون من أنّ الكون غير عقلانيّ؟ فهل هو كذلك حقًّا؟

ثمّ جلست تنظر إلى الخارطة، بنظرتها الرسميّة غير العاطفيّة، كما لو أنّها، وهي تراقب ذلك، لا تسمح لقوّة المنطق المذهلة بأيّ شعور سوى الاحترام. ففي خضمّ فوضى قارّة متهالكةٍ، كانت ترى كلَّ الأفكار التي حملَها البشر تُنفَّذ على نحوٍ رياضيّ دقيق. ولم يشاؤوا معرفة أنّ هذا ما كان يريدونه، ولم يرغبوا في رؤية أنّهم يمتلكون القدرة على التمنّي، لكنّهم يفتقرون إلى القدرة على التزييف. وقد حقّقوا رغبتهم حرفيًّا، إلى آخر فاصلة منها ملطّخة بالدماء.

وتساءلت داغني:

- بمَ يفكّرون الآن؟ وعلى أيّ شيء سيعتمدون؟

ومن بينهم من ابتسم ذات مرّة وقال:

- أنا لا أودّ تدمير الأغنياء، بل أريد فقط أن أستولي على القليل من فائض إنتاجهم لمساعدة الفقراء، فقط القليل الذي لن يشعروا به أبدًا!

وبعد هنيهة أضاف:

- إنّ أباطرة المال والأعمال لا يحتملون التعرّض للضغط، لقد جمعوا ما يكفي للبقاء على قيد الحياة مدّةَ ثلاثة أجيالٍ.

وصرخ لاحقًا:

- لماذا يعاني الناس ورجال الأعمال يمتلكون الاحتياطيات التي يمكنها أن تكفيهم إلى آخر السنة؟ لماذا يجب علينا أن نتضوّر جوعًا وبعض الناس يمتلكون احتياطيات قد تكفيهم أسبوعًا؟

وتساءلت داغني:

- علامَ كانوا يعتمدون؟

ثمّ صرخ جيمس تاجارت:

- يجب عليك أن تفعلي شيئًا مّا.

فالتفتت لتواجهه، ثم قالت:

- من؟ أنا؟

- إنّها وظيفتك، واختصاصك، وواجبك.

- وفيمَ يتمثّل؟

- التدخّل والفعل.

- فعل ماذا؟

- كيف لي أن أعرف؟ إنّها موهبتك الخاصّة، فأنت هي الفاعلةُ.

فنظرت إليه داغني: لقد كان البيان مدركًا بشكل غريب وغير ذي صلة على نحو متناقض. ثمّ نهضت وقالت:

- هل هذا كل ما في الأمر، يا جيم؟

- لا، لا، بل أريد مناقشة الأمر.

- تفضّل.

- لكنّك لم تقولي أيّ شيء!

- أنت أيضًا لم تقل أيّ شيء.

- لكن... ما أعنيه هو مناقشة المشاكل العمليّة التي يجب حلّها، ومن بينها -على سبيل المثال لا الحصر- مسألة اختفاء نصيبنا من السكك الحديديّة الجديدة من المخازن في مدينة بيتسبرغ.

- لقد سرقها كوفي ميغز وباعها.

فانفجر جيم، وقال مدافعًا:

- هل يمكنك إثبات ذلك؟

- وهل ترك أصدقاؤك أيّ وسائل لإثبات هذا الأمر؟

- إذَن لا تتحدّثي عنه، وتجنّبي أن يكون كلامك نظريًّا، فنحن يجب أن نتعامل مع الوقائع. ويجب أن نتعامل معها كما هي اليوم...أعني أنّ علينا أن نكون واقعيّين وأن نبتكر بعض الوسائل العمليّة لحماية مؤننا في ظلّ الظروف الحاليّة، لكن ليس وفقًا لفرضيّات غير مؤكّدة.

فضحكت داغني ملء شدقيها مجدّدًا، لأنّه يريد منها أن تحميه من كوفي ميغز من دون الاعتراف بوجوده، وأن تحاربه من دون الاعتراف بواقع وجوده، وأن تهزمه من دون الإخلال بلعبته.

فأجابها بغضب وقد فَقَدَ أعصابه:

- ما الذي تَجِدِينَه مضحكا في ما قلت؟

- أنت تعرف سبب ضحكي.

- كلّا، ما خطبك؟ ولا أعلم ماذا حدث لك.. في الشهرين الماضيين.. منذ أن عدت.. لم يسبق لك أن كنت غير متعاونة إلى هذا الحدّ.

- لماذا تتفوّه بهذا الكلام، يا جيم، علما أنّني لم أجادلك قطّ في الشهرين الماضيين؟

- هذا ما أعنيه بالضبط.

وتمالك نفسه بسرعة، ولكن ليس بالسرعة الكافية لتجنّب ابتسامتها. ثمّ أضاف:

- أعني أنّني أردت عَقد مؤتمرٍ، وأردت أن أعرف وجهة نظرك في الوضع...

- أنت تعرف مسبّقًا موقفي.

- لكنّك لم تنبسي بكلمة واحدة.

- لقد قلت، قبل ثلاث سنوات، كلّ شيء كان عليّ قولُه. وأخبرتك إلى أين سيؤدّي بك هذا المسار.

- ها أنت تعودين مجدّدًا إلى الألغاز ذاتها. ما فائدة التنظير؟ نحن أبناء اليوم، ويجب أن نتعامل مع الحاضر وليس مع الماضي. ربّما كان للأمور أن تكون مختلفة لو اتّبعنا رأيك، لكنّ الحقيقة تقول إنّنا لم نفعل ذلك ويجب أن نتعامل مع الوقائع الحاضرة، ويجب أن نتعامل مع الواقع كما هو الآن.

- حسنًا، تعامل معه كما تشاء.

- عذرًا، ماذا تعنين؟

- اتّخذ قراراتك، وأنا سألتزم بها.

- هذا غير عادل. أريد أن أعرف رأيك...

- أنت تريد منّي أن أمنحك الأمان، يا جيم، لكنّك لن تحصل عليه.

- عذرًا، ماذا تقصدين؟

- لن أجعلك تعتقد أنّ الواقع الذي تتحدّث عنه ليس كارثيًّا، وأنّه ما تزال توجد سبيل لإنقاذه. ما من سبيل لإنقاذك.

غير أنّ جيم لم يصدر منه صوت أيّ انفجار أو غضب، بل أصدر فقط صوتًا غير واثق لرجل على وشك التنازل:

- حسنًا... ماذا تريدين منّي أن أفعل؟

- استسلم.

فنظر إليها على نحو فظّ، ثمّ أضافت:

- استسلموا جميعًا، أنت وأصدقاؤك في واشنطن وكلّ مخطّطي النهب. اتركوا فلسفتكم التي تقوم على أكل لحوم البشر. استسلم، وابتعد عن الطريق، ودع مَن يستطيع منّا أن يبدأ من الصفر؛ من الأنقاض والخراب.

- لا.

وصدر منه الآن انفجار على نحو غريب. لقد كان بمثابة صراخ رجلٍ مستعدّ للموت بدلًا من خيانة أفكاره، وصدر الانفجار من رجل قضّى جلّ حياته في الهروب من الأفكار، وهو يتصرّف بنفعيّة المجرم. فتساءلت داغني عمّا إذا سبق لها فهمُ جوهر المجرمين في أيّ وقت من الأوقات. وتساءلت عن طبيعة الولاء لفكرة إنكار الأفكار.

فصرخ جيم قائلا:

- لا. هذا مستحيل، هذا غير وارد على الإطلاق.

كان صوته منخفضًا وطبيعيًّا أكثر من اللزوم، صوت يتضاءل فيتحوّل من لهجة متعصّب إلى نبرة مدير تنفيذيّ متعجرف.

- ومن قال ذلك؟

- لا يهمّ. إنّه كذلك. لماذا تفكّرين دائما في كلّ ما هو غير عمليّ؟ لماذا لا تقبلين الواقعَ كما هو وتفعلين شيئًا مّا حيال ذلك؟ أنت أيّتها الواقعيّة، الفاعِلة، المحرِّكة، المنتِجة، سليلة نات تاجارت؛ أنت هي الشخص القادر على تحقيق أيّ هدف يختاره! ويمكنك، إن أردت ذلك، إنقاذَنا الآن، كما يمكنك إيجاد طريقة لإنجاح الأمور.

فانفجرت داغني ضاحكةً مرّة أخرى.

واعتقدت أنّ تلك النقطة هي مَكْمَن الهدف النهائيّ من كلّ تلك الثرثرة الأكاديميّة الفضفاضة التي تجاهلها رجال الأعمال سنواتٍ، وهدف كلّ هراء التعريفات المبتذلة، والعموميّات القذرة، والتجريدات السائلة، فكلّها تدّعي أنّ طاعة الواقع الموضوعيّ هي نفسها طاعة الدولة وأنّه لا يوجد أيّ فرق بين قانون الطبيعة والقانون التوجيهيّ البيروقراطيّ، وأنّ الإنسان الجائع ليس حرًّا، ويجب تحريره من استبداد المأكل والمأوى والملبس. وكلّ ذلك يدوم سنواتٍ، ثمّ يعلن أنّ اليوم قد حان ليتدخّل نات تاجارت الواقعيّ، ويطلب منه النظر في إرادة كوفي ميغز بوصفها حقيقةً من حقائق الطبيعة، حقيقةً لا رجعة فيها، حقيقةً مطلقة مثل الحديد والقضبان والجاذبيّة، لقبول العالم الذي صنعه بوصفه واقعًا موضوعيًّا ثابتًا، ثمّ مواصلة إنتاج الوفرة لذلك العالم. هنا يكمن هدف كلّ أولئك المحتالين الذين ترعرعوا في المكتبات العموميّة والفصول الدراسيّة، والذين باعوا اكتشافاتهم وسوّقوا لها بوصفها عقلًا، والذين سوّقوا لـ-«غرائزهم» بوصفها علمًا، وتاجروا برغباتهم وشهواتهم على أنّها معرفة. إنّ هدف كلّ المتوحّشين هو الاتّجار بكلّ ما هو غير موضوعيّ، وغير هادف، وغير مطلق، أي الاتّجار بالنسبيّ، والمؤقّت، والمحتمل؛ أولئك المتوحّشون الذين عندما يرون فلاّحًا يجمع حصاده، يعتبرون فعلَه ظاهرة صوفيّة غير مرتبطة بقانون السببيّة، بل مرتبطة برغبة جامحة لفلاّح قدير، ظاهرة تودّ هي أيضًا أن تستولي على الفلاّح فيما بعد فتكبّله وتسلب منه المعدّات والبذور والأرض وتدفعه إلى العيش في الخارج على صخرة قاحلة وتأمره: «الآن ازرع واجمع حصادَك وأطعمنا».

فقالت في نفسها، وقد توقّعت من جيم إخبارها بأنّه من غير المجدي محاولة تفسير

ما كانت تضحك عليه، فهو لن يكون قادرًا على استيعابه.

لكنّه لم يقل شيئًا، بل لاحظت، في مقابل ذلك، تذبذبه، وسمعته يقول على نحو مخيف:

- داغني، أنا أخوك...

فانسحبت إلى الخلف، وازدادت عضلاتها تصلّبًا كما لو أنّها تواجه مسدّسًا قاتلًا.

فقال بصوت ناعم ورتيب يشبه صوت الشحّاذ:

- داغني أريد أن أكون رئيسًا لشركة السكك الحديديّة. نعم أريد ذلك من كلّ قلبي. لماذا لا ينبغي أن أحقّق أمنياتي كما تفعلين أنت دومًا؟ لماذا لا تُلبَّى رغباتي كما كانت تتحقّق دائما أيّ رغبة خاصّة بك؟ لماذا يجب أن تكوني سعيدة وأنا أعاني؟ أوه نعم، فالعالم ملكك، وأنت الوحيدة التي تحظى بالعقل لإدارته. إذَن لماذا لا تسمحين بوجود المعاناة في عالمك؟ فأنت تعلنين السعي وراء السعادة، لكنّك تحكمين عليّ بالإحباط. أليس لي الحقّ في المطالبة بأيّ شكل من أشكال السعادة التي أختارها؟ أليس هذا دينًا تدينين لي به؟ ألست أخاك؟

كانت نظرته مثل مصباح يدويّ بيد متسكّع يبحث عن ذرّة شفقة في ملامح وجهها، لكنّه لم يجد من شيء سوى نظرة الاشمئزاز. ثمّ أضاف:

- إنّها خطيئتكِ إذْ أُجبِرتُ على مواجهة بعض المعاناة. وهو فشلكِ الأخلاقيّ، لأنّني أخوك. أنا أقع تحت مسؤوليّتك، لكنّكِ فشلتِ في توفير حاجياتي، لذلك فأنت مذنبة. كلّ زعماء البشريّة المعنويّين قالوا ذلك على مدى قرونٍ، فمن أنت لتقولي خلاف هذا الأمر؟ أنت فخورةٌ جدًّا بنفسك، وكنت تعتقدين أنّك نقيّة وصالحة، ولكن لا يمكن أن تكوني صالحةً مادمتُ بائسًا. فبؤسي هو مقياس خطيئتك، وقناعتي هي مقياس فضيلتك. أريد هذا النوع من العالم، عالم اليوم، ذلك العالم الذي يعطيني نصيبي من السلطة، ويُتيح لي الشعور بالأهمّيّة والقيمة. اجعلي هذا الأمر ينجح معي. افعلي شيئًا. كيف لي أن أعرف أيّ شيء بوسعه إنقاذي؟ إنّها مشكلتك وواجبك! فأنت لديك

امتيازُ القوّة، أمّا أنا فلديّ الحقّ في الضعف. وتلك قيمة أخلاقيّة مطلقة، ألا تعرفينها؟

بدا مظهرُه في تلك اللحظة مثل يَدَي رجلٍ معلّقٍ على هاوية، يتحسّس بشكل محموم أدنى تصدّع من الشكّ، لكنّه ينزلق على صخرة نظيفة مصقولة تشبه نعومة وجهها.

- أيّها الوغد.

هكذا ردّت على نحو صريح وقاسٍ وبلا عاطفة، بما أنّ الكلمات لم تكن موجّهة إلى أيّ كائن بشريّ.

وبدا لها أنّها رأته يسقط في الهاوية على الرغم من أنّها لم تلاحظ وجود أيّ شيء في ملامح وجهه سوى نظرة رجل محتالٍ لم تنجح خدعته.

ثمّ قالت في نفسها: لا يوجد أيّ سبب يبرّر شعورها بالاشمئزاز المفرط أكثر من المعتاد، فهو لم يتلفّظ إلّا بالأشياء التي كانت تسمعها تتردّد في الكثير من المواعظ، وهي تُقْبَلُ عادةً في أيّ مكان، ولكنّ هذه العقيدة عادة ما كان يُعبَّر عنها بضمير الغائب، أمّا جيم فبدا وقحًا حينما عبّر عنها بضمير المتكلّم. وتساءلت عمّا إذا كان الناس يقبلون مبدأ التضحية شرطَ ألّا يحدّد المستفيدون منها طبيعة مطالبهم وأفعالهم.

ثمّ استدارت وهمّت بالمغادرة. لكنّ جيم صرخ:

- لا، لا.. انتظري.

ثمّ نهض وهو ينظر إلى ساعة معصمه. وأضاف:

- لقد حان الوقت الآن. ثمّة بثٌّ إخباريّ معيّن أريدك أن تسمعيه.

فتوقّفت وقد دفعها الفضول. ثمّ ضغط جيم على زرّ الراديو، وهو يراقب وجهها علنًا، بإصرار ووقاحة، بينما كانت عيناه تَشِيَانِ بنظرة خوفٍ.

صدح الراديو على نحو مفاجئ، وكانت نبرة المذيع تطفح بالذعر:

- أيّها السيّدات والسادة، وردت علينا الساعةَ أنباء عن تطوّرٍ مروّع شهدته مدينة

سانتياغو، عاصمة دولة الشيلي.

فلاحظت داغني أنّ تاجارت يرتعش، وقد انتابه قلق مفاجئ، كما لو أنّ في الكلمات والصوت شيئًا غير متوقَّعٍ. واسترسل المذيع:

- ثمّة دعوةٌ إلى عقد جلسة استثنائيّة للهيئة التشريعيّة لدولة الشيلي الشعبيّة في الساعة العاشرة من صباح اليوم، لإقرار عمل بالغ الأهمّيّة للشعب الشيليّ والأرجنتينيّ ولدول أمريكا الجنوبيّة الأخرى تماشيًا مع السياسة المتنوّرة للسيّد راميريز -الرئيس الجديد لدولة الشيلي- الذي وصل إلى السلطة وهو يرفع شعار: «الإنسان حارس لأخيه الإنسان». تعلن الهيئة التشريعيّة عن تأميم دولة الشيلي كافّة ممتلكات شركة دانكونيا للنحاس. وهكذا، فإنّها تفتح الطريق لتنهض دولة شعب الأرجنتين بتأميم بقيّة ممتلكات دانكونيا في جميع أنحاء العالم. بيد أنّ هذا لم يكن معروفًا إلّا لعدد قليل جدًّا من كبار قادة البلدَين. وقد ظلّ هذا التدبير سرًّا من أجل تجنّب النقاش والمعارضة الرجعيّة. فخبر الاستيلاء على ملايين الدولارات من شركة دانكونيا للنحاس أُدْرِجَ على أن يكون كمفاجأة سخيّة للبلاد.

- وفي الساعة العاشرة تمامًا، ولحظةَ قَرَعَتْ مطرقةُ الرئيس المنصّة إيذانًا بافتتاح الجلسة هزَّ صوتُ انفجار هائل القاعةَ فحطّم زجاج نوافذها. وكان صوت الانفجار قادمًا من الميناء، على بعد بضعة شوارع، فهرع النوّاب المشرّعون إلى النوافذ، فرأوا عمودًا طويلًا متصاعدًا من اللهب نشبَ في ما بدا على أنّه هياكل لأحواض الخام لشركة دانكونيا للنحاس، وقد فُجِّرَتْ إلى قطع.

- تجنّب الرئيس السّقوطَ في الذّعر، وطلب من المُشَرِّعين العودةَ إلى النظام والهدوء. ثمّ تُلِي نصُّ قانون التأميم على الجمعيّة، على وقع أصوات صفّارات الإنذار والصرخات البعيدة. كان صباحًا حزينا تغمره سحب ممطرة. أمّا الانفجار فوقع بسبب حدوث عطل بمحطّة إرسال كهربائيّة. وقد صوّتت الجمعيّة على قرار التأميم تحت ضوء الشموع، في حين ظلّ توهّج شررٍ أحمر من النار يجتاح السقف المقبّب.

- ولكنّ الصدمة وقعت في وقت لاحقٍ، عندما دعا المشرّعون إلى استراحة عاجلة لإعلان خبر سارّ للأمّة مفادُه أنّ الشعب يملك الآن شركة دانكونيا للنحاس. وبينما كانوا يصوّتون، بلغهم خبر تحوّل شركة دانكونيا للنحاس إلى أثرٍ من الماضي. أيّها السيّدات والسادة، لم تعد هذه الشركة موجودة في أيّ مكان. ففي اللّحظة ذاتها من ذلك اليوم، وقعت عشر ضربات متزامنة على نحو جهنّميّ عجيب، طالت كلّ ممتلكات شركة دانكونيا للنحاس الموجودةِ على وجه الكرة الأرضيّة، والممتدّة من دولة الشيلي مرورًا بمملكة سيام وإسبانيا، وصولًا إلى مدينة بوتسفيل وولاية مونتانا. لقد صارت من الماضي.

- لقد تسلّم عمّال شركة دانكونيا للنحاس في كلّ مكان أجورَهم نقدًا على الساعة التاسعة صباحًا. وحوالي التاسعة والنصف انفجر كلّ شيء، ونُسِفت الشركة، وسُوِّيَت بالأرض. انهارت أحواض الخام، والمصاهر، والمختبرات، والمباني والمكاتب ولم يتبقَّ شيء من سفن دانكونيا للخام التي كانت ترسو في الميناء. ولم يسلم من السفن التي كانت في أعماق البحر سوى قوارب النجاة التي تحمل أطقمها. أمّا في ما يخصّ مناجم دانكونيا، فقد دفن بعضها تحت أطنان من الصخور المتفجّرة، بينما تبيّن أنّ بعضها الآخر لا يستحقّ حتّى ثمن التفجير. فقد بيّنت تقارير عديدة مسرّبة أنّ عددًا مذهلًا من تلك المناجم استمرّ في العمل على الرغم من أنّه اسْتُنْفِدَ منذ زمن بعيد.

- ومن بين الآلاف من موظّفي شركة دانكونيا، لم تجد الشرطة أحدًا على علم بكيفيّة التخطيط لهذه المؤامرة الوحشيّة وتنظيمها وتنفيذها. لكنّ نخبة طاقم الشركة لم تكن هناك، لقد اختفت. وكانت تضمّ أكثر المديرين التنفيذيّين كفاءة وكذا خيرة علماء المعادن والمهندسين والمشرفين، وكلّ الناس الذين كانت الدولة الشعبيّة تعوّل عليهم لمواصلة العمل وتخفيف عمليّة إعادة التكييف. فالأكفاء والعمّال المهرة الذين كانوا يعوّلون عليهم غادروا الشركة. وتشير التقارير الواردة من مختلف المصادر إلى أنّ جميع أرصدة حسابات شركة دانكونيا لم تعد موجودة في أيّ مكان من العالم، وأنّ الأموال قد أنفقت كلّها.

- أيّها السيّدات والسادة، إنّ ثروة دانكونيا -وهي أعظم ثروة على وجه البسيطة- لم تعد موجودة. فبدلًا من الفجر الذهبيّ لعصر جديد، أفلست دولة الشيلي والأرجنتين الشعبيّة وبين أيديهما أكوام من الأنقاض وحشود من العاطلين عن العمل.

- ولم يُعْثَر على أيّ دليل على مصير السيّد فرانسيسكو دانكونيا أو مكانه. لقد اختفى هو أيضًا، ولم يترك شيئًا خلفه ولا حتّى رسالة وداع.

شكرًا لك يا عزيزتي، شكرًا لك باسم آخر واحد متبقٍّ منّا حتّى إن أنت لم تسمعيه ولن تهتمّي بسماعه... لم تكن هذه الجملة صادرة عن داغني، بل مجرّد عاطفة تمور في وجدانها، موجّهةً إلى الوجه الضاحك لفتى كانت تعرفه في السادسة عشر من عمرها.

ثمّ لاحظت أنّها كانت متشبّثة بالراديو، كما لو أنّ النبض الكهربائيّ الخافت الذي يسري بذلك الجهاز ما يزال يحمل آخر قوّة حيّة على وجه الأرض، وقد سرت بضعَ لحظاتٍ وجيزة الآن فملأت الغرفة لكنّها كانت ميّتة في كلّ شيء آخر بالخارج.

ثمّ لاحظت صوتًا صادرًا عن جيم يشبه بقايا متناثرة بعيدة من حطام الانفجار. كان صوته يمتزج فيه الأنين والصراخ والتذمّر، ثمّ بدا منظر كَتِفَيْ جيم وهما تهتزّان وتحملان الهاتف وصوته المشوّه يندفعُ صارخًا:

- ولكن يا رودريغو لقد قلت إنّه كان آمنا. رودريغو... يا إلهي... هل تعرف كم أنا غارق في هذه المسألة؟

ثمّ رنّ هاتف آخر في مكتبه، وكان صوته يزمجر في سمّاعة أخرى، ويده ما تزال تمسك بالسمّاعة الأولى:

- اصمت يا أورين. ماذا ستفعل؟ أنا لا أهتمّ. عليك لعنة الله.

كان الموظّفون يهرعون إلى المكتب والهواتفُ ترنّ بالتناوب ضاجّةً بالمناشدات تارةً وبالشتائم تارةً أخرى، وكان جيم يصرخ في سمّاعة هاتف واحد:

- صِلوني بسانتياغو... اتّصلوا بواشنطن وصِلوني بسانتياغو.

كانت تستطيع أن تدرك اللعبة التي يخوضها هؤلاء الرجال من وراء تلك المكالمات الهاتفيّة الصاخبة. لقد بَدَوْا بعيدين جدًّا مثل فراشات صغيرة تتلوّى في فضاء حقل أبيض تحت عدسة مجهر. وتساءلت: كيف يمكن لهم توقُّع أن يُؤخَذوا على محملّ الجدّ عندما يكون فرانسيسكو دانكونيا موجودًا على الأرض.

ثمّ لاحظت وهجَ الانفجار في كلّ وجه التقت به خلال بقيّة اليوم، وفي كلّ وجه مرّت به في ظلام الشوارع ذلك المساء. واعتقدت أنّ فرانسيسكو إذا كان يريدُ محرقة جنائزيّة لائقة بشركة دانكونيا للنحاس، فإنّه نجح في ذلك أيّما نجاح. ها هي تمشي الآن في شوارع مدينة نيويورك، تلك المدينة الوحيدة الموجودة على وجه الأرض، المدينة التي ما تزال قادرة على فهمها في وجوه الناس، وفي همساتهم، تلك الهمسات الحادّة التي تشبه الألسنة الصغيرة من النار، وتلك الوجوه التي كانت تنيرها نظرة هادئة ومحمومة في الآن نفسه، بظلال تعبيرات تبدو كأنّها تتأرجح وتتماوج، كأنّما ألقاها لهبٌ بعيدٌ، بعضها خائف، وبعضها الآخر غاضب، ومعظمها مضطرب وغير متأكّد من ترقُّب شيء مّا، لكنّها جميعًا تعترف بحقيقة تتجاوز الكارثة الصناعيّة بكثيرٍ، وكلّها تدرك ما تعنيه تلك الكارثة، وإن لم تذكر أيّ واحدة منها معناها، وحملت كلّها لمسةً من الضحك والتسلية والتحدّي، ضحك مرير لضحايا هالكين يشعرون بتحقّق الانتقام لهم.

رأت داغني ذلك في وجه هانك ريردن عندما قابلته ذلك المساء. فبينما كانت قامته الطويلة الواثقة تسير نحوها، وكانت شخصيّته في إطار ذلك المطعم المميّز المكلف هي الشخصيّة الوحيدة التي بدت مرتاحة وكأنّها في المنزل، رأت نظرة الشغف فيه وهي تحارب ملامحه المجهدة، مثل نظرة فتًى صغير ما يزال منفتحًا على سحر غير متوقّع. لم يحدّثها حينها عن حدث ذلك اليوم، لكنّها علمت أنّ مشهد ذلك الحدث هو الصورة الوحيدة التي تعشّش في دماغه.

كانا يلتقيان كلّما جاء هانك إلى المدينة ليقضيا معًا أمسيات قصيرة ونادرة، مُتَسلّحَيْن بماضيهما الحيّ الذي ما يزال صلبًا، لكن من دون التطلّع إلى مستقبل أعمالهما أو نضالهما

المشترك، لكنّهما كانا يدركان أنّهما حليفان ويحصلان على الدعم من حقيقة وجود الواحد منهما بجانب الآخر.

لم يكن هانك يريد أن يذكر لها حدث ذلك اليوم، ولم يكن يريد التحدّث عن فرانسيسكو، لكنّها لاحظت، وهما جالسان حول الطاولة، أنّ جهد الابتسامة المقاومة ظلّ يشدّ تجاويف خدّيه. فعلمت من كان يقصد، عندما قال فجأة، بصوت ناعم ومنخفض، وبإيقاع من الإعجاب:

- لقد أوفى بقسمه، أليس كذلك؟

فسألته بذهول وقد تذكّرت ما كُتب على معبد أطلانطس:

- قسمه؟

- لقد سبق أن قال لي: أقسم بالمرأة التي أحبّها أنّني صديقك. وكان وفيًّا لقسمه.

- هو كذلك.

فهزّ هانك رأسه وقال:

- ليس لديّ الحقّ في التفكير فيه. وليس لديّ الحقّ في قبول ما فعله على أنّه دفاع عنّي. لكن...

ثمّ توقّف عن الكلام.

- لكنّ الأمر كذلك يا هانك. لقد كان يدافع عن كلّ واحد منّا. كان يدافع عنك بالخصوص.

فنظر هانك بعيدًا إلى خارج المدينة. كانا يجلسان بأحد جوانب القاعة، ولا تفصلهما عن المدينة سوى طبقة من الزجاج كانت بمثابة حماية غير مرئيّة في مواجهة اكتساح الفضاء والشوارع التي تقع على مستوى ستّين طابقا أسفلهما. كانت المدينة تبدو بعيدةً بشكل غير طبيعيّ. تبدو مسطّحة تحت مجموعة من الطوابق. وعلى بعد مبانٍ قليلة

منهما، غمر الظلام البرج، وبدا التقويم معلّقًا على مستوى وجهيهما، فلم يكن مثل ذلك المستطيل الصغير المزعج كما تعوّدت أن تراه من بعيد، ولكنّه بدا مثل شاشة هائلة قريبة على نحو مخيف، مغمورة بوهج ضوء أبيض مميت، وقد غمرها شريط فارغ برزت من خلاله حروف: الثاني من أيلول / سبتمبر.

فقال هانك بلامبالاةٍ:

- إنّ شركة ريردن للفولاذ تعمل الآن بكامل طاقتها. وأعتقد أنّهم رفعوا حصصَ إنتاج مصانعي للدقائق الخمس القادمة. لا أعلم عدد لوائحهم الخاصّة التي عُلِّقَتْ، ولا أعتقد أنّهم يعلمون ذلك أيضًا، بل أظنّ أنّهم ما عادوا يكلّفون أنفسهم حتّى عناء تتبّع شرعيّة تطبيق قوانينهم، فأنا متأكّد من أنّني منتهك للقانون وفق خمس تُهَمٍ أو ستٍّ لن يستطع أحد إثباتها أو دحضها. وكلّ ما أعلمه هو أنّ عصابات اللحظة أعلموني بأنّني يجب أن أعمل بكامل قوّتي.

ثمّ انتفض وأضاف:

- عندما يطرده رجل عصابة آخر غدًا، من المحتمل أن أغلق مصنعي كعقاب على العمليّات غير القانونيّة التي أديرها. لكن وفق الخطّة الحاليّة، وفي جزء من الثانية، توسّلوا إليّ أن أحافظ على صبّ معدني وفق أيّ قدر وبأيّ وسيلة اختارها.

ثمّ انتبهت داغني إلى النظرات الخفيّة والعرضيّة التي كان الناس يلقونها في اتّجاههما، وقد لاحظت ذلك منذ بثّ خطابها الإذاعيّ، ومنذ ظهورهما في الأماكن العامّة. فبدلًا من نظرة العار التي خَشِيَهَا، كان هناك جوّ من الريبة المروّعة في طريقة الناس، تلك الريبة التي حفّت بمبادئهم الأخلاقيّة الخاصّة، والرهبة من وجود شخصين امتلكا الجرأة على أن يكونا متأكّدين من أنّهما على حقّ. كانت نظرة الناس إليهما مَشُوبَةً بالفضول القلق، والحسد، والاحترام، والخوف من مخالفة أمر مجهول، والإساءة بفخرٍ إلى معيار صارم. وكانت الفئة الأولى تعتذر سرًّا وهي تقول: «اغفرا لنا، فنحن متزوّجون». أمّا الفئة الثانية فكانت تكنُّ لها الحقد والكراهية، وفي مقابل ذلك كانت

الفئة الثالثة تعبّر عن إعجابها بداغني.

ثمّ سألها فجأة:

- داغني، هل تتوقّعين أنّه موجود في نيويورك؟

- لا أتصوّر ذلك. لقد اتّصلت بفندق واين فوكلاند وأخبروني بأنّ عقد إيجار جناحه انتهى منذ شهر، وأنّه لم يجدّده.

فردّ وهو يبتسم:

- بالتأكيد إنّهم يبحثون عنه في جميع أنحاء العالم، لكنّهم لن يجدوه أبدًا.

ثمّ اختفت ابتسامته، وتحدّث بنبرة جادّةٍ:

- ولا أنا أيضًا. حسنا، الطواحين تعمل، لكنّني لست على ما يرام. فأنا لا أفعل شيئا سوى الركض حول البلاد مثل الزبّال، أبحث عن الطرق غير القانونيّة لشراء الموادّ الخام. وتعوّدت على الاختباء والكذب فقط من أجل الحصول على بضعة أطنان من الخام أو الفحم أو النحاس. فهم لم يرفعوا الحظر عن المواد الأوّليّة التي أحتاج إليها. إنّهم يعلمون أنّني أصبّ المعدن وأنتج منه أكثر من الحصص التي حدّدوها لي، لكنّهم لا يكترثون لهذا الأمر.

ثمّ أضاف:

- ربّما يعتقدون أنّني أكترث لهذا الأمر.

- هل أنت متعب يا هانك؟

- بل أرهقني الملل حتّى التعب.

وتذكّرت داغني الزمن الذي كان فيه عقله يمنحه مهمّة المنتِج الذي يبتكر طرقًا أفضل للتعامل مع الطبيعة، أمّا الآن فقد تحوّل إلى مهمّة المجرم الذي يتحايل على الناس. فتساءلت عن المدى الزمنيّ الذي يمكن فيه للإنسان أن يتحمّل تغيرا من هذا

النوع.

فقال هانك بلامبالاةٍ:

- لقد أصبح من المستحيل تقريبًا الحصول على خام الحديد.

ثمّ أضاف بصوت حيويّ على نحو مفاجئ:

- والآن سيصبح من المستحيل تمامًا الحصول على النحاس.

ثمّ أخذ يقهقه. فتساءلت داغني في أغوار ذاتها عن المدى الزمنيّ الذي يمكن فيه للإنسان أن يواصل العمل ضدّ نفسه، وأن يعمل لا طمعا في النجاح بل في الفشل.

ثمّ فهمت تماسك أفكاره عندما قال:

- لم يسبق قطّ أن أخبرتك بأنّني قابلت راجنار دانيسكولد.

- لقد أخبرني شخصيًّا بهذا الأمر.

- ماذا؟ أين حصل ذلك؟

ثمّ توقّف قليلًا، وأضاف بصوت متوتّر ومنخفض:

- بالطبع. لا شكّ أنّه سبق لك أن قابلت واحدًا منهم. داغني، كيف يبدو هؤلاء الناس الذين.. لا، لا تجيبي...

ثمّ أضاف بعد لحظةٍ:

- أنا التقيت بواحد من عملائهم.

- بل التقيتَ باثنين منهم.

وكان ردّه امتدادًا من السكون الكلّيّ. فقال بصوت خافت:

- بطبيعة الحال.. كنت أعرف ذلك.. كلّ ما في الأمر هو أنّي لم أكن قادرًا على الاعتراف بذلك لنفسي.. لقد كان الآخر وكيل انتداباتهم، أليس كذلك؟

- كان واحدا من أفضل المقرّبين إليك.

فضحك بصوت اختلطت فيه المرارة بالشوق:

- في تلك الليلة... عندما تحصّلوا على كين داناغير... لقد ظننتُ أنّهم لم يرسلوا أحدًا ليتقفى خطواتي...

وبذل جهدا كبيرا حتّى يجعل وجهه متصلّبًا. وبعد حين قال بهدوء:

- داغني، أتذكرين موضوع السكك الحديديّة الجديدة الذي ناقشناه في الشهر الماضي... لا أعتقد أنّني سأكون قادرًا على إنجازها. فهم لم يرفعوا قوانينهم عن إنتاجي، ومازالوا يسيطرون على مبيعاتي ويتصرّفون، كما يحلو لهم، في معدني. لكنّ الدفاتر تسجّل في مثل هذه الفوضى أنّني أهرّب كلَّ أسبوع بضعة آلاف الأطنان إلى السوق السوداء. وأعتقد أنّهم يعلمون ذلك ويتظاهرون بأنّهم لا يعلمون. إنّهم لا يريدون معاداتي الآن، ولكن، كما ترين، لقد كنت أشحن كلّ طن يمكنني انتزاعه بغاية توفيره لبعض العملاء الذين يعيشون ظروفًا صعبة. داغني، لقد كنت في ولاية مينيسوتا خلال الشهر الماضي وشاهدت ما يجري هناك. ستشهد البلاد مجاعة في هذا الشتاء، وليس في السنة القادمة، وذلك ما لم يتدخّل بسرعة. إذ لا توجد احتياطات للحبوب في أيّ مكان خصوصًا بعد انهيار ولاية نبراسكا، وتحطّم ولاية أوكلاهوما، والتخلّي عن ولاية داكوتا الشماليّة، واحتضار ولاية كانساس التي يبدو أنّها تقاوم من أجل البقاء على قيد الحياة. ولن يكون القمح متوفّرًا هذا الشتاء سواء لمدينة نيويورك أو لأيّ مدينة من المدن الشرقيّة. وستبقى ولاية مينيسوتا هي مخزن الحبوب الأخير الذي نتوفّر عليه. والمزارعون عانوا على امتداد سنتين متتاليتين، لكن لديهم محصول كبير لهذا الخريف، ويجب أن يكونوا قادرين على حصاده. فهل سنحت لك الفرصة لإلقاء نظرة على حالة صناعة المعدّات الزراعيّة؟ هم ليسوا بالحجم الكافي، لمنع موظّفي العصابات الفعّالة في واشنطن أو لدفع النسب المئويّة لباعة السحب المتجوّلين. لذلك لم يحصلوا على الكثير من الموادّ المخصّصة لهم وأغلق ثلثهم مزارعه، أمّا البقيّة فإنّها

ستسلك الدرب نفسه. وجلّ المزارع تنهار في جميع أنحاء البلاد بسبب النقص الحادّ في المعدّات. كان يجب عليك رؤية هؤلاء المزارعين في ولاية مينيسوتا وهم يهدرون مزيدًا من الوقت في إصلاح الجرّارات القديمة التي لا يمكن أن تعمل مجدّدًا. ولا أعلم كيف تمكّنوا من البقاء على قيد الحياة حتّى الربيع الماضي، كما لا أعلم كيف تمكّنوا من زرع القمح رغم كلّ الظروف الصعبة التي واجهوها.

لاحت بوجهه ملامح من الشدّة كما لو أنّه يتأمّل مشهدًا نادرًا ومنسيًّا، مشهدَ هؤلاء البشر، وكانت داغني تعرف الدافع الذي ما يزال يجعله يحتفظ بوظيفته.

- داغني، يجب أن يحصل المزارعون على معدّات الحصاد. وكلّ المعادن التي نجحت في سرقتها من مطاحني كنت أبيعها بالدَّين إلى مُصنِّعِي معدّات الحصاد. وكانوا يرسلون المعدّات إلى ولاية مينيسوتا في أسرع وقت ممكن. ويبيعونها بالطريقة ذاتها، أي بشكل غير قانونيّ وبالدَّين. ولكنّهم سيدفعون، لهم ولي، في هذا الخريف. أيّ جحيم هذا! إنّهم يريدون الصدقات. أمّا نحن فنساعد المنتجين، لأنّهم هم المنتجون العنيدون والمتماسكون. ولا نساعد المستهلكين الناهبين، المستهلكين الأنذال. إنّنا نمنح القروض، ولا نعطي الهبات والصدقات. وندعم القدرة لا الحاجة. سأكون ملعونًا إذا بقيت مكتوف اليدَين، وتركت هؤلاء المزارعين يهلكون بينما يزداد باعة السحب المتجوّلون ثراءً.

كان يتأمّل صورةً لمشهد رآه في ولاية مينيسوتا، مشهد مصنع مهجور يحمل لافتة كُتِبَ عليها: شركة وارد للآلات الحاصدة. وقال:

- أوه، أعرف أنّنا سننقذهم في هذا الشتاء، لكنّ اللصوص سيلتهمونهم في السنة القادمة. ومع ذلك، سننقذهم في هذا الشتاء... حسنًا، هذا هو السبب الذي يجعلني غير قادرٍ على أن أهرّب لك أيّ واحدة من السكك الحديديّة. ولن يتمّ ذلك في المستقبل القريب، ولم يتبقَّ لنا من شيء سوى المستقبل القريب. لا أعلم ما نفع تغذية بلدٍ، إذا فقد سككه الحديديّة، ولكن ما نفع السكك الحديديّة حين لا يوجد طعام؟ وعلى أيّة

حال، أيّ فائدة سنجنيها عندما تحاصرنا المجاعة؟

- لا بأس يا هانك. نحن سنستمرّ في البقاء بمثل تلك السكك الحديديّة مثلما كنّا...

ثمّ توقّفت عن الكلام.

- مدّة شهر؟

- آمل أن نصمد حتّى فصل الشتاء.

ثمّ قطع صمتَهما، صوتُ صيحة حادّة وصلتهما من طاولة أخرى، فالتفتا فوجدا رجلا يشبه رجال العصابات، يُزمجر في وجه رفيقه المتجهّم:

- هذا فعل دمارٍ يعادي المجتمعَ في وقت يعاني فيه الجميع من نقص حادّ في النحاس.. لا يمكننا أن نسمح بهذا الأمر.

ثمّ التفت ريردن، وتحوّل فجأة إلى النظر بعيدًا صوب المدينة، وقال بصوت منخفض:

- أنا مستعدّ للتضحية بأيّ شيء مقابل معرفة مكانه الآن، وفي هذه اللحظة بالذات.

- وماذا ستفعل إذا عرفتَ مكانه؟

- لن أقترب منه. أمّا الثناء الوحيد الذي مازلت أستطيع تقديمه له فهو ألّا أبكي أمامه طلبًا للغفران في ظرف لا يمكن فيه طلب المغفرة.

وظلّا صامتين يستمعان إلى الأصوات من حولهما. ولم تكن داغني على علم بأنّ الحضور نفسَه يستطيع البروز كضيفٍ غير مرئيّ بكلّ طاولة، وأنّ الموضوع ذاته ظلّ يخترق محاولات أيّ محادثة أخرى. لقد جلس الناس بطريقة لا تشبه جلسة التذلّل، بل كما لو أنّهم وجدوا القاعة كبيرة ومكشوفة جدًّا. كانت قاعة انسجم فيها الزجاج المخمليّ الأزرق بالألومنيوم والإضاءة اللطيفة. وبدا الناس كما لو أنّهم قدموا إلى تلك القاعة مقابل ثمن التهرّب الذي لا يعدّ ولا يحصى، لمساعدتهم على التظاهر بأنّ تهرّبهم

كان وجودًا حضاريًّا وما يزال كذلك، لكنّ فعل عنف بدائيّ فجّر طبيعة عالمهم علنًا وهم لم يعودوا قادرين على الإبصار.

وكان من بين الحاضرين امرأة تتساءل في رعب شديد:

- كيف يمكنه فعل ذلك؟ وكيف قدر عليه؟ ليس له الحقّ في فعل ذلك.

فردّ عليها شابّ بصوت متقطّع ورائحة كشوف الرواتب العامّة تفوح منه:

- لقد كان حدثا عرضيًّا. إنّها سلسلة من الصدف، ويمكن لأيّ منحنى إحصائيّ من الاحتمالات أن يثبت ذلك بسهولة، فمن غير الوطنيّ نشر الشائعات عن قوّة أعداء الشعب.

ثمّ قالت امرأةٌ بنبرةِ معلّمةٍ في فصل دراسيّ:

- إنّ الحديث عن الحقّ والباطل لَهُوَ شيء من المستحسن طرحه في المحادثات الأكاديميّة، لكن كيف يمكن لأيّ شخص أن يأخذ أفكارَه بما يكفي من الجدّ لتدمير ثروة عندما يكون الناس في حاجة إليها؟

وكان رجل عجوز يقول بارتجاف مرٍّ:

- أنا لا أفهم كيف حدث هذا بعد قرونٍ من الجهود لكبح جماح وحشيّة الإنسان الفطريّة، وبعد قرون من التعليم والتدريب وتلقين العقيدة بلطف وإنسانيّة.

ثمّ ارتفع صوت حائر لامرأة على نحو متأخّر ومريب:

- كنت أعتقد أنّنا نعيش في عصر الأخوّة...

وكانت هناك فتاة شابة ما انفكّت تكرّر:

- أنا خائفة، أنا مرعوبة... أوه، أنا لا أعرف... أنا فقط خائفة...

- لا يمكن أن يكون قد فعل ذلك.

- بل فعل.

- لكن لماذا؟

- لا أستطيع تصديق هذا الأمر.

- إنّه كائن غير بشريّ.

- لكن لماذا؟

- إنّه مجرّد رجل مستهتر، رجل بلا قيمة.

- لكن لماذا؟

وحين كانت إحدى النساء تصرخ بشكل مهموس، كانت داغني تتأمّل المدينة، وكان التقويم يدار من قبل آليّة في غرفة مغلقة وراء الشاشة، يطوي الشريط نفسه سنةً بعد سنة وينشر التواريخ في دوران ثابت، وفق إيقاع لا يتغيّر، إيقاع لا يتبدّل إلّا مع دقّات منتصف الليل. وسرعة التفاتة داغني أعطتها الوقت لترى ظاهرة غير متوقّعة كما لو أنّ كوكبًا عكس مداره في السماء: لقد رأت عبارة «الثاني من سبتمبر» تتحرّك صعودًا وتختفي وراء حافّة الشاشة.

ثمّ كتبت في تلك الصفحة الهائلة عبارةٌ أوقفت الزمن، كرسالة أخيرة إلى العالم وإلى نيويورك بوصفها محرّك العالم، فرأت داغني السطور الحادّة والمتعنّتة التي نقشت بخطّ اليد:

أخي، هذا كلّ ما طلبته.

فرانسيسكو دومينغو كارلوس سيباستيان دانكونيا.

ولم تعرف داغني أيَّ صدمة كانت أعظم، أَهِيَ رؤية الرسالة أم صوت ضحك ريردن. كان ريردن واقفًا على قدميه وكلّ حواسّه واعية بما يدور من حوله، لقد أبصر ما حدث في القاعة خلفه وسَمِعَه، وأخذ يضحك على أنين ذعرهم، يضحك وكأنّه يُلقي تحيّة كشكل من أشكال قبول الهديّة التي حاول رفضها لأنّها كانت تمثّل الارتياح والانتصار والاستسلام.

***

في مساء اليوم السابع من سبتمبر انقطع سلكٌ من النحاس في ولاية مونتانا، فأوقف عمل محرّك رافعة تحميل كانت تقع على مسار فرعيّ من مسارات شركة تاجارت العابرة للقارّات بجانب منجم النحاس بمدينة ستانفورد.

وكان المنجم قد اشتغل بلا انقطاع على مدى ثلاث ورديّات، امتزجت فيها الأيّام بالليالي وفق امتداد واحد من النضال من أجل ألّا تضيع أيّ لحظة، أو ذرّة من النحاس يمكن توفيرها من خلال الضغط على رفوف الجبل لخدمة الصحراء الصناعيّة للأمّة. وتعطّلت الرافعة أثناء أدائها مهمّةَ تعبئة أحد القطارات؛ توقّفت فجأة، وظلّت حمولتها معلّقة في سماء ذلك المساء، بين سلسلة من العربات الفارغة وأكوام من الخام غير المنقولة.

فتوّقف رجال السكك الحديديّة وعمّال المنجم عن العمل وهم في حالة من الذهول والحيرة. لقد استنتجوا أنّه لا يوجد في خضمّ تعقيدات معدّاتهم التي اشتملت على آلات الحفر، والمحرّكات، وأبراج الحفر، وعدّادات القياس الدقيقة، والأضواء الكاشفة الثقيلة التي كانت تغطّي بنورها حُفَر الجبل ونتوءاته، سلكٌ لإصلاح الرافعة. فتوقّفوا عن العمل مثل أناس على متن سفينة عابرة للمحيطات تدفعها مولّداتٌ بقوّة عشرة آلاف حصان، لكنّها كانت بصدد الهلاك لعدم وجود دبّوس أمان.

فعمد وكيل المحطّة -الشابّ ذو الجسد السريع والصوت الخشن- إلى نزع الأسلاك من مبنى المحطّة وتشغيل الرافعة مجدّدًا. وبينما كان الخام يتناثر ليملأ العربات، كان ضوء الشموع يرتجف في ساعة الغروب من خلال نوافذ المحطّة.

فقالت داغني على نحو متجهّم وهي تغلق درج ملفّها الخاصّ:

- اتّصل بولاية مينيسوتا، يا إيدي، وأخبر قسمنا هناك بشحن نصف حصصهم من الأسلاك إلى ولاية مونتانا.

- يا إلهي، ماذا يحدث يا داغني؟ هل سنفعل ذلك وذروة موسم الحصاد تقترب...

- أعتقد أنّهم سيتمكّنون من الصمود خلال تلك الفترة. فنحن لا نجرؤ على خسارة موردٍ واحد من النحاس.

فصاح جيمس تاجارت، عندما ذكّرته أخته بالأمر مرّة أخرى:

- ولكن لديّ نحاس... لقد حظيت بأولويّة الحصول على الأسلاك النحاسيّة، وكنت أوّل مُطالبٍ بحصص تموينية ذات المستوى العالي، ووفّرت كلّ الأوراق والشهادات والوثائق والمستندات وطلبات الشراء، فماذا تريدون منّي أكثر؟

- نريد توفير الأسلاك النحاسيّة.مكتبة سُر مَن قرأ

- لقد فعلتُ كلّ ما في وسعي! ولا أحد ينبغي أن يُلقي اللوم عليَّ.

فلم تجادله داغني أكثر في ذلك الموضوع، بل ظلّت تحدّق في صحيفة بعد الظهر التي تستلقي على مكتبه، وكانت مركّزة على فقرة كُتِبَتْ على الصفحة الخلفيّة تقول: لقد وقع تمرير قانون فرض ضريبة حالة الطوارئ في ولاية كاليفورنيا لإغاثة العاطلين عن العمل بمقدار خمسين في المائة، ستدفع من الدخل الإجماليّ لأيّ شركة محلّيّة قبل الضرائب الأخرى؛ فشركات النفط في كاليفورنيا توقّفت عن العمل.

وبعيدًا من مبنى شركة تاجارت، وردت مكالمة من مكتب هانك ريردن في واشنطن.

- لا تقلق يا سيّد ريردن.

هكذا ردّ صوت متملّقٌ على خطّ الهاتف القادم من واشنطن، وأضاف:

- لقد أردت فقط أن أؤكّد لك أنّه ليس ثمّة ما يدعو إلى القلق.

فسأله ريردن بدهشة:

- القلق... من ماذا؟

- من ذلك الارتباك المؤقّت الحاصل في ولاية كاليفورنيا. سنسوّي الأمر في القريب العاجل، لقد كان ذلك عملًا من أعمال العصيان غير القانونيّة، فهو لم يصدر من

الحكومة، ثمّ إنّهم لا يملكون الحقّ في فرض ضرائب محلّيّة ضارّة بالضرائب الوطنيّة. وسنتفاوض على إعداد ترتيب عادلٍ على الفور، ولكن في أثناء ذلك، إذا كنت منزعجًا من أيّ شائعات غير وطنيّة حول شركات النفط في كاليفورنيا، فإنّني أودّ إعلامك بأنّ معدن ريردن قد صنِّف في اللّائحة الأولى من الحاجات الضروريّة، وضمن المطالب الأولى على النفط المتاحة في أيّ مكان من الوطن. إنّه ضمن أعلى فئة يا سيّد ريردن. وأردتك فقط أن تعلم أنّه لا يوجد داعٍ إلى القلق بشأن مشكلة الوقود في هذا الشتاء.

فأقفل ريردن سمّاعة الهاتف وهو عابسٌ. هو لم يكن منشغلًا بمشكلة الوقود وبنهاية حقول النفط في ولاية كاليفورنيا، لأنّ مثل هذه الكوارث أصبحت مألوفة واعتياديّة، لكنّه كان مهتمًّا بحقيقة أنّ مخطّطي واشنطن وجدوا أنّ من الضروري كسب ودّه واسترضائه. وكان ذلك أمرًا جديدًا لم يَعْتَدْ عليه بعد، فتساءل عمّا يعنيه. لقد تعلّم، خلال سنوات نضاله أنّ التعامل مع الأعداء لم يكن يومًا بالأمر الصعب، ولكن من الواضح أنّ الاهتمام غير المبرّر كان خطرًا قبيحًا. وقد انتابه التساؤل نفسه مرّة أخرى، وهو يسير في الزقاق بين هياكل طواحينه، فرأى خيالًا متراخيًا جمعت هيئته بين جوٍّ من الوقاحة ومن توقّع التعرّض للضرب: إنّه شقيقه فيليب.

منذ أن انتقل للسكن بمدينة فيلادلفيا، لم يزر هانك ريردن منزلَه السابق ولم يسمع أيّ كلمة عن عائلته التي استمرّ في دفع فواتيرها. لكنّه ضبط فيليب وهو يتجوّل بين طواحينه، من دون سبب واضح وعلى نحو غير مفهوم، وقد حدث ذلك في مناسبتين خلال الأسابيع القليلة الماضية. وكان هانك غير قادر على معرفة ما إذا كان فيليب يتسلّل ليتجنّب مواجهته أو أنّه ينتظر لفتَ انتباهه. ويبدو أنّ كلا السببين كانا وراء سرّ تلك الزيارات. لكنّ هانك لم يكن قادرًا على اكتشاف أيّ مؤشر يفسّر هدف فيليب، بل لاحظ فقط بعض عناية غير مفهومة واهتمام المفرط لم يبدِهما فيليب من قبل.

ففي المناسبة الأولى، سأل هانك فيليب بذهول:

- ماذا تفعل هنا؟

فردّ فيليب على نحو غامض:

- حسنا، أعرف أنّك لا تحبّ أن أزورك في مكتبك.

- ماذا تريد؟

- أوه، لا شيء... لكن.. حسنا، أمّي قلقة عليك.

- لكنّ أمي تستطيع الاتّصال بي في أيّ وقت تشاء.

غير أنّ فيليب لم يردّ، وواصل سؤاله عن عمله، وصحّته، وتجارته بطريقة عرضيّة وغير مقنعة. وظلّت أسئلته تتجاهل لبّ الموضوع، فهي لم تكن تصبّ في خانة السؤال عن عمل ريردن، بل تصبّ أكثر في خانة مشاعره تجاه عمله. فقطع ريردن الحوار معه وطرده. وقد أزعجه كثيرًا هذا اللقاء، لأنّه لم يجد له أيّ تفسير.

وفي المناسبة الثانية، قال فيليب مفسّرًا سبب قدومه إلى المصنع:

- نحن نريد فقط أن نعرف مَا تشعر به.

- ومَن تقصد بـ«نحن»؟

- ومَن سيكون؟ أنا وأمّي نمرّ بأوقات عصيبة... حسنا، أمّي تريد أن تعرف ما تشعر به حيال كلّ شيء.

- أخبرها بأنّني لا أشعر بأيّ شيء.

أصابت الكلمات فيليب بطريقة غريبة، وبدت كأنّها الإجابة الوحيدة التي كان يخشاها. فأمره ريردن وقد سأم أمره:

- اُخرج من هنا. وإذا أردت مقابلتي مجدّدًا، فعليك أن تأخذ قبل ذلك موعدًا، وأن تقصدني في مكتبي، لكن لا تحاول مقابلتي إلّا إذا كان لديك شيء تقوله، فهذا ليس مكانًا يناقش فيه المرء مشاعره، سواء أكانت مشاعري أم مشاعر أيّ شخص آخر.

لم يكن فيليب قد ضرب موعدًا هذه المرّة، لكنّه ضبطه هناك مرّة أخرى، وهو يترنّح

بين الأشكال العملاقة للأفران، بجوّ من الشعور بالذنب والتكبّر معًا كما لو أنّه كان يسترق النظر أو يتطفّل على الأحياء الفقيرة.

صاح فليب على عجل، ردًّا على العبوس الغاضب الذي بدا على وجه ريردن:

- لكن لديّ شيء أقوله! حقًّا أريد أن أقول لك شيئا.

- لماذا لم تأتِ إلى مكتبي؟

- أنت لا تريد مقابلتي في مكتبك.

- ولا أريد مقابلتك هنا أيضًا.

- ولكن أنا فقط أحاول أن أكون متفهّمًا ومراعيا لمشاعر الآخرين، ولا أريد إضاعة وقتك عندما تكون مشغولًا جدًّا وأنت... مشغول جدًّا، أليس كذلك؟

- ثمّ ماذا بعد ذلك؟

- حسنا، أردت فقط اللحاق بك في لحظة فراغ ... لأتحدّث معك.

- عن ماذا؟

- أنا.. حسنا، أنا بحاجة إلى وظيفة.

قال ذلك على نحو عدوانيٍّ وتراجع قليلًا بينما وقف ريردن وهو ينظر إليه بذهول.

- هانك، أريد وظيفة. أعني... أريد أن أعمل عندك في المطاحن. أريدك أن تعطيني شيئًا أفعله، فأنا في حاجة إلى وظيفة، وإلى كسب لقمة العيش بعرق جبيني. لقد سئمتُ العيش على الصدقات.

كان يتأهّب لقول شيء مّا، فامتزج في صوته التكدّرُ والتذرّعُ، كما لو أنّه أُكْرِهَ على تبرير توسّله:

- أريد رزقًا خاصّا بي، فأنا لا أطلب منك صدقة، بل أطلب أن تعطيني فرصة.

- يا فيليب، هذا مصنع، وليس محلّ قمار.

- آه؟

- إنّنا لا نغتنم الفرص أو نعطيها.

- أنا أطلب منك أن تمنحني وظيفة.

ولماذا يجب عليّ فعل ذلك؟

- لأنّني في أمسّ الحاجة إليها.

فأشار ريردن إلى حمم ألسنة اللهب الحمراء التي كانت تندفع من أحد الأفران في قالب أسود، تندفع بأمانٍ في الفضاء الذي يمتدّ على بعد أربعمائة قدم من الطين والصلب والبخار لتجسّد فكر مَن كان يشرف عليها.

- لقد كنت ذات زمن في حاجة إلى هذا الفرن، يا فيليب، لكن ليست حاجتي هي ما أعطاني إيّاه.

فتصرّف فيليب كما لو أنّه لم يسمعه وقال:

- لا يفترض بك رسميًّا توظيف أيّ شخص، ولكنّ موضوع الانتدابات مجرّد أمرٍ تقني بيروقراطيّ. هو مجرّد حبر على ورق. وإذا كنت ستوظّفني فإنّ أصدقائي سيوافقون على ذلك من دون أيّ مشكلة و...

كان هناك شيء في عيني ريردن جعله يتوقّف عن الكلام فجأة، ثمّ سأله بصوت غاضب وقد نفد صبره:

- حسنا، ما الأمر؟ وما الخطأ في ما قلته؟

- الخطأ يكمن في ما لم تقله.

- عذرًا، هلّا فسّرت لي ما تعنيه؟

- أعني أنّ الخطأ يكمن في ما تحاول إخفاءه.

- ماذا؟

- أعني أنّك لن تفيدني في أيّ شيء على الإطلاق.

- هل هذا ما...

بدأ فيليب كلامه بنوع من الصواب التلقائيّ، لكنّه توقّف ولم ينهِهِ.

فردّ ريردن وهو يبتسم:

- نعم، هذا ما أفكّر فيه أوّلًا.

كانت عينا فيليب تنظران بعيدًا؛ وعندما تكلّم، بدا صوته وكأنّه يندفع كالسهم صوبَ جمل عشوائيّة وضالّة فقال:

- لكلّ شخص الحقّ في كسب رزقه... فكيف سأحصل عليه إذا لم أحظَ بالفرصة؟

- وكيف حظيت أنا بهذه الفرصة؟

- أنا لم أولد وفي ملكيّتي مصنع للفولاذ.

- وهل كنتُ كذلك؟

- إذا كنت ستعلّمني فإنّ في وسعي فعل أيّ شيء يمكنك إنجازه.

- ومن علّمني أنا؟

- لماذا تستمرّ في قول ذلك؟ فأنا لا أتحدّث عنك.

- أمّا أنا فمن حقّي الحديث عن ذلك.

وبعد لحظة تمتم فيليب قائلا:

- ما الذي يقلقك في هذا الأمر؟ فنحن لا نناقش مصدر رزقك.

فأشار ريردن إلى خيالات الرجال التي كانت تحت أشعّة الأفران البخاريّة:

- هل بإمكانك أن تنجز مثل هذا العمل؟

- لم أفهم ما تلمّح إليه.

- ماذا سيقع لو وضعتك هناك وخرّبت حرارة فولاذي؟

- أنت تُؤْثِر سكبَ فولاذك اللعين على لقمتي.

- وكيف يفترض بك أن تقتات إذا لم يُسْكَب الفولاذ؟

وكانت تظهر على محيّا فيليب عبارات الاستياء، ثمّ قال:

- لست في وضعٍ يسمح لي بالجدال معك الآن، ليس فقط لأنّك تسيطر على الوضع، بل لأنّك تملك أيضًا اليد الطولى هنا.

- لا تجادلني إذَن.

- آه؟

- أُصمت، واخرج من هنا.

- لكنّني كنت أعني...

ثمّ توقّف عن الكلام. فضحك ريردن وقال:

- هل كنت تعني أنّي أنا من يجب عليه أن يخلد للصمت، لأنّني أملك اليد الطولى، ويجب أن أستسلم لك، لأنّك لا تملك أيّ يدٍ على الإطلاق؟

- هذه طريقة فجّة جدًّا للإعراب عن مبدإٍ أخلاقيّ.

- لكن هذا كلّ ما ترقى إليه قيمك الأخلاقية، أليس كذلك؟

- لا يمكنك مناقشة الأخلاق من ناحية مادّيّة بحت.

- يا فتى، نحن نناقش وظيفةً في مصنع للفولاذ. أليس هذا مكانا مادّيّا؟

كان فيليب يحاول ألّا يستسلم لواقعه، ثمّ قال:

- إنّه واجب أخلاقي يُسلّم به الجميع، بل هو متَّفَقٌ عليه كونيًّا في أيّامنا وعصرنا هذا. مبدأ يقول إنّ لكلّ إنسان الحقّ في العمل.

ثمّ ارتفع صوته وأضاف:

- وأنا أملك الحقّ في ذلك.

- وهل لأمثالك الحقّ في ذلك؟ هيّا إذَن، اجمع ما تطالب به.

- آه؟

- اجمع عملك والتقطه من الشجيرة التي تعتقد أنّه ينمو فيها.

- أعني...

- تعني أنّه ليس كذلك؟ تعني أنّك تحتاج إليها، لكنّك لا تستطيع خلقه؟ تعني... أنّك تطالب بعمل يجب عليّ أن أخلقه لك؟

- نعم!

- وماذا إذا لم أفعل؟

وخيّم الصمت بينهما برهةً من الزمن، ثمّ قال فيليب:

- أنا لا أفهمك.

كان في صوته حيرة وغضب رجلٍ يتلو عن ظهر قلب صيغًا لدور اختُبِر على نحو جيّد، لكنّه ما يزال يحصل على الإشارات الخاطئة في الإجابة:

- أنا لا أفهم السبب الذي يجعل المرء عاجزًا عن التحدّث إليك بعد الآن. ولا أفهم أيّ نوع من النظريّات أنت بصدد طرحه و...

- أوه نعم، بل أنت تفهمني على أحسن وجه.

فانفجر فيليب كما لو أنّه رفض الاعتقاد بأنّ صيغه فشلت وقال:

- ومتى كنت تعوّل على الفلسفة المجرّدة؟ فأنت مجرّد رجل أعمال، ولست مؤهّلًا للتعامل مع الأسئلة المتعلّقة بالمبادئ. يجب أن تترك هذا الأمر للخبراء الذين اعترفوا على مدى قرون...

- كفى يا فيليب. ما حيلتك؟

- حيلتي؟

- ومن أين أتاك هذا الطموح المفاجئ؟

- حسنا، في وقت مثل هذا...

- مثل ماذا؟

- حسنا، لكلّ إنسان الحقّ في أن يتمتّع ببعض وسائل الدعم... وألّا يُترَكَ بمفردهِ.. وعندما تكون الأمور غير مضمونة، يجب على المرء أن يحظى ببعض الأمن... وأن يحظى بموطئ قدم...أعني أنّه إذا حدث أيّ شيء لك، في وقت مثل هذا، فأنا لن يكون لي...

- وماذا تتوقّع أن يحدث لي؟

فصرخ، فكان صراخه أصيلًا على نحو غريب وغير مفهوم:

- أوه، لا أعلم.. لا أعلم.. ولا أتوقّع أن يحدث أيّ شيء.. هل تتوقّع حدوث أيّ شيء؟

- شيء مثل ماذا؟

- كيف لي أن أعرف؟ فأنا لا أملك شيئًا عدا المبلغ الزهيد الذي تعطيني إيّاه... وقد تغيِّر رأيك في أيّ وقت.

- قد أفعل ذلك.

- وأنا لا أملك مطلقًا أيّ سلطة عليك.

- لماذا استغرقت كلّ هذه السنوات لتدرك هذا الأمر؟ ولماذا يساورك القلق الآن بالذات؟

- لأنّك... تغيّرت... لقد تعوّدت على إبداء الشعور بالواجب والمسؤوليّة الأخلاقيّة، ولكنّك... فقدته. لقد فقدته، أليس كذلك؟

وظلّ ريردن يتأمّل ملامح أخيه في صمت. كان هناك شيء غريب في سلاسة تنقّل فيليب بين الأسئلة، كما لو أنّ كلماته عابرة وعرضيّة جدًّا، وأسئلته الملحّة على نحو خافت تمثّل مفتاحًا لهدفه. ثمّ انفجر فيليب فجأة:

- حسنا، سأكون مسرورًا بتخفيف العبء عن كاهلك إن كنت أشكّل عبئًا عليك. امنحني فقط عملًا، ولن يساورك القلق بشأني بعد الآن.

- أنا لست قلقًا عليك.

- وهذا ما أعنيه. أنت لا تهتمّ بنا. أنت لا تهتمّ بما سيحدث لأيّ منّا، أليس كذلك؟

- لمن سيحدث؟

- سيحدث لي ولأمّي... والبشريّة عموما. لكنّي لن أناشد ذاتك الفضلى. لأنّني أعلم أنّك مستعدّ للتضحية بي في أيّ لحظة، لذلك...

- أنت تكذب، يا فيليب، فليس هذا الأمر هو ما يقلقك فعلًا. ولو كان كذلك، لسعيتَ وراء الحصول على قدر كبير من المال، لا وراء الحصول على عمل...

فصاح فيليب، وجاء صياحه فوريًّا وشبه محموم:

- لا، بل أريد وظيفة. لا تحاول أن تشتري صمتي.. أريد وظيفة.

- تمالك نفسك أيّها الكائن الوضيع المسكين. هل تدرك ما تتفوّه به؟

فنفث فيليب إجابته التي شابتها الكراهية العاجزة:

- لا يمكنك التحدّث معي بهذه الطريقة.

- وهل يمكنك فعل هذا؟

- أنا فقط..

- أن أشتريك؟ لماذا يجب أن أحاول شراءك بدلًا من طردك، هذا ما كان يجب عليَّ فعله منذ سنوات؟

- حسنا، في نهاية المطاف، أنا أخوك.

- وماذا يعني ذلك؟

- يعني أن يشعر المرء بأخيه.

- حقًّا؟

فانتفخت أوداج فيليب بشدّة، ولم يجبه، بل انتظر، لكنّ ريردن تركه ينتظر. فتمتم فيليب:

- يُفترض بك.. على الأقل.. أن تراعي مشاعري.. لكنّك، وللأسف، لا تفعل.

- وهل تراعي أنت أيضًا مشاعري؟

- مشاعرك؟

ولم ترافق صوتَ فيليب مشاعرُ الحقد فقط، بل رافقتها مشاعر أسوأ من ذلك، لقد حمل صوته دهشةً ساخطة فقال:

- أنت إنسان بلا قلب. لا تشعر بأيّ شيء على الإطلاق. وأنت لم تعانِ البتّةَ.

كان الأمر أشبه بمجموعة من السنوات صفعت وجه ريردن بواسطة شعور مّا ورؤية معيّنة. وكان هذا الشعور هو نفسه الذي عاشه في مقصورة قاطرة المحرّك الأوّل على خطّ جون جالت، أمّا الرؤية فقد تضمّنت مراقبة عينَي فيليب الشاحبتين والمائعتين وهما تقدّمان أقصى حالة انحطاط بشريّ: بألم لا نزاع فيه، وفاحشة وقحة لهيكل عظميّ تجاه كائن حيّ، يطالبان بأن يكون ذلك الألم أسمى القيم. وكانت عينا

فيليب تتّهمانه بأنّه لم يتألّم مطلقًا، بينما يستحضر هو الليلة التي قضّاها في مكتبه عندما كانت مناجم خامه تسحب منه، ويستحضر لحظة توقيعه على شهادة الهديّة لتسليم معدن ريردن، وتذكّر أيضًا أيّام الشهر التي قضّاها في الطائرة وهو يبحث عن بقايا أشلاء جسد داغني. كانت عينا أخيه تقولان بازدراء تلقائيّ: أنت لم تتألّم قطُّ، بينما يتذكّر هو إحساس الافتخار بعفّته التي جعلته يقاوم تلك اللحظات، فرفض الاستسلام للألم، ذلك الإحساس الذي صنع حبّه وولاءه، ومعرفته أنّ الفرح هو هدف الوجود، وأنّ للفرح بابًا لا نتعثّر أمامه صدفة، بل هو ينجَز ويحقَّق، وأنّ فعل الخيانة يكمن في ترك رؤيته تغرق في مستنقع عذاب اللحظة. أنت لم تعانِ البتّة، ذلك هو ما أوحت به النظرة الميّتة من عينَي فيليب. أنت لا تشعر بأيّ شيء، لأنّ المعاناة هي الشعور، لا يوجد شيء اسمه الفرح، فما يوجد فقط هو الألم أو غياب الألم، فقط الألم أو لا شيء. فأنا أعاني وأتضوّر من المعاناة، بل أنا مصنوع من المعاناة المركّزة، ذلك هو نقائي وفضيلتي، أمّا نقاؤك وفضيلتك، يا من لا يتبرّم ولا يتضوّر ولا يشتكي، فتكمن في التخفيف من ألمي، فاقطع من جسدك الذي لا يعاني لترقّع جسدي، واقطع من روحك التي لا تشعر لتوقف روحي عن الشعور. وحينها سنحقّق المثاليّة النهائيّة، والانتصار على الحياة والعدم. لقد كان يرى طبيعة أولئك الذين لم يتراجعوا عن اتّباع المنادين بالإبادة والفناء. كان يرى طبيعة الأعداء الذين حاربهم طوال حياته.

فقال وصوتُه مثل شعاع من أشعّة الشمس المتسلّلة من مشرحة، صوت بسيط جافّ مثل الصوت اليوميّ لرجل أعمال، صوت الصحّة الموجّه إلى عدوٍّ لا يمكن للمرء أن يكنّ له شرف الغضب أو حتّى الرعب:

– فيليب، اخرج من هنا ولا تحاول أبدًا الدخول إلى هذه المطاحن مرّةً أخرى، لأنّني سأعطي الأوامر بمنعك من الدخول إلى هنا مجدّدا.

فردّ فيليب في غضبٍ حذر وبنبرة تهديد مؤقّت:

– حسنا... في نهاية المطاف، سأطلب من أصدقائي عملا وسأجبرك على قبول هذا

الأمر.

همّ ريردن بالذهاب، لكنّه توقّف واستدار لينظر إلى أخيه.

لم تتحقّق لفيليب لحظة إدراك الوحي المفاجئ من خلال التفكير، بل تحقّقت من خلال ذلك الإحساس المظلم الذي كان أسلوبه الوحيد من الوعي. لقد شعر بالرعب، وهو يضغط على حنجرته، ومعدته ترتجف، فكان يرى انتشار الطواحين، مع تدفّق ألسنة اللهب المتنقّل، ومغارف المعدن المذاب التي تبحر عبر الفضاء بكابلات دقيقة، والحفر المفتوحة بلون الفحم المتوهّج، والرافعات التي تتحرّك فوق رأسه، فتتقدّم ممسكة بأطنان من الفولاذ بقوّة مغناطيس غير مرئيّة. كان يعلم أنّه خائفٌ من ذلك المكان، خائف حدّ الموت، ولا يجرؤ على التحرّك من دون حماية أو إرشاد ذلك الرجل الذي يقف أمامه. ثمّ تطلّع إلى ذلك الجسد الطويل الذي يقف أمامه باستقامةٍ وثبات، ذلك الجسد صاحب العين التي لا تتزعزع، العين التي أبصرت من خلال الصخور واللهب فبَنَتْ ذلك المكان، ثمّ علم كيف يمكن لرجل، كان سيسعى إلى إجباره على قبول العمل الذي سيمنحه إيّاه أصدقاؤه، أن يسمح بسهولةٍ بمَيَلان دلوٍ واحدٍ من المعادن أكثر من ثانية قبل وقته أو السماح لرافعةٍ بإسقاط حمولتها بعيدًا عن هدفها بمقدار قَدَمٍ، فلن يتبقّى منه شيء حينها، وسيندثر من الوجود فيليب صاحب المطالب. كان ضمانه الوحيد يكمن في حقيقة أنّ عقله كان يفكّر في مثل تلك الأفعال، لكنّ عقل هانك ريردن لم يكن كذلك. فقال فيليب:

– لكن من الأفضل أن يبقى هذا الأمر ودّيًا.

– من الأفضل أن يبقى، بالنسبة إليك، ودّيًا.

قال ريردن ذلك وغادر المكان.

وعندما تأمّل صورة الأعداء الذين لم يفهمهم قطّ، قال ريردن في نفسه: إنّ البشر الذين يعبدون الألم ويقدّسونه هم أناس يؤلّهون الألم. قد يبدو ذلك وحشيًّا، ومع هذا فإنّ القيمة تعوزه بشكل غريب. فلم يشعر هانك بأيّ شيء، وكان الأمر أشبه بمحاولة

استدعاء عاطفة تجاه أشياء جامدة. إذ يمكن للمرء أن يهرب من الانزلاق أو يبني الجدران التي تنقذ منه أو يسحق، ولكنّ المرء لا يمكن أن يبدي أيّ غضب أو سخط أو انشغال أخلاقيّ بالحركات التي لا معنى لها والتي تصدر عن الكائن الميّت. كلّ ما يعتقده هانك أنّه كائن يعادي الحياة.

وقد صاحبه الشعور نفسه بالانفصال وعدم الاكتراث عندما جلس في قاعة محكمة فيلاديلفيا وشاهد الرجال وهم يؤدّون الحركات التي منحته الطلاق. كان يراقبهم وهم يقدّمون المرافعات ويتفوّهون بالعموميّات، ويتلون عن ظهر قلب عبارات غامضة من الأدلّة التي تنضح بالمكر والاحتيال، ويلعبون لعبة معقّدة تقوم على تمطيط الكلمات التي لم تنقل أيّ حقيقة أو أيّ معنى. لقد دفع لهم ليفعلوا ذلك، هو الذي لم يسمح له القانون بأيّ وسيلة أخرى غير تلك للحصول على حرّيّته، ولم يمنحه حقّ تقديم الوقائع والتماس الحقيقة، ذلك القانون الذي سلّم مصيره، لا لهدف القواعد الموضوعيّة المحدّدة، بل لرحمة تعسفيّة لقاضٍ ذي وجه ذابل ونظرة ذات مكرٍ فارغ.

لم تكن ليليان موجودة في قاعة المحكمة. حضر فقط محاميها الذي كان يؤدّي من حين إلى آخر إيماءات بطاقة عبثيّة تسمح بترك الماء يمرّ عبر أصابعه. وكلّهم كانوا يعرفون الحكم مسبّقا ويدركون أسبابه. فلم يكن هناك من سبب آخر دام منذ سنوات، بل لم تكن هناك معايير بينهما ما عدا النزوة. ويبدو أنّهم كانوا يعتبرونه امتيازًا شرعيًّا، فتصرّفوا وكأنّ الغرض من العمليّة ليس مداولة قضيّة، بل منحهم فرصًا للعمل، أو كأنّ وظائفهم تتلخّص في تلاوة الصيغ الملائمة من دون أيّ مسؤوليّة في معرفة ما ستحقّقه تلك الصيغ، وكأنّ قاعة المحكمة هي المكان الوحيد الذي تكون فيه أسئلة الصواب والخطإ في غير محلّها، ويكون فيه هؤلاء الرجال، بوصفهم المسؤولين عن تحقيق العدالة، ممثّلي الحكمة الكافية لمعرفة أنّه لا توجد عدالة على الإطلاق. لقد تصرّفوا مثل الهمج الذين يؤدّون طقوسًا صُمّمت لتحريرهم من الواقع الموضوعيّ.

واعتقد هانك أنّ سنوات زواجه العشر كانت بالفعل واقعًا حقيقيًّا، وأنّ هؤلاء هم الرجال الذين تولّوا سلطة التخلّص من ذلك الواقع، وتقرير ما إذا كان سيحظى

بفرصة أخرى لينعم بالسعادة على الأرض أم سيحكم عليه بالعذاب في ما تبقّى من حياته. وتذكّر على نحو بسيط الاحترام الشديد الذي كان يشعر به تجاه عقد زواجه، وتجاه جميع عقوده وجميع التزاماته القانونيّة، ولاحظ نوع الشرعيّة التي يتوقّع أن يخدمها احترامه الدقيق.

ولاحظ أنّ دمى قاعة المحكمة كانت تنظر إليه بطريقة فطنة وحكيمة مثل طريقة زملائه المتآمرين الذين كانوا يتقاسمون معه الذنب نفسه، طريقة أوحت بأنّه في مأمن من الإدانة الأخلاقيّة. في القاعة كان هو الرجل الوحيد الذي ينظر مباشرةً وبثبات إلى وجه كلّ واحد منهم، فلاحظ مشاعر الاستياء وهي تتصاعد في أعينهم. فأدرك على نحو مريب ما كان متوقّعا منه. كانوا يتوقّعون منه -بوصفه الضحيّة التي قُيِّدَت بالأغلال، الضحيّة التي دُفِعَتْ كرهًا إلى الرشوة- أن يصدّق أنّ المهزلة التي اشتراها هي عمليّة قانونيّة، وأنّ مراسيم استعباده تحظى بمشروعيّة أخلاقيّة، وأنّه قد أذنب بإفساد نزاهة حرّاس العدالة، وأنّ اللوم لا يقع على عاتقهم، بل على عاتقه. لقد كان الأمر أشبه بإلقاء اللوم على ضحيّة عمليّة سطوٍ بتهمة إفساد نزاهة قاطع طريق سفّاح. ومع ذلك، اعتقد أنّه خلال الابتزاز السياسيّ الذي يمتدّ أجيالًا، لم يقع اللوم على الناهبين البيروقراطيّين، بل على الصناعيّين الذين كانوا مقيّدين بالأغلال، وأنّ العيب ليس في الناس الذين يروّجون للخدمات، بل في الناس الذين يضطرّون إلى شرائها، وأنّ العلاج، عبر كلّ تلك الأجيال التي قادت حروبًا صليبيّة ضدّ الفساد، لم يكن يكمن دائمًا في تحرير الضحايا، بل في منح صلاحيّات أوسع من أجل توفير مزيد من الابتزاز للمبتزّين. والذنب الوحيد للضحايا، حسب اعتقاده، كان يكمن في أنّهم قبلوا بذلك الأمر على أنّه ذنبٌ.

عندما خرج من قاعة المحكمة في تلك الظهيرة واجه رذاذًا باردًا في الخارج، فشعر كما لو أنّه طُلِّق، لا من ليليان فحسب، بل أيضًا من المجتمع البشريّ بأسره، مجتمع دعم الإجراء الذي شهده.

كان في وجه محاميه، ذلك الرجل المسنّ الذي ينتمي إلى الطراز القديم، تعبيرٌ مجهد

جعله يبدو كما لو أنّه يتوق إلى أخذ حمّام. فسأل المحامي موكّله:

- هل يوجد شيء آخر يسعى اللصوص إلى انتزاعه منك، يا هانك؟

فردّ هانك:

- لا. ولكن لماذا تسأل عن هذا الأمر؟

- لقد سارت الأمور بسلاسة غير معهودة. وكانت هناك بعض نقاط توقّعت أن يتمّ التركيز عليها وأن تعقّد قضيّتك، لكنّ الأولاد مرّوا عليها مرور الكرام، ولم يستغلّوها. بدا لي كما لو أنّ الأوامر صدرت من فوق لمعاملتك بلطف وتركك لحال سبيلك. فهل تراهم يخطّطون لشيء جديد ضدّ طواحينك؟

- لا أعلم.

هكذا ردّ ريردن وهو مندهش من سماع صوت يقول في أغواره: ليس ذلك ما يشغلني.

في تلك الظهيرة ذاتها، التقى في المطاحن بالممرّض الرطب الذي كان يسرع نحوه. لقد بدا خياله ممتزجًا بخليط غريب من الفظاظة والإحراج والحسم.

- أودّ التحدّث إليك، يا سيّد ريردن.

جاء صوته خجولًا، لكنّه كان على الرغم من ذلك ثابتًا بشكل غريب.

- تفضّل.

فقال الشابّ بملامح وجهٍ جادّة ومشدودة:

- ثمّة شيء أريد أن أسألك عنه. أريدك أن تعلم أنّني على يقين من رفضك طلبي. ومع ذلك، فإنّني سأطرحه عليك... وإذا رأيت فيه شيئًا من الوقاحة، فلا تتوانَ في طردي.

- حسنا، ما هو طلبك؟

فقال الشابّ وقد بدا الجهد المبذول في كلامه طبيعيًّا كما لو أنّه خان أيّام الصراع التي عاشها في مواجهة ذلك السؤال:

- هلّا مكّنتني من وظيفة يا سيّد ريردن؟ أريد أن أترك ما أقوم به الآن، وأعمل معك. أريد أن أعمل في صناعة الفولاذ مثلما كنت أحلم بذلك منذ زمن بعيدٍ. أريد أن أكسب رزقي، لقد سئِمت هذه الوضعيّة التي لا تختلف كثيرا عن وضعية الفرّاش.

لم يستطع ريردن إخفاء الابتسامة، ثمّ قال:

- لماذا تستخدم الآن مثل هذه الكلمات؟ إذا لم نستخدم الكلمات القبيحة، فلن نبدو قِبَاحًا...

لكنّ ريردن لاحظ الجديّة في وجه الصبيّ، فتوقّف عن الكلام واختفت ابتسامته.

- أنا أعني ذلك يا سيّد ريردن. وأعلم ما تعنيه تلك الكلمة. لقد سئمت أن يُدفع لي من مالك دون أن أنجز أيّ شيء ما عدا جَعْل جنيك للمال أمرًا مستحيلًا. أعلم أنّ أيّ شخص يعمل اليوم هو مجرّد مغفّل يشتغل لصالح أوغاد مثلي، ولكن.. حسنا، اللعنة! أفضّل أن أكون مغفّلًا، إذا كان ذلك هو كلّ ما تبقّى في وجودي.

ثمّ ارتفع صوته وتحوّل إلى صرخة، فقال بشدّة وهو ينظر بعيدًا:

- اعذرني يا سيّد ريردن، أريد أن أستقيل من منصب نائب مدير التوزيع. فأنا لن أقدِّم أيَّ إضافة في هذا المنصب. لي شهادة أكاديميّة في اختصاص علم التعدين، إلّا أنّها مجرد ورقة لا تسمن ولا تغني من جوع. ولكنّي أعتقد أنّني تعلّمت أشياء مهمّة عن العمل في العامين اللذين قضّيتهما هنا. وإذا أسندت إليَّ أيّ مهمّة، سواء أكانت الكنس أم جمع النفايات أم أيَّ وظيفة أخرى، فسأعلمهم أين يمكنهم وضع منصب نائب المدير. فأنا أودّ الالتحاق بفريقك من الغد أو في الأسبوع المقبل أو في هذه اللحظة أو في أيّ وقت يناسبك.

ثمّ تجنّب الشابّ النظر إلى ريردن، ليس بسبب الخوف، بل لأنّه يشعرُ بأن لا حقّ له

في ذلك. فقال ريردن بلطف:

- لماذا كنت خائفًا من طرح هذا الطلب؟

فنظر إليه الشابّ بدهشة وامتعاضٍ كما لو أنّ الجواب كان بديهيًا وقال:

- بعد الطريقة التي بدأت بها العمل هنا، وبعد الطريقة التي تصرّفت بها، شعرت بحرجٍ سببه اعتقادي أنّني لو جئت أطلب منك أيّ معروف، فإنّك ستهشّم وجهي.

- لقد تعلّمتَ الكثير في العامين اللذَيْن قضّيتهما هنا.

- لا، أنا..

لكنّه توقّف عن الكلام ونظر إلى ريردن، ففهمه، ثمّ نظر بعيدًا وقال بلغة خشبيّة:

- نعم... إذا كان هذا ما تعنيه.

- اسمع يا فتى، لو أنّ الأمر بيدي لوظّفتُك حالًا، ومنحتك وظيفةً أفضل من الكنس وجمع القمامة، لكن هل نسيت قرارات مجلس الاتّحاد؟ لن يَسمح لي بتوظيفك، تمامًا كما لن تُقبَل استقالتك. فمعظم الناس يستقيلون طوال الوقت، ونحن نوظّف عمّالا آخرين مكانَهم تحت أسماء مزيّفة وأوراق خياليّة تثبت أنّهم عملوا هنا سنوات. وأنت تعلم ذلك، فشكرًا لأنّك لم تُفْشِ أسرارنا. ولكن هل تعتقد أنّ أصدقاءك في واشنطن سيغضّون الطرف إذا وظّفتك بهذه الطريقة؟

فهزّ الصبي رأسه ببطءٍ.

- وهل تعتقد أنّهم لن يتفطّنوا إلى دوافعك إذا تركت خدمتهم لتصبح كنّاسًا؟

فأومأ الفتى برأسه.

- وهل سيسمحون لك بالمغادرة؟

فهزّ الشابّ رأسه ثمّ قال، بعد لحظةٍ، في نبرةٍ من الدهشة والحزن:

- لم أفكّر في هذه الأمور مطلقًا. لقد نسيتهم، وكان كلّ تفكيري منصبًّا فيما إذا كنت

ستوظّفني أم لا، ثمّ إنّ الشيء الوحيد الذي كان يؤرّقني هو قرارك.

- أعرف ذلك.

- وهو الشيء الوحيد الذي يهمّني في الواقع.

- نعم، وهو الشيء الوحيد الذي ليس ممكنًا في الواقع.

فتحرّك فمُ الولد فجأة والتَوَت شفتاه بكآبةٍ ورسمتَا ما يشبه الابتسامة:

- أعتقد أنّني مقيّد أكثر من أيٍّ مغفّل آخر...

- نعم. ما من حلٍّ أمامك الآن سوى أن تطلب من مجلس الاتّحاد إذنًا بتغيير وظيفتك. وأنا سأدعم طلبك، علما أنّني لا أحسبهم يوافقون على طلبك، ولا أعتقد أنّهم سيسمحون لك بالعمل عندي.

- لا. لن يفعلوا.

- إذا ناورتَ كما ينبغي وكذبتَ بما فيه الكفاية، فإنّهم قد يسمحون بنقلك للعمل في القطاع الخاصّ، لكن مع إحدى الشركات الأخرى المتخصّصة في الفولاذ.

- لا.. لا أريد الذهاب إلى أيّ مكان آخر... لا أريد مغادرة هذا المكان.

وظلّ ينظر إلى بخار المطر الخفيّ فوق لهب الأفران ثمّ قال بهدوء بعد فترة من التأمّل:

- من الأفضل لي أن أبقى في هذا المنصب، وأن أستمرّ في منصب نائب لصّ. فالله وحدَه يعلم أيّ نوع من الأوغاد سيحلّ مكاني، إن أنا تركته.

ثمّ التفت وأضاف:

- إنّهم يخطّطون لشيء مّا يا سيّد ريردن. لا أعلم ما هو بالضبط، لكنّهم يستعدّون حتما لإلقاء شيء عليك.

- شيء؟! مثل ماذا؟

- لا أعلم. لكنّهم كانوا في الأسابيع القليلة الماضية يراقبون سير العمل هنا، ويرسلون عصاباتهم إلى هنا في كلّ آنٍ وحينٍ. لقد كانوا نوعًا غريبًا من العصابات. إنّهم زمرةٌ من الحمقى. وأقسم أنّ بعضهم لم يسبق له أن دخل مصنعا للفولاذ. وقد تلقّيت أوامر بالحصول ما أمكن على أكبر عدد من «أولادنا». هم لم يخبروني عن السبب، ولا أعرف ما يخطّطون له. حاولت مراوغتهم، لكنّهم يتصرّفون بحذر شديد في هذا الأمر. ولا أظنّهم يثقون بي بعد الآن. وأعتقد أنّني أفتقد اللمسة الصحيحة. كلّ ما أعرفه أنّهم يستعدّون لسحب شيء مّا من هنا.

- شكرا، لأنّك حذرتني منهم.

- سأحاول الحصول على معلومات من داخل تلك العصابات. وسأبذل قصارى جهدي للحصول عليها في الوقت المناسب.

ثمّ التفت فجأةً وحاول أن يتكلّم، لكنّه توقّف ثمّ قال:

- لو أنّ الأمر بيدك يا سيّد ريردن، فهل كنت ستوظّفني؟

- كنت سأفعل وبكلّ سرور وعلى الفور.

- شكرا يا سيّد ريردن.

هكذا ردّ الشابّ بصوت متّزن ومنخفض، ثمّ مشى بعيدًا. بينما ظلّ ريردن يراقبه، بابتسامة مزّقتها الشفقة، متسائلًا في قرارة نفسه: أيّ عزاء يحمله هذا الشابّ الذي كان من الغلاة السابقين في النظريّات النسبيّة والبراغماتيّة واللّاأخلاقيّة؟

***

بعد ظهر يوم الحادي عشر من سبتمبر انقطع سلك النحاس في ولاية مينيسوتا، وتوقّفت أحزمة رافعة الحبوب عن العمل في محطّة ريفيّة صغيرة بسكك شركة تاجارت العابرة للقارّات.

وكان هناك طوفان من القمح يُنْقَلُ عبر الطرق السريعة والسكك والمسارات

المهجورة في الريف، ويفرّغ آلاف الفدادين من الأراضي الزراعيّة على السدود الهشّة لمحطّات السكك الحديديّة. كان يتنقّل نهارًا وليلًا، فتحوّلت الأنفاق الأولى إلى جداول، ثمّ إلى أنهار، فسيولٍ تتحرّك على متن الشاحنات، والعربات المزوّدة بالمحرّكات المهترئة، وتلك التي تجرّها هياكل شاحبة لخيول جائعة، وأخرى تجرّها الثيران على ما للبشر الذين عاشوا خلال عامين من الكارثة من أعصابٍ وطاقة، فقط لإعطاء مالكيهم فرصة للنجاة.

وكانت هناك في كلّ عام من ذلك الموسم حركةٌ أخرى تجوب جميع أنحاء ريف البلاد، وتسحب عربات الشحن من جميع أنحاء القارّة إلى قسم شركة تاجارت العابرة للقارّات بولاية مينيسوتا، فكان إيقاع عجلات القطارات يسبق صرير العربات، تماما مثل صدى تقدّم صارم في التخطيط والترتيب والتوقيت مُعدٍّ لمواجهة ذلك الطوفان. وكان قسم مينيسوتا يغطّ في نوم عميق طوال العام في استعداد لعيش حياة عنيفة أثناء أسابيع الحصاد. ثمّ تملأ ساحاته بأربع عشرة ألف عربة شحن في كلّ عام؛ وكان من المتوقّع أن يزداد عددها ليبلغ خمسة عشر ألف عربة هذه السنة. لقد انطلقت أولى قطارات القمح في توجيه ذلك الطوفان إلى مطاحن الدقيق الجائعة، ومن ثمّ إلى المخابز، وبعدها إلى بطون الأمّة. وكان كلّ قطار، وكلّ عربة شحن، وكلّ رافعة تخزين، عناصرَ مهمّة في هذه العمليّة. ولم يكن هناك متّسع لإضاعة أيّ دقيقة من الزمن أو أيّ شبر من الأرض لاستغلالها في موسم الحصاد.

كان إيدي ويلرز في ذلك الوقت يراقب ملامحَ وجه داغني، بينما تتفحّص هي بطاقات ملفّها الطارئ، فكان بإمكانه معرفة محتوى البطاقات من خلال تعابيرها. قالت داغني بهدوء وهي تغلق الملفّ:

- المحطّة المركزيّة! اتّصل بطابق المحطّة السفليّ واطلب منهم أن يشحنوا نصف حصصهم من الأسلاك إلى قسم ولاية مينيسوتا.

فأطاعها إيدي دون أن ينبس بأيّ كلمة.

ولم ينبس ويلرز ببنت شفة في ذلك الصباح حين وضع على طاولتها برقيّةً من مكتب تاجارت في واشنطن، تبلغهم بالتوجيهات التي كانت تأمر عملاء الحكومة بمصادرة جميع مناجم النحاس وتشغيلها كمرفق عامّ، وذلك بسبب النقص الحادّ في مادّة النحاس. فقالت داغني وهي تسقط البرقيّة في سلّة المهملات:

– حسنًا، هذه هي نهاية ولاية مونتانا.

ثمّ إنّ داغني لم تقل شيئًا عندما أخبرها جيمس تاجارت أنّه أصدر أمرًا بوقف جميع عربات الطعام في قطارات شركة تاجارت وأوضح لها ذلك الأمر عندما قال:

– لم يعد بوسعنا تحمّل نفقاتها، لقد كنّا دائما ننفق المال على تلك العشاءات اللعينة، فإذا كان من العسير الحصول على طعام، وإذا كانت المطاعم قد أوصدت أبوابها، لأنّها لا تستطيع الحصول على رطل من لحم الخيول في أيّ مكان من البلاد، فكيف يمكن لشركات السكك الحديديّة أن تفعل ذلك؟ ولماذا يجب علينا أصلًا إطعام الركّاب؟ إنّهم محظوظون، لأنّنا نوفّر لهم وسائل النقل. وإذا دعتهم الضرورة إلى ذلك، فهم مستعدّون للسفر على متن عربات المواشي ليجلبوا الطعام. لماذا يجب علينا أن نهتمّ بهذه التفاصيل؟ إنّهم لا يملكون خيارًا آخر باستثناء قطاراتنا.

وبعد ذلك لم يعد هاتف مكتب داغني يزفّ أخبارا عن المال والأعمال، بل أصبح مثل صفّارة إنذار للنداءات اليائسة التي تُنبئ بالكوارث من قبيل: «آنسة تاجارت، لم تعد لدينا أسلاك نحاسيّة» أو «لم تعد لدنيا مسامير يا آنسة تاجارت. هل بإمكانك أمر شخصٍ مّا بإرسال برميل من المسامير؟» أو «هل يمكنك إيجاد أيّ طلاء يا آنسة تاجارت، أيّ طلاء مقاوم للماء في أيّ مكان؟».

حدث ذلك بينما صُرف مبلغ ثلاثين مليون دولار من أموال الدعم التي قدّمت من العاصمة واشنطن في مشروع فول الصويا، حيث زُرعت مساحات هائلة بولاية لويزيانا، ولم يتبقّ كثير من الوقت لينضج المحصول. وكانت إيما تشالمرز هي مَن دعت إلى هذا المشروع ونظّمته بهدف تعديل عادات الأمّة من الغذاء. وإيما تشالمرز، المشهورة

باسم كيبزما، عالمة اجتماع طاعنة في السنّ قضّت جلّ عمرها في التسكّع بواشنطن، شأنها شأن النساء الأخريات في مثل سنّها، أولئك اللّائي كنّ يتسكّعن بين الحانات. ولسبب مّا لم يكن بإمكان أيّ أحدٍ تحديده، منحتها وفاة ابنها في كارثة النفق هالة الاستشهاد في واشنطن، وعمّقها اعتناقها البوذيّةَ مؤخّرًا.

- إنّ فول الصويا نبات غنيّ واقتصاديّ أكثر من كلّ الأطعمة الباهظة التي أوجدها نظامنا الغذائيّ المسرف والمائع.

هكذا صدحت كيبزما في محطّة إذاعيّة، وكان صوتها يبدو دائما سائلا لا مثل قطرات الماء، بل مثل المايونيز.

- إنّ فول الصويا يشكّل بديلًا ممتازًا للخبز واللحوم والحبوب والبنّ. وإذا اضطررنا جميعًا إلى تبنّي فول الصويا كمكوّن في غذائنا الأساسيّ، فإنّه سيحلّ أزمة الغذاء الوطنيّة ويجعل إطعام المزيد من الناس أمرًا ممكنًا. أعظم طعام لأكبر عدد من الناس، هذا هو شعاري. ففي وقت الحاجة العامّة، من واجبنا التضحية بأذواقنا الفاخرة، وذلك بالعودة في حميّتنا الغذائيّة إلى عصور الازدهار من خلال تكييف أنفسنا مع الأشياء البسيطة والصحّيّة من الموادّ الغذائيّة التي عاشت عليها شعوب الشرق بنبلٍ قرونًا مديدةً. هذه الشعوب التي يمكن أن نتعلّم منها أشياء كثيرة.

وكانت هناك مزيد من الأصوات عبر الهاتف تتوسّل تدخّل داغني، من قبيل: «لم تعد لدينا أنابيب نحاسيّة يا آنسة تاجارت. هل بإمكانك الحصول على بعض الأنابيب النحاسيّة من أيّ مكان؟» أو «نحن بحاجة إلى مسامير للسكك الحديديّة يا آنسة تاجارت» أو «نحتاج إلى مفكّات للبراغيّ يا آنسة تاجارت» أو «نحتاج إلى مصابيح للإضاءة يا آنسة تاجارت. لا توجد مصابيح كهربائيّة في أيّ مكان هنا».

وقع هذا بينما أُنفق مبلغ خمسة ملايين دولار من قبل مكتب تكييف المعنويّات على شركات أعمال الأوبرا الشعبيّة التي كانت تجوب البلاد، وتقدّم عروضًا مجّانيّة للناس الذين كانوا يكتفون بوجبة واحدة في اليوم، والذين لم يكن بوسعهم حتّى السير على

الأقدام إلى دار الأوبرا. ومُنح مبلغ سبعة ملايين دولار لطبيب نفسيّ مسؤول عن مشروع لحلّ تلك الأزمة العالميّة عن طريق البحث في طبيعة محبّة الأخ. ومُنِح مبلغ عشرة ملايين دولار لصانع ولاّعة سجائر إلكترونيّة جديدة، لكنّ السجائر سرعان ما اختفت من كلّ محلاّت البلاد. وكانت هناك أضواء كاشفة في السوق، لكن من دون بطّاريّات، وأجهزة راديو، لكن من دون قنوات، وكاميرات، لكن بلا أفلام. وأُعلِن أيضًا أنّ إنتاج الطائرات «قد توقّف مؤقّتا». ومُنِع أيضًا السفر جوًّا لأغراض خاصّة، واقتصرت الرحلات الجوّيّة على البعثات ذات «الاحتياجات العامّة». وكانوا لا يرون أيَّ حاجة ضروريّة على الإطلاق في سفر أيّ رجل صناعيّ لإنقاذ مصنعه، بينما يسمحون بالسفر من أجل جمع الضرائب.

- يا آنسة تاجارت، إنّ الناس يسرقون الصواميل والبراغيّ من ألواح السكك الحديديّة. إنّهم يسرقونها في الليل، وحصصنا نفدت، ومخازن القسم فارغة. ماذا عسانا أن نفعل يا آنسة تاجارت؟

يحدث ذلك بينما تنصب شاشة تلفزيونيّة ملوّنة ضخمة بحجم أربع أقدام في حديقة الشعب بواشنطن لترفّه عن السيّاح. وقد أُنشئ جهاز سيكلوترون عملاق لدراسة الأشعّة الكونيّة في معهد الدولة للعلوم على أن تكتمل فيه الأشغال خلال عشر سنوات.

وقال الدكتور روبرت ستادلر عبر أمواج الراديو أثناء مراسم تدشين السيكلوترون:

- المشكلة في عالمنا المعاصر تكمن في أنّ أناسًا كثيرين يفكّرون بإفراطٍ، وذلك هو سبب كلّ مخاوفنا وشكوكنا الحاليّة. وينبغي للمواطن المستنير أن يتخلّى عن العبادة الخرافيّة للمنطق والاعتماد القديم على العقل. فالأمر يشبه تمامًا ضرورة ترك الناس العاديّين مجال صناعة الأدوية للأطبّاء ومجال الإلكترونيّات للمهندسين، لذلك ينبغي على الناس غير المؤهّلين للتفكير تركُ مجال التفكير للخبراء. فهم وحدهم القادرون على فهم اكتشافات العلم الحديث التي أثبتت أنّ الفكر وهمٌ وأنّ العقل أسطورةٌ.

وكانت أصوات الصوفيّين المنتصرة من كلّ الطوائف والملل والنحل تدوّي في زوايا الشوارع، وفي الخيام الغارقة تحت سيول المطر، وفي المعابد المنهارة:

- إنّ بؤس هذا العصر عقابٌ إلهيّ بسبب خطيئة الاعتماد على العقل.

- هذه المحنة العالميّة هي نتيجة محاولة الإنسان العيشَ بالمنطق. وهذا ما أوصلنا إليه التفكير والمنطق والعلم. ولن يكون هناك خلاص حتّى يدرك الناس أنّ عقولهم الفانية عاجزة عن حلّ مشاكلهم ويعودوا إلى الإيمان بالله، والإيمان بقوّة عليا.

ومن بين مَن يواجه داغني يوميًّا كان هناك المنتج النهائيّ لخليط من كلّ ذلك، وهو الوريث الجامع لكلّ تلك الأفكار، إنّه كوفي ميغز، الرجل الممانع للتفكير. كان كوفي ميغز يجوب مكاتب شركة تاجارت العابرة للقارّات مرتديًا سترة شبه عسكريّة، حاملا حقيبة جلديّة لامعة متناسقة مع سرواله الجلديّ اللّامع ومسدّسا أوتوماتيكيًا في أحد جَيْبَيْه، ويدسّ في الآخر تميمة قدم الأرنب التي تجلب الحظّ.

فحاول كوفي ميغز تجنّبها، وكان جزء من تصرّفه محكوما بالاحتقار، كما لو أنّه يعتبرها مثاليّة وغير عمليّة، أمّا الجزء الآخر فتحكمه رهبة خرافيّة، كأنّها تمتلك قوّة غامضة عصيّة على الفهم كان يفضّل عدم الاشتباك معها. لقد تصرّف كما لو أنّ حضورها لا يتناغم مع وجهة نظره في السكك الحديديّة، لكنّه الحضور الوحيد الذي لم يتجرّأ على تحدّيه. وكان سلوكه تجاه جيم مطبوعًا بلمسة من الاستياء ونفاد الصّبر، وكأنّ واجب جيم هو التعامل مع أخته وحمايته منها. وكان يتوقّع من جيم أن يبقي سكّة الحديد تعمل، ويترك له الحرّيّة في القيام بأنشطة ذات طبيعة عمليّة، ويبقي أخته على الخطّ تماما مثل أيّ جزء آخر من المعدّات.

كانت صفحة التقويم خالية من أيّ علامة زمنيّة، تلك الصفحة التي تلوح على بعد مسافة خلف نافذة مكتبها، والتي لم يتمّ إصلاح تقويمها منذ ليلة وداع فرانسيسكو. لقد هرع المسؤولون في تلك الليلة إلى البرج، وعطّلوا محرّك التقويم، ثمّ جذبوا الشريط من جهاز العرض. فوجدوا جذاذة صغيرة مربّعة الشكل كتبت عليها رسالة

فرانسيسكو وقد ألصقت بشريط عدّاد الأيّام، لكن من ألصقها هناك؟ ومن دخل غرفة مقفلة؟ ومتى؟ وكيف تمكّن من هذا؟ كلّ ذلك لم يكتشف من قبل اللجان الثلاث التي ما تزال تحقّق في القضيّة. وفي انتظار نتائج أبحاثهم، علّقت صفحة فارغة، وظلّت كذلك معلّقة في أعلى المدينة.

وظلّت صفحة التقويم فارغة حتّى بعد ظهر يوم الرابع عشر من سبتمبر عندما رنّ هاتف مكتبها وأعلن صوت سكرتيرتها:

- رجل من ولاية مينيسوتا يودّ محادثتك.

لقد سبق أن أخبرت سكرتيرتها بأنّها ستكون مستعدّة لاستقبال كلّ المكالمات من ذلك النوع. وكانت المكالمات في أغلبها نداءات لطلب المساعدة، غير أنّها تُعَدُّ مصدرَها الوحيد للمعلومات في ظرفٍ لم تتلفّظ فيه أصوات المسؤولين عن السكك الحديديّة بأيّ شيء، بل إنّها تتعمّد تجنّبَ الاتّصال. كانت أصوات الناس المجهولي الهويّة آخر رابط يصلها بنظام شركتها، وبمثابة آخر شرارات العقل وآخر بريق أملٍ للنزاهة المعذّبة التي تومض فترةً وجيزةً على مسافة أميال من مسار سكك شركة تاجارت.

وقال الصوت الذي على الخطّ هذه المرّة، وكان يبدو هادئًا جدًّا لشابّ صغير السنّ:

- آنسة تاجارت، ليس من حقّي أن أتّصل بك. لكنْ بما أنّه لا أحد سيفعل ذلك، فقد اضطرت إلى الاتّصال بك. ستحلّ كارثة بنا هنا خلال يوم أو يومين، كارثة لم يسبق لها مثيل، ولن يستطيع أيّ شخص إخفاءها، وحين تقع سيكون أوان التدخّل قد فات، ولعلّ الأوان فات بالفعل.

- عن أيّ كارثة تتحدّث؟ ومن أنت؟

- أنا أحد موظّفيك في قسم ولاية مينيسوتا. ستتوقّف القطارات عن العمل خلال يوم أو يومين، وأنت تدركين ماذا يعني ذلك في ذروة موسم الحصاد. ستتوقّف القطارات في ذروة أكبر حصاد سنحظى به، لأنّنا لا نملك عربات شحن، فقاطرات شحن الحصاد لم ترسل إلينا هذا العام.

- ماذا تقول؟

- لم ترسل عربات الشحن بعدُ. وكان من المفروض إرسال خمسة عشر ألف عربة إلى هنا. ونحن لا نملك، على حدّ علمي، سوى عددٍ محدودٍ من العربات. اتّصلت بمقرّ القسم مدّة أسبوع وكانوا يخبرونني بألّا أقلق بهذا الشأن. وفي آخر مرّة، أخبروني بأن أهتمّ بشؤوني الخاصّة. لقد امتلأت بالقمح كلُّ سقيفة وصومعة حبوب ورافعة ومستودع ومخزن وساحة. وبالقرب من مصاعد شيرمان، يوجد خطّ من شاحنات المزارعين وعرباتهم، خطّ يمتدّ على مسافة ميلين، ينتظر على الطريق. والساحات في محطّة لايك وود مكتظّة بأكياس القمح الصلب منذ ثلاث ليال. وهم يستمرّون في إخبارنا بأنّ الأمر مؤقّت فقط، وأنّ العربات قادمة وأنّه يمكننا تدارك الأمر. لكنّنا لن نتدارك أيّ شيء إذا لم تأت أيّ عربة شحن. لقد اتّصلت بجميع معارفي، وقمت بكلّ ما استطعت إليه سبيلا، علما أنّني أعرف الجواب مسبّقًا. وهم يعرفونها ولا أحد منهم يريد الاعتراف بها. إنّهم خائفون، خائفون من التحرّك أو التدخّل أو الكلام أو السؤال أو الجواب. وكلّ ما يفكّرون فيه هو مَن سَيُلَامُ عندما يتعفّن ذلك المحصول من القمح هنا بمحيط المحطّات. إنّهم لا يكترثون إطلاقًا بمن سينقله. ربّما لا أحد يستطيع فعل ذلك الآن، وربّما لا يوجد أصلا شيء يمكن للمرء فعله حيال ذلك. لكنّني اعتقدت أنّك الشخص الوحيد الذي تبقّى لي، والذي يريد أن يعرف. وكان على أحدهم إخبارك بهذا الأمر.

مكتبة
t.me/soramnqraa

بذلت داغني جهدًا للتنفّس، ثمّ قالت:

- من؟ أنا؟ فهمتك... من أنت؟

- الاسم لا يهمّ، فعندما أنهي مكالمتي معك سأكون من بين الهاربين. أنا لا أريد البقاء هنا لأشهد هذه الكارثة، ولا أريد تحمّل أيّ جزء منها. بالتوفيق لك يا آنسة تاجارت.

ثمّ سمعت وقع نهاية المكالمة فردّت على خطّ ميّتٍ:

- شكرا لك.

وقفت بصلابة في وسط المكتب، وهي تسرّح بأصابعها خصلةً من شعرها، ثمّ أزالتها عن وجهها. وللحظة، تساءلت أين كانت؟ وأيّ شيء غير معقول حدث في الساعات العشرين الماضية؟ فما شعرت به كان رعبًا، وعلمت أنّها شعرت بذلك من أوّل كلمات نطق بها ذلك الرجل على خطّ الهاتف، إلّا أنّه لم يكن هناك وقت حينها لمعرفة ذلك.

ولم تتبقّ في ذهنها أشياء كثيرة خلال الساعات العشرين الماضية. ما بقي فقط هو بعض الجزئيّات المنفصلة، يجمعها معًا خيطٌ ناظم ثابت ليجعلها ممكنة، جزئيّات تبدو في الوجوه الناعمة والمرتخية للناس الذين كانوا يكافحون من أجل الاختباء عن ذواتهم لأنّهم يعرفون الإجابات على الأسئلة التي طرحتها.

منذ اللحظة التي قيل فيها إنّ مدير قسم خدمات العربات كان خارج المدينة مدّة أسبوع دون أن يترك أيّ عنوان يدلّ عليه، علمت أنّ تقرير الرجل الذي سبق أن هاتفها من ولاية مينيسوتا كان صحيحًا. ثمّ أقبلت على وجوه المساعدين في قسم خدمات العربات فلم يستطيعوا لا نفي ذلك التقرير ولا تأكيدهُ، ولكن ظلّت تعرض عليها الأوراق، والأوامر، والاستمارات، وملفّ البطاقات التي كُتِبَتْ بلغة إنجليزيّة واضحة، ولكن لم تكن تربطها علاقة واضحة بالحقائق الملموسة.

- هل أُرْسِلَتْ عربات الشحن إلى ولاية مينيسوتا؟

- لقد مُلِئَت الاستمارة رقم 357 واو في كلّ حالة على حِدَةٍ، وفقًا لأوامر مكتب المنسّق، وفي تطابق تامّ مع تعليمات المراقب الماليّ والقانون التوجيهيّ عدد 493-11.

- هل أرسلت عربات الشحن إلى ولاية مينيسوتا؟

- لقد راجعت معطيات شهري أغسطس وأيلول...

- هل أرسلت عربات الشحن إلى ولاية مينيسوتا؟

- تشير ملفّاتي إلى مواقع عربات الشحن حسب الولاية، والتاريخ، والتصنيف و...

- هل تعلم ما إذا كانت عربات الشحن قد أرسلت إلى ولاية مينيسوتا؟

- بخصوص حركة عربات الشحن بين الولايات يجب أن أحيلك على ملفّات السيّد بينسون و...

لم يكن هناك شيء لتدركه من الملفّات. كانت توجد معطيات دقيقة تتضمّن كلٌّ منها أربعة معانٍ محتملة، بإشارات كانت تؤدّي إلى إشارات أخرى، وتلك الإشارات تؤدي من جهتها إلى إشارة نهائيّة مفقودة في الملفّات. ولم يأخذ الأمر من وقتها الكثير لتكتشف أنّ عربات الشحن لم تُرسَل إلى ولاية مينيسوتا، وأنّ هذا الأمر قد صدر عن كوفي ميغز، لكن من نفّذه وعرقل درب العربات؟ وما الخطوات التي اتّخذها المتورِّطون في هذه العمليّة للحفاظ على سلامة التشغيل العاديّ دون أن تصدر أيّ صرخة احتجاج تثير انتباه أيّ رجل شجاع؟ ومن زَوَّرَ التقارير؟ وأين اختفت عربات الشحن؟ كلّها معطيات يستحيل معرفتها في البداية.

وبينما كان طاقم صغيرٌ يائس يواصل الاتّصال، تحت قيادة إيدي ويلرز، بكلّ نقطة تقسيم، وكلّ ساحة، ومستودع، ومحطّة، وكلّ ناحية من نواحي شركة تاجارت العابرة للقارّات لتوفير كلّ العربات المتاحة والأمر بتفريغها، وإسقاط أيّ شيء تحمله، وقلب كلّ ما فيها، ورمي كلّ ما تحتويه، ثمّ توجيهها حالا إلى ولاية مينيسوتا، واستمرّوا في الاتّصال بالساحات، والمحطّات ورؤساء كلّ خطّ سكّة حديد ما يزال موجودا في أيّ مكان على الخارطة يطلبون منهم توفير عربات شحن لولاية مينيسوتا... بينما كانوا يفعلون ذلك كانت داغني تخوض مهمّة تعقّب وجهة عربات الشحن التي اختفت أمام أنظار الجبناء.

لقد انطلقت في مسيرة تعقّبها بدءًا بمديري سكك الحديد، مرورًا بالأثرياء من رجال الأعمال المتخصّصين في الشحن، وصولا إلى مسؤولي ولاية واشنطن. ثمّ عادت إلى مشرفي السكك الحديديّة مجدّدًا، واتّصلت بهم سواء بالتنقّل المباشر عبر سيّارة الأجرة

أو عبر الاتّصال بالهاتف أو عبر البرقيّات. واقترب الدرب من نهايته عندما سمعت صوتًا لاذعًا لامرأة مختصّة في العلاقات العامّة بمكتب واشنطن وهي تقول باستياء عبر الهاتف:

- حسنًا، إنّها، في نهاية المطاف، مسألة متعلّقة بوجهة نظر سواء أكان القمح هو المنتج الضروري لرفاه الأمّة أم فول الصويا.

وفي ظهيرة ذلك اليوم، وقفت داغني وسط مكتبها، وهي تعلم أنّ عربات الشحن التي كان من المفترض أن تُوَجَّه لشحن قمح ولاية مينيسوتا قد أرسلت لتحمل فول الصويا من مستنقعات ولاية لويزيانا التي تملكها كيبزما.

وبعد ثلاثة أيّام، ظهرت القصّة الأولى لكارثة ولاية مينيسوتا على صفحات الجرائد. وأفادت بأنّ المزارعين الذين كانوا ينتظرون في شوارع مدينة لايك وود مدّةَ ستّة أيّام، من دون الحصول على مكان لتخزين القمح أو الحصول على قطارات لحمله، قد هدموا المحكمة المحلّيّة ومنزل العمدة ومحطّة السكك الحديديّة. لكن سرعان ما اختفت تلك القصص، فقد التزمت الصحف الصمتَ، قبل أن تشرع في نشر تحذيرات تحثّ الناس على عدم تصديق الشائعات التي تريد بالبلد سوءًا.

بينما استمرّ صراخ مطاحن الدقيق وأسواق الحبوب في البلاد، عبر الهواتف وأسلاك التلغراف، وهو يرسل مناشدات إلى ولاية نيويورك وإلى وفود ولاية واشنطن، وبينما استمرّت سلاسل عربات الشحن في الزحف بطريقة عشوائيّة من أنحاء القارّة مثل زحف اليرقات الشاحبة عبر الخارطة في اتّجاه ولاية مينيسوتا، ظلّ القمح ورجاء البلاد في انتظار الهلاك على طول مسار فارغ وتحت أضواء الإشارات الخضراء الثابتة التي كانت ترسم المسار لقطارات لا توجد أصلًا.

وظلّ طاقم صغير في مكاتب الاتّصالات بشركة تاجارت العابرة للقارّات يطلب عربات الشحن، ويكرّر الطلب ذاته تمامًا مثل أصوات الاستغاثة التي تصدر من طاقم سفينة غارقة دون أن تلقى آذانًا صاغية. وكانت هناك عربات شحن محمّلة على مدى

شهور في ساحات الشركات المملوكة لأصدقاء تجّار التجزئة، الذين تجاهلوا المطالب المحمومة لتفريغ العربات وإطلاق سراحها. وكانت جملة «يمكنك أن تقول إنّ السكك الحديديّة..» التي تليها كلمات أخرى لا تقول أيّ شيء، هي رسالة الإخوة سماثر من ولاية أريزونا ردًّا على نداءات الاستغاثة من ولاية نيويورك.

أمّا في ولاية مينيسوتا، فكانوا يستولون على العربات في كلّ مكان، من جبال ميسابي، إلى مناجم خام بول لاركين حيث وقفت العربات في انتظار مقدار ضئيل من الحديد. لقد كانوا يصبّون القمح في عربات الخام، وعربات الفحم، وعربات مخازن الخام التي ظلّت تسير وتنثر كمّيات ضئيلة من الذهب على طول المسار. كانوا يصبّون القمح في عربات الركّاب، وعلى المقاعد، والرفوف والتجهيزات أملًا في إنقاذه من الضياع، حتّى لو كان يتحرّك عبر مجاري المياه الجانبيّة بعد حادث مفاجئ فُجِّرت فيه إحدى العيون، والانفجارات التي انطلقت عن طريق حرق صناديق الجرائد والمجلّات.

كانوا يناضلون من أجل إنجاز الحركة، أيّ حركة من دون أدنى فكرة عن الوجهة. وأيّ حركة من هذا النوع كانت مثل حراك المشلول أثناء سكتة دماغيّة، حين يناضل من أجل إحداث رعشات هائجة قاسية ليواجه حقيقة أنّ الحركة أصبحت أمرًا مستحيلًا. ولم تكن هناك أيّ شركة أخرى لسكك الحديد، لأنّ جيمس تاجارت قضى عليها، ولم تكن هناك قوارب على البحيرات، لأنّ بول لاركين دمّرها. ولم يكن هناك سوى خطّ سكك حديد واحد وشبكة طرق سريعة مهملة.

أمّا المزارعون الذين كانوا في حالة انتظار فقد بدأت شاحناتهم وعرباتهم تتوافد على نحو أعمى عبر الطرق، ولم تكن مصحوبة بالخرائط ولا الوقود ولا أيّ غذاء للخيول التي تجرّها. كانت تتنقّل في اتّجاه الجنوب قصد الوصول إلى مطاحن الدقيق التي تنتظرها في مكان مّا، من دون علمٍ بالمسافات التي تنتظرها، بل كانت تعلم فقط حقيقة الموت الذي تجرّه خلفها. كانت تتنقّل لتنهار في الطرق، والمجاري، وفي فواصل الجسور الصدئة. فقد عُثِر على مُزارع ميّتًا في أحد الخنادق، وهو ما يزال يحمل كيسا من القمح على كتفيه. ثمّ انهمرت غيوم المطر فوق براري ولاية مينيسوتا، وتسرّبت

المياه إلى القمح، فتعفّن في محطّات السكك الحديديّة. وظلّت الأمطار تنهمر على الأكوام المسكوبة على طول الطرق، وهي تغسل القمح الذهبيّ الذي أُلقي على الأرض.

في ولاية واشنطن، لم يسيطر الذعر على الناس إلّا في وقت متأخّر، لأنّهم لم يشاهدوا الأخبار التي كانت تأتي من ولاية مينيسوتا، بسبب اهتمامهم بمشاهدة ما تشهده الصداقات والالتزامات من توازنٍ هشٍّ. هم لم يكترثوا بمصير محصول القمح، لأنّهم انشغلوا بالنتائج المجهولة والمشاعر غير المتوقّعة لرجال السلطة الذين كانوا يغضّون الطرف عن هذه الكارثة. كانوا ينتظرون، وقد تجنّبوا كلّ المناشدات، ثمّ أعلنوا:

- أوه، هذا أمر سخيف، لا يوجد ما يدعو إلى القلق! فشركة تاجارت تنقل القمح دائمًا في الموعد المحدّد. ستَجِدُ طريقة مّا لنقله.

وعندما أرسل رئيس الدولة التنفيذيّ لولاية مينيسوتا طلبًا إلى واشنطن من أجل الحصول على مساعدة الجيش لمواجهة أعمال الشغب التي لم يكن قادرًا على إخمادها، صدرت ثلاثة قوانين توجيهيّة خلال ساعتين، أوقفت بموجبها جميع القطارات في البلاد، وأمرت بالتوجّه على جناح السرعة إلى ولاية مينيسوتا. ثمّ أمضى ويسلي ماوتش أمرًا يطالب بالإفراج الفوريّ عن عربات الشحن التي كانت محتجزة لخدمة مشروع كيبزما. لكنّ الأوان فات، وحلّت الكارثة بالمزارعين. كانت عربات الشحن لمشروع كيبزما بولاية كاليفورنيا ترسل فول الصويا بهدف الاستجابة لمشغلٍ تقدّميّ لعالم اجتماعٍ كان يعظ بعقيدة التقشّف الشرقيّة في تجاوبٍ مع رجال الأعمال السابقين الذين كانت أعدادهم لا تعدّ ولا تحصى.

أمّا في ولاية مينيسوتا، فكان المزارعون يضرمون النار في محصولهم، ويهدمون رافعات الحبوب ومنازل مسؤولي المحافظة، ويتشابكون فيما بينهم على طول مسار السكك الحديديّة. كان بعضهم يريد اقتلاع السكك من جذورها، أمّا البعض الآخر فيدافع عنها بحياته من دون تحقيق أيّ هدف سوى مزيد من العنف، فكانوا يموتون

في شوارع المدن المدمّرة وفي الأخاديد الصامتة في ليلة انقطعت فيها جلّ الطرق.

ولم تكن هناك سوى الرائحة النتنة للحبوب المتعفّنة في الأكوام التي أتت النّيران على نصفها. في حين ظلّت بضعة أعمدة من الدخان تتصاعد في السهول ملتهبة فوق الأنقاض السوداء.

كان هانك ريردن يجلس في مكتبه بولاية بنسلفانيا، ويتأمّل قائمة الرجال الذين أفلسوا. كان جلّهم من مصنّعي المعدّات الزراعيّة، الذين كانوا لا يأملون في الحصول على مستحقّاتهم. وهكذا، فإنّهم لن يوفوا بالتزاماتهم الماليّة تجاهه.

لم يصل محصول فول الصويا إلى أسواق البلاد، لأنّه حُصد قبل الأوان، فتعفّن وأصبح غير صالح للاستهلاك.

***

وفي ليلة الخامس عشر من شهر أكتوبر، انقطع سلك نحاسيّ آخر في مدينة نيويورك، وعلى التدقيق في أحد أبراج المراقبة الموجودة تحت الأرض في محطّة تاجارت، فانطفأت أضواء الإشارات.

كان انقطاعا في سلك واحد، لكنّه أحدث عُطْلا في الدارة الكهربائيّة لشبكة أنظمة المرور، واختفت إشارات الحركة والخطر من أبراج التحكّم ومن خطوط السكك الحديديّة. وظلّت العدسات الحمراء والخضراء بالألوان نفسها، بلا تألّق مرئيّ، بل صارت تشبه ذاك التحديق الميّت في عيون زجاجيّة. وبأطراف المدينة، تجمّعت كوكبة من القطارات عند مدخل الأنفاق الجانبيّة وازداد عددها خلال دقائق قليلة، تمامًا مثل الدم الذي تسدّه جلطة داخل أحد الأوردة، فيصبح غير قادر على الاندفاع نحو بطينات القلب.

في تلك الليلة، جلست داغني وأمامها مائدة طعام في إحدى قاعات الأكل بفندق واين فوكلاند. وكانت الشموع تقطر على زهور الكاميليا البيضاء وأوراق الرّند عند قاعدة الشمعدان الفضيّ. وكانت هناك بعض حسابات رياضيّة نُقِشَت بالقلم

الرصاص على مفرش المائدة المصنوع من الكتّان الدمشقي، وفي إناء غسل الأصابع يسبح عقب سيجار. أمّا الرجال الستة الذين كانوا يرتدون سترات العشاء الرسميّة، ويجلسون قبالة داغني، فهم ويسلي ماوتش ويوجين لاوسون والدكتور فلويد فيريس وكليم ويذربي وجيمس تاجارت وكوفي ميغز.

لقد سبق أن سألت جيم عندما أخبرها بوجوب حضورها ذاك العشاء:

– لماذا يجب عليّ الحضور؟

– حسنا... لأنّ مجلس إدارتنا سيجتمع في الأسبوع القادم.

– وماذا بعد؟

– أنت معنيّة طبعًا بالقرار الذي سيتّخذ بشأن خطّ ولاية مينيسوتا، أليس كذلك؟

– وهل سيُتَّخذ هذا القرار في اجتماع المجلس؟

– حسنا، ليس في هذا الاجتماع تحديدًا.

– وهل سيُتَّخذ القرار في هذا العشاء؟

– ليس بالضبط، لكن... أوه، لماذا تحرصين دومًا على أن تكوني دقيقة في كلّ شيء؟ فلا شيء ثابت وقطعيّ أبدًا. إنّهم يصرون على حضورك.

– لماذا؟

– أليس ذلك كافيًا؟

ولم تتساءل داغني عن السبب الذي جعل هؤلاء الرجال يتّخذون جميع قراراتهم الحاسمة في حفلات من هذا النوع، لكنّها تعرف أنّهم يفعلون ذلك دائمًا. وتعرف أنّ تلك الاجتماعات لا تسمن ولا تغني من جوعٍ، لأنّ القرارات تُتَّخَذُ بشكل مسبّق. تُتَّخَذُ، سرًّا وبشكل غير رسميّ، في مآدب الغداء والعشاء. وكلّما ازدادت خطورة مناقشة أيّ مسألة، كانت طريقة تسويتها أكثر اتّساما بالطابع العرضيّ. كانت هذه هي

المرّة الأولى التي يصرّون فيها على حضورها، بوصفها عنصرًا دخيلًا وعدوًّا في الآن نفسه. إنّ استدعاءها إلى إحدى هذه الجلسات السرّيّة هو، في رأيها، اعتراف بحقيقة أنّهم في أمسّ الحاجة إليها. ولعلّ هذه هي الخطوة الأولى في طريق استسلامهم. كانت فرصة مهمة لا يمكن أن تدعها تفلت من دون استغلالها.

ولكن بينما كانت تجلس على ضوء الشموع في قاعة الأكل، شعرت بأنّها لا تملك أيّ فرصة على الإطلاق، وأنّها غير قادرة على تقبّل ذلك اليقين، لأنّها لا تستطيع فهمَ سببه. وظلّت متكاسلة ومتردّدة في متابعة أيّ بحثٍ عن أسبابه.

- أعتقد، وقد تقرّين بذلك يا آنسة تاجارت، أنّه لا يوجد الآن مبرّرٌ اقتصاديّ لوجود خطّ سكّة حديدٍ في ولاية مينيسوتا على نحوٍ مستمرّ...

- وحتّى الآنسة تاجارت ستوافق. أنا متأكّد من أنّ بعض التخفيضات المؤقّتة ضروريّة...

- لا أحد، بمن في ذلك الآنسة تاجارت، سينكر وجودَ لحظات من الضروريّ فيها التضحية بالأجزاء من أجل الحفاظ على الكلّ...

وتساءلت، وهي تتأمّل اسمها وهو يزجّ به في أيّ جملة على مدى نصف ساعة، عن الدافع الذي جعلهم يصرّون على حضورها. فهذ الإصرار لا ينطوي على أيّ رغبة في جعلها تعتقد أنّهم يريدون استشارتها، بل ينطوي على أسوإ من ذلك. إنّه محاولة لتضليل أنفسهم والاعتقاد بأنّ داغني وافقت على ذلك. فانهالوا عليها بأسئلة عديدة، وقاطعوها قبل أن تنهي الجملة الأولى من إجابتها. يبدو أنّهم يرغبون في انتزاع موافقتها، من دون حاجة إلى معرفة موافقتها من عدمها.

وقد جعلهم أحد الأشكال الطفوليّة البغيضة من خداع الذات يصنّفون مثل هذه المناسبة ويؤثّثونها على النحو اللّائق بوصفها مأدبة عشاء رسميّ. وتصرّفوا كما لو أنّهم يأملون في أن يكسبوا، من أغراض الرفاهية المترفة، القوّةَ والشرف اللذَين كانت تلك الأشياء ذات يوم منتجًا ورمزًا لها. واعتقدت داغني أنّهم كانوا يتصرّفون مثل أولئك

المتوحّشين الذين يلتهمون جثّة العدوّ على أمل اكتساب قوّته وفضيلته.

وندمت على ارتداء ملابس رسميّة في تلك المناسبة. لقد سبق لجيم أن قال لها:

- إنّها مناسبة رسميّة، لكن لا تبالغي في ارتداء الملابس المكلفة... ما أعنيه هو أنّه يجب ألّا تبدو عليك علامات الغنى والترف... يجب على رجال الأعمال في هذه الأيّام أن يتجنّبوا أيّ مظهر من مظاهر الترف... لكن ذلك لا يعني ارتداء ملابس بالية. يجب أن يوحي مظهرك بالتواضع. سيسعدهم هذا الأمر، كما تعلمين، وسيجعلهم يشعرون بأنّهم أعظم شأنًا منك.

- حقًّا؟

ثمّ أدارت ظهرها وابتعدت عنه.

كانت ترتدي ثوبًا أسود بدا وكأنّه مجرّد قطعة قماش عبرت صدرها وسقطت على قدميها في طيّات ناعمة لسترة إغريقيّة. كان مصنوعًا من الحرير، حرير خفيف وشفّاف حتّى إنّه يمكن أن يشبه ثوب النوم. وكان بريق القماش، يتألّق وينسجم مع حركاتها، فجعل الأمر يبدو كما لو أنّ ضوء القاعة التي دخلت إليها كانت من بين ممتلكاتها الشخصيّة، بحساسيّة مطيعة لحركات جسدها، فلفّتها في ورقة من التألّق الفاخر بدت أكثر بذخًا من الديباج، ممّا يؤكّد الهشاشة الليّنة لجسدها، ويمنحها جوًّا من الأناقة الطبيعيّة التي توحي بأنّها تلبس بازدراءٍ ملابس عاديّةً. وكانت ترتدي قطعة واحدة من المجوهرات بمشبك من الألماس على حافّة تقويرة عنق الثوب الأسود، ظلّت تتلألأ وترافق حركة أنفاسها غير المحسوسة، مثل محوّل كهربائيّ يحوّل الوميض إلى نار، ممّا يجعل المرء يدرك، لا فقط تألّق الأحجار الكريمة، بل أيضًا النبض الحيّ لمن يرتديها. كانت تتلألأ مثل وسام عسكريّ. ولم ترتدِ أيّ زينة أخرى، فقط عباءة مخمليّة سوداء، زادتها شرفًا على نحو متفاخر ومتجبّر.

وقد ندمت على ذلك الآن، عندما نظرت إلى الرجال الذين سبقوها، وشعرت بتأنيب الضمير بسبب انتفاء المعنى، كما لو أنّها كانت تحاول تحدّي تلك الشخصيات

وكأنّهم تماثيل شمعيّة. لقد لاحظت الاستياء الطائش في أعينهم والأثر الخفيّ للشبق البغيض الذي تعوزه الحياة، تمامًا كما يخلو من الرغبة التي تنضح عادة في نفوس الرجال وهم ينظرون إلى ملصق إعلانيّ مثيرٍ.

قال يوجين لاوسون:

- إنّ اتّخاذ قرار يتعلّق بحياة آلاف الناس أو موتهم أو التضحية بهم عند الضرورة مسؤوليّة عظيمة. ولكن يجب أن نتحلّى بالشجاعة لفعل ذلك.

والتوت شفتاه لكي ترسما ابتسامةً.

فردّ الدكتور فيريس في خطابٍ إحصائيّ، وهو ينثر حلقات من الدخان صوب السقف:

- إنّ العوامل الوحيدة التي يجب أخذها بعين الاعتبار هي مساحة الأرض وعدد السكان. وبما أنّه لم يعد من الممكن الحفاظ على كلٍّ من خطّ ولاية مينيسوتا وحركة المرور العابرة للقارّات بشركة سكك الحديد هذه، فإنّ الخيار سيقع بين ولاية مينيسوتا والولايات الغربيّة لجبال الروكي التي حدثت قطيعة فيما بينها بسبب انهيار نفق تاجارت، وكذلك الولايات المجاورة مثل مونتانا وايداهو وأوريغون، وهو ما يعني عمليًا الشمال الغربيّ كلّه. وعندما تحسبون المساحة وعددَ الرؤوس في كلتا المنطقتين، فمن الواضح أنّه يجب علينا إغراق ولاية مينيسوتا بدلًا من الاستغناء عن خطوط اتّصالاتنا في أكثر من ثلث القارّة.

فقال ويسلي ماوتش بنبرة تطفح استياءً وكبرياءً في الآن ذاته:

- لن أتخلّى عن القارّة.

ثمّ أخذ يحدّق في طبقه المليء بالمثلّجات. أمّا داغني فكانت تفكّر في جبال ميسابي، وهي آخر المصادر الرئيسيّة لخام الحديد، وفي مَن تبقّى من مزارعي ولاية مينيسوتا، الذين كانوا على الدوام أفضل من يُنتج القمح في البلاد. وكانت تفكّر أيضًا في أنّ نهاية

ولاية مينيسوتا تعني كذلك نهاية ولاية ويسكونسن، ثمّ ولاية ميشيغان، فولاية إلينوي. وكانت ترى الأنفاس الدامية للمصانع المحتضرة في المنطقة الصناعيّة الشرقيّة مقابل الأميال الخالية التي لم تكن بها سوى الرمال الغربيّة والمراعي الجرداء والمزارع المهجورة.

وقال السيّد ويذربي باحتشام:

- تشير الأرقام إلى أنّ الحفاظ على المنطقتين يبدو مستحيلًا. ويتعيّن علينا تفكيك أحدِ الخطّين لتوفير المواد اللّازمة لصيانة الخطّ الآخر.

لاحظت داغني أنّ كليم ويذربي، الخبير التقنيّ في السكك الحديدية، كان الرجل الأقلّ تأثيرًا في المجموعة، بينما كان كوفي ميغز أعظمهم سطوةً. لقد جلس كوفي ميغز على الكرسيّ يرمق ساخرا هذه اللعبةَ حيث يُهدر الوقت في مناقشات غير مجدية. كان قليل الكلام، حتّى إذا تكلّم أحدث المفاجأة بشكل حاسم، وذلك بجمل من قبيل: «اصمت يا جيم» أو «توقّف عن الهراء يا ويسلي فأنت تتكلّم مثل المعتوه». ولاحظت داغني أنَّ جيم وماوتش لا يبديان استياءً منه، وبدا أنّهما يخضعان لسلطته، ويتعاملان معه على أنّه سيّد.

وظلّ الدكتور فيريس يقول:

- علينا أن نكون عمليّين. يجب أن نكون علميّين.

أمّا ويسلي ماوتش فظلّ يكرّر:

- أنا في حاجة إلى إنعاش اقتصاد البلاد ككلّ. أنا في حاجة إلى إنتاج الأمّة.

فتردّ داغني، كلّما سمحت الفرصة لصوتها البارد الموضوعيّ بالحصول على فترة قصيرة من وقتهم:

- وهل ما تتحدّث عنه يمكن أن يندرج في خانة الاقتصاد أم الإنتاج؟ إذا كان الأمر كما تقول، فامنحنا متنفّسًا لإنقاذ الولايات الشرقيّة. هذا كلّ ما تبقّى من البلاد، ومن

العالم. وإذا سمحت لنا بإنقاذه، فإنّنا سنحظى بفرصة لإعادة بناء المناطق الأخرى. وإذا لم تسمح لنا بذلك فإنّ الأوضاع ستؤول إلى ما لا تحمد عقباه. دع شركة جنوب الأطلسيّ تعتني بحركة المرور العابرة للقارّات كما هي الآن. ودع السكك الحديديّة المحلّيّة تعتني بالشمال الغربيّ، ودع شركة تاجارت تفعل أيّ شيء. نعم، أيّ شيء. دعها تكرّس كلّ مواردها ومعدّاتها وأسلاكها لخدمة حركة المرور في الولايات الشرقيّة. دعونا نرتدّ مرّة أخرى، ونعود إلى السنوات الأولى من تاريخ هذا البلد. دعونا فقط نحظى بتلك البداية. لن ندير قطارات غرب نهر الميسوري. سندع شركة سكك الحديد المحلّيّة تخدم فقط الشرق الصناعيّ. دعونا ننقذ صناعاتنا، لأنّه لم يتبقّ شيء لإنقاذه في الغرب. يمكنكم إدارة الزراعة قرونًا عن طريق العمل اليدويّ وعربات الثيران، لكن لو دمّرتم آخر مصنع في هذا البلد، فإنّكم ستحتاجون إلى قرون من الجهد، ولن تكونوا قادرين على إعادة بنائه أو جمع القوّة الاقتصاديّة للانطلاق من جديد. فكيف تتوقّعون من صناعاتنا أو من السكك الحديديّة أن تنجو من دون فولاذ؟ وكيف تتوقّعون أن يتمّ إنتاج أيّ فولاذ إذا قطعتم إمدادات الحديد الخام؟ أنقذوا ولاية مينيسوتا، مهما يكن ما تبقّى منها. وأيّ دولة تتحدّثون عنها؟ لن تستطيعوا مدّ يد العون إلى أيّ دولة إذا تعطّلت صناعاتنا وأفلست. يمكنكم التضحية بساقٍ أو ذراع، لكن لا يمكنكم إنقاذ جسد عبر التضحية بقلبه أو دماغه. أنقذوا صناعاتنا. أنقذوا ولاية مينيسوتا، أنقذوا الساحل الشرقيّ.

لم يكن هناك من فائدة في ترديد ذلك. لقد قالته مرّات عديدة، مع ذكر كثيرٍ من التفاصيل والإحصائيّات والأرقام والبراهين والحجج الدامغة، عندما كانت تجبر عقلها المجهد على إقناع مسامعهم المراوغة. ولم تكن هناك أيّ جدوى من فعل ذلك، فهم لم يدحضوا حججها ولم يوافقوا عليها، بل كانوا ينظرون إليها كما لو أنّ حججها لا تربطها أيّ صلة بموضوعهم. وكان هناك صوت تأكيد خفيّ في إجاباتهم، كما لو أنّهم يعطونها تفسيرًا، لكنّه مشفّرٌ لا تملك مفاتيح لفكّ ألغازه.

ثمّ قال ويسلي ماوتش بشكل عابس:

- ثمّة مشكلة في ولاية كاليفورنيا، فمجلس هذه الولاية يتصرّف هذه الأيّام بغضب. وثمّة حديث عن الانفصال عن الاتّحاد.

فردّ كليم ويذربي بحذر:

- لقد غزت عصابات الفارّين ولاية أوريغون، وقتلوا اثنين من جامعي الضرائب خلال الأشهر الثلاثة الماضية.

وقال الدكتور فيريس بشكل حالم:

- لطالما ألححنا، بشكل صارخ، على أهمّيّة الصناعة لأيّ حضارة. إنّ ما يعرف الآن باسم دولة الهند الشعبيّة موجود منذ قرون خلت، لكن من دون أيّ تنمية صناعيّة تذكر.

فردّ يوجين لاوسون على نحو جادٍّ:

- يمكن للناس أن يستخدموا عددا قليلا من الوسائل المادّيّة، وأن ينضبطوا لمخطّطات التقشّف. سيكون هذا الأمر جيّدًا لهم.

فقال كوفي ميغز وقد وقف على قدميه:

- هل ستدَعون تلك السيّدة تقنعكم بترك أغنى دولة على وجه الأرض تضيع من بين أصابعكم؟ فهل ترون أنّ الوقت مناسب للتخلّي عن قارّة بأكملها؟ كلّ ذلك مقابل ولاية صغيرة تافهة لا تدرّ علينا أيّ شيء سوى الجفاف. أقول علنًا إنّ عليكم وَأْدَ ولاية مينيسوتا في أحد الخنادق، لكن تمسّكوا بشبكتكم العابرة للقارّات. فمع تزايد المشاكل وأعمال الشغب في كلّ مكان، لن تكونوا قادرين على فرض الأمن إلّا إذا كنتم تتوفّرون على وسائل النقل، وأعني هنا وسائل نقل القوّات العسكريّة، وذلك في رحلات قصيرة لا تدوم سوى بضعة أيّام من أيّ نقطة في القارّة. إنّ هذا الوقت ليس مناسبا للبتر والاجتثاث. لا داعي إلى الذعر والقلق عندما تستمعون إلى كلّ ذلك الكلام الذي قالته هذه السيّدة. فالبلاد في قبضة أيديكم، فقط حافظوا عليها.

فردّ ماوتش وهو في ريبةٍ من أمره:

- على المدى الطويل...

فقاطعه كوفي ميغز الذي كان يجوب القاعة قائلا:

- على المدى الطويل سنكون جميعًا في عداد الموتى. توجد غنائم كثيرةٌ في ولاية كاليفورنيا وولاية أوريغون وفي أماكن أخرى. ما كنت أفكّر فيه هو أنّنا يجب أن نعمل على التوسّع أكثر، فلا أحد هناك يستطيع إيقافنا. إنّ الغنائم تنظرنا هناك. وربّما يمكننا حتّى استعمار المكسيك وكندا. لا شيء يمكن أن يحول بيننا وبينهم.

كانت داغني تتأمّل ردودهم، وتلاحظ الفرضيّة السرّيّة التي تنزوي وراء كلماتهم. هؤلاء الرجال دفعوا إلى الأمام، ليس من خلال صورة الأفق الصناعيّ، بل من خلال رؤية ذلك الشكل من الوجود الذي أزاله الصناعيّون، رؤية راجا الهند البدين، الأمير القذر الذي يحدّق بكسل في طبقات اللحم التي تكسو جسمه المترهّل. الأمير الذي لا يملك أيّ همّ آخر سوى تكديس المجوهرات والأحجار الكريمة في أصابع يده. ومن حين إلى آخر يمسك سكّينًا ويضعها على رقبة جسد يتضوّر جوعًا للحصول على بضعة حبّات من الأرز. وبالطريقة ذاتها ينهبها من مئات الملايين من الناس. وبعد ذلك يحوّل هذه الغنائم من الأرز إلى أحجار كريمة.

كانت داغني تعتقد أنّ الإنتاج الصناعيّ قيمةٌ لا يمكن أن يشكّك فيها أحدٌ، وأنّ رغبة هؤلاء الرجال في مصادرة مصانع الآخرين هي اعتراف بقيمة المصانع. فهي، بوصفها من مواليد الثورة الصناعيّة، لم تكن تتصوّر وقوع ذلك، بل نسيته مع حكايات علم التنجيم والخيمياء. وما أدركه هؤلاء الرجال في أغوار أرواحهم السرّيّة الماكرة، لم يدركوه عن طريق الفكر، بل عن طريق ذلك الوحل المجهول الذي كانوا يسمّونه بغرائزهم وعواطفهم. وما دام البشر يكافحون من أجل البقاء على قيد الحياة، فإنّهم لن ينتجوا سوى القليل جدًّا، ولكنّ ذلك الرجل صاحب الهراوة لن يكون قادرًا على الاستيلاء على منتجاتهم وتركهم يعيشون على القليل منها، إلّا إذا عبّر الملايين منهم

عن الاستعداد للخضوع. وهم كلّما صعَّب عملهم، قلَّ مكسبهم، وزاد تسرّب الخضوع إلى تلابيب أرواحهم. ثمّ إنّ الناس الذين يكسبون قوتهم عن طريق سحب عتلات لوحة المفاتيح الكهربائيّة، ليس من السهل حكمهم، بينما يسهل حكم الناس الذين يعيشون عن طريق حفر التربة بأصابع عارية. والبارون الإقطاعيّ لم يكن في حاجة إلى المصانع الإلكترونيّة من أجل إلهاء نفسه بالشرب في الكؤوس المرصّعة بالجواهر، ولم يكن راجا الشعب في دولة الهند ليفعل أيضًا ذلك الأمر.

أدركت داغني الهدف الذي كانت تقودهم إليه «غرائزهم»، تلك الغرائز التي كانوا يصفونها بأنّها غير خاضعة للمساءلة. ولاحظت أيضًا أنّ يوجين لاوسون، الرجل الإنسانيّ، كان سعيدا باحتمال تكبيد البشريّة مجاعة لا تبقي ولا تذر. أمّا الدكتور فيريس، الرجل العالِم، فكان يحلم باليوم الذي سيعود فيه البشر إلى المحراث اليدويّ.

وكان ردّ فعلها يتلخّص في شكّها ولامبالاتها؛ الشكّ لأنّها لم تستطع تصوّر ما يمكن أن يقود الإنسان إلى مثل هذه الحالة، أمّا اللّامبالاة فلأنّها لم تعد تنظر إلى هؤلاء الذين وصلوا إلى تلك الحالة على أنّهم بشرٌ. لقد واصلوا الحديث، لكنّها لم تكن قادرة على الكلام أو الاستماع، بل شعرت أنّ رغبتها الوحيدة هي أن تعود أدراجها إلى المنزل وأن تغطّ في نوم عميق.

وهتف صوت عقلانيّ مهذّب بدت عليه علامات القلق:

- آنسة تاجارت.

هزّت رأسها، فإذا بها ترى نادلًا دمث الأخلاق يضيف:

- مساعد مدير محطّة تاجارت ينتظرك على خطّ الهاتف، ويلحُّ في الحديث إليك. يقول إنّها حالة طارئة.

واغتنمت هذه الفرصة لتنهض وتخرج من تلك القاعة، حتّى لو كان ذلك من أجل الاستجابة لنداء كارثة جديدة. كان من المريح لها سماع صوت مساعد المدير، على الرغم من أنّه يقول:

- يا آنسة تاجارت، لقد تعطّل نظام الغلق الأوتوماتيكيّ، وتعطّلت الإشارات. وهناك ثمانية قطارات قادمة وستّة خارجة وكلّها محتجزة ونحن لا يمكننا نقلها داخل أو الأنفاق خارجها، ثمّ إنّنا لم نستطع العثور على كبير سائقي القطارات أو تحديد موقع الخلل في الدارة الكهربائيّة. ولا نملك الأسلاك النحاسيّة لإجراء الإصلاحات اللّازمة. ولا نعرف الشيء الذي ينبغي أن نفعله. نحن...

فقاطعته وقالت:

- سأكون هناك حالا.

ثمّ أسقطت السمّاعة. وأسرعت في خطاها صوب المصعد، ثمّ ركضت وهي تعبر بهوَ فندقِ واين فوكلاند الفخمَ، فشعرت بعودة الحياة إليها وهي تلبّي هذا النداء. وكان توفّر سيّارات الأجرة عملة نادرة في تلك الأيّام، فلم تأتِ أيّ واحدةٍ منها كردّ على صافرة البوّاب. فهرولت بسرعة وسط الشارع، وقد نسيت ما كانت تلبس، متسائلة عن السبب الذي جعل لمسة الريح تبدو باردة وقريبة جدًّا.

كان ذهنها شاردًا يفكّر في المحطّة التي تنتظرها، إلى أن شاهدت بذهولٍ مشهدًا مفاجئًا. لقد رأت جسدًا نحيلًا لامرأة تسرع نحوها، وقد اجتاح شعاع عمود الإنارة شعرَها اللّامع، وذراعيها العاريتين، والبرنس الأسود الذي كان يلفّها وهيب الألماس على صدرها، والممرّ الطويل الذي يخلو من أيّ حركة في شارع المدينة الذي كان خلفها، وناطحات السحاب التي كانت تكشفها بعض نقاط من الضوء. ثمّ أدركت أنّها كانت ترى انعكاسَ صورتها في المرآة الجانبيّة من نافذة بائع الورود، لكنّها أدركت ذلك في وقت متأخّر جدًّا. لقد شعرت بسحر السياق الذي كانت تنتمي إليه تلك الصورة والمدينة. ثمّ شعرت بطعنة من الوحدة الكئيبة، وحدةٍ أوسع بكثير من طول ذلك الشارع الفارغ، وساورها الغضب من نفسها، ومن التناقض اللّامعقول بين مظهرها وسياق تلك الليلة وعمرها.

ثمّ رأت سيّارة أجرة وهي تتنقّل إلى زاوية، فلوّحت إليها ثمّ قفزت بداخلها وأغلقت

الباب بعنفٍ، وكأنّها توصده على الشعور الذي أملت في أن تخلِّفه على الرصيف الفارغ بجانب نافذة بائع الزهور. لكنّها أدركت -وهي تسخر من نفسها بمرارة وشوق- أنّ ذلك الشعور هو شعور التوقّع نفسه الذي انتابها أثناء حفلها الأوّل وصاحبها طويلًا خلال تلك الأوقات النادرة التي ودّت فيها أن يتناغم جمالُ الوجود الخارجيُّ مع رونقها الداخليّ. ثمّ قالت وهي تسخر من نفسها: «يا له من وقتٍ مناسب للتفكير»، غير أنّها سرعان ما صاحت في نفسها بغضب قائلة: «ليس الآن!»، لكنّ صوتًا كئيبًا رافق خشخشة عجلات سيّارة الأجرة ظلّ يسألها بهدوء: أنت يا من تؤمنين بوجوب العيش من أجل سعادتك الخاصّة، ماذا تبقّى منها الآن؟ وبأيّ شيء ظفرت في كلّ سنوات الكفاح؟ نعم، اعترفي: ماذا أَفَدْتِ من ذلك؟ أم إنّك أصبحتِ واحدةً من أولئك المنحطّين الذين ما عادوا يملكون إجابةً على هذا السؤال؟ ليس الآن! هكذا أمرت داغني ذلك الصوت الذي يعلو من أعماقها، حينما وصلت إلى مدخل محطّة تاجارت المضيء وقد لاح أمامها من مستطيل زجاج سيّارة الأجرة الأماميّ.

كان الرجال في مكتب مدير المحطّة مثل الإشارات المنطفئة، وكأنّهم هم أيضًا يشكُون من تعطّل دارة كهربائيّة من دون أن يوجد تيّارٌ يمكن أن يغذّيهم ويجعلهم يتحرّكون. نظروا إليها بنوع من السلبيّة الجامدة، كما لو أنّه لا شيء يهمّ الآن سواء خلّفتهم بلا حراك أو مدّتهم بمفتاح الحركة.

كان مدير المحطّة غائبًا ولم يتسنَّ لها العثور على كبير سائقي القطارات. لقد رأوه في المحطّة قبل ساعتين، لكنّه اختفى منذ ذلك الحين. وقد استنفد مساعد المدير قدرته على المبادرة عن طريق التطوّع للاتّصال بها. أمّا الآخرون فإنّهم تطوعوا لفعل أيّ شيء. وكان مهندس الإشارات شابًّا جامعيًّا في الثلاثينات من عمره، ظلّ يردّد بقوّة:

- لكنّ هذا لم يحدث من قبل يا آنسة تاجارت... لم يسبق أن تعطّل نظام الإغلاق الآليّ قطّ، وليس من المفترض به أن يتعطّل. نحن ندرك جيّدا أدوارنا، ويمكننا أن نقوم بأعمال الصيانة تمامًا كما يمكن لأيّ شخص آخر هنا أن يقوم بها، لكن ليس في حال تعطّل هذا النظام بشكل نهائيّ.

لم تستطع داغني الجزم بما إذا كان سبب العطل هو المرسل، وهو رجل مسنّ عمل سنوات طويلة في السكك الحديديّة وما يزال يحتفظ بذكائه، لكن لعلّه اختار إخفاء الأمر، أو ما إذا كانت أشهر الضغط قد خنقته إلى الأبد ومنحته سلامة الركود.

- يا آنسة تاجارت، نحن لا نعرف ما يتوجّب علينا فعله.

- نحن لا نعرف بمَن نتّصل وأيّ نوع من الإذن نحتاج إليه.

- لا توجد قواعد تحدّد ما ينبغي علينا فعله في مثل هذه الحالة.

- ولا توجد حتّى إشارة تدلّ على هويّة من يضع تلك القواعد.

استمعت داغني إليهم، ثمّ مدّت يدها فرفعت سمّاعة الهاتف من دون أن تنبس بأيّ كلمة، وأمرت مشغّل الخطوط الهاتفيّة بالاتّصال بنائب رئيس شركة جنوب الأطلسيّ في ولاية شيكاغو، والتحدّث إليه حتّى لو كان في المنزل أو استدعى الأمر إيقاظه من النوم.

وعندما سمعت على الخطّ صوتَ نائب مدير شركة جنوب الأطلسيّ التي تنافس شركة تاجارت، قالت:

- جورج؟ معك داغني تاجارت. هل تستطيع أن تعيرني السيّد تشارلز موراي، مهندس الإشارات الذي يعمل في محطّتكم بشيكاغو مدّة أربع وعشرين ساعة؟ أجل، أجل... صحيح... ليستقلّ طائرة حتّى يصل إلى هنا في أسرع وقت ممكن. أخبره بأنّنا سندفع له ثلاثة آلاف دولار.. نعم، في يوم واحد.. نعم، الأمر بهذا السوء.. نعم، سأدفع له نقدًا، ومن مالي الخاصّ إذا لزم الأمر ذلك. سأذلّل له كلّ الصعوبات التي قد يواجهها في الطريق إلى هنا. ما يهمّني هو أن يستقلّ أوّلَ طائرة من شيكاغو... لا يا جورج، لم يعد في شركة تاجارت العابرة للقارّات أيّ عقل ماهر... نعم، سأوفّر كلّ الوسائل التي يحتاج إليها مثل هذا الأمر.. شكرًا يا جورج. إلى اللقاء.

أغلقت الهاتف، ثمّ خاطبت على عجلٍ الرجالَ الذين كانوا يقفون أمامها صامتين،

من دون أن تكترث بالسكون الذي كان يخيّم على تلك القاعة وعلى كامل المحطّة حيث لم يعد يسمع صوت صرير العجلات، ومن دون أن تسمع الكلمات المرّة التي يبدو أنّ السكون كان يكرّرها: لم يعد هناك عقل ماهر في شركة تاجارت العابرة للقارّات... قالت:

- جهّزوا قطار رفع الحطام حالا، ثمّ أرسلوه إلى خطّ هدسون ليقتلع كلّ قدم من الأسلاك النحاسيّة، أيّ أسلاك نحاس سواء في إشارات المرور أو في أجهزة الهواتف أو في أيّ شيء من ممتلكات الشركة. أريدها أن تكون هنا بحلول الصباح.

- لكنّ خدمتنا على خطّ هدسون متوقّفة مؤقّتًا، وقد رفض مجلس الاتّحاد طلب تفكيك الخطّ.

- سأتحمّل هذه المسؤوليّة.

- ولكن، كيف يمكن إخراج قطار رفع الحطام من هنا ولا توجد أيّ إشارات؟

- ستكون لدينا إشارات خلال نصف ساعة من الآن.

- كيف؟

- هيّا بسرعة، كفى أسئلةً.

نهضت، فتبعوها بينما كانت تعبر منصّات الركّاب بسرعة، متجاوزةً الحشود، لإزاحة مجموعات المسافرين من القطارات العديمة الحركة. ثمّ أسرعت وهي تعبر منصّة ضيّقة، ومتاهة من السكك الحديديّة، متجاوزةً الإشارات العمياء والمفاتيح المجمّدة، التي لا يصدر منها أيّ شيء سوى إيقاع صندلها الحريريّ الذي يملأ الأقبية الكبيرة لأنفاق شركة تاجارت العابرة للقارّات، يرافقه صرير الألواح الجوفاء تحت الخطوات البطيئة للرجال الذين كانوا يتبعونها مثل تردّد الصدى. وهرولت باتّجاه مكعّب زجاجيّ مضاء لبرج كتب عليه 'البرج ألف' كان معلّقًا في الظلام مثل تاجٍ بلا جسد، تاج حاكم مخلوع فوق عالم من المسارات الفارغة.

وكان مدير البرج رجلًا خبيرًا جدًّا في مهمّة صعبة وفي غاية الدقّة جعلته قادرًا بإطلاقٍ على إخفاء ما في الذكاء من عبء خطير. لقد فهم ما أرادت منه أن يفعله بمجرّد نطقها بالكلمات الأولى، فأجابها:

- حاضر يا سيّدتي.

لكنّه كان منحنيًا على مخطّطاته عندما لحق بها الآخرون بعد الصعود من الدرج الحديديّ. كان منهمكًا في مهمّة حسابيّة مهينة لم يسبق له أن قام بها طيلة مسيرته المهنيّة الطويلة. أمّا هي فكانت تعرف تمامًا أنّه فهمها من لمحة واحدة أشارت بها إليه، لمحة من السخط والتحمّل انسجمت مع بعض المشاعر التي التقطها في تقاسيم وجهها. ورغم أنّ الرجل لم يصدر منه أيّ تعليق فإنّها قالت:

- سننجز ذلك أوّلا، ثمّ نقيّم الموقف ونناقش الأمر في ما بعد.

فأجابها:

- حاضر يا سيّدتي.

كان يعمل في قاعة على قمّة برج تحت الأرض، مثل شرفة زجاجيّة تطلّ على تيّار قطارات كان ذات زمن الأسرع والأغنى والأكثر تنظيمًا في العالم. وقد تمّ تدريبه على رسم مسار لأكثر من تسعين قطار في الساعة ومشاهدتها وهي تسير بأمان عبر متاهة من المسارات والمفاتيح داخل المحطّة وخارجها، تحت جدرانه الزجاجيّة وبإشارة من أطراف أصابعه. الآن، وللمرّة الأولى، هو ينظر إلى الظلام الفارغ لقناة خالية.

من خلال باب قاعة المناوبة المفتوح، رأت داغني رجال البرج وهم يقفون بتجهُّمٍ وخمول، هؤلاء الرجال الذين لم يحظَ أحدهم يومًا بلحظة استرخاء بسبب طبيعة وظائفهم. وقفوا في صفوف طويلة مثل طيّات النحاس العموديّة أو مثل رفوف الكتب. ثمّ إنّ سحبَ إحدى العتلات الصغيرة، التي برزت مثل الإشارات المرجعيّة بين الرفوف، بثَّ الحركةَ في آلاف الدوائر الكهربائيّة، وحقّقَ آلاف الاتّصالات، وأثار جهات اتّصالٍ أخرى عديدةً، وحرّك عشرات المفاتيح لمسح المسار المختار وعشرات

الإشارات لإضاءته، من دون أن يرتكب أيّ خطإٍ، أو يترك أدنى هامش للخطإ أو التناقض، وبتعقيدٍ هائل للفكر الذي تكثّف في حركة واحدة من يد إنسان لوضع مسار القطار وتأمينه، القطار الذي قد تندفع فيه مئات القطارات بأمانٍ، وقد تمرّ فوقه آلاف الأطنان من المعادن والأرواح البشريّة في شرائط مسرعة لا يفصل بعضها عن بعضٍ سوى مسافة نَفَسٍ بسيط. فقالت داغني في نفسها وهي ترمق وجه مهندس الإشارات: لكنّهم كانوا يؤمنون بأنّ الانقباض العضليّ ليد الإنسان هو الشيء الوحيد المطلوب لتحريك حركة المرور. ها هم رجال البرج الآن واقفون في خمولٍ، وها هي اللوحات العظيمة التي كانت تومض معلنة تقدّم القطارات على مسافةَ أميالٍ تشبه الآن خرزات الزجاج، خرز باعت جزيرة مانهاتن من أجله آخر سلالة من الهمج.

ثمّ قالت داغني لمساعد المدير:

- اتّصل بكلّ العمّال غير المهرة بمَن فيهم أولئك الذين يعملون بسواعدهم، والذين يتعقّبون خطوط السكك، والذين ينظّفون المحرّكات، وأيّ عامل يوجد الآن في المحطّة، واطلب منهم أن يكونوا هنا حالا.

- هنا؟

فردّت وهي تشير إلى المسارات خارج البرج:

- طبعًا هنا، واتّصل أيضًا بكلّ رجال التبديل. اتّصل بمخازنكم واطلب من الرجال هناك أن يحضروا أيّ فانوس يضعون أيديهم عليه، أيّ نوع من الفوانيس سواء كانت فوانيس موصلات أو فوانيس العواصف أو أيّ فانوس آخر.

- هل تحتاجين إلى الفوانيس يا آنسة تاجارت؟

- نعم، فقط افعل ما أمرتك به.

- حاضر سيّدتي.

سألها المرسل:

- وما العمل الذي سنقوم به يا آنسة تاجارت؟

- سنحرّك القطارات يدويًّا.

قال مهندس الإشارات مستغربًا:

- يدويًّا؟

ردّت عليه داغني بعنف:

- نعم يا أخي! وما العجب في ذلك، ولماذا أراك مصدومًا من هذا الأمر؟ أليس الإنسان مجرّد كتلة من العضلات؟ سنعود إلى ذلك الزمان الذي لم تكن فيه أنظمةُ تشابكٍ أو أيّ أعمدة إشارات أو كهرباء، الزمان الذي لم تكن فيه إشارات القطار تتألّف من الفولاذ والأسلاك، الزمان الذي حمل فيه الناس بأجسادهم علامات الإنارة. كنتَ قديمًا تدافع عن هذه الطريقة، ها أنت الآن تحقّق ما كنت تدافع عنه. ألم تعتقد في يوم مّا أنّ أدواتك هي ما يحدّد أفكارك؟ فلماذا يحدث العكس الآن. أنت ذاهب لترى نوع الأدوات التي حدّدت أفكارك!

ثمّ قالت في داخلها، وهي تشعر بالمفارقة العجيبة التي ورّطت فيها نفسها: ولكن حتّى العودة تحتاج إلى الذكاء.

- وكيف سنشغّل مفاتيح التبديل يا آنسة تاجارت؟

- باليد.

- والإشارات؟

- باليد.

- وكيف سيتمّ ذلك؟

- بوضع رجلٍ يحمل فانوسًا في كلّ موقع إشارة.

- وكيف سيكون ذلك ممكنًا ونحن لا نملك مساحة شاغرة وكافية؟

– سنستخدم مسارات بديلة.

– وكيف سيعرف الرجال أيّ مسار ستشغّل فيه مفاتيح التبديل؟

– سيتمّ ذلك بأوامر مكتوبة.

– آه؟

– بأوامر مكتوبة كما في الأيّام الخوالي.

ثمّ أشارت إلى مدير البرج. وأضافت:

– إنّه يعمل على جدول زمنيّ لتحديد كيفيّة نقل القطارات والمسارات التي ستُسْتَخْدَم. سيكتب طلبًا لكلّ إشارة ومفتاح، وسيختار بعضَ الرجال كعدّائين يستمرّون في توصيل الطلبات إلى كلّ موقع.

– وهل سنعمل بهذه الطريقة طوال الليل؟

– وطوال يوم غدٍ. سنعمل بها إلى أن يصل المهندس الذي سيوضّح لكم كيفيّة إصلاح المحاور.

– لا تتحدّث عقود النقابة عن وقوف الرجال وهم يحملون الفوانيس. قد يتسبّب هذا الأمر في مشكلة مّا. لا شكّ أنّ النقابة ستعترض على ذلك.

– دعهم يأتوا إليّ.

– مجلس الاتّحاد أيضًا سيعترض على هذه الطريقة.

– سأتحمّل المسؤوليّة كاملة أمام المجلس.

– حسنا، أنا لا أريد أن أسجن بسبب إصدار الأوامر...

– أنا من سيصدر الأوامر.

ثمّ خرجت ونزلت في السلم الحديديّ الذي علّق على جانب البرج. كانت تحاول

جاهدةً أن تضبط أعصابَها. وبدا لها الأمر لحظةً كما لو أنّها هي أيضًا أداة دقيقة في هذه التكنولوجيا العالية الجودة التي انقطع عنها التيّار الكهربائيّ، محاولةً تشغيل السكك الحديديّة العابرة للقارّات بيديها. ونظرت إلى الظلام الصامت العظيم تحت الأرض فشعرت بطعنة من الإذلال الحارق الذي كانت تراه وهو يهوي بها في الدرك الأسفل، أي إلى المستوى الذي ستقف فيه أعمدة الإنارة البشريّة في أنفاقها فتكون آخر نصبها التذكاريّة.

وعندما تجمّع الرجال عند سفح البرج، استطاعت داغني بصعوبةٍ كبيرة أن تتبيّن وجوههم. لقد تدفّقوا بصمت في الظلام، ووقفوا بلا حراك في العتمة التي تميل إلى الزرقة بسبب المصابيح الزرقاء التي كانت مثبّتة في الجدران، وبسبب بقع الضوء التي كانت تسقط على أكتافهم من نوافذ البرج. كانت ترى الملابس الدهنيّة، والأجساد المتاقلة ذات العضلات المفتولة، وأذرع الرجال الرشيقة التي استُنزفت بسبب الإرهاق في عملٍ غير مجدٍ. كان هؤلاء الرجال يمثّلون حثالة السكك الحديديّة التي تتكوّن من شبابٍ لا يستطيعون الآن البحث عن فرصة أخرى للارتقاء، وكهولٍ لم يرغبوا قطُّ في البحث عنها. وقفوا في صمت وهم يفتقدون إلى الفضول. وقفوا ومسحة من اللّامبالاة الشديدة تكسو وجوههم تمامًا مثل أيّ شخص محكوم عليه بالإعدام.

فقالت داغني وهي تقف فوق السلالم الحديديّة:

- الأوامر التي ستسمعونها صدرت كلّها عنّي، والرجال الذين سينقلونها إليكم يخضعون جميعهم لسلطتي. إنّ نظام التحكّم المتشابك معطّل، وسيتمّ تبديله الآن بالعمل البشريّ لكي تستأنف القطارات رحلاتها في الحال.

لقد لاحظت أنّ بعض الوجوه كانت ترميها بنظرات غريبةٍ. كانت تنظر إليها باستياء مستتر ونوعٍ من الفضول الوقح الذي جعلها تنتبه فجأةً إلى أنّها امرأة. ثمّ تذكّرت الملابس التي كانت ترتديها، فأحسّت بأنّها تجعلها تبدو سخيفة. ثمّ شعرت لحظةً بطعنة

مفاجئة من دافع عنيف يشبه التحدّي والصدق الكامل للمعنى الحقيقيّ، فألقت ببرنسها جانبًا، ووقفت منتصبة قبالة الوهج الفجّ المنبعث من الضوء تحت الأعمدة مثل شخصيّة مهمّة في حفل استقبال رسميّ، تتباهي بترف ذراعيها العاريتين والحرير الأسود المتألّق والمجوهرات المتلألئة مثل صليب عسكريّ. ثمّ أضافت:

- سيعيّن مدير البرج رجالَ التبديل في مواقعهم الجديدة. وسيختار الرجال الذين يحملون الفوانيس كعلامات إشارة، وسيختار رجالًا آخرين لمهمّة نقل أوامره. أمّا القطارات فسوف...

ثمّ توقّفت عن الكلام، لأنّها كانت تحاول جاهدةً كتمَ صوتٍ يقول بمرارة في أعماقها: هذا كلّ ما يناسب هؤلاء الرجال، حتّى لو.. لم توجد كفاءة أخرى في أيّ مكان بشركة تاجارت العابرة للقارّات... ثمّ واصلت حديثها:

- ستستمرّ القطارات في التنقّل داخل المحطّة وخارجَها، وستلتزمون بمواقعكم حتّى...

ثمّ توقّفت عن الكلام مجدّدًا، لكن هذه المرّة لأنّها رأت عينيه وشعره، تينك العينين المتبصّرتين اللتين لا تعرفان الرحمة، وخصلات الشعر المذهّبة التي تعكس وهج الشمس في الظلمة تحت الأرض. لقد رأت جون جالت في سلسلة عصابة من الأغبياء. كان جون جالت يرتدي بدلة عمل دهنيّة وقميصًا بكمّين ملفوفَين. ولاحظت داغني طريقة وقوفه الرشيقة ووجهه المشدود وعينيه اللتين ما تنفكّان تنظران إليها.

- ما خطبك يا آنسة تاجارت؟

هكذا خاطبها صوتُ مديرِ البرجِ الناعمُ الذي كان واقفًا إلى جانبها يحمل أحد أنواع الأوراق بيده. وظنّت أنّ من الغريب أن يظهر جالت أمامها خلال فترة من اللّاوعي التي لم تشهدها من قبل، ذلك اللّاوعي الذي اخترق أشدّ حالات الوعي عندها، إلّا أنّها لم تعرف كم من الوقت استمرّت تلك الحالة أو مكانها أو سببها. كانت على وعي

برؤية وجه جالت، وشكل فمه وخطوط وجنتَيه، وذلك الصفاء العنيد الذي كان دائمًا يرافقه، وما يزال يحتفظ به في نظرة اعترافٍ بالاختراق والإقرار بأنّ تلك اللحظة هي أكثر اللحظات عدلًا بالنسبة إليه.

ثمّ علمت أنّها استأنفت خطابها، لأنّ الذين حولها كانوا يَبدون كما لو أنّهم يستمعون، على الرغم من أنّها لم تستطع سماع أيّ صوت. واستمرّت في حديثها كما لو أنّها تحت تأثير حبوب منوّمة تناولتها منذ زمن، وهي تعلم أنّ إنهاء ذلك التأثير شكلٌ من أشكال التحدّي، ممّا جعلها لا تدرك كلماتها ولا تسمعها.

شعرت وكأنّها تقف في صمت متألّق، حيث البصر هو قدرتها الوحيدة التي لا هدف لها إلّا وجهه، وكانت رؤية وجهه مثل خطاب يضغط على قاعدة حلقها. وبدا من الطبيعيّ أنّه ينبغي أن يكون هناك، بل بدا الأمر بسيطًا جدًّا، فشعرت كما لو أنّ الصدمة لا تكمن في وجوده، بل في وجود الآخرين على مسارات سككها الحديديّة التي كانت تمثّل الموطن الذي ينتمي إليه، أمّا هم فغرباء عن ذلك المكان. وبدا لها الأمر كما لو أنّها كانت ترى تلك اللحظات تمرّ وهي على متن قطارٍ يعبر الأنفاق، فشعرت بتوتّر مفاجئ ومهيب، وكأنّ ذلك المكان يُظهر لها ما في جوهر خطّ سكّة حديدها وحياتها من بساطة واضحة، اتّحد فيها الوعي والمادّة، ذلك الشكل المجمّد لإبداع العقل الذي يمنح وجودَه المادّي هدفًا؛ ثمّ انتابها شعور من الأمل المفاجئ، وكأنّ ذلك المكان يحمل معنى كلّ قيمها بشعورٍ من الإثارة السرّيّة، كما لو أنّ وعدًا مجهولًا ينتظرها تحت الأرض. كان من الصواب أن تقابله الآن هناك، فقد كان هو المعنى والوعد. إنّها لم تعد ترى ملابسه ولا أيّ مستوى وضعه فيه خطّ السكة الحديديّة الخاصّ بها. كانت ترى فقط تلاشي عذاب الأشهر التي عانت منها وهو خارج متناول يدها، وكانت ترى في وجهه اعترافًا بما كلّفته تلك الأشهر. والخطاب الوحيد الذي سمعته بدا كأنّه قد صدر عنها: هذه هي المكافأة على كلّ أيّام الصبر التي قضّيتها. أمّا هو فبدا كأنّه يجيب: هي أيضًا المكافأة على الأيّام التي راقبتكِ فيها من بعيدٍ.

ثمّ أدركت أنّها أنهت كلامها مع الغرباء عندما لاحظت أنّ مدير البرج تقدّم وأخذ

يقول شيئًا لهم وهو يلقي، من حين إلى آخر، نظرةً خاطفة في قائمة كان يمسكها بيده. ثمّ ساورها يقين لا يقاوَم، فوجدت نفسها تنزل الدرج، وتتسلّل بعيدا عن الحشد. ولم تتّجه نحو المنصّات أو ممرّ الخروج، بل صوب ظلام أنفاق مهجورة. وقالت في نفسها: أنت ستقفو خطواتي... وشعرت كما لو أنّ أفكارها لم تكن تُتَرجَم في شكل كلمات، بل في شكل توتّر يزحف على كلّ عضلاتها بسبب رغبتها في إنجاز شيء تدرك جيّدًا أنّه لن يطاوع سلطتها. ومع ذلك كانت مقتنعة بأنّه سيتحقّق وسينجز وفقًا لرغبتها... ثمّ قالت في نفسها: لا، لن ينجز وفقًا لرغبتي، بل وفقًا لأحقيّتي به. وسوف تقفو خطواتي... لم يكن ذلك نداء أو صلاة أو رجاء، بل بيانَ حقيقة هادئة، يتضمّن كلّ ما تتمتّع به من قوّة المعرفة التي اكتسبتها خلال كلّ السنوات الماضية. سوف تقفو خطواتي، إذا كنّا ما نحن عليه، أنا وأنت، وإذا كنّا نعيش الآن وكان العالم موجودًا دونما تغيير، وإذا كنت تدرك معنى هذه اللحظة ولا تريد أن تَدَعَهَا تفلت من بين يديك مثلما يفعل الآخرون بحماقة ينعدم فيها شعورهم تجاه ما هو صعب المنال وما يستحيل تحقيقه. سوف تقفو خطواتي... هكذا شعرت. وقد لازمها هذا الشعور الذي لم يكن رجاء ولا إيمانا، بل فعلَ عبادة لمنطق الوجود.

كانت تسرع إلى أسفل بقايا القضبان المهجورة وأسفل الممرّات الطويلة المظلمة وبين جدران الجرانيت. لقد فقدت صوتَ مدير البرج وتركتهُ خلفها، ثمّ شعرت بنبض شرايينها، وسمعت، كما يسمع المرء ردًّا موقّعًا، نبضَ المدينة يحوِّمُ فوق رأسها. لكنّها شعرت كأنّ حركة دمها استحالت صوتا يملأ المكان، وأنّ حركة المدينة استحالت نبضا يسري داخل جسدها. ومن بعيد، سمعت صوت الخطوات. فلم تلتفت إلى الخلف، بل ظلّت تحث خطاها.

ثمّ عبرت من باب حديديّ كان مغلقًا على القبو حيث خُزّنت بقايا محرّكه. لم تتوقّف، لكنّ هزّة خافتة ردّت على نظرتها المفاجئة إلى الوحدة والمنطق في تسلسل أحداث العامَين الماضيَيْن. وكانت هناك سلسلة من الأضواء الزرقاء تنتشر في الظلام، تنتشر فوق بقع لامعة من الجرانيت، وفوق أكياس الرمل الممزّقة التي بدأ محتواها يحدث

تآكلًا في القضبان، وفوق أكوام الخردة المعدنيّة. وعندما سمعت الخطوات تقترب، توقّفت، ثمّ التفتت إلى الخلف.

رأت موجة من الضوء الأزرق تومض فترةً وجيزةً على خصلات شعر جالت اللّامعة، فلاحظت التقاسيم العريضة والشاحبة التي تعلو وجهه، والتجاويف الداكنة في عينيه. ثمّ اختفى الوجه، لكنّ صوت خطواته كان بمثابة رابطٍ انسجم مع وميض الضوء الأزرق الذي اجتاح خطّ عينيه، تَيْنِكَ العينين اللتين ظلّتا ثابتين في المستوى نفسه، وموجّهتين إلى الأمام. كانت متأكّدة من أنّه يراقبها منذ أن رآها في البرج.

وسمعت نبض المدينة فوقها. لطالما اعتبرت في السابق أنّ هذه الأنفاقَ تمثّل جذورَ المدينة وأصلَ كلّ حركة تمتدّ فتبلغ حدود السماء. إنّهما، داغني وجون جالت، كانا بمثابة القوّة الحيّة التي تدبّ في تلك الجذور. لقد كانا بمثابة البداية والهدف والمعنى. وكانت تعتقد أنّ جون جالت ينصت هو أيضًا إلى نبض المدينة مثلما ينصت إلى نبض جسده.

ألقت برنسها على الأرض، ثمّ وقفت مستقيمةً على نحو متحدٍّ، مثلما رآها تقف على درجات البرج، ومثلما رآها أوّلَ مرّة، قبل عشر سنوات، هناك تحت الأرض. كانت تستمع إلى كلمات الاعتراف التي يدلي بها، غير أنّها لم تكن كلمات، بل بدت بمثابة النبض الذي جعل تنفّسه يبدو أمرًا عسيرًا. كانت بمثابة رمز إلى الترف:

- يبدو أنّك كنت تعيدين متعة الحياة إلى أصحابها الشرعيّين... كنت تتمتّعين بنظرة ثاقبة وبفيض من الطاقة... وأنا كنت الرجل الأوّل الذي يصرّح بأنّ هاتين القيمتين لا تنفصلان...

كانت اللحظات الموالية مثل ومضات ضوءٍ في مساحات من العمى وفقدان الوعي، توزّعت بين اللحظة التي رأت فيها ملامحَ وجهه وقد كساها الهدوء المتزّن والشدّة المقيّدة والضحك المتفهّم، واللحظة التي أدركت فيها ما رآه في وجهها من خلال قسوة شفتيه المشدودتين، واللحظة التي شعرت فيها بالتقاء فمه مع فمها، لحظة أحسّت فيها

بشكل فمه كشكل مطلق وكسائل يملأ جسدها، وبحركة شفتيه وهما تمرّان بخطّ رقبتها، وبحركة الارتشاف التي تركت أثرا عميقًا، وببريق ألماسها وهي تواجه رعشة اللون النحاسيّ لخصلات شعره.

لم تكن واعية بأيّ شيء سوى أحاسيس جسدها، لأنّه اكتسب قوّة مفاجئة أتاحت لها معرفةَ قيمها الأكثر تعقيدًا من خلال الإدراك المباشر، تمامًا مثلما كانت لعينيها قدرةٌ على ترجمة أمواج الطاقة وتحويلها إلى أشياء مرئيّة، ومثلما كانت لأذنيها قدرة على ترجمة الاهتزازات وتحويلها إلى أصوات. وهكذا أصبح لجسدها الآن قدرةٌ على ترجمة الطاقة التي نقلت جميع خيارات حياتها إلى الإدراك الحسّيّ الفوريّ. لم تكن قبضة يده هي التي جعلتها ترتعش، بل المجموع الآني لمعنى تلك القبضة، ومعرفتها أنّ يدَه هي التي كانت تقوم بها، وتتحرّك كما لو أنّ لحمها ملكٌ له، وأنّ حركتها توقيعُ قبولٍ تحت كلّ ذلك الإنجاز الذي كان يتلخّص في ذاتها. لم تكن مجرّد إحساس بالمتعة الجسديّة، بل تضمّنت كلّ معاني التقديس، وكلّ شيء يتّصل بشخصه وحياته، ابتداءً من ليلة اللقاء الجماهيريّ في مصنع ولاية ويسكونسن، مرورًا بمدينة أطلانتس والوادي الخفيّ في جبال الروكي، وصولًا إلى السخرية المنتصرة لصاحب العينينِ الخضراوين والذكاء الفائق الذي تجسّد في شخص عامل عند سفح البرج. كانت تتضمّن اعتزازها بذاتها وبأنّها هي من اختارت أن تكون مرآته العاكسة وبأنّ جسدها هو الذي يمنح الآن معنًى لوجوده، مثلما أنّ جسده هو ما يمنح وجودها معنًى. تلك هي الأشياء التي احتوت عليها، لكنّ ما كانت تعيشه في الواقع هو الإحساس بحركة يده على نَهْدَيْها.

نزع برنسها، فشعرت برقّة جسدها من خلال دائرة ذراعَيه، كما لو أنّ شخصه كان مجرّد أداة لوعيها بذاتها المنتصرة، ولكنّ تلك الذات كانت مجرّد أداة لوعيها به. كان الأمر أشبه بوصولها إلى الحدود القصوى من قدرتها على الشعور، ولكنّ ما شعرت به كان مثل صرخة استغاثة ما تنفكّ تتجدّد، صرخة عجزت عن تسميتها، إلّا أنّها تتمتّع بالطموح نفسه الذي يطبع مسار حياتها، وبالصفة ذاتها التي لا تنضب من الشهوة المتألّقة.

سحب رأسها إلى الخلف لحظةً، لينظر مباشرة إلى عينيها ويدعها ترى عينيه،ويسمح لها بمعرفة معنى أفعالهما الكامل، كما لو أنّه كان يسلّط الضوء على إدراك معنى لقاء العيون في لحظة حميمة أعظم من كلّ اللحظات التي ستليها.

ثمّ شعرت بشبكة الخيش تحتكّ بجلد كتفيها. لقد وجدت نفسها مستلقية على أكياس الرمل الممزّقة، ولاحظت اللمعان الطويل لجوربيها الضيّقين، ثمّ شعرت بضغط فمه على كاحلها، ثمّ ارتفع بحركة معذّبة طالت خطّ ساقيها كما لو أنّه يرغب في امتلاك شكلهما بواسطة شفتيه، ثمّ شعرت بأسنانها وهي تغرق في لحم ذراعه، وأحسّت باجتياح مرفقه عندما احتكّ برأسها، ثمّ استولى فمه على شفتيها وضغط عليهما بقوّة. وعندما انهال بالتقبيل على رقبتها، أدركت أنّ الحركة التصاعديّة المتتالية كانت مجرّد حركة حرّرت جسدها ووحّدته في غمرةٍ واحدةٍ من المتعة. ثمّ لم تدرك أيّ شيء آخر سوى حركة جسده الذي يغلي بالشهوة، وكأنّها لم تعد شخصًا بل مجرّد إحساس لا نهاية له، إحساس يحاول الوصول إلى المستحيل. ثمّ أدركت أنّ المستحيل كان ممكنًا، فأصدرت آخر أنفاسها وسكنت، وهي تعلم أنّها لم تعد ترغب في أيّ شيء آخر.

استلقى بجانبها، ثمّ أخذ ينظر في ظلام قبو الجرانيت. ثمّ رأته وهو مستلقٍ على منحدر أكياس الرمل الخشن، كما لو أنّ جسده كان مادّة سائلة في حالة استرخاء، ورأت أيضًا إسفينَ برنسها الأسودَ وقد قذف به عبر القضبان التي تنتصب عند أقدامهما. وكانت هناك قطرات من الرطوبة المتلألئة في القبو، تتنقّل ببطء، ثمّ تسيل فتصبح غير مرئيّة بين الشقوق، مثل أضواء حركة المرور التي تلوح من بعيدٍ. وعندما تكلّم بدا صوته وكأنّ يواصل بهدوء الإجابة على الأسئلة التي خطرت ببالها، وكأنّه ليس لديه ما يخفيه عنها. كلّ ما كان مدينًا لها به الآن هو فعل تعرية روحه، مثلما عرّى جسده:

– هكذا راقبتكِ عشر سنوات.. من هنا، من تحت الأرض التي تجلسين عليها.. كنت أحاول معرفة كلّ خطوة تقدمين عليها في مكتبك، لكنّ الرؤية لم تكن واضحة بما فيه

الكافية.. عشر سنوات قضّيتها وأنا أسترق النظر إليك من هنا على المنصّات وأنت تركبين القطار.. وكلّما صدر الأمر بوصل عربتك بالقطار، كنت أنتظر قدومك ورؤيتك وأنت تنزلين من القطار، وكنت أتمنّى لو أنّك لا تسيرين بتلك السرعة.. تلك المشية، لقد كنت قادرًا على التعرّف عليها في أيّ مكان.. مشيتك وخطوات ساقيك.. في العادة، كنت أرى ساقيك أوّلًا، وأنت تهرولين في المنحدر، بينما أرمقك من المسار الجانبيّ المظلم في الأسفل... أعتقد أنّه كان بإمكاني نحت تمثال لساقيك. كنت أعرفهما، ليس لأنّني رأيتهما، بل لأنّني نجحت في تخيّل ملمسهما عندما أشاهدك تمرّين أمامي.. وعندما أعود إلى عملي.. وعندما أعود إلى المنزل قبل شروق الشمس لأحصل على ثلاث ساعات من النوم التي لم أكن أحظى بها...

قالت بنبرة هادئة:

- أنا أحبّك.

فأغمض عينيه كما لو أنّه يسمح للصوت بالسفر عبر السنوات التي مضت. ثمّ أضاف:

- عشر سنوات يا داغني... في إحدى المرّات كنت أمامي. رأيتك بشكل واضح. كنت في متناول يدي، لأنّك تمشين الهوينى، كما لو أنّك على خشبة مسرح مضاءة، خشبة مسرح خاصّة بي، ولا أحد يراك سواي... راقبتك ساعاتٍ خلال أمسيات عديدة... في نافذة المكتب المضيئة، المكتب الذي كنت تسمّينه خطَّ جون جالت... وفي ليلة من الليالي...

وصدر من أنفاسها صوت لهاث خافت:

- هل أنت من زارني في تلك الليلة؟

- وهل رأيتني؟

- رأيت ظلّك... على الرصيف... يسير جيئة وذهابا.. وبدا الأمر كأنّه صراعٌ...

بل بدا الأمر كأنّه...

ثمّ توقّفت عن الكلام، لأنّها لا ترغب في قول إنّ هذا الأمر كان يبدو كأنّه عذاب.

وردّ عليها بهدوء:

- لقد كان الأمر كذلك.. في تلك الليلة، أردت أن أواجهك وأتحدّث إليك.. في تلك الليلة.. كنت سأنكث عهدي عندما رأيتك تنحنين على المكتب، وعندما رأيتك تتحطّمين بسبب العبء الكبير الذي كان ملقًى على عاتقك...

- جون، لقد كنت في تلك الليلة أفكّر فيك.. وكلّ ما في الأمر أنّي لم أكن أعرف ذلك...

- لكنّني كنتُ أعرف.

- كنت أفكّر فيك طوال حياتي، أفكّر في كلّ شيء فعلتَه وكلّ شيء كنت ترغب في فعله...

- أعرف ذلك.

- جون، مغادرة الوادي لم تكن أصعب شيءٍ... بل...

- خطابك الإذاعيّ يوم عودتك؟

- نعم. هل سمعته؟

- بطبيعة الحال. أنا سعيد لأنّك فعلت ذلك. كان عملًا رائعًا...

- وهل كنت تدرك طبيعة العلاقة التي تجمعني بهانك ريردن؟

- كنت أعرف ما يجمعكما قبل أن أراك في الوادي.

- حقًّا.. هل كنت تتوقّع ذلك؟

- لا.

- هل كان...

ثمّ توقّفت عن الكلام.

فقال جالت:

- صعبًا؟! أجل، لكن فقط في الأيّام الأولى. وفي الليلة الموالية... هل تريدين منّي أن أخبرك بما فعلت في الليلة؟

- أجل.

- لم أرَ هانك ريردن من قبل. كنت فقط أعرفه من خلال صوره في الصحف. لقد علمت أنّه كان في نيويورك تلك الليلة لحضور مؤتمر للصناعيّين الكبار. لذلك أردت أن ألقي نظرة واحدة عليه. فذهبت إلى هناك وتسمّرت عند مدخل الفندق حيث كان ذلك المؤتمر سيُعقَد. وكانت هناك أضواء ساطعة تحت سرادق المدخل، ولكنّ المكان على الرصيف كان مظلمًا، ممّا سمح لي برؤيته من دون أن يراني أيّ شخص. وكان هناك بعض المتسكّعين والمتشرّدين والصعاليك الذين ينتشرون على الرصيف، وهناك رذاذ من المطر، فكنّا نحتمي بجدران المبنى. وكان يمكن لأيّ منّا تمييز أعضاء المؤتمر من خلال ملابسهم المترفة وأسلوبهم المتعجرف، كما لو أنّهم يشعرون بالذنب، فيحاولون إخفاءه بهذه الطريقة. كان هناك سائقون يقودون سيّاراتهم، وأثناء نزولهم يتهافت عليهم بعض الصحفيّين لأخذ التصريحات. كانوا أناسًا متعبين، بسبب الشيخوخة والترهّل، ومتوتّرين يحاولون جاهدين إخفاء كلّ مظاهر اللّايقين. ثمّ رأيته وهو يرتدي معطفًا ثمينًا وقبّعة مائلة تخفي عينيه. كان يمشي بسرعةٍ وبثقة كان جديرًا بها. ثمّ انهال عليه بعض زملائه الصناعيّين بالأسئلة. كان هؤلاء الرجال الذين يمثّلون أقطابَ المال والأعمال يتصرّفون مثلما تصرّف الصحفيّون. لقد لمحته وهو يقف ويده على باب سيّارته، ورأسه مرفوع في شموخ، ورأيت توّهجًا قصيرًا في ابتسامة ظهرت من تحت قبّعته المائلة، ابتسامة واثقة تنمّ عن نفاد صبره وقلّة استمتاعه بالحدث. وبعد ذلك، فعلتُ شيئًا لم أكن لأجرأ على فعله من قبل، لقد فعلتُ ما يودّ معظم الناس فعله

حتّى إن كلّفهم ذلك تدمير حياتهم. رأيت تلك اللحظة خارج السياق، رأيت عالما من الإنجاز، والطاقة المتحرّرة والمسيرة التي لم يوقفها أيّ عائق خلال تلك السنوات الهادفة التي كان يتمتّع بها كمكافأة يستحقّها. لقد رأيت، وأنا أقف تحت زخّات المطر وسط حشد من المتشرّدين، ما ستجلبه لي السنين لو كان ذلك العالم موجودًا، فشعرت بحنين يائس. كان صورة لكلّ شيء يجب أن أكونه... وكان لديه كلّ شيء يجب أن يكون لديّ... لكنّها مجرّد لحظة. ثمّ رأيت المشهد في سياقه الكامل مجدّدًا وفي معناه الفعليّ، فأدركت أيَّ ثمن كان قد دفعه لاكتساب تلك القدرة الرائعة، وأيّ عذاب كان يعاني منه في حيرته الصامتة، وهو يناضل من أجل فهم ما سبق لي أن فهمته. لقد رأيت أنّ العالم الذي يقترحه لم يكن موجودًا، بل ما يزال في طورِ التَّشكّل. فرأيته مجدّدًا على ما كان عليه، رمزًا إلى معركتي، ذلك البطل الذي كان لا بدّ لي من الانتقام منه والإفراج عنه بعد ذلك... ثمّ قبلت ما حدث بينك وبينه، وأدركت أنّه لن يغيّر شيئًا في المعادلة، وأنّه كان عليَّ أن أتوقّع ذلك، وأنّه كان فعلًا صائبًا.

ثمّ سمع جالت صوت أنينها الخافت، فضحك بلطف وقال:

- داغني، هذا الأمر لا يعني أنّني لا أعاني، بل يعني أنّني أدرك أنّ المعاناة لا جدوى منها، وأنّنا يجب أن نقاوم الألم، وأن نُلقي به جانبًا لا أن نقبل به جزءًا من تشكيلة أرواحنا وندبةً دائمة في نظرتنا إلى العالم. ينبغي ألّا تشعري بالأسى والأسف من أجلي، لأنّ معاناتي تلاشت في حينها.

فأدارت رأسها للنظر إليه في صمت، أمّا هو فابتسم ونهض متّكئًا على مرفقه للنظر إلى وجهها، بينما كانت ما تزال عاجزة عن الكلام. ثمّ همست:

- أنت كنت عامل مسار هنا! وعلى مدى اثني عشر عامًا...

- نعم.

- منذ...

- منذ أن تركت مصنع القرن العشرين.

- ليلةَ رأيتني أوّل مرّة... هل كنت حينها تعمل هنا؟

- نعم. وفي الصباح الذي عرضت فيه عليّ أن تعملي طبّاخةً عندي، كنت ما أزال مجرّد عامل لديك، لكنّني في إجازة. لهذا السبب، كما ترين، أضحك في كلّ مرّة.

كانت تنظر إلى وجهه، وقد رافقتها ابتسامة، لكنّها ابتسامة تنضح بالألم، بينما كانت ابتسامته تعكس المرح النقيّ.

- جون..

- قولي.. كلّ شيء.

- كنتَ هنا.. كلّ تلك السنوات..

- نعم.

- كلّ تلك السنوات.. والسكّة الحديديّة تهلك.. وأنا أبحث عن العقول الماهرة.. وأناضل من أجل التمسّك بأيّ واحد منهم يمكنني العثور عليه..

- وأنت تمشطّين البلاد من أجل العثور على كفاءة تخرج محرّكي إلى حيّز الوجود.. وأنت تطعمين جيمس تاجارت وويسلي ماوتش.. وأنت تسمّين أفضل إنجاز لك باسم العدوّ الذي تودّين تحطيمه.

في هذه اللحظة أغلقت داغني عينيها. فأضاف جالت:

- لقد كنت هنا خلال كلّ تلك السنوات. كنت في متناول يدك، داخل مملكتك الخاصّة أراقب نضالَك ووحدتك وشوقك. أراقبك وأنت تخوضين معركة كنت تعتقدين أنّها من أجلي، معركة كنت تدعمين فيها أعدائي وتتلقّين فيها هزائم لا تعدّ ولا تحصى. كنت أختبئ هنا. لا شيء يسترني سوى خطإٍ في بصرك، تمامًا مثلما تختبئ مدينة أطلانتس عن البشر بواسطة خدعة بصريّة. كنت هنا، أنتظر اليوم الذي تستعيدين فيه بصرك، اليوم الذي تعلمين فيه من خلال قانون العالم الذي كنتِ تدعمينه أنّ كل الأشياء التي تقدّرينها تقع في أحلك قاعٍ تحت الأرض وأنّه يتوجّب

عليك البحث عنها هناك. كنت في انتظارك. أحبّك يا داغني. أنا أحبّك أكثر ممّا أحبُّ حياتي، أنا الذي علّمت البشر كيف يحبّون الحياة. لقد علّمتهم أيضًا أن يتوقّعوا دومًا دَفْعَ الثمن. وما فعلتُه في هذه الليلة، فعلتُه وأنا على بيّنة من أنّني سأدفع الثمن، وقد تكون حياتي هي الثمن.

- لا.

فابتسم وأومأ برأسه وقال:

- بلى. أنت تعلمين أنّك خالفت الوعد الذي التزمتِ به معي، مثلما خالفت القرار الذي اتّخذته مع نفسي، ولكنّني فعلت ذلك عن وعيٍ، وأنا على بيِّنة ممّا يعنيه ذلك الفعل. لقد فعلتُ ذلك لا كعلامة استسلام أعمى للحظةٍ، بل وفق رؤية كاملة إلى العواقب والاستعداد الكامل لتحمّلها. لم أستطع أن أدع هذا النوع من اللحظات يمرّ علينا مرور الكرام، فهي لنا، وكنّا نستحقّها عن جدارة يا حبيبتي. لكنّك لست مستعدّة للانسحاب والانضمام إليّ، وأنت لست مضطّرة إلى إخباري بذلك، لأنّني أعرف خيارك. وبما أنّني اخترت أن أقتنص ما أردته قبل أن يصبح ملكي بالكامل، فأنا سأضطّر إلى دفع ثمنه. غير أنّني لا أعرف الزمن ولا الكيفيّة التي سيتمّ بها هذا الأمر. كلّ ما أعرفه هو أنّني إذا استسلمت لعدوٍّ، فإنّني سأتحمّل عواقب ذلك.

ثمّ ابتسم ردًّا على النظرة التي بدت في ملامح وجهها، وأضاف:

- لا تجمعني بك أيّ عداوة فكريّة يا داغني. لكن في الواقع، ومن خلال المسار الذي تسلكينه، فأنت تُدعِّمين أعدائي من دون أن تدركي ذلك حتّى الآن، وأنا أعرف ذلك. وأعدائي الحقيقيّون لا يشكّلون أيّ خطرٍ عليَّ بالقياس إلى الخطر الذي تُشكِّلينه أنت. فأنت الوحيدة التي تستطيع أن تقودهم إلى مملكتي. إنّهم لا يتمتّعون بالقدرة على معرفة ما أنا عليه، ولكن بمساعدتك، سينجحون في هذه المهمة.

- لا.

- ستفعلين ذلك عن غير قصدٍ. أنت حرّة في تغيير مسارك، لكن مادمت تتبعين هذا

المسار، فأنت لست حرّة في الهروب من منطقه. لا تعبسي، فالخيار خياري وهو خطر قبلت به. أنا تاجرٌ وأدرك كنهَ المبادلات في كلّ شيءٍ يا داغني. أنا أحبّك وأريدك في حياتي، لكن لا أملك أيّ سلطة حتّى أُغَيِّر قرارك. كلّ ما لديّ من سلطة يتمثّل في النظر إلى الثمن الذي يجب عليّ دفعه مقابل ذلك، وتقرير ما إذا كان يمكنني تحمّله... بوسعي تحمّله، لأنّ الحياة حياتي سواء أهدرتُها أو استثمرتُها. أما أنت...

وقام بحركة كما لو أنّها إيماءةٌ تكمل جملته، فرفعها بين يديه وقبّلها من فمها بينما ظلّ جسدها معلّقًا باسترخاءٍ في استسلام كلّيّ، وتدلّت خصلات شعرها، وارتخى رأسها إلى الخلف مجدّدًا، لا تثبّته سوى ضغطة شفتيه، ثمّ قال:

- أنت المكافأة التي اخترت أن أجازف من أجلها. أريد أن تكوني لي وحدي. وإن كانت حياتي هي الثمن، فإنّي سأهبها عن طيب خاطر. سأهب حياتي، ولكن لن أهب عقلي.

ثمّ ظهر بريقٌ مفاجئ من الصلابة في عينيه، عندما جلس وابتسم وسألها:

- هل تريدين أن أنضمّ إليك وأذهب إلى العمل؟ وهل ترغبين في إصلاح نظام الإشارات المتشابكة خلال ساعة؟

صاحت على نحو فوريّ ردًّا على ذكرى صورةٍ، صورة الرجال الذين التقتهم بقاعة الأكل الخاصّة في فندق واين فوكلاند:

- لا.

فضحك وقال:

- وما السبب؟

- لا أريد أن أراك وأنت تعمل مثل أي قِنٍّ من الأقنان.

- وماذا عنك؟

- أعتقد أنّهم ينهارون الآن وأنّني سأفوز. ويمكنني تحملّ ذلك فترةً أطول قليلًا.

- صحيح، ستكون فترة طويلة قليلًا... ولن تدوم إلى أن تحقّقي فوزك، ولكن إلى أن تتعلّمي...

فأطلقت داغني صرخة يأس وقالت:

- لا يمكنني أن أضيّع هذه الفرصة.

فردّ جالت بهدوء:

- ليس بعد.

ثمّ نهض، فقامت مطيعةً وهي غير قادرة على الكلام. وقال:

- سأبقى هنا لأباشر عملي، لكن لا تحاولي رؤيتي أو الالتقاء بي. سيتعيّن عليك تحمّل ما تحمّلته وأردت أن أعفيك منه.. عليك أن تستمرّي، وتعرفي مكاني، وأن ترغبي في الشيء ذاته الذي أرغب فيه، لكن لا تحاولي الاقتراب منّي أبدًا. لا تبحثي عنّي هنا. لا تزوري منزلي. ولا تسمحي لهم برؤيتنا معًا. وعندما تكونين مستعدّة للإقلاع، لا تخبريهم، فقط ضعي علامة الدولار على قاعدة تمثال ناث تاجارت ثمّ اذهبي إلى المنزل وانتظريني هناك. سوف آتي إليك خلال أربع وعشرين ساعة.

فحرّكت داغني رأسها تعبيرًا على موافقتها. ولكن عندما استدار وهمَّ بالذهاب انتابتها رعشة مفاجئة سرت في كامل جسدها مثل هزّة الاستيقاظ الأولى أو تشنّج الحياة الأخير، وانتهت بإطلاق صرخة لاإراديّة:

- إلى أين أنت ذاهب؟

- أنا ذاهب لأشغل دور عمود إنارة، ذاهب لأقف وأمسك بأحد الفوانيس حتّى الفجر، فهو العمل الوحيد الذي يحيلني عليه عالمك، والعمل الوحيد الذي سيحصل عليه.

فأمسكته من ذراعه. كانت مستعدّة للتخلّي عن كلّ شيء ما عدا رؤية وجهه:

- جون.

فأمسكها من معصمها، ولفّ يدها ثمّ رماها وقال:

- لا.

ثمّ استدرك وأخذ يدَها ورفعها إلى شفتيه وضغط فمَه عليها بحركة كانت تضجّ شغفًا وتعبيرًا. ثمّ غادر عبر خطّ السكك الحديديّة المتلاشي، وبدا لها أنّ السكك الحديديّة وجون كانا يتخلّيان عنها في الوقت نفسه.

وعندما خرجت إلى ساحة المحطّة، وقع الانفجار الأوّل المحرّك للعجلات المتدحرجة، فهزّ جدران المبنى، مثل النبضات المفاجئة لقلبٍ كان قد توقّف. كان تمثال معبد نات تاجارت صامتًا وخاليًا، وقد أضاء نوره الثابت مساحة الرخام المهجورة. واختلطت بعض الشخصيّات المتهالكة عبر تلك الساحة، كما لو أنّها كانت تائهة في امتدادها المشرق. وعلى درجات قاعدة التمثال، جلس صعلوك متهالك في استسلام سلبيّ مثل طائر قُصَ جناحاه، يستريح على إفريز صادَفَه هناك.

وانهارت داغني وجلست هي أيضًا على درج قاعدة التمثال مثل متشرّد آخر، وكان الغبار قد لفّ رأسها ولطّخه بإحكام. وظلّت جالسة بثبات وسكون، تحمل رأسها بين يديها، من دون إبداء أيّ صراخ أو شعور أو حركة.

كانت تعتقد أنّها ما تزال ترى خيال شخص بذراع مرفوعة تحمل ضوءًا، خيالًا كان يبدو أحيانًا مثل تمثال الحرّيّة، وأحيانا أخرى مثل رجل ذي شعر ذهبيّ، يحمل فانوسًا في مواجهة سماء منتصف الليل، فانوسًا أحمر أوقف حركة العالم.

فقال الصعلوك مخاطبًا داغني بنبرة من الرحمة المنهكة:

- يا سيّدتي، لا تأخذي هذا الأمر على محمل الجدّ. لا يوجد شيء يمكن فعله حيال ذلك، على أيّة حال.. ما الفائدة يا سيّدتي؟ ومن هو جون جالت؟

الفصل السادس

كونشرتو الخلاص

في العشرين من شهر أكتوبر/ تشرين الأوّل، طالبت نقابة عمّال شركة ريردن للفولاذ بالزيادة في الأجور.

ولم يعرف هانك ريردن ذلك إلّا عن طريق الصحف، لأنّ النقابة لم تضع أيَّ طَلَب على طاولته، بل إنّها لم ترَ في إبلاغه بذلك أمرًا ضروريًا. وقد قُدِّم الطلب إلى مجلس الاتّحاد، ولم توضّح أسباب عدم تقديم مطالب مماثلة إلى أيّ شركة أخرى من شركات الصلب. ولم يكن بوسعه معرفة ما إذا كان المقاطعون يمثّلون عمّاله أم لا، ذلك أنّ قواعد المجلس بشأن الانتخابات النقابيّة جعلت من المستحيل تحديد هذه المسألة. غير أنّه عرف أنّ هذه المجموعة تتألّف من الوافدين الجدد الذين مكنّهم مجلس الاتّحاد من التسلّل إلى مصنعه وطواحينه في الأشهر القليلة الماضية.

وفي الثالث والعشرين من أكتوبر/ تشرين الأوّل، رفض مجلس الاتّحاد عريضة النقابة، ورفض طلب الزيادة في الأجور. وإذا عقدت أيّ جلسات استماع بشأن هذا الموضوع، فإنّ ريردن لا يُعْلَم بها ولا يُستَشار أو يُبلَّغ بأيّ شيء. كان ينتظر إعلامه بأيّ شيء من دون أن يطرح أيّ أسئلة.

وفي الخامس والعشرين من أكتوبر/ تشرين الأوّل، بدأت صحف البلاد، وكان يسيطر عليها الرجال ذاتهم الذين يسيطرون على المجلس، تشنُّ حملة تعاطف مع عمّال مصنع ريردن للفولاذ. ونشرت قصصًا عن رفض الزيادة في الأجور، غير أنّها لم تأت

على ذكر الجهة التي رفضت هذا الطلب، ولا من كان يتمتّع بالسلطة القانونيّة الحصريّة للبتّ في مثل هذه الطلبات، كما لو أنّهم كانوا يعوّلون على أن ينسى الجمهور الشكليات القانونيّة تحت وابل من القصص المُخْتَلَقة، للإيحاء بأنّ صاحب العمل هو مَن تسبّب في كلّ المآسي التي كان الموظّفون يعانون منها. ونشروا أخبارا شتّى مثل خبرٍ يصف مشاقّ عمّال مصنع ريردن للفولاذ في ظلّ ارتفاع أسعار الموادّ الغذائيّة؛ وخبرٍ يسلّط الضوء على أرباح هانك ريردن التي راكمها قبل خمس سنوات؛ وخبرٍ يتحدّث عن محنة زوجة عامل بمصنع ريردن للفولاذ كانت تتنقّل من متجر إلى آخر وهي تبحث، بلا جدوى، عن الغذاء؛ وخبرٍ يتحدّث عن كسر زجاجة شمبانيا على رأس أحدهم في حفلة مُجُونٍ وسكر أقيمت في أحد الفنادق الفخمة على نخب أحد عمالقة المال والأعمال في مجال صناعة الفولاذ، غير أنّ الخبر لم يأت على ذكر اسمه. هذا الرجل هو، بالمناسبة، أورين بويل، لكنّ الخبر سكت عن اسمه وعن جميع الأسماء الأخرى. وكانت الصحف تقول:

- إنّ أوجه عدم المساواة ما تزال قائمة بيننا وتخدعنا بفوائد عصرنا المستنير.

- لقد أجهدت الخصخصة أعصابَ الناس ومزاجهم وبلغَ السَّيلُ الزُّبى. نحن نخشى اندلاع أعمال عنفٍ.

وظلّت الصحف تكرّر: نحن نخشى اندلاع العنف.

وفي الثامن والعشرين من أكتوبر/ تشرين الأوّل، هاجمت مجموعةٌ من العمّال الجدد رئيس العمّال في مصنع ريردن للفولاذ وأسقطت أنابيب النفخ في فرن الانفجار. وبعد يومين، عمدت مجموعة مماثلة إلى كسر نوافذ الطابق الأرضيّ من مبنى الإدارة. بينما حطّم عامل جديد تروس الرافعة، فأربك مغرفة المعدن المنصهر داخل ساحة كانت تضمّ خمسة عمّال، فكادت تقضي عليهم. وعندما ألقي عليه القبض قال:

- أعتقد أنّني فقدت صوابي، لقد كنت قلقًا على مصير أطفالي الذين يتضوّرون جوعًا.

وعلّقت الصحف على هذه الواقعة بالقول:

- إنّ الوقت ليس مناسبًا لتحديد المسؤوليّات وترتيب الجزاءات. إنّ قلقنا الوحيد هو وجود أعمال تحريضيّة تعرّض إنتاج الصلب في البلاد للخطر.

كان ريردن يراقب المشهد من حوله دون أن يطرح أيّ سؤال. كان ينتظر، كما لو أنّ معرفة نهائيّة ستتجلّى في عمليّة تفكّكٍ أمامه، عمليّة لا ينبغي تعجيلها أو وقفها. ثمّ قال في نفسه، عند مطلع شفق إحدى الأمسيات الخريفيّة وهو ينظر من خلال نافذة مكتبه، إنّه لم يكن مهتمّا بما يقع في مطاحنه، ولكنّ الشعور الذي كان ذات مرّة بمثابة العشق الذي شعرَ به تجاه كائنٍ حيّ هو الآن مثل العاطفة الحزينة التي تساور المرء أثناء تذكّر حبيبه الميّت. وخصوصيّة ما يشعر به المرء تجاه الموتى تتمثّل، حسب اعتقاده، في أنّه لم يعد من الممكن اتّخاذ أيّ إجراء.

وفي صباح الواحد والثلاثين من أكتوبر/ تشرين الأوّل، تلقّى إخطارًا يخبره بأنّ جميع ممتلكاته، بما في ذلك الحسابات المصرفيّة وصناديق ودائعه الآمنة، قد حُجِزَت لتنفيذ حكمٍ صدر ضدّه في محاكمة شملت جُنحة نقص في ضريبة الدخل الشخصيّ أُدِين بها منذ ثلاث سنوات. وقد كان إخطارًا رسميًّا يستجيب لكلّ الشروط القانونيّة، ولا يشوبه أيّ قصورٍ. غير أنّ محاكمة من هذا النوع لم تجرِ على الإطلاق.

فقال لمحاميه الذي كان ساخطًا وغاضبًا:

- لا تستجوبهم، ولا تجبهم، ولا تتقدّم بأيّ اعتراض.

فردّ المحامي:

- لكنّ هذا الأمر غريب جدًّا.

- أليس أكثر غرابة من بقيّة الأحداث؟

- هانك، ألا تريدني أن أفعل شيئًا لفضح تلك الأكاذيب؟

- لا أريدك أن تتقدّم بأيّ اعتراض. التزم الصمت، ولا تقم بأيّ تصرّف.

- لكنّهم سرقوك.

فسأله بهدوء وهو يبتسم:

- وهل فعلوا ذلك حقًّا؟

في محفظته كانت بضع مئات من الدولارات، ولا شيء آخر. لكنّ الدفء الغريب المتوهّج الذي خطر له مثل شعورٍ بمصافحةٍ بعيدةٍ دَفَعَه إلى التفكير في خزانته السرّيّة التي كانت في غرفة نومه، الخزانة التي تحتوي على سبيكة الذهب التي منحه إيّاها القرصان صاحب الشعر الذهبيّ.

وفي اليوم الأوّل من نوفمبر، تلقّى مكالمة هاتفيّة من واشنطن. كان على خطّ الهاتف أحد البيروقراطيّين، وقد خاطب هانك معتذرًا:

- إنّه خطأ يا سيّد ريردن.. لم يكن سوى خطإ.. الأمر بالحجز على الممتلكات لم يصدر في حقّك. أنت تعلم الظروف التي نمرّ بها في الوقت الحاضر، وتدرك عدم كفاءة المساعدين في كلّ مكاتبنا. لقد خلطَ أحد الحمقى السجلّات وحرّرَ الأمر ضدّك، والحال أنّ القضيّة لا تتعلّق بك مطلقًا، بل تتعلّق بأحد رجال الأعمال المصنّعين للصابون! من فضلك تقبّل اعتذارنا واعتذاري الشخصيّ.

صمت الرجل لحظةً، ثمّ قال:

- سيّد ريردن.

- تفضّل، أنا أستمع إليك.

- نتأسّف جدًّا إذا كان هذا الخطأ غير المقصود قد تسبّب لك في أيّ إحراج أو إزعاج. ونتمنّى أن يتّسع صدرك وتتقبّل اعتذرنا. سنحتاج إلى أيّامٍ قليلة لتصحيح هذا الخطأ... سيّد ريردن؟

- نعم، سمعتك.

- نحن على أتمّ الاستعداد لتعويضك عن الأضرار، لكن في حدود قدرتنا. من حقّك طبعًا أن تطالب بالتعويضات عن الأضرار التي قد تكون لحقت بك بسبب هذا الخطأ، ونحن مستعدّون لأدائها، ولن نعترض إطلاقًا على ذلك. طبعا، أنت ستطالب بالتعويضات و...

- أنا لم أقل ذلك.

- آه.. لا، لم تفعل... أعني ... حسنا، ماذا قلت يا سيّد ريردن؟

- لم أقل شيئًا.

وفي ظهيرة الغد، تلقّى هانك مكالمة هاتفيّة أخرى من واشنطن. ولم يكن صوت المُتَّصِل هذه المرة متزّلفًا، بل كان يرتدّ في سمّاعة الهاتف ببراعة بهيجة مثل براعة بهلوان يمشي على الحبل في السيرك. لقد قدّم نفسه على أنّه تينكي هولواي وتوسّل إلى ريردن أن يحضر أحدَ المؤتمرات، ثمّ أضاف:

- مؤتمر غير رسميّ سيجمعنا ببعض الشخصيّات المهمّة.

ثمّ أشار إلى أنّ المؤتمر سيُعقَد بفندق واين فوكلاند في نيويورك بعد يومَين من الآن. وأضاف:

- لقد وقع سوء فهم كبير في الأسابيع القليلة الماضية... إنّه سوء فهم مؤسف وغير ضروريّ إطلاقًا. يا سيّد ريردن، نستطيع أن نسوّي كلّ شيء إذا حظينا بفرصة الحديث معك مباشرة. نحن متلهّفون جدًّا إلى رؤيتك.

- يمكنك أن تصدر مذكّرة استدعاء في أيّ وقت تشاء.

- أوه، لا، لا يا سيّد ريردن، لماذا تفكّر في مثل هذه الأشياء؟ أنت تسيء فهمنا. نحن نتلهّف إلى مقابلتك على أساس ودّيٍّ، ولا نبحث عن أيّ شيء سوى تعاونك الطوعيّ.

وتوقّف هولواي عن الكلام على نحو متوتّر، متسائلًا عمّا إذا كان قد سمع صوت

ضحكة خافتة. انتظر، لكنّه لم يسمع شيئًا آخر. ثمّ أضاف:

- سيّد ريردن.

- نعم؟

- إنّ حضور هذا المؤتمر سيكون في صالحك، يا سيّد ريردن.

- ما موضوع هذا المؤتمر؟

- لقد واجهت صعوبات كثيرة. ونحن جاهزون لنمدّ لك يد المساعدة.

- لم أطلب يومًا المساعدة من أحدٍ.

- هذه أوقات محفوفة بالمخاطر، يا سيّد ريردن. المزاج العامّ تغلب عليه الضبابيّة والتوتّر، إنّه.. وضع خطير جدًّا.. ونريد أن نكون قادرين على حمايتك.

- أنا لم أطلب أيّ حماية.

- لكن... نحن رهن إشارتك. وإذا كان هناك أيّ شيء تريده منّا، أيّ..

- لا أريد منكم أيّ شيء.

- لكن.. لا شكّ أنّه توجد مشاكل تواجهك، وأنّكَ تودّ مناقشتها معنا.

- لا تواجهني أيّ مشاكل.

- إذن... حسنا.

ثمّ تخلّص هولواي من دور الكريم الذي يُجْزِل العطاء، ليتقمّص دور المتسوّل. فقال:

- هل بإمكانك أن تشرّفنا بالحضور؟

- إذا كان لديكم أيّ شيء بالغ الأهمّيّة، فلا مانع لديّ.

- بالتأكيد، لدينا أشياء بالغة الأهمّيّة. كلّ ما نطلبه منك أن تستمع إلينا. امنحنا فقط

فرصة. لن نلزمك بأيّ شيء..

ثمّ توقّف عندما سمع نبرة ساخرة في صوت ريردن الذي لم يَعِدْه بأيّ شيء وهو يقول:

- أعرف ذلك.

- حسنا، أعني.. أي.. حسنا، هل ستحضر المؤتمر؟

ردّ عليه ريردن:

- حسنا، سأكون هناك.

ولم يسمع هانك عبارات الامتنان، بل لاحظ فقط أنّ هولواي ما انفكّ يكرّر:

- سينعقد المؤتمر في السابعة من مساء الرابع من تشرين الثاني/ نوفمبر. يا سيّد ريردن... الرابع من نوفمبر...

أسقط ريردن السمّاعة واستلقى على كرسيّه، ثمّ أخذ ينظر إلى وهج نيران الفرن المتصاعد الذي كان يعلو سقف مكتبه. كان يعلم أنّ هذا المؤتمر ليس سوى فخٍّ، وأنّه كان يسير إليه من دون أن يكسب أيّ شيء من أيّ صيّاد.

أسقط تينكي هولواي السمّاعة على جهاز الهاتف بمكتبه في واشنطن، ثمّ جلس بشكل متوتّر وعابس. وظلّ كلود سلاجينهوب - رئيس جمعيّة أصدقاء التقدّم العالميّ، الذي كان يجلس على ذراع الكرسيّ ويمضغ عود ثقاب بعصبيّة- ينظر إليه ثمّ سأله:

- هل الأمور على ما يرام؟

رفع هولواي رأسه، ثمّ قال:

- سيأتي، لكنّ.. الأمر لا يطمئن.. لا أعتقد أنّه سيبتلع الطعم.

- هذا ما أخبرني به صديقي الفاسق.

- أعرف ذلك.

- لقد قال ذلك الفاسق إنّ من الأفضل ألّا نحاول فعل ذلك.

- لعنة الله على ذلك الفاسق الشرّير! علينا فعلُ ذلك. يجب أن نخاطر.

وكان الفاسق هو فيليب ريردن الذي نقل إلى كلود سلاجينهوب منذ أسابيع:

- لا لن يسمح لي بالدخول إلى المصنع. إنّه يرفض أن يمنحني وظيفة هناك. لقد حاولت، كما أردت منّي، وبذلت قصارى جهدي، لكن من دون جدوى. إنّه لن يسمح لي بأن تطأ قدمي المطاحن مجدّدًا. أمّا في خصوص مزاجه العامّ... فهو سيّئ، بل هو أسوأ من أيّ شيء يمكن توقّعه. أنا أعرفه وأستطيع أن أقول لك إنّك لن تحظى بأيّ فرصة لكي تنال منه. إنّه يعيش اللحظات الأخيرة، وأيّ قبضة أخرى ستحطّمه إلى الأبد. لقد قلت لي إنّ الكبار يريدون معرفةَ ذلك، فأخبرهم ألّا يفعلوا ذلك. يا كلود، أخبرهم بهذه الحقيقة، وليساعدنا الله على ذلك. سيفقدونه إلى الأبد إن فعلوا ذلك.

ردّ سلاجينهوب بشكل جافّ قبل أن يبتعد عنه:

- حسنا، أنت لم تعد نافعًا بالمرّة.

فأخذ فيليب يعدّل كُمَّ قميصه، ثمّ سأله وقد تقلّص صوته فجأة وأبدى نوعًا من القلق المفتوح:

- قل لي يا كلود، بناءً على القانون التوجيهيّ عدد 289-10 ... إذا غادرنا أخي... ألن يرثه أيّ فرد من العائلة؟

- هذا صحيح.

- وهل سيستولون على المطاحن... وكلّ شيء؟

- هذا هو القانون.

- لكن... يا كلود، هم لن يفعلوا ذلك من أجلي، أليس كذلك؟

- أنت تعلم أنّهم لا يريدون منه أن يغادر، لذلك حاول أن تَحُول دون مغادرته ما استطعت إلى ذلك سبيلًا.

- لكنّي لا أستطيع! أنت تعرف أنّي لا أستطيع، ليس فقط بسبب أفكاري السياسيّة، بل بسبب كلّ شيء فعلته من أجلك أيضًا. أنت تعلم جيّدًا موقفه منّي. إنّني لا أملك أيَّ سلطة عليه.

- وهذا من سوء حظّك.

فصاح فيليب من هول الذعر، ثمّ قال:

- هم لن يتركوني فريسة سائغة للبرد والجوع، يا كلود، أليس كذلك؟ أنا أنتمي إليكم، أليس كذلك؟ لطالما قالوا إنّني أنتمي إليهم، لطالما قالوا إنّهم يحتاجون إليّ، وإنّهم في حاجة إلى رجال من طينتي، رجال يملكون الروح التي أمتلكها، ألا تتذكّر ذلك؟ خصوصًا، بعد كلّ الخدمات التي أسديتها إليهم، وبعد كلّ الإيمان والولاء الذي أحطت به قضيّتهم.

فقاطعه كلود قائلًا:

- أيّ فائدة ترجى منك أيّها الأحمق من دون أخيك هانك؟

وفي صباح الرابع من نوفمبر، استيقظ هانك ريردن على صوت رنين الهاتف. ثمّ فتح عينيه فرأى من نافذة غرفة نومه مشهد السماء وهي صافية وشاحبة، سماء الفجر الباكر، سماء رقيقة بلون الزبرجد، مع أوّل أشعّة غير مرئيّة للشمس تلوح بلون ظلّ الخزف الورديّ لقمم الأسطح القديمة في مدينة فيلادلفيا. وبينما كان وعيه في مثل نقاء تلك السماء تمامًا، وبينما لم يكن واعيًا بشيء آخر سوى ذاته، وبينما لم يسخّر بعد روحه لاستعادة عبء الذكريات الغريبة، ظلّ مستلقيًا بثبات، متشبّثًا بذلك المشهد وسحر العالم الذي كان منسجمًا معه، عالم يمكن فيه لنمط الوجود أن يكون صباحًا مستمرًّا.

لقد أعاده رنين الهاتف إلى سنوات المنفى والاغتراب. كان الهاتف يرنّ على فترات

متباعدة، يطلق صرخات مزمنة ومزعجة مثل صيحات النجدة، ذلك النوع من الصراخ الذي لا ينتمي إلى عالمه. فرفع السمّاعة بتجهُّمٍ وقال:

- مرحبًا، من معي؟

- صباح الخير يا هانك.

هكذا ردّ صوت مرتعش، وكان صوت والدته.

فسألها بجفاء:

- أمّي، لماذا تتّصلين بي في هذه الساعة؟

- أوه، أنت في العادة تستيقظ مع طلوع الفجر، لذلك ارتأيت أن أغتنم هذه الفرصة لأتّصل بك قبل أن تذهب إلى المكتب.

- نعم، ما خطبك؟

- يجب أن أراك يا هانك. ويجب أن أتحدّث إليك اليوم وفي أيّ وقت يناسبك. إنّه أمر مهمّ جدًّا.

- هل وقع أيّ أمر جَلَلٍ؟

- لا.. أجل.. أعني.. يجب أن أتحدّث إليك شخصيًّا. فهل ستزورني؟

- أنا آسف، لا أستطيع. لي موعد في نيويورك الليلة. يمكنني زيارتك غدًا..

- لا.. لا، ليس غدًا. يجب أن أراك اليوم، لا بدّ أن أراك اليوم.

كان صوتها ينضح ذعرًا، لكنّه ذلك الذعر القديم من العجز المزمن. لم يكن صوتًا ينبعُ من أمرٍ طارئٍ ما عدا صدًى من الخوف في إصرارها الآليّ الملحّ.

- ماذا حدث يا أمّي؟

- لا أستطيع أن أفصح عن ذلك في الهاتف. يجب أن أراك.

- يمكنك زيارتي في المكتب..

- لا! ليس في المكتب. يجب أن أتحدّث إليك على انفرادٍ. ألا يمكنك أن تزورني هنا اليوم؟ إنّها أمّك التي تطلب منك معروفًا. فأنت لم تزرنا منذ زمن بعيد، وأنا لا ألومك إطلاقًا على هذا الأمر. لكن ألا يمكنك أن تلبّي طلبي هذه المرّة. أتوسّل إليك؟

- حسنًا يا أمي، سأكون هناك في الرابعة عصرًا.

- هذا وقت مناسب جدًّا. شكرًا لك يا هانك.

وشعر هانك أنّ جوًّا من التوتر يغشى مطاحنه ذلك اليوم. كانت المطاحن، بالنسبة إليه، مثل وجه حبيبة يستطيع المرء أن يلتقط من خلاله ظلالَ مشاعرها قبل أن تنبس بأيّ كلمة. لقد لاحظ وجود مجموعات صغيرة من العمّال الجدد الذين كانوا غارقين في أحاديث جانبيّة. ولاحظ أيضًا أسلوبهم الذي لا يوحي إطلاقًا بأنّهم يعملون في مصنع بقدر ما يوحي بأنّهم في قاعة بلياردو. ثمّ لاحظ أيضًا النظرات التي كانوا يُصوِّبونها باتّجاهه وهو يمرّ أمامهم، نظرات بظلٍّ حادٍّ ومتثاقل. لكنّه تجاهل هذه النظرات التي لم تثر فيه أيّ تساؤل، لأنّه لا يملك أصلا وقتا يهدره في أيّ سؤال ثانويّ.

عندما عاد في سيّارته إلى منزله السابق بعد ظهر ذلك اليوم، أوقفها فجأة عند سفح التلّ. لم يرَ المنزل منذ الخامس عشر من شهر مايو، أي حين خرج منه قبل ستّة أشهر. أدّى به هذا المشهد إلى تذكّر مجموع ما شعر به طيلة عشر سنوات من العودة المنزليّة اليوميّة، فقد استرجع مشاعر الإجهاد والحيرة، وأحاسيسَ التعاسة وحرصَه الشديد على عدم الاعتراف بها، والمجهود المضني الذي كان يبذله لكي يفهم عائلته..

مشى ببطء إلى أن بلغ الطريق التي توصله نحو الباب. فلم يشعر بشيءٍ ما عدا إحساس الوضوح الكامل. كان يعلم أنّ هذا المنزل بمثابة تِذْكار للشعور بالذنب، أي الذنب الذي اقترفه في حقّ نفسه.

وكان يتوقّع أن يرى والدته وفيليب. لم يتوقّع وجود الشخص الثالث الذي نهض، كما فعل البقيّة، عند دخوله إلى غرفة المعيشة. كانت ليليان.

توقّف عند العتبة. وقفوا ينظرون إلى وجهه والباب المفتوح خلفه، أمّا وجوههم فكانت تخفي نظرة من الخوف والمكر، نظرة الابتزاز عن طريق الفضيلة التي تعوّد عليها وفهمها، كما لو أنّهم كانوا يرغبون في الإفلات من عقابه دون أن يملكوا شيئًا ما عدا شفقته، لكنّ المؤسف أنّهم كانوا يحاصرونه للوقوع في شراكهم كما لو أنّ أيّ خطوة إلى الوراء يمكنها أن تأخذه بعيدًا عن متناول أيديهم.

وكانوا يعوّلون على شفقته، لكنّهم يهابون في الآن نفسه غضبه وبطشه. ولم يجرؤوا على التفكير في خياره الثالث، وهو عدم اكتراثه ولامبالاته.

فالتفت إلى أمّه، وسألها بصوت جافٍّ تُعوِزُه العاطفة:

- ماذا تفعل هذه هنا؟

فأجابته مُدافعةً:

- ليليان تعيش هنا منذ طلاقكما. أنا لا أستطيع أن أتركها تتضوّر جوعًا على أرصفة المدينة.

كانت نظرة أمّه مزيجًا من الالتماس والانتصار؛ الالتماس كما لو أنّها تتوسّل إليه ألّا يصفع وجهها، والانتصار كما لو أنّها تودّ صَفْعَه. لقد أدرك دافعها الخفيّ، فهي لم تُؤْوِ ليليان بدافع الرحمة، لأنّ آصرة الودّ لم تكن يومًا قويّةً بينها وبين ليليان، وإنّما آوتها بدافع الانتقام منه. فقد كانت تنفق على زوجته السابقة من ماله الخاصّ انتقامًا منه بعد أن رفض دعمها.

كانت ليليان مستعدةً للانحناء إليه وإلقاء التحيّة عليه، كانت تبدي ابتسامة خجولة ووقحة في الآن ذاته. لم يتظاهر هانك بتجاهلها، بل نظر إليها، وكأنّه يراها جليّةً أمامهُ بشكلٍ كامل، وفي الآن نفسه كما لو أنّه لم يسجّل لها أيّ حضور في عقله. فلم يقل شيئا، بل أغلق الباب ودخل الغرفة.

فتنفسّت أمّه الصعداء قليلًا، وجلست على عجل في أقرب كرسيّ، وراقبته بعصبيّة

غير متأكّدة ممّا إذا كان سيجلس مثلها أم لا.

فسألها بعدما جلس:

- وما الأمر العاجل الذي أردتِ التحدّث فيه؟

فعدّلت أمّه من جلستها، ثمّ انحنت على نحو غريب، وهمست:

- أردت التحدّث معك عن الرحمة.

- ماذا تقصدين؟

- ألم تفهمني؟

- لا.

- حسنًا..

غير أنّها سرعان ما توقّفت عن الكلام بسبب نظراته الحادّة، قبل أن تضيف:

- حسنًا، ثمّة أشياء كثيرة أودّ الحديث فيها.. غير أنّي لا أعرف كيف أقولها، ولكن...حسنا، ثمّة مسألة عمليّة واحدة، لكنّها ليست مهمّة في حدّ ذاتها.. وهي ليست السبب الذي دفعني إلى استدعائك إلى هنا..

- ما هي هذه المسألة؟

- شيكات نفقاتي ونفقات فيليب. نحن في أوّل الشهر، لكن بسبب الأمر الذي صدر بالحجز على ممتلكاتك، لم نتوصّل بعد بالشيكات. وأنت تعلم ذلك، أليس كذلك؟

- أعلم ذلك.

- حسنا، ماذا سنفعل؟

- لا أعلم.

- أعني، ما الذي ستفعله في هذا الشأن؟

- لا شيء.

وظلّت أمّه تحدّق في تقاسيم وجهه كما لو أنّها تَعُدُّ ثواني الصمت، ثمّ قالت:

- ألن تفعل أيّ شيء؟

- لا أستطيع فعلَ أيّ شيء.

كانوا يراقبون ملامح وجهه بنوع من البحث المكثّف عن أمر مّا، أمّا هو فشعر باليقين التامّ من أنّ والدته أخبرته بالحقيقة، وأنّ القلق الماليّ الآنيّ ليس هو الهدف، بقدر ما هو مجرّد علامة على قضيّة أوسع بكثير.

- لكنّنا نعاني من شحّ ماليّ حادٍّ.

- أنا أيضا أعيش المعاناة ذاتها.

- لكن، ألا يمكنك أن تمدّنا ببعض المال؟

- هم لم يعطوني أيّ فلسٍ، ولا وقت لي كي أحصل على أيّ مال.

- إذن... اسمع يا هانك، هذا الأمر لم يكن متوقَّعًا، وأظنّ أنّه قد أفزع الناس جميعا.. متجر البقالة يرفض أن يمنحنا الغذاء بالدَّيْن إلّا إذا طلبت منه أنت ذلك. وأعتقد أنّهم يريدون منك التوقيع على بطاقة ائتمان أو أيّ شيء من هذا القبيل. هل ستتحدّث إليهم وترتّب الأمور معهم؟

- لن أفعل.

- لن تفعل؟

واختنقت بسبب شهقة صغيرة، ثمّ قالت:

- لماذا؟

- لن أُوَقّع على التزامات لا أستطيع الوفاء بها.

- ماذا تعني؟

- لن أتحمّل مزيدا من الديون، لأنّني لا أملك أيّ وسيلة لسدادها.

- وماذا تعني بأنّك لا تملك أيّ وسيلةٍ؟ إنّ الأمر الذي صدر بالحجز على ممتلكاتك هو مجرّد إجراء شكليّ مؤقّت، والجميع يعلمون ذلك.

- حقًا؟ أنا لا أعلم ذلك.

- ألست متأكّدا من أنّك ستكون قادرًا على دفع فاتورة البقالة مع كلّ تلك الملايين التي تمتلكها؟

- لن أخدع البقّال عبر التظاهر بأنّني أمتلك الملايين.

- عَمَّ تتحدّث؟ ومن يملكها إذن؟

- لا أحد.

- ماذا تعني؟

- أمّي، أعتقد أنّك تفهمينني تمامًا، بل أعتقد أنّك فهمت الأمر قبلي. ليست هناك أيّ ممتلكات في الوجود. هذا ما وافقتِ عليه وآمنتِ به سنواتٍ طويلةً. لقد أردتِ أن أكون مقيّدًا، وها أنا الآن مقيّدٌ. ويبدو أنّ الوقت قد فات لكي تناوري في هذا الموضوع.

- ألا يمكنك أن تتخلّى عن بعض معتقداتك السياسيّة..

ثمّ لاحظت النظرة التي ارتسمت على ملامح وجهه، فتوقّفت فجأة عن الكلام. أمّا ليليان فقد ظلّت تنظر إلى الأرض كما لو أنّها خائفة من النظر إلى أعلى. وفي تلك اللحظة جلس فيليب يفرقع أصابعه.

ركّزت أمّه مجدّدا في عينيه، ثمّ همست:

- لا تتركنا يا هانك.

وبدت طعنة خافتة من الحياة تظهر في صوتها لتخبره بأنّها ستكشف عن غطاء هدفها الحقيقيّ فأضافت:

- إنّها أوقات عصيبة، ونحن خائفون. هذه هي الحقيقة يا هانك. نحن خائفون من أنّك قد تبتعد عنّا. أوه، أنا لا أعني فقط فاتورة البقالة، هذا مجرّد مثال. لو أنّ هذا الأمر وقع قبل سنةٍ لما سمحتَ بوقوعه... أمّا الآن فإنّك لم تعد تكترث لحالنا.

ثمّ توقّفت عن الكلام مؤقّتًا وبشكل مقصود، قبل أن تضيف:

- فهل ستخصّنا بأيّ عناية؟

- لا.

- حسنا... حسنا، أعتقد أنّنا المذنبون. وهذا ما أردت إخبارك به. نحن مذنبون، لأنّنا لم نحسن التعامل معك كلّ هذه السنين. لقد جعلناك تعاني، واتّخذناك مطيّةً لتحقيق مصالحنا الخاصّة. إنّنا لم نقدّم لك أيّ شكر على كلّ الإحسان الذي أحطتنا به. نحن مذنبون يا هانك. لقد أذنبنا في حقّك، ونحن نعترف بذلك. فهل تستطيع أن تسامحنا على كلّ الجفاء الذي رميناك به كلّ هذه السنين.

فسألها بنبرة واضحة وجافّة تشبه النبرة التي يخاطب بها رجال الأعمال في مؤتمرات المال والأعمال:

- وماذا تريدين منّي أن أفعل؟

- لا أعلم! مَن أكون أنا لأعلم ما يجب فعله؟ لكن ليس هذا ما أتحدّث عنه الآن. أنا لا أتحدّث هنا عن الفعل، بل عن العاطفة. إنّني أستجدي عاطفتك النبيلة، حتّى إن لم نكن جديرين بها. أنت إنسان كريم وقويّ، فهلّا طويت صفحة الماضي؟ نحن نأمل أن تغفر الذنوب التي اقترفناها في حقّك كلّ هذه السنين؟

كانت نظرة الرعب في عينيها حقيقيّةً. ولو أنّ هذا حدث قبل سنةٍ لقال في نفسه إنّ تلك كانت طريقتها لوضع الأمور في نصابها وترتيب التسويات، وَلَأُصِيبَ بالاختناق

بسبب الاشمئزاز من كلماتها، كلمات لم تعبّر عن أيّ شيء. ولعلّه كان سينتهك حرمة عقله لو أنّه أعطى كلماتها أيّ معنى، حتّى إن لم يفهمها، ولعلّه كان سينسب إليها فضيلة الإخلاص والنزاهة وفقًا لشروطها الخاصّة، حتّى إن لم تكن وفقًا لشروطه. لكنّه لم يكن يحترم أيّ شروط أخرى غير شروطه الخاصّة.

- هل ستسامحنا؟

- أمّي، من الأفضل عدم فتح هذا الموضوع. لا تضغطي عليّ لأخبرك بالسبب الذي أعتقد أنّك تعرفينه جيّدًا. إذا كان هناك أيّ شيء تريدين منّي فعله فأخبريني به فقط، لأنّني لا أودّ مناقشة أيّ شيء آخر.

- لكنّني لا أفهمك! لم أعد أفهمك البتّة. لقد استدعيتك إلى هنا لأطلب مغفرتك. فهل سترفض طلبي؟

- حسنا، ماذا تعنين بمغفرتي؟

- آه؟

- قلت ماذا تعنين بمغفرتي؟

فأشرعت يدَيْها لتؤكّد أنّ الأمر يبدو بديهيًّا، ثمّ قالت:

- ولماذا؟ إنّ مغفرتك ستحسّن أحوالنا كثيرًا.

- وهل سيغيّر ذلك سنوات الماضي؟

- إذا تجاوزت عن إساءاتنا، فإنّ هذا الأمر سينعكس إيجابًا على نفسيّاتنا.

- هل تريدين منّي أن أطوي كلّ صفحات الماضي؟

- يا الله، يا هانك، ألا ترى؟ إنّ كلّ ما نريده هو التأكّد من أنّك ما تزال تهتمّ بأحوالنا وتكترث لمصيرنا.

- أنا لم أعد أشعر بأيّ شيء تجاهكم. هل تريدين منّي أن أزيّف الواقع؟

- لكن هذا ما أستجديه منك. إنّني أستجدي عاطفتك النبيلة..

- بناءً على أيّ أرضيّة؟

- أرضيّة؟

- وبعدُ، ما مقابل ذلك؟

- يا هانك، إنّنا لا نتحدّث عن عمل يتعلّق بأيّ حمولة فولاذٍ أو أيّ أرصدة مصرفيّة. إنّنا نتحدّث عن العواطف، بينما تتكلّم أنت مثل أيِّ تاجر.

- أنا تاجر، وهذه هي الحقيقة.

ورأى هانك الرعبَ في عينيها، ولم يكن هذا الرعب ناتجًا عن سوء الفهم، بل عن الفهم الذي يصيب المرء بالصدمة والعجز.

وقال فيليب على عجلٍ:

- اسمع يا هانك.. إنّ أمّي غير قادرة على فهم كلّ هذه الأشياء. نحن لا نعرف كيف نُجَسِّرُ الطريق إلى فؤادك، لأنّنا لا نجيد لغتك.

- أنا أيضا لا أجيد لغتكم.

- إنّ رسالة أمّي إليك هي أنّنا نتأسّف على الأذى الذي ألحقناه بك كلّ هذه السنين. لقد دفعنا ثمنًا كثيرا، ونحن نشعر اليوم بتأنيب الضمير.

وبدا الألم في تقاسيم وجه فيليب حقيقيًّا. ولو أنّ هذا الأمر حدث قبل عام لشعر ريردن بالشفقة عليه. لكنّه أدرك الآن أنّهم كانوا يحتجزونه من خلال تردّده في عدم إيذائهم، وخوفه من إيلامهم، لكنّه لم يعد يخاف ذلك بعد الآن.

- إنّنا نتأسّف جدًّا على كل ما حدث، يا هانك. نحن ندرك جيّدًا أنّنا آذيناك، ونتمنّى لو نستطيع أن نُكفِّر عن ذنوبنا. لكن، ماذا يمكننا أن نفعل؟ الماضي فات، ولا يمكن إلغاؤه بجرّة قلم.

- أنا أيضا لا أستطيع أن أتجاوز عن إساءاتكم.

وقالت ليليان بصوت يشوبه الحذر:

- يمكنك قبول توبتنا وندمنا، فأنا ليس لديّ الآن ما أكسبه منك. أنا فقط أريدك أن تعرف أنّ كلّ ما اقترفته في حقّك إنّما كان بدافع الحبّ.

فأدار لها ظهره، من دون أن يجيبها. ثمّ صاحت أمّه وقالت:

- ما خطبك يا هانك؟ ما الذي أوصلك إلى هذه الحال؟ يبدو أنّك لم تعد إنسانًا. أنت ما تنفكّ تضغط علينا من أجل الحصول على الأجوبة، في حين أنّنا لا نملك أيّ أجوبة نقدّمها لك. أنت ما تنفكّ تواجهنا بمنطقك الخاصّ، لكن، ما قيمة أيّ منطق والناس يتعذّبون؟

فصرخ فيليب قائلا:

- لم يكن بوسعنا تجنّب ذلك.

وقالت ليليان:

- إنّنا نستجدي عفوك.

كانوا يلقون نداءاتهم أمام وجه إنسانٍ يصعب الوصول إليه، وكان الهلع آخرَ نضالهم من أجل الهروب من معرفة شعوره بالعدالة الذي لا يرحم، ذلك الشعور الوحيد الذي كانوا يتمسّكون به، والذي جعله يتّخذ أيّ عقوبة تجاههم ويمنحهم الاستفادة من كلّ شكّ، ذلك الشعور الذي تحوّل الآن ضدّهم. إنّ القوّة التي جعلته متسامحًا هي الآن القوّةُ نفسها التي تجعله لا يرحم، والعدل الذي من شأنه أن يغفر آلاف الأخطاء المعرفيّة البريئة لن يغفر خطوة واحدة واعية وشرّيرة.

وأخذت أمّه تستجدي عفوه قائلةً:

- هانك، ألا تتفهّم حقيقة موقفنا؟

فردّ بهدوء:

- أنا أتفهّمكم جيّدًا.

فنظرت بعيدًا لتتجنّب النظر في عينيه، ثمّ قالت:

- ألا تكترث إطلاقًا لما قد يحدث لنا؟

- إطلاقًا.

- ألست كائنا بشريّا؟

ثمّ صرخت في غضب:

- هل قلبُك قاسٍ إلى هذه الدرجة؟ إنّني لا أحاول الوصول إلى عقلك، بل إلى قلبك. الحبّ ليس شيئًا قابلًا للجدال والمساومة. إنّه شيء يستحقّ أن نَهَبَهُ. ألا تحسّ به على الإطلاق؟ يا إلهي، ألا يمكن أن ترخي العنان لقلبك دون أن تقيّده بالتفكير؟

- لم يسبق لي أن جرّبت هذا الأمر.

وفي لحظة، عاد صوتها منخفضًا:

- نحن لا نتمتّع بمثل ذكائك ولا بمثل قوّتك. وإذا أخطأنا وعظمت ذنوبُنا فلأنّنا عاجزون. إنّنا في أمسّ الحاجة إليك. أنت كلّ ما تبقى لنا في هذه الدنيا. ونحن بصدد خسارتك. إنّنا خائفون من هذه الأوقات العصيبة التي تزداد سوءًا يومًا بعد آخر. الناس اليوم يستبدّ بهم الخوف. إنّهم خائفون ولا يعلمون ما ينبغي عليهم فعله. فكيف سنتعامل مع الأمر إذا تركتنا؟ نحن صغار وضعفاء وسيجتاحنا الرعب مثلما يجتاح الطوفانُ الحقولَ. ثمّة الآن رعب يكتسح العالم بكلّ يُسْرٍ. ربّما نتحمّل جزءًا من المسؤوليّة، وربّما نكون ساهمنا، من حيث لا ندري، في ما آلت إليه الأوضاع. لكنّ الندم لا ينفع الآن في شيء. وإذا تخلّيت عنّا، فإنّنا سنضيع. إذا استسلمت واختفيت مثل كلّ أولئك الرجال الذين...

لم يكن صوته هو الذي أوقفها عن مزيد الكلام، بل كانت مجرّد حركة من حاجبَيْه، حركة سريعة دلّت على علامة اختياره. ولفت انتباههم ابتسامته التي كانت تنطوي على أكثر الإجابات رعبًا. ثمّ قال ببطء:

- هذا، إذَن، هو كلّ ما تخافونه.

وصرخت أمّه مذعورةً:

- لا يمكنك الاستقالة من عملك ومغادرتنا.. لا يمكنك أن تستقيل الآن.. كان بإمكانك أن تستقيل في العام الماضي، لكن ليس الآن، ليس اليوم. لا يمكنك أن تتحوّل إلى هارب، لأنّ عائلتك ستدفع الثمن غاليًا. إنّهم سيحكمون علينا بالإفلاس. سيستولون على كلّ شيء. من ثمّ، سنغدو فريسة للجوع والعوز. حسنًا..

- ابقَ هنا.

هكذا صاحت ليليان وهم يتَهَجَّوْن علامات الخطر في ملامح وجه ريردن. لقد رسم وجهه بقايا ابتسامة، فعلموا أنّهم لن يروه مجدّدًا، ولكن لم يكن في وسعهم معرفة السبب الذي جعل ابتسامتَه تبدو الآن كما لو أنّها تحمل الألم وما يشبه الحنين الكئيب، أو السبب الذي جعله ينظر في جميع أنحاء الغرفة، وصوبَ مكانه المعتاد البعيد قرب النافذة.

كان يراقب وجهًا منحوتًا على نحوٍ دقيق يقع تحت جلدة إهاناته، وكان يسمع صوتًا سبق أن قال له بهدوءٍ هنا في هذه الغرفة:

- أردت أن أحذّرك من خطيئة المغفرة.

فقال في نفسه: أنتِ يا من أدركتِها في ذلك الحين.. لكنّه لم يُنْهِ الجملة التي كانت تدور بخلده، بل تركها تنزلق في انحراف ابتسامته المرير، لأنّه يدرك جيّدًا ما كان يفكّر فيه: أنت يا مَن أدركتها حينها، اغفري لي.

ثمّ قال في نفسه وهو يراقب أفرادَ أسرته: تلك هي طبيعة مناشداتهم للرحمة، ومنطق

تلك المشاعر التي أعلنوا أنّها غير منطقيّة، تلك هي الماهية البسيطة والوحشيّة لكلّ البشر الذين يتحدّثون عن القدرة على الشعور من دون تفكير وعن وضع الرحمة في منزلة أعلى من العدالة.

كانوا يدركون مصدرَ خوفهم، بل استوعبوه كما استطاعوا تسميته. والطريق الوحيدة للخلاص هي أن يتركوا له الباب مفتوحًا. لقد استوعبوا وضعه الصناعيّ الميؤوس منه، وعدم جدوى نضاله، والأعباء التي ستسحقه. وأدركوا، وفقًا لمنطق العقل والعدالة والحفاظ على النفس، أنّ خياره الوحيد يكمن في التخلّي عن كلّ شيء والهروب، لكنّهم يريدون منعه ليتحوّل إلى كبش فداء، فيضحّي بنفسه مقابل أقرانه، ولإجباره على السماح لهم بالتهام آخر ما تبقّى له باسم الرحمة والمغفرة والأخوّة ومحبّة آكلي لحوم البشر.

فقال بهدوء شديد:

- يا أمّي، إذا كنت ما تزالين تريدين منّي أن أشرح لك هذا الأمر، وإذا كنت ما تزالين تأملين في ألّا أكون قاسيًا وأنا أُسَمِّي ما تتظاهرين بأنّك لا تعرفينه، فدعيني أبيّن لك الخطأ الذي تنطوي عليه فكرة الرحمة والمغفرة. إنّكم تعبّرون عن ندمكم عن الأذى الذي لحقني مقابل تقديم نفسي كبشَ فداءٍ للصوص.

صرخت الأمّ قائلة:

- المنطق.. ها أنت تستعمل منطقك الملعون مجدّدًا. نحن لا نحتاج إلى منطقك، بل شفقتك.

فنهض ريردن وهَمَّ بالمغادرة.

- انتظر.. لا تذهب. لا تتركنا. لا تحكم علينا بالموت، مهما حصل، فنحن بالنهاية بشرٌ. إنّنا نريد أن نعيش.

- وما الذي يمنعكم من ذلك؟

لقد بدأ كلامه باندهاش هادئ لكنّه أنهاه برعب هادئ أيضا، عندما توضّحت الفكرة أمامه فصدمته:

- لا أعتقد أنّكم تريدون العيش. لو كان ذلك هدفكم، لَكُنْتُم منحتموني الحقّ في الاختيار.

فاعتلت ملامحَ وجه فيليب ابتسامةٌ، لكنّها لم تكن تضمر سوى الخوف والخبث والحقد. فقال:

- لن تكون قادرًا على الاستقالة والهرب، لأنّك تحتاج إلى المال.

وبدا أنّه قد أصاب هدفه، فتوقّف ريردن بسرعة، ثمّ قهقه وقال:

- شكرًا لك، يا فيليب.

فانتابت فيليب رعشةٌ عصبيّة من الحيرة. فقال:

- آه؟

- هذا، إذَن، هو الغرض من قرار الحجز على ممتلكاتي، وهذا هو ما يخافه أصدقاؤك. كنت متأكّدا من أنّهم يعدّون شيئا مّا حتّى يوقعوا بي. غير أنّي لم أدرك أنّ الغاية من قرار الحجز على ممتلكاتي هي منعي من الهروب.

التفت وأخذ ينظر بشكل غريب إلى أمّه، ثمّ قال لها:

- ولهذا السبب حرصت على رؤيتي قبل المؤتمر الذي سأحضره غدًا في نيويورك.

صاح فيليب:

- أمّي لم تسمع إطلاقا بهذا المؤتمر. أنا لا أعرف ما تتحدّث عنه.. لم أقل إنّك ستحضر مؤتمرًا في نيويورك.. لم أتفوّه بأيّ شيء.

- لا تقلق يا فليب، فأنت لا تحظى بأيّ قيمة في هذه المعركة، وأنا لن أُسِرَّ لهم بأنّك قلتَ لي أيّ شيء. وإذا كنت تحاول..

ولم ينهِ كلامه، ثمّ نظر إلى الوجوه الثلاثة التي تقف أمامه. كانت ابتسامته بمثابة تكملة لكلامه، ابتسامة تنطوي على الشفقة والاشمئزاز المريب. فقد رأى التناقض النهائيّ، والسخافة العبثيّة في نهاية لعبة لاعقلانيّة. كان الرجال في واشنطن يسعون إلى منعي من الهروب بدفع هؤلاء الثلاثة إلى أداء دور الرهينة.

- هل تعتقد أنّك في حالة جيّدة؟

هكذا صاحت ليليان على نحو مفاجئ، ثمّ نهضت لكي تمنعه من الخروج، وكانت علامات الغضب تعلو محيّاها تمامًا بالطريقة ذاتها لمّا عرفت ذاك الصباح اسمَ عشيقته. ثمّ أضافت:

- أنت في حالة جيّدة. أنت تتباهى كثيرًا بنفسك.. حسنا، أودّ إخبارك بشيء مّا.

وبدت كما لو أنّها لم تصدّق حتّى تلك اللحظة أنّها خسرت لعبتها. لقد صدمه مشهد وجهها مثل آخر قطعة كانت تكمل دارة كهربائيّة، وأدرك أمام الوضوح المفاجئ ما كانت ترتكز عليه لعبتها والسبب الذي جعلها تتزوّجه.

وقال في نفسه: إذا كان اختيار أيّ شخص هو المركز الثابت في اهتمام المرء مثل انشغال موقفه بالحياة، وإذا كان يقوم على الحبّ، فإنّ حبّها له كان صحيحًا، لكن إذا كان الحبّ عنده يمثّل احتفالَ المرء بذاته والوجود، فإنّ السعي إلى دمار من يكرهون الذات والحياة هو الشكل الوحيد المعادل للحبّ. كان يشعر بقيمة فضائله، وبأنّ ليليان قد اختارته لقوّته، وثقته في نفسه، وفخره بها. لقد اختارته تمامًا مثلما يختار المرء أيّ شيء آخر يحبّه، كانت تراه رمزًا إلى القوّة الحيّة، لكنّ تدمير تلك القوّة كان هدفها.

لقد رآهم كما كانوا في لقائهم الأوّل، إذ كان هو الرّجل الذي يتوفّر على طاقة عنيفة وطموح حماسيٍّ، رجل الإنجاز الذي كان يتّقد بفضل لهيب نجاحه، وقد قذف به وسط ذلك الرماد المغرور الذي أطلق على نفسه اسم النخبة الفكريّة، ويمثّل بقايا الثقافة غير المهضومة، تلك التي تتغذّى على توهّج عقول الآخرين. وكانوا هُم مَن ينكرون أهمّيّة العقل، ومع ذلك يتلهّفون إلى السيطرة على العالم، أمّا هي فكانت المرأة

المتعطّشة إلى اقتحام مجالس هذه النخبة، ولهذا الغرض كانت ما تفتأ تلوك خطاباتهم بوصفها جوابها الشخصيّ عن الكون، وتسعى إلى تحويل عجزها وعقمها إلى تفوّق، والفراغ إلى فضيلة. ولم يكن هانك حينها واعيًا بكرههم وحقدهم، بل كان يزدري ببراءة مواقفهم المحتالة. أمّا ليليان فكانت تنظر إليه بوصفه خطرًا يهدّد عالمهم.

لقد أصبحت الشهوة التي تدفع الآخرين إلى استعباد الإمبراطوريّة، في حدودها، شغف التسلّط عليه. وكان ريردن يعتقد، والقشعريرة تساوره، أنّ ليليان أعدّت مسبقًا لتحطيمه كما لو أنّها لم تكن تضاهيه في القيمة، وأنّها يمكن أن تتفوّق عليه من خلال تدميره، وكأنّ مقياسَ عظمته كان يعادل مقياس عظمتها، أو أنّ المخرّب الذي يحطّم تمثالًا أعظمُ من الفنّان الذي نحته، أو أنّ المجرم الذي قتل طفلًا أعظمُ من الأمّ التي أنجبته.

وتذكّر سخريتها الشديدة من عمله وطواحينه ومعدنه ونجاحه، وتذكّر أيضًا رغبتها في رؤيته ثملًا ولو مرّة واحدة فقط، ومحاولتها الزجّ به في أتون الخيانة الزوجيّة، وسرورها وهي تعتقد أنّه قد انحطّ إلى مستوى عاطفيّ دنيء، ورعبها من اكتشاف أنّ تلك العاطفة كانت إنجازًا، وليست انحطاطًا. كان ذلك خطّ هجومها، الذي وجده محيّرًا جدًّا وثابتًا وواضحًا. لقد كانت تسعى إلى تحطيم اعتزازه بنفسه، وتكافح من أجل اختراق تلك النقاوة الأخلاقيّة التي يحظى بها، وتحطيم سلوكه الواثق والمستقيم عن طريق دسّ سُمّ الذنب في ذهنه كما لو أنّ انهياره سيعطيها الحقّ والصواب.

وللغرض ذاته والدافع عينه، ولإرضاء القناعة نفسها، مثلما ينسج الآخرون الأنظمة الفلسفيّة المعقّدة لتدمير الأجيال أو يؤسّسون للديكتاتوريّات لتدمير أيّ وطن، لم تكن ليليان تمتلك أيّ سلاح ما عدا الأنوثة التي جعلتها تختزل كلّ طموحاتها في طموح واحد هو تدمير رجل واحد.

ثمّ تذكّر صوت معلّمه، ذلك الشابّ المفقود الذي قال له ذات مرّة:

- أنت رمز الحياة، فما الذي يرمز إليه الآخرون؟

ثمّ صاحت ليليان بنبرة تضجّ غضبًا:

- ثمّة شيء أودّ إخبارك به.. أراك تتباهى كثيرًا بنفسك، أليس كذلك؟ أراك تفتخر كثيرًا باسمك وبشركة ريردن للفولاذ، وبمعدن ريردن وزوجة ريردن.. هذا ما كنت عليه، أليس كذلك؟

أصبحت الأصوات التي تصدرها الآن مثل خليط من الثرثرة والهذيان والضحك الفاسد الذي لا يمكن التعرّف عليه. ثمّ أضافت:

- حسنا، أظنّك تريد أن تعرف أنّ رجلًا آخر ضاجع زوجتك. لقد خنتك، هل تسمعني؟ لقد خنتك، لكنّني لم أضاجع أيّ رجل عظيم أو أيّ عاشق نبيل، بل خنتك مع شخص ينتمي إلى حثالة المجتمع. لقد خنتك مع جيمس تاجارت. وقد حدث هذا الأمر قبل ثلاثة أشهر، أي قبل أن أتطلّق منك. لقد خنتك وأنا بعدُ في ذمتك.

ظلّ يستمع مثل عَالِمٍ يدرس موضوعًا لا يجمعه به أيّ رابط شخصيّ. وقال في نفسه إنّ هذا هو الإجهاض النهائيّ للعقيدة الجماعيّة التي تقوم على الاعتماد المتبادل والتواكل، عقيدة اللّاهويّة واللّاملكيّة واللّاواقع حيث يسود الاعتقاد بأنّ مكانة الفرد الأخلاقيّة تقع تحت رحمة أفعال فردٍ آخر.

- لم أخلص لك.. ألا تسمعني أيّها المتزمّت؟ أيّها البطل الطاهر، لقد ضاجعت جيمس تاجارت.. ألا تسمعني؟ ألا تسمعني؟

كان ينظر إليها كما لو أنّه ينظر إلى امرأة غريبة اقتربت منه في أحد الشوارع لكي تُسِرَّ له بأمر شخصيّ. كأنّما كان هناك يقول لها من خلال النظرات إنّ كلّ ما تتفوّهين به لا يعنيني.

ثمّ تراجع صوتها. لم يكن ريردن يعرف كيف يكون دمار شخص مّا، لكنّه يعرف أنّ ما يراه أمامه هو دمار ليليان. ولاحظ ذلك من خلال الانهيار الذي بدا على تقاسيم وجهها، والتباطؤ المفاجئ في ملامحه، كما لو أنّه لا يوجد شيء جامع لعناصره، وبدا ذلك واضحًا من خلال عينيها. كانت مثل العمياء على الرغم من أنّها تحدّق فيه. كانت

تنظر في أعماق دَاخِلِهَا والرعب يستبدّ بتلابيبها. لم تكن ليليان تبدو كمَن فقد عقله، بقدر ما بَدَتْ كمَن يعاين، وهو في كامل قواه العقليّة، هزيمتَه الكاملة. كانت ترى طبيعة شخصيّتها للمرّة الأولى.

ثمّ التفت وَهَمَّ بالذهاب فأوقفته أمّه عند الباب وهي تمسكه من ذراعه. وبمظهر الحيرة العنيدة، وآخر جهد لها من الخداع الذاتيّ، أنّتْ وقالت بنبرة تنضح باللوم البغيض:

- هل أنت حقًّا غير قادر على الصَّفح؟

فأجابها:

- لا يا أمّي لن أصفح عنكم. كنت سأغفر لكم كلّ خطايا الماضي لو أنّكم نصحتموني بالاستقالة والتواري عن الأنظار.

كانت هناك رياح باردة في الخارج، شدّت معطفه حوله كأنّها تعانقه، ونسائمُ ريفيّة عليلة تمتدّ على كلّ الأراضي المتاخمة لسفح التلّ، وسماء الشفق الصافية تميل إلى الغروب. كان المشهد يشبه غروبين للشمس ينهيان ذلك اليوم؛ ففي الغرب مثّل توهّجُ الشمس الأحمرُ شريطًا مستقيمًا ثابتًا، وفي الشرق كان هناك متنفّس لشريط أحمر هو وهج طواحينه.

كان لشعوره بمقود سيّارته تحت يديه والطريقِ السريعة السلسة التي يمرّ بها، وهو يسرع نحو مدينة نيويورك، نكهةٌ منعشةٌ عجيبةٌ. كان شعورًا بالدقّة القصوى والاسترخاء رافقه شعور بالعمل من دون إجهاد. لقد شعُر فعلًا بحيويّة غير مفهومة إلى أن أدرك أنّ تلك هي الطريقة التي كان يتصرّف بها وكان من المتوقّع دائما أن يتصرّف وفقها في شبابه. وما شعر به الآن كان مثل سؤال بسيط ومدهش: لماذا ينبغي على المرء انتهاج أيّ سلوك آخر وفق طريقة أخرى؟

وبدا له أنّ بأُفق نيويورك، عندما ظهر أمامه، وضوحًا مضيئًا غريبًا، على الرغم من أنّ الأشكال محجوبةٌ ببُعد المسافة، ذلك الوضوح الذي لا يبدو أنّه مستمَدٌّ من الأشياء،

بل يستمدّ نوره من ذاته. كان يتطلّع إلى المدينة العظيمة، من دون إقامة أيّ رابط مع أيّ موقف أو أيّ استخدام اتّخذه الآخرون منها. فنيويورك لم تكن مدينة لرجال العصابات أو قطّاع الطرق أو المنبوذين أو العاهرات، بل كانت أعظم إنجاز صناعيّ في التاريخ الإنسانيّ، ومعناها الوحيد هو المعنى نفسه الذي يعني له الكثير. كانت له نظرة شخصيّة نوعيّة في رؤيته إلى تلك المدينة، بصفة التملّك والتصوّر غير المتردّد، كما لو أنّه كان يراها للمرّة الأولى أو للمرّة الأخيرة.

ثمّ توقّف في الممرّ الصامت من فندق واين فوكلاند في باب الجناح الذي كان مقرّرًا أن يدخل منه. لقد استغرق الأمر منه وقتًا طويلًا وقليلًا من الجهد لرفع يده وطرق الباب. إنّه الجناح الذي لطالما حجزه فرانسيسكو دانكونيا.

كانت هناك لفائف من دخان السجائر تسبح في فضاء غرفة الاستقبال، وتتنقّل بين الستائر المخمليّة والطاولات المصقولة والعارية. وكانت الغرفة تتمتّع، بتأثيرٍ من أثاثها الثمين، بجوّ الترف والفخامة الكئيبة التي تتعلّق بالأشغال المؤقّتة العابرة. بدا جوّها كئيبًا مثل جوّ بيتٍ رخيص. وظهرت من خلال ضباب المدخل خمس شخصيّات هي ويسلي ماوتش ويوجين لوسون وجيمس تاجارت والدكتور فلويد فيريس ورجل نحيف مترهّل يشبه لاعبي التنس، قُدّم له باسم تينكي هولواي.

فقال ريردن قاطعًا الطريق أمام إلقاء التحيّات والابتسامات وعروض المشروبات والتعليقات الجانبيّة على حالة الطوارئ الوطنيّة:

- حسنا، ماذا تريدون؟

فردّ تينكي هولواي:

- نحن هنا بمثابة أصدقائك يا سيّد ريردن، نحن هنا تمامًا مثل أصدقائك. وقد استدعيناك لنرسّخ تقليدًا جديدًا يقوم على العمل كفريق واحد.

وقال لاوسون:

- نحن متلهّفون إلى الاستفادة من قدرتك المتميّزة ونصائحك الفعّالة في خصوص المشاكل الصناعيّة التي تواجهها البلاد.

وقال الدكتور فيريس:

- إنّنا في واشنطن نحتاج كثيرًا إلى رجال من طينتك. لا يوجد سبب يبرّر بقاءك بعيدا عنّا فترةً طويلة، وصوتك مطلوب ومن أعلى مستوى في القيادة الوطنيّة.

كان ريردن يعتقد أنّ الأمر المثير للاشمئزاز هو أنّ خطبهم كانت في شقّ منها أكاذيب مفضوحة، وفي شقّها الآخر تخفي، تحت غلاف نبرة إلحاحهم الهستيريّ، رغبةً غير معلَنة في أن تكون صادقةً بطريقة مّا. فسألهم مجدّدًا:

- ماذا تريدون؟

- نحن نودّ أن نستمع إليك، يا سيّد ريردن.

هكذا ردّ ويسلي ماوتش، بينما كان يحاول تصنّع الابتسامة التي تضجّ بخوف حقيقيّ. قبل أن يضيف:

- إنّنا.. نريد الاستفادة من تجربتك في موضوع الأزمة الصناعيّة التي تعصف بأمّتنا.

- ليس لديّ ما أقوله.

فقال الدكتور فيريس:

- لكن يا سيّد ريردن كلّ ما نريده هو أن نحظى بفرصة للتعاون معك.

- لقد سبق أن أخبرتك ذات مرّةٍ، وبشكل علنيّ، أنّني لا أتعاون والمسدّس على رأسي.

فردّ لاوسون متوسّلًا:

- ألا يمكننا أن نلقي الأحقاد جانبًا في مثل هذا الظرف العصيب؟

- صاحب المسدّس... تفضّل بالكلام.

- آه؟

- أنت من يمسك بالمسدّس. ضعه جانبًا إذا كنت تعتقد أنّ بإمكانك فعل ذلك.

- ذلك...كان مجرّد تعبير مجازيّ.

هكذا تكلّم لاوسون وهو يغمز أصحابه، قبل أن يضيف:

- لقد كنت أقول كلامًا على وجه المجاز.

- أمّا أنا فلم أكن أتّكِئُ لا على المجازات ولا على الاستعارات.

فقال الدكتور فيريس:

- ألا يمكننا أن نصطفّ جميعًا كجسد واحد من أجل البلاد في هذا الظرف العصيب؟ ألا يمكننا أن نضع خلافاتنا جانبا من أجل المصلحة العليا للبلاد؟ نحن على استعداد للتعاون. وإن وُجِد أيّ شيء في سياستنا لا توافق عليه، فقط أخبرنا به، ونحن نصدر الأوامر التوجيهيّة..

- توقّفوا عن هذا الهراء وادخلوا إلى صلب الموضوع. فأنا لم آتِ إلى هنا لأساعدكم على التظاهر بأنّ الوضع الذي أوجد فيه يسمح لي بأن أكون مفيدا لكم في ما تطمحون إليه. ادخلوا الآن في صلب الموضوع، فأنا أعرف أنّكم جهّزتم بعض الحيل الجديدة لتتحكّموا أكثر في صناعة الفولاذ. فقط أفصحوا عنها.

فقال ماوتش:

- يوجَد، في الحقيقة، سؤال جوهريّ يرتبط بصناعة الفولاذ نودّ أن نطرحه عليك، لكنّ لغتك يا سيّد ريردن...

وقال هولواي:

- نحن لا نريد أن نفرض عليك أيّ شيء. بل طالبنا بحضورك هنا لمناقشة الأمر معك.

- بل جئت إلى هنا لأتلقّى الأوامر. فهاتوا أوامركم.

- لكن نحن لا ننظر إلى الموضوع من هذه الزاوية، يا سيّد ريردن. نحن لا نأمرك بقدر ما نسعى إلى الحصول، وبشكل طوعيّ، على موافقتك.

فابتسم ريردن وقال:

- أعرف ذلك.

- هل تعرف ذلك حقًّا؟

هكذا بدأ هولواي حديثَه بحماسة، لكنّ شيئا مّا في ابتسامة ريردن جعله يدخل في حالة من عدم اليقين فأضاف:

- حسنًا، إذَن..

فردّ ريردن:

- وأنت تعلم يا أخي أنّ هذا هو العيب في لعبتكم، ذلك العيب القاتل الذي سوف ينفجر عاليًا في السماء. أخبروني الآن أيّ نفوذ خفيّ تمارسونه عليّ وتعملون بجدٍّ حتّى لا تسمحوا لي بملاحظته أو سأضطرّ إلى العودة من حيث أتيت.

- أوه، لا يا سيّد ريردن.

هكذا صاح لاوسون، ثمّ نظر على نحو مفاجئ إلى ساعة معصمه، قبل أن يضيف:

- لا يمكنك الذهاب الآن.. أعني أنّك لن ترغب في الانصراف من دون أن تسمع ما سنقوله لك.

- اسمحوا لي، إذن، بسماعه.

ثمّ رآهم وهم ينظرون بعضهم إلى بعض. كان ويسلي ماوتش خائفًا من التوجّه إليه بالخطاب. فقد حملت ملامحه تعابير عنادٍ شرسٍ، مثل إشارة قيادة دفعت الآخرين إلى التقدّم نحو الأمام في نقاشهم، بغضّ النظر عن مؤهّلاتهم، لتحديد مصير صناعة

الفولاذ، وقد جُلبوا إلى هناك ليكونوا بمثابة الحرّاس الشخصيّين لماوتش، يحرسونه في المستوى التواصليّ. وتساءل ريردن عن سبب وجود جيمس تاجارت الذي كان يجلس في صمت كئيب، يحتسي شرابًا على نحو متجهّم دون أن ينظر إليه مطلقًا.

قال الدكتور فيريس ببشاشة:

- لقد وضعنا خطّة ستحلّ كلّ مشاكل صناعة الفولاذ، خطّة ستحظى، من دون شكٍّ، بموافقتك الكاملة، لأنّها تدبير يخدم الصالح العامّ تمامًا كما يحمي مصالحك الشخصيّة ويؤمّن سلامتك...

- لا تحاول إخباري بما سأفكّر فيه. أفصح عنها وكفى.

- إنّها خطّة عادلة وسليمة ومنصفة..

- لا تخبرني بتقييمك لهذه الخطّة. أفصح عنها وكفى.

- إنّها خطّة..

هكذا استهلّ الدكتور فيريس كلامه، لكنّه سرعان ما توقّف عنه. لقد أضاع عادةَ تسميةِ الأشياء.

فقال ويسلي ماوتش:

- بموجب هذه الخطّة سنقدّم للصناعة زيادةً بنسبة خمسة في المائة في سعر الفولاذ. ثمّ سكت عن باقي التفاصيل كما لو أنّه كان منتصرًا. أمّا ريردن فلم يقل شيئًا.

- بالطبع، بعض التعديلات الطفيفة ستكون ضروريّة.

هكذا صرّح هولواي وقد تنفّس الصعداء، ثمّ عاد إلى الصمت كما لو أنّه في ملعب تنس شاغر، قبل أن يضيف:

- الزيادة في الأسعار ستمنح منتجي خام الحديد ثلاثة في المائة على الأكثر، وذلك في ضوء الصعوبات الإضافيّة التي يعاني منها البعض من أمثال السيّد لاركين في ولاية

مينيسوتا، وهؤلاء سيضطرّون الآن إلى شحن الحديد الخام بواسطة الشاحنات المكلفة، لأنّ السيّد جيمس تاجارت ضحّى بخطّ ولاية مينيسوتا من أجل المصلحة العامّة. وبطبيعة الحال، سيتعيّن منح السكك الحديديّة في البلاد زيادةً في أسعار الشحن بنسبة سبعة في المائة تقريبًا نظرًا إلى الحاجة القصوى إلى..

ثمّ توقّف هولواي عن الشرح أكثر، مثل خروج لاعب بعد عاصفة من النشاط، حين لاحظ فجأةً أنّه لا وجود لخصم يردّ على تسديداته.

فقال الدكتور فيريس على عجلٍ:

- لكن، لن تكون هناك أيّ زيادة في الأجور. فمن النقاط الأساسيّة في الخطّة أنّنا لن نرفع في أجور عمّال الفولاذ على الرغم من إلحاحهم في هذا المطلب. نتمنّى أن نكون قد أنصفناك، يا سيّد ريردن، ونؤكّد أنّنا سنحمي مصالحك حتّى لو أثار ذلك استياء شعبيًّا وسُخطا عامًّا.

وقال لاوسون:

- بالطبع، إذا كنّا ننتظر من العمّال أن يضحّوا، فإنّ علينا إقناعهم بأنّ الإدارة تضحّي هي أيضًا من أجل البلاد. يوجد توتّر في مجال صناعة الفولاذ يا سيّد ريردن، بل إنّ الوضع مرشّح للانفجار في أيّ وقت.. ومن أجل حمايتك من.. ومن..

ثمّ توقّف عن الكلام. فقال ريردن:

- ما الأشياء التي ستحمونني منها؟

- من أعمال العنف.. لا بدَّ من اتّخاذ بعض التدابير الضروريّة..

ثمّ التفت فجأةً إلى جيمس تاجارت وخاطبه بالقول:

- لماذا لا تتكفّل بشرح هذا الأمر للسيّد ريردن بوصفه شريكك في الصناعة.

فردّ تاجارت على نحو كئيب، من دون أن ينظر إلى ريردن:

- حسنا، يجب على شخص مّا أن يدعم السكك الحديديّة، لأنّ البلاد في أمسّ الحاجة إليها. ثمّ إنّه يجب على شخص مّا أن يساعدنا في تحمّل العبء. وإذا لم نحصل على زيادة في أسعار الشحن...

فقاطعه ويسلي ماوتش وقال:

- لا، لا، أخبر السيّد ريردن بنجاح خطّة توحيد السكك الحديديّة.

فردّ تاجارت بخمول:

- حسنًا، تُعتبَر هذه الخطّة عنوانَ النجاح ما عدا عنصر الزمن الذي لا يمكن السيطرة عليه تمامًا. إنّها مسألة وقت فقط قبل أن يضخّ فريقُنا الموحّد الحياةَ من جديد في كلّ سكّة حديدٍ على طول البلاد. الخطّة، وأنا في موقف يسمح لي بتأكيد هذا الأمر.. إنّها ستنجح في أيّ صناعة أخرى.

- لا شكّ في ذلك.

هكذا ردّ ريردن، ثمّ التفت إلى ماوتش وقال:

- لماذا تصرّ على إهدار وقتي؟ وما علاقة خطّة توحيد السكّك الحديديّة بي؟

فصاح ماوتش ببشاشة يائسة وقال:

- لكن يا سيّد ريردن، هذا هو النمط الذي سنتّبعه، وهذا ما دعوناك من أجل مناقشته.

- ماذا؟

- خطّة لتوحيد صناعة الفولاذ.

ثمّ خيّمت على الجميع لحظة صمت، مثل لحظات التنفّس بعد الغطس، بينما ظلّ ريردن ينظر إليهم نظرةً تنطوي على كثير من الاهتمام.

فقال ماوتش باندفاع مفاجئ، كأنّه لا يرغب في أن يتيح لنفسه فرصة معرفة السبب

الذي جعل نظرة ريردن تُشْعِرُه بعدم الارتياح:

- على ضوء المحنة الحرجة التي تمرّ بها صناعة الفولاذ، وبما أنّ الفولاذ هو أكثر السلع أهمّيّةً وحيويّةً، وبما أنّها أيضًا العمود الفقريّ لاقتصادنا، فإنّه يجب علينا اتّخاذ إجراءات صارمة للحفاظ على جميع المرافق والمعدّات والمنشآت التي تتّصل بصناعة الفولاذ في البلاد.

لكنّ نبرة الخطابة ودوافعها حملته إلى هذا الحدّ ولم تحمله إلى أبعد من ذلك فأضاف:

- وإذا أخذنا هذا الهدف بعين الاعتبار، فإنّ خطّتنا ستكون... ستكون...

فقال تينكي هولواي وهو يسعى جاهدًا إلى إثبات ذلك من خلال البساطة المرحة التي تغشى صوته:

- ستكون خطّتنا حقًّا بسيطة جدًّا، سنرفع كلّ القيود المفروضة على إنتاج الفولاذ. وهكذا سيكون في وسع أيِّ شركة أن تنتج ما تريد. ولكن لتجنّب التبذير وخطر المنافسة الشرسة، ستودع جميع الشركات أرباحَها الإجماليّة في مجمع مشترك، سيعرف باسم مجمع توحيد الفولاذ الذي سيتولّى إدارتَه مجلسٌ خاصٌّ. وفي نهاية العام، سيوزّع هذا المجلسُ تلك الأرباحَ عن طريق جمع الناتج الفولاذيّ للدولة وتقسيمه على عدد الأفران المفتوحة في البلاد. وهكذا نصل إلى متوسّط سيحقّق العدل للجميع. وكلّ شركة ستدفع حسب حاجتها، ولمّا كانت المحافظة على أفران الشركة هي حاجتها الأساسيّة، فإنّ كلّ شركة ستدفع تبعًا لعدد الأفران التي تمتلكها.

ثمّ توقّف منتظرًا أيَّ ردٍّ، ثمّ أضاف:

- هذا كلّ ما في الأمر يا سيّد ريردن.

وإذ لم يحصل على أيّ جواب منه قال:

- توجد تفاصيل كثيرة ينبغي معالجتها، ولكن.. هذا كلّ ما في الأمر.

ومهما يكن ردّ الفعل الذي توقّعوه فإنّه لم يكن ذاك الذي رأوه في تصرّفات ريردن.

لقد انحنى إلى الخلف على كرسيّه، وأخذ ينظر بثبات في الفضاء، كما لو أنّه ينظر إلى مسافة غير بعيدة، ثمّ سألهم بنبرة هادئة:

- ما الذي تعوّلون عليه؟

كان يدرك أنّهم يفهمون جيّدًا ما يرمي إليه. لقد رأى على وجوههم تلك النظرة المراوغة بعناد غريب، تلك النظرة التي كان يعتقد ذات مرّة أنّها نظرة كاذب يخون ضحيّته، لكنّه الآن يدرك أنّها أسوأ من ذلك بكثير. إنّها نظرة رجل يخون نفسه بمحض إرادته ووعيه. لم يردّوا عليه، بل ظلّوا صامتين، كما لو أنّهم يكافحون، ليس لكي ينسى سؤاله، بل ليتناسوا أنّهم سمعوا هذا السؤال.

فقاطع جيمس تاجارت صمتَهم على نحوٍ غير متوقّع، وقال بنبرة نشطة وغاضبة:

- إنّها خطّة عمليّة وسليمة. سوف تنجح هذه الخطّة. بل يجب أن تنجح. إنّنا نعمل حتّى تتكلَّل بالنجاح.

لم يردَّ عليه أحد. فقال هولواي بخجل:

- سيّد ريردن؟

فردّ ريردن:

حسنًا، دعني أنظر في الأمر. تملك شركة أورين بويل للفولاذ ستّين فرنًا مفتوحًا، ثلثها عاطل عن العمل، أمّا البقيّة فإنّها تنتج في المتوسّط ثلاثمائة طن من الفولاذ لكلّ فرنٍ في اليوم. أنا أملك عشرين فرنًا مفتوحًا تعمل بكامل طاقتها وتنتج سبعمائة وخمسين طنًا من معدن ريردن لكلّ فرن في اليوم. نحن، إذَن، نملك في المجمل ثمانين فرنا، ويبلغ مجموع الإنتاج 27 000 طنا، ممّا يجعل لكلّ فرن 337.5 طنا في المتوسّط. وفي كلّ يوم من السنة، أنتج خمسة عشر ألف طن، وسيدفعون لي مقابل 6 750 طن. بينما ينتج بويل اثني عشر ألف طن، وسيدفع له مقابل 20250 طنا. دون أن ننسى الأعضاء الآخرين من المجمع الذين لن يغيّروا في المعادلة أيّ شيء ما عدا جعل المعدّل

ينخفض أكثر. إنّ معظمهم يفعلون أسوأ ممّا يفعله بويل، ولا أحد منهم ينتج مثلي. الآن كم من الوقت تتوقّعون منّي أن أبقى مرهونا بهذه الخطّة؟

لم يتلقَّ أيّ إجابة، ثمّ صاح لوسون فجأةً بشكل أعمى:

- في ظلّ الأزمة التي تعصف بالوطن، من واجبك أن تضحّي من أجل إنقاذ البلاد.

- لا أرى أنّ ضخّ أرباحي في حساب أورين بويل سينقذ البلاد.

- عليك أن تضحّي من أجل المصلحة العامّة.

- أنا لا أدرك السبب الذي يجعل أورين بويل يستفيد من «الصالح العامّ» أكثر منّي.

- أوه، إنّها مسألة لا تقتصر على السيّد بويل على الإطلاق. إنّها أوسع من ذلك بكثير، لأنّها تشمل كلّ شخص في البلاد. إنّها مسألة تتعلّق بالحفاظ على الموارد الطبيعيّة للبلاد، ثمّ إنّها تتعلّق بإنقاذ القطاع الصناعيّ للأمّة. ولا يمكننا أن نسمح بإفلاس مؤسّسة كبيرة مثل شركة السيّد بويل، لأنّ البلاد في أمسّ الحاجة إليها.

فردّ ريردن ببطء:

- أعتقد أنّ البلاد تحتاج إليَّ أكثر ممّا تحتاج إلى أورين بويل.

صاح لاوسون بحماس شديد:

- بالطبع، إنّ البلاد في أمسّ الحاجة إليك يا سيّد ريردن... أنت تدرك ذلك، أليس كذلك؟

ولكنّ متعة لاوسون الشهوانيّة في الصيغة المألوفة للتضحية بالذات اختفت فجأةً حين سمع صوت ريردن البارد وهو يردّ عليه بنبرة التاجر:

- أدرك ذلك طبعًا.

فقال هولواي ملتمسًا:

- ليس بويل وحدَه المتورّط في هذه المسألة، بل اقتصاد البلاد كلّه. إنّه غير قادر على

تحمّل خسائر كبيرة في الوقت الراهن. ثمّ لا ينبغي أن ننسى وجود آلاف العمّال والمورِّدين والزبائن الذين ستحلّ بهم كارثة عظيمة إن أفلست شركة بويل.

- وماذا سيحلّ بالآلاف من عمّالي وزبائني عندما تفلس شركتي؟

فردّ هولواي على نحوٍ غريب:

- لكن، أنت أغنى وأقوى صناعيٍّ في البلاد. وفي هذه اللحظة بالذات، أنت أكثرهم بُعْدًا عن منطقة الخطر.

- وماذا بعد هذه اللحظة؟

- آه؟

- إلى أيّ مدى سأكون قادرًا على تحمّل الخسائر؟

- أوه يا سيّد ريردن، أنا أثق بك.

- لتذهب أنت وثقتك إلى الجحيم.. كيف تتوقّع منّي أن أفعل ذلك؟

- سوف تتدبّر أمرك.

- كيف؟

ولم يتلقّ أيّ جواب. فصاح ويسلي ماوتش:

- إنّ ما ينبغي التركيز عليه الآن ليس المستقبل، بل الحاضر. لا بدّ أن نحول الآن دون الانهيار الذي يتربّص بأمّتنا. يجب أن ننقذ اقتصاد البلاد.

ونظر في اتّجاه ريردن، ثمّ أضاف:

- إذا لم تعجبك هذه الخطّة فنحن مستعدّون لمناقشة أيّ حلٍّ تراه مناسبًا.

فردّ ريردن بيسر:

- بالتأكيد. إذا كنت تريد تطوير الإنتاج، فإنّ عليك أن تتنحّى جانبًا، وتُلقي

لوائحك اللعينة في سلّة المهملات، وتترك أورين بويل يفلس، ثمّ دعني، بعد ذلك، أشتري مصنع فولاذه وأعدك بصبّ ألف طن في اليوم من كلّ فرن من الأفران الستّين.

- أوه ، لكن.. لا نستطيع فعل ذلك.. سيكون هذا الأمر شكلا من أشكال الاحتكار.

ضحك ريردن، ثمّ قال:

- حسنا، دع رئيس الشرطة يشتري مطاحني وسيقوم بعمل أفضل ممّا يقوم به بويل.

- أوه، لكن، في هذه الحال سنعطي الأفضليّة للقويّ على حساب الضعيف، ونحن لا نستطيع فعلَ ذلك.

- لا تتحدّث، إذَن، عن إنقاذ اقتصاد البلاد.

- كلّ ما نريده هو..

لكنّه سرعان ما توقّف عن الكلام.

- كلّ ما تريده هو الإنتاج، لكن من دون أن تُعَوِّل على رجال قادرين على الإنتاج.

- هذه.. مجرّد نظريّة. إنّها مجرّد تطرّف نظريّ. كلّ ما نطمح إليه هو إجراء تعديل مؤقّت.

- لقد كنت تُجْري التعديلات المؤقّتة على مدى سنوات عديدة، ألا ترى أنّ الوقت لم يعد في صالحك؟

- إنّها مجرّد نظر..

ارتبك ولم يتفوّه بالكلمة. فردّ هولواي بحذر:

- حسنا، السيّد بويل ليس، في الواقع، رجلًا ضعيفًا، بل هو رجل بارع وكُفء. إنّه يعاني فقط من بعض الضيق. وقد استثمر مبالغ كبيرةً في مشروع يخدم الصالح العامّ. كان يرغب في مدّ يد العون إلى الشعوب المتخلّفة في أمريكا الجنوبيّة، غير أنّ هذا

المشروع باء بالفشل، وهو أمرٌ تسبّب له في ضيق ماليّ. لذلك فإنّ ما سنفعله هو فقط أن نتيح له الفرصة للتعافي. سنمدّ إليه يد المساعدة لكي يتدارك ما تكبّده من خسائر، وستكون فقط مساعدة مؤقّتة، لا غير. فكلّ ما علينا أن فعله هو أن نضحّي من أجل المتضرّر حتّى يتعافى. ومن ثمّ، سيزدهر الاقتصاد ككلّ.

فردّ عليه ريردن:

- لقد كنت تنادي بالتضحية على مدى أكثر من مائة عام.. بل آلاف السنين.. ألا ترى أنّك بلغت الطريق المسدودة.

فقاطعه ويسلي ماوتش قائلا:

- خطابك مجرّد كلام نظريّ.

فابتسم ريردن وقال بهدوء:

- أعرف جيّدا ممارساتك. إنّها نظريّتك التي أحاول أن أستوعبها.

كان يعرف أنّ الغاية من وراء هذه الخطّة هو أورين بويل. إنّه يدرك أنّ هذه الآليّة المعقدّة تشتغل بالترغيب والتهديد والضغط والابتزاز. ويدرك أيضا أنّ ما حدث هو إضافة ما يصل إلى بويل عبر الضغط على هؤلاء الرجال وابتزازهم وتمكينه من نهب أيّ شيء. كان يعلم أيضًا أنّ بويل لم يكن السببَ في ذلك أو العنصر الأساسيّ الذي يجب أخذه في الحسبان، وأنّه ليس أكثر من رجلٍ ينتهز تلك الفرص، وليس مؤسّس هذه الآلة الجهنّميّة التي دمّرت العالم، وأنّه لم يكن الطرف الذي جعل هذه الآلة ممكنةً، ولا أيّا من هؤلاء الرجال الذين كانوا معه في تلك الغرفة. فهم أيضا مجرّد ركّاب يستقلّون سيّارة من دون سائق. إنّهم مجرّد أيادٍ مرتعشة متطفّلة تعلم أنّ السيّارة على وشك الاصطدام النهائيّ بالهاوية، وأنّ ما جعلهم يتمسّكون بهذا المسار والضغط على زرّ التسريع لبلوغ نهايته ليس حبّهم لـبويل أو خوفهم منه، بل هو شيء آخر. إنّه عنصر مجهول كانوا يعرفونه حقّ المعرفة ويتهرّبون من إدراكه، شيء ليس من قبيل الفكر أو الرجاء، شيء تعرّف عليه في نظراتهم الماكرة التي تقول: يمكنني الإفلات والنجاة مهما

تكن الظروف. فقال في نفسه: لماذا؟ لماذا يعتقدون أنّهم يستطيعون الإفلات دائمًا؟

فصاح ويسلي ماوتش:

– لا مجال لأيّ كلام نظريّ، لأنّ علينا أن نتصرّف قبل فوات الأوان.

– حسنا، أنا سأعرض عليك حلًّا آخر. لماذا لا تستولي على طواحيني وتطوي هذه الصفحة نهائيًّا؟

لقد كانت الصدمة التي هزّتهم رعبًا حقيقيًّا. ثمّ لهث ماوتش قائلا:

– أوه، لا.

صاح هولواي:

– نحن لا نفكّر في هذا الأمر.

صاح الدكتور فيريس:

– نحن نعمل من أجل مشروع حرّ.

صاح لاوسون:

– نحن لا نسعى إلى إيذائك. نحن أصدقاؤك يا سيّد ريردن. ألا يمكننا أن نعمل كجسد واحد؟

وكانت في أحد أركان الغرفة طاولة بها هاتف، طاولة واحدة، على الأرجح، وجهاز الهاتف هو نفسه. وشعر ريردن فجأة كما لو أنّه يرى خيالًا متشنّجًا لرجل ينحني على ذلك الهاتف، رجل يدرك ما بدأ ريردن يعلمه، رجل ناضل من أجل رفض الطلب نفسه الذي كان ريردن بصدد رفضه الآن من هؤلاء المستأجرين لهذه الغرفة. ثمّ شاهد نهاية تلك المعركة، رجل أرهقه العذاب فرفع رأسه لمواجهته وصوت يائس يقول بثبات:

– يا سيّد ريردن، أقسم لك باسم المرأة التي أحبّها... أنّني صديقك.

هذا هو الفعل الذي أطلق عليه حينها صفة الخيانة، وهذا هو الرجل الذي رفضه لكي يستمرّ في خدمة الرجال الذين كانوا يواجهونه. فمن الخائن؟ لقد فكّر في الأمر تقريبًا من دون شعور، من دون حقٍّ في الشعور، فلم يعد واعيًا بشيء سوى الوضوح المهيب، ثمّ تساءل في قرارة نفسه: مَن اختار أن يعطي المستأجرين الحاليّين وسيلة للحصول على هذه الغرفة؟ ومن ضحّى به؟ ومن المستفيد من ذلك؟

أنَّ لاوسون، ثمّ قال:

- سيّد ريردن، ما خطبك؟

فأدار رأسه، فرأى عيني لاوسون وهما تراقبانه بخوفٍ، وخمّن النظرة التي التقطها لاوسون في وجهه.

فصاح ماوتش:

- نحن لا نطمح إلى الاستيلاء على طواحينك.

وصاح الدكتور فيريس:

- نحن لا نريد أن نحرمك ممتلكاتك. لقد أسأت فهمنا.

- بل بدأت أستوعبكم.

كان ريردن يعتقد أنّ هذا الأمر لو حدث قبل سنةٍ، لأطلقوا النار عليه. ولو أنّه حدث قبل عامين، لصادروا جميع ممتلكاته، لكن لو أنّه حدث منذ عهد غابرٍ، لاستمتعَ رجالٌ من هذا النوع بالقتل ونزع الممتلكات، ولتظاهروا بأمانٍ أمام أنفسهم وأمام ضحاياهم بأنّ هدفهم الوحيد هو نهب الغنائم المادّيّة. لكنّ وقتهم كان ينفد ورفاقه الضحايا رحلوا بأسرع ممّا وعد به أيّ جدول تاريخيّ، وهم، بوصفهم اللصوص، تُركوا الآن لمواجهة الواقع الصعب.

فقال بضجر:

- اسمعوا يا رجال، أنا أعرف ما تريدون. أنتم تريدون الاستيلاء على طواحيني. وكلّ ما أودّ معرفته هو السبب الذي يجعلكم تعتقدون أنّ هذا الأمر ممكنٌ؟

فقال ماوتش بنبرة إنسان جريح:

- لا أعرف ما تعنيه بذلك، لقد قلنا لك إنّنا لا نريد طواحينك.

- أنتم تريدون افتراسي والنيل منّي.

- لا أعلم كيف يمكنك أن تتفوّه بهذا الأمر بعد أن أكّدنا لك أكثر من مرّة أنّك تحظى بأهمّيّة كبيرة، ليس فقط في صناعة الفولاذ، بل أيضًا في اقتصاد البلاد ككلّ..

- أنا أصدّقكم، وهذا الأمر هو ما يجعل اللغز صعبا جدًّا. أنتم تقولون إنّني مهم جدًّا فقط لكي تحرّروا رقابكم. أنتم الآن ترتجفون، لأنّكم تعلمون أنّني آخر من تبقّى لإنقاذ حياتكم. لكنّكم تقترحون خطّة لتدميري، خطّة تطالب، بغباء وحمق، بأن أعمل من دون أيّ جدوى، أن أخسر في صناعة الفولاذ أكثر ممّا أربح، أن أبدِّدَ آخر فِلْسٍ أملكه إلى أن يصيبنا الجوع معًا. هذا القدر من اللّاعقلانيّة غير ممكن لأيّ رجل أو أيّ لصٍّ. من أجل مصلحتكم الخاصّة ما عدتم تهتمّون بمصلحة البلاد أو مصلحتي.. لا شكّ أنّكم تعوِّلون على شيء مّا. أخبروني ما الذي تعوّلون عليه؟

ثمّ شاهد نظرة الهروب وهي تلوح على وجوههم، نظرةً غريبة بدَت كتومة، لكنّها مستاءة، كما لو أنّه، وبشكل لا يصدّق، هو من كان يخفي عنهم سرًّا.

فقال ماوتش بشكل عابس:

- أنا لا أفهم السبب الذي يجعلك تتبنّى مثل هذه النظرة الانهزاميّة.

- نظرة انهزاميّة؟ هل تتوقّع منّي حقًّا أن أكون قادرًا على الصمود في عملي وهو خاضع لخطّتك؟

- لكنّها خطّة مؤقّتة.

- لا يوجد شيء اسمه الانتحار المؤقّت.

- لكنّ هذه الخطّة ستبقى سارية المفعول فقط حتّى تتعافى البلاد.

- كيف تتوقّع منها أن تتعافى؟

غير أنّه لم يتلقّ أيّ جواب، فأضاف:

- كيف تتوقّع منّي أن أنتج بعد أن أفلس؟

فردّ عليه الدكتور فيريس بلامبالاةٍ:

- لن تفلس أبدًا، بل ستظلّ منتِجًا. أنت لا تستطيع تجنّب ذلك. إنّ الإنتاج يغلي في دمك أو لنقل إنّك مجبول على ذلك.

فنهض ريردن كما لو أنّه كان يناضل من أجل العثور على تركيبة الرموز السرّيّة لأحد الأقفال وشعر، عند سماعه لتلك الكلمات، بنقرةٍ خافتة في داخله مثل وضع أوّل شفرة في مكانها.

وقال ماوتش:

- إنّنا نسعى فقط لتخَطِّي هذه الأزمة، ومنح الناس فرصة للّحاق بنا.

- وماذا بعد؟

- وبعد ذلك ستتحسّن الأمور.

- كيف؟

لكن، لم يتلقَّ أيّ جواب. فأضاف:

- وما الذي سيحسّنها؟

لم يتلقَّ مجدّدا أيّ جواب، فاسترسل في الكلام:

- ومن سيحسّنها؟

فصاح هولواي:

- يا سيّد ريردن، لن يظلّ الناس مكتوفي الأيدي. إنّهم سيتدخّلون.

- عن أيّ أناس تتحدّث؟

فلوّح هولواي بيده بشكل مبهم وفضفاض وقال:

- الناس.

- أيّ ناس؟ هل الناس الذين ستطعمهم من آخر ثروة لشركة ريردن للفولاذ من دون الحصول على أيّ شيء في المقابل؟ هل الناس الذين سيستمرّون في الاستهلاك أكثر ممّا ينتجون؟

- ستتغيّر الظروف.

- ومن سيغيّرها؟

لم يتلقّ أيّ جواب، فأضاف:

- هل تبقّى لكم أيّ شيء لم تنهبوه؟ إذا لم تنتبهوا كلَّ هذه السنين إلى العواقب الوخيمة لسياستكم، فإنّه من المستحيل أن تنتبهوا إليها الآن. انظروا من حولكم؛ كلّ الدول الشعبيّة في جميع أنحاء الأرض تعيش بفضل الهبات والصدقات التي نُهِبت من هذه البلاد. لكن لم يعد هناك أيّ شيء لتنهبوه. ولا توجد على وجه الأرض بلادٌ أخرى لتنهبوها. فهذه كانت أعظم وآخر بلاد استنزفتموها. لقد استنزفتموها وأخذتم منها عظمتها الرائعة التي لا يمكن استردادها، وأنا آخر بقايا تلك العظمة، وآخر كبريائها. فماذا ستفعل أنت وجماعتك بعد افتراسي؟ وما الذي تعوّلون عليه بعدي؟

فلم يجيبوا ولم ينظروا إليه. كانت تقاسيم وجوههم تطفح بتعابير الاستياء. ثمّ قال لاوسون بهدوء كلامًا يمتزج فيه اللوم والازدراء:

حسنًا، يا معشر رجال الأعمال لطالما توقّعتم الكوارث منذ سنوات، ونبّهتم إلى كلّ

كارثة على نحو استباقيّ لاتّخاذ التدابير الضروريّة، ولطالما قلتم إنّنا سنهلك لكنّنا لم نهلك وبقينا صامدين.

كان يبتسم، لكن سرعان ما تلاشت هذه الابتسامة أمام حدّة نظرة ريردن.

فشعر ريردن بنقرة أخرى في عقله، نقرة أشدّ حدّةً عكست الشفرة الثانية التي تربط دوائر القفل. فانحنى إلى الأمام وسألهم:

- علامَ تعوّلون؟

تغيّرت نبرته وأصبحت منخفضة مثل صوت أزيز مثقاب ثابت وملحّ.

صاح ماوتش:

- إنّنا نحاول أن نكسب مزيدًا من الوقت.

- لم تتركوا أيّ وقت لتكسبوه.

- صاح لاوسون:

- كل ما نحتاج إليه الآن هو مجرّد فرصة.

- لم يعد ثمّة أيّ فرصة.

صاح هولواي:

- إنّها مجرّد طريق تقود إلى التعافي.

- ليس ثمّة أيّ طريق تقود إلى التعافي.

صاح الدكتور فيريس:

- فقط حتّى تبدأ سياساتنا تؤتي أُكُلَها.

- لا يمكن لفعل غير عقلانيّ أن يؤتي أكله.

لم يتلقَّ أيّ ردّ، فأضاف:

- وما الذي يستطيع إنقاذكم الآن؟

صاح جيمس تاجارت:

- أوه، عليك أن تفعل شيًا مّا لتوقف هذا الانهيار.

وبعد ذلك، وعلى الرغم من أنّها كانت مجرّد جملةٍ سمعها طوال حياته، شعر ريردن بانهيار يصمّ الآذان في داخله يشبه انفتاح باب حديديّ فُتِح بلمسة نهائيّة لآخر شفرةٍ وقع إدخالها في القفل، ذلك الرقم الصغير الذي استكمل مجموع الرموز التي أفرجت عن القفل المعقّد، ذلك الجواب الذي وحّد جميع القطع والأسئلة وجروح حياته التي لم تحلّ.

وفي لحظة الصمت التي تلت ذلك الحادث، بدا له أنّه سمع صوت فرانسيسكو وهو يطلب منه بهدوء في قاعة الرقص الموجودة بذلك المبنى، ويخاطبه أيضا هنا والآن:

- من هو أكثر الرجال ذنبًا في هذه القاعة؟

ثمّ سمع جوابه الذي صدر منه في الماضي:

- أفترض أنّه جيمس تاجارت.

لكنّ صوت فرانسيسكو كان يقول من دون لومٍ:

- لا يا سيّد ريردن، ليس جيمس تاجارت.

لكن هنا، في هذه الغرفة وفي هذه اللحظة تحديدًا، أجاب بموضوعيّة:

- أنا المذنب.

لقد لعن هؤلاء اللصوص بسبب عماهم العنيد. كان هو مَن جعل ذلك ممكنًا ابتداءً من أوّل ابتزاز قبل به، ومنذ أوّل قانون توجيهيّ التزم به. لقد منحهم سببًا للتفكير في أنّ الواقع شيء مبنيّ على الغشّ، وأنّه يمكن للمرء أن يطلب اللّامعقول وأنّ شخصًا آخر سيوفّره له بطريقة مّا. فإذا كان قد قبل بقانون تكافؤ الفرص، وبالقانون التوجيهيّ

رقم 289-10، وبالقانون الذي يعطي أولئك الذين لا يمتلكون مثل قدراته حقَّ التَّحكُّم في مصيره ولم يقْبَل فقط بأن يراكم الثروة أولئك الذين لا يستحقّونها، بينما هو يكابد الخسارة، فقد قَبِلَ أيضًا بأن يتلقّى الأوامر من أولئك الذين لا يملكون القدرة على التفكير، وأن ينفّذ أوامرهم. هل كانوا إذَن غير منطقيّين حين آمنوا بأنّهم موجودون في كون غير عقلانيّ؟ كونٍ هو مَن صنعه ووفّره لهم. هل كانوا غير منطقيّين حين آمنوا بأنّ على أمثالهم فقط التمنّي، التمنّي من دون الاهتمام بالممكن، وأنّ على أمثاله تحقيق أمانيهم ورغباتهم، بوسائل لا يحتاجون إلى معرفة تفاصيلها أو أسمائها؟ إنّهم، هؤلاء المتصوّفة العجزة، الذين يناضلون من أجل الهروب من مسؤوليّة العقل، لأنّهم عرفوا أنّ العقلانيّ هو من تعهّد بخدمة نزواتهم. لقد علموا أنّه أعطاهم شيكًا على بياض مقابل تحقيق الواقع، أمّا هو فلم يسأل عن السبب؟ بينما لم يسأل أمثالهم عن الكيفيّة؟ فهل سيدعهم يطالبونه بالتخلّي عن حصّة من ثروته، وكلّ ما يملك، وأكثر ممّا يملك؟ لا، إنّه سيفعل شيئًا مّا.

ولم يكن يعلم أنّه قد نهض، وأنّه كان واقفًا يحدّق في جيمس تاجارت، ويرى في ملامحه الجامحة العديمة الشكل الإجابةَ على كلّ الدمار الذي شهده خلال سنوات حياته.

سأله تاجارت مُحتارًا:

- ما خطبك يا سيّد ريردن؟ ماذا قلتُ؟

لكنّ ريردن كان بعيدا عن متناول صوت تاجارت، كان يفكّر في تطوّر السنين، ووحشيّة الابتزاز، والمطالب المستحيلة، وانتصارات الشرّ التي لا يمكن تفسيرها، والخطط المنافية للعقل، والأهداف غير المفهومة التي تضجّ بها مجلّدات الفلسفة، والتعجّب اليائس للضحايا الذين اعتقدوا في وجود حكمة خبيثة ومعقّدة تُحرِّك القوى المدمّرة للعالم. كلّ ذلك كان يرتكز على عقيدة واحدة تقبع خلف عيون المنتصرين الماكرة: إنّه سيفعل شيئا مّا.. ونحن سنفلت من العقاب.. وهو سيدعنا.. إنّه سيفعل

شيئا مّا...

أنتم يا رجال الأعمال كنتم تتوقّعون أنّنا سنهلك، لكنّنا لم نهلك... اعتقد ريردن أنّ ذلك صحيحٌ. هم لم يكونوا يغضّون الطرف عن الواقع، بينما غضّ هو الطرف عنه. إنّه لم يكن يرى الواقع الذي خلَقَه بنفسه. لا، هم لم يهلكوا. لكن، انظر من هلك، ومن الذي لقي حتفه ليدفع ثمن طريقة بقائه؟ أليس وايت.. وكين داناغير.. وفرانسيسكو دانكونيا.

ثمّ مدّ يده لوضع قبّعته على رأسه، ثمّ ارتدى معطفه وَهَمَّ بالخروج عندما لاحظ أنّ الرجال في الغرفة كانوا يحاولون إيقافه، وأنّ وجوههم تعلوها مسحة من الذعر وأنّهم يصرخون في حيرة:

- ما خطبك يا سيّد ريردن؟ لماذا؟ لكن لماذا؟ ماذا قلنا؟ لن تذهب.. لا يمكنك الذهاب.. إنّ الوقت مبكّرٌ جدًّا.. ليس بعد.. ليس بعد..

كان ريردن يشعر وكأنّه يراهم من نافذة السيّارة الخلفيّة وهم يحثّون الخطوَ من أجل اللحاق به. شعر كما لو أنّهم وقفوا في الطريق، يلوّحون بأيديهم عبثًا، يصدرون إيماءات وهتافات وأصواتًا لا يمكن تمييز بعضها من بعض، وذلك قبل أن تتلاشى خيالاتهم وأصواتهم.

لقد حاول أحدهم إيقافه عندما استدار وتوجّه صوب الباب. فدفعه ريردن بعيدًا عن طريقه. لم تكن حركته خشنة، بل كانت حركةً بسيطة وسلسة من ذراعه، مثلما يزيل المرء ستارةً من أمام ناظريه، ثمّ خرج.

كان الصمت إحساسَه الوحيدَ الذي رافقه وهو يجلس أمام مقود سيّارته، مسرعًا في طريق العودة إلى مدينة فيلادلفيا. كان صمتًا يعكس الجمود الذي يعتمل في داخله، كما لو أنّه يمتلك المعرفة. يمكنه الآن أن يستريح من دون القيام بأيّ نشاط آخر قد يرهق روحه. لم يحسّ بشيء. ما عاد يحسّ بالألم ولا بالبهجة. وبدا له الأمر كما لو أنّه تسلّق جبلًا للتمكّن من زاوية نظر بعيدة المدى، وبعد أن وصل إلى القمّة، سقط فوجد نفسه

مستلقيًا وساكنًا، ليرتاح قبل أن ينتبه إلى أنّه أصبح حرًّا كي ينقذ نفسه للمرّة الأولى.

كان يعلم أنّ الطريق الطويلة الخالية تنساب، ثمّ تنحني وتلتفّ، ثمّ تنساب مجدّدًا أمامه مباشرةً، بضغط يسير من يديه على عجلة القيادة وصرير الإطارات بالمنحنيات. لكنّه شعر كما لو أنّه كان يسرع في ممرّ جويّ معلّق ويلتفّ في فضاء فارغ.

لقد رأى المارّة الذين يسيرون بجانب المصانع وعلى الجسور وقرب محطّات الطاقة على طول الطريق. كانت رؤية سيّارة قويّة فارهة وباهظة الثمن يقودها رجل واثقٌ بنفسه أمرًا عاديًّا في الماضي، هذا المشهد الذي يعيد إلى أذهانهم مفهوم النجاح الذي كان يمثّله ذلك الرجل على نحو صارخ أكثر من أيّ علامة إشهاريّة كهربائيّة. لقد شاهدوه وهو يمرّ ويختفي في الضباب الذي ساوى النهار بالليل.

ثمّ رأى طواحينَه ترتفع أمام ناظرَيه في الظلام، كخيالات سوداء في مواجهة وهج حيّ. كان الوهج بلون الذهب الملتهب، وعلامة شركة ريردن للفولاذ ظلّت مكتوبة عبر السماء بنار الكريستال البيضاء الرائعة.

وظلّ يتطلّع إلى صورة الخيالات العالية، ومنحنيات الأفران الدائمة مثل أقواس النصر، والمداخن المرتفعة مثل صفّ مهيب من الأعمدة على طول شارع محترم وجليل في مدينة بمثابة الإمبراطوريّة، والجسور المعلّقة مثل الأكاليل، والرافعات التي كانت تحيّيه مثل الرماح، والدخان الذي لاح ببطء مثل الأعلام. لقد قاطع ذلك المشهدُ السكونَ الذي كان بداخله فأطلق ابتسامة نضحت بالسعادة والحبّ والتفاني. هو لم يحبّ مطاحنه البتّةَ مثلما فعل في تلك اللحظة، لأنّه كان متطهّرا من كلّ شيء ما عدا مدوّنة قيمه الخاصّة في واقع مشرق لا يحمل أيّ تناقضات. الآن، أدرك السبب الذي جعله متعلّقًا بمطاحنه، وهو أنّها كانت إنجازًا من إنجازات عقله الذي كرّسه للاستمتاع بالوجود، وقد أُنجِزت في عالم عقلانيّ للتعامل مع الناس العقلانيّين. وإذا كان هؤلاء الناس قد اختفوا، وإذا كان ذلك العالم قد اندثر، وإذا كانت طواحينه قد توقّفت عن خدمة قيمه، فإنّها ستصبح مجرّد كومة من الخردة الميّتة. ولا بدّ أن يدعها

تنهار، بل إنّه كلّما عجّل بانهيارها كان ذلك أفضل. وأن يدعها تنهار ليس خيانة، بقدر ما هو ولاء لمعناها الحقيقيّ.

كانت الطواحين ما تزال على بعد ميلٍ عندما اشتعلت بها موجة صغيرة من اللهب شدّت انتباهَه على نحو مفاجئ. وبين جميع ظلال النار في انتشار الهياكل الواسع ذاك، كان بإمكانه تحديد ما ليس طبيعيًا وما ليس في مكانه. كان اللهيب في بدايته يتّخذ مسحة صفراء اللّون، وكان يندفع من مكان لا يُشتبَه في انبعاث أيّ نار منه، لقد اندفع اللهيب من هيكل قريب من بوّابة المدخل الرئيسيّ.

وبعد ذلك، سمع فرقعة جافّة لطلق ناريّ، تلته ثلاث فرقعات بمثابة رجع صدًى في تعاقب سريع، مثل صفعة يد غاضبة من مهاجم مفاجئ.

ثمّ تشكّلت كتلةٌ كثيفة سوداء غطّت الطريق بالكامل. وكانت هناك مجموعة من الرجال يتدافعون عند البوّابة الرئيسيّة في محاولة لاقتحام المطاحن.

كان لديه متّسع من الوقت لتمييز الأيادي التي كانت يلوّح -بعضُها بالهراوات والقضبان الحديديّة، وبعضُها الآخر بالبنادق- ولتحديد مصدر اللهيب الأصفر الذي كان ناتجًا عن اشتعال الخشب، والفرقعات الزرقاء التي كانت نتيجة إطلاق النار من قبل الدهماء. كان لديه أيضًا متّسع من الوقت لمعرفة الخيال البشريّ الذي التفّ في الخلف وسقط من أعلى السيّارة، ورماها في منعطف حادّ وتحوّل إلى الظلام بجانب الطريق.

كان يجري بمعدّل ستّين ميلًا في الساعة فعبر الأخاديد غير المعبّدة، واتّجه نحو البوّابة الشرقيّة للمطاحن، وكانت البوّابة في الأفق عندما أثّر مرورُ الإطارات بالأخاديد على توازن السيّارة فرماها خارج الطريق، إلى حافّة الوادي حيث تقع كومة قديمة من ركام المعادن في الجزء السفليّ منه. ومع ثقل صدره ومرفقه على عجلة القيادة، أجبر انحناء جسده منحنى السيّارة على استكمال نصف دائرتها الصارخة، ثمّ أعادها مجدّدًا إلى الطريق مسيطرًا عليها بكلتا يديه. واستغرق منه الأمر لحظةً واحدة، وفي اللحظة

الموالية ضغط برجله على دوّاسة الفرامل، وأجبر المحرّك على التوقّف. وفي تلك اللحظة، عندما اجتاحت المصابيح الأماميّة الوادي لمح شكلًا مستطيلًا، أغمق من لون الحشائش الرماديّ على المنحدر، وبدا له أنّ هناك شبحًا أبيض قصيرًا، لقد كانت يدًا بشريّة تلوّح طلبًا للمساعدة.

فرمى ريردن معطفه، وأسرع باتّجاه الوادي. وكانت كتل الأرض تفسح الطريق تحت قدميه، وسار فوق لفائف المرج الجافّة، فكان أحيانًا يجري، وأحيانًا أخرى ينزلق نحو الشكل الأسود الطويل الذي يبدو الآن أنّه جسم بشريّ. وكانت هناك بقايا من القطن تتطاير على ضوء القمر، وكان بإمكانه رؤية بياض اليد وشكل ذراع ممدّدة في الأعشاب، وجسدٍ ساكنٍ.

- سيّد ريردن..

كان كلامه همسًا يكافح ليصبح صرخةً، ثمّ سمع الصوت الرهيب لحبّ النضال في مواجهة صوتٍ لا يمكن أن يكون سوى أنين بسبب الألم.

ولم يكن يعلم أيّ الصوتين صدر أوّلًا، لأنّه شعر بهما مثل صدمة واحدة. بدا له الصوت مألوفًا. بينما كان شعاع من ضوء القمر يخترق القطن فيكشف حركة سقوط الرجل على ركبتيه بوجهه الأبيض البيضويّ، فتعرّف عليه. إنّه الممرّض الرطب.

لقد شعر بيد الشابّ وهي تمسكه بقوّة غير طبيعيّة من الألم، بينما كان يلاحظ في وجهه تقاسيم تدلّ على العذاب، وشفتين جافّتين، وعينين لامعتين، ونزيفا داكنا ينزلق من صدر الفتى.

- سيّد ريردن.. لقد أردت إيقافهم.. لقد أردت إنقاذك..

- ماذا حدث لك يا فتى؟

- لقد أطلقوا النار عليّ كي لا أتكلّم.. أردت أن أمنع ما يخطّطون له.. لكنّني تأخرتُ جدًّا، لقد حاولت... حاولت.. وما زلت قادرًا.. على التحدّث.. اسمع، هم..

فقاطعه ريردن:

- أنت بحاجة إلى الإسعاف. دعني آخذك إلى المستشفى..

- لا.. انتظر.. لا أعتقد أنّني سأحظى بفرصة النجاة.. لذلك يجب أن أخبرك.. اسمع.. ذلك الشغب.. إنّه منظّم.. بناء على أوامر من واشنطن.. إنّهم ليسوا عمّالك.. ليسوا عمّالك...إنّهم مجرّد مرتزقة.. لا تصدّق أيّ كلمة ممّا سيخبرونك به.. إنّه مجرّد تلفيق.. إنّه نوع من التلفيق الفاسد..

كانت في وجه الفتى ملامحُ يأس حادٌّ، حدّة محارب في معركة صليبيّة. وكان يحاول أن ينفخ الحياة في صوته من خلال حرق بعض الطاقة المتبقّية بداخله. وعلم ريردن أنّ أعظم مساعدة يمكنه تقديمها له الآن هي الاستماع إليه.

- لقد وضعوا خطّة ترمي إلى توحيد قطاع الفولاذ.. وهم بحاجة إلى عذر لتنفيذها.. لأنّهم يدركون جيّدا أنّ البلاد لن تتقبّل ذلك.. وأنّك لن توافق عليها.. هم يخشون أن تكون الأمور قد تخطّت كلّ الحدود.. إنّها مجرّد خطّة لسلخك وأنت على قيد الحياة، هذا كلّ شيء.. لذلك هم يريدون جعلَ الأمر يبدو كما لو أنّك تقود حملة ممنهجة لتجويع عمّالك.. وأنّ العمّال يحدثون الفوضى وأنت غير قادر على السيطرة عليهم.. وعلى الحكومة أن تتدخّل من أجل حمايتك وفرض الأمن العامّ.. هذه هي استراتيجيّتهم القذرة يا سيّد ريردن...

كان ريردن يتأمّل يدَي الفتى الممزّقتين، والطينَ الجافّ الذي يمتزج بالدم والغبار على راحتَيه وملابسه، والبقع الرماديّة من الغبار على ركبتيه ومعدته، بقع فيها ثقوب مثل ثقوب الإبر. ومن خلال نوبات ضوء القمر المتقطّعة، كان بإمكانه أن يرى دربًا من الأعشاب المستوية والبقع المتلألئة في الظلام. وكان يخشى أن يفكّر في المسافة التي قضّاها الفتى وهو يزحف للوصول إلى هناك وكم استغرق منه ذلك من وقت.

- يا سيّد ريردن، إنّهم لا يريدون أن تكون هنا الليلة.. لم يريدوا منك أن ترى «انتفاضة الشعب».. وبعد ذلك.. أنت تعلم كيف سيطمسون الأدلّة.. لن تكون هناك

قصّة واضحة ومباشرة للوصول إليها في أيّ مكان.. وهم لا يسعون فقط إلى أن يخدعوا البلاد.. بل أنت أيضًا.. يتظاهرون بأنّهم يعملون على حمايتك من العنف.. لا تدعهم يفلتوا بفعلتهم هذه يا سيّد ريردن.. أخبر البلاد.. أخبر الناس.. أخبر الصحف.. أخبرهم أنّني أخبرتك.. وأنا مستعدّ للإدلاء بشهادتي على ذلك.. أقسم أنّ ما قلته صحيح.. وهذا ما سيجعل الأمر قانونيًّا، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟ هذا ما سيمنحك فرصة. أليس كذلك؟

ثمّ ضغط ريردن على يد الفتى وقال له:

- شكرًا لك أيّها الشابّ.

- يا سيّد ريردن، أنا.. آسف لأنّني تأخّرت، لكن.. لكنّهم لم يسمحوا لي بالدخول ومشاركتهم لعبتَهم إلّا في اللحظة الأخيرة.. قبل أن تبدأ بقليل.. لقد اتّصلوا بي.. بشأن مؤتمر استراتيجيّ.. وكان هناك رجل يدعى بيترز.. من مجلس الاتّحاد.. وهو مجرّد جاسوس يعمل لصالح تينكي هولواي.. الذي يعمل من جهته لصالح أورين بويل.. ما أرادوه منّي كان.. التوقيع على تصريحات كثيرة.. من شأنها أن تسمح لبعض الحمقى بالدخول.. حتّى يشرعوا في إثارة المشاكل من الداخل والخارج معًا.. حتّى ينتحلوا صفة العمّال.. لقد رفضت التوقيع على التصريحات.

- هل رفضت فعلا التوقيع على التصريحات؟

- بالطبع يا سيّد ريردن...هل تعتقد أنّني سأتواطأ معهم في هذه اللعبة القذرة؟

- لا يا فتى، لا أعتقد ذلك. فقط..

- ماذا؟

- فقط عندما تعتق رقبتك من هذا المأزق.

- لكن كان عليّ أفعل ذلك.. ولم يكن بوسعي مساعدتهم على تدمير الطواحين، أليس كذلك؟ إلى متى يجب عليّ أن أحمي رقبتي؟ وهل يجب عليّ الانتظار حتّى يكسروا

رقبتك؟ وماذا سأفعل برقبتي، إذا كانت هذه هي الطريقة التي أحافظ بها عليها؟ أنت.. أنت تفهم ذلك، أليس كذلك يا سيّد ريردن؟

- فهمتك.

- لقد رفضت التعاون معهم.. وهربت من المكتب.. ثمّ ركضت للبحث عن المشرف العامّ.. لأخبره بكلّ شيء.. لكنّني لم أستطع العثور عليه.. ثمّ سمعت طلقات ناريّة عند البوّابة الرئيسيّة وتيقّنت من أنّهم بدؤوا في تنفيذ مخطّطهم.. فحاولت الاتّصال بمنزلك.. لكنّ أسلاك الهاتف قطعت.. فركضت باتّجاه سيّارتي، لقد أردت الوصول إليك أو الوصول إلى أيّ ضابط شرطة أو صحيفة أو شخص مّا.. لكن لا شكّ أنّهم كانوا يلاحقونني.. عندها أطلقوا النار عليّ.. في موقف السيّارات.. من الخلف.. كلّ ما أتذكّره هو السقوط.. وبعد ذلك، عندما فتحت عينيّ، ألقوا بي هنا.. في كومة النفايات..

- في كومة النفايات؟

هكذا كرّر ريردن ببطء، وهو يعلم أنّ تلك الكومة تقع على بعد مائة قدم من هنا. فأومأ الفتى برأسه، مشيرا بشكل مبهم إلى أسفل.

- نعم.. هناك.. ثمّ بدأت أزحف.. فزحفت.. لقد عزمت على.. الوصول إلى شخص مّا لأطلعه على القصة كاملةً حتّى يخبرك بها.

وارتخت علامات الألم الملتوية في ملامح وجهه فجأةً وتحوّلت إلى ابتسامة، أمّا صوته فَبَدَا صوتَ انتصار أبديّ، فأضاف بنبرة طفل يكتشف شيئا جديدًا:

- سيّد ريردن، هل هذا هو الشعور عندما.. نرغب في شيء مّا رغبة شديدةً.. باستماتة شديدة...وننجح في إنجازه؟

- نعم يا بنيّ، هكذا نشعر.

ثمّ سقط رأس الفتى على ذراع ريردن، وأغمض عينيه، كما لو أنّه يعيش لحظةَ رِضًا

عميقٍ.

– ولكن لا يمكنك التوقّف عند هذا الحدّ. فأنت لم تنته بعد، وعليك أن تتماسك حتّى أوصلك إلى الطبيب و..

ثمّ رفع الشابَّ بحذر، لكنّ الفتى كاد يصرخ من شدّة الألم، ممّا جعل ريردن يعيده إلى الأرض بلطف، ثمّ رفع الشابّ رأسه وقال معتذرا:

– لن أنجو يا سيّد ريردن.. لن أخدع نفسي.. أعلم أنّني انتهيت.

ثمّ أضاف، كما لو أنّه يردّ بضعف على الشعور بالشفقة على ذاته، وكأنّه يتلو درسًا حفظه عن ظهر قلب:

– يا سيّد ريردن، لا شيء يهمّ.. فالإنسان مجرّد مجموعة من.. العناصر الكيميائيّة المكيّفة.. وموت الإنسان لا يعني.. أيّ شيء تمامًا كموت أيّ حيوان آخر.

– أنت تدرك هذه الحقيقة أفضل منّي.

فهمس:

– نعم، أعتقد ذلك.

وسرح بعينيه في الظلام الحالك، ثمّ ارتفعتا للنظر في وجه ريردن. كانتا عاجزتَين، ومشتاقتَين، ومشوّشتَين بشكلٍ طفوليّ. ثمّ قال:

– أعرف.. أنّ كلّ تلك الأشياء التي علّمونا إيّاها كانت مجرّد هراء.. وكلّ شيء قالوه.. عن الحياة.. أو الموت.. فالموت.. لن يحدث أيّ فارق للكيماويّات، لكنّه..

ثمّ توقّف، وكلّ احتجاجه اليائس انحصر في شدّة انخفاض صوته، فأضاف:

– لكنّه يحدث فارقًا عندي.. وأعتقد أنّ هذا الأمر يشكّل أيضًا فارقًا بالنسبة إلى الحيوان.. وقالوا إنّه لا توجد قيم.. إنّها مجرّد عادات اجتماعيّة.. لا توجد أيّ قيم..

وأمسكت يده الثقبَ الذي أحدثته رصاصةٌ اخترقت صدرَه بشكل أعمى، كما لو

أنّه يحاول الإمساك بما كان يخسره:

- لا.. توجد.. أيّ قيم..

ثمّ انفتحت عيناه بشكل أوسع، ورافق ذلك هدوءٌ مفاجئ ينضح بالصراحة الكاملة:

- أودّ أن أعيش يا سيّد ريردن. يا إلهي، كم أودّ ذلك.

وكان صوته رقيقًا وهادئًا وهو يضيف:

- لا لأنّني أحتضر وسأموت.. لكن لأنّني اكتشفت الليلة معنى أن يكون المرء على قيد الحياة حقًّا.. وهذا أمر مضحك.. هل تعلم متى اكتشفته؟ لقد اكتشفته.. في المكتب.. عندما أخرجت رقبتي.. للأوغاد وقلت لهم اذهبوا إلى الجحيم.. ثمّة.. أشياء كثيرة تمنّيت لو أدركتها منذ وقت مبكّر.. لكن فائدة ترجى من الندم الآن.

ثمّ انتبه إلى نظرة ريردن اللّاإراديّة إلى الطريق المسطّح في الأسفل، ثمّ أضاف:

- انتهى الأمر يا سيّد ريردن.

فقال ريدين بصرامةٍ:

- اسمعني يا بنيّ، أريدك أن تقدّم لي معروفًا.

- الآن يا سيّد ريردن؟

- نعم. الآن.

- حاضر يا سيّد ريردن... إن استطعت إلى ذلك سبيلًا.

- لقد أسديت لي في هذه الليلة معروفًا كبيرًا، ولكن أريدك أن تحقّق أمرًا واحد ما يزال أكبر ممّا حقّقتَ. لقد أنجزتَ عملًا رائعًا إذ تسلّقتَ تلك الكومة، لكنّ هل أنت مستعدّ الآن لتحقيق أمر أصعب من ذلك؟ كنتَ مستعدًّا للموت من أجل إنقاذ طواحيني، فهل ستحاول أيضًا أن تعيش من أجلي؟

- من أجلك يا سيّد ريردن؟

- نعم من أجلي. لا فقط لأنّني أطلب منك ذلك، بل لأنّني أريدك أيضًا أن تفعل ذلك. ما تزال أمامنا مسافة كبيرة لنقطعها سويًّا.

- وهل.. سيحدث هذا الأمر فارقًا بالنسبة إليك يا سيّد ريردن؟

- نعم سيحدث هذا الأمر فارقًا عظيمًا. هل أنت مستعدّ للعيش كما فعلت هناك على كومة النفايات؟ ألا ترغب في الحياة؟ هلّا قاتلت من أجل حياتك؟ كنتَ ترغب في خوض المعركة وحيدًا بالنيابة عنّي، فهل أنت مستعدّ الآن لنخوض هذه المعركة معًا؟

شعر بقبضة يد الفتى وهي تتشبّث به، فنقلتْ لهفة الإجابة العنيفة، غير أنّ الصوت كان مجرّد همس:

- سأحاول يا سيّد ريردن.

- والآن ساعدني على نقلك إلى المستشفى. فقط استرخِ، وهوّن عليك، ودعني أرفعك.

- حاضر يا سيّد ريردن.

وبرعشة ذاك المجهود المفاجئ، سحب الشابّ نفسه إلى أعلى كي يتّكئ على مرفقه.

- خذ الأمور ببساطة يا توني.

ثمّ رأى ريردن وميضًا مفاجئًا في وجه الفتى، وهو يحاول أن يستعيد ابتسامته المشرقة والجسورة التي تعوّد على إبدائها وقال:

- لا توجد قيم (غير مطلقة) بعد الآن، أليس كذلك؟

- لا، لم تعد موجودة بعد الآن. أنت مطلق تمامًا الآن، وأنت تعرف ذلك.

- نعم. أعرف كثيرًا منها الآن، وثمّة واحدة هنا.

ثمّ أشار إلى الجرح في صدره، وأضاف:

- هذا شيء مطلق، أليس كذلك؟

واسترسل في الكلام وريردن يرفعه من الأرض. كان يتحدّث كما لو أنّ الكلام مخدِّر يسكِّن الألم الذي ينخره:

- لن يستمرَّ الناس في العيش على هذا النحو.. لو أفلت هؤلاء الأوغاد.. الذين يقبعون في واشنطن.. من العقاب.. بسبب الأفعال التي قاموا بها الليلة.. لكن لو أصبح كلّ شيء مزيفًا.. ولم يعد لأيّ شيء وجود حقيقيّ.. ولو أنّ كلّ فرد يزيّف حقيقتَه.. فإنّ البشر لن يستطيعوا الاستمرارَ في العيش.. وهذا أمر مطلق، أليس كذلك؟

- نعم يا توني، إنّه أمر مطلق.

ثمّ نهض ريردن بجهدٍ وحذرٍ، فلاحظ علامات العذاب في ملامح الفتى، فاحتضنه بهدوء تمامًا كما تحتضن الأمّ رضيعها. وانعكس الألم على ابتسامة الشابّ الذي قال لريردن:

- من هو الممرّض الرطب الآن؟

- أنا.

ثمّ خطا الخطوات الأولى على التربة المتداعية، وجسدُه متوتّر، لأنّه يحاول الحفاظ على التقدّم بثباتٍ حيث لا يوجد موطئ قدم صلب يمكن العثور عليه.

وسقط رأس الفتى على كتف ريردن بارتباكٍ، وكأنّ ذلك مجرّد استسلام. فانحنى ريردن وضغط بشفتيه على جبين الشابّ الذي كان مكسوًّا بالغبار. فاستعاد الفتى وعيه، ورفع رأسه مذهولا:

- هل تعلم ماذا فعلت؟

هكذا همس، كأنّه لم يصدّق أنّ تلك القبلة ارتسمت على جبينه، فقال ريردن:

- انحنِ وسأقبّلك مرّة أخرى.

فأحنى الفتى رأسه وقبّل ريردن جبهتَه مرة أخرى، وكان الأمر أشبه باعتراف أبويّ.

وظلّ الفتى مستلقيًا بثباتٍ وقد أخفى وجهه، بينما كانت يداه تمسكان بكتفَي ريردن، ثمّ خلد للصمت. لم تصدر منه أيّ كلمة، بل أخذ يرتجف على فترات متباعدة، فأدرك ريردن أنّ الولد كان يبكي بكاء مستسلمٍ لكلّ الأشياء التي لم يستطيع التعبير عنها.

وواصل ريردن التحرّكَ ببطء إلى أعلى، يتحسّس طريقه خطوة تلو أخرى، ويناضل ضدّ صعوبة الحركة على الأعشاب، وأكوام التربة، وقطع الخردة المعدنيّة الصدئة، وكلّ النفايات المتروكة منذ زمن بعيدٍ. واستمرّ في المشي نحو خطّ الوهج الأحمر لطواحينه، ذاك الخطّ الذي يشير إلى وجود حفرة، فأخذَ يكافح حتّى يتجاوزها.

لم يسمع أيّ تنهيدة، لكنّه كان يحسّ بقشعريرة منتظمة من خلال قماش قميصه، وفي مكان الدموع، ويحسّ أيضًا ببقع السائل الدافئ الذي يرشح من مكان الجرح كلّما تكرّرت رعشة الشابّ. وكان يدرك أنّ ضغطَ ذراعيه الشديدَ واحتضانَه إيّاه هو جوابه الوحيد الذي يقدر الصبيّ على سماعه وفهمه، فكان يمسك بجسد الشابّ المرتعش كما لو أنّ قوّة ذراعيه كان بإمكانها نقل جزءٍ من قوّته الحيّة إلى شرايين قلب ينبض بشكل خافت.

ثمّ توقّف النحيب، ورفع الفتى رأسه، وبدا وجهه أنحف وأشدّ شحوبًا، لكنّ عينيه كانتا تشعّان بريقًا، فنظر إلى ريردن، وظلّ يكابد من أجل استعادة القدرة الكلام، ثمّ قال:

- سيّد ريردن.. لقد أحببتك كثيرا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- أعرف ذلك.

لم تكن ملامح الصبيّ قادرةً على تشكيل ابتسامةٍ، لكنّها كانت ابتسامةً معبّرة في لمحته عندما نظر إلى وجه ريردن، وحين تأمّل ما لم يكن يعلم أنّه سعى إليه خلال الفترة

القصيرة من حياته، باحثًا عن صورة شيء لم يكن يعرف أنّها تعكس قيمه.

ثمّ أسقط رأسه إلى الخلف، ولم يبقَ أيّ تشنّج في وجهه، لكن كانت هناك طعنة وجيزة من التشنّج في جسده مثل آخر صرخة احتجاج. واستمرّ ريردن في المشي ببطء ومن دون أن يغيّر وتيرة خطواته، على الرغم من علمه بأنّه ما عاد يوجد أيّ داعٍ للحذر، لأنّ ما يحمله بين ذراعيه الآن هو فكرة معلّمي ذلك الفتى، الفكرة التي تقول إنّ الإنسان مجموعة من الموادّ الكيميائيّة.

مشى، كما لو أنّ ذلك هو شكله الأخير لتكريم الشابّ بموكب جنازة مهيبة لتلك الحياة اليافعة التي انتهت بين ذراعيه. وشعر بغضب شديد لم يستطع التعرّف عليه ما عدا وجود ضغط حادّ بداخله، ضغطٍ كان بمثابة الرغبة في القتل. غير أنّ رغبته لم تكن موجّهة نحو السفّاح المجهول الذي أطلق الرصاصة على جسد الصبيّ، أو نحو اللصوص البيروقراطيّين الذين استأجروا ذلك السفّاح لإنجاز تلك المهمّة القذرة، بل إلى معلّمي ذلك الفتى وأساتذته الذين سلّموه منزوعًا من أيّ سلاح لمواجهة بندقيّة ذلك السفّاح، وإلى القتلة الناعمين والآمنين في الفصول الدراسيّة بالجامعة، أولئك الذين كانوا غير أكفاء وغير مؤهّلين للردّ على أسئلة العقل، وكانوا يستمتعون بشلّ العقول الشابّة.

وقال ريردن في نفسه: في مكان مّا توجد والدة الصبيّ، المرأة التي ارتجفت من شدّة حرصها عليه وهو يخطو خطواته الأولى، وقدّمت له صيغ العيش بحذرٍ يشبه حذر الصائغ ودقّته، وأطاعت بحماسٍ متعصّبٍ أحدث الكلمات التي كانت تصدر عن العلوم فتحدّد نظامَه الغذائيّ ونظافة جسده السليم وحمايته من الجراثيم، ثمّ أرسلته إليهم ليتحوّل إلى عصابيّ ملتاع عذّبَه أناسٌ علّموه أنّ العقل غير موجود وأنّه ليس على المرء أن ينغمس في التفكير. وكان ريردن يعتقد أنّها لو أطعمته النفايات الملوّثة وخلطت السمّ في طعامه، لكان ذلك أكثر لطفًا وأقلّ فتكًا به.

ثمّ فكّر في كلّ الكائنات الحيّة التي تدرّب أولادها اليافعين على فنّ البقاء على قيد

الحياة، وفكّر في القطط التي تعلّم صغارها فنّ الصيد، والطيور التي لا تتوانى في بذل الجهود الحثيثة لتعليم فراخها الطيران، لكنّ الإنسان الذي يمثّل العقلُ أداةَ بقائه على قيد الحياة لا يفشل فقط في أن يعلّمَ الطفلَ التفكيرَ، بل يعمل جاهدًا على تدمير دماغه، وإقناعه بأنّ الفكر عقيم وشرّير، حتّى قبل أن يبدأ في التفكير.

وكلّ ما يتلقّاه الطفل منذ نعومة أظافره هو سلسلة من الصدمات التي تعمل على تجميد فكره المتحرّك والحدّ من وعيه الوقّاد. وذلك بعبارات من قبيل: «كفى سؤالًا، ليس على طفلٍ مثلك إلّا أن يسمع ويطيع» أو «من تظنّ نفسك؟ هذا صحيح، لأنّني أنا من يقول ذلك» أو «لا تجادل، فقط أطع» أو «لا تحاول أن تفهم، فقط صدّق ما يقال» أو «لا تتمرّد، فقط عدّل من آرائك» أو «لا تحاول أن تقاوم بمفردكَ، بل عليك أن تنتمي دومًا إلى مجموعة مّا» أو «لا ترفض، بل حاول دومًا أن تجد حلًّا وسطًا» أو «قلبك أكثر أهمّيّة من عقلك» أو «من أنت لتعرف؟ إنّ والديك يعرفان أفضل منك» أو «من أنت لتعرف؟ إنّ المجتمع يعرف أفضل منك» أو «من أنت لتعرف؟ إنّ البيروقراطيّين يعرفون أفضل منك» أو «من أنت لتعترض؟ إنّ كلّ القيم نسبيّة» أو «مَن أنت لترغب في الإفلات من رصاصة سفّاح مجرم؟ إنّ هذه الرغبة مجرّد تحيّز لحكم شخصيّ مسبّق».

كان الناس يرتجفون، في رأي ريردن، وهم يتأمّلون مشهد أمٍّ تتخلّى عن فراخها ليواجهوا عواصف الحياة. ومع ذلك فإنّ هذا الأمر هو تمامًا ما يصنعونه مع أطفالهم.

كان ذلك الفتى مسلّحًا بعبارات يُعْوِزُها أيّ معنى، وقد ألقي به ليكافح من أجل البقاء على قيد الحياة، وحاول الصمود في وجه العواصف، غير أنّ محاولته تبوء بالفشل.

كان ريردن يعتقد أنّ ثمّة سلالة أخرى مغايرة من المعلّمين في الماضي، وهي التي ربّت الناس الذين صنعوا هذا الوطن. كان يؤمن بأنّ على الأمّهات أن يجتهدن في سبيل الوصول إلى رجالٍ من طينة هيو أكستون، وأن يتوسّلن عودتهم إلى الحياة العامّة.

ثمّ عبر بوّابة طواحينه وهو لا يكاد ينظر إلى الحرّاس الذين سمحوا له بالدخول، وظلّوا يحدّقون في وجهه وفي العبء الذي يحمله بين أحضانه. ولم يتوقّف للاستماع إلى ما تفوّهوا به من كلمات وهُم يشيرون إلى القتال وأعمال الشغب الدائرة على بعد مسافة منهم. لقد استمرّ في المشي ببطء نحو بصيص من النور كان ينبعث من باب مفتوح في مبنى المستشفى.

دخل إلى غرفة مضيئة مكتظّة بالرجال والضمّادات الملطّخة بالدماء ورائحة الموادّ المطهّرة التي ملأت الفضاء، ثمّ وضع الشابّ على المقعد من دون أن يقدّم أيّ تفسير لأيّ أحدٍ، ثمّ خرج من دون أن يلتفت إلى الوراء.

ومشى في اتّجاه البوّابة الأماميّة، نحو وهج النار والطلقات الناريّة التي تصدر من البنادق. كان يرى من حين إلى آخر بعض الشخصيّات التي تمرّ بين الهياكل أو تترنّح خلف الزوايا المظلمة، وتتبعها مجموعاتٌ من الحرّاس والعمّال. وكان مندهشًا عندما لاحظ أنّ عمّاله مسلّحون بشكل جيّد. ويبدو أنّهم أخضعوا السفّاحين للاستسلام داخل المطاحن، ولم يبقَ سوى ضرب الحصار الموجود عند البوّابة الأماميّة ليتمّ التعامل معه. ورأى أحد المعتوهين وهو ينطلق عبر بقعة من ضوء مصباحٍ، ثمّ تأرجح على طول الأنبوب المثبتّ في جدار من الألواح الزجاجيّة وهو يستمتع بجلدهم، ويرقص مثل الغوريلا على صوت تحطّم الزجاج، حتّى نزلت عليه ثلاث شخصيّات بشريّة ضخمة أردته أرضًا، فأخذ يتلوّى من الألم.

يبدو أنّ حصار البوّابة بدأ ينحسر، كما لو أنّ العمود الفقريّ للغوغاء انكسر. لقد سمع صراخهم البعيد. وتراجع عدد الأعيرة النارية التي كانت تطلق من الطريق، وأُخمِدَت النار التي أُضرِمت في مكتب حارس البوّابة، وكان هناك رجال مسلّحون يتربّصون في النوافذ.

وعندما اقترب أكثر، لاحظ وجود خيال بشريّ على سطح الهيكل الموجود فوق البوّابة، لقد كان خيالًا نحيلًا لرجل يحمل مسدّسًا في كلّ يدٍ، يقف خلف المدخنة التي

تحميه، واستمرّ في إطلاق النار على فتراتٍ صوب الهمج. كان يطلق النار بسرعةٍ وفي اتّجاهين مختلفين مثل الحارس الذي كان يحمي البوّابة من أولئك الهمج الذين أخذوا يقتربون منها. كان يتمتّع بثقة ومهارة في تحرّكاته، وببراعة في إطلاق النار من دون أن يخطئ الهدف، وكلّها ميزات جعلته يبدو وكأنّه بطل من أبطال أساطير الغرب الأمريكيّ. كان ريردن يراقبه بمتعة ليس وراءها مبرّر ذاتيّ، وكأنّ معركة المطاحن لم تعد معركتَه وحده، وما يزال بإمكانه التمتّع برؤية ما كان يتمتّع به أناس الطراز القديم من كفاءة ويقين، وهم يحاربون الشرّ.

ثمّ سقط شعاع ضوء كهربائيّ متحرّك على وجه ريردن، وعندما اجتاح الضوء المكانَ رأى الرجل الذي على السطح وهو ينحني إلى أسفل كما لو أنّه ينظر باتّجاهه. لقد لوّح الرجل إلى شخصٍ مّا كي يحلّ محلّه، ثمّ اختفى فجأة من موقعه.

فسارع ريردن عبر امتداد الظلمة القصير أمامَه، لكنّه سمع من خلال شقٍّ بأحد الأزقّة صوتَ مخمور يصرخ:

- ها هو.

فالتفت فرأى شخصين بدينَين يتقدّمان باتّجاهه. رأى وجها خبيثًا وطائشًا بفمٍ متدلٍّ وهو يضحك ببؤس، ويحمل هراوةً في قبضته المتصاعدة، ثمّ سمع صوتَ خطوات تقترب منه من اتّجاه آخر، فحاول أن يدير رأسه، وإذا بهراوة تهوي على جمجمته من الخلف. وفي لحظة من انجلاء الظلام بدا وهو يترنّح. لقد رفض تصديق ما حدث، ثمّ شَعُرَ بنفسه يسقط إلى أسفل، ورأى ذراعًا قوّية تمسك به لتجنّبه السقوط، ثمّ سمع انفجار طلقة من بندقيّة على مسافة شبر واحد فوق أذنه، ثمّ طلقة أخرى من البندقيّة نفسها وفي الوقت ذاته، ولكن يبدو أنّها طلقة خافتة وبعيدة كما لو أنّها أصابت أحدَ الأعمدة.

عندما فتح عينيه، بعد أن استعاد وعيَه، شعر بالصفاء العميق. ثمّ أدرك أنّه مستلقٍ على أريكةٍ في غرفة عصريّة فاخرة جدًّا، ثمّ انتبه إلى أنّه كان بمكتبه وأنّ الرجلين

الواقفين بجانبه هما الطبيب الذي يعمل بمطاحنه والمشرف العامّ. لقد شعر بألم في رأسه، كان من الممكن أن يكون ألمًا عنيفًا لو أنّه اهتمّ به أكثر. وأحسّ بقطعة من شريط لاصق على شعره. وشعر بالصفاء إذ أدرك أنّه حرٌّ.

لم يكن معنى ضمّادته ومعنى مكتبه مقبولين أو موجودين معًا، ولم يكوّنا مزيجًا يسهل على البشر التعايش معه، فهذه لم تعد معركته، ولا وظيفته، ولا عمله. قال وهو يرفع رأسه:

- أعتقد أنّني سأكون بخير يا دكتور.

- بالطبع يا سيّد ريردن، وهذا من حسن حظّك.

كان الطبيب ينظر إليه وكأنّه ما يزال غير قادرٍ على تصديق أنّ ذلك حَدَثَ لهانك ريردن وداخل طواحينه الخاصّة. جاء صوت الطبيب متوتّرًا يشوبه الولاء الغاضب والسخط، فأضاف:

- لا شيء يدعو إلى القلق. إنّه مجرّد جرح في فروة الرأس وارتجاج طفيف. ولكن يجب أن تخلد للراحة.

ردّ ريردن بحزم:

- بالتأكيد، سأفعل.

فقال المشرف، وهو يشير بيده نحو الطواحين خلف النافذة:

- انتهى كلّ شيء. لقد هزمنا الأوغاد. ولاذوا بالفرار. لا شيء يدعو إلى القلق يا سيّد ريردن.

فردّ ريردن:

- هو كذلك. لا شكّ أنّ ثمّة عملا كثيرا في انتظارك يا دكتور.

- أوه نعم.. لم أعتقد البتّةَ أنّني سأعيش لأرى اليوم الذي..

- أعرف ذلك. هيّا، اعتنِ بهذا الأمر، أمّا أنا فسأكون على ما يرام.

- حاضر يا سيّد ريردن.

قال المشرف، بينما يهمّ الدكتور بالخروج:

- أنا سأتدبّر الأمر. كلّ شيء تحت السيطرة يا سيّد ريردن. لكنّه كان أقذر..

فردّ ريردن:

- أعرف ذلك. لكن من هو الرجل الذي أنقذ حياتي؟ لقد أمسك بي شخصٌ مّا عندما سقطت وأطلق النار على المجرمين.

- هل فجّر رؤوس الأوغاد؟ إنّه رئيس عمّال الفرن الجديد. لقد التحق للعمل هنا منذ شهرين. إنّه أفضل رجل حظيت به. وقد فطن، بفضل حكمته، إلى ما كان يخطّط له هؤلاء الرجال المارقون، وهو من حذّرني من اندلاع أعمال الشغب بعد ظهر اليوم. ونصحني بضرورة تسليح رجالنا بما يكفي من العتاد. فنحن لم نحصل على أيّ مساعدةٍ من الشرطة أو من القوّات المسلّحة بالولاية. لقد تفادوا إغاثتنا في كلّ مكان وتفنّنوا في الردود المتأخّرة واختلاق الأعذار التي لم يسبق أن سمعتها في حياتي. لقد رتّبوا لكلّ الأشياء، لكنّ الحمقى لم يتوقّعوا أيّ مقاومة مسلّحة. كان رئيس عمّال الفرن فرانك آدمز هو مَن نظّم خطّ دفاعنا. لقد أدار المعركة كلّها باقتدار، وهو أيضا من وقف على السطح، وأسقط الحثالة التي اقتربت من البوّابة، يا له من قنّاص! لا يمكنني تخيّل عدد الأرواح التي أنقذها الليلة. لقد خرج هؤلاء اللقطاء الأوغاد من أجل سفك الدماء يا سيّد ريردن.

- أريد أن أراه.

- إنّه ينتظر في مكان مّا بالخارج، فهو من أحضرك إلى هنا، وقد طلب الإذنَ ليتحدّث إليك عندما يكون ذلك ممكنًا.

- اطلب منه الدخول. ثمّ عد أنت إلى هناك وأكمل المهمّة.

- هل ثمّة شيء آخر ينبغي عليَّ القيام به يا سيّد ريردن؟

- لا، لا شيء آخر.

كان يستلقي وحيدًا في مكتبه. وكان يدرك أنّ طواحينه لم يعد لها أيّ معنى، ولم تترك معرفتُه التامّةُ بذلك مجالًا لألم الندم على الوهم. لقد رأى بجلاء، وفي صورة نهائيّة، روحَ أعدائه وجوهرَهم: وجهُ السفّاحِ الطائشُ صاحب الهراوة. ولم يكن الوجه في حدّ ذاته مَا جعله يعيش حالةَ الرعب، بل الأساتذة والفلاسفة والمؤمنون بالأخلاق الفاضلة والصوفيّون الذين أطلقوا سراحَ ذلك الوجه على العالم.

ثمّ شعر بنظافة مميّزة صُنِعت من الفخر والحبّ لتلك الأرض التي كانت له وليست لهم. إنّه الشعور الذي حرّكه طوال حياته، شعورٌ قد يعرفه بعض الناس في شبابهم، لكن سرعان ما يديرون له الظهر، أمّا ريردن فلم يُدِرْ له ظهره، بل ظلّ يحمله في داخله بوصفه محرّكًا قويًّا يصعب تحديده، ومع ذلك، فإنّه يبقى قوّةً حيّةً جبّارةً. إنّه شعور الذي بإمكانه أن يعيشه الآن في نقاوةٍ كاملة لا جدال فيها، شعور بقيمته الفائقة وبما لحياته من قيمة فائقة أيضا. كان ذلك هو اليقين الأخير بأنّ حياته هي حياته، ويجب أن تعاش من دون عبوديّة الشرّ، وأنّ تلك العبوديّة لم تكن البتّةَ ضروريّة، وكان ذلك هو الصفاء الذي يعتمل في وجدانه، لأنّه لم يعرف لا الخوف، ولا الألم، ولا تأنيب الضمير. وقال في نفسه: إن كان هذا صحيحًا، فإنّ هناك منتقمين يعملون من أجل إنقاذ رجالٍ مثلي، فدعهم يروني الآن، ودعهم يخبروني بسرّهم، ثمّ قال بصوت مرتفع ردًّا على الطارق:

- ادخل.

فانفتح الباب ودخل الرجل الذي كان يقف عند العتبة. كان أشعث الشعر، يشوب وجهَه السخامُ، أمّا يداه فكانتا ملطّختين بأوساخ الفرن. كان يرتدي بدلة العمل التي تظهر عليها آثار الحروق وبقع الدم. وقف كما لو أنّه يرتدي برنسا يلوّح في مهبّ الريح: إنّه فرانسيسكو دانكونيا.

وبدا الأمر لريردن كما لو أنّ وعيه سَبَقَ جسده، وأنّ جسدَه هو الذي رفض التحرّك، مذهولًا من هول الصدمة، بينما كان عقله يضحك، وهو يهمس له بأنّ ذلك الحدث هو الأكثر توقّعًا في العالم.

فابتسم فرانسيسكو ابتسامةَ تحيّة لصديق الطفولة في صباح الصيف، وكأن لا شيء آخر ممكن بينهما، بينما وجد ريردن نفسه يبتسم ردًّا على ابتسامة صديقه وهو يحسّ بشعور يمتزج فيه الحلم بالواقع. فقال فرانسيسكو وهو يقترب منه:

- منذ شهور وأنت تعذّب نفسك، وأنا أتساءل عن الكلمات التي ستستخدمها لتطلب مغفرتي وعمّا إذا كان لديك الحقّ في أن تطلبها أصلا.. لكن، ليس ضروريّا أن تطلب الآن مغفرتي. لا يوجد ما يدعو إلى الغفران أو الصفح.

فردّ ريردن:

- نعم.

صدرت الكلمة كما لو أنّها همسة مدهشة، ولكن ما إن أنهى جملته، حتّى أدرك أنّ ذلك هو أعظم تكريم يمكن أن يقدّمه له، ثمّ أضاف:

- نعم، أعرف ذلك.

ثمّ جلس فرانسيسكو على الأريكة، وحرّك يدَه ببطء على جبهة ريردن. لقد كان الأمر بمثابة لمسة شفاء طوت صفحة الماضي. فقال ريردن:

- ثمّة شيء واحد أريد أن أخبرك به. وأريدك أن تسمعه منّي: لقد حافظتَ على قسمك. أنت صديق حميم.

- كنت أعلم أنّك تدرك ذلك، بل إنّك أدركته منذ البداية. كنت تعرف ذلك، بغضّ النظر عن رأيك في تصرّفاتي. لقد صفعتني، لأنّك لا تستطيع الشكّ في صدقي.

فهمس ريردن، وهو يحدّق في وجهه:

- لقد كان كذلك.. هو الشيء الذي لا يحقّ لي أن أخبرك به...ولا يحقّ لي أن أطالب به على أنّه عذر..

- ألم تفترض أنّني سأفهم ذلك؟

- كنت أرغب في الوصول إليك.. لكن ليس لي الحقّ في ذلك.. وطوال ذلك الوقت، كنت..

وتوقّف عن الكلام مشيرًا بيده إلى ملابس فرانسيسكو، ثمّ أسقطها بعجز وأغلق عينيه.

فقال فرانسيسكو مبتسمًا:

- لقد شغلتُ منصب رئيس العمّال في مطاحنك، لأنّني كنت متأكّدا من أنّك لن تمانع. لقد عرضت عليَّ هذا المنصب بنفسك.

- كنتَ هنا تحرسني شخصيًّا على امتداد شهرين؟

- نعم.

- كنتَ هنا منذ ذلك الحين..

- هذا صحيح. في صباح اليوم الذي كنت تقرأ فيه رسالتي الوداعيّة فوق أسطح نيويورك، باشرتُ عملي هنا بصفتي رئيسَ عمّال الفرن.

فردّ ريردن ببطء:

- أَخْبِرْنِي، تلك الليلة، في زفاف جيمس تاجارت، عندما قلت إنّك تبحث عن أعظم غزواتك... هل كنت تقصدني؟

- بالطبع.

فعدّل فرانسيسكو من جلسته قليلًا، كما لو أنّه في مهمّة رسميّة، إذ بدت ملامح وجهه تنضح بالجدّية، غير أنّ الابتسامة لم تغادره إطلاقًا وقال:

- لديّ أشياء كثيرة أودّ إطلاعَك عليها. لكن هلّا أعدت أوّلًا تلك الكلمةَ التي عرضتها عليّ ذات مرّة.. وكان عليَّ أن أرفضها، لعلمي بأنّني لستُ حرًّا في قبولها؟

فابتسم ريردن وقال:

- أيّ كلمة يا فرانسيسكو؟

فانحنى فرانسيسكو، وأجابه:

- شكرًا لك يا هانك.

ثمّ رفع رأسه وقال:

- الآن سأخبرك بالأشياء التي جئت لأطلعك عليها، وهي أشياء لم أطلعك عليها كلّها تلك الليلة عندما أتيت إلى هنا للمرّة الأولى. وأعتقد أنّك على استعداد لسماعها.

- بكلّ سرور.

خلفَ نافذة المكتب بلغت أعمدة وهجِ صبِّ الفولاذ عنانَ السماء. واكتسح ذلك التوهّج الأحمر المنسابُ ببطء جدرانَ المكتب، والطاولةَ الفارغةَ، ووجهَ ريردن الذي كان كما لو أنّه يلقي تحيّة الوداع.

الفصل السابع

هذا جون جالت يتحدّث

كان جرس الباب يرّن مثل صفّارات الإنذار، محدثًا رنينًا طويلًا وملحًّا كأنّ الطارق هائجٌ بعد نفادِ صبره.

فنهضت داغني من سريرها وقد انتابها الفزع. ولاحظت ضوء الشمس الباردَ والشاحبَ في وقتٍ متأخّرٍ من الصباح وساعةً على برجٍ بعيد تشير إلى العاشرة. لقد عملت في المكتب حتّى الساعة الرابعة صباحًا وتركت لهم رسالة صغيرة تخبرهم فيها بألّا يتوقّعوا حضورها حتّى الظهر.

عندما فتحت الباب قابلها جيمس تاجرت وهو مرتبك من شدّة الذعر، ثمّ صاح مباشرة:

- لقد رحل.

- من؟

- هانك ريردن. لقد رحل. لقد اختفى.

وقفت داغني لحظةً دون أن تصدر منها أيّ حركة وهي تمسك بحزام ردائها. وعندما بدأت تستوعب الحقيقة أخذت يدها ترتعش وهي تمسك الحزام بقوّةٍ كما لو أنّها تشطر جسدَها إلى نصفين عند مستوى الخصر. ثمّ بدأت تضحك. وكان ذلك مؤشّرا على الانتصار. أمّا جيمس فكان يحدّق فيها والحيرة تعلو وجهه:

- ما خطبك؟ ألم تفهمي؟

فردّت:

- تعالَ يا جيم.

ثمّ استدارت بازدراء ومشت نحو غرفة الأكل، ثمّ أضافت:

- أوه نعم، لقد فهمت.

- لقد استقال ورحل. لاذ بالفرار وخلّف طواحينَه وحساباته المصرفيّة وممتلكاته وكلّ شيء. لقد اختفى عن الأنظار. أخذ بعضَ الملابس وكلّ ما كان يكتنزه في صندوق الأمان بشقّته. وجدوا الصندوق مفتوحًا في غرفة نومه، مفتوحًا وفارغًا.. ذلك كلّ شيء. لم يترك أيّ رسالة أو أيّ كلمة أو أيّ ملاحظة أو تفسير. اتّصلوا بي من واشنطن، لكنّ الخبر ذاع في جميع أنحاء المدينة. إنّهم لا يستطيعون إبقاء هذا الأمر طيّ الكتمان. لقد حاولوا، لكن... لا أحد يعرف كيف ذاع الخبر، ذاع بسرعة تمامًا كما تسري النار في الهشيم. لقد ذاع خبر رحيل ريردن... واختفت أيضًا مجموعة كاملة من عمّاله، تتضمّن المشرف العامّ، ورئيس قسم المعادن، وكبير سائقي القطارات، وسكرتيرة ريردن، وحتّى طبيب المستشفى. الله وحده يعلم كم عدد الذين لاذوا بالفرار. لقد فرَّ الأوغاد وهجرونا، على الرغم من كلّ العقوبات التي أعددناها. لقد استقال واستقالت معه البقيّة، وتُرِكَت تلك الطواحين هناك واقفةً بلا حراك. هل تفهمين ماذا يعني ذلك؟

فسألته:

- وهل تفهم أنت ما يعني ذلك؟

فسرد عليها القصة كاملةً، حدثًا تلو آخر، كما لو أنّه يحاول إزالةَ الابتسامة عن وجهها، تلك الابتسامة الغريبة التي لا تخلو من مرارة وانتصار، لكنّه فشل في ذلك.

- إنّها كارثة وطنيّة.. ما خطبك؟ ألا ترين أنّها ضربة قاتلة؟ هذه الواقعة ستحطّم

آخر معنويّات البلاد وآخر عرق يدبّ في اقتصادها. لا يمكننا السماح له بالمغادرة، عليك أن تعيديه إلينا.

اختفت ابتسامتها. ثمّ أضاف:

- يمكنك فعل ذلك. أنت الوحيدة التي تستطيعين ثَنْيَه عن هذا القرار. إنّه حبيبك، أليس كذلك؟ أوه، لا تتصرّفي هكذا.. لا مجال للحشمة الآن. لم يعد أمامنا أيّ وقت لأيّ شيء ما عدا استعادته. يجب أن تصلي إليه. يمكنك العثور عليه. يجب أن تصلي إليه وتثنيه عن المغادرة.

بَدَتْ الطريقة التي تنظر بها إليه الآن أسوأ من ابتسامتها... بدت كما لو أنّها تراه عاريًا ولم تعد تتحمّل رؤيته فترةً أطول فقالت من دون أن ترفع صوتها:

- لا أستطيع إعادته إليكم، ولن أفعل حتّى لو كنت أستطيع. اخرج الآن من هنا.

- لكنّ الكارثة الوطنيّة..

- اخرج.

لم تلاحظ خروجَه، بل وقفت وحيدةً وسط غرفة الأكل، ورأسها يتدلّى، وكتفها تترنّح، وهي تبتسم من شدّة الشوق إلى هانك ريردن. كانت تشعر بالسعادة لأنّه حصل أخيرًا على الحرّيّة. وعلى الرغم من ذلك، فإنّها كانت ترفض أن تمنح ذاتَها الخلاصَ نفسه. وفي خلدها تدور جملتان، إحداهما تدقّ طبولَ الانتصار وتقول: إنّه الآن حرّ. أمّا الأخرى فتقول: ما تزال هناك فرصة للفوز عليهم، وليسمحوا لي بأن أكون الضحيّة الوحيدة المتبقّية...

اعتقدت أنّ الكارثة هي التي فتحت عيون الناس على هانك ريردن، لكنّها لم تكن تشير إليه بالخير، بل بالسوء. ففريقٌ وجّه إليه السباب والشتائم الحادّة، وفريقٌ تنبّأ بالسوء وبعقابٍ مجهولٍ سيحلّ بهم الآن، أمّا الفريق الثالث فقد حاول، بعنفٍ هستيريّ، أن يتصرّف وكأنّ شيئا لم يحدث.

كانت الصحف معلّقة مثل الدمى على الخيوط المتشابكة، تعلن العداء نفسه وتشنّ حربًا شرسةً فتذكر التواريخ نفسها ببيانات من قبيل: «إنّه لضربٌ من ضروب الخيانة الاجتماعيّة أن نعلّق أهمّيّةً كبيرة على فرار هانك ريردن ونحبط معنويّات المواطنين بقرارٍ فرديّ لا يعني أيَّ شيء للمجتمع» - «يعتبر نشر الشائعات حول اختفاء هانك ريردن خيانةً اجتماعيّة. السيّد ريردن لم يختفِ. إنّه في مكتبه يدير طواحينه كالمعتاد. لم تكن هناك مشكلة في مصنع ريردن للفولاذ ما عدا بعض الشغب البسيط بسبب مشاجرة بين بعض العمّال» - «إنّها لخيانة اجتماعيّة أن يُسلَّط الضوء بشكل لا وطنيّ على خسارة هانك ريردن المأسويّة. فالسيّد ريردن لم يهرب، بل قتل في حادث سيرٍ عندما كان في طريقه إلى العمل، وعائلته المنكوبة أصرّت على أن تقيم له جنازة خاصّة».

كانت داغني تعتقد أنّه لا سبيل إلى بلوغ الحقيقة في ظلّ سياسة إعلاميّة تقوم على النفي والإنكار، وكأنّ الوجود توقّف والحقائق اختفت، ولم تبقَ سوى السلبيّات المسعورة التي يتفوّه بها المسؤولون وينشرها الصحفيّون من دون تقديم أيّ فكرة عن الواقع الذي ينكرونه. فهم ما انفكّوا ينشرون أخبارًا من قبيل: «لا صحّة للأخبار التي تقول إنّ مسابك الصلب التي يملكها ميلر في ولاية نيو جيرسي توقّفت عن العمل» - «لا صحّة للأخبار التي تقول إنّ شركة يانسن للمحرّكات بولاية ميشيغان أغلقت أبوابها» - «إنّه لمن الافتراء الشرّير والكذب المعادي للمجتمع القول إنّ مصنّعي منتجات الفولاذ ينهارون تحت تهديد نقصٍ في مادّة الحديد. إذ لا يوجد أيّ مبرّر لتوقّع نقص في هذه المادّة» - «إنّها إشاعة لا أساس لها من الصحّة. فخطّة توحيد الفولاذ كانت في طور الإعداد وهي الخطّة المفضّلة لدى السيّد أورين بويل. لقد أكّد محامي السيّد بويل للصحافة أنّ موكّله يعارض الآن، وبشدّة، أيَّ خطّة من هذا القبيل. ولهذا السبب فإنّ السيّد بويل يعاني حاليًّا من انهيار عصبيٍّ حادٍّ».

ولكنّ انعكاسات بعض الأخبار كان يمكن مشاهدتها في شوارع مدينة نيويورك، وفي شفق أمسيات الخريف البارد والرطب، وذلك حين تجمّع حشدٌ من الناس أمام متجر للأجهزة والمعدّات فتَحَ صاحبُه أبوابَه على مصاريعها، ودعا الناس إلى مساعدة

أنفسهم وشراء آخر ما تبقّى عنده في مخزنه، وهو يضحك ضحكًا شابَه بكاء ونحيبٌ، ثمّ أخذ يحطّم نوافذه الزجاجيّة. وتجمّع حشدٌ آخر من الناس عند باب إقامة سكنيّة، حيث وقفت سيّارة الشرطة تنتظر، بينما كانت هناك جثثٌ لرجل وزوجته وأطفالهما الثلاثة انتشلت من غرفة مليئة بالغاز، وكان الرجل صاحبَ مصنع صغير للقوالب الفولاذيّة.

قالت داغني في نفسها: ليتَهُم يدكون الآن قيمة هانك ريردن. لماذا لم يدركوها باكرًا؟ لماذا لم يتجنّبوا هلاكَهم ويُعفوا ريردن من سنوات العذاب التي لم يُقابَل فيها بغير نكران الجميل؟ لكنّها لم تجد أيّ إجابة.

وفي صمت الليالي الطوال، فكّرت أنّها هي وهانك ريردن قد تبادلا الأماكن: هو الآن في مدينة أطلانتس وهي خارجها وقد أغلقت أمامَها الشاشة الضوئيّة أبواب تلك المدينة، لعلّها ناداها، مثلما نادته، عندما كان يناضل للبحث عنها بالطائرة، ولكن لا إشارة كان بإمكانها الوصول إليها من خلال تلك الشاشة. ورغم ذلك فإنّ الشاشة انفتحت مدّةَ استراحةٍ قصيرةٍ، لتتلاءم مع طول الرسالة التي تلقّتها بعد أسبوع من اختفائه. ولم يحمل الظرف عنوان المرسل، بل حَمَلَ فقط ختمًا بريديًّا لإحدى القرى في ولاية كولورادو، وكانت هذه الرسالة تتضمّن جملتين:

لقد قابلته. أنا لا ألومك.

-هـ. ر

وجلست زمنًا طويلًا تنظر إلى الرسالة كما لو أنّها لم تقدر على الحركة أو الشعور. كانت تعتقد أنّها لم تشعر بشيء، ثمّ لاحظت أنّ كتفيها ترتجفان، فأدركت أنّ بداخلها عنفًا قُدَّ من التكريم والامتنان واليأس: كان التكريم تحيّة لنصرٍ يعلن أنّ اجتماع هذين الرجلين يتضمَّن نصرًا نهائيًّا لكليهما على حدّ سواء، أمّا الامتنان فيتعلّق بأنّ مَن هم في مدينة أطلانتس ما يزالون ينظرون إليها باعتبارها واحدةً منهم وقد خصّوها برسالة من هناك، وأمّا اليأس فمصدره معرفةُ أنّ الفراغ الذي يحاصرها هو بمثابة نضالٍ حتّى

لا تسمع الأسئلة التي تسمعها الآن. هل هجرها جالت؟ هل ذهب إلى الوادي ليقابل أعظم غنيمة له في أعظم غزوة؟ هل سيعود؟ هل تخلّى عنها؟ وما لا يمكن تحمّله لا يكمن في تلك الأسئلة التي ليس لها أيّ جواب، بل في أنّ الجواب كان ببساطة ويُسرٍ في متناول يدها وأنّه لا يحقّ لها اتّخاذ أيّ خطوة للوصول إليه.

ولم تقم داغني بأيّ محاولة لرؤيته. وعلى مدى كلّ صباحٍ، وكلّما دخلت مكتبَها، وعلى امتداد شهرٍ، استمرّت في الإحساس لا بالقاعة التي تحيط بها، بل بالأنفاق التي كانت تحتها، تحت طوابق المبنى. وكانت تعمل وكأنّ جزءًا هامشيًّا من دماغها عبارة عن أرقام حسابيّة وتقارير، أمّا عقلها فما يزال مكبّلًا، وممنوعًا من تجاوز الجملة التي تقول: إنّه هناك. وكان التحقيق الوحيد الذي سمحت به لنفسها هو إلقاء نظرة على قائمة رواتب العاملين في المحطّة. لقد رأت اسمَ جون جالت وقد حملته القائمة علنًا مدّةَ أكثر من اثني عشر عامًا. ورأت عنوانًا بجانب الاسم الذي حاولت مدّةَ شهر أن تمحوه من ذاكرتها.

كانت خلال هذا الشهر تحسّ بأنّها غير قادرة على تحمّل الحياة، لكنّها الآن، وهي تنظر إلى الرسالة، تحسّ بأنّها غير قادرةٍ على تحمّل فكرة رحيل جالت. حتّى النضال لمقاومة قُربِه كان يربطه بها، وله ثمنٌ يجب دفعه، ونصرٌ يجب أن يتحقّق باسمه. الآن لم يعد ثمّة من شيءٍ سوى سؤالٍ لا يمكن طرحه. فوجوده في الأنفاق كان هو محرّكَها خلال تلك الأيّام، تمامًا كما مثّل وجوده في المدينة محرّكَها عبر شهور في ذلك الصيف، وتمامًا كما مثّل وجوده في مكان مّا من العالم محرّكَها عبر السنين التي عاشتها قبل أن تسمع اسمه. الآن، هي تشعر كما لو أنّ محرّكها قد توقّف أيضًا.

واستمرّت في العيش، وهي تحمل ما في القطعة الذهبيّة من فئة خمسة دولارات من بريقٍ نقيّ لامع ، تلك القطعة التي احتفظت بها في جيبها، كآخر قطرة لها من وقودها الأخير. واستمرّت في العيش، محميّةً من العالم الذي يحيط بها بآخر درع لها، وهو درع اللّامبالاة.

لم تذكر الصحف ظاهرةَ تفشّي العنف التي بدأت تنفجر في جميع أنحاء البلاد، لكنّها اطّلعت عليها من خلال تقارير سائقي القطارات حول عربات اخترقتها طلقاتُ الرصاص ومساراتٍ مفكّكة وقطاراتٍ تتعرّض للهجمات ومحطّاتٍ محاصرةٍ في ولاية نبراسكا وأوريغون وتكساس ومونتانا... تلك الظواهر العقيمة المحكومة بالفشل، والتي لا يدفع إليها أيّ شيء سوى اليأس، ظواهر لا تنتهي إلى أيّ شيء سوى الدمار، ظواهر كان بعضها عبارة عن انفجارات تتسبّب فيها عصابات محلّيّة... وكانت هناك مناطق قد انتفضت وارتفع فيها منسوب عنفٍ لم يؤدِّ فقط إلى اعتقال المسؤولين المحلّيّين، وطرد عملاء واشنطن، وقتل جباة الضرائب، بل إلى إعلان الانفصال عن البلاد أيضًا. لقد وصل بهم الأمر إلى أقصى حدٍّ من الشر الذي دمّرهم، كما لو أنّهم يحاربون القتل بالانتحار، فتمادوا في الاستيلاء على كلّ الممتلكات التي كانت في متناولهم، لإعلان عبوديّة المجتمع وخضوع الكلّ للكلّ، فبلغوا مراحل الهلاك واستهلكوا كلّ ما نهبوه خلال أسبوعٍ في كراهية دمويّة هي كراهية الكلّ للكلّ وفي فوضى عارمةٍ لا حكم فيها أو سلطانٍ سوى قوّة البندقيّة، ليموت الجميع تحت ضغط خامل من بعض جنودٍ أُرسِلوا من واشنطن لإحلال النظام واستتباب الأمن.

لم تذكر الصحف ذلك. بل ظلّت أقسام التحرير تتحدّث في افتتاحيّاتها عن الغيريّة باعتبارها طريقًا للتقدّم نحو المستقبل، والتضحية بالنفس بوصفها سبيلًا إلى الرفاه العامّ، والطمع والجشع بوصفهما عدوًّا للسلم الاجتماعيّ، والحبّ بوصفه حلًّا لكلّ الأزمات.. وكانت تكتب مثل هذه الأخبار بعبارات واهنة وحلوة على نحو مقرفٍ.

وذاعت في جميع أنحاء البلاد شائعاتٌ تداولتها وسائل الإعلام بسخرية.. ومع ذلك قرأ الناس الصحف وتصرّفوا كما لو أنّهم يصدّقون ما يقرؤون، وتنافس كلّ واحد منهم مع الآخر على من سيبقى صامتًا بشكل أعمى، وكلّ واحد منهم تظاهر بأنّه لا يعرف ما كان يعرفه. وكلّ واحد منهم حاول أن يصدِّق أنّ المجهول هو ما كان غير واقعيّ. كان الأمر أشبه بثورة بركانٍ يقذف الحِمم، ولكنّ الناس عند سفح الجبل تجاهلوا الشقوق المفاجئة والأدخنة السوداء وأبخرة الغليان واستمرّوا في اعتقاد أنّ

الخطر الوحيد يكمن في الوقوف على الواقع الذي كانت تشير إليه تلك العلامات.

- ستستمعون إلى تقرير السيّد طومسون عن الأزمة العالميّة في الثاني والعشرين من نوفمبر.

كان هذا الخبر أوّلَ اعتراف رسميّ بالأزمة التي حاول السياسيّون إخفاءها زمنًا. وبدأت الإعلانات بالظهور قبل أسبوع من إلقاء كلمة السيّد طومسون، وذاع الخبر في جميع أنحاء البلاد:

- سيقدّم السيّد طومسون تقريرًا عن الأزمة العالميّة. فاستمعوا إليه على أمواج كلّ محطّة إذاعيّة وأثيرِ كلّ قناة تلفزيونيّة على الساعة الثامنة مساء من الثاني والعشرين من نوفمبر.

وقد مهّد الصحفيّون لخطاب السيّد طومسون، فكتبوا:

- لمواجهة مخاوف انتشار الشائعات من قبل أعداء الشعب، سيلقي السيّد طومسون خطابًا في الثاني والعشرين من نوفمبر. وفي هذا الخطاب سيوافينا بتقرير شامل عن حالة العالم في هذه اللحظة الحرجة من الأزمة العالميّة. وسيضع السيّد طومسون حدًّا لتلك القوى الشرّيرة التي تهدف إلى إبقائنا في حالة رعب ويأس. وسيجلب النور إلى ظلام العالم وسيرشدنا إلى طريق الخروج من مشاكلنا المأسويّة.. سيدلّنا على خطّة صحيحة تتلاءم مع الظرف الصعب الذي تمرّ به البلاد، خطّة ستقودنا إلى المجد. وسيبثّ خطاب السيّد طومسون على أثير جميع المحطّات الإذاعيّة سواء في بلدنا أو في جميع بلدان العالم.

وما انفكّت البرامج الإذاعيّة تكرّر على مسامع الناس:

- استمعوا إلى خطاب السيّد طومسون في الثاني والعشرين من نوفمبر.

- لا تنسوا خطاب السيّد طومسون في الثاني والعشرين من نوفمبر.

وبالإضافة إلى ذلك، أعلنت الملصقات على جدران الأنفاق ومحطّات الحافلات

واللوحات الإعلانيّة على الطرق السريعة المهجورة: «السيّد طومسون سيخبركم بالحقيقة».

وكتب على السيّارات الحكومية «لا تيأس! استمع إلى السيّد طومسون»، أمّا اللّافتات في المكاتب والمحلّات التجاريّة فكُتِبَ عليها «لا تستسلم! استمع إلى السيّد طومسون»، أمّا أصوات الوعاظ في الكنائس فكانت تصدح بـ«لا تيأسوا وتحلّوا بالإيمان! استمعوا إلى السيّد طومسون». وأمّا طائرات الجيش فكتبت في السماء «سيأتيكم السيّد طومسون بالجواب اليقين».

ووُضِعت مكبّرات الصوت الضخمة في الساحات العامّة لمدينة نيويورك استعدادًا ليوم الخطاب. كانت المكبّرات تصدر رنينًا تقشعرّ له الأبدان مرّةً كلّ ساعةٍ، في تناغم مع الرنين البعيد الصادر عن الساعات الكبيرة للإعلان عن الوقت على مدار كلّ ساعةٍ. كانت المكبّرات تنذر بالخطر:

- استمعوا إلى تقرير السيّد طومسون عن الأزمة العالميّة في الثاني والعشرين من نوفمبر.

كانت صرخةً تعبر الهواء المتجمّد وتختفي بين قمم المنازل التي يغشاها الضباب، تحت الصفحة الفارغة من التقويم التي لم تكن تحمل أيّ تاريخ.

وبعد ظهر الثاني والعشرين من نوفمبر، أخبر جيمس تاجارت أختَه داغني بأنّ السيّد طومسون يرغب في لقائها لعقد مؤتمر قبل البثّ.

فسألته على نحو غريب، وهي تنظر إلى ساعة يدها:

- وهل سيكون ذلك في واشنطن؟

- حسنًا، يجب أن أفترض أنّك لم تطّلعي على الصحف أو لم تتابعي الأحداث المهمّة. ألا تعلمين أنّ السيّد طومسون سيذيع خطابَه من نيويورك؟ لقد جاء إلى هنا للتشاور مع الزعماء في مجال الصناعة، بالإضافة إلى القادة في مجال العمل والعلوم والمهن، ومع

أفضل قادة البلاد بشكل عامٍّ. وطلب منّي أن أحضرك معي إلى المؤتمر.

- وأين سيعقد المؤتمر؟

- في استديو البثّ.

- ينبغي عليهم ألّا يتوقّعوا منّي التحدّثَ على الهواء دعمًا لسياساتهم.

- لا تقلقي، لن يسمحوا لك بالاقتراب من المايكروفون.. هم يريدون فقط أن يسمعوا رأيك، ولا يمكنك رفض الدعوة، ليس فقط لأنّ البلاد تمرّ بظروف عصيبة، بل أيضًا لأنّ الدعوة جاءت من السيّد طومسون شخصيًّا.

- ومتى سينعقد المؤتمر؟

- السابعة والنصف مساءً.

- لا يوجد متّسعٌ من الوقت لإجراء مؤتمرٍ حول حالة الطوارئ الوطنيّة، أليس كذلك؟

- السيّد طومسون رجلٌ مشغول جدًّا. لا تحاولي تعقيد الأمور، فأنا لا أرى ما أنت..

فردّت بلامبالاةٍ:

- حسنًا، سأحضر.

ثمّ أضافت وهي مدفوعةً برغبة في أنّها ستحضر كشاهد عيانٍ مؤتمرَ رجال العصابات:

- لكنّني سأُحضِر معي إيدي ويلرز.

فتجهّم قليلًا، وأخذ يتأمّل المسألة بعضَ الوقت، ثمّ صاح وهو يهزّ كتفيه:

- أوه، حسنًا، لا مانع في ذلك.

جاءت إلى أستوديو البثّ وقد رافقها جيمس تاجارت كشرطيٍّ من أحد الجانبين

وإيدي ويلرز كحارس شخصيّ من الجانب الآخر. كانت ملامح وجه تاجرت مَشُوبَةً بالاستياء والتوتّر، أمّا ملامح إيدي فيغلب عليها التساؤل والفضول. لقد أقيم منبر المؤتمر من مجموعة من جدران الجبس في ركن من مساحة شاسعة خافتة الأضواء، تمثّل اقتراحًا تقليديًّا صلبًا يمزج بين غرفة استقبال رائعة ومكتب متواضع. وأقيمت نصف دائرة من الكراسيّ والأرائك الفارغة التي ملأت المكان، وكانت المايكروفونات تتدلّى مثل طعم للأسماك في نهاية أعمدة طويلة ممتدّة بين الكراسيّ.

وجلس خيرة قادةِ البلاد بعصبيّةٍ في شكل مجموعاتٍ، في مشهدٍ يشبه بقايا متجرٍ مفلس معروض للبيع. وكان من بينهم ويسلي ماوتش ويوجين لوسون وتشيك موريسون وتنكي هولواي والدكتور فلويد فيريس والدكتور سيمون بريتشيت وتشالمرز وفريد كينان وحفنة من رجال الأعمال مثل السيّد موين الذي كان يمثّل الشركة المندمجة لمفاتيح التبديل والإشارات، ويمثّل أيضًا، بشكل لا يصدّق، قطبًا من أقطاب الصناعة.

لكنّ الشخصيّة التي صدمتها على نحو فوريّ هي شخصية الدكتور روبرت ستادلر. لم تكن تعلم أنّ أحد الوجوه قد يشيخ بسرعة في ظرف وجيز. لقد تلاشى مظهر الطاقة الخالدة والحماس الصبيانيّ، ولم يحتفظ وجهه إلّا بتقاسيم المرارة. كان ستادلر يقف وحيدًا، بعيدًا عن الآخرين، فراقبت داغني اللحظة التي انتبهت فيها عيناه إلى دخولها المشهدَ؛ فبدا وكأنّه رجلٌ في بيت دعارةٍ قَبِل طبيعةَ محيطه وتأقلم معها حتّى أمسكت به زوجتُه فجأةً. كان مظهره يشي بالذنب. ثمّ رأت العالم روبرت ستادلر وهو يلتفّت وكأنّه لم يرَها.

كان السيّد طومسون يسير بين المجموعات، ويصطدم عشوائيًّا بالمارة، على نحوٍ مضطربٍ لرجل أعمال يشعر بالازدراء من واجب إلقاء الخطب. كان يمسك بحزمة من الصفحات كما لو أنّها حزمة ملابس قديمة يسعى المرء إلى التخلّص منها. ثمّ التقى بجيمس تاجرت وهو في منتصف الطريق، فقال له تاجارت بصوت عالٍ تشوبه الريبة:

- سيّد طومسون، أقدّم لك أختي الآنسة داغني تاجرت؟

فقال السيّد طومسون:

- هذا لطف منك يا آنسة تاجارت. شكرًا لأنك لبَّيت دعوتنا.

صافحَها ثمّ واصل الطريق بخفّة.

- أين المؤتمر؟

هكذا سألت داغني شقيقَها وهي تنظر في ساعة يدِها. كانت ساعةً ضخمة بيضاء اللون بعقارب سوداء تتحرّك نحو الساعة الثامنة.

ردّ عليها جيم غاضبًا:

- لا أستطيع تحمُّل هذا المشهد. أنا لا أدير هذا العرض.

نظر إليها إيدي ويلرز والمرارة تعلو محيّاه، ثمّ اقترب منها.

كان جهاز الراديو يذيع موسيقى عسكريّة تبثّ من أستوديو آخر. لقد أُخمِدَت الأصوات العصبيّة بأصواتِ خطوات الجنود وهي تسير على عجلٍ وبلا هدف يرافقها صخبُ الآلات حتّى يجذب الجميع للتركيز على منبر قاعة الاستقبال.

- لا تبتعدوا حتّى لا تفوّتوا تقرير السيّد طومسون عن الأزمة العالميّة في الثامنة مساء.

هكذا صاح صوت المذيع العسكريّ عندما أشارت عقارب الساعة إلى الثامنة إلّا الربع.

قاطع السيّد طومسون المذيعين:

- أسرعوا أيّها الأولاد.

كانت الساعة تشير إلى الثامنة إلّا عشر دقائق عندما صاح تشيك موريسون، المسؤول عن إدارة ذلك الخطاب:

- حسنًا أيّها الأولاد، دعونا نأخذ أماكننا.

ولوّح بمجموعة من أوراق الملاحظات نحو دائرة الكراسيّ المغمورة بالضوء. ثمّ احتجز السيّد طومسون الكرسيّ المركزيّ كما يستولي المرء على مقعدٍ شاغر في مترو الأنفاق. أمّا مساعدو تشيك موريسون فكانوا يسوقون الحشدَ مثل القطعان نحو دائرة الضوء.

ثمّ أخذ تشيك موريسون يقول:

- يجب أن ترانا البلاد كما لو أنّنا عائلة سعيدة، يجب أن ينظر إلينا على أنّنا رجال عظام وسعداء. ما خطب ذلك الشيء؟

ثمّ توقّفت الموسيقى الإذاعيّة فجأةً، وحدث تشويش قصير غريب، قاطعته عبارة رنّانة. كانت الساعة تشير إلى 7:51 فتجاهل موريسون الأمرَ واستمرّ في مخاطبة الصحفيّين:

- ينبغي أن نبدو مثل عائلة سعيدة. أسرعوا يا أولاد، التقطوا صورةً للسيّد طومسون أوّلًا.

واستمرّت عقارب الساعة في التهام الدقائق بينما صوّب الصحفيّون المصوّرون كاميراتهم باتّجاه السيّد طومسون الذي تظهر على محيّاه علامات نفاد الصبر.

ثمّ أعلن تشيك موريسون:

- سيجلس السيّد طومسون بين زعماء العلم والصناعة. من فضلك يا دكتور ستادلر اجلس على يسار السيّد طومسون. من فضلك آنسة تاجرت اجلسي على يمين السيّد طومسون.

فأطاع الدكتور ستادلر الأوامرَ، ولم تتحرّك داغني. فشرح لها تشيك موريسون الأمر بنبرة تنضح إغراءً:

- نحن لا ننجز هذا الأمر فقط من أجل الصحافة، بل من أجل جماليّة الصورة التي

سيتلقّاها الجمهور أيضًا.

تحرّكت داغني خطوة إلى الأمام، ثمّ خاطبت السيّد طومسون بكل اتّزان:

- أنا لن أشارك في هذا البرنامج.

سألها بجفاء:

- ألن تشاركي معنا؟

صاح جيمس تاجرت مذعورًا:

- داغني، اجلسي رجاءً.

فسألهم السيّد طومسون:

- ما خطبها؟

فصاح تشيك موريسون:

- يا آنسة تاجارت، لماذا تتصرّفين على هذا النحو؟

فردّت عليهم:

- أنتم جميعًا تعرفون السبب. كان من الأفضل أن تطّلعوا أوّلًا على موقفي قبل أن تطلبوا منّي المشاركة في هذا المؤتمر.

فصاح تشيك موريسون:

- يا آنسة تاجرت، إنّها حالة طوارئ وطنيّة..

ثمّ هرع رجل نحو السيّد طومسون، فتوقّفت داغني عن الحركة والكلام، مثلما فعل الجميع. لقد اجتاحت نظرةُ الرجل ذاك الحشدَ كلّه فخيّم الصمت على الجميع. كان الرجل يشغل وظيفة كبير مهندسي المحطّة الإذاعيّة. وكانت تعلو محيّاه علامات الرعب وهو يقول:

- سيّد طومسون قد نُضطَرّ إلى تأخير البثّ.

صاح السيّد طومسون:

- ماذا؟

كانت عقارب الساعة تشير في هذه اللحظة إلى 7:58 حين أضاف المهندس:

- يا سيّد طومسون، نحن نحاول إصلاح العطب.. لكنّنا قد لا ننجح في هذه المهمة في الوقت المحدّد..

- عمَّ تتحدّث؟ ماذا حصل؟

- نحن نحاول تحديد مصدر العطب..

- ماذا حدث؟

- لا أعلم.. لكن.. نحن لا نستطيع أن نبثّ الخطاب على الهواء مباشرةً يا سيّد طومسون.

وبعد لحظة من الصمت، سأله السيّد طومسون بصوت منخفض:

- هل أنت مجنون؟

- قد أكون مجنونًا أو ليتني كنت كذلك. لا يمكنني أن أبثّ الخطاب مباشرة. إنّ المحطّة معطّلة بالكامل.

فصاح السيّد طومسون وهو ينهض منزعجًا:

- هل هي مشكلة تقنيّة؟ لعنك الله، مشكلة تقنيّة في مثل هذا الوقت. إذا كانت هذه هي الطريقة التي تدير بها هذه المحطّة...

رفع كبير مهندسي المحطّة رأسه ببطء، ثمّ قال بهدوء:

- إنّ العطب لم يصب هذه المحطّة الإذاعيّة فقط، بل جميع المحطّات في البلاد. وليس

هناك أيّ مشكل تقنيّ؛ لا هنا ولا في أيّ مكان آخر. المعدّات في حالة جيّدة. إنّها تعمل وفق النظام والترتيب المثاليّ، وجميعها يبلّغ عن الشيء نفسه.. لكنّ جميع محطّات الراديو توقّفت عن البثّ على الساعة 7:51 ولا أحد يستطيع اكتشاف السبب.

صاح السيّد طومسون:

- لكن..

توقّف عن الكلام، ثمّ أخذ يحدّق في كبير مهندسي المحطّة قبل أن يصرخ:

- لا يمكن أن يحدث هذا الأمر في هذه الليلة تحديدًا. لا يمكنك أن تسمح بذلك هذه الليلة. يجب أن تبثّ خطابي على الهواء.

فردّ الرجل ببطء:

- يا سيّد طومسون، لقد اتّصلنا بالمختبر الإلكترونيّ لمعهد الدولة للعلوم. يبدو أنّه.. لم يواجهوا عطبًا من هذا النوع في السابق. قالوا إنّها قد تكون ظاهرة طبيعيّة، نوعًا من الاضطراب الكونيّ..

- حسنًا، ثمّ ماذا؟

- غير أنّهم لا يعتقدون أنَّ الأمر يتعلّق بظاهرة طبيعيّة. قالوا إنّ الأمر ربّما يتعلّق بتشويش على موجات الراديو، لكنّ العالم لم يعرف مثل هذه القدرة على التشويش من قبل.

لم يجبه أو يقاطعه أحدٌ، ثمّ استرسل في الشرح:

- يبدو أنّه يشبه حائطًا من موجات الراديو ويشوّش على البثّ ولم نستطع التخلّص منه أو حتّى لمسه أو كسره.. والأعظم من ذلك يكمن في أنّنا لم نستطع تحديد مصدره.. يبدو أنّ تلك الموجات تأتي من جهاز إرسال.. مختلف عن أيّ جهاز معروف لدينا.. ويبدو أنّه يحوّل جميع أجهزتنا إلى لعب الأطفال.

- ولكن هذا غير ممكن!

كانت صرخة صادرة من الدكتور ستادلر الذي أضاف:

- لا يوجد شيءٌ من هذا القبيل! لا يوجد أحدٌ على الأرض يستطيع أن يصنع مثل هذا الجهاز.

فأشرع كبير مهندسي المحطّة يديه، ثمّ قال والحيرة تعلو محيّاه:

- تمامًا يا دكتور ستادلر، هذا ليس ممكنًا، ولا يمكن أن يكون ممكنًا، لكن هذا ما هو عليه الأمر الآن.

صاح السيّد طومسون أمام الجمهور بشكل علنيّ عامّ:

- حسنًا، حاولوا أن تعالجوا هذا المشكل.

غير أنه لم يتلقَّ أيّ جواب، فأضاف:

- لن أسمح بهذا الأمر. لن أسمح به، وبالضبط في هذه الليلة. يجب أن أُلقي الخطاب. حلّوا هذه المعضلة، أنا آمركم بحلّ هذا المشكل حالا.

وكان كبير مهندسي المحطّة ينظر إليه مشدوهًا، وهو يضيف:

- سأطردكم جميعًا بسبب هذا الخطإ الجسيم. سأطرد كلّ مهندس إلكترونيّ في البلاد. سأحاكمهم جميعًا بتهمة التخريب والخيانة. هل تسمعونني؟ عالجوا الآن هذا المشكل، لعنة الله عليكم! أصلحوا هذا العطب.

كان كبير مهندسي المحطّة ينظر إليه نظرة سلبيّة، كما لو أنّ الكلمات لا تعبّر عن أيّ شيء. ثمّ صاح السيّد طومسون مجدّدًا:

- ألم تعد في البلاد كفاءات لتصلح هذا العطب؟

كانت عقارب الساعة تشير إلى الساعة 8:00، وفي هذه الأثناء صدر من راديو الاستقبال صوتٌ هادئ لرجل لم يسمع مثله على الأثير منذ سنوات:

- سيّداتي، سادتي، لن يتحدّث السيّد طومسون إليكم هذا المساء، لقد ولّى زمنه. وقد تولّيتُ زمام الأمور. كان من المقرَّر أن تسمعوا تقريرًا عن الأزمة العالميّة، لكن هذا ما ستسمعونه.

واستقبلت ذلك الصوت ثلاث صيحاتٍ من الاعتراف، لكن لا أحد كان قادرًا على ملاحظتها بين أصوات الحشد الذي دخل في مرحلة من العويل. إحدى هذه الصيحات كانت شهقة النصر. أمّا الثانية فشهقة الرعب، وأمّا الثالثة فشهقة الحيرة. وكانت الصيحات قد صدرت عن داغني والدكتور ستادلر وإيدي ويلرز الذين تعرّفوا على المتحدّث في الراديو. لم ينظر أحد باتّجاه إيدي ويلرز، لكنّ داغني والدكتور ستادلر تبادلا نظرةً. ولاحظت داغني أنّ وجهه قد شوهّته شرور الرعب الذي يمكن للمرء أن يراه، أمّا هو فلاحظ أنّها عرفت ذلك وأنّ الطريقة التي تنظر بها إليه بدت كما لو أنّ المتحدّث في الراديو قد صفعه على وجهه.

- مدّة اثني عشر عامًا كنتم تتساءلون: من هو جون جالت؟ هذا جون جالت يحدّثكم، أنا هو جون جالت. أنا الرجل الذي يحبّ حياته. أنا الرجل الذي لا يضحّي بحبّه أو قيمه. أنا الرجل الذي حرمكم مزيدًا من الضحايا ودمّر عالمكم. وإذا كنتم ترغبون في معرفة السبب الذي يجعلكم تهلكون -أنتم يا من تخشون المعرفة- فأنا الإنسان الذي سيخبركم بذلك الآن.

كان كبير مهندسي المحطّة هو الوحيد القادر على التحرّك. ركض نحو جهاز التلفزيون ليضغط على زرّ التشغيل، لكنّ الشاشة ظلّت فارغةً. يبدو أنّ المتحدِّث فضّل عدم الكشف عن هويّته. واعتقد كبير مهندسي المحطّة أنّ صوته هو وحده ما يملأ أجواء البلاد وأجواء العالم.

- لقد سمعتموه وهو يقول إنّ هذا العصر عصر أزمة أخلاقيّة. لطالما قلتم ذلك بأنفسكم، بطريقة يمتزج فيها الخوف والألم من أنّ الكلمات لم يعد لها معنى. وصرختم بأنّ خطايا الإنسان تدمّر العالم، ولعنتم الطبيعة البشريّة لأنّها لا تمارس الفضائل التي

تطالبون بها. وبما أنّ الفضيلة، بالنسبة إليكم، تقوم على التضحية، فأنتم تطالبون بمزيد من التضحيات في كلّ كارثة جديدة. وباسم العودة إلى الأخلاق ضحّيتم بأنفسكم مقابل كلّ تلك الشرور التي كانت سببًا في محنتكم. لقد ضحّيتم بالعدالة من أجل الرحمة، وضحّيتم بالاستقلال من أجل الوحدة، وضحّيتم بالعقل من أجل الإيمان، وضحّيتم بالثروة من أجل الحاجة، وضحّيتم بالسعادة من أجل الواجب.

- لقد دمّرتم كلّ ما كنتم تظنّون أنّه شرّ وأنعشتم كلّ ما كنتم تظنون أنّه خيرٌ. لماذا ترتجفون الآن وأنتم ترون العالم ينهار من حولكم؟ هذا العالم ليس نتاج خطاياكم، بل هو نتاج فضائلكم. إنّه نتاج مثاليّتكم. لقد قاتلتم من أجلها، وحلمتم بها، وتمنّيتموها، وأنا الرجل الذي وهبكم كلّ أمانيّكم.

- إنّ لِمُثُلِكم العليا عدوًّا لا يُقهَر، وهو ما تسعى منظومتكم الأخلاقيّة إلى تدميره. إنّها مصمّمة على ذلك. لقد سحبتُ ذلك العدوّ وأبعدته عن طريقكم وعن متناول أيديكم. أزلت مصدر كلّ تلك الشرور التي كنتم تضحّون بها. لقد وضَعتُ حدًّا لمعركتكم، وعطّلت محرّككم، وحرمت عالمكم من عقل الإنسان.

- قد تقولون إنّ البشر لا يعيشون على العقل؟ لذلك سحبت أولئك الذين يعيشون عليه. وقد تقولون إنّ العقل عاجزٌ؟ لذلك سحبت أولئك الذين يتمتّعون بعقلٍ غير خامل. وقد تقولون إنّ هناك قيمًا أعلى من العقل؟ لذلك سحبت أولئك الذين لا يتمتّعون بأيّ قيم.

- وبينما كنتم تسعون إلى جرّ أصحاب الكفاءة والثروة إلى المقاصل هزمتُكم، لأنّني وصلت إليهم قبلكم. لقد أخبرتهم بطبيعة لعبتكم وبمضمون أخلاقكم ففهموها بكلّ يسرٍ. لقد هديتهم إلى طريق أخرى، طريقي الخاصّة وقد اختاروا أن يسلكوها.

- كلّ الرجال الذين اختفوا هم الرجال الذين كنتم تكنّون لهم كُرهًا وحقدًا، لكن كنتم، في مقابل ذلك، تخشون خسارتَهم. أنا مَن أخذهم منكم. لا تحاولوا الوصول إلينا، نحن اخترنا مكانًا لا يصل إليه أحدٌ من العالمين. لا تحتجّوا، ولا تقولوا إنّ من

واجبنا خدمتكم، لأنّنا لا نعترف بهذا الأمر. لا تحتجّوا، ولا تقولوا إنّكم في حاجة إلينا، لأنّنا لا نعتبر الحاجة مطلبًا بشريًّا. لا تحتجّوا، ولا تقولوا إنّكم تمتلكوننا وإنّنا عبيدكم. ولا تتوسّلوا إلينا أن نعود. نحن مضربون. نحن، رجال الفكر، مضربون عن العمل.

- نحن نحتجّ ضدّ قيمة التضحية بالنفس، وضدّ مبدإ الأجر دون عمل. نحن نحتجّ ضدّ العقيدة التي تقول إنّ السعي وراء السعادة شرٌّ، وضدّ مبدإ أنّ الحياة هي الذنب.

- يوجد فرقٌ كبير بين احتجاجنا وكلّ الاحتجاجات التي مارستموها زمنًا، لأنّنا في احتجاجنا لا نطلب بل نمنح، لا نأخذ بل نعطي. نحن، من منظوركم، مجرّد أشرار. لقد اخترنا ألّا نؤذيكم بعد الآن، فمن منظوركم الاقتصاديّ، لا فائدةَ ترجى منّا. لقد اخترنا ألّا نستغلّكم بعد الآن، لأنّنا، من منظوركم السياسيّ، نشكّل خطرًا عليكم. لقد اخترنا ألّا نعرّضكم لأيّ خطرٍ، أو نقيّدكم بالأغلال بعد الآن، لأنّنا، من منظوركم الفلسفيّ، لا نمثّل سوى الوهم. لقد اخترنا ألّا نعميكم أكثر من ذلك بعد الآن وتركناكم أحرارًا لمواجهة الواقع، الواقع الذي أردتموه، والعالم كما ترونه الآن هو عالم بلا عقلٍ.

- لقد منحناكم كلّ شيء طلبتموه منّا. كنّا دوما المانحين، لكنّنا استوعبنا الدرس الآن. ليست لدينا مطالب نطرحها عليكم، ولا تسويات نسعى إلى الوصول إليها. وليس لديكم أيّ شيء تقدّموه لنا. نحن لا نحتاج إليكم.

- هل تستعدّون الآن للبكاء والعويل: لا، لم يكن هذا ما أردتموه؟ ألم يكن هدفكم الحصول على عالم يقوم على الأنقاض والخراب؟ ألم تريدوا منّا أن نترككم؟ أنتم يا من تحملون أخلاقيّات آكلي لحوم البشر، وأنا أعلم أنّكم كنتم تعلمون دائمًا طبيعة ما كنتم تريدونه. لكنّ لعبتكم انتهت، لأنّنا الآن استوعبنا الدرس جيّدًا.

- لطالما كنتم تقولون، إبّان أيّ كارثة جديدة أو أيّ آفة تنجم عن منظومتكم الأخلاقيّة، إنّ هذه المنظومة قد اخْتُرِقت، وإنّ أيّ آفة سببها الاختراق، وإنّ البشر

ضعفاء جدًّا وأنانيّون جدًّا ومستعدّون دومًا لإراقة الدم. أنت أيّها الإنسان الملعون، يا من لعنت الوجود، ولعنت هذه الأرض، لكنّك لم تجرؤ يومًا على التشكيك في منظومتك الأخلاقيّة. وبينما يتعذّب الناس بسبب منظومتكم الأخلاقيّة، كنتم تؤكّدون أنّ هذه المنظومة نبيلةٌ، لكنّ الطبيعة البشريّة ليست جيّدة بما فيه الكفاية لممارستها. لكن لا أحد تجرّأ على طرح هذا السؤال: إذا كانت جيّدة، فوفق أيّ معيار؟

- كنتم دومًا حريصين على معرفة هويّة جون جالت. أنا الرجل الوحيد الذي طرح هذا السؤال.

- طبعًا، هذا هو عصر الأزمة الأخلاقيّة. طبعا، أنتم تتحمّلون مسؤوليّة كلّ أفعالكم الشرّيرة. لكن ليس الإنسان من يحاكم الآن، وليست الطبيعة البشريّة هي التي ستتحمّل المسؤوليّة. إنّه قانونكم الأخلاقيّ الذي باء بالفشل. لقد بلغ طريقًا مسدودةً وأنتم في نهاية مسارها. وإذا كنتم تريدون الاستمرار في الحياة، فإنّ ما تحتاجون إليه الآن هو التحرّر من منظومتكم الأخلاقيّة..

- لقد علّموكم أنّ الأخلاق وحيٌ من قوّة فوق طبيعيّة، وأنّ الغاية منها هي خدمة الله وخدمة الآخرين، لا أن تخدم حياتكم أو متعتكم. وعلّموكم أيضًا أنّ متعتكم توجد في الفجور واللّاأخلاق، وأنّ مصالحكم ستكون أفضل لو أنّها خدمت الشرّ، وأنّ أيّ قانون أخلاقيّ يجب ألّا يكون في صالحكم، بل ضدّكم، وألّا يثري حياتكم، بل يستنزفها.

- لقد كانت معركة الأخلاق تدور قرونًا بين أولئك الذين زعموا أنّ حياتكم ملك لله وأولئك الذين يدّعون أنّها تنتمي إلى الجيران، بين أولئك الذين كانوا يبشّرون بأنّ الخير يكمن في التضحية بالنفس من أجل أشباحٍ في السماء، وأولئك الذين يبشّرون بأنّ الخير يكمن في التضحية بالنفس من أجل غيرٍ الأكفاء ممّن هم على الأرض. ولم يأتِ أحدٌ ليقول لكم إنّ حياتكم ملكٌ لكم وإنّ الخير يكمن في عيشها.

- واتّفق الجانبان على أنّ الأخلاق تتطلّب استسلام مصلحتكم الذاتيّة وعقولكم،

وأنّ الجانب الأخلاقيّ والجانب العمليّ متناقضتان، وأنّ الأخلاق ليست من اختصاص العقل، بل من اختصاص الإيمان والقوّة. واتّفق الجانبان على أنّه لا توجد أخلاق عقلانيّة ممكنة، وأنّه لا يوجد صواب أو خطأ في العقل، وأنّه لا يمكن بالعقل أن تكونوا أخلاقيّين.

- وهما يكُن ما تخاصموا من أجله، فهو ضدّ عقل الإنسان وهو ما وحّد جميع المناصرين للأخلاق. وكان عقل الإنسان هو محور كلّ مخطّطاتهم وأنظمتهم التي تهدف إلى الإطاحة به وتدميره. الآن، لكم أن تختاروا بين الموت أو الإيمان بأنّ معاداة العقل هي معاداة الحياة.

- عقل الإنسان هو أداته الأساسيّة للبقاء على قيد الحياة. فالإنسان يُمْنَحُ الحياة، لكنّه لا يُمنَح البقاءَ على قيد الحياة. ويُعطَى جسمًا، أمّا رزقه فيسعى إليه. ويُمنَح عقله، أمّا محتواه فينبغي أن يعمل عليه. وكي يبقى حيًّا، يجب أن يتصرّف، وقبل أن يتصرّف يجب أن يعرف طبيعة عمله وغرضه، فلا يستطيع الحصول على طعامه من دون معرفة بالطعام وبطريقة الحصول عليه. ولا يمكنه حفر خندق أو بناء سيكلوترون من دون معرفة هدفه ووسائل تحقيقه. وللبقاء على قيد الحياة، يجب عليه أن يفكّر.

- ولكنّ التفكير فعلُ اختيارٍ. ومفتاح ما تُسمّونه على نحوٍ متهوّرٍ (الطبيعة البشريّة) هو السرّ الواضح الذي تعيشون معه، رغم خوفكم من تسميته، وهو حقيقة أنّ الإنسان كائنٌ يقوم على الوعي الإراديّ. فالعقل لا يعمل تلقائيًّا، والتفكير ليس عمليّة ميكانيكيّةً، والروابط المنطقيّة لا تتمّ عن طريق الغريزة. فوظيفة معدتك أو رئتيك أو قلبك أوتوماتيكيّة؛ أمّا وظيفة عقلك فهي ليست كذلك. وفي أيّ ساعة وشأنٍ من شؤون حياتك، أنت حرّ في التفكير أو التهرّب من هذا الجهد. ولكنّك لن تكون حرّا في الهروب من طبيعتك، ومن حقيقة أنّ العقل هو وسيلتك الوحيدة للبقاء على قيد الحياة. وهكذا، فإنّ الجملة التي تقول «أكون أو لا أكون» هي في الحقيقة «أفكّر أو لا أفكّر».

- الكائن ذو الوعي الإراديّ لا يملك مسارًا أوتوماتيكيًّا في سلوكه. بل يحتاج إلى منظومة من القيم تُرشد أفعاله. و«القيمة» هي ما يعمل المرء على كسبه والحفاظ عليه، و«الفضيلة» هي الفعل الذي يكسبه المرء ويحافظ عليه. «القيمة» تفترض مسبّقًا إجابةً على سؤال: القيمة لمن ولأجل ماذا؟ و'القيمة' أيضًا تفترض مسبّقًا وجودَ معيار وغرض وضرورة لاتّخاذ فعل في مواجهة بديل حيث لا توجد بدائل أو قيم ممكنة.

- لا يوجد سوى بديل أساسيّ واحد في الكون: الوجود أو العدم، وهو بديل يتعلّق بفئة واحدة من الكائنات هي الكائنات الحيّة. فوجود مادّة غير حيّة أمر غير مشروط، وكذلك وجود الحياة، لأنّه يعتمد على مسار فعل محدّد. فالمادّة غير قابلة للتدمير، لأنّها تغيّر أشكالها، لكنّها لا يمكن أن تزول من الوجود. وحده الكائن الحيّ يواجه بديلًا ثابتًا هو مسألة الحياة أو الموت. فالحياة عمليّة لفعل ذاتيّ التوليد. وإذا فشل كائن حيٌّ في هذا الفعل فإنّه يموت. وتبقى عناصره الكيميائيّة، لكنّ حياته تخرج من الوجود. فمفهوم «الحياة» هو وحده الذي يجعل مفهوم «القيمة» ممكنًا. إنّه فقط للكيان الحيّ الذي يمكن أن تكون له الأشياء الجيّدة أو الشريرة.

- النبتة يجب أن تغذّي نفسها لكي تعيش، وأشعّة الشمس والماء والمواد الكيميائيّة التي تحتاج إليها هي القيم التي حدّدتها لها الطبيعة للاستمرار في العيش، وحياتها هي المعيار الذي يوجّه أفعالها. لكنّ النبتة لا تملك خيار الفعل، وثمّة بدائل في الظروف التي تواجهها، ولكن لا يوجد بديل في وظيفتها، فهي تعمل أوتوماتيكيًّا على تمديد حياتها، وهي لا يمكن أن تقوم بأيّ فعل يدمّرها.

أمّا الحيوان فهو مجهّز للحفاظ على حياته. تزوّده حواسّه بمدوّنة فعل أوتوماتيكيّة، ومعرفة أوتوماتيكيّة لما هو جيّد أو ما هو شرّ بالنسبة إليه. وليس للحيوان من قوّة لتوسيع معرفته أو تجنّبها. وفي الظروف التي تثبت فيها معرفته أنّها غير كافيةٍ، يموت. ولكن مادام يعيش، فإنّه يعمل بناءً على معرفته بأمنٍ أوتوماتيكيّ ومن دون قوّة الاختيار، فهو غير قادر على تجاهل مصلحته الخيّرة، وغير قادر على أن يعمل على تدمير ذاته.

أمّا الإنسان فهو لا يملك مدوّنةً جاهزة تساعده على البقاء. وتمييزه الخاصّ من جميع الأنواع الحيّة الأخرى هو ضرورة التصرّف في وجه البدائل عن طريق الاختيار الإراديّ. فهو لا يملك معرفةً جاهزة بما هو خيّر أو شرّير بالنسبة إليه، أو معرفةً بأيّ قيم تعتمد عليها حياته، ومعرفة بمسار الفعل الذي تقتضيه. فهل بإمكانكم الثرثرة بشأن غريزة الحفاظ على الذات؟ إنّ غريزة الحفاظ على الذات هي بالضبط ما لا يمتلكه الإنسان. و«الغريزة» لا تخطئ وهي شكل جاهز وصائب من أشكال المعرفة. والرغبة ليست غريزة. فالرغبة في الحياة لا تعطيك المعرفة المطلوبة للعيش. وحتّى رغبة الإنسان في الحياة ليست جاهزة، فشرّكم السرّيّ اليوم يكمن في الرغبة التي لا تملكونها. وخوفكم من الموت ليس حبًّا في الحياة ولن يعطيكم المعرفة اللّازمة للحفاظ عليها. فالإنسان يجب أن يحصل على معرفته ويختار أفعالَه من خلال عمليّة التفكير، وهي عمليّة لا تجبره الطبيعة على القيام بها. فالإنسان يملك القدرة على تدمير نفسه بنفسه، وهذه هي الطريقة التي تصرّف بها عبر التاريخ.

-والكائن الحيّ الذي يعتبر وسائل بقائه على قيد الحياة شرًّا لن يبقى على قيد الحياة. فالنبتة التي تكافح من أجل خرق جذورها، والطائر الذي يقاتل من أجل كسر أجنحته لن يعمّر فترةً طويلة في الحياة. لكنّ تاريخ الإنسان كان حافلًا بتجارب تدمير عقله وحياته.

لقد سمّي الإنسان بالكائن العاقل، لكنّ العقلانيّة مسألة اختيار، والبديل الذي تقدّمه له طبيعته هو أن يكون كائنًا عاقلًا أو حيوانًا انتحاريًّا. والإنسان يجب أن يكون إنسانًا عن طريق الاختيار. يجب عليه أن يتمسّك بحياته بوصفها قيمة وعن طريق الاختيار. يجب أن يتعلّم الحفاظ عليها وعن طريق الاختيار. يجب أن يكتشف القيم التي تتطلّبها حياته ويمارس فضائله عن طريق الاختيار.

- إنّ قانون القيم الذي يقبل بالاختيار هو قانون الأخلاق.

- أيّها المستمعون، أنا أتحدّث إلى البقايا الحيّة وأخاطب البقايا غير الفاسدة بداخلك،

أخاطب بقايا الإنسان فيك، أخاطب عقلك وأقول: للعقل أخلاقٌ، أخلاق خاصّة بالإنسان، وحياة الإنسان هي معيار قيمتها.

- كلّ ما يناسب حياة الكائن العاقل فهو خيرٌ، وكلّ ما يدمّرها فهو شرٌّ.

إنّ حياة الإنسان ليست وحشيّةً بلا عقل، لسفّاح ناهب أو متسكّع غامض، بل حياةَ إنسان مفكّر، وليست حياة تقوم على القوّة أو الاحتيال، بل على الإنجاز. وحدَه العقل يُبقي الإنسان على قيد الحياة.

- حياة الإنسان هي معيار الأخلاق، لكنّ حياتك الخاصّة هي هدفها. فإذا كان الوجود على الأرض هو هدفك، فيجب أن تختار أفعالك وقيمك بناءً على ما يناسبك و يناسب حياتَك.

-وبما أنّ الحياة تتطلّب مسارًا محدّدا، فإنّ أيّ مسار آخر سيّدمرها. والكائن الذي لا ينظر إلى حياته الخاصّة بوصفها دافعًا وهدفًا لأفعاله، فإنّه يتّجه بنفسه نحو الهلاك. هذا النوع من الكائنات هو المسخ ذاته، لأنّه يعمل ضدّ إرادته، ويكدّ ضدّ مجرى حياته.

- إنّ السعادة هي حالة الحياة الناجحة، والألم هو عامل الموت. فالسعادة هي حالة الوعي التي تنبع من تحقيق قيم المرء. والأخلاق التي تتجرّأ على القول إنّ السعادة تكمن في التضحية من أجل سعادة الآخرين لا تستحقّ أن تُصانَ. والمبدأ الذي يدعوك إلى أن تصبح قربانًا لإنقاذ الآخرين لا يستحقّ أن يُحتَرم. وبفضل نعمة الواقع وطبيعة الحياة، يعتبر الإنسان -أيّ إنسان- نهايةً في حدّ ذاته، فهو موجود لذاته، وتحقيق سعادته هو هدفه الأخلاقيّ الأعلى.

لكن لا يمكن تحقيق الحياة ولا السعادة من خلال السعي وراء نزوات غير عقلانيّة. ثمّ إنّ الإنسان حرٌّ في محاولة البقاء على قيد الحياة بأيّ طريقة عشوائيّة، لكنّه سيهلك إلّا إذا عاش كما تقتضي ذلك طبيعته، لذلك فهو حرٌّ في السعي وراء سعادته وفقًا لأيّ غشٍّ غير عاقل، لكنّه لن يجد سوى العذاب والإحباط إلّا إذا سعى وراء السعادة الخاصّة بالإنسان. والهدف من الأخلاق ليس أن تعلّمك كيف تتعذّب وتموت، بل

كيف تستمتع وتحيا.

فتخلّص من كلّ الدروس التي حشَرُوها في عقلك داخل الفصول الدراسيّة، لأنّ الذين يتظاهرون بأنّهم علماء ويدّعون أنّ الإنسان مجرّد حيوانٍ، لا يمنحونه حتّى القيمة التي يمنحونها أدنى الحشرات. وهم يدركون أنّ كلّ كائنٍ حيّ يتمتّع بطريقة خاصّة للبقاء على قيد الحياة، فهم لا يدّعون أنّ السمكة يمكن أن تعيش خارج الماء أو أنّ الكلب يستطيع أن يعيش دون حاسة الشمّ، لكنّهم يزعمون أنّ الإنسان هو الأكثر تعقيدًا من بين بقيّة الكائنات، وأنّه يستطيع البقاء على قيد الحياة بأيّ طريقة، وأنّه لا يحظى بأيّ هوية أو أيّ طبيعة، وأنّه لا يوجد سبب عملي يبرّر عدم قدرته على العيش حين تكون وسائل بقائه على قيد الحياة مدمّرةً، وحين يكون عقله مكبَّلًا.

تخلّص من هؤلاء المثاليّين الذين تنهشهم الكراهية ويتظاهرون بأنّهم أصدقاء البشريّة، ويقولون إنّ أعلى فضيلة يمكن للإنسان ممارستها هي أن يحتفظ بحياته الخاصّة من دون قيمة. هل يقولون لك إنّ الهدف من الأخلاق هو كبح غريزة الإنسان للحفاظ على الذات؟ إنّ الإنسان يحتاج إلى قانون الأخلاق من أجل الحفاظ على الذات. والإنسان الوحيد الذي يريد أن يكون أخلاقيًّا هو الإنسان الذي يريد أن يعيش.

لا، ليس من الضروريّ أن تعيش. إنّه اختيارك الشخصيّ، ولكن إذا اخترتَ أن تعيش، فيجب أن تعيش بوصفك إنسانًا من خلال عمل عقلك وحكمه.

لا، ليس من الضروريّ أن تعيش بوصفك إنسانًا، فالمسألة هي مجرّد فعل اختيار أخلاقيّ. ولكن لا يمكنك أن تعيش كأيّ شيءٍ آخر. والبديل هو تلك الحالة من الموت الحيّ التي تراها الآن بداخلك ومن حولك، حالة شيء غير صالح للوجود، حالة شيء لا يعرف شيئًا سوى الألم ويجرّ نفسه خلال سنوات حياته نحو عذاب التدمير الذاتيّ.

لا، ليس من الضروري أن تفكّر، فالمسألة هي مجرّد فعل اختيار أخلاقيّ. ولكن يجب على شخص مّا أن يفكّر في إبقائك على قيد الحياة. وإذا اخترت التقصيرَ، فأنت مقصّر

في الوجود وتمرّر عجزك إلى إنسان أخلاقيّ تتوقّع منه أن يضحّي بخيره من أجل السماح لك بالبقاء مع شرّك.

لا، ليس من الضروري أن تكون إنسانًا، لكنّ الذين هم كذلك ليسوا هنا الآن. لقد دمّرتَ وسائلَ نجاتك وَحَرَمَتْكَ نَفسُك النجدةَ.

- إذا كنت ترغب في معرفة كيف فعلت ذلك وما دفعهم إلى الاستقالة، فأنت تسمع ذلك الآن. لقد أخبرتهم بالبيان الذي سأدلي به الليلة. كانوا بشرًا عاشوا وفقًا لمدوّنتي الأخلاقيّة، لكنّهم لم يعرفوا الفضيلة العظيمة التي تمثّلها. لقد جعلتهم يرونها. وجلبتهم، لا لإعادة التقييم، بل لتحديد قيمهم، لا غير.

- نحن، أصحاب العقل، نحتجّ الآن ضدّكم باسم حقيقة واحدة، وهي أساس قانوننا الأخلاقيّ، وهي حقيقة أنّ الوجود موجود.

الوجود موجود، وفعل استيعاب هذا البيان يستدعي حقيقتَين بديهيّتين متلازمتَين: أنّ شيئًا مّا موجود ويمكن للفرد إدراكه وأنّ الفرد الموجود يمتلك وعيًا، وأنّ الوعي هو ملكةُ إدراك ما هو موجود.

إذا لم يوجَد شيء مّا، فلا يمكن أن يوجَد وعيٌ، فالوعي الذي لا يملك أيّ شيءٍ هو وعي مزيف. والوعي الذي لا يدرك إلّا نفسه هو أيضًا وعيٌ مزيف. فقبل أن يعرّف نفسه بوصفه وعيًا، كان عليه أن يكون واعيا بشيء مّا. وإذا كان ما تدّعي إدراكَه غير موجود فإنّ ما تمتلكه ليس وعيًا.

ومهما تكن درجة معرفتك فإنّ الوجود والوعي هما من البديهيّات التي لا يمكنك الهروب منها، وهما أوّلويّتان غير قابلتَين للاختزال لأنّهما يكتنفان أيّ فعل تقوم به وأيّ معرفة تمتلكها، ابتداءً من أوّل شعاع ضوئيّ تدركه في بداية حياتك وصولًا إلى أهمّ شيء تكتسبه في آخر عمرك. وسواء أكنت تعرف شكل الحصاة أم بنية النظام الشمسيّ، فإنّ البديهيات تظلّ دومًا كما هي. إنّها موجودة وأنت تعرفها.

أن توجد هو أن تكون شيئا مّا، متميّزا من اللّاشيء، وهو أن تكون كيانًا ذا طبيعة

محدّدة مصنوعة من سمات محدّدة. فمنذ قرون خَلَتْ، حدّد الإنسان -بغضّ النظر عن أخطائه- صيغةً تحدّد مفهوم الوجود: «أ» هي «أ». الشيء هو نفسه. أنت لم تفهم البتّة معنى هذه الصيغة وأنا هنا لأكمل هذه الصيغة: الوجود هو الهويّة، والوعي هو المحدِّد.

وأيًّا كان ما تختار أن تفكّر فيه، سواء كان شيئًا أو صفةً أو فعلًا، فإنّ قانون الهويّة يبقى كما هو. فورقة الشجرة لا يمكن أن تكون حجرًا في الوقت نفسه، ولا يمكن أن تكون كلّها حمراء وخضراء في الوقت نفسه، ولا يمكن أن تتجمّد من البرد وتحترق في الوقت نفسه. «أ» هي «أ».

- هل تسعى إلى معرفة ما هو الخطأ في العالم؟ كلّ الكوارث التي دمّرت العالم يعود سببها إلى محاولة زعمائك التهرّبَ من حقيقة أنّ «أ» هي «أ». وكلّ الشرّ الذي تخشى مواجهته، وكلّ الألم الذي تعاني منه يعود إلى محاولتك التهرّبَ من حقيقة أنّ «أ» هي «أ». وهدفُ أولئك الذين علّموك الهروب من هذه الحقيقة ليس سوى نسيان أنّ الإنسان هو الإنسان.

- لا يستطيع الإنسان البقاء على قيد الحياة إلّا عن طريق اكتساب المعرفة، والعقل هو وسيلته الوحيدة لاكتسابها. والعقل هو الملكة التي تدرك وتحدّد وتدمج الموادّ التي توفّرها حواسّه. ومهمّة الحواس هي أن تمدّه بدليل الوجود، لكنّ مهمّة تحديده تعود إلى العقل، لأنّ مهمّة الحواسّ تتحدّد فقط في إخباره بأنّ شيئًا مّا موجود، ولكنّ ماهية ذلك الشيء يجب أن يتعلّمها معتمدا على قواه العقليّة.

- كلّ تفكير هو عمليّة تحديد وإدماج. يدرك الإنسان نقطة من اللون، من خلال دمج أدلّة البصر واللمس، فيتعلّم تحديدَ تلك النقطة على أنّها جسم صلبٌ. ويتعلّم تحديدَ ذلك الجسم على أنّه طاولة، ويتعلّم أنّ تلك الطاولة مصنوعةٌ من الخشب، ويتعلّم أنّ الخشب يتكوّن من الخلايا، وأنّ الخلايا تتكوّن من جزيئات، وأنّ الجزيئات تتكوّن من ذرّات. ومن خلال هذه العمليّات كلّها، يحاول الإجابة على سؤال واحدٍ:

ما هو هذا الشيء؟ ووسائله لإثبات صدق إجاباته هي المنطق، والمنطق يقوم على بديهية أنّ الوجود موجودٌ. المنطق هو فنّ التحديد غير المتناقض. فلا يمكن للتناقض أن يوجد. فالذرّة هي نفسها، وكذلك الكون، ولا يمكن لأيّ منهما أن يتناقض مع هويّته الخاصّة، ولا يمكن لجزءٍ أن يتناقض مع الكلّ، كما لا يمكن للإنسان أنّ يشكّل مفهومًا صالحًا ما لم يدمجه من دون تناقض في مجموع معارفه. فالوصول إلى تناقض هو الاعتراف بخطإٍ في تفكير المرء، والإبقاء على التناقض هو التخلّي عن عقل المرء وطرد نفسه من عالم الواقع.

- الواقع موجودٌ، أمّا اللّاواقع فهو غير موجودٍ، لأنّ اللّاواقع هو مجرّد نفيٍ للوجود الذي هو مضمون الوعي البشريّ عندما يحاول التخلّي عن العقل. والحقيقة هي الاعتراف بالواقع. والعقل، بوصفه وسيلة المعرفة الوحيدة التي يمتلكها الإنسان، هو معياره الوحيد للحقيقة.

وبغضّ النظر عن مدى اتّساع معرفتك أو مدى تواضعها، فإنّ عقلك هو الذي يجب أن يكتسبها. ولا يمكنك التعامل إلّا مع معرفتك الخاصّة. ومعرفتك الخاصّة فقط هي التي يمكنك أن تدّعي امتلاكها أو تطلب من الآخرين أن يأخذوها بعين الاعتبار. فعقلك هو حكمك الوحيد على الحقيقة، وإذا عارض الآخرون حكمك فإنّه يتوّجب الاحتكام إلى الواقع الذي سيمثّل المحكمةَ التي ستبتّ في الأمر لتصدر الحكم النهائيّ. فلا شيء سوى عقل الإنسان يمكن أن يفكّر. ولا شيء يمكن أن يوجّه تلك العمليّة باستثناء حكمه الخاصّ. ولا شيء يمكن أن يوجّه حكمه باستثناء نزاهته الأخلاقيّة.

وأنت يا من تتكلّم عن «غريزة أخلاقيّة» كما لو أنّها هبة منفصلة ومناقضة للعقل، إنّ عقل الإنسان هو ملكته الأخلاقيّة. وحدَه العقل يستطيع الإجابة على سؤال: صحيح أم خطأ؟ صائب أم خاطئ؟ فهل زراعة بذرة في التربة من أجل النموّ فعل صائب أم خاطئ؟ وهل تطهير جرح إنسانٍ من أجل إنقاذ حياته فعل صائب أم خاطئ؟ وهل عندما تسمح بتحويل طبيعة كهرباء الغلاف الجويّ إلى قوّة حركيّة فعل صائب أم خاطئ؟ إنّ الجواب على هذه الأسئلة يأتي من عقل الإنسان.

- إنّ العمليّة العقلانيّة هي عمليّة أخلاقيّة. ويمكنك أن ترتكب أخطاء في أيّ خطوة من تلك العمليّة. ولا شيء يمكن أن يحول بينك وبينها سوى صرامتك الخاصّة، غير أنّك تستطيع أن تغشّ وتزيّف الأدلّة وتتهرّب من جهد البحث... ولكن إذا كان الإخلاص للحقيقة هو السمة المميّزة للأخلاق، فإنّه لن يكون هناك شيء أعظم وأنبل من فعل الإنسان الذي يتحمّل مسؤوليّة التفكير.

- إنّ ما تسمّيه روحك هو وعيك، وما تسمّيه «الإرادة الحرّة» هو حرّيّة عقلك في التفكير أو عدم التفكير. الإرادة الوحيدة التي ستحظى بها هي أنّك أنتَ من يتحكّم في حياتك وشخصيّتك.

- التفكير هو فضيلة الإنسان الأساسيّة الوحيدة، وهو ما ينطلق منه كلّ الناس. إنّ عيبه الأساسيّ ومصدر كلّ شروره يكمن في ذلك الفعل المجهول الذي تمارسونه كلّكم، ولكنّكم تناضلون دائمًا من أجل عدم الاعتراف به، أقصد هنا فعل التعطيل المتعمّد للوعي ورفض التفكير. إنّ هذا الفعل ليس نابعًا من الجهل، بل من رفض المعرفة. إنّه فعل تشويش على عقلك وفعل ضباب داخليّ يحثّك على الهروب من مسؤوليّة الحكم على فرضيّة غير معلنة، وهي أنّ شيئًا لن يكون موجودًا إذا رفضت التعرّف عليه وتحديده. وعدم التفكير هو فعل من أفعال الإبطال، ورغبة في إنكار الوجود، ومحاولة لمحو الواقع. لكنّ الوجود موجودٌ، ولا ينبغي محو الواقع، لأنّ عمليّة المحو لن تمحو إلّا من يقوم بها. وحين ترفض قول «إنّه موجود» فأنت ترفض قول «أنا موجود». وحين تعلّق حكمك، فأنت تنفي شخصيّتك. وعندما يقول إنسان: «من أنا لأعرف ذلك؟» فهو يقول ضمنيًّا: «من أنا لأعيش على هذا النحو؟».

هذا هو خيارك الأخلاقيّ الأساسيّ في كلّ ساعة وفي كلّ قضيّة: التفكير أو عدم التفكير، الوجود أو عدم الوجود.

وبقدر ما يكون الإنسان عقلانيًّا تكون الحياة هي الفرضيّة التي ستوجّه أفعاله. وبقدر ما يكون الإنسان غير عقلانيّ، يكون الموت هو الفرضيّة التي ستوجّه أفعاله.

- وأنت يا من تثرثر بأنّ الأخلاق اجتماعيّة وأنّ الإنسان لن يحتاج إلى أيّ أخلاقٍ حين يكون في جزيرة صحراويّة، فَلْتَعْلَمْ أنّه عندما يكون في جزيرة صحراويّة سيحتاج إلى الأخلاق أكثر. دعه يحاول المطالبة بدفع ثمنها عندما لا يوجد ضحايا، ويدّعي أنّ الصخرة هي البيت، وأنّ الرمل هو الملابس، وأنّ الطعام سيسقط في فمه دون سبب أو جهدٍ، وأنّه سيجني محصوله غدًا عندما يلتهم مخزون بذوره اليوم، وأنّ الواقع سيمحوه كما يستحقّ، وأنّ الواقع سيظهر له أنّ الحياة هي قيمة ينبغي شراؤها وأنّ التفكير هو عملته النبيلة الوحيدة الكافية لشرائه.

لو كان عليّ أن أوصي الإنسان لقلت: «عليك أن تفكّر». لكنّ «الوصيّة» تتعارض مع العقل. فالأخلاق هي العقلانيّة، والعقل لا يقبل أيّ وصايا.

- إنّ أخلاقي تتلخّص في حقيقة واحدة هي أنّ «الوجود موجود»، وتدور حول خيار واحد وهو «أن أعيش». وكي يعيش الإنسان عليه أن يتسلّح بثلاثة أشياء هي العقل والسعادة واحترام الذات، العقل لأنّه يعتبر وسيلته الوحيدة للوصول إلى المعرفة، والسعادة لأنّها تعتبر غايةَ هذه المعرفة، واحترام الذات، لأنّه هو ما يجعل الإنسان يقتنع بأنّ عقله قادرٌ على التفكير وأنّ شخصه جدير بالسعادة. هذه القيم الثلاث تقتضي كلّ فضائل الإنسان مثل العقلانيّة والاستقلال والنزاهة والصدق والعدالة والإنتاجيّة والفخر.

- العقلانيّة هي الاعتراف بحقيقة أنّ الوجود موجودٌ، وأن لا شيء يمكن أن يغيّر الحقيقة، وأن لا شيء يمكن أن يحظى بالأسبقيّة على فعل إدراكها، وأنّ العقل هو الحكم الوحيد على القيم، وأنّ عقل الفرد هو الدليل الوحيد على الفعل، وأنّ العقل هو المطلق الذي لا يسمح بالتسويات والمساومات، وأنّ التنازل لما هو غير عقلانيّ يبطل وعي المرء ويتحوّل الأمر من مهمّة إدراك الواقع إلى مهمّة تزييفه، وأنّ الطرق المختصرة المزعومة إلى المعرفة، أي الإيمان، هي مجرّد دائرة قصيرة تدمّر العقل، وأنّ قبول اختراع صوفيّ هو محاولة لإبادة الوجود، والقضاء على وعي المرء.

- الاستقلال هو الاعتراف بأنّ استقلالك مسؤوليّة الحكم، وأن لا شيء يمكن أن يساعدك على الهروب منه، وأنّه لا يوجد بديل آخر يستطيع أن يعوّض تفكيرك، وأنّ أحطّ أشكال التحقير والتدمير الذاتيّ هي تبعيّة العقل لعقل آخر، وقبول الوصاية على العقل، وأنّ كلمته الفصل هي الحقيقة، وأنّ مراسيمه سارية عليك بوصفها وسيطًا بين وعيك ووجودك.

- النزاهة هي الاعتراف بحقيقة أنّك لا تستطيع تزييفَ وعيك، تمامًا مثلما يكون الصدق هو الاعتراف بحقيقة أنّك لا تستطيع تزييفَ وجودك؛ وأنّ الإنسان جزء لا يتجزّأ من وحدة متكاملة تتكوّن من سمتَين أساسيّتين هما المادّة والوعي؛ وأنّه قد لا يسمح بأيّ خرق بين الجسد والعقل، وبين الفعل والفكر، وبين حياته وقناعاته؛ وأنّ شأنه شأن القاضي حين يكون منيعًا من تأثيرات الرأي العامّ، فلا يستطيع أن يضحّي بقناعاته من أجل رغبات الآخرين، حتّى لو كان الناس جميعًا يقفون ضدّه؛ وأنّ الشجاعة والثقة هي حاجيات عمليّة، وأنّ الشجاعة هي النموذج العمليّ لأن يكون المرء صادقًا مع وجوده، وصادقًا مع الحقيقة، وأنّ الثقة هي النموذج العمليّ لأن يكون المرء صادقًا مع وعيه.

- الصدق هو الاعتراف بحقيقة أنّ اللّاواقع غير واقعيّ. ومن ثمّ، فهو لا يحظى بأيّ قيمةٍ؛ وبأنّ الحبّ والشهرة والمال أشياء لا تحظى بأيّ قيمةٍ إذا تمّ الحصول عليها عن طريق الاحتيال؛ وأنّ محاولة اكتساب قيمةٍ عن طريق خداع عقل الآخرين هي فعلٌ من أفعال رفع ضحاياك إلى وضعٍ أعلى من الواقع، فتصبح بيدقًا لعماهم، بينما يصبح ذكاؤهم وعقلانيّتهم وإدراكهم أعداء تخشاها وتهرب منها، وأنّك لا تكترث بالعيش كتابع أو أقلّ من ذلك.. وأنّ الصدق ليس واجبًا اجتماعيًّا، وليس تضحيةً من أجل الآخرين، بل هو الفضيلة الأكثر أنانيّة على نحو عميق، لأنّه يرفض من خلالها التضحية بواقع وجوده لصالح الوعي المضلّل للآخرين.

- العدالة هي الاعتراف بحقيقة أنّك لا تستطيع تزييفَ سجيّة البشر تمامًا كما لا يمكنك تزييف سجيّة الطبيعة؛ وأنّ عليك أن تحكم على جميع البشر بضمير حيٍّ مثلما

تحكم على الأشياء الجامدة باحترام الحقيقة نفسه، من خلال عمليّة تحديد نقيّة وعقلانيّة؛ وأنّه يجب الحكم على كلّ إنسان انطلاقًا ممّا هو عليه وأن يعامَل وفقًا لذلك؛ ومثلما أنّك لا تدفع أعلى سعرٍ في قطعة صدئة من الخردة بل في قطعة من المعدن اللّامع، فإنّه ينبغي ألّا تعتبر أيّ إنسان فاسدٍ أعلى قيمةً من أيّ بطل؛ وأنّ تقديرك الأخلاقيّ هو العملة التي تدفعها مقابل فضائل البشر أو عيوبهم؛ وأنّ ما تدفعه يتطلّب منك شرفًا شديد التدقيق مثل الذي تحتاج إليه في المعاملات الماليّة؛ وأنّ عدم ازدرائك لعيوب البشر هو نوع من التزوير الأخلاقيّ، وعدم تعبيرك عن الإعجاب بفضائلهم هو نوع من الاختلاس الأخلاقيّ؛ وأنّك عندما تضع أيّ مشغل آخر في مكانة أعلى من العدالة فإنّك تقلّل من قيمة عملتك الأخلاقيّة مقابل الاحتيال على الخير لصالح الشرّ، لأنّ الخير وحدَه هو ما سيخسر بسبب التقصير في العدالة، وفي مقابل ذلك يربح الشرّ؛ وأنّه في قاع تلك الحفرة عند نهاية هذه الطريق، يكمن فعل الإفلاس الأخلاقيّ في معاقبة البشر من أجل فضائلهم ومكافأتهم على رذائلهم؛ وأنّ ذلك هو انهيار البشريّة التامّ، ذلك القدّاس الأسود الذي يعبد الموت، ويكرّس وعيَك لتدمير الوجود.

- الإنتاجيّة هي قبولك الأخلاقَ، واعترافك بحقيقة أنّك اخترت أن تعيش؛ وأنّ العمل المنتج هو العمليّة التي من خلالها يتحكّم وعي الإنسان في وجوده، وهي عمليّة مستمرّة وثابتة لاكتساب المعرفة وتشكيل المادّة حتّى تناسب هدفَ المرء، من خلال تحويل الفكرة إلى شكل ماديّ، وإعادة تشكيل الأرض وفق صورة قيم المرء؛ وأنّ كلّ عمل هو إبداعيّ إذا أنتجه عقلٌ مفكّر؛ وأنّه لا يوجد عمل إبداعيّ إذا أنتجه إنسان تافه يكرّر في ذهول روتينًا تعلّمه من الآخرين؛ وأنّ العمل الخاصّ بك هو ذلك الذي تختاره؛ وأنّ الاختيار واسع تمامًا مثل عقلك؛ وأنّك عندما تغشّ وأنت في طريقك إلى وظيفة أكبر من قدراتك العقليّة تصبح مثل قرد يلتهمه الخوف من الحركات البهلوانيّة؛ وأنّك عندما تستقرّ في وظيفة تتطلّب منك قدرةً عقليّة أقلّ بكثير ممّا تملكه فإنّك تحكم على نفسك بالاضمحلال؛ وأنّ العمل الخاصّ بك هو عمليّة تحقيق القيم الخاصّة بك؛

وأنّك عندما تضيّع طموحك في القيم فإنّك تخسر طموحك في العيش؛ وأنّ جسمك آلةٌ، لكنّ عقلك هو السائق؛ وأنّك يجب أن تقود إلى أبعد نقطة سيأخذك إليها عقلك؛ وأنّ الإنسان الذي لا يملك أيّ هدفٍ هو آلة تسلك منحدرًا ستتحطّم فيه تحت رحمة أيّ صخرة طائشة؛ وأنّ الإنسان الذي يكبّل قواه العقليّة هو بمثابة آلة معطّلة يتربّص بها الصدأ؛ وأنّ الإنسان الذي يترك الزعيم يحدّد مسارَه هو حطامٌ يُسحَب إلى كومة الخردة؛ وأنّ الإنسان الذي يجعل من إنسانٍ آخر هدفًا له هو مجرّد مسافر متطفّل يجب على أيّ سائق ألّا ينتشله من الطريق؛ وأنّ عملك هو هدف حياتك، وأنّك يجب أن تتجاوز بسرعةٍ أيّ قاتل يمنح نفسَه الحقّ في إيقافك؛ وأنّ أيّ قيمة قد تجدها خارج عملك، وأيّ ولاء أو حبّ آخر يمكن أن يكون فقط بمثابة المسافرين الذين تختار أن يتقاسموا معك الطريق، ويجب أن يكونوا مسافرين يعتمدون في رحلتهم على قوّتهم الخاصّة.

- الفخر هو الاعتراف بحقيقة أنّك تمثّل في حدّ ذاتك القيمةَ العليا لنفسك. وعلى غرار كلّ قيم الإنسان الأخرى، فإنّ عليك أن تكتسبها، أي أنّ أيّ منجزات تقوم بها هي من ابتكارك؛ وأنّ شخصيّتك وأفعالك ورغباتك وعواطفك هي نتاج الفرضيّات التي يمتلكها عقلك؛ وأنّه مثلما يجب على الإنسان أن ينتج القيم المادّيّة التي يحتاج إليها للحفاظ على حياته، فإنّ عليه اكتسابَ القيم الشخصيّة التي تجعل حياته تستحقّ أن يحافَظ عليها؛ وأنّ العيش يتطلّب شعورًا بالقيمة الذاتيّة، ولكنّ الإنسان الذي لا يملك قيمًا لا يمكن أن يمتلك شعور الاعتزاز بالذات؛ وأنّه يجب أن يكسبه عبر تشكيل نفسه وفقًا لصورة مثله الأخلاقيّة، ووفقًا لصورة الإنسان، ذلك الكائن العاقل الذي ولد معه منذ البدء، لكنّه يجب أن يبدع باختياره؛ وأنّ أوّل شرط مسبّق للاعتزاز بالذات يكمن في أنانيّة الروح المتألّقة التي ترغب في الأفضل في كلّ شيء، في قيم المادّة والروح، تلك الروح التي تسعى قبل كلّ شيء إلى تحقيق أهدافها الخاصّة، فلا تعتبر شيئًا أعلى من نفسها؛ وأنّ البرهان على تحقيق اعتزازك بذاتك هو ما يجعل روحك ترتعد من الازدراء والتمرّد بسبب انتحال صفة كبش الفداء، وضدّ الوقاحة الخسيسة لأيّ عقيدة

تقترح التضحية بالقيمة التي لا يمكن أن تعوّض ولا يمكن الاستغناء عنها، والتي هي وعيك الخاصّ وتقديم مجدك الذي لا يضاهيه أيّ مجدٍ آخر، مجدك الذي هو وجودك وما يمثّله للمراوغات العمياء وتعفّن الآخرين الراكد.

هل بدأتم تستوعبون حقيقة جون جالت؟ أنا الرجل الذي حصل على شيء لا تقاتلون من أجله، الشيء الذي نبذتموه وخنتموه وأفسدتموه، ولكنّكم كنتم غير قادرين على تدميره بالكامل، وأنتم الآن تختبئون مثل ذنبكم السرّي وتقضّون حياتكم في الاعتذار من كلّ محترفٍ آكل للحوم البشر خشيةَ أن تكتشفوا أنّه في مكان مّا بداخلكم. أنتم ما تزالون في شوق إلى قول ما أقوله الآن على مسمع من البشريّة جمعاء: أنا فخور بقيمة ذاتي وبحقيقة أنّني أرغب في الحياة.

هذه هي الأمنية التي تتقاسمونها معي، لكنّكم تكتمونها لأنّكم تحسبونها شرًّا. هي بقايا الخير الوحيدة بداخلكم، لكنّها أمنية يجب أن يستحقّها المرء. إنّ السعادة هي الهدف الأخلاقيّ الوحيد للإنسان، لكن وحدَها فضيلته الخاصّة تستطيع أن تحقّقها. والفضيلة ليست غاية في حدّ ذاتها. فالحياة هي مكافأة الفضيلة، والسعادة هي هدف الحياة ومكافأتها.

ومثلما أن لجسدك إحساسيَن أساسيّين هما المتعة والألم فإنّ لوعيك أيضًا عاطفتَين أساسيّتين هما الفرح والمعاناة. فعواطفك هي تقديرات لما يعزّز حياتَك أو يهدّدها. وليس لديك خيار بشأن قدرتك على الشعور بأنّ شيئًا مّا جيّد أو سيّئ، ولكنّ مّا ستعتبره خيرا أو شرّا هو ما سيعطيك الفرح أو الألم. وما ستحبّه أو تكرهه يعتمد على مستوى قيمتك. فالعواطف متأصّلة في طبيعتك، لكنّ محتواها يُملِيه عليك عقلك. وقدرتك العاطفيّة محرّكٌ فارغ وقيمك هي الوقود الذي يزوّده به عقلك. وإذا اخترت مزيجًا من التناقضات، فإنّك ستعيق محرّكك، وستتسبّب في تآكل ناقل حركتك وستعيق أولى محاولاتك للتحرّك بوصفك سائقًا لآلة أنت من أفسدها.

وإذا كنت تعتمد على اللّاعقلاني معيارًا لقيمتك والمستحيل مفهومًا للخير، وإذا

كنت تتوق إلى المكافآت التي لا تستحقّها، وإلى الثروة أو الحبّ الذي لا تستحقّه وإلى إيجاد ثغرة في قانون السببيّة، وتتوق إلى ألّا تكون «أ» هي «أ»، وإذا كنت ترغب في عكس الوجود، فسوف تصل إليه. لكن لا تحتجّ عندما تصل إليه، وتقول إنّ الحياة هي الإحباط، وإنّ السعادة حالةٌ لا يمكن للإنسان الوصول إليها. فتحقّق من أنّ وقودك قد حملك إلى حيث تريد الذهاب.

- السعادة يجب ألّا تقودها نزوات عاطفيّة، لأنّ السعادة لا تسعى إلى إرضاء أيّ رغبات غير عقلانيّة قد تحاول بشكل أعمى أن تنغمس فيها. السعادة هي حالة من الفرح غير المتناقض، ذلك الفرح الذي يتحقّق بلا عقابٍ أو ذنبٍ، والفرح الذي لا يتعارض مع أيّ قيمةٍ من قيمك، ولا يعمل على تدمير نفسك، وليس الفرح الذي يقوم على الهروب من عقلك، بل يقوم على استخدام عقلك على أكمل وجه لبلوغ أقصى قوّته، وليس الفرح من تزييف الواقع، ولكن الفرح من تحقيق قيم الواقع، وهو لا يشبه فرحة السكّير الثمل، بل يشبه فرحةَ المبدع المنتج. والسعادة ممكنة فقط لإنسان عقلانيّ، ذلك الذي لا يرغب في شيء غير الأهداف العقلانيّة، ولا يسعى وراء أيّ شيء سوى القيم العقلانيّة، ولا يجد فرحته في شيءٍ سوى الأفعال العقلانيّة.

وبما أنّني أعتمد على قدراتي فإنّ سعادتي ليست صدقةً يرميني بها الآخرون. ثمّ إنّني لا أعتبر متعة الآخرين هدفًا لحياتي، لذلك لا أعتبر سعادتي هدفًا لحياة الآخرين. ثمّ إنّه لا وجود لتناقضات في القيم ولا لصراعات بين رغباتي كي لا يكون هناك ضحايا أو أيّ تضارب في المصالح عند الناس العقلانيّين، الذين لا يرغبون في أشياء لا يستحقّونها، ولا ينظرون بعضهم إلى بعضٍ بشبق آكلي لحوم البشر، إنّهم أناس لا يقدّمون التضحيات ولا يقبلونها من أحدٍ.

- إنّ الرمز الأخلاقيّ لاحترام الكائنات البشريّة هو التاجر، لأنّ التاجر إنسان يكسب ما يحصل عليه ولا يستجدي أحدًا. إنّه لا يطلب أيّ مقابل إذا فشل، ولا يطلب أن يكون محبوبًا. إنّه لا يتاجر إلّا في القيم المادّيّة.. والطفيليّات الصوفيّة، أولئك الذين كانوا، على مرّ العصور، يلعنون التجّار ولا يكنّون لهم إلّا الاحتقار والازدراء، في

مقابل تكريم المتسوّلين واللصوص، كانوا يُخفُون السبب الذي يكمن وراء احتقارهم وهو أنّ التاجر رجل حقّ وعدالة.

هل تودّون معرفة الالتزام الأخلاقيّ الذي أدين به لبني جلدتي من البشر؟ إنّه لا شيء ما عدا الالتزام الذي أدين به لنفسي، وللأشياء المادّيّة وللوجود كلّه: أي العقلانيّة. فأنا أتعامل مع الناس وفقًا لما تمليه طبيعتي وطبيعة مطالبهم. وأنا لا أبحث عن شيء، ثمّ إنّي لا أريد منهم أيّ شيءٍ سوى تلك العلاقات التي يبرمونها بمحض إرادتهم. فأنا لا أستطيع التعامل إلّا مع عقولهم، ثمّ إنّي أتعامل معهم فقط من أجل مصلحتي الشخصيّة. ومصدر ربحي هو المنطق، فأنا لا أستسلم إلّا للمنطق. وأنا لا أتخلّى عن عقلي، ولا أتعامل مع الناس الذين قبلوا بالوصاية. ليس لديّ شيء أكسبه من الحمقى أو الجبناء، ولا أرجو أيّ خير من أنذال الناس. والقيمة الوحيدة التي يستطيع الناس تقديمها لي هي العمل الذي يكون موجّهًا من العقل. وعندما أختلف في الرأي مع إنسان عقلانيّ، فإنّني أحكّم الواقع بوصفه الحكم النهائيّ بيننا، وإذا كنتُ محقًّا، فإنّ من يخالفني الرأي سيتعلّم، وإذا كنت مخطئًا، فإنّني سأتعلّم، وسيفوز أحدنا، لكن سنربح معًا.

ومهما يكُن موضوع الخلاف، فهناك فعل شرّير واحد لا يجوز لأحد أن يرتكبه ضدّ الآخرين ولا يجوز لأحد أن يسمح به أو يغفره وهو أن يستخدم إنسانٌ القوّة المادّيّة ضدّ الآخرين.

وأيًّا كان من يبدأ باستخدام القوّة، ومهما يكن هدفه أو مداه، فهو قاتل لأنّه يدمّر قدرة الإنسان على الحياة.

إنّ القوّة والعقل فعلان متناقضان، والأخلاق تنتهي حيث يبدأ السلاح. وعندما تقول إنّ البشر حيوانات غير عقلانيّة وتقترح أن تعاملها على هذا النحو، فإنّك تعرّف بذلك شخصيّتك الخاصّة، ولا يمكنك على هذا النحو المطالبة بمعاقبة العقل، مثلما لا يمكن لأيّ مدافع عن التناقضات المطالبة به. فلا يمكن أن يوجد حقّ في تدمير مصدر

جميع الحقوق، لأنّ الوسيلة الوحيدة للحكم على ما هو صائب أو خاطئ هي العقل.

أن تكره الإنسانَ على تجميد قواه العقليّة وأن يطيع إرادتك، برفع السلاح بدلًا من استخدام القياس العقليّ وباستعمال الإرهاب بدلًا من البرهان، هو تحدٍّ للواقع. والواقع يتطلّب أن يعمل الإنسان من أجل مصلحته العقلانيّة وبندقيّتك تطلب منه أن يعمل ضدّها. فالواقع يهدّد الإنسان بالموت إلّا إذا لم يتصرّف بناءً على حكمه العقلانيّ، وأنت تهدّده بالموت إذا فعل ذلك. إنّك تزجُّ به في عالم يُحتّم عليه، إذا أراد الحياة، أن يتخلّى عن جميع الفضائل التي تتطلّبها الحياة. إنّ الموت هو كلّ ما سيؤدّي إليه نظامك.

وسواء تعلّق الأمر بقاطع طريق يوجّه إلى مسافر الإنذار النهائيّ: «مالك أو حياتك» أو بسياسيّ يواجه بلدًا بأسره بالإنذار النهائيّ: «تعليم أطفالك أو حياتك»، فإنّ معنى ذلك الإنذار هو: «عقلك أو حياتك» ولا أحد منهما يحظى عند الإنسان بقيمةٍ في غياب الآخر.

وإذا كانت للشرّ درجاتٌ متفاوتة، فإنّ من الصعب الجزم بأيّها أكثر وضاعةً: أهو المتوحّش الذي يتبنّى الحقّ ليستنزف قدرات الآخرين أم هو الإنسان المنحطّ الذي يمنح الآخرين الحقَّ في استنزاف قدراته العقليّة. وهذا هو المبدأ الأخلاقيّ المطلق الذي لا يقبل المناقشة. فأنا لا يمكن أن أتعامل بالمنطق مع أشخاص يسعون إلى تكبيل عقلي. وأنا لا أتجادل إطلاقًا مع جيران يعتقدون أنّهم يستطيعون مَنْعِي من التفكير. وأنا لا أسمح بمعاقبتي أخلاقيًّا على رغبة القاتل في قتلي. وعندما يحاول إنسانٌ التعامل معي بالقوّة، فإنّي سأتعامل معه بالمثل.

لا يمكن استخدام القوّة إلّا من أجل الثأر، ولا يجوز استخدامُها إلّا ضدّ إنسان يبدأ باستخدامها. لا، أنا لا أشاركه شرَّه ولا أقاسمُه المفهوم الأخلاقيّ ذاته. أنا أمنحه فقط الخيارَ الذي يرتضيه وهو الدمار. إنّه يستخدم القوّة للاستيلاء على القيمة، أمّا أنا فأستخدمها فقط لتدمير الدمار. فالسارق الذي يسعى إلى الكسب عن طريق قتلي، لن

يجعلني أكثر ثراءً إذا قتلته. فأنا لا أسعى إلى أيّ قيمٍ عن طريق الشرّ، ولا أسلّم الشرَّ قيمي.

وباسم كلّ المنتجين الذين أبقوكم على قيد الحياة أقول لكم: إمّا عملُنا أو بنادقكم. ولكم أن تختاروا بينهما، لكن لا يمكنكم الجمع بينهما. ونحن لا نستخدم القوّة ضدّ الآخرين مثلما أنّنا لا نستسلم حين يلجؤون إلى القوّة. وإذا كنتم ترغبون مجدّدًا في العيش في مجتمع صناعيّ، فإنّه سيتحتّم عليكم الامتثال لشروطنا الأخلاقيّة. وبالمناسبة، فشروطنا وقوّة دافعنا هي نقيض شروطكم وقوّة دوافعكم. لقد كنتم تستخدمون الخوفَ سلاحًا، وتقتلون أيّ إنسان لا يلتزم بمبادئكم الأخلاقيّة. أما نحن فنعد بالحياة كلَّ إنسان يلتزم بمبادئنا الأخلاقيّة.

أنتم، يا من تعبدون الصفر، لن تكتشفوا أبدًا أنّ تحقيق الحياة لا يعادل تجنّب الموت؛ وأنّ الفرح لا يعني «انعدام الألم»؛ وأنّ الذكاء لا يعني «انعدام الغباء»؛ وأنّ النور لا يعني «انعدام الظلام»؛ وأنّ الكائن لا يعني «غياب اللّاكائن»؛ وأنّ البناء لا يعني «الامتناع عن الهدم»؛ وأنّ قرونًا من الجلوس والانتظار في مثل تلك العفّة والقناعة والكسل لن ترفع عارضةً واحدة أو تشيّد مبنًى. لم يعد في وسعكم الآن أن تقولوا لي، أيّها البنّاء: «أنتج، وأطعمنا مقابل عدم تدمير إنتاجك» فأنا أجيبكم اليوم باسم كلّ ضحاياكم: اهلكوا وموتوا في فراغكم الخاصّ. فالوجود ليس نفيًا لكلّ السلبيّات. والشرّ هو الغياب والنفي، بل إنّ الشرّ عاجز ولا يملك من قوّةٍ إلّا تلك التي نتركها تُنتَزع منّا. اهلكوا، لأنّنا تعلّمنا أنّ الصفر لا يمكن أن يجعلنا أحياء.

– أنتم تسعون إلى الهروب من الألم. ونحن نسعى إلى تحقيق السعادة. أنتم موجودون من أجل تجنّب العقاب، أمّا نحن فموجودون من أجل كسب المكافآت. لن ترهبنا التهديدات ولن تضغط علينا لكي نعمل وننتج. ونحن لا نرغب في تجنّب الموت، بل نرغب في الاسمتاع بالحياة.

– أنتم، يا من أضعتم مفهوم الاختلاف، أنتم يا من تدّعون أنّ الخوف والفرح حوافزُ

تحظى بالقوّة نفسها، بل تؤكّدون سرًّا أنّ الخوف هو أكثر الحوافز فعاليّة. أنتم لا ترغبون في الحياة، ووحدَه الخوف من الموت ما يزال يحملكم إلى الوجود الذي تكيلون له اللعنات. أنتم تعيشون في حالة من الذعر والهلع، وتحاولون التهرّب من الفخّ الذي نصبتموه في أيّامكم، وتبحثون عن المخرج الذي أغلقتموه، وتهربون من مطارد كنتم لا تجرؤون على تسميته نحو الإرهاب الذي لا تجرؤون على الاعتراف به. وكلّما كان رعبكم أكبر، ازدادَ خوفُكم من الفعل الوحيد الذي يستطيع أن ينقذكم وهو التفكير. فالهدف من كفاحكم ليس إلّا تجنّب سماع الحقيقة التي سأجهر بها أمامَكم وهي أنّ أخلاقكم هي أخلاق الموت.

الموت هو معيار قيمكم. الموت هو هدفكم الأسمى. وعليكم أن تواصلوا الهروبَ، بما أنّه لا مفرّ من المطارد الذي يسعى إلى تدميركم. توقّفوا عن الجري ولو مرّةً واحدة، لأنّه لا يوجد مكان تلوذون به.

الإدانة هي بداية أخلاقكم، والدمار هو وسيلتها وغايتها. قانونكم يحكم على الإنسان بأنّه شرّير، ثمّ يطالبه بممارسة الخير الذي يحدّده له على أنّه أمرٌ تستحيل ممارسته. إنّه يطالب، كأوّل دليلٍ للإنسان على الفضيلة، بأن يقبل الإنسان بفساده الخاصّ من دون أيّ دليل. إنّه يطالب بأن يبدأ الإنسان، لا بمستوى من القيمة، بل بمعيار من الشرّ. ومن ثمّ، يحدّد من خلاله الخير، ذلك الخير الذي تزعمون أنّه ليس متأصّلًا في الإنسان.

ولا يهمّ من سيصبح عندئذ المستفيدَ من نبذه لمجده وروحه المعذّبة، هل سيكون إلهًا صوفيًا بتصميم غير مفهوم أو أيّ عابر سبيل تعتبرون قروحه المتعفّنة ادّعاءً.. لا يهمّ، فهو ليس معنيًّا بفهم الخير، بل واجبه هو أن يكفّر عن ذنب وجوده أمام أيّ جامع ضالّ للديون المبهمة. إنّه لا يحظى بأيّ مفهوم للقيمة، فالخير هو اللّاإنسان.

إنّ اسم هذه السخافة البشعة والعبثيّة هو الخطيئة الأصليّة. وأيّ خطيئة من دون إرادة تعتبر صفعة موجّهة إلى الأخلاق، لأنّ ما يقع خارج إمكانيّة الاختيار يقع خارج

نطاق الأخلاق. فإن كان الإنسان، حتّى قبل ميلاده، شرّيرًا، فإنّه لا يملك أيّ إرادة أو قوّة لتغيير ذلك. وإن كان لا يملك أيّ إرادة فإنّه لا يمكن أن يكون لا خيّرًا ولا شرّيرًا؛ فالروبوت مثلا كيان غير أخلاقيّ. وأن يحمل المرء حقيقةً ليست مفتوحة على اختياره فذلك نوع من التهكّم من الأخلاق. وأن تحمل طبيعة الإنسان على أنّها خطيئته فذلك نوع من السخرية من الطبيعة. ومعاقبته على جريمة لم يرتكبها قبل ولادته هي سخرية من العدالة. واتّهامه بذنب لم يقترفه هو سخرية من العقل. وتدمير الأخلاق والطبيعة والعدالة والعقل من خلال مفهوم واحدٍ هو عمل شرّير لا يمكن مقارنته بأيّ عمل آخر. ومع ذلك هذا هو أصل قانونكم الأخلاقيّ.

فلا تحاولوا إيهامَ الناس بالقول إنّ الإنسان يولد بإرادة حرّةٍ، ولكنّه يتمتّع بنزوع نحو الشرّ. لأنّه إذا كان عند الإنسان نزوعٌ إراديّ نحو الشر، فإنّ هذا النزوع لا يمكن أن يمتلكه منذ الولادة، أمّا إذا لم يكن من اختياره، فإنّ إرادته ليست حرّةً.

ما طبيعة الذنب الذي تطلقون عليه اسم الخطيئة الأصليّة؟ وما الشرور التي اكتسبها الإنسان منذ أن طُرد آدم من ملكوت الله؟ أسطورتهم تقول إنّه أكل من شجرة المعرفة، فاكتسبَ عقلًا وأصبح كائنًا عقلانيًّا. لقد كانت شجرة معرفة الخير والشر، وبفضلها أصبح كائنًا أخلاقيًّا. لقد حُكم عليه بأن يكسب قوتَه من خلال عمله، فأصبح كائنًا منتجًا. وحُكم عليه بالرغبة، فاكتسب القدرة على التمتّع الجنسيّ. إنّ الشرور التي ترون أنّ الإنسان اكتسبها منذ الخطيئة الأولى هي العقل والإبداع والفرح، وهذه، كما ترون، ليست شرورًا. إنّ أسطورتهم عن سقوط الإنسان مصمّمةٌ لا على تفسير رذائل الإنسان وعيوبه وأخطائه وإدانة ذلك، بل هي تشرح جوهرَ طبيعته من حيث هو إنسان. وكيفما كانت طبيعته، فقد كان ذلك الروبوت الذي وُجِدَ في جنّة عدن بلا عقلٍ أو قيمٍ أو عمل أو حبّ، أي أنّه لم يكن إنسانًا.

يقول معلّموكم إنّ سقوط الإنسان إنّما يعود إلى أنّه اكتسب الفضائل المطلوبة للعيش. وتلك الفضائل، من منظورهم، هي خطيئته. ويقولون إنّه شرّير لأنّه إنسان، ومذنب لأنّه حيٌّ. وهذا ما يسمّونه أخلاق الرحمة وعقيدة حبّ الإنسان.

ولا يقولون فحسب إنّهم لا يقدّمون المواعظ التي تدّعي أنّ الإنسان شرير، لأنّ الشرّ يكمن فقط في جسده. بل يقولون أيضًا إنّهم لا يرغبون في قتل الإنسان، بل يسعون فقط إلى ترويض جسده. ويزعمون أنّهم يساعدون الإنسان على التخلّص من الألم، ويشيرون إلى آلة التعذيب التي قيّدوه بها، تلك الآلة التي تسحبه في اتّجاهين متعاكسين، تارة باتّجاه روحه وتارة أخرى باتّجاه جسده.

لقد مزّقوا الإنسان إلى جزأين، وجعلوا كلّ جزء في صراع مع الآخر. وعلّموه أنّ جسده ووعيه عدوّان متورّطان في الصراعات الفتّاكة، وأنّهما خصمان من طبائع متناقضة، ومطالب متباينة، وحاجيات غير متوافقة، وأنّه للاستفادة من إحداهما يجب إقصاء الأخرى، وأنّ روحه تنتمي إلى عالم خارق، لكنّ جسده ينتمي إلى الأرض المدنّسة، وأنّ الخير يكمن في هزم الجسد، وتقويضَه عبر سنوات من النضال الصبور، وشقّ طريقه إلى ذلك الذي سيفكّ سجنه المجيد ويؤدّي به إلى القبر.

لقد علّموا الإنسان أنّه شخصٌ غير كفء ومصنوع من عنصرين يرمزان معًا إلى الموت. فالجسد بلا روح هو عبارة عن جثّة، والروح بلا جسد هي عبارة عن شبح. إنّهم ينظرون إلى الإنسان بوصفه ساحةَ صراع بين جثّة وشبح، جثّةٍ مُنِحَت إرادة شرّيرة من تلقاء نفسها، وشبحٍ مُنِحَ العلمَ بأنّ كلّ شيء معلوم للإنسان هو غير موجود وأنّ المجهول هو العنصر الوحيد الموجود.

هل تلاحظون أيّ ملكة بشريّة تتجاهلها هذه العقيدة؟ لقد كان عليهم إبطال عقل الإنسان للدفع به إلى الانهيار. وما إن سلّم العقل، حتّى تُرِك تحت رحمة وحشَين لم يتمكّن من استيعابهما أو السيطرة عليهما، وهما جسد يتحرّك بغرائز غير خاضعة للمساءلة، وروح يحرّكها وحيٌ غامض. لقد ترك كضحيّة مدمّرة بشكل سلبيّ لمعركة بين روبوت وجهاز ديكتافون.

وبينما يزحف الآن بين الحطام، يتحسّس بشكلٍ أعمى طريقه للعيش، فإنّ معلّميكم يعرضون عليه المساعدة من الأخلاق التي تقول إنّه لن يجد أيّ حلّ ويجب ألّا يسعى

إلى تحقيق أيّ إنجاز على الأرض. ويخبرونه بأنّ الوجود الحقيقيّ هو ذلك الذي لا يستطيع إدراكَه، وأنّ الوعي الحقيقيّ ملكةٌ غير موجودة، وأنّه إذا لم ينجح في فهمه، فإنّ هذا الأمر دليلٌ على أنّ وجوده شرّير ووعيَه عاجزٌ.

وكنتيجة للانقسام بين روح الإنسان وجسده، يوجد نوعان من معلّمي أخلاقيّات الموت وهما المثاليّون والمادّيّون، أولئك الذين يؤمنون بالوعي من غير وجود وأولئك الذين يؤمنون بالوجود من غير وعي. وكلاهما يطلبان منك ألّا تُعمِل عقلك، أحدهما يودّ أن تؤمن بآرائهم، والآخر يودّ أن تؤمن بأفعالهم. إنّ قواعدهما الأخلاقيّة متشابهة وكذا أهدافهما، فهما يسعيان إلى استعباد جسد الإنسان والتهام روحه وتدمير عقله.

إنّ الخير، من منظور الاتّجاه المثاليّ، هو الله الذي لا يستطيع الإنسان أن يصل إلى منزلته، لأنّه يتجاوز كلّ قدراته، وهو تعريف يتناقض مع وعي الإنسان، ويبطل كلّ مفاهيمه عن الوجود. أمّا الخير، من منظور الاتّجاه المادّيّ، فهو المجتمع، وهو كائن حيٌّ لا يمتلك أيّ شكل مادّيّ، كائن خارق يتجسّد في الجميع ولا يتجسّد في أيّ شخص بعينه. ويرى الاتّجاه المادّيّ أن عقل الإنسان يجب أن يخضع لإرادة الله. أمّا الاتجاه المادّيّ فيرى أن عقل الإنسان يجب أن يخضع لإرادة المجتمع. ومعيار الإنسان للقيمة، عند الاتّجاه المثالي، هو متعة الله الذي تتجاوز معاييره قدرة الإنسان على الفهم ويجب أن يؤمن بها. ومعيار الإنسان للقيمة، عند الاتّجاه المادّيّ، هو متعة المجتمع الذي تتجاوز معاييره حقّ الإنسان في الحكم ويجب أن يُطاع كمطلق أساسيّ. والهدف من حياة الإنسان، من منظورهما معًا، هو أن يتحوّل إلى عبدٍ يخدم هدفًا لا يعرفه. ويرى الاتّجاه المثاليّ أنّه سيحصل على جزائه بعد الموت. في حين يرى الاتّجاه المادّي أنّه سيحصل على جزائه في هذه الحياة.

ويؤكّد هذا الاتّجاهان أنّ الأنانية شرٌّ، وأنّ الخير يتجلّى في القناعة والرضا والاستسلام. إنّ الخير هو التضحية التي تعدُّ أسمى فضيلةٍ ينبغي أن يسعى الإنسان إليها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

إنّ ما دمّركم هو فضيلة التضحية. حاولوا الآن أن تعدّدوا كلّ عواقبها. ما تزال أمامكم فرصة للنجاة.

إنّ «التضحية» لا تعني رفضَ ما لا قيمة له، ولكنّها تعني رفضَ ما هو غالٍ ونفيس. و«التضحية» لا تعني رفض الشرّ من أجل الخير، ولكنّها تعني رفض الخير من أجل الشر. و«التضحية» هي أن تتخلّص ممّا هو قيّم من أجل شيء لا يحظى بأيّ قيمة.

فإذا استبدلت بنسًا بدولار، فهذه ليست تضحية. لكن إذا استبدلت دولارًا ببنس واحد، فهذه تضحية. وإذا حققّت الوظيفة التي تريدها، بعد سنوات من الكفاح والعناء، فإنّ ذلك لا يعتبر تضحية. لكن إذا كنت ستتنازل عنها من أجل منافسٍ، فهذه هي التضحية. وإذا كنت تملك زجاجةً من الحليب وأعطيتها لطفلك الجائع، فهذه ليست تضحية، لكن إذا أعطيتها لطفل جارك وتركت طفلك يموت، فهذه هي التضحية. وإذا تصدّقت على قريب، فهذه ليست تضحية، لكن إذا تصدّقت على بعيدٍ، فهذه هي التضحية. وإذا أقرضت صديقَك مالًا لست في أمسّ الحاجة إليه، فهذا السلوك لا يعتبر تضحية. أمّا إذا أقرضته وأنت في ضيق، فهذه هي التضحية. وإذا زهدت في الدنيا ووهبت حياتك لأولئك الذين تحبّهم، فأنت لم تضحِّ بالشكل اللّازم، لكن إذا كرّست حياتك للغرباء، فأنت تسمو في مدراج الفضيلة. أمّا إذا كرّست حياتك لخدمة البشر الذين تكرههم، فهذه أعظم الفضائل التي يمكنك ممارستها.

إنّ التضحية هي التنازل عن قيمة مّا. والتضحية الكاملة هي التنازل الكامل عن جميع القيم. وإذا كنت ترغب في تحقيق الفضيلة الكاملة، فيجب ألّا تسعى إلى الحصول على الامتنان كمقابل لتضحياتك، ولا يجب أن تسعى وراء المديح أو الحبّ أو الإعجاب، لأنّ هذا الأمر سيضعف فضيلتَك. وإذا كنت تقوم بأشياء لا تصبغ على حياتك أيّ بهجة، فذلك لا يجلب لك أيّ قيمة على مستوى المادّة أو الروح أو الربح أو الفائدة أو المكافأة، وإذا حقّقت تلك الحالة من الصفر الكلّيّ، فإنّك ستحقّق المثال الأعلى للكمال الأخلاقيّ.

قد يقال لك إنّ الكمال الأخلاقيّ أمرٌ يستحيل على أيّ إنسان تحقيقُه. فأنت لن تستطيع تحقيقه مادمتَ حيًّا، لكنّ قيمة حياتك وشخصك تقاس بمدى نجاحك في الاقتراب من الموت.

ولكن إذا اندفعت من دون مشاعر مثل الخضروات التي تسعى إلى أن تؤكَل، ومن دون قيمٍ لترفضها أو أيّ رغبات لتتخلّى عنها، فأنت لن تربح تاج التضحية. فتلك ليست تضحية للتنازل عمّا هو غير مرغوب فيه، وهي ليست تضحية لإعطاء حياتك للآخرين، حتّى لو كان الموت هو رغبتك الشخصيّة. فلتحقيق فضيلة التضحية، يجب أن تعمل من أجل أن تحيا، ويجب أن تحبّه، ويجب أن تحترق بشغف إلى هذه الأرض، إلى كلّ ما يمكن أن تقدّمه لك من روعة وسحر، ويجب أن تشعر بالتواء كلّ سكّين لأنّها تمزّق رغباتك وتحملها بعيدًا عن متناول يدك وتستنزف حبّك من جسدك. إنّه ليس مجرّد الموت الذي تحمله لك أخلاقُ التضحية بوصفه مثلًا أعلى، بل الموت بالتعذيب البطيء.

لا تذكّرني بأنّها تتعلّق فقط بهذه الحياة على الأرض. فأنا لست قلقًا من أيّ شخص آخر.

وإذا كنت ترغب في إنقاذ آخر كرامةٍ لك، لا تُسَمِّ أفضل أفعالك «تضحية»، فهذا المصطلح سيصفك بأنّك غير أخلاقيّ. فإذا كانت الأمّ تشتري الطعام لطفلها الجائع بدلًا من قبّعةٍ لنفسها، فهذه ليست بتضحيةٍ، لأنّها تضع الطفل في مكانة أعلى من القبّعة، ولكنّها تُعَدُّ تضحيةً بالنسبة إلى أمّ تعتبر القبّعة أهمَّ من أيّ شيء آخر، وتفضّل أن يجوع طفلها وتطعمه فقط بسبب شعورها بالواجب. وإذا مات إنسانٌ يقاتل من أجل حرّيّته، فذلك لا يعتبر تضحيةً، لأنّه لا يريد أن يحيا كعبدٍ، ولكنّها تعتبر تضحية بالنسبة إلى إنسانٍ لا يريد هذا الأمر. وإذا رفض إنسانٌ أن يتاجر بمبادئه، فذلك لا يعتبر تضحيةً، إلّا إذا كان من تلك الطينة التي لا تملك في الأصل أيّ مبادئ.

إنّ التضحية لا تناسب غير أولئك الذين لا يملكون في الأصل شيئًا يضحّون به.

هي لا تناسب إلّا أولئك الذين لا يملكون قيمًا أو معايير، وأولئك الذين يملكون نزوات غير عقلانيّة. أمّا الإنسان الذي تولَد رغباته من رحم القيم العقلانيّة، فإنّ التضحية لا تتناسب معه، لأنّ ذلك يعني أن يتخلّى عن الصواب من أجل الخطأ، والخير من أجل الشرّ.

عقيدة التضحية هي عقيدة أولئك الذين لا يملكون أيّ أخلاق، أولئك الذين لا يقدّمون أيّ خير للبشريّة، أولئك الذي يدفعون بالبشريّة إلى الهلاك.

هل تعتقد أنّها مجرّد قيم مادّيّة وأنّ أخلاقك تطالبك بأن تضحّي؟ وما هي القيم المادّيّة؟ فالمادّة لا تحظى بأيّ قيمة إلّا بوصفها وسيلة لإرضاء الرغبات الإنسانيّة. والمادّة ليست سوى أداة للقيم الإنسانيّة. فلأيّ خدمة يُطلب منك أن تعطي الأدوات المادّية التي أنتجتْها فضيلتُك؟ أَهُوَ لخدمة ما تعتبره شرًّا أم لخدمة مبدإٍ لا تتقاسمه مع الغير أم لخدمة شخص لا تحترمه، أم لتحقيق هدف مخالف لهدفك الخاصّ؟ وإلّا فإنّ هديّتك ليست تضحيةً.

إنّ أخلاقك تخبرك بأن تتخلّى عن العالم المادّيّ وتخلّص قيمَك من المادّة وتعلن طلاقك النهائيّ معها. فالإنسان الذي لا يعطي قيمَه أيَّ تعبير مادّيّ، وتتناقض أفعاله مع قناعاته، هو مجرّد منافقٍ رخيصٍ. لكن ذاك هو الإنسان الذي يطيع أخلاقَك ويعلن طلاق قيمه مع المادّة. فالرجل الذي يحبّ امرأة واحدة، لكنّه ينام مع أخرى، والرجل الذي يعجب بموهبة عامل، لكنّه يستأجر عاملًا آخر، والرجل الذي ينتصر لقضيّة لأنّه يراها عادلة، لكنّه يتبرّع بماله لدعم قضيّة أخرى، والرجل الذي يتمتّع بمستويات عالية من الكفاءة، لكنّه يكرّس جهوده لإنتاج الخردة... كلّ هؤلاء هم بشر تخلّوا عن المادّة، بشر يعتقدون أنّهم لا يستطيعون تكييفَ قيمهم الروحيّة مع الواقع المادّيّ.

هل تقول إنَّ هؤلاء تخلّوا عن الروح؟ نعم، بالطبع. إذ لا يمكنك الحصولُ على واحدة من دون الأخرى. فأنت كيان غير قابل للتجزئة تتكوّن من مادّة ووعي. فإذا تخلّيت عن وعيك فإنّك تصير متوحشًا، وإذا تخلّيت عن جسدك فإنّك تصير غشّاشًا

مزيّفًا.

وهذا هو بالضبط هدف أخلاقك، والواجب الذي يطلبه منك قانونك الأخلاقيّ. فأَعْطِ ما لا تستمتع به، واخدم من لا تعجب به، واخضع لمن تعتبره شرّيرًا، وسلّم العالم لقيم الآخرين، وانبذ نفسك. فنفسك هي عقلك، فإذا تخلّيت عنه فإنّك ستغدو لقمة سائغة لآكلي لحوم البشر.

إنّهم يريدون منك أن تسلم عقلك... كلّ أولئك الذين يدعون إلى عقيدة التضحية مهما تكُن علاماتهم أو دوافعهم، سواء طالبوا بذلك من أجل روحك أو من أجل جسدك، وسواء كانوا يعدونك بحياة أخرى في السماء أو معدةٍ ممتلئة على هذه الأرض... أولئك الذين يقولون: «من الأنانيّة أن تسعى وراء مصالحك الشخصيّة. يجب أن تضحّي بها من أجل تحقيق مصالح الآخرين». وينتهي بهم الأمر إلى القول: «من الأنانيّة أن تتسمّك بقناعاتك. يجب أن تضحّي بها من أجل قناعات الآخرين».

هذا صحيح، فأكثر الأشياء أنانيّةً هي العقل المستقلّ الذي لا يعترف بسلطة أعلى من سلطته ولا قيمة أعلى من حكمه على الحقيقة. وأنت مطالبٌ بأن تضحّي بنزاهتك الفكريّة ومنطقك وعقلك مقابل أن تكون مثل عاهرة في متناول الجميع.

وإذا بحثت في قانونك الأخلاقيّ عن جواب لسؤال: ما الخير؟ فالجواب الوحيد الذي ستجده هو «خير الآخرين». فالخير هو كلّ ما يتمنّاه الآخرون. فـ«خير الآخرين» هو صيغة سحريّة تحوّل أيّ شيء إلى ذهبٍ، صيغة تُتْلى كضمان للمجد الأخلاقيّ وكتميمة لأيّ عمل، بما في ذلك ذبح قارّة بأكملها. ومعيار الفضيلة الخاصّ بك ليس موضوعًا أو فعلًا أو مبدأً، بل هو نيّة ومقصد. ولا تحتاج إلى دليل أو أسباب أو نجاح. ولا يحتاج إلى تحقيق خير الآخرين في الواقع، بل كلّ ما تحتاج إليه هو أن يكون دافعك خيرَ الآخرين وليس خيرَك.

إنّ قانونك الأخلاقي -الذي يتباهى بزهو وفخر، لأنّه يتمسّك بكلّ القيم الأخلاقيّة الأبديّة والمطلقة والموضوعيّة، ولأنّه يحتقر القيم الأخلاقيّة المشروطة والنسبيّة

والذاتيّة- يقدّم نسختَه من المطلق. أمّا القاعدة التي يجب أن يتّبعها السلوك الأخلاقيّ فهي كالآتي: إذا رغبتَ فيه أنتَ فهو شرّ، أمّا إذا رغب فيه الآخرون فهو خير، وإذا كان الدافع هو رفاهك الشخصيّ فلا تفعل ذلك، أمّا إذا كان الدافع هو رفاهية الآخرين فكلّ شيء مباحٌ.

وبما أنّ هذه الأخلاق المزدوجة، والمعايير المزدوجة تقسمك إلى نصفين، فإنّها تقسّم البشريّة أيضًا إلى معسكرَين متصارعَين؛ أحدهما أنتَ، والآخر بقيّة البشرية. فأنت هو المنبوذ الوحيد الذي ليس له الحقّ في التمنّي أو العيش. وأنت تخدم والآخرون يحكمون، أنت تعطي والآخرون يأخذون. ويجب ألّا تشكّك أبدًا في حقّهم في تضحياتك، أو في طبيعة رغباتهم واحتياجاتهم.

يقولون لك إنّ عليك خدمةَ سعادة الآخرين لكي تنال سعادتك الخاصّة، وإنّ الطريقة الوحيدة لتحقيق سعادتك هي أن تتخلّى عنها للآخرين؛ والطريقة الوحيدة لتحقيق ازدهارك هي أن تهب الآخرين ثروتَك؛ والطريقة الوحيدة لتحمي حياتك هي حمايتك جميعَ الناس ما عدا نفسك.. وإذا لم تجد متعة في هذا الفعل، فتلك غلطتك، وهي أيضًا دليلٌ على أنّك شرير. وإذا كنت خيّرًا، فستجد سعادتك في توفير مأدبة للآخرين، وكرامتك في الوجود ترتكز على مثل ذلك الفُتات الذي يتركونه لك.

أنت يا من ليس له أيّ معيار للاعتزاز بذاته، اقبل بالذنب ولا تتجرّأ على طرح الأسئلة. لكنّك تعرف الجواب غير المعترف به، وترفض الاعتراف بما تراه، وتدرك الفرضيّة الخفيّة التي تحرّك عالمك. أنت تعرف ذلك، لا وفقًا لبيان صريح صادق، لكن كقلقٍ منغّص ومظلم بداخلك، بينما تتخبّط بين الغشّ على نحوٍ مذنب وممارسة مبدإٍ آثم على نحو شرس جدًّا ولا تودّ تسميته.

أنا هنا لكي أطرح الأسئلة التي تتهرّب أنت منها. لماذا تعتبر خدمة سعادة الآخرين فعلًا أخلاقيًّا، وفي مقابل ذلك ترى خدمةَ سعادتك الشخصيّة فعلًا غير أخلاقي؟ وإذا كان التمتّع قيمةً، فلماذا لا يُعتبر قيمة أخلاقيّة إلّا عندما يختبره الآخرون، وفي مقابل

ذلك لا يعتبر كذلك عندما تختبره بنفسك؟ وإذا كان الإحساس بأكل الكعكة قيمةً، فلماذا يعتبر انغماسًا غير أخلاقيّ عندما يتعلّق الأمر بمعدتك، لكنّه يصبح هدفًا أخلاقيًّا بالنسبة إليك عندما تحقّقه لأمعاء الآخرين؟ ولماذا تعتبر رغبتك فعلًا لا أخلاقيًّا، وفي مقابل ذلك تعتبر رغبة الآخرين فعلًا أخلاقيًّا؟ ولماذا يعتبر إنتاجك قيمةً مّا والحفاظ عليها أمرًا لا أخلاقيًّا، وفي مقابل ذلك يصبح أمرًا أخلاقيًّا عندما تتخلّى عنها؟ وإذا كنت غير أنانيّ ومستقيم عندما تعطيها، فلماذا لا يكونون أنانيّين وأشرارًا عندما يقبلونها؟ فهل ينبغي للفضيلة أن تكون في خدمة الرذيلة؟ وهل الهدف الأخلاقيّ عند الأخيار هو التضحية بالنفس من أجل الأشرار؟

والإجابة التي تتهرّب منها هي: لا. إنّ الذين يأخذون منك أيّ قيمة ليسوا أشرارًا، شرطَ ألّا يكسبوا القيمة التي منحتهم إيّاها. فقبولهم إيّاها لا يعتبر فعلًا لاأخلاقيًّا، بشرط أن يكونوا غير قادرين على إنتاجها، وألّا يكونوا جديرين بها، وأن يكونوا غير قادرين على إعطائك أيّ قيمة كمقابل. ولا يعتبر استمتاعهم بها فعلًا لاأخلاقيًّا، ما لم يحصلوا عليه بالحقّ.

هذا هو جوهر عقيدتك، والنصف الآخر لمعيارك المزدوج هو أنّ من غير الأخلاقيّ أن تعيش معتمدًا على مجهودك، وفي مقابل ذلك فإنّ من الأخلاقيّ أن تعوّل على مجهود الآخرين؛ وأنّه من غير الأخلاقيّ أن تستهلك ما تنتجه، وفي مقابل ذلك فإنّ من الأخلاقيّ أن تستهلك ما ينتجه الآخرون؛ وأنّ من غير الأخلاقيّ الكسب، وفي مقابل ذلك فإنّ من الأخلاقيّ النهب؛ وأنّ الشعب هو المبرّر الأخلاقيّ لوجود المنتجين، ولكنّ وجود الشعب هو غاية في حدّ ذاته؛ وأنّ من الشرّ أن تربح من إنجازاتك، وفي مقابل ذلك فإنّ من الجيّد أن تربح عن طريق التضحية؛ وأنّ من الشرّ أن تعيش السعادة، لكن من الجيّد الاستمتاع بها على حساب دماء الآخرين.

إنّ قانونكم يقسم الناس إلى طائفتين؛ الأولى ترغب في شيء مّا، والأخرى لا ترغب في أيّ شيء. إنّه يميّز المختارين من الملعونين، الركاب من السائقين، المستغِلّين من المستغَلّين. فأيّ مفتاح قد يسمح لك بالدخول إلى النخبة الأخلاقيّة؟ إنّه الافتقار إلى

القيمة.

ومهما تكن القيمة المعنيّة، فإنّ افتقارك إليها هو الذي يعطيك حقَّ المطالبة بها من أولئك الذين لا يفتقرون إليها. إنّ حاجتك هي التي تمنحك حقّ المطالبة بالمكافآت. فإذا كنت قادرًا على إشباع حاجتك، فإنّ قدرتك تلغي حقّك في إرضائها. لكنّ الحاجة التي لا تستطيع تلبيتها تمنحك الحقَّ أوّلًا في حياة البشر.

وإذا نجحت، فإنّ أيّ إنسان يفشل هو سيّدك. وإذا فشلت، فإنّ أيّ رجل ينجح هو عبدك. وسواء أكان فشلكم عادلًا أم لا، وسواء أكانت رغباتكم عقلانيّة أم لا، وسواء أكان حظّكم مستحقّا أم لا، فإنّه الألم بغضّ النظر عن طبيعته أو سببه، الألم باعتباره المطلق الأساسيّ الذي يعطيك رهنًا على كلّ الوجود.

وإذا عالجت ألمك بجهودك الخاصّة، فلن تحصل على أيّ تقدير أخلاقيّ، فقواعدك ستسخر منه لأنّه عمل من أعمال المصلحة الذاتيّة. ومهما تكن القيمة التي تسعى إلى الحصول عليها، سواء كانت ثروةً أو غذاءً أو حبًّا أو حقوقًا، فإنّك إذا حصلت عليها بفضيلتك، فإنّ قانونك لن يعتبرها كسبًا أخلاقيًا. إنّها تجارة، وليست صدقة. إنّها ثمن يدفع، وليست تضحية. فالمستحقّون ينتمون إلى عالم تجاريّ أنانيّ يحقّق ربحًا متبادلًا، ولا يدعو غير المستحقّين إلى تلك المعاملة الأخلاقيّة التي تتمثّل في ربح فرد مقابل إيقاع كارثة بالآخر. إنّ المطالبة بالمكافآت على فضيلتك أنانيّة وسلوك غير أخلاقيّ. مثلما أنّ افتقارك إلى الفضيلة هو الذي يحوّل مطالبك إلى حقّ أخلاقيّ.

إنّ الأخلاق التي تحوّل الحاجة إلى مطلب لا تحمل في طيّاتها سوى الفراغ، وما تقدّمه من مكافآت يعتبر غيابًا وعيبًا: الضعف، العجز، عدم الكفاءة، المعاناة، المرض، الكوارث، الشحّ، الخطأ، العيب، الصفر.

فمن الذي يوفّر الحساب لدفع ثمن هذه المطالب؟ أولئك الذين لُعِنوا لكونهم غير أصفار، كلّ حسب بعده من ذلك المثال الأعلى. وبما أنّ جميع القيم هي ثمرة الفضائل، فإنّ درجة فضيلتك تستخدم باعتبارها مقياسًا لعقوبتك، ودرجة أخطائك تستخدم

باعتبارها مقياسًا لمكسبك. فقانونك يقول إنّ الإنسان العقلانيّ يجب أن يضحّي بنفسه من أجل الإنسان غير العقلانيّ، والإنسان المستقلّ يجب أن يضحّى من أجل الغوغاء، والإنسان الشريف يجب أن يضحّى من أجل الإنسان غير الشريف، والإنسان العادل يجب أن يضحّي من أجل الإنسان الظالم، والإنسان المنتج يجب أن يضحّي من أجل السارق المتسكّع، والإنسان النزيه يجب أن يضحّي من أجل خدّام المساومات، والإنسان المعتزّ بنفسه يجب أن يضحّى من أجل الشحّاذين. فهل تتعجّب من خسّة الروح في أولئك الذين تراهم من حولك؟ فالإنسان الذي سيحقّق هذه الفضائل لن يقبل بقانونك الأخلاقيّ، والإنسان الذي سيقبل بقانونك الأخلاقيّ لن يحقّق هذه الفضائل.

وفي ظلّ أخلاق التضحية، ستضطرّ إلى أن تضحّي بقيمتين هما الأخلاق واحترام الذات. فعندما تكون الحاجة هي المعيار، فإنّ كلّ إنسان سيتحوّل إلى ضحّية، ضحيةٍ يجب عليه العمل لكي يلبّي احتياجات الآخرين، واضعًا نفسه في موقف الضعيف الذي يجب أن يحقّق الآخرون احتياجاته. فهو لا يقدر على الاقتراب من إخوانه البشر إلّا في دورَين فاضحين هما دور المتسوّل و دور مصّاص الدماء.

أنت تخشى أكثرَ الإنسانَ الذي يملك مالًا أقلّ منك، لأنّه اكتسب هذا المال بعرق جبينه. وهو ما يجعلك تشعر كما لو أنّك مخادع أخلاقيّ. وأنت تكره الإنسان الذي يملك مالًا أكثر منك، لأنّك تعتقد أنّ لك حقًّا ونصيبًا في هذا المال، وهو ما يجعلك تشعر بأنّك مخدوع أخلاقيًّا. الإنسان الفقير يشعرك بالذنب أمّا الإنسان الغنيّ فيشعرك بالإحباط. وفي هذه الحال لا تعرف أتستسلم أم تطالب؟ ولا تعرف متى ينبغي أن تعطي ومتى ينبغي أن تأخذ؟ ولا تعرف أيّ متعة في الحياة هي حقّك؟ وأيّ دَين لم تسدّده بعد للآخرين؟ وأنت تناضل من أجل التهرّب، نظريًّا، من معرفة أنّك مذنبٌ وفقًا للمعيار الأخلاقيّ الذي قبلته في كلّ لحظة من لحظات حياتك، وأنّه لا توجد لقمة من الطعام التي تلتهمها لا يحتاج إليها شخص مّا في مكان ما على الأرض، وستتخلّى عن المشكلة في استياء أعمى، فتستنتج أنّ الكمال الأخلاقيّ لا يتحقّق أو

يرغب فيه، وأنّك ستعمل على نهب الناس كلّما أمكنك انتزاع شيء، وستتجنّب عيونَ الشباب الذين هم في مثل عمرك من أولئك الذين ينظرون إليك كما لو أنّ الاعتزاز بالذات كان ممكنًا وهم يتوقّعون منك الكبرياء. والذنب هو كلّ ما تحتفظ به داخل روحك. فلا تتعجّب لأنّ أخلاقك لم تحقّق الأخوّة على الأرض.

إنّ تبرير التضحية، التي تدعمها قيمك الأخلاقيّة، لَهُوَ أكثر فسادًا من الفساد الذي يدّعي تبريره. فتلك المبرّرات ستخبرك بأنّ الدافع إلى تضحيتك يجب أن يكون الحبّ، الحبّ الذي يجب أن تشعر به تجاه كلّ إنسان. والأخلاق التي تقول إنّ قيم الروح أغلى من قيم المادّة، وإنّ الأخلاق التي تعلّمك احتقار عاهرة تعطي جسدَها بشكل عشوائيّ إلى كلّ الرجال هي الأخلاق نفسها التي تطلب منك تسليم روحك للحبّ المنحلّ والفاسد لجميع البشر القادمين.

وبما أنّه لا يمكن أن توجَد ثروة بلا سبب، فإنّه لا يمكن أن يوجَد حبٌّ بلا سبب أو يوجد أيّ نوع من أنواع العاطفة التي لا سببَ لها. فالعاطفة هي استجابة لحقيقة في الواقع، وتقدير تمليه عليك معاييرك. وأن تحبّ يعني أن تمنح قيمةً، فالحبّ هو القيمة. والإنسان الذي يقول لك إنّ من الممكن أن تقيّم من دون قيمٍ، وإنّ من الممكن أن تحبّ أولئك الذين كنت تقول عنهم إنّهم بلا قيمة، هو الإنسان نفسه الذي يقول لك إنّ من الممكن أن يزداد ثراؤك عبر الاستهلاك من دون الإنتاج وإنّ الورقة الماليّة تحظى بما يحظى به الذهب من قيمةٍ.

لاحظ أنّه لا يُتوقَّع منك أن تشعر بخوفٍ لا مبرّر له. وعندما يصل الناس من بني جنسه إلى السلطة، فإنّهم سيكونون خبراء في اختلاق وسائل الإرهاب، وفي إعطائك السبب الكافي للشعور بالخوف الذي يريدون حُكْمَكَ بواسطته. لكن عندما يتعلّق الأمر بالحبّ، بوصفه أسمى العواطف، فإنّك ستسمح لهم بالصراخ في وجهك وهم يتّهمونك بأنّك منحرف أخلاقيًّا إذا كنت غير قادر على الشعور بالحبّ الذي لا مبرّر له. وعندما يشعر الإنسان بالخوف من غير سبب، فأنت ستدعوه إلى زيارة طبيب نفسانيّ ليعتني به؛ فأنت لست حريصًا جدًّا على حماية معنى الحبّ وكرامته.

إنّ الحبّ تعبيرٌ عن قيم المرء، وهو أعظم مكافأة يمكن أن تُكسبها للصفات الأخلاقيّة التي حقّقتها في طبعك وشخصك، والثمن العاطفيّ الذي يدفعه إنسان واحد مقابل الفرح الذي يحصل عليه من فضائل إنسانٍ آخر. ومبادئك الأخلاقيّة تطلب منك أن تخلّص حبّك من القيم وتطلّقها وتسلّم حبّك إلى أيّ متشرّد، لا ردًّا على قيمته، بل ردًّا على حاجته، لا مكافأةً، بل صدقةً، لا ثمنًا تدفعه من أجل الفضائل، بل شيكًا على بياض من أجل الرذائل. وأخلاقك تخبرك أنّ الغرض من الحبّ هو تحريرك من روابط الأخلاق، وأنّ الحبّ متفوّق على الحكم الأخلاقيّ، وأنّ الحبّ الحقيقيّ يتجاوز ويتعالى، يغفر وينجو من كلّ أنواع الشرور الكامنة في غرضه، وأنّه كلّما عظم حبّك، عظمت الرذيلة التي ستسمح بها للمحبوب. فأن تحبّ إنسانًا من أجل فضائله هو فعل حقير وبشريّ، أمّا عندما تحبّه من أجل عيوبه فذلك أمرٌ مقدّس. وأن تحبّ أولئك الذين يستحقّون حبّك هو مصلحة ذاتيّة، وأن تحبّ أولئك الذين ليسوا جدرين بالحبّ هو تضحية. وأنت مدين بحبّك لأولئك الذين لا يستحقّونه. وكلّما قلّ استحقاقهم لحبّك، ازداد قدر الحبّ الذي أنت مدينٌ به لهم. وكلّما كان الشيء الذي تحبّه بغيضًا، كان حبّك أكثر نبلًا. وكلّما سهل إرضاء حبّك، عظمت فضيلتك. وإذا كنت تستطيع جعل روحك مصبّ نفايات، وإذا كنت قادرا على تقبّل أيّ شيء، وإذا كنت قادرًا على التوقّف عن تقييم القيم الأخلاقيّة، فقد حقّقت بذلك حالةً من الكمال الأخلاقيّ.

هذه هي أخلاقيّات التضحية الخاصّة بك، وكلّ ما تسعى إليه هو إعادة تشكيل حياة جسدك في صورة حظائر بشريّة، وإعادة تشكيل حياة روحك في صورة مصبّ للنفايات.

وهذا هو هدفك، وقد وصلت إليه. فلماذا تتذمّر الآن وتشتكي من عجز الإنسان وتطلّعاته العبثيّة؟ أَلِأَنَّك غير قادر على الازدهار من خلال السعي إلى الدمار؟ أم لأنّك غير قادر على إيجاد الفرح عن طريق عبادة الألم؟ أم لأنّك غير قادر على العيش بجعل الموت معيارك على القيمة؟

لقد كانت درجة قدرتك على العيش هي الدرجة التي بلغتها في تحطيم قانونك الأخلاقيّ، ومع ذلك كنت تعتقد أنّ هؤلاء الذين يدّعون ذلك هم أصدقاء للإنسانيّة، وصرت تلعن نفسك ولا تجرؤ على التشكيك في دوافعهم أو أهدافهم. ألقِ نظرة عليهم الآن، عندما تواجه خيارك الأخير. وإذا اخترت أن تهلك وتموت، فافعل ذلك وأنت على وعي بأنّ حياتك غير مهمّة.

إنّ الصوفيّين في كلتا المدرستين، الذين يعظون بعقيدة التضحية، هم الجراثيم التي تهاجمك من خلال جرح متقرّح واحدٍ هو خوفك من الاعتماد على عقلك. هم يقولون لك إنّهم يملكون وسائل معرفيّة أعلى من العقل، ونمطًا من الوعي يتفوّق على العقل بجذب خاصٍّ يمارسه بعض البيروقراطيّين في الكون فيعطونهم نصائح سرّيّة يحجبونها عن الآخرين. يقول المثاليّون إنّهم يتمتّعون بإحساس إضافيّ تفتقرون إليه، وهو تلك الحاسّة السادسة الخاصّة التي تتألّف من تناقض مع كلّ معرفة توفّرها لك حواسّك الخمس. أمّا الاتّجاه المادّيّ فلا يكلّف نفسَه عناء تأكيد أيّ مطالبة بالإدراك خارج الحواسّ. ويقول المادّيّون إنّ حواسّك موجودة، لكنّها غير صالحة، وإنّ حكمتهم تقوم على إدراك عماك بطريقة مّا وعبر وسائل غير محدّدة. هذان الاتّجاهان يطلبان منك أن تبطل وعيك وتخضع لسلطتهم. إنّهم يوفّرون لك، كدليلٍ على معرفتهم المتفوّقة، حقيقةَ أنّهم يؤكّدون عكس كلّ ما تعرفه؛ ويوفّرون لك، كدليل على القدرة الفائقة على التعامل مع الوجود، حقيقةَ أنّهم يقودونك إلى البؤس والشقاء والتضحية بالنفس والتجويع والتدمير.

هم يدّعون أنّهم يرون صيغةً ستجعلك تتفوّق على وجودك فوق هذه الأرض. صيغة يسمّيها المثاليّون «بُعدًا آخر»، وهي صيغة تقوم على إنكار كلّ الأبعاد. أمّا المادّيّون فيسمّونها «المستقبل»، وهي صيغة تقوم على إنكار الحاضر. فأن توجد هو أن تمتلك هويّة. فما الهويّة التي يستطيعون إضفاءها على عالمهم المتفوّق؟ إنّهم يستمرّون في إخبارك عن هويّة غير موجودة، لكنّهم لن يخبروك أبدًا بماهيتها. فكلّ هويّاتهم تتكوّن من الإنكار، فيقولون إنّ الله هو ما لا يمكن للعقل البشريّ أن يعرفه،

ويطالبونك بأن تعتبر ذلك معرفةً، وأنّ الله ليس إنسانًا، وأنّ السماء غير الأرض، وأنّ الروح مخالفة للجسد، وأنّ الفضيلة لا تهدف إلى الربح، وأنّ «أ» لا تعني «أ»، وأنّ الإدراك ليس حسيًّا، وأنّ المعرفة غير عقلانيّة. إنّ تعريفاتهم ليست أفعالَ تحديدٍ وتعريفٍ، بل هي أفعال محوٍ وإبادة.

إنّها مجرّد ميتافيزيقيا لِلْعَلَقَةِ التي تتشبّث بفكرة عن الكون الذي يُعَدّ الصفر فيه معيارًا لتحديد الهويّة. علقة تريد أن تسعى إلى الهروب من الضرورة لتسمية طبيعتها الخاصّة، والتهرّب من الحاجة لمعرفة أنّ المادّة التي تبني عليها كونَها الخاصّ هي الدم.

ما طبيعة ذلك العالم المتفوّق الذي من أجله يضحّون بالعالم الموجود؟ إنّ المثاليّين يلعنون المادّة، أمّا المادّيون فيلعنون الربح. وأمنيّة الاتّجاه المادّي هي أن يربح البشر عبر التخلّي عن الأرض، أمّا أمنيّة الاتّجاه المادّيّ فتتجلّى في أن يرث البشر الأرضَ عبر التخلّي عن كلّ الأرباح. وعوالمهما غير المادّيّة وغير الربحيّة هي ممالك تجري فيها الأنهار بالحليب والقهوة، ويتدفّق النبيذ من الصخور، وتتساقط الفطائر من السماء بفعل الدعاء. يوجد استثمار كبير يقع على هذه الأرض المادّيّة وهو استثمار هائل في الفضيلة، بما في ذلك فضيلة الذكاء والنزاهة والطاقة والمهارة التي يحتاج إليها إنشاء خطّ سكّة حديد لنقلهم مسافةَ ميل واحد في عالمهم غير المادّي وغير الربحيّ، فهم يسافرون من كوكب إلى كوكب آخر على حساب الرغبة. وإذا سألهم شخص صادق: كيف؟ فإنّهم سيردّون عليه بالقول إنّ سؤال الـ«كيف» هو مفهوم الناس الواقعيّين المبتذلين. فعلى هذه الأرض المقيّدة بأغلال المادّة والربح، تتحقّق المكافآت بالفكر؛ أمّا في عالم خالٍ من تلك القيود، فالمكافآت تتحقّق بالرغبة.

وهذه هي حقيقة كلّ سرّهم المتهالك وسرّ كلّ فلسفاتهم الباطنيّة، وسرّ كلّ جدالهم وحواسّهم الخارقة، وسرّ عيونهم المراوغة وعيونهم المزمجرة، والسرّ الذي من أجله يدمّرون الحضارة واللّغة والصناعات والحياة، وكذا السرّ الذي من أجله يثقبون أعينهم وآذانهم، ويسحقون حواسّهم، ويلغون عقولهم، والغرض الذي من أجله يذوّبون قيمَ العقل والمنطق والمادّة والوجود والواقع لينصّبوا على ذلك الضباب

البلاستيكيّ قيمةً واحدة مطلقة ومقدّسة هي رغبتهم.

إنّ القيد الذي يسعون إلى الهروب منه هو قانون الهويّة. والحرّيّة التي يسعون إليها هي التحرّر من حقيقة أنّ «أ» ستظل «أ»، بغضّ النظر عن الدموع أو نوبات الغضب؛ وأنّ النهر لن يجلب لهم الحليب، بغضّ النظر عن الجوع؛ وأنّ المياه لن تتدفّق صعودًا، بغضّ النظر عن الراحة التي سيكسبونها لو تمّ ذلك، وإذا كانوا يريدون رفعها إلى سطح ناطحة سحاب، فإنّهم يحتاجون إلى التفكير والعمل، وهي عمليّة تعتبر طبيعة كلّ بوصة من خطّ الأنابيب مهمّة، لكنّ مشاعرهم لا تعتبرها كذلك. لأنّ مشاعرهم عاجزة عن تغيير مسار واحد لذرّة من الغبار في الفضاء أو طبيعة أيّ فعل قد يقدمون عليه.

إنّ أولئك الذين يخبرونك بأنّ الإنسان غير قادرٍ على إدراك حقيقةٍ من دون أن تحرّفها حواسّهم، إنّما يقصدون بهذا أنّهم لا يرغبون في إدراك حقيقةٍ لا تحرّفها مشاعرهم. كلّ شيء هو كذلك كما يتصوّره عقلك، فافصله عن العقل وسيصبح شيئًا كما تتصوّره رغباتك.

لا توجد ثورة صادقة ضدّ العقل... وعندما تقبل بأيّ جزءٍ من عقيدتهم، فإنّ دافعك سيكون الهروب بشيء لن يسمح به عقلك. فالحرّيّة التي تبحث عنها هي التحرّر من حقيقة أنّك إذا سرقت ثروتَك فأنت وغدٌ، بغضّ النظر عن مقدار ما تعطيه للأعمال الخيريّة أو عدد الصلوات التي تصلّيها والدعوات التي تبتهل بها؛ وأنّك إذا عاشرت الفاسقات فأنت لست زوجًا لائقًا، بغضّ النظر عن مدى القلق الذي ستشعر به زوجتك الحبيبة في صباح الغد؛ وأنّك كائن ولست سلسلة من القطع العشوائيّة المتناثرة في الكون حيث لا شيء يلتصق ولا شيء يلزمك بأيّ شيء، فيتحوّل العالم إلى كابوس طفلٍ حيث تتنقّل الهويّات وتسبح، وحيث المتعفّن والبطل هما أجزاء قابلة للتبادل بشكلٍ تعسفيّ كما تشاء. وأنّك إنسان.. وأنّك كائن.. وأنّك موجود.

ومهما ادّعيت بلهفةٍ أنّ الهدف من رغبتك الغامضة هو الوصول إلى أسلوب راقٍ في

الحياة، فإنّ التمرّد ضدّ الهويّة هو الرغبة ضدّ الحياة.

لقد عكس معلّموك، من المتصوّفة في كلتا المدرستين، السببيّة في وعيهم، وهم يسعون إلى عكسها في الوجود. إنّهم يتّخذون عواطفهم سببًا، وعقلهم نتيجةً سلبيّةً. ويتّخذون من عواطفهم أداة لإدراك الواقع، فهي تحمل رغباتهم بوصفها أولويّةً لا يمكن اختزالها، وحقيقةً تلغي كلّ الحقائق الأخرى. فالإنسان الصادق لا يرغب في تحديد هدف رغبته. هو يقول: «لأنّه موجود فأنا أرغب فيه» أمّا هم فيقولون: «لأنّي أرغب فيه فهو موجود».

إنّهم يسعون إلى تزييف حقيقة الوجود والوعي. إنّهم لا يريدون من وعيهم أن يكون أداةً لإدراك الوجود، بل أداةً لخلقه. ويرغبون في وجود إلهٍ يستجيب لصورهم وأحكامهم، وهو الإله الذي خلق الكون من فراغٍ عن طريق نزوة تعسّفيّة. لكنّ الواقع لا يمكن تزييفه. إنّ ما حققّوه يتعارض مع رغباتهم. فهم يريدون سلطة مطلقة على الوجود، لكنّهم، في مقابل ذلك، يفقدون سلطة وعيهم. وبرفض المعرفة، يحكمون على أنفسهم بالرعب من المجهول الدائم.

تلك الأمنيات اللّاعقلانيّة التي تجذبك إلى عقيدتهم، وتلك العواطف التي تعبدها مثل صنم تضحّي على بابه بالأرض، وتلك العاطفة المظلمة غير المتماسكة بداخلك، التي تعتبرها صوتًا للإله أو صوتًا لغددك، ليست سوى جثّة في عقلك. والعاطفة التي تتعارض مع عقلك، تلك العاطفة التي لا يمكنك تفسيرها أو السيطرة عليها هي مجرّد جثّة من ذلك التفكير القديم الذي كنتَ تمنع عقلك من إعادة النظر فيه.

وكلّما رفضت التفكير ورؤية أمنيّتك الاستثنائية الصغيرة في الواقع المطلق، فإنّك تجنح إلى القول: اسمحوا لي بأن أسحب الكعكات التي سرقتها من حكم العقل أو من وجود الله، ودعوني أحظى بنزوة غير عقلانيّة واحدة، وسأكون إنسانًا عقلانيًّا في كلّ شيء آخر. لقد كان ذلك شكلًا من أشكال إفساد العقل. ثمّ يصبح عقلك حكمًا ثابتًا يأخذ الأوامر من عالم الجريمة السرّيّ، الذي يشوّه الأدلّة ليتناسب حكمه مع مطلق

لا يجرؤ على لمسه. والواقع الخاضع للرقابة هو النتيجة، واقع ممزّق ستطفو فيه القطع التي اخترت رؤيتها فوق هوّة القِطَع غير المتماسكة بسبب تعطيل العقل عن التفكير.

والروابط التي تسعى إلى إغراقها هي روابط سببيّة، والعدوّ الذي تسعى إلى التغلّب عليه هو قانون السببيّة، وهو لن يسمح لك بالمعجزات. وقانون السببيّة هو قانون الهويّة المطبّق على الفعل. فكلّ الأفعال تتسبّب فيها الكائنات. وطبيعة الفعل تتسبّب فيها وتحدّدها طبيعةُ الكائنات التي تعمل، ولا يمكن للشيء أن يعمل بما يتعارض مع طبيعته. وأيّ فعل لا يتسبّب فيه كائن قد يكون سببه الصفر ممّا قد يعني أنّ الصفر يسيطر على شيء مّا، أي أنّ العدم يتحكّم في الوجود، وهذه هي رغبة معلّميك، الذين يعتقدون في وجود نتائج من دون أسبابٍ. ولا شكّ أنّ الهدف من أخلاقهم وسياستهم واقتصادهم هو سلطان الصفر.

إنّ قانون الهويّة لا يسمح لك بأخذ كعكتك وأكلها في الوقت نفسه. وقانون السببيّة لا يسمح لك بأكل كعكتك قبل أن تحصل عليها. ولكن لو أغرقتَ كلا القانونين في فراغات عقلك ولو تظاهرت لنفسك وللآخرين بأنّك لا ترى، فإنّه يمكنك أن تعلن عن حقّك في أكل كعكتك اليوم وكعكتي غدًا، ويمكنك وعظ الناس بأنّ طريقة الحصول على كعكة هي أن تأكلها أوّلًا قبل أن تخبزها، وأنّ طريقة إنتاجك تبتدئ بالاستهلاك، وأنّ لكلّ أمانيّك مطلبًا مساويًا لكلّ شيء، لأنّ كلّ شيء يسبّبه أي شيء.

وكلّما تمرّدت على قانون السببيّة، فإنّ دافعك هو الرغبة في الاحتيال، لكنّ الأسوأ من ذلك هو أن تحاول عكسها. فأنت تريد الحبّ غير المستحقّ وكأنّ الحبّ، بوصفه نتيجةً، يمكن أن يعطيك القيمة الشخصيّة، والسبب أنّك تريد الإعجاب غير المستحقّ، كما لو أنّ الإعجاب، بوصفه نتيجةً، يمكن أن يعطيك الفضيلة، والسبب أنّك تريد الثروة غير المستحقّة، كما لو أنّ الثروة، بوصفها نتيجةً، يمكن أن تعطيك القدرة، والسبب الذي يجعلك تستجدي الرحمة هو أنّك تعتقد أنّ المغفرة غير المستحقّة يمكن أن تمحو سبب استجدائك. ومن أجل أن تنغمس في أكاذيبك القبيحة، فإنّك ستدعم مذاهب معلّميك، بينما هم يركضون مثل الخنازير البرّيّة المتوحّشة ويقولون

إنّ الإنفاق هو نتيجة تخلق الثروات، وإنّ الثروات هي نتيجة لسبب آخر هو الآلات، التي هي أيضًا نتيجة، تخلق الذكاء والسبب، وأنّ الرغبات الجنسيّة هي النتيجة التي تخلق قيمك الفلسفيّة.

فمن يدفع ثمن هذه العربدة؟ ومن الذي يسبّب اللّاسبب؟ ومن هم الضحايا، المحكوم عليهم بأن يبقوا غير معترف بهم وأن يهلكوا في صمت، خشيةَ أن يزعج عذابهم إصرارك بأنّه لا وجود لهم؟ إنّهم مريدو العقل.

نحن السبب في كلّ القيم التي تتمنّاها، نحن الذين نقوم بعمليّة التفكير، وهي عمليّة تحديد الهويّة واكتشاف العلاقات السببيّة. علّمناك أن تعرف، وأن تتكلّم، وتنتج، وأن ترغب وتحبّ. وأنتم، يا من تخلّيتم عن العقل، لولانا نحن الذين حافظنا عليه، لما كنتم قادرين على تحقيق رغباتكم أو حتّى تصوّرها. ولن تكونوا قادرين على رغبة ارتداء الملابس التي ما كان لها أن تصنع، والسيّارات التي لن تكون قد اخترعت، والمال الذي لن يكون قد سكّ، مقابل السلع التي لن تكون موجودة، والإعجاب الذي لن يكون من ذوي الخبرة من الناس الذين قد حقّقوا شيئًا، الحبّ الذي ينتمي ويتعلّق فقط بأولئك الذين حافظوا على قدرتهم على التفكير واختيار القيمة.

يا من تقفزون مثل الوحوش خارج غابة مشاعركم إلى الجادّة الخامسة في نيويورك وتعلنون أنّكم تريدون الحفاظ على الأضواء الكهربائيّة، ولكن تريدون تدمير المولّدات. إنّها ثروتنا التي تستخدمونها وتدمرونّنا، إنّها قيمنا التي تستخدمونها وتلعنوننا. إنّها لغتنا التي تستخدمونها وتنكرون العقل.

فمثلما يخترع المثاليّون جنّتهم انطلاقًا من صورة أرضنا، ويعدونكم بالمكافآت التي خلقتها معجزة، فإنّ المادّيّين كذلك يعدونكم بجنّة تشكّل فيها المادّة نفسَها دون سببٍ وتتحوّل إلى مكافآت يريدها غياب عقلك.

وعلى مدى قرونٍ عديدةٍ، كان المثاليّون يعملون على جعل الحياة فوق الأرض لا تطاق، فهم يفرضون عليك الرسوم مقابل ذلك العزاء والراحة بتحريم كلّ فضائل

الوجود الممكن، ثمّ يركبون على أكتاف ذنبك وهم يقولون إنّ الإنتاج والفرح خطايا، ثمّ يجمعون أموال الابتزاز من المذنبين. أمّا نحن، رجال العقل، فكنّا ضحايا عقيدتهم المجهولين، نحن الذين كنّا على استعداد لخرق قانونهم الأخلاقيّ وتحمّل الإدانة بسبب استعمال العقل. نحن الذين كنّا نفكّر ونعمل، بينما كان هؤلاء يتمنّون ويصلّون. نحن الذين كنّا نقود الحياة عندما كانت الحياة تعتبر جريمة، بينما كان هؤلاء ينعمون بالمجد الأخلاقيّ لفضيلة تجاوز الجشع المادّيّ وتوزيع السلع المادّيّة في شكل صدقات تنكر الذات.

نحن الآن مقيّدون بالأغلال بينما يطلب منّا الغوغاء أن ننتج. نحن مقيّدون من قبل المتوحّشين الذين يعلنون أنّنا غير موجودين، ثم يهدّدون بحرماننا من الحياة التي لا نمتلكها إذا فشلنا في توفير السلع التي ننتجها. الآن من المتوقّع أن نستمرّ في تشغيل السكّك الحديديّة ومعرفة اللحظة التي سيصل فيها القطار بعد عبور قارّة مّا، ومن المتوقّع أن نستمرّ في تشغيل مصانع الفولاذ ومعرفة البنية الجزيئيّة لكلّ قطرة من المعادن في كابلات الجسور وعلى متن الطائرات، في حين أنّ قبائلكم القليلة التي تتكوّن من الماديين الذين يقاتلون من أجل جثة عالمنا، وينكرون وجود أي مبادئ أو قيم مطلقة أو معرفة أو عقل.

وإذا نزلنا إلى مستوى مَن هم دون الهمج، أولئك الذين يعتقدون أنّ الكلمات السحريّة التي ينطقون بها تمتلك القدرة على تغيير الواقع، ويعتقدون أنّ الواقع يمكن تغييره بسلطة الكلمات التي لا ينطقون بها. أداتهم السحريّة هي المحو، والتظاهر بأن لا شيء يمكن أن يأتي إلى حيّز الوجود بعد مروره بتعويذاتهم الخاصّة التي ترفض التعرّف عليه.

ولأنّهم يتغذّون على الثروة المسروقة من الجسم، فإنّهم يتغذّون كذلك على المفاهيم المسروقة من العقل، ويعلنون أنّ الأمانة تتألّف من رفض معرفة أنّ الشخص يسرق. وهم يستخدمون النتائج وينكرون الأسباب، لذلك يستخدمون مفاهيمنا وينكرون جذورها ووجودها. إنّهم لا يسعون إلى البناء، بل إلى السيطرة على المصانع، ولا

يسعون إلى إعمال العقل، بل إلى السيطرة على العقل البشريّ.

هُمْ يزعمون أنّ كلّ ما يحتاجون إليه من أجل تشغيل المصنع هو القدرة على تحويل دعائم الآلات. وعليه، فهم يزعمون أنّه لا وجود للكائنات، وأن لا شيء موجود سوى الحركة، ويلغون حقيقة أنّ الحركة تفترض مسبقًا الشيء الذي يتحرّك، وأنّه من دون مفهوم الكائن لا يمكن أن يوجَد مفهوم للحركة. وهم يطالبون بحقّهم في استهلاك ما لم ينتجوه، ويلغون سؤال مَن سينتجه، لذلك يعلنون أنّه لا يوجد قانون للهويّة، ولا يوجد شيء سوى التغيير، وهم يتجاهلون حقيقةَ أنّ التغيير يفترض مسبقًا أسئلة من قبيل: ما الذي يتغيّر؟ وما مسار هذا التغيير؟ وأنّه من دون قانون الهويّة لا يوجد مثل هذا المفهوم الذي يقول إنّ «التغيير» ممكنٌ. ويسرقون رجل الصناعة وينكرون قيمته. ويسعون إلى الاستيلاء على السلطة التي بفضلها يهيمنون على كلّ الوجود وينكرون أنّ الوجود موجود. مكتبة سُر مَن قرأ

إنّهم يقولون: «نحن نعرف أنّنا لا نعرف شيئًا» فيلغون حقيقةَ أنّهم يدّعون المعرفة، ويقولون أيضًا: «لا توجد قيم مطلقة» ليطمسوا حقيقةَ أنّ ما ينطقون به هو مطلقٌ في حدّ ذاته، ويضيفون: «لا يمكنك إثبات أنّك موجود أو أنّك واعٍ» لطمس حقيقة أنّ الإثبات يستلزم مسبقًا الوجود والوعي وسلسلة معقّدة من المعارف، أي أنّه يفترض مسبقًا وجود شيء من الوعي قادر على المعرفة، ومعرفة تتقن تمييز هذه المفاهيم بعضها من بعض.

وعندما يطلب منك الغوغاء أن تثبت وجودك، فإنّهم يشترطون عليك إثبات ذلك عن طريق اللّاوجود، وعندما يطلبون منك إثبات وعيك، فهم يشترطون عليك أن تثبت ذلك عن طريق اللّاوعي. بالإضافة إلى أنّهم يطلبون منك القيام بخطوة في الفراغ خارج الوجود والوعي لتعطيهم دليلًا على كليهما، ويطلبون منك كذلك أن تصبح صفرًا وتكتسب المعرفة من الصفر.

وعندما يعلنون أنّ الحقيقة البديهيّة المسلّم بها هي مسألة اختيار اعتباطيّ ولا يختارون

قبول الحقيقة البديهيّة التي مفادها أنّهم موجودون، فإنّهم يطمسون حقيقة أنّهم قبلوها من خلال نطق تلك الجملة وأنّ الطريقة الوحيدة للرفض هي أن يخلدوا للصمت، وألّا يتعمّقوا في شرح النظريّات وأن يموتوا.

فالحقيقة البديهية المسلّم بها هي بيان يحدّد أساس المعرفة وأيّ بيان آخر يتعلّق بتلك المعرفة، وهي بيان تحتويه بالضرورة جميعُ البيانات الأخرى، سواء اختار أيّ متكلّم معيّن تحديدها أم لا. والحقيقة البديهيّة هي اقتراح يهزم خصومه لأنّه يتعيّن عليهم قبولها واستخدامها في أيّ محاولة لإنكارها. فاسمحوا لإنسان الكهف الذي لم يختر قبول حقيقة الهويّة البديهيّة، وحاولوا تقديم نظريّته من دون استخدام مفهوم الهويّة أو أيّ مفهوم يشتقّ منه.. واسمحوا لإنسان الغابة الذي لم يختر قبول وجود الأسماء، وحاولوا ابتكارَ لغة من دون أسماء أو صفات أو أفعال.. واسمحوا للطبيب الساحر الذي لم يختر قبول صحّة الإدراك الحسيّ، وحاول إثبات ذلك من دون استخدام البيانات التي تحصّل عليها عن طريق الإدراك الحسيّ... واسمحوا لصائد الأدمغة الذي لم يختر قبولَ صحّة المنطق، وحاول إثبات ذلك من دون استخدام المنطق... واسمحوا للقزم الذي يعلن أنّ ناطحة سحاب لا تحتاج إلى أسس بعد أن تصل إلى الخمسين طابقًا فاقتلع القاعدة من تحت مبناه، ولكن ليس من تحت مبناك... واسمحوا لآكلي لحوم البشر الذين يزمجرون مثل الأسود ويقولون إنَّ حرّيّة عقل الإنسان كانت ضروريّة لإنشاء الحضارة الصناعيّة، ولكن ليست هناك حاجة إلى الحفاظ عليه، وإنّما تعطى الأهمّيّة لرؤوس السهام وجلود الدببة، ولا تعطى لكرسيّ جامعيّ في علم الاقتصاد.

فهل تعتقد أنّهم يُعيدونك إلى العصور المظلمة؟ إنّهم يعيدونك إلى عصور أكثر ظلمةً ممّا عرفه تاريخك. وهدفهم ليس عصر ما قبل العلم، بل عصر ما قبل اللغة. وغايتهم هي حرمانك من المفهوم الذي يعتمد عليه عقل الإنسان وحياته وثقافته، وهو مفهوم الواقع الموضوعيّ. فحدّد تطوّر الوعي البشريّ وستعرف الغرض من عقيدتهم.

إنّ الإنسان البدائيّ كائنٌ لم يستوعب بعدُ أنّ «أ» هي «أ» وأنّ الواقع حقيقيّ. لقد

توقّف عقله عند مرحلة الرضيع، مرحلة يكتسب فيها الوعي تصوّراته الحسّيّة الأولى ولم يتعلّم بعد تمييز الأجسام الصلبة بعضها من بعض. إنّ العالم يبدو للرضيع كما لو أنّه حركة ضبابيّة من دون الأشياء التي تتحرّك.. وولادة عقله هي اليوم الذي سيدرك فيه أنّ الخطّ الذي يستمرّ في الخفقان أمامه هو أمّه والدوّامة التي خلفها هي الستارة، وأنّهما كائنان من الكائنات الصلبة التي لا يمكن أن يحلّ أحدهما محلّ الآخر، وأنّهما موجودان. ويوم يدرك أنّ المادّة لا تتمتّع بأيّ إرادة سيكون هو اليوم نفسه الذي يدرك فيه أنّه يتمتّع بالإرادة؛ وأنّه يوم ولادته من حيث هو إنسان؛ واليوم الذي سيدرك فيه أنّ الانعكاس الذي يراه في المرآة ليس وهمًا، بل هو انعكاس حقيقي، لكنّه ليس هو نفسه، وأنّ السراب الذي يشبه السراب الذي يراه في الصحراء ليس وهمًا، وأنّ الهواء والأشعّة الضوئيّة التي تتسبّب فيه حقيقية، لكنّها ليست مدينة، بل انعكاسًا للمدينة؛ واليوم الذي سيدرك فيه أنّه ليس متلقّيًا سلبيًا للأحاسيس في أيّ لحظة معيّنة، وأنّ حواسّه لا تزوّده بمعرفة جاهزة منفصلة عن السياق، ولكن فقط تزوّده بمادّة المعرفة التي يجب أن يتعلّم عقله كيفيّة دمجها. ويوم يدرك أنّ حواسّه لا يمكن أن تخدعه، وأنّ الأشياء المادّيّة لا يمكن أن تعمل من دون أسباب، وأنّ أعضاء الإدراك مادّيّة، ولا تملك أيّ إرادة أو قوّة اختراع أو تحريف للأشياء، وأنّ الأدلّة التي تمدّه بها أعضاء الإدراك مطلقة، ولكنّ عقله يجب أن يتعلّم فهمها وأنّ عقله يجب أن يكتشف طبيعتها وأسبابها والسياق التامّ لمادّته الحسّية، وأنّ عقله يجب أن يحدّد الأشياء التي يدركها، سيكون ذلك هو يوم ولادته مفكّرًا وعالِمًا.

نحن هم البشر الذين يصلون إلى ذلك اليوم، أمّا أنتم فقد اخترتم الوصول إليه جزئيًّا، أمّا البدائيّ فهو الإنسان الذي لن يفعل ذلك أبدًا.

فالعالم، عند الإنسان البدائي، هو مكان للمعجزات غير المفهومة حيث كلّ شيء ممكن لمادّة غير متحرّكة. إنّ عالمه ليس المجهول، بل ذلك الرعب اللّاعقلانيّ غير المعروف. إنّه يعتقد أنّ الأشياء المادّيّة تتمتّع بإرادة غامضة، وتحرّكها نزوات لا سبب لها، ولا يمكن التنبّؤ بها، في حين أنّه مجرّد بيدق عاجز تحت رحمة قوى خارجة عن

سيطرته. إنّه يعتقد أنّ الطبيعة هي التي تحكمها الشياطين الذين يملكون قوّة مطلقة قادرة على كلّ شيء، وأنّ الواقع هو لعبتهم الذي يستطيع، في أيّ لحظة، تحويل وعاء أكله إلى ثعبان، وزوجته إلى خنفساء، هذا الواقع الذي تتحوّل فيه «أ» إلى شيء آخر غير «أ»، واقع يجب عليه فيه ألّا يحاول المعرفة، وفيه لا يمكنه الاعتماد على أيّ شيء، فكلّ ما يستطيع فعله فقط هو أن يتمنّى، ويقضّي حياته في التمنّي، والعيش على تسوّل شياطينه ليمنحوه رغباته بالقوّة الاعتباطيّة لإرادتهم، وشكرهم عندما يفعلون، ولومهم عندما لا يفعلون، ويقدّم لهم القرابين تعبيرًا عن امتنانه وتكفيرًا عن ذنوبه. إنّه يزحف على بطنه خوفًا منهم، يعبد الشمس والقمر والرياح والمطر وأيّ سفّاح يعلن نفسه متحدّثًا باسمهم، بشرط أن تكون أقواله غير واضحة، وأن يكون قناعه مرعبًا، فيتمنّى ويتوسّل ويزحف ويموت. ويترك لك، كما يترك المرء سجلّا لوجهة نظره إلى الوجود، المسوخَ المشوّهة من أصنامه التي يتّخذ بعضها مظهر إنسان والبعض الآخر مظهر حيوانٍ.

إنّ حالة الإنسان البدائيّ هي الحالة الفكريّة لمعلّميكم المعاصرين وعالمه هو العالم الذي يريدون أن تعيشوا فيه.

وإذا كنتم تتساءلون عن الوسائل التي يقترحونها لهذا الغرض، فكلّ ما عليكم فعله هو زيارة أيّ فصل من الفصول الدراسيّة في أيّ كلّيّة وسوف تسمعون أساتذتكم يعلّمون أطفالكم أنّ الإنسان لا يمكن أن يكون واثقًا بأيّ شيء، وأنّ وعيه مزيفٌ، وأنّه لا يستطيع أن يتعلّم أيّ حقائق أو أيّ قوانين للوجود، وأنّه غير قادر على معرفة أيّ حقيقة موضوعيّة. فما هو معيار معرفته وحقيقته؟ وستكون إجابتهم أنّ معيار معرفته وحقيقته يكمن في كلّ ما يعتقده الآخرون. ويعلّمون أطفالكم أيضًا أنّ المعرفة مستحيلة، وأنّ الإيمان وحدَه ممكن. فاعتقادك أنّك موجود هو فعل إيمانٍ، وليس أكثر صحّة من إيمان الآخر بحقّه في قتلك، وأنّ بديهيّات العلوم هي فعل إيمان وليست أكثر صحّة من إيمان الصوفيّ بوجود المكاشفات والتجلّيات، وأنّ الاعتقاد بأنّ الضوء الكهربائيّ يمكن أن ينتجه مولّدٌ هو فعل إيمان وليس أكثر صحّة من اعتقاد أنّه يمكن

أن ينتج من خلال تقبيل تميمة قدم أرنب ووضعها تحت سلّم عند ظهور أوّل قمر. أمّا الحقيقة فهي كلّ ما يريده الناس أن يكون، والواقع هو كلّ ما يختار الناس أن يقولوا إنّه كذلك، وأنّه لا توجد حقائق موضوعيّة، فكلّ ما هو موجود ليس سوى رغبات الناس الاعتباطيّة، وأنّ الإنسان الذي يسعى وراء المعرفة في المختبر معتمدًا التجربة والمنطق هو مجرّد أحمق يؤمن بالخرافات. أمّا العالم الحقيقيّ فهو الإنسان الذي يتجوّل في كلّ مكان ويستطلع آراء الناس. ولولا الجشع الأنانيّ لصانعي عوارض الفولاذ، الذين لديهم مصلحة راسخة في عرقلة تقدّم العلم، لتعلّمتم أنّ مدينة نيويورك غير موجودة، لأنّ استطلاعًا لرأي جميع سكّان العالم كان سيخبركم أنّ معتقداتهم تمنع وجودها.

لقد كان المثاليّون، على مدى ردح طويل من الزمن، يقولون إنّ الإيمان أعلى قيمةً من العقل، لكنّهم لم يجرؤوا يومًا على إنكار وجود العقل. أمّا المادّيّون فيقولون إنّ كلّ شيء إيمان، هذا الإيمان الذي يطلقون عليه تمرّدًا. ولأنّه ثورة ضدّ يقينيّات غير مؤكّدة، فهم يقولون إنّه لا يوجد شيء قابلٌ للإثبات. ولأنّه ثورة ضدّ المعرفة الخارقة للطبيعة، فهم ينفون وجود أيّ معرفة، ولأنّه ثورة ضدّ أعداء العلم فهم يقولون إنّ العلم هو الخرافات، ولأنّه ثورة ضدّ استعباد العقل، فهم ينفون أيّ وجود للعقل.

وإذا سلّمتَ قوّة إدراكك، وإذا قبلت بتبديل معيارك من الموضوعيّ إلى الجماعيّ وانتظرت البشريّة لتخبرك بما يجب أن تفكّر فيه، فستجد تبديلًا آخر يقع أمام عينيك اللتين تنازلتَ عن النظر بهما. وستجد أنّ معلّميك أصبحوا حكّام كلّ ما هو جماعيّ، وإذا رفضت طاعتهم، لأنّهم لا يمثّلون البشريّة جمعاء، فسيردّون عليك بالقول: ما الأدلّة التي تستند إليها لتقول إنّنا لا نمثّل البشريّة جمعاء؟

وإذا شكّكت في أنّ هذا هو هدفهم، فلاحظ الانسجام العاطفيّ الذي سيتّخذه المادّيّون الذين يسعون إلى جعلك تنسى أنّ مفهومًا مثل «العقل» لم يكن موجودًا في أيّ وقت مضى. وستلاحظ أيضًا أنّهم سيغرقونك بإسهابٍ في دوّامات لفظيّة غير محدّدة، تتكوّن من تلك الكلمات ذات المعاني المطّاطيّة والمصطلحات الفضفاضة، والتي من

خلالها يحاولون الالتفاف حول الاعتراف بقيمة التفكير. وسيقولون لك إنّ وعيك الخاصّ يتكوّن من «انعكاسات» و«ردود أفعال» و«تجارب» و«حوافز» و«قيادات» وسيرفضون تحديد الوسيلة التي من خلالها اكتسبوا بها تلك المعرفة، وتحديد الفعل الذي يقومون به عندما يقولون ذلك لك أو تحديد الفعل الذي تقوم به عندما كنت تسمعهم. وسيقولون إنّ الكلمات تتمتّع بقوّة «تكييف»، ويرفضون تحديدَ السبب الذي يجعل الكلمات قادرة على تغييب وعيك. وسيقولون إنّ أيّ طالب يطالع أيّ كتابٍ سيفهمه إذا غيّب وعيه، وأنّ أيّ عالم يعمل على أيّ اختراع فإنّه ينخرط في نشاط من تغييب للوعي، وأنّ أيّ طبيب نفسانيّ عندما يساعد أيّ عصابي على حلّ أيّ مشكلة أو فكّ أيّ لغز، فإنّه يفعل ذلك عن طريق تغييب الوعي، وأنّك عندما تغيّب وعيَ رجلٍ صناعيّ فإنّك لن تجد ذلك الشخص، فالمصنع هو مجرد «مورد طبيعيّ» تمامًا مثل الشجرة أو الصخرة أو بركة الطين.

وسيقولون لك إنّ مشكلة الإنتاج قد حلّت ولا تستحقّ أيّ دراسة أو أيّ انشغال، وإنّ المشكلة الوحيدة المتبقّية لتحلّها «ردود أفعالك» هي الآن مشكلة التوزيع. وعندما ستسألهم: من حلّ مشكلة الإنتاج؟ فسيجيبونك إنّ الإنسانيّة هي مَن فعلت ذلك. وإذا سألتهم عن طبيعة الحلّ، فسيقولون إنّها البضاعة الموجودة هنا. وإذا سألتهم عن الكيفيّة التي وصلت بها إلى هنا، فسيقولون إنّها وصلت بطريقة مّا. وإذا سألتهم عن سبب ذلك، فسيقولون: ما من سبب.

ويقولون إنّ لكلّ إنسان الحقَّ في الحياة ومن دون أن يعمل. وبغضّ النظر عن قوانين الواقع، فإنّه يحقّ له أن يحصل على «الحدّ الأدنى من رزقه» بما في ذلك طعامه وملبسه ومسكنه ومن دون أن يبذل أيّ مجهود. إنّه حقٌّ طبيعي اكتسبه منذ الولادة. وإذا سألتهم: من يستلمه؟ سيقولون: لا نتذكّر. ويقولون أيضًا إنّ لكلّ إنسان الحقَّ في الفوائد التكنولوجيّة. لكن إذا سألتهم: من ابتكرها؟ فإنّهم يردّون عليك بالقول: لا نتذكّر. وإنّ مجموعة محمومة من الجبناء المسعورين الذين يتظاهرون بأنّهم يدافعون عن الصناعيّين يعرّفون الآن الهدف من الاقتصاد على أنّه «تعديل بين رغبات البشر غير

المحدودة والسلع المورّدة بكميّات محدودة». والمفكّرون الأشرار الذين يتظاهرون بأنّهم أساتذة ويتجاهلون مفكّري الماضي بالقول إنّ نظريّاتهم الاجتماعيّة بُنِيَتْ على أساس غير عمليّ بافتراض أنّ الإنسان كان كائنًا عقلانيًا. ولكن بما أنّ الناس ليسوا عقلانيّين، فهم يقولون إنّه لا بدّ من وجود نظام من شأنه أن يقوم بذلك عوضًا عنهم ويجعل من وجودهم وبقائهم ممكنًا، وهو ما يعني تحدّي الواقع. فمن سيجعل هذا ممكنًا؟ لا نتذكّر. وإنّ أيّ شخص متواضع وطائش يمكن أن يندفع وينشر خططًا للسيطرة على إنتاج البشريّة. وبغضّ النظر عمّن سيوافق أو يختلف مع رؤاه، فلا أحد سيشكّك في حقّه في تنفيذ خططه بواسطة البندقيّة. فعلى من سيفرض خطّطه؟ لا نتذكّر. والإناث العشوائيّات ذوات الدخل غير المبرّر اللّائي يسافرن في رحلات حول العالم، واللّائي يعدن ليقلن إنّ شعوب العالم المتخلّفة تطالب بمستوى معيشة أعلى. تطالب من؟ لا نتذكّر.

وسيمنعون أيّ تحقيق في قضيّة الفرق بين قرية مهمّشة مثل الأدغال ومدينة نيويورك. وسيلجؤون في نهاية المطاف إلى شرح التقدّم الصناعيّ للإنسان على غرار ناطحات السحاب والجسور المعلّقة والطاقة والمحرّكات، وقطارات السكك الحديديّة بالقول إنّ الإنسان حيوان يمتلك «غريزة صنع الأدوات».

فهل تساءلت يومًا عن الوضعيّة التي آل إليها العالم؟ إنّ ما تشهده الآن هو ذروة عقيدة غير المبرّر وغير المستحقّ. وكلّ العصابات تقاتل من أجل السلطة، وتزمجر بأنّ الحبّ هو الحلّ لجميع مشاكل روحك وأنّ السوط هو الحلّ لجميع مشاكل جسدك. أنت يا مَن وافقت على ألّا يكون لك عقلٌ، ومنحت الإنسان كرامة أقلّ ممّا تمنحه للأنعام، وتتجاهل ما يمكن لمدرّب الحيوانات أن يقول لهم: إنّه لا يمكن تدريب أيّ حيوان باستعمال الخوف، وإنّ تعذيب الفيلة سيؤدّي إلى أن تدوس على جلّادها، ولن تعمل من أجله أو تحمل أعباءه. وهم يتوقّعون من الإنسان أن يستمرّ في إنتاج الأنابيب الإلكترونيّة، والطائرات النفّاثة ومحرّكات تخصيب الذرّة والتلسكوب بحصّة من اللحوم كمكافأة له، وبوضع السوط على ظهره لتحفيزه.

فلا تنخدع لا بالمثاليّين ولا بالمادّيين، فلطالما كان تقويض وعيك هدفَهم الوحيد على مرّ العصور، ولطالما كانت السلّطة والقدرة على حكمك بالقوّة هي دائمًا شهوتَهم الوحيدة.

ومن طقوس السحرة والمشعوذين، التي شوّهت الواقع وحوّلته إلى سخافات بشعة، وعطّلت عقول الناس وأبقتهم في رعبٍ من الظواهر الخارقة للطبيعة على مدى قرون من الركود، نجدُ تلك المُقامَة لمذاهب القرون الوسطى التي أبقت البشر متكدّسين على أرضيّات أكواخهم الطينية في حالة رعب من أنّ الشيطان قد يسرق حساءهم الذي عملوا ساعاتٍ طويلةً من أجل تحضيره. ونجد أيضًا تلك الطقوس التي أقيمت لأستاذٍ يؤكّد أنّ عقلك لا يملك القدرة على التفكير، وأنّ عليك أن تطيع بشكلٍ أعمى إرادةَ المجتمع المطلقة. كلّ ذلك من أجل هدفٍ واحدٍ هو أن تتخلّى عن استخدام عقلك. لكنّ ذلك لا يمكن أن يحدث لك ما لم توافق عليه، فإذا وافقت عليه، فأنت تستحقّه.

وعندما تستمع إلى محاضرة رجل مثاليّ وهو يحدّثك عن عجز العقل البشريّ، ثمّ تبدأ بالشكّ في وعيك، وليس في وعيه، وعندما تسمح لنفسك بأن تثق في ما يقول فأنت من يتحمّل المسؤوليّة. إنّ القوّة الخارقة للطبيعة التي يخشاها الصوفيّ، والروح المجهولة التي يعبدها، والوعي الذي يعتبره صاحب القدرة المطلقة هو عقلك.

الرجل المثاليّ هو الإنسان الذي سلّم عقله في أوّل لقاءٍ له مع عقول الآخرين، بمكانٍ مّا في المراحل البعيدة من طفولته، عندما اشتبك فهمه للواقع مع تأكيدات الآخرين وأوامرهم التعسّفيّة ومطالبهم المتناقضة، في مفترق طرق الاختيار بين المعرفة والكلام. واختار سلطة الآخرين، واختار الخضوع بدلًا من الفهم، والإيمان بدلًا من التفكير. والإيمان بالظواهر الخارقة للطبيعة يبدأ بالإيمان بتفوّق الآخرين، وبأنّه يجب أن يخفي عدم فهمه، وأنّ الآخرين يمتلكون بعض المعرفة الغامضة التي حرم هو منها. إنّ الحقيقة هي ما يريدون أن تكون عليه، من خلال بعض الوسائل التي حرم منها إلى الأبد.

ومنذ ذلك الحين، وهو خائفٌ من التفكير، ويترك نفسه تحتَ رحمة المشاعر المجهولة. ومشاعره تصبح دليله الوحيد، وبقايا هويّته الشخصيّة الوحيدة، فيتشبّث بها بشراسة. وأيًا كان التفكير الذي يمارسه فهو مكرّس للاختباء من نفسه.

وعندما يزعم أحد الصوفيّين أنّه يشعر بوجود قوّة تفوق قوّة العقل، في هذه الحال فقط يكون في حال جيّدة. ولكنّ تلك القوّة ليست روحًا عظمى خارقة وعليمة بالكون كلّه، وهو بذلك يسلّم وعيَه إلى أيّ عابر سبيل. إنّ الصوفيّ تدفعه الرغبة في إثارة الإعجاب والغش والتملّق والخداع، لإجبار الوعي القدير للآخرين على الخضوع. إنّهم مفتاحه الوحيد إلى الواقع، وهو يشعر بأنّه لا يمكن أن يوجد إلّا بتسخير قوّتهم الغامضة وابتزاز موافقتهم غير الخاضعة للمساءلة. إنّهم وسيلته الوحيدة في الإدراك، مثل إنسان أعمى يعتمد على رؤية الكلب الذي يرشده في الطريق، ويشعر بأنّه يجب أن يقيّدهم لكي يعيش. فيصبح شغفه الوحيد هو السيطرة على وعي الآخرين، وتصبح شهوته للسلطة مثل قوّة الأعشاب الضارّة التي تنمو فقط في المساحات الشاغرة التي يحدثها العقل المهجور.

وكلّ ديكتاتور هو صوفيّ، وكلّ صوفيّ هو ديكتاتور محتمل. لا يسعى الصوفيّ إلى الحصول على موافقة البشر، بقدر ما يسعى إلى نيل طاعة البشر. إنّ ما يسعى إليه هو أن يؤمنوا بقناعاته ويستجيبوا لرغباته. وهو يريد أن يتعامل مع البشر بالإيمان والقوّة، ولا يجد أيّ رضًا في الحصول على موافقتهم إذا كان عليه أن يكسبها عن طريق الحقائق والعقل. فالعقل هو العدوّ الذي يخافه. لكنّه، في الآن نفسه، يعتبر العقل محفوفًا بالمخاطر، لأنّه وسيلة خداعٍ. ثمّ إنّه يشعر بأنّ الناس يمتلكون سلطة أكثر قوّة من العقل، ويشعر بأنّ معتقداتهم التي تفتقر إلى السببيّة أو طاعتهم القسريّة هي وحدها ما يمكن أن يعطيه إحساسًا بالأمان. إنّ رغبته هي القيادة وليست الإقناع، لأنّ القناعات تتطلّب عملًا من أعمال الاستقلال وتستند إلى حقيقة موضوعيّة مطلقة. وما يسعى إليه هو فرض السلطة على الواقع وعلى وسائل البشر في إدراك ذلك الواقع، وفرض سلطته على عقولهم، تلك السلطة التي تجعل من إرادته وسيطًا بين الوجود والوعي،

كما لو أنّه إذا حصل على الموافقة على تزييف الواقع الذي يأمرهم هو بتزييفه، سيصبح البشر، في الواقع، هم من يصنعونه.

الصوفيّ هو رجل يستبيح أموالَ الثروة التي اكتسبها الآخرون، وهو أيضًا رجل يسطو على أفكار الآخر. وبذلك هو ينحطّ إلى مستوى المجنون الذي يشوّه بنفسه الواقعَ. وينحطّ إلى مستوى المجنون الذي يؤمن بواقعٍ زيّفه الآخرون.

وتوجَد حالةٌ واحدة فقط تحقّق رغبة الصوفيّ في اللّانهاية وانعدام السببيّة وغياب الهويّة وهي الموت، بغضّ النظر عن الأسباب التي تجعل مشاعرَه متحفّظة، وهي رفض كلّ قيم الإنسانيّة، والإقبال على كلّ الشرور التي تدمّره. فالصوفيّ يستمتع بمشهد المعاناة والفقر والخضوع والإرهاب. وهذا الأمر هو ما يمنحه الشعور بالانتصار.

ولا يهمّ أيّ رفاه يسعى إلى خدمته، سواءٌ أكان يخدم الله أم يخدم «الشعب»، بغضّ النظر عن مثاله الأعلى الذي يعلن ارتباطه ببعض الأبعاد الخارقة، غير أنّ مثاله الأعلى، في الحقيقة، هو الموت، ورغبته الوحيدة هي القتل، ورضاه الوحيد هو التعذيب.

إنّ عقيدة المتصوّفة لم ينتج عنها إلّا الدمار، لكنّ الدمار الذي تسبّبوا فيه لم يدفع بكم يومًا إلى التشكيك في عقيدتهم. هُم يزعمون أنّ ما يحرّكهم هو الحبّ، غير أنّ أكوام الجثث البشريّة لا تحرّك فيهم ساكنًا، لأنّهم يؤمنون بأنّ الغاية تبرّر الوسيلة وأنّ الأهوال التي يمارسونها هي وسيلة تقود إلى غايات نبيلة. والحقيقة أنّ تلك الأهوال هي غاياتهم الوحيدة.

يا معشر الناس الذين يحاولون أن ينالوا رضى المتصوّفة عن طريق الالتزام بأوامرهم، أقول لكم إنّه لا شيء يرضيهم. لأنّك عندما تطيعهم فإنّهم سيتنكّرون لأوامرهم، لأنّهم يطلبون الطاعة في ذاتها ولذاتها، مثلما يسعون إلى التدمير في ذاته ولذاته. وأنتم جبناء لأنّكم تظنّون أنفسكم قادرين على نيل رضاهم عن طريق الاستسلام لابتزازهم، وهنا أؤكّد لكم أنّ السبيل الوحيدة لتنالوا رضاهم هي أن تهبوهم حياتكم.

أنت بريءٌ جدًّا لأنّك تعتقد أنّ ما يحرّك القوى التي أُطلق لها العنان في عالمك اليوم هو الطمع في النهب المادّيّ، فاعلم أنّ تدافع الصوفيّين للحصول على الغنائم هو مجرّد قناع لإخفاء حقيقة الدوافع التي تحرّكهم. إنّ الثروة هي محرّك الحياة البشريّة، وهم يطالبون بالثروة، لأنّهم يقلّدون الكائنات الحيّة، ولأنّهم يتظاهرون بحبّ الحياة. لكنّ انغماسهم في الرفاهية غير المستحقّة ليس متعة، بل هو هروب. إنّهم لا يعملون لكي تكسب الثروة، بقدر ما يعملون لكي تخسرها. إنّهم لا يعملون لكي تنجح، بقدر ما يعملون لكي تفشل. إنّهم لا يدفعون بك لتحيا، بقدر ما يدفعون بك إلى حافّة الموت. إنّهم لا يرغبون في أيّ شيء، بل يكرهون الوجود، ويحاولون التهرّب من حقيقة أنّهم يكرهون ذواتهم.

أنت يا مَن لم تستوعب قطّ طبيعة الشرّ، وتعتقد أنّهم رجال مثاليّون، ليسامحك على ذلك الربّ الذي اخترعته! إنّهم جوهر الشرّ، ليس فقط لأنّهم يعادون الحياة، بل أيضًا لأنّهم يدبّرون مؤامرة ضدّ العقل والحياة والإنسان.

إنّها مؤامرة من دون زعيم أو اتّجاه، ومن يديرها هم فقط ثلّة صغيرة من السفّاحين العشوائيّين ابتداءً من اللحظة التي يستفيدون فيها من معاناة هذه الأرض أو من معاناة أراضٍ أخرى. إنّهم مجرّد حثالة تكنّ كرهًا شديدا للعقل والمنطق والقدرة على الإنجاز والفرح. إنّهم مجرد حثالة ما تفتأ تشيع بين الناس أنّ القلب أعلى مرتبة من العقل.

إنّها مؤامرة يدبّرها أولئك الذين لا يرغبون في الحياة، بل في الموت. أولئك الذين يسعون إلى قطع زاوية واحدة صغيرة من الواقع فقط ويجذبهم شعور إلى كلّ الآخرين الذين ينشغلون بقطع زوايا أخرى. إنّها المؤامرة التي توحّد بها وصلات التهرّب جميعَ أولئك الذين يسعون وراء الصفر بوصفه قيمةً على غرار الأستاذ الجامعيّ الذي لا يقدر فحسب على التفكير، بل يعمل أيضًا على تعطيل القوى العقليّة عند الطلّاب، ورجال الأعمال الذين يستمتعون بتعطيل قدرة المنافسين من أجل حماية ركودهم، والشخص العصابيّ الذي يستمتع بكسر كبرياء الناس من أجل الدفاع عن نفسه، والعاجز الذي يستمتع بهزيمة الإنجاز، والرديء الذي يستمتع بهدم العظمة،

والمخصيّ الذي يستمتع بإخصاء كلّ متعة. وكلّ أولئك الذين يعظون الناس بأنّ التضحية بالفضيلة ستحوّل الرذائل إلى فضيلة. إنّ الموت هو، في الواقع، الغاية من كلّ أعمالهم...

ونحن، الذين كنّا بمثابة عوازل بينك وبين طبيعة عقيدتك، لم نعد موجودين هناك لإنقاذك من عواقب معتقداتك. نحن لم نعد على استعداد لكي ندفع حياتنا ثمنًا للديون التي تكبّدتها أو للعجز الأخلاقيّ الذي تسبّبت فيه. فأنت تعيش في وقت إضافيّ مستعار، وأنا الإنسان الذي اقترضته لك.

أنا الإنسان الذي كنتم تسعون إلى محوه من الوجود. أنا الإنسان الذي لم ترغبوا في حياته لأنّكم تدركون جيّدًا أنّ حياتكم تتوقّف عليّ، ولم ترغبوا في موتي لأنّكم تدركون جيّدًا أنّ ذلك يعني موتكم أيضًا..

لقد حدث هذا قبل اثني عشر عامًا، عندما عملت في عالمكم، بوصفي مخترعًا. لقد اشتغلت بإحدى المهن التي جاءت متأخّرة في تاريخ البشريّة وستكون أوّل ما سيختفي في طريق العودة إلى مرحلة الطبيعة. فالمخترع هو الإنسان الذي يوجّه إلى الكون سؤال: لماذا؟ ولا يدع أيّ شيء يحول بينه وبين الجواب.

مثل الإنسان الذي اخترع استخدام البخار أو الإنسان الذي اخترع استخدام النفط، أنا اكتشفت مصدرًا للطاقة كان متاحًا منذ نشأة الكرة الأرضيّة. لقد أكملت النموذج التجريبيّ لمحرّكٍ كان سيجني ثروةً لي ولأولئك الذين وظّفوني، محرّكٍ كان سيرفع كفاءة كلّ منشأة بشريّة، ويرفع من القيمة الإنتاجيّة لأيّ مصنع. ثمّ سمعت، ذات ليلة في اجتماع داخل المصنع، حكمَ الإعدام الذي صدر في حقّي بسبب إنجازاتي. لقد سمعت ثلاثة رجال يؤكّدون أنّ دماغي وحياتي وإنجازاتي ليست ملكًا لي، وأنّ حقّي في الوجود خاضع لرغباتهم. وقالوا لي إنّ الغرض من قدرتي هو تلبية احتياجات مَن هم أقلّ قدرة منّي، وإنّه ليس لي الحقّ في الحياة بسبب كفاءتي، بينما هم يتمتّعون بالحقّ في الحياة بسبب عدم كفاءتهم.

ثمّ أدركت الخطأ الذي يقع في العالم، ورأيت ما دمّر البشر والأمم، وأين يجب خوض المعركة من أجل الحياة. لقد أدركت أنّ العدوّ يحمل أخلاقًا معكوسةً، وأنّ عقابي هو قوّته الوحيدة. ورأيت أنّ الشرّ كان عاجزًا، وأنّ الشرّ يمثّل اللّاعقلاني المعادي للواقع، وأنّ السلاح الوحيد لانتصاره هو استعداد الخير لخدمته. تمامًا مثلما كان الغوغاء من الناس من حولي يعتمدون على قدراتي العقليّة ويتوقّعون منّي أن أقبل، بشكل طوعيٍّ، وضعَ العبوديّةِ. ولم يكونوا يتمتّعون بالسلطة لفرضها، تمامًا مثلما كانوا يعتمدون على تضحيتي بذاتي لتزويدهم بوسائل خطّتهم. وهكذا كان يحدث في جميع أنحاء العالم وعلى مدى تاريخ البشر، في كلّ نسخة وشكل، من ابتزاز الأقارب المتسكّعين إلى فظائع البلدان الجماعيّة. كانوا يدمّرون الأخيار والصالحين والمقتدرين ورجالَ العقل، الذين ينقلون إلى الشرّ دمَ فضيلتهم ويسمحون للشرّ بأن ينقل إليهم سمّ الدمار. وبذلك يكفلون للشرّ أسبابَ البقاء. ولقد أدركت أنّ هزيمة أيّ إنسان فاضل قد تصل إلى نقطة تكون فيها موافقته ضروريّة لفوز الشرّ وأنّه لن يتعرّض إلى أيّ أذًى من قبل الآخرين إذا اختار الامتناع عن موافقته. وأدركت أنّه يمكنني وضع حدّ لغضبكم عن طريق نطق كلمة واحدة في ذهني. لقد نطقت تلك الكلمة وكانت: لا.

لقد تركت ذلك المصنع. كما تركت عالمكم وحدّدت واجبي في تحذير ضحاياكم ومدّهم بالطريقة والسلاح لمحاربتكم. وكانت الطريقة هي الرفض بغضّ النظر عن العقوبة والقصاص، أمّا السلاح فكان العدالة.

وإذا كنتم تريدون أن تعرفوا ما الذي فقدته عندما استقلت وعندما تخلّى المضربون عن عالمكم، فقفوا على امتداد مساحة خاليةٍ من التربة في البرّيّة التي لم يكتشفها البشر، واسألوا أنفسَكم أيّ طريقة ستمكّنكم من البقاء على قيد الحياة هناك، والحجم الذي ستكون عقولكم قادرةً على اكتشافه. واسألوا أنفسكم عن عدد الاستنتاجات المستقلّة التي وصلتم إليها في مجرى حياتكم، وكم من الوقت أنفقتم على أداء الأفعال التي تعلّمتموها من الآخرين. واسألوا أنفسكم عمّا إذا كان لكم أن تقتدروا على اكتشاف كيفيّة حرث التربة وزراعة البذور، أو ما إذا كنتم تستطيعون ابتكار عجلة أو رافعة أو

مولّد أو أنبوب إلكترونيّ، ثم قرّروا ما إذا كان الناس أصحاب القدرة والمهارة هم المستغلّون الذين يعيشون من ثمار عملكم وسرقة ثروتكم التي تنتجونها، أو إذا ما كنتم تجرؤون على اعتقاد أنّكم تملكون السلطة على استعبادهم. واسمحوا لنسائكم أن يلقين نظرةً على امرأة الأدغال ذات الوجه الذابل والثديين المترهّلين، حين تجلس لطحن وجبةً في وعاء. ثمّ اسمحوا لهنّ بأن يسألن أنفسهنّ عمّا إذا كانت «غريزة صنع الأدوات» ستمنحهنّ الثلّاجات الكهربائيّة أو الغسّالات أو المكانس الكهربائيّة، وإذا لم يكن كذلك، فاسألوهنّ عمّا إذا كنّ سيهتممن بتدمير أولئك الذين قدّموا لهنّ كلّ شيء، لكن ليس «بالغريزة»، بل بالعقل.

أيّها المتوحّشون الذين يعتقدون أنّ الآلة ليست إبداعًا بشريًّا، بل إبداعَ قوّة صوفيّة، أنتم لم تكتشفوا العصر الصناعيّ مطلقًا، بل تتمسّكون بأخلاق العصور البربريّة حيث الحياة تعتمد على مجهود العبيد العضليّ. لقد كان المثاليّ يتوق دومًا إلى العبيد لحمايته من الواقع المادّي الذي كان يخشاه، لكن أنتم، أيّها المتطفّلون الصغار، تحدّقون بشكل أعمى في ناطحات السحاب والدخان من حولكم وتحلمون باستعباد منتجي الموادّ من علماء ومخترعين وصناعيّين. وعندما تطالبون بالملكيّة العامّة لوسائل الإنتاج، فأنتم تطالبون بالملكيّة العامّة للعقل. لقد علّمت المضربين أنّ الإجابة التي تستحقّونها هي فقط: «حاولوا الحصول عليها».

أنتم تعترفون أنّكم غير قادرين على تسخير المادّة الجامدة، ومع ذلك تطمحون إلى السيطرة على عقول الناس الذين كانوا قادرين على إنجاز أعمال خارقة لا تقدرون عليها. أنتم تعترفون أنّكم لا تستطيعون البقاء على قيد الحياة من دوننا، ومع ذلك تملون الشروط علينا، بل تؤكّدون بوقاحة أنّ لكم الحقّ في حكمنا بالقوّة. وكنتم تتوقّعون أنّنا سنرتعد أمام أيّ أحمق أقنعكم بالتصويت عليه ليحظى بفرصة قيادتنا. نحن لا نخشى حتّى الطبيعة المادّيّة التي ترعبكم، فكيف تتوقّعون منّا أن نخاف شخصًا ضعيفًا ينتمي إليكم.

كنتم تقترحون إنشاءَ نظامٍ اجتماعيّ يقوم على المبادئ الآتية: - إنّك غير مؤهّل لتدبير

حياتك الخاصّة، لكنّك مؤهّل لتدبير حياة الآخرين – إنّ الحرّيّة لا تليق بك، وكلّ ما يليق بك هو أن تكون الحاكم القاهر – إنّك غير قادر على كسب لقمة عيشك عن طريق استخدام ذكائك الخاصّ، لكنّك قادرٌ على الحكم على السياسيّين والتصويت عليهم في الوظائف ذات السلط المطلقة مثل الفنون التي لم ترَها البتّة، والعلوم التي لم تدرسها، والإنجازات التي لا تمتلك أدنى معرفة بها، والصناعات التي لن تقدر عليها.

هذا الصنم المعبود الذي ينتمي إلى عقيدتكم التي تقوم على عبادة الصفر، رمز العجز والتبعيّة الخلقيّة، هو صورتكم عن الإنسان ومعياركم للقيمة، ومن خلالهما تعيدون تشكيل أرواحكم، وتصرخون: «إنّه مجرّد عمل بشريّ» في الدفاع عن أيّ فساد، ليصل إلى مرحلة التحقير الذاتيّ، وهناك تسعون إلى جعل مفهوم «الإنسانيّ» يعني الإنسان الضعيف والأحمق والفاسد والكذّاب والفاشل والجبان والمحتال، وتنفون، في مقابل ذلك، القوى الأخرى مثل البطل والمفكّر والمنتج والمخترع والقويّ والنقيّ، كما لو أنّ العاطفة والفشل والفساد أفعالٌ إنسانيّة، أمّا التفكير والنجاح والفضيلة فأفعال غير إنسانيّة، وكما لو أنّ الموت يليق بالإنسان أمّا الحياة فهي لا تليق به.

كنتم تمدحون أيّ مغامرة لا تسعى إلى الربح. وفي مقابل ذلك، تذمّون أيّ مغامرة أخرى تسعى وراء الربح. وكنتم لا تعتزّون إلّا بالمشروع الذي يخدم المصلحة العامّة. وفي مقابل ذلك تشمئزّون من أيّ مشروع يخدم المصلحة الخاصّة بدعوى أنّه يلحق الضرر بعامّة الناس. كنتم تصرّون على أنّ أيّ مشروع ينبغي أن يخدم الرفاه العامّ، أي أولئك الذين فشلوا في تحقيق أيّ فضيلة أو قيمة، أمّا من يساهم في هذا الرفاه، ومن يوفّر ما تحتاجون إليه من سلع للبقاء، فلم تنظروا إليه بوصفه جزءًا من عامّة الناس أو جزءًا من الجنس البشريّ.

أيّ تعتيم سمح لكم بالأمل في الإفلات من وحل هذه التناقضات والتخطيط له على أنّه مجتمع مثاليّ، والحال أنّ قول «لا» من ضحاياكم كان كافيًا لتدمير هيكلكم كلّه؟ وما الذي يسمح لأيّ متسوّل متغطرس بأن يلوّح بقروحه في وجه من هم أفضل منه وأن يطلب المساعدة مهدِّدًا؟ أنتم تصرخون، مثلما يفعل، بأنّكم تعتمدون على شفقتنا،

لكنّ أملكم السرّيّ هو القانون الأخلاقيّ الذي علّمكم الاعتماد على ذنبنا. وتتوقّعون منّا أن نشعر بالذنب من فضائلنا في حضور الرذائل والجروح والفشل، وأن نشعر بالذنب من النجاح في الوجود، وأن نشعر بالذنب من الاستمتاع بالحياة التي تلعنونها، بينما تتوسّلون أن نمدّ إليكم يدَ العون في الحياة.

فهل تريدون معرفة مَن هو جون جالت؟ أنا أوّل إنسانٍ رفض أن يرى في قدراته ذنبًا. أنا أوّل إنسان لن يكفّر عن ذنب فضائله أو يتركها تستخدم كأدوات لتدميري. أنا الإنسان الأوّل الذي لن يعاني من الاستشهاد على أيدي أولئك الذين تمنّوا لي الموتَ لأنّني لم أمدّ إليهم يد العون حتّى يبقوا على قيد الحياة. أنا أوّل إنسان أخبرهم بأنّني لا أحتاج إليهم، وإلى أن يتعلّموا التعامل معي مثل تعاملهم مع التجّار، لمبادلة قيمة بقيمة، يجب عليهم أن يتعلّموا العيش من دوني، مثلما تعلّمت العيش من دونهم. عندها أدعهم يتعلّمون من يمثّل الحاجة ومن يمثّل القدرة. وإذا كان بقاء الإنسان على قيد الحياة هو المعيار، فإنّني سأدعهم يتعلّمون من الذي يحدّد شروط طريق البقاء على قيد الحياة.

لقد فعلتُ، عن طريق التخطيط والنية، مَا تمّ فعله على مرّ التاريخ عن طريق التقصير الصامت. لقد كان هناك دائمًا أناس أصحاب ذكاء خارق وقد دخلوا في الإضراب وفي الاحتجاج وفي اليأس، لكنّهم لم يعرفوا معنى فعلهم. فالإنسان الذي ينسحب من حياة التفكير العامّة، ولكن ليس لتبادل أفكاره؛ والإنسان الذي اختار أن يفني عمره في ظلمة عمل وضيع، ليحتفظ لنفسه بنار عقله الوقّادة، من دون أن يعطيها أيّ شكل أو تعبير أو واقع رافضًا أن يجلبها إلى عالم يحتقره؛ والإنسان الذي هزمه الاشمئزاز؛ والإنسان الذي يستسلم قبل أن يبدأ، والإنسان الذي يعمل ولا يكشف إلّا عن جزء يسير من قدرته... كلّهم مضربون، إنّهم في إضراب ضدّ اللّامعقول، في إضراب ضدّ عالمكم وقيمكم. لكنّهم ما عادوا يعرفون أيّ قيم خاصّة بهم، لأنّهم تخلّوا عن السعي وراء معرفتها. وفي ظلمة اليأس والسخط القانط، الذي علموا أنّه من حقّهم من دون معرفة الحقّ وعلموا أنّه حماسيّ من دون معرفة الرغبة، إنّهم يتنازلون لكم عن سلطة

الواقع ويسلّمونكم حوافزَ أذهانهم وهم يهلكون في عبث مرير مثل المتمرّدين الذين لم يعرفوا قطّ موضوعَ تمرّدهم، ومثل العشاق الذين لم يكتشفوا قطّ حبّهم.

إنّ الأزمنة التي أطلقتم عليها اسم العصور المظلمة كانت حقبة من الذكاء الذي أضرب عن الإبداع والعمل، عندما اعتكف أصحاب القدرات تحت الأرض وعاشوا في الخفاء، يدرسون في السرّ، وماتوا بعد أن دمّروا أعمالهم الفكريّة، في حين لم يبقَ منهم سوى عدد قليل من الشجعان لإبقاء الجنس البشريّ على قيد الحياة. لقد كانت كلّ فترة حكمها الصوفيّون حقبة الركود والعوز، وذلك حين كان معظم البشر في إضرابٍ ضدّ الوجود رافضين التفكير والمغامرة والاستثمار والإنتاج، أي حين كان الجامع النهائيّ لأرباحهم والسلطة النهائيّة على الصواب أو الخطأ مجرّد نزوة من بعض المذاهب المنحطّة التي تدّعي أنّها متفوّقة على العقل بحقٍّ إلهي وبفضل نعمة الهراوة. لقد كان طريق التاريخ البشريّ عبارة عن سلسلة من الفراغات على امتدادات عقيمة متآكلة من قبل الإيمان والسلطة، مع بضع انبعاثات قصيرةٍ من ضوء الشمس، عندما كانت طاقة رجال العقل المطلقة تؤدّي العجائب التي جنتها، والتي أعجبتم بها، ثمّ انقرضت وانطفأت مرّة أخرى.

لكن لن يحدث أيّ انقراض هذه المرّة، لأنّ لعبة المتصوّفة قد انتهت وسوف تهلكون فيها ويهلك معكم واقعكم الخاصّ. أمّا نحن، رجال العقل، فسننجو.

لقد دعوت إلى هذا الإضراب الشهداءَ الذين لم يهجروكم من قبل. لقد أعطيتهم السلاح الذي كانوا يفتقرون إليه وهو معرفة قيمتهم الأخلاقيّة. لقد علمتهم أنّ العالم لنا، كلّما اخترنا المطالبة به، وأنّ أخلاقنا هي أخلاق الحياة. إنّهم الضحايا العظماء الذين أنتجوا كلّ عجائب صيف الإنسانيّة القصير، إنّهم الصناعيّون، غزاة المادّة، الذين لم يكتشفوا طبيعة حقّهم. لقد كانوا يعرفون أنّ حقّهم يمثّل السلطة. لقد علّمتهم أنّ حقّهم يمثّل مجدهم وعظمتهم.

أنتم يا من تقولون، بكلّ جرأة، إنّنا أدنى منزلةً من أيّ صوفيّ يدّعي رؤى خارقة

للطبيعة؛ أنتم يا من تتصارعون مثل النسور من أجل نهب بنسات، وتكرّمون العرّاف وتخصّونه بمرتبة أعلى من صانع الثروة؛ أنتم يا من تزدرون رجل الأعمال وتصفونه بالحقير، وتقدّرون أيّ فنان يتظاهر بالتعالي، إنّ أصل معاييركم مستمدٌّ من جوّ الصوفيّ الموبوء، أي من عقيدة الموت التي تعتبر رجل الأعمال إنسانًا غير أخلاقيّ بسبب حقيقة أنّه يبقيكم على قيد الحياة. أنتم يا من تدّعون أنّكم تتوقون إلى بلوغ مراتب أعلى من هموم الجسد الفجّة، وفوق المثابرة في الخدمة المجرّدة لاحتياجات الجسد المادّيّة، من هو عبدُ الاحتياجات المادّيّة: أَهُوَ الهندوسي الذي يجاهد من شروق الشمس إلى غروبها في حرث الأرض بالمحراث أم هو الأمريكيّ الذي يقود الجرّار؟ ومن هو الغازي الفاتح للواقع المادّيّ: أَهُوَ الإنسان الذي ينام على سرير من المسامير أم الإنسان الذي ينام على فراش الزنبركات الداخليّة؟ وما هو النصب التذكاريّ الذي يشهد على انتصار الروح البشريّة على المادّة: أَهِي الأكواخ المتآكلة من الجراثيم على سواحل نهر الغانج أم ناطحات السحاب المطلّة على أفق المحيط الأطلسيّ لنيويورك؟

ما لم تعرفوا الإجابة على هذه الأسئلة، ولم تتعلّموا الوقوفَ وقفة إجلالٍ عند مواجهة إنجازات عقل الإنسان، فإنّكم لن تعمّروا فترةً أطول على هذه الأرض التي نحبّها ولن نسمح لكم بتدميرها. لقد توقّعتُ المسار المعتاد للتاريخ وجعلتكم تكتشفون طبيعة الثمن الذي كنتم تأملون في تحويله إلى أكتاف الآخرين. إنّها آخر قوّة من قوّتكم الحيّة التي ستُستنزَف الآن لتوفير غير المستحقّ للمصلّين وحَمَلَة الموت. فلا تتظاهروا بأنّ واقعًا خبيثًا هزمكم. لقد هُزمتم بسبب مراوغاتكم. ولا تتظاهروا بأنّكم ستهلكون من أجل مثال أعلى، بل ستَهلَكونَ علفًا لكارهي الإنسان.

أنا أعرض على الذين ما يزالون يحتفظون ببقايا الكرامة فرصةَ الاختيار. اخترْ بين ما إذا كنت ترغب في الموت في سبيل الأخلاق التي لم تؤمن بها أو في سبيل الأخلاق التي لم يسبق لك أن مارستها. قف على حافّة الدمار الذاتيّ وتفحّص قيمك وحياتك. لقد كنت تعرف كيف تنجز جردًا لثروتك، الآن أنجز جردًا لعقلك.

منذ الطفولة، كنت تخفي سرًّا هو أنّك لا تشعر بالرغبة في أن تكون أخلاقيًّا، ولا

تشعر بالرغبة في التضحية بالنفس، وأنّك تشعر بالرعب تجاه مدوّنتك الأخلاقيّة بل تكرهها، ولكنّك لا تجرؤ على قول ذلك حتّى مع نفسك، وأنّك خالٍ من تلك «الغرائز الأخلاقيّة» التي يصرّح الآخرون بالشعور بها. وكلّما قلَّ شعورك، صرّحت بأعلى صوتك عن حبّك غير الأنانيّ وعبادتك للآخرين، خوفًا من أن يكتشفوا ذاتك، تلك الذات التي خنتها، الذات التي احتفظتَ بها في الخفاء، مثل هيكل عظميّ في خزانة جسدك. إنّ الوجود بينكم هو تظاهر عملاق، فعلٌ تقومون به جميعًا، وكلّ واحدٍ منكم يشعر بأنّه مجرّد غريبٍ مذنبٍ، وكلّ واحد يضع سلطتَه الأخلاقيّة في المجهول الذي يعرفه الآخرون وحدهم، وكلّ منكم يزيّف الواقع الذي يشعر بأنّه يتوقّع منه أن يكون مزيّفًا، ولا أحد منكم يتمتّع بالشجاعة لكسر تلك الحلقة العبثيّة المفرغة.

وبغضّ النظر عن التسوية المخزية التي قدمّتها لعقيدتك غير العمليّة، وبغضّ النظر عن التوازن البائس الذي يقوم نصفه على السخرية، ونصفه الآخر على الخرافة، والذي نجحت الآن في المحافظة عليه، فأنت ما تزال تحافظ على جذر تلك العقيدة القاتلة: الاعتقاد بأنّ الأخلاقيّ والعملي متضادّان. فمنذ الطفولة كنت تهرب من رعب خيارك الذي لم تجرؤ قطّ على تحديده، فإذا تعلّق الأمر بما هو عمليّ، فإنّه سيشمل كلّ ما يجب عليك ممارسته من أجل الوجود، أي ما يتحقّق من أعمال، وما ينجح وما يحقّق الهدف الخاصّ بك، وكلّ ما يجلب لك الطعام والفرح وأيّ نوع من الأرباح، وكلّ تلك الأمور هي الشرّ. وإذا كان الأمر يتعلّق بالخيّر والأخلاقيّ، فهو كلّ ما هو غير عمليّ، وسيشمل أيّ فشل ودمار وإحباط، وكلّ ما يجرحك ويجلب لك الخسارة أو الألم. أمامك الآن خياران: إمّا أن تكون أخلاقيًا أو أن تعيش.

والنتيجة الوحيدة لذلك المبدإ القاتل كانت إزالةَ الأخلاق من الحياة. لقد نشأت على اعتقاد أنّ القوانين الأخلاقيّة لا علاقة لها بوظيفة الحياة إلّا كعائق وتهديد، وأنّ وجود الإنسان هو بمثابة غابة غير أخلاقيّة فيها يذهب كلّ شيء ويعمل كلّ شيء. وفي خضمّ هذا الضباب من تبديل التعريفات التي تنزل على عقل مجمّد، نسيت أنّ الشرور الملعونة من قبل عقيدتك كانت تمثّل الفضائل المطلوبة للعيش وقد توصّلت إلى اعتقاد

أنّ الشرور الفعليّة هي الوسائل العمليّة للوجود. وعندما نسيت أنّ «الخير» غير عمليّ آمنتَ بأنّ احترام الذات غير عمليّ. وعندما نسبت أنّ «الشر» عمليّ آمنت بأنّ السرقة فعل عمليّ.

أنت تتأرجح مثل غصن عاجز أمام رياح برّيّة أخلاقيّة مجهولة، فلا تجرؤ على أن تكون شرّيرًا أو أن تعيش حياة كاملة. عندما تكون صادقًا، فإنّك تشعر باستياء المغفّل، وعندما تغشّ، فإنّك تشعر بالرعب والخجل. وعندما تكون سعيدًا، فإنّ فرحتك تخفّف من الشعور بالذنب. وعندما تعاني، فإنّ الألم يجعلك تقتنع بأنّ هذه هي حالتك الطبيعيّة. أنت تشفق على الناس الذين تحترمهم، وتؤمن بأنّه حكم عليهم بالفشل، وتحسد الناس الذين تكرههم، وتؤمن بأنّهم سادة الوجود. وتشعر بأنّك منزوع السلاح عندما تواجه وغدًا، كما تؤمن بأنّ الشرّ لا بدّ أن يفوز بما أنّ الأخلاق تمثّل العاجز، وكلّ ما هو غير عمليّ.

إنّ الأخلاق، بالنسبة إليك، لا تعدو أن تكون فزّاعةً تنبني على الواجب والعقاب والألم. إنّها تأليف بين نصائح معلّم قديم وجامع ضرائب حديث. إنّها فزّاعة واقفة في حقل جافّ وقاحل، تلوّح بعصًا لتطرد ملذّاتك ومتعتك. إنّها تمثّل لك دماغًا تنتشي بالخمور، وعاهرةً وقحة طائشة، ومعتوهًا مذهولًا يخاطر بماله على عرق بعض الحيوانات، لأنّ المتعة لا يمكن أن تكون أخلاقيّة.

وإذا حدّدت إيمانك الحقيقيّ ستجد أنّها تدين نفسك والحياة والفضيلة. وستؤمن بأنّ الأخلاق شرٌّ لا بدّ منه.

هل تساءلت يومًا: لماذا تعيش من دون كرامة؟ ولماذا تموت بلا مقاومة؟ لماذا لا تجد سوى أسئلة بلا إجابات أينما ولّيت وجهك؟ لماذا تمزّقُ الصراعات المستحيلة حياتَك؟ ولماذا تقضّي حياتَك وأنت تتردّد بين الروح والجسد، بين العقل والقلب، بين الأمن والحرّيّة، بين الربح الخاصّ والخير العامّ؟

هل تحتجّ لأنّك لم تجد إجابات؟ فبأيّ وسيلة كنت تأمل أن تجدها؟ أنت ترفض أداة

إدراكك، أي أنّك ترفض عقلك، ثمّ تشتكي من أنّ الكون بمثابة لغز. أنت تتخلّص من مفتاحك، ثمّ تنوح بأنّ كلّ الأبواب موصدة أمامك. ثمّ تبدأ في السعي وراء اللّاعقلانيّة، ثمّ تلعن الوجود لأنّه لا يقدّم لك أيّ معنى.

إنّ السور الذي كنت تراقبه ساعَتين -بينما تسمعُ كلماتي وتسعى إلى الهروب منها- هو صيغة الجبناء التي تقول: «ليس علينا أن نذهب إلى أقصى الحدود»، فأقصى ما كافحت من أجله دائمًا هو تجنّب الاعتراف بأنّ الواقع نهائيّ وأنّ «أ» هي «أ» وأنّ «الحقيقة» أمرٌ صائب. لقد تعلّمت من مدوّنة أخلاقيّة يستحيل ممارستها، مدوّنة تطالب بعدم الكمال أو الموت، وقد علّمتك حلّ جميع الأفكار في الضباب، ولا تسمح لك بأيّ تعريفات صارمة، بل تدعوك إلى رؤية أيّ مفهوم على أنّه تقريبيّ ورؤية أيّ قاعدة من القواعد على أنّها مرنة، وتدعوك أيضًا إلى الاحتماء بأيّ مبدإ، والمساومة في أيّ قيمة، والتموقع في منتصف أيّ طريق، وعبرَ ابتزازك لقبولك بالقيم المطلقة الخارقة للطبيعة وهو قبول أجبرك على رفض الطبيعة المطلقة بجعل الأحكام الأخلاقيّة مستحيلةً، وجعلك غير قادر على الحكم العقلانيّ. إنّه قانون يمنعك من إلقاء الحجر أوّلًا، ويمنعك من الاعتراف بهويّة الحجارة ومعرفة متى تتعرّض للرجم أو ما إذا كنت تتعرّض له.

إنّ الإنسان الذي يرفض إصدارَ الأحكام، ولا يوالي أو يعارضُ هو إنسان مسؤول عن كلّ الدماء التي تهدر الآن في العالم. فالحقيقة مطلقةٌ، والوجود مطلقٌ، وذرّة الغبار مطلقةٌ، وكذلك حياة الإنسان. أن تعيش أو تموت هو أمرٌ مطلق. وإنّه لأمرٌ مطلق سواء أكنت تملك قطعة خبزٍ أم لا. وسواء أكلت خبزك أو رأيته يتلاشى في معدة السارق، فهذا أيضًا أمرٌ مطلق.

لكلّ مسألة جانبان؛ أحدهما صحيحٌ والآخر خاطئٌ، لكنّ الوسط دائمًا شرّير. فالإنسان المخطئ لا يزال يحتفظ ببعض الاحترام للحقيقة، حتّى بقبول مسؤوليّة الاختيار. لكنّ الإنسان الذي يبقى في الوسط هو إنسانٌ شرير لأنّه يتظاهر بأنّه لا يمتلك حرّيّة الاختيار ويدّعي أن القيم غير موجودة، وهو على استعداد للجلوس أثناء

أيّ معركة، وعلى استعداد للاستفادة من دماء الأبرياء أو الزحف على بطنه نحو المذنب، وهو من يوزّع العدالة بإدانة كلّ من السارق والضحيّة والحكم عليهما بالسجن، وهو الذي يحلّ النزاعات عن طريق طلب التقاء المفكّر والأحمق في منتصف الطريق. وفي أيّ تسوية بين الطعام والسمّ، فإنّ الموت وحدَه هو الذي يفوز. وفي أيّ تسوية بين الخير والشرّ، وحدَه الشرّ يمكن أن يستفيد. ثمّ إنّك في أيّ عمليّة نقل للدم تستنزفُ الخير لإطعام الشرّ.

أنت يا من يجتمع فيه الذكاء والخوف، لقد كنت تخدع نفسك. فعندما يقلّل الناس من فضائلهم إلى الحدّ التقريبيّ، فإنّ الشرّ يكتسب قوّةً مطلقة، وعندما يتخلّى الإنسان الفاضل عن الولاء من أجل هدف ثابت لا يلين، فإنّ من يلتقطه هم الأوغاد، وتتحصّل على مشهد يتذلّل فيه الخيّر للخائن والمساوم للشرّير المتعنّت. كما هي الحال عندما تستسلم للمادّيّين عندما أخبروك بأنّ الجهل هو ادّعاء المعرفة، وعلى هذا النحو تستسلم لهم الآن عندما يصرخون أنّ الفجور واللّاأخلاق تتكوّن من النطق بالحكم الأخلاقيّ. وعندما يصرخون بأنّ من الأنانية التأكُّدَ من أنّك على حقّ، فتسارع إلى أن تؤكّد لهم أنّك لست متأكّدًا من أيّ شيء. وعندما يصرخون أنّ من غير الأخلاقيّ الوقوف على قناعاتك، فإنّك ستسارع لتؤكّد لهم أنّك لا تملك أيّ قناعات. وعندما يزمجر قطّاع الطرق في دول أوروبا الشعبيّة بأنّك متّهم بالتعصّب، لأنّك لا تعامل رغبتَك في الحياة ورغبتهم في قتلك على أنّه اختلاف في الرأي، فإنّك ستتذلّل وتسارع لتؤكّد لهم أنّك لست متعصّبًا لأيّ رأي. وعندما يصرخ عليك شخصٌ حافي القدمين في أيّ منطقة موبوءة من قارّة آسيا: كيف تجرؤ على أن تكون غنيًّا، فإنّك ستعتذر وتتوسّل إليه أن يكون صبورًا وتعده بأنّك ستتخلّى عن كلّ شيء.

لقد وصلت بالخيانةِ التي ارتكبتَها إلى طريقٍ مسدودٍ عندما وافقت على أنّه ليس لديك الحقّ في الوجود. واعترفت أنّ من الشرّ أن تعيش لنفسك، أمّا أن تعيش من أجل أطفالك فذلك فعل أخلاقيّ. ثمّ اعترفت بأنّ العيش لأطفالك كان فعلًا أنانيًّا، لكنّ العيش لمجتمعك هو فعل أخلاقيّ. ثمّ اعترفت بأنّ العيش لمجتمعك كان فعلًا

أنانيًّا، لكنّ العيش لبلادك هو فعل أخلاقيّ. وأنت الآن تترك هذه البلدان العظيمة تلتهم من أيّ حثالة في أيّ ركن من أركان الأرض، بينما تعترف أنّ من الأنانيّة أن تعيش من أجل بلادك وأنّ الواجب الأخلاقيّ هو أن تعيش من أجل العالم. فاعلم أنّ الإنسان الذي ليس له الحقّ في الحياة، ليس له الحقّ في القيم ولن يحتفظ بها.

وفي نهاية طريقك الذي يقوم على الخيانات المتعاقبة، حين تكون مجرّدًا من أسلحة اليقين والشرف، سترتكب فعل الخيانة النهائيّة وستوقّع عريضةَ إفلاسك الفكريّ. وبينما يعلن المادّيّون في تلك الدول أنّهم أبطالُ العقل والعلم، فإنّك ستوافق وتقول إنّ الإيمان مبدأ أساسيّ، وإنّ العقل يقع في صفّ مدمّريك، ولكنّ عقلك يقع في صفّ الإيمان. وستقول لبقايا الصدق العقلانيّ المكافح في عقول أطفالك الحائرة إنّك تستطيع تقديم أيّ حجّة منطقيّة لدعم الأفكار التي خلقت هذه البلاد، وإنّه لا يوجد أيّ تبرير منطقيّ يدعم الحرّيّة والملكيّة والعدالة والحقوق، وإنّها تقوم على نظرة المتصوّفة ويمكن أن تكون مقبولة بالإيمان فقط، وإنّه استنادًا إلى العقل والمنطق فإنّ العدوّ على حقّ، لكنّ الإيمان يتفوّق على العقل. وستقول لأطفالك إنّ من العقلانيّة أن يمارسوا أفعالًا مثل النهب والتعذيب والاستعباد والمصادرة والقتل، لكن يجب عليهم مقاومة إغراءات المنطق والتمسّك بما تبقّى لهم من انضباط لكلّ ما هو غير عقلانيّ؛ وإنّ ناطحات السحاب والمصانع وأجهزة الراديو والطائرات كانت منتجات الإيمان وثمار الحدس الصوفيّ، أمّا المجاعات ومعسكرات الاعتقال وفرق الإعدام فهي نتاج أسلوب وجود المعقول؛ وإنّ الثورة الصناعيّة كانت ثورة رجال الدين ضدّ تلك الحقبة من العقل والمنطق، وهي حقبة تعرف باسم العصور الوسطى. وفي الوقت نفسه، تقول للطفل نفسه إنّ اللصوص الذين يحكمون ولايات الشعب سيتجاوزون هذه البلاد في الإنتاج المادّيّ، لأنّهم يمثّلون العلم؛ وإنّ من الشرّ الاهتمامَ بالثروة المادّيّة؛ وإنّه يجب على المرء التخلّي عن الازدهار المادّيّ لتعلن أنّ المثل العليا للناهبين نبيلة، لكنّهم لا يقصدون فعل ذلك أمّا أنتم فتقصدونه؛ وإنّ هدفك من محاربة الناهبين هو فقط من أجل تحقيق أهدافهم التي لا يستطيعون تحقيقها أمّا أنت فتستطيع. ثمّ

ستتعجّب من انضمام أطفالك إلى السفّاحين أو من كيفيّة تحوّلهم إلى جانحين أو أشباه مجانين، وتتساءل لماذا تستمرّ فتوحات اللصوص في الزحف بالقرب من أبوابك. وستعزو ذلك إلى غباء البشر، وتعلن أنّ الجماهير منيعة من العقل.

إنّك تُجري عمليّة تبييض للمشهد العلنيّ المفتوح لمحاربة اللصوص ضدّ العقل وحقيقة أنّ أهوالهم الأكثر دمويّة قد أطلقت لمعاقبة جريمة التفكير، وأنت تعتّم على حقيقة أنّ معظم المادّيّين كانوا في البداية مثاليّين؛ وأنّهم يبقون على التحوّل من مذهبٍ إلى آخر؛ وأنّ الناس الذين تنعتهم بالمادّيّين والمثاليّين هم نوع واحد من الإنسان نفسه، ذاك الذي تمّ تشريحه؛ وأنّهم يسعون دائمًا إلى الكمال، ولكن عبر التأرجح من تدمير الجسد إلى تدمير الروح والعكس صحيحٌ؛ وأنّهم يستمرّون في الهروب من كليّاتكم نحو أقلام العبيد في أوروبا. ومن ثمّ، إلى الانهيار المفتوح في وحل الهند الصوفيّ، ويسعون وراء إيجاد أيّ ملجإ ضدّ الواقع، وأيّ شكل من أشكال الهروب من العقل.

أنت تبيّض هذا المشهد وتتمسّك بنفاقك الذي يقوم على «الإيمان» من أجل إنكار حقيقة أنّ اللصوص قد ضيّقوا الخناق عليك بسبب قانونك الأخلاقيّ؛ وأنّ اللصوص يطبّقون قيمك الأخلاقية التي تلتزم ببعضها وتتهرّب من بعضها الآخر. إنّهم يمارسونها عبر تحويل الأرض إلى فرن للتضحية؛ وأنّ أخلاقك تمنعك من معارضتهم لأنّ ذلك يعني أنّك ترفض قيمك الأخلاقيّة.

أنت تغطّي على هذا الأمر، لأنّ اعتزازك بنفسك مرتبط بـ«نكران الذات» الذي يتمتّع به الصوفيّ ولم تمتلكه أنت أو تمارسه قطّ، ولكنّك قضّيت سنوات عديدة وأنت تتظاهر بامتلاكه، وفكرة التنديد به تشعرك بالرعب. فاعلم أنّه لا قيمة أعلى من الاعتزاز بالذات لكنّك استثمرتها مقابل أوراق ماليّة وسندات مزيّفة، وأنّ أخلاقك الآن قد وقعت في الفخّ وهو ما سيجعلك مجبرًا -لحماية اعتزازك بذاتك- على القتال من أجل عقيدة التدمير الذاتيّ. إنّ النكتة القاتمة تقوم عليك: فتلك الحاجة إلى احترام الذات، وأنتَ غير قادر على شرحها أو تعريفها، تنتمي إلى أخلاقي أنا ولا تنتمي إلى أخلاقك أنت. إنّها الرمز الموضوعيّ لقانوني الأخلاقيّ الذي هو برهانٌ لي يقبع داخل

روحك.

ومن خلال الشعور الذي لم يتعلّم بعدُ فعل تحديده، لكنّه مشتقّ من أوّل وعيه بالوجود، ومن خلال اكتشاف أنّ عليه الإقدام على خياراتٍ، يعلم الإنسان أنّ حاجته الماسّة إلى احترام ذاته هي مسألة حياة أو موت. وبوصفه كائنًا يتمتّع بوعي إراديّ، فإنّ الإنسان يدرك أنّ عليه معرفةَ قيمته كي يحافظ على حياته، ويدرك أيضًا أنّ عليه أن يكون على حقٍّ؛ فالخطأ في أفعاله يعني خطرًا على حياته، والخطأ عندما يكون في شخص الإنسان، أي أن يكون شريرًا، يعني أن يكون غير صالح للوجود.

إنّ كلّ فعلٍ في حياة الإنسان يجب أن يقوم على الإرادة، فمجرّد الحصول على الطعام أو أكله يعني أنّ الفرد الذي يحافظ على ذلك الطعام يستحقّ أن يحافظ عليه هو في شخصه، وأنّ كلّ المتعة التي يسعى إلى الاستمتاع بها تعني أنّ الشخص الذي يسعى وراءها جدير بالتمتّع بها. فهو لا يملك خيارًا في خصوص حاجته إلى احترام ذاته، وخياره الوحيد هو المعيار الذي يقيسه به. وسيرتكب خطأه القاتل عندما يحوّل هذا المقياس الذي يحمي حياته إلى خدمة دماره الخاصّ، وعندما يختار معيارًا يناقض الوجود ويضع احترامه لنفسه في مواجهة الواقع.

كلّ شكل من أشكال غياب السبب يعتبر شكًّا ذاتيًّا، وكلّ شعور بالنقص وعدم الجدارة هو في الواقع خوف الإنسان الخفيّ من عدم قدرته على التعامل مع الوجود. لكن كلّما ازداد رعبُه، اشتدّ تعلّقه بمذاهب القتل التي تخنقه. ولا يمكن لأيّ إنسان أن ينجو من لحظة إعلان نفسه شريرًا على نحو لا يُرجى إصلاحه. وإذا فعل ذلك، فإنّ الأمر سينتهي به إلى الجنون أو الانتحار. وللهروب من ذلك -إذا اختار معيارًا غير عقلانيّ- فإنّه سيزيّف ويتهرّب ويقوم بعمليّة تعتيم. سيغشّ نفسه على مستوى الواقع والوجود والسعادة والعقل، وسيخدع نفسه في نهاية المطاف في احترامه لذاته عن طريق الكفاح للحفاظ على الوهم بدلًا من المخاطرة باكتشاف نقصه. فالخوف من مواجهة مشكلة اعتقادٌ بأنّ الأسوأ هو الصواب.

وليس بمقدور أيّ جريمة ارتكبتَها أن تصيب روحك بالذنب الدائم، فهذا الذنب ليس مصدره الإخفاقات أو الأخطاء أو العيوب، بل يُرَدُّ إلى محاولتك التهرّب من كلّ تلك النقائص. إنّها جريمة اقترفتها بسبب تقصيرك، ورفضك استخدام العقل. إنّ الخوف والذنب هما عاطفتاك المزمنتان، وهما حقيقيّان وأنت تستحقّهما، ولكنّهما لا يعودان إلى الأسباب السطحيّة التي بها تحاول أن تغطّي على الأسباب الحقيقيّة. إنّ مصدرهما ليس أنانيّتك أو ضعفك أو جهلك، بل هو تخلّيك بشكل إراديّ عن سلاح البقاء وهو العقل.

إنّ القوة التي خنتها هي عقلك. والاعتزاز بالذات لا يأتي إلّا من الاعتماد على التفكير. والأنا التي تسعى إليها ليست عواطفك أو أحلامك غير المنطوقة، بل فكرك، أي ذلك القاضي في محكمتك العليا الذي اتّهمته بالانسياق وراء محامٍ مخادع كنت تصفه بأنّه «شعورك». ثمّ تسحب نفسك ذات ليلة عصاميّة في مسعى يائس من أجل نار مجهولة تحرّكها رؤيةٌ باهتة لفجرٍ كنت قد رأيتَه وأضعتَه.

لاحظ ما في الأساطير البشريّة من إصرارٍ على الأسطورة التي تتحدّث عن جنّةٍ امتلكها البشر ذات مرّة، وتمثّلها في خلفيّتنا مدينة أطلانطس أو جنّة عدن أو إحدى ممالك الكمال. إنّ أصل تلك الأسطورة موجودٌ، لا في ماضي جنسنا البشريّ، بل في ماضي كلّ إنسانٍ. فأنت ما تزال تحتفظ بشعورٍ ليس راسخًا مثل الذاكرة، ولكنّه منتشرٌ مثل ألم الشوق اليائس. إنّه في مكان مّا في السنوات الأولى من طفولتك، قبل أن تتعلّم الخضوع واستيعاب الإرهاب اللّامعقول والشكّ في قيمة عقلك، وقد عرفت إشعاعًا لحالة من الوجود، وأدركت استقلال وعي عقلانيّ كان يواجه كونًا مفتوحًا. تلك الجنّة التي خسرتها هي الجنّة التي تسعى إليها. إنّها لكَ فانعم بها.

إذا كان البعض منكم لا يعرف من هو جون جالت، فإنّ البعض الآخر، أي أولئك الذين عرفوا لحظةً واحدة من حبّ الوجود، يعرفون جيّدًا من أكون. أنا الإنسان الوحيد الذي أدرك أنّه لا يمكن خيانة تلك الحالة. أنا الإنسان الذي عرف ما جعلها ممكنةً. أنا الإنسان الذي اختار باستمرارٍ أن يمارسها وأن يفعل ما كنتَ تمارسه وما

كنت عليه في تلك اللحظة.

هذا الخيار، وهو بالمناسبة إهداء إلى أعلى إمكانات المرء، مصنوعٌ من قبول حقيقة أنّ أنبل قانونٍ كنتَ تؤذيه هو قانون عقلك.

أنت وحدك مع كلماتي في هذه اللحظة، ولكن لا يرافقك شيءٌ سوى الصدق لمساعدتك على فهم الخيار الذي ما يزال مفتوحًا أمام الإنسان، ولكنّ الثمن هو أن تبدأ من الصفر، وأن تقف عاريًا في مواجهة الواقع، وتقلب الخطأ التاريخيّ المكلف رأسًا على عقب وتقول: «أنا موجود إذَن أنا أفكّر».

اقبل بحقيقة أنّ حياتك تعتمد على عقلك. واعترف بأنّ نضالك وشكوكك وزيفَك ومراوغاتك كانت أفعالًا تبحث بيأسٍ عن وسائلَ للهروب من مسؤوليّة الوعي الإراديّ، ذلك البحث عن المعرفة الجاهزة والفعل الغريزيّ واليقين الحدسيّ، بينما كنت تصفه بأنّه شوق إلى حال الملائكة، غير أنّ ما كنت تبحث عنه كان حال الحيوان. فاقبل، كمثل أعلى، بمهمّة أن تصبح إنسانًا.

لا تقل إنّك خائف من الثقة في عقلك، لأنّك لا تعلم سوى النزر اليسير. فهل أنت أكثر أمانًا عندما تستسلم للصوفيّين؟ فعش واعمل ضمن حدود معرفتك وواصل توسيعها إلى نهاية حياتك. واسترجع عقلك من حظائر السلطة. واقبل حقيقة أنّك لست عليمًا، لأنّ لعب دور الزومبي لن يمنحك العلم المطلق، وأنّ عقلك معصوم من الخطإ، وأنّك عندما تصبح في حال من لا عقل له فإنّ ذلك لن يحول دون وقوعك في الخطإ، وأنّ الخطأ الذي ترتكبه بنفسك هو أكثر أمانًا من عشر حقائق تُقبَل بالإيمان، لأنّ الخطأ يترك لك الوسائل لتصحيحه، أمّا الحقائق المكتسبة بالإيمان فإنّها تدمّر قدرتك على تمييز الصواب من الخطإ. وعوض أن تحلم ببلوغ حالة تنتظر فيها أن يُوحَى إليك بالمعرفة، تقبّل حقيقةَ أنّ أيّ معرفة يكتسبها الإنسان إنّما يصل إليها بإرادته وجهوده، وهذا الأمر هو تمامًا ما يميّز الإنسان، وما يشكّل مجده.

وتخلّص من تلك الفكرة التي تزعم أنّ الإنسان غير كاملٍ. فبأيّ معيار تلعنه عندما

تطالب بذلك؟ فاقبل حقيقة أنّه في عالم الأخلاق لا شيء أقلّ من الكمال سيفعل ذلك. لكنّ الكمال لا يقاسُ بالوصايا الصوفيّة لممارسة المستحيل، ومكانتك الأخلاقيّة لا تقاسُ من خلال المسائل التي ليست مفتوحة على اختيارك. ثمّة خياران أمام الإنسان: إمّا أن يفكّر أو ألّا يفكّر. والكمال الأخلاقيّ هو العقلانيّة غير المخترقة. إنّه ليس درجة ذكائك، بل الاستخدام الكامل لعقلك، إنّه ليس مدى معرفتك، بل مدى قبولك بالعقل بوصفه مطلقًا.

وتعلّم كيفيّة تمييز أخطاء المعرفة من خروقات الأخلاق. فالخطأ في المعرفة ليس عيبًا أخلاقيًّا، شرطَ أن تكون على استعداد لتصحيحه. وحدَه المتصوّف يستطيع أن يحكم على البشر من خلال معيار العلم الجاهز. لكنّ خرق الأخلاق هو التهرّب الإراديّ المتعمّد من المعرفة وتعطيل البصيرة والفكر. وذلك الخرق الذي كنت لا تعرفه ليس تهمة أخلاقيّة ضدّك، وما كنت ترفض معرفتَه هو حساب العار المتزايد في روحك. فتسامح مع أخطاء العقل، ولا تغفر أيّ إخلال بالأخلاق أو تقبله. وأبرز قيمة الشكّ لأولئك الذين يسعون إلى المعرفة، وعامل تلك العيّنات من الفساد على أنّهم قتلة محتملون، أولئك الذين يطالبونك بأشياء، ثمّ يزعمون أنّهم يمتلكونها بالقول إنّهم «يشعرون بها فقط» أو أولئك الذين يرفضون حجّةً لا تقبل الجدل أو الدحض بالقول: «إنّه المنطق فقط» وهو ما يعني «أنّها الواقع فقط». إنّ المملكة الوحيدة التي تعارض الواقع هي المملكة التي تقوم على فرضيّة الموت.

واعلم أن تحقيق سعادتك هو الهدف الأخلاقيّ الوحيد من حياتك، وأنّ السعادة - وليس الألم أو الانغماس الذاتيّ الطائش - هي البرهان على سلامتك الأخلاقيّة، لأنّها هي ولاؤك لتحقيق قيمك. لقد كانت السعادة هي المسؤوليّة التي كنت تهابها، فهي تتطلّب نوعًا من الانضباط العقلانيّ الذي كنت لا تستطيع تحمّله. والملل الرتيب في حياتك هو ما يشهد على تهرّبك من المعرفة، وأنت تدّعي أنّه لا يوجد بديل أخلاقيّ من السعادة، وأنّه لا يوجد جبان حقير أكثر من الإنسان الذي هجر المعركة من أجل فرحه، وخوفًا من تأكيد حقِّه في الوجود، لأنّه يفتقر إلى الشجاعة والولاء للحياة مثلما

يمتلكه طيرٌ أو زهرة يرغبان في الوصول إلى الشمس. فتجاهل تلك الخِرَقِ الواقية لذلك العيب الذي تسمّيه فضيلة التواضع. وتعلّم تقدير نفسك ومنحها القيمة التي تستحقّها، لأنّها تكافح من أجل سعادتك. وعندما تعلم أنّ الكبرياء هو مجموع الفضائل، ستتعلّم أن تعيش مثل الإنسان.

وكخطوة أساسيّةٍ في طريق احترام الذات، تعلّمْ أن تطلق صفةَ آكل لحوم البشر على أيّ إنسان يطلب أن تمدّ إليه يدَ العون، لأنّ هذا الأمر يعني أنّ الآخر ينظر إليك على أنّك عبدٌ خدوم. وبغضّ النظر عن بشاعة هذا الطلب، مايزال هناك شيء مّا أكثر بشاعة من ذلك وهو موافقتك. فهل من الحكمة أن نمدّ يد العون إلى إنسانٍ آخر؟ أقول: لا، إذا كان الإنسان يعتبر هذا الأمر حقًّا. وأقول: نعم، إذا قُدّمت هذه المساعدة عن طيب خاطر. فالمعاناة في حدّ ذاتها ليست قيمةً، بل هي معركة الإنسان ضدّ المعاناة. وإذا اخترتَ مساعدة من يعاني، فافعل ذلك فقط على أساس فضائله، وجهاده من أجل التعافي، أو على أساس أنّه مظلوم. ففعلك ما يزال، في هذه الحال، شكلا من أشكال الاتّجار، وفضله هو أجرُ مساعدتك. لكنّ مساعدة إنسانٍ لا يملك أيّ فضائل، هي أمرٌ مجّانيّ لا يعود على المرء بأيّ نفعٍ. فالإنسان الذي لا يملك أيّ فضائل هو إنسانٌ يكره الحياة ويتصرّف بناءً على فرضيّة الموت، وعليه، فإنّ مساعدته تعني السماح بشرّه ودعم حياته المهنيّة القائمة على الدمار. لا تساعده ولو بفلسٍ واحد أو ابتسامة لطيفة لأنّه لا يستحقّها. إنّ تكريم هذه الفئة خيانةٌ للحياة، ولكلّ أولئك الذين يكافحون من أجل الحفاظ عليها، فبسبب هذه المساعدة يشيع الخراب الآن في عالمنا.

لا تقل إنّ أخلاقي عصيّة على التطبيق، وإنّك تخشاها تمامًا مثلما تخشى المجهول. وأيًا كانت لحظات الحياة التي عشتها، فإنّك قد عشتها وفقًا لمبادئي الأخلاقيّة، لكنّك خنقتها وخنتها. لقد كنت تضحّي بفضائلك لصالح رذائلك، وبالأفضل من بين البشر لصالح الأسوإ. تأمّل ما فعلت بالمجتمع. لقد فعلتَ ذلك داخل روحك أوّلًا، ودفعت بالمرء إلى أن يكون نسخة من الآخر. وهذا الحطام الكئيب، الذي يمثّل الآن عالمك، هو الشكل المادّيّ للخيانة التي التزمت بها تجاه قيمك وأصدقائك والمدافعين عنك،

ومستقبلك وبلادك ونفسك.

نحن -الذين تتّصل بهم الآن، ولكنّنا لن نردّ أبدًا على اتّصالاتك- عشنا بينكم، ولكنّك فشلت في معرفتنا، ورفضت التفكيرَ في ما كنّا عليه ورفضتَ رؤيةَ ذلك. لقد فشلت في التعرّف على المحرّك الذي اخترعتُه وأصبح في عالمك كومةً من الخردة الميّتة. وفشلت في التعرّف على البطل في روحك وأخفقتَ في معرفتي عندما مررت أمامك في الشارع وصرخت يائسًا من أجل الروح التي لا يمكن تحقيقها، وشعرتَ أنّها هجرت عالمك ومنحتها اسمي، لكنّ ما ناديتَه كان خيانتك لاعتزازك بنفسك، فأنت لن تستعيد أيّ واحدٍ منها من دون الأخرى.

وعندما فشلت في الاعتراف بعقل الإنسان وحاولت حكم البشر بالقوّة، فإنّ أولئك الذين استسلموا لم يكونوا أصلًا يملكون عقلا أصيلا ليسلّموه، أمّا الأذكياء فقد كانوا في الأصل من تلك الفئة التي لا تعرف الاستسلام. هكذا ارتدى الإنسان العبقريّ المنتجُ في عالمك قناعَ المستهتر وأصبح مدمّرًا للثروة، وهكذا تولّى المفكّر وصاحب العقل في عالمك دورَ القرصان للدفاع عن قيمه. هل تسمعني، يا فرانسيسكو دانكونيا وراجنار دانيسكولد، يا أصدقائي الأوائل، ورفاقي المقاتلين، وزملائي المنبوذين، الذين أتكلّم باسمهم وشرفهم؟

نحن الثلاثة بدأنا ما أُكمِله الآن. نحن الثلاثة قرّرنا الثأر لهذه البلاد وإطلاق سراح روحها المسجونة. ومن بين جميع البلدان في العالم، هذه هي البلاد العظيمة التي قامت على مبادئ الأخلاقيّة، ولاسيّما حقّ الإنسان في الحياة، لكنّك تخشى الاعترافَ بذلك. لقد شاهدت ذاك الإنجاز الذي لم يشهد له التاريخ مثيلًا، ونهبت نتائجَه ومحوت أسبابه. وفي ظلّ وجود هذا النصب التذكاريّ لأخلاق الإنسان الذي يمكن أن يكون مصنعًا أو طريقًا سريعةً أو جسرًا، واصلت إدانةَ هذه البلاد بأنّها غير أخلاقيّة وبأنّ تقدّمها يقوم على «الجشع المادّيّ»، وواصلت تفسير عظمة هذه البلاد ببركة ذلك الصُّوفيّ المجذوم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

هذه البلاد التي بناها العقل لا يمكنها الاستمرار في العيش على أخلاق التضحية. لم يَبْنِها البشر الذين يسعون إلى التضحية بالنفس أو البشر الذين يطمعون في الصدقات. ولا يمكنها أن تقف على التقسيم الصوفيّ الذي فصل روح الإنسان عن جسده. ولا يمكنها أن تعيش وفقًا للمذهب الصوفيّ الذي لعن هذه الأرض ووصفها بالشرّ الأكبر، ووصفَ بُناتها بالمفسدين. منذ بدايتها، كانت هذه البلاد تمثّل تهديدًا لحكم الصوفيّين القديم. ففي الانفجار الصاروخيّ الرائع لشبابها، أظهرت هذه البلاد لعالمٍ مريبٍ أيَّ عظمة يستطيع الإنسان الوصول إليها، وأيّ سعادة كانت ممكنة على الأرض. وكان الخيار إمّا أمريكا أو الصوفيّون. إنّ الصوفيّين يعلمون ذلك؛ أمّا أنت فلا تعلم. لقد تركتهم يصيبونك بعدوى عبادة الحاجة فأصبحت هذه البلاد عملاقًا في الجسم ولكن بقزمٍ متسوّل يسكن روحَها، بينما كانت الروح الحيّة مدفوعة إلى العمل تحت الأرض وإطعامك في صمتٍ، من دون أن تكشف عن اسمها أو تكرّم. لقد تنكّروا لروحها الحقيقيّة ولأبطالها الحقيقيّين. هل تسمعني الآن يا هانك ريردن، يا أعظم الضحايا الذين انتقمت لهم؟

لن يعود هو ولا بقيّتنا لإعادة بناء هذه البلاد إلّا بعد إلغاء أخلاق التضحية. فالنظام السياسيّ لأيّ بلادٍ يستند على مدوّنة الأخلاق الخاصّة بها. ونحن سوف نعيد بناء النظام الأمريكيّ بناءً على الفرضيّة الأخلاقيّة التي كانت أساسها، لكنّك تعاملتَ معها على أنّها ذنبٌ خفيّ تحت الأرض، في تهرّبك المحموم من الصراع بين تلك الفرضيّة وأخلاقك الصوفيّة، أي فرضيّة أنّ الإنسان غايةٌ في حدّ ذاته، وليس وسيلةً لتحقيق غايات الآخرين، وأنّ حياة هذا الإنسان وحرّيّته وسعادته هي حقّه الثابت الذي لا يقبل التصرّف.

أنت يا مَن أضعت مفهوم الحقّ، وبقيت تتأرجح في مراوغتك العاجزة بين المطالبة بالحقوق التي هي هبة من الله، وادّعاء أنّ الحقوقَ هديّة من المجتمع. إنّ مصدر حقوق الإنسان ليس القانون الإلهيّ أو قانون الكونغرس، بل قانون الهوية: قانون «أ» هي «أ» وقانون «الإنسان هو الإنسان». والحقوق هي شروط الوجود التي تتطلّبها طبيعة

الإنسان لكي يبقى على قيد الحياة. وإذا أراد الإنسان أن يعيش على الأرض، فمن حقّه أن يستخدم عقله، ومن حقّه أن يتصرّف وفقًا لإرادته الحرّة، ومن حقّه أن يعمل من أجل قيمه وأن يحتفظ بمنتج عمله. وإذا كانت الحياة على الأرض هي غايتَه، فإنّ لديه الحقّ في أن يعيش على أنّه كائنٌ عقلانيٌّ، فالطبيعة تحرّم عليه اللّاعقلانية. إنّ أيّ أمّة تنكر حقوق الإنسان هي أمّة مذنبة، لأنّها تعادي الحياة.

إنّ الحقوق مفهوم أخلاقيّ، والأخلاق مسألةُ اختيار. فالبشر أحرارٌ في عدم اختيار بقاء الإنسان على قيد الحياة، ولكنّهم ليسوا أحرارًا في الهروب من حقيقة أنّ البديل هو مجتمع آكلي لحوم البشر، وهو موجود خلال فترة من الوقت عن طريق التهام أفضل ما لديه من ناس، ثمّ سينهار مثل أيّ جسد ينخره داء السرطان، عندما تأكل الخلايا السرطانيّةُ المريضةُ خلاياه الجيّدةَ، وعندما يستهلك غيرُ العقلانيِّ العقلانيَّ. مثل هذا كان مصير مجتمعاتكم على مرّ التاريخ، لكنّك تهرّبت من معرفة القضيّة. أنا هنا لأبيّن ذلك: إنّ وكيل العقاب هو قانون الهويّة، الذي لا يمكنك الهروب منه. ومثلما أنّ الإنسان لا يستطيع العيش من خلال كلّ ما هو غير عقلانيّ، فكذلك هو الحال مع اثنين من البشر أو ألفين أو مليارين. وكما أنّ الإنسان لا يمكنه النجاح في تحدّي الواقع، فكذلك حال الأمّة، أو أيّ بلاد أو الكرة الأرضيّة بأسرها. فـ«أ» هي «أ» أمّا الباقي فهو مسألة وقت يوفّره كرم الضحايا.

ومثلما لا يمكن للإنسان أن يوجَد من دون جسده، فإنّه لا حقّ يمكن أن يوجد من دون الحقّ في التفكير والعمل والحقّ في الملكية. إنّ المادّيّين المعاصرين الذين يعرضون عليك البديل الاحتياليّ لـ«حقوق الإنسان» مقابل «حقوق الملكيّة» كما لو أنّ أحدهما يمكن أن يكون موجودًا بمعزل عن الآخر، يقومون بمحاولة بشعة وأخيرة لإحياء مبدإ الروح مقابل الجسد. وحدَه الشبح يمكن أن يوجَد من دون ممتلكات مادّيّة، ووحده العبد يمكن أن يعمل بلا أيّ حقّ في ما ينتجه بعرق جبينه. والعقيدة التي تقول إنّ «حقوق الإنسان» أعلى منزلةً من «حقوق الملكيّة» تعني ببساطة أنّ لبعض البشر الحقَّ في الحصول على الملكيّة مستغلّين سذاجة الآخرين. وبما أنّ الكفء لن يجني شيئًا

ممّن هو غير كفء، فإنّ هذا يعني أنّ لغير الكفء الحقَّ في ملكيّة خيرات الأكفاء واستخدامهم بوصفهم أنعامَه ومواشيه المنتِجة. وكلّ من ينظر إلى هذا الأمر على أنّه إنسانيّ وحقّ، فإنّه لا يستحقّ أن يكون إنسانا أبدًا.

إنّ مصدر حقوق الملكيّة هو قانون السببيّة. فكلّ الممتلكات وكلّ أشكال الثروة هي نتيجة لسببٍ أساسيّ هو عقل الإنسان وعمله. وبما أنّك لا يمكن أن تحصل على نتائج من دون أسبابٍ، فإنّك لا يمكن أن تملك الثروة من دون أسبابها، أي من دون ذكاءٍ وعملٍ. ولا يمكنك إجبار الذكاء على العمل، لأنّ أولئك الذين يقدرون على التفكير، لا يمكن أن يعملوا تحت الإكراه. ثمّ إنّه لا يمكن الحصول على منتجات العقل إلّا بشروط المالك، وبالمبادلة وبموافقة ضمنيّة. وأيّ سياسة أخرى للبشر ترنو إلى ملكيّة الإنسان فهي سياسة المجرمين. فالمجرمون الهمجيّون يلعبون على المدى القصير ويتضوّرون جوعًا عندما تنفد فرائسهم تمامًا كما تتضوّرون اليوم جوعًا أنتم يا من اعتقدتم أنّ الجريمة يمكن أن تكون «عمليّة» إذا أصدرت حكومتكم مرسومًا ينصّ على أنّ السطو قانونيّ ومقاومة السرقة غير قانونيّة.

إنّ الغرض الصحيح والوحيد للحكومة هو حماية حقوق الإنسان، أي حمايته من العنف البدنيّ. فالدولة السليمة هي مجرّد شرطيّ، يعمل كوكيل للدفاع عن الإنسان نفسه. وعلى هذا النحو، لا يجوز لها اللجوء إلى القوة إلّا ضدّ أولئك الذين يبدؤون باستخدام القوّة. والمهمّة الوحيدة للشرطة هي حمايتك من المجرمين، والمهمّة الوحيدة للجيش هي حمايتك من الغزاة الأجانب، ومهمّة المحاكم هي حماية ممتلكاتك الخاصّة وعقودك من احتيال الآخرين، وتسوية النزاعات عن طريق قواعد عقلانيّة ووفقًا لقانون موضوعيّ. ولكنّ الدولة التي تبدأ باستخدام القوّة ضدّ البشر الذين لم يجبروا أيّ أحدٍ على القيام بأيّ شيء، واستخدام الإكراه المسلّح ضدّ الضحايا المنزوعي السلاح لَهُوَ كابوس لآلة جهنّميّة تهدف إلى إبادة الأخلاق. إنّ دولةً من هذا النوع تقلب الأدوار، فبدلًا من الاضطلاع بمهمّة الحامي نجدها تلعب دور عدوّ الإنسان الأكثر دمويّة، وبدلًا من الاضطلاع بمهمّة الشرطيّ فإنّها تتحوّل إلى مجرم يخوّل لنفسه

الحقّ في العنف ضدّ الضحايا المحرومين من حقّ الدفاع عن أنفسهم. إنّ مثل هذه الدولة تُحلّ محلَّ الأخلاق قاعدةَ السلوك الاجتماعيّ التالية: يمكنك أن تفعل لجارك ما يحلو لك، شرطَ أن تكون عصابتك أكبر من عصابته.

وحدَهما الهمجيّ والمعتوه يمكن أن يوافقا على الوجود وفق مثل هذه الشروط أو على إعطاء مَن هم من بني جلدتهم من البشر شيكًا على بياض يخصّ حياتهم وعقولَهم لقبول الاعتقاد بأنّ للآخرين الحقَّ في التصرّف في شخصٍ على هواهم، وأنّ إرادة الأغلبيّة هي القاهرة، وأنّ ما في العضلات والأجساد من قوّةٍ بدنيّةٍ بديلٌ من العدالة والواقع والحقيقة. نحن، رجال العقل، لسنا سادةً ولا عبيدًا، ولا نتعامل بالشيكات البيضاء أو نمنحها. ونحن لا نعيش ولا نعمل بشكل غير موضوعيّ.

وما دام البشر لا يمتلكون أيّ مفهوم عن الواقع الموضوعيّ وما داموا يعتقدون أنّ الطبيعة الفيزيائيّة يحكمها هوى شياطين مجهولين، فإنّه لم يكن لأيّ فكرٍ أو علم أو إنتاج أن يكون ممكنًا. عندما اكتشف البشر أنّ الطبيعة مطلقة ويمكن التنبّؤ بها، حينها فقط أصبح بإمكانهم الاعتماد على معرفتهم لاختيار مسارهم والتخطيط لمستقبلهم والخروج من ظلمات الكهف. والآن وقد وُضعت الصناعةُ الحديثةُ مرّةً أخرى، مع تعقيدها الهائل المتكوّن من الدقّة العلميّة، تحت سلطة قوّة الشياطين المجهولة، تلك القوّة التي لا يمكن التنبّؤ بها، والتي تقوم على ما للبيروقراطيّين الصغار من أهواء اعتباطيّة، فإنّ المزارع لن يستثمر جهدَ صيفٍ واحد إذا كان غير قادر على حساب فرص حصاده. ولكن هل تتوقّع أنّ الشركات الصناعيّة العملاقة -أي الشركات التي تخطّط عقودًا من الزمن وتستثمر الأموال الطائلة- أن تواصل العملَ والإنتاج، من دون أن تعرف النزوات العشوائيّة التي تدور في جمجمة أيّ مسؤول معتوه قد يهدم في أيّ لحظة كلَّ مخطّطاتهم؟ إنّ اليد العاملة تعيش وتخطّط ليوم واحد. وكلّما كان العقل أفضل، كان مدى التطلّع أبعدَ. فالإنسان الذي تمتدّ رؤيته إلى ما هو أبعد من الأكواخ، قد يستمرّ في البناء على رمالك المتحرّكة، للحصول على ربح سريع، ثمّ يلوذ بالفرار. أمّا الإنسان الذي يتصوّر ناطحات السحاب، فإنّه لن يفعل ذلك ولن يهدر عشر

سنوات من التفاني في ابتكار منتج جديد، عندما يعلم أنّ عصابات الرداءة الراسخة تسنّ ضدَّه قوانين تقيّده وتدفع به إلى الفشل، ولكن إذا حاربهم وكافح ونجح، فإنّهم سيستغلّون مكافأته واختراعه.

تأمّل واقعك الآن، يا من تحتجّ على التنافس الذي يحتدم بين الأذكياء مدّعيًا أنّهم يهدّدون معيشتك، وأنّ الأقوياء لا يتركون أيّ فرصةٍ للضعفاء في سوق التجارة الحرّة. فما الذي يحدّد القيمة المادّيّة لعملك؟ لا شيء يحدّدها سوى الجهد المثمر لعقلك. فإذا عشت في جزيرة صحراويّة وكان تفكيرك محدودًا، فإنّ إنتاجك سيكون هو أيضًا محدودًا. لكن عندما تعيش في مجتمع عقلانيّ، حيث الناس أحرارٌ في كل شيء، فإنّك ستحصل على مكافأة كبيرة، فالقيمة المادّيّة لعملك لا تتحدّد فقط بمجهودك، بل أيضًا بمجهود أفضل العقول المنتجة الموجودة في العالم من حولك.

وعندما تعمل في مصنع حديثٍ، فإنّ الأجر الذي تحصل عليه لا يعود فيه الفضل إلى مجهودك فقط، بل أيضًا إلى العبقرية التي جعلت ذلك المصنع ممكنًا، أي عمل الصناعيّ الذي بناه، وعمل المستثمر الذي وفّر له المال، وعمل المهندس الذي صمّم الآلات التي تدفعها الرافعات، وعمل المخترع الذي ابتكر منتجًا تقضّي وقتَك في صنعه، وعمل العالِم الذي اكتشف قوانين دخلت في صنع هذا المنتج، وعمل الفيلسوف الذي علّم البشر كيف يفكّرون.

إنّ الآلة هي القوّة التي توسّع إمكانات حياتك، لأنّها تساهم في مضاعفة الإنتاج. فكم طن من السكك الحديديّة ستنتج يوميًّا إذا كنت تعمل لدى هانك ريردن؟ هل تجرؤ على ادّعاء أنّ حجم راتبك يحدّده فقط مجهودك البدنيّ، وأنّ تلك القضبان كانت نتاج عضلاتك؟

كلّ إنسان حرٌّ في النهوض بنفسه على قدر اقتداره على ذلك، لكنّ المحدّد هو فقط الدرجة التي يريد أن يبلغها. ولا يمكن للعمل البدنيّ في حدّ ذاته أن يمتدّ إلى ما هو أبعد من نطاق اللحظة. فالإنسان الذي لا يقوم إلّا بالعمل البدنيّ، يستهلك قيمة المادّة

المعادلة لمساهمته في عمليّة الإنتاج، ولا يترك أيّ قيمة أخرى، لا لنفسه، ولا للآخرين. ولكنّ الإنسان الذي ينتج فكرةً في أيّ مجال فإنّه يقدّم خيرًا عظيما للإنسانية. إنّ المنتجات المادّيّة لا يمكن أن تكون مشتركةً، إنّها تنتمي إلى أحد المستهلكين النهائيّين، وحدَها قيمة الفكرة يمكن أن تكون مشتركةً بين عدد غير محدود من البشر، ممّا يجعل جميع المشتركين أكثر ثراءً في أيّ تضحية أو خسارة، وتُرفَع القدرة الإنتاجيّة مهما يكن العمل الذي يقومون به. والقويّ فكريًّا هو الذي يسمح للضعفاء بالعمل في الوظائف التي اكتشفها، بينما يكرّس وقته لمزيد من الاكتشافات. وهذه تجارة متبادلة لمصلحة متبادلة، فمصالح العقل واحدةٌ، بغضّ النظر عن درجة الذكاء بين البشر الذين يرغبون في العمل ولا يسعون إلى ما لا يستحقّون ولا يتوقّعونه.

إنّ الإنسان يخترع بما يتناسب مع طاقته العقليّة، لكنّه لا يتلقّى سوى نسبة صغيرة من قيمة اختراعه من حيث المادّة المدفوعة، بغضّ النظر عن الثروة التي يكتسبها حتّى لو بلغت الملايين. لكنّ الإنسان الذي يعمل بوّابًا في المصنع الذي أنتج ذلك الاختراع يحصل على أجر هائلٍ بالتناسب مع الجهد العقليّ الذي يبذله في عمله. والشيء نفسه ينطبق على جميع الناس الذين ينخرطون في ذلك. أمّا الإنسان الذي يحتلّ قمّة الهرم الفكريّ فإنّه يساهم أكثر من الآخرين، لكنّه لا يحصل على شيء سوى ما يستحقّه نظيرَ مجهوده الفكريّ. وأمّا الإنسان الذي لا يفكّر، فإنّه سيتضوّر جوعًا بسبب عدم كفاءته، لأنّه لا يقدّم أيّ إضافة للمفكّرين. وهذه هي طبيعة «المنافسة» بين الأقوياء والضعفاء على مستوى الفكر. وهذا هو نمط «الاستغلال» الذي بسببه تذمر القويّ.

تلك كانت الخدمة التي قدّمناها لك وكنّا سعداء وراغبين في إعطائها. فما المقابل الذي طالبْنا به؟ لا شيء سوى الحرّيّة. لقد طالبناك بأن تتيح لنا حرّيّة العمل وحرّيّة التفكير والعمل وفقًا لخياراتنا، أي أن نكون أحرارًا في المغامرة وتحمّل عواقب خسائرنا، وأن نكون أحرارًا في كسب الأرباح. هذا هو الثمن الذي طلبناه واخترتَ أنتَ رفضَه، لأنّك تعتبره ثمنًا غاليًا، وقرّرت أن تسمّيه ظلمًا لأنّنا، نحن الذين زوّدناك بشقق حديثة وبأجهزة الراديو والأفلام والسيّارات، نرغب في امتلاك القصور

واليخوت. وقرّرتَ أن يكون لك الحقّ في الحصول على أجرك، وألّا يكون لنا الحقّ في أرباحنا، وأنّك لم تكن تريد منّا التعامل مع عقلك، بل التعاملَ، بدلًا من ذلك، مع بندقيّتك. وجوابنا على ذلك هو: «عليك اللعنة».

أنت لم تسمح بأن تُكسَب المكافآتُ بالإنتاج الناجح، بل سمحتَ بأن تُكسَب بالنهب الناجح. لقد أسميت مبادلةَ الناس القيمةَ مقابلَ القيمةِ فعلًا أنانيًّا، وأسّست الآن مجتمعًا غير أنانيّ أصبحت التجارة فيه تقوم على مبادلة الابتزاز بالابتزاز. فنظامك هو حربٌ أهليّة قانونيّة، إذ أصبح البشر مثل العصابات يناضلون من أجل حيازة القانون، الذي يستخدمونَه بصفته هراوةً يسلّطونها على المنافسين، إلى أن تفتكّ عصابةٌ أخرى تلك الهراوة فيهوون بها على منافسيهم، وكلّهم يصرخون في اعتراضٍ على خدمة سلعة غير محدّدة لجمهور غير محدّد. لقد سبق أن قلتَ إنّك لا ترى أيّ فرق بين السلطة الاقتصاديّة والسلطة السياسيّة، بين سلطة المال وسلطة البنادق، وبين الثواب والعقاب، وبين الشراء والنهب، وبين المتعة والخوف، وبين الحياة والموت. الآن فقط أنت تدرك الفرق بينها.

قد يتذرّع بعضكم بحجّة الجهل ومحدوديّة العقل وقصر النظر. ولكنّ الملعون والأكثر ذنبًا بينكم هم البشر الذين يملكون القدرةَ على المعرفة، لكنّهم اختاروا تزييف الحقائق. وكذا البشر الذين كانوا مستعدّين للتضحية بذكائهم، أي تلك السلالة الحقيرة من متصوّفة العلم الذين يقرّون الإخلاص لنوعٍ من «المعرفة النقيّة»، ذلك النقاء الذي يتكوّن من ادّعائهم أنّ مثل هذه المعرفة لا غرض عمليًّ يرجى منها على هذه الأرض؛ والذين يحتفظون بمنطقهم من المادّة الجامدة، ولكن يعتقدون أنّ موضوع التعامل مع الناس لا يتطلّب العقلانيّة ولا يستحقّها؛ والذين يحتقرون المال ويبيعون أرواحهم مقابل مختبر مزوّد بالآلات. وبما أنّه لا يوجد شيءٌ يسمّى «معرفة غير عمليّة»، وبما أنّهم يحتقرون استخدامَ علمهم لغرض الحياة وأرباحها، فإنّهم يسلّمون علمهم لخدمة الموت، وخدمة الغرض العمليّ الوحيد الذي يمكن أن يكون للنهّابين، أي ابتكار أسلحة الإكراه والتدمير. إنّهم، الأذكياء الذين يسعون إلى الهروب

من القيم الأخلاقيّة، هم الملعونون على هذه الأرض، هل تسمعني يا دكتور روبرت ستادلر؟

لكنّني لا أريد أن أوجّه كلامي إليه. فأنا أتكلّم مع الذين لم يبيعوا أرواحَهم والذين لم يعطّلوا عقولهم. فلو وُجدتْ، في خضمّ فوضى الدوافع التي جعلتك تستمع إلى الراديو الليلة، رغبةٌ عقلانيّة صادقة لمعرفة ماهية الخطإ الموجود في العالم، فأنتَ هو المقصود بخطابي. أمّا أولئك الذين يبذلون جهدًا ليتفادوا فهمي فهم ليسوا ضمن قائمة اهتماماتي.

أنا أتحدّث إلى أولئك الذين يرغبون في الحياة واستعادة شرف أرواحهم. الآن بما أنّك تعرف حقيقة عالمك فتوقّف عن دعم مدمّريك.. اسحب موافقتك واسحب دعمَك ولا تحاول العيشَ على شروط أعدائك أو الفوز في اللعبة التي يضعون قواعدها. ولا تبحث عن صالح أولئك الذين استعبدوك، ولا تطلب الصدقات من أولئك الذين سرقوك، سواء أكانت إعاناتٍ أم وظائفَ، ولا تنضمّ إلى فريقهم لاسترداد ما أخذوه بمساعدتهم على سرقة جيرانك. فلا يمكن للمرء أن يأمل في الحفاظ على حياته عن طريق قبول الرشوة للتغاضي عن تدمير المرء. ولا تكافح من أجل الربح أو النجاح أو الأمن مقابلَ امتياز حقّك في الوجود. ولا ينبغي لك دفعُ مثل هذا الكفالة. فكلّما دفعت لهم أكثر، طلبوا منك أكثر. وكلّما زادت القيم التي كنت تسعى إليها أو حقّقتها، أصبحتَ عاجزًا بشكل أكثر ضعفًا. يوجد نظام ابتزاز أبيضَ صُمِّمَ ليستنزفك لا بسبب خطاياك، بل بسبب حبّك للوجود.

فلا تحاول النهوض وفقًا لشروط اللصوص أو تتسلق سلّمًا وهُم يمسكون بالحبال. ولا تدعْ أيديهم تلمس القوّة الوحيدة التي تبقيهم في السلّطة، أي طموحك الحيّ. وانضمّ إلى المضربين. واستخدم عقلك ومهارتك، ونمِّ معارفك، وطوّر قدراتك، لكن لا تشارك الآخرين إنجازاتك. ولا تحاول إنتاج ثروةٍ، وأنت تحمل لصّا على ظهرك. ابقَ بأدنى درجٍ من سلّمهم، ولا تكسب أكثر من النضج الخاصّ بك، ولا تخصّص فلسًا إضافيًّا لدعم ولاية اللصوص. وبما أنّك أسير، تصرّفْ كالأسير، ولا تساعدهم

على التظاهر بأنّك حرٌّ. فكن العدوّ الصامت غير القابل للفساد الذي يخشونه. وعندما يجبرونك، أَطِعْ، لكن لا تتطوّع أو تبادر. ولا تقم بأيّ خطوة في اتّجاههم، ولا تبادر بأيّ خطوة. ولا تساعد من يسطو على منجزاتك بدعوى أنّه صديق أو فاعل خيرٍ. ولا تساعد سجّانك على التظاهر بأنّ سجنَه هو حالتك الطبيعيّة. ولا تساعدهم على تزييف الواقع، لأنّ ذلك التزييف هو السدّ الوحيد الذي يحجب رعبَهم السرّيّ، رعبَ معرفة أنّهم غير مؤهّلين للوجود، فَأَزِلْهُ وَدَعْهُم يغرقوا، لأنّ عقابك هو حبل نجاتهم الوحيد.

وإذا وجدتَ فرصة للاختفاء في أحد البراري بعيدًا عن متناول أيديهم، فافعل ذلك، ولكن لا تكُن مثل قاطع طريق ولا تنضمّ إلى عصابة منافسة، بل أسّس لحياة منتجة خاصّة بك مع أولئك الذين يقبلون بمدوّنتك الأخلاقيّة وعلى استعداد للنضال من أجل الوجود البشريّ. ليست لديك فرصة للفوز على أخلاقيّات الموت أو على قانون الإيمان والقوّة، فانهض بمعيار سيساعد الصادق على الإصلاح: معيار الحياة والعقل.

وتصرّف ككائن عقلانيّ، وضع ضمن أهدافك أن تصبحَ نقطةً تجمع كلّ هؤلاء الذين يتعطّشون للنزاهة، واعمل وفقًا لقيمك العقلانيّة، سواء أكنت بمفردك أم وسط أعدائك أم مع قلّة من أصدقائك المختارين.

وعندما تنهار دولة اللصوص، وتُحرَم من أفضل ما تملكه من عبيدٍ، وعندما تسقط إلى مستوى الفوضى العارمة، مثل أمم الشرق التي عانت من المتصوّفة، ثمّ تنحلّ إلى عصابات تتقتل من أجل لقمة العيش، وعندما يهلك دعاة أخلاق التضحية وتهلك معهم مثلهم العليا، في ذلك اليوم فقط سنعود.

سنفتح أبواب مدينتنا للذين يستحقّون الدخول، مدينة من المداخن وخطوط الأنابيب والبساتين والأسواق والمنازل الباذخة. وسنعمل كمركز تجميعٍ لمثل هذه المخافر المخفيّة التي ستبنيها. مع علامة الدولار رمزًا لنا -علامة التجارة الحرّة والعقول الحرّة- سنتحرّك لاستعادة هذا البلد مرّةً أخرى من المتوحّشين العجزة.

وأولئك الذين يختارون الانضمام إلينا سينضمّون إلينا، وأولئك الذين لن ينضمّوا إلينا، لن تكون لديهم القوّة لإيقافنا، فجحافل الهمج لم تكن قطُّ عقبةً أمام البشر الذين حملوا راية العقل.

ثمّ ستصبح هذه البلاد مرّة أخرى ملاذًا للكائن العقلانيّ. والنظام السياسيّ الذي سنبنيه واردٌ في فرضيّة أخلاقيّة واحدةٍ: لا يمكن لأيّ إنسان أن يحصل على أيّ قيم من الآخرين باللجوء إلى القوّة المادّيّة. فكلّ إنسان سيقف أو يسقط، يعيش أو يموت بحكمه العقلانيّ. وإذا فشل في استخدامه وسقط، فإنّه سيكون ضحيّته الوحيدة. وإذا كان يخشى أنّ حكمه غير كافٍ، فإنّنا لن نمدّه بأيّ بندقيّة تحصّنه. وإذا اختار أن يصحّح أخطاءَه في الوقت المناسب، فسيكون لديه مثالٌ دون عائق ممّن هم أفضل منه، لتوجيهه في تعلّم التفكير، ولكن سيتمّ وضع نهاية لِعَارِ دَفْعِ حياة الفرد مقابل أخطاء الآخر.

في ذلك العالم، ستكون قادرًا على النهوض صباحًا بالروح التي عرفتها في طفولتك، تلك الروح المفعمة بالحماس والمغامرة واليقين، الروح التي تأتي من التعامل مع عالم عقلانيّ. فلا يوجد طفلٌ يخاف الطبيعة، خوفُك من البشر هو الذي سيختفي، ذلك الخوف الذي أوقف نموّ روحك، الخوف الذي اكتسبتَه في وقت مبكّر أثناء لقاءاتك مع الغامض والمجهول والمتناقض والاعتباطيّ والخفيّ والمزيّف، واللّاعقلاني في البشر. ستعيش في عالم من الكائنات المسؤولة التي ستكون ثابتة وموثوقة كالحقائق، وسيكون ضمان طابعها هو وجود نظامٍ يكون فيه الواقع الموضوعيّ المعيارَ والحكَمَ. وستحظى فضائلك بالحماية، أمّا رذائلك ونقاط ضعفك فلن تحظى بها. وكلّ فرصة ستكون مفتوحةً أمام خيرك، وفي مقابل ذلك لن تفتَح أيّ فرصة أمام شرِّك. وما ستحصل عليه من الناس لن يكون صدقة أو شفقة أو رحمة، ولكن قيمةً واحدة هي العدالة. وعندما ستنظر إلى الناس أو إلى نفسك، لن تشعر بالاشمئزاز والشكّ والذنب، بل ستشعر بالاحترام.

هذا هو المستقبل الذي أنت قادر على الفوز به. إنّه يتطلّب كفاحًا، مثلما يتطلّب أيّ قيمة من القيم الإنسانيّة. فالحياة كلّها كفاح هادف وخيارك الوحيد هو اختيار الهدف.

فهل ترغب في مواصلة معركة حاضرك أم ترغب في القتال من أجل عالمي؟ هل ترغب في مواصلة الكفاح الذي يتجسّد في التشبّث بالأشواك المتقلّبة في هبوطٍ متزحلق إلى الهاوية حيث لا رجعة في المشاقّ التي تعاني منها، والانتصارات التي تفوز بها تقرّبك من الدمار؟ أم ترغب في النضال الذي يتجسّد في النهوض من حافّة إلى أخرى، والنضال ضدّ المصاعب التي هي استثمارات في انتصارات ستجعلك على نحو لا رجعة فيه أقربَ إلى عالم من المثاليّة الأخلاقيّة، وينبغي أن تموت من دون أن تصل إلى ضوء الشمس الكامل، بل تموت وأنت تتحسّس أشعّتها؟ هذا هو الخيار أمامك فدع عقلك وحبّك للوجود يقرّران.

آخر كلماتي سأتوجّه بها إلى أولئك الأبطال الذين لعلّهم ما يزالون مختبئين في العالم، أولئك المسجونين، لا بسبب تهرّبهم، بل بسبب فضائلهم وشجاعتهم العظيمة. إخوتي في الروح، تحقّقوا من فضائلكم وطبيعة الأعداء الذين كنتم تخدمونهم. إنّ مدمّريكم يمسكون بكم بسبب تحمّلكم وكرمكم وبراءتكم وحبّكم، ذلك التحمّل الذي يخفّف أعباءهم، والكرم الذي يستجيب لنداءاتهم زمنَ اليأس، والبراءة التي لا تستطيع تصوّر شرّهم وتعطيهم منفعة كلّ شكّ، رافضةً إدانتهم من دون فهم ومن دون قدرة على فهم دوافعكم. إنّ الحبّ، حبّك لحياتك، هو الذي يجعلك تعتقد أنّهم بشرٌ وأنّهم يحبّون حياتك أيضًا. ولكنّ عالم اليوم هو العالم الذي أرادوه، فالحياة هي هدف كراهيتهم. فاتركهم يعبدون الموتَ. باسم إخلاصك الرائع لهذه الأرض اترُكْهُم، ولا تستنفد عظمة روحك في المساهمة في انتصار شرورهم. هل تسمعني يا حبيبي؟

باسم كلّ ما هو جميلٌ في داخلك، لا تضحِّ بهذا العالم من أجل هذه الفئة السيّئة من البشر. باسم القيم التي تُبقِيك على قيد الحياة، لا تدع رؤيتك إلى الإنسان تشوَّه من طرف تلك الشرذمة التي لم تستطع يومًا الارتقاءَ إلى مرتبة الإنسان. لا تفقد معرفتك بأنّ ملكيّة الإنسان الصحيحة هي وضعٌ مستقيمٌ وعقلٌ متعنّت وخطوةٌ تقطع طرقًا غير محدودة. فلا تدع نيرانك تنطفئ في المستنقعات، وتتهاوى أمام مقولات من قبيل: «ليس تمامًا، ليس بعد، وليس على الإطلاق». ولا تدع البطل الذي يسكنك يهلك

بسبب الإحباط. تفقّد طريقك وطبيعة معركتك، فالعالم الذي ترغب فيه يمكنك الفوز به. إنّه موجود وحقيقيّ وممكن، إنّه لك. لكنّ الفوز لا يتطلّب منك التفاني التامّ في العمل فحسب، بل يتطلّب أيضًا أن تقطعَ مع ماضيك ومع المذهب الذي ما يفتأ يؤكّد أنّ الإنسان إنّما يحيا ليسعد الآخرين. فقاتل من أجل قيمتك الشخصيّة، من أجل كبريائك، ومن أجل العقلانيّة. قاتل باليقين المشرق والاستقامة المطلقة، لأنّ أخلاقك هي جوهر الحياة، ولأنّ حياتك معركةٌ تسعى إلى العظمة والخير والفرح الموجود على هذه الأرض.

ستفوز عندما تكون على استعداد للنطق بالقسم الذي قطعته على نفسي في بداية معركتي، أمّا أولئك الذين يرغبون في معرفة يومِ عودتي فأقول لهم:

أقسم بحياتي وحبّي لها أنّني لن أعيش أبدًا من أجل أيّ إنسان آخر، ولن أطلب من أيّ إنسان آخر أن يعيش من أجلي.

الفصل الثامن

الأنانيّ

قالَ السيّد طومسون:

- هذا الخطاب ليس حقيقيًّا، أليس كذلك؟

وقف الجميع أمام الراديو عندما نطق جون جالت بالكلمة الأخيرة. ظلّوا بلا حراكٍ. وقفوا ينظرون إلى الراديو، وكأنّهم كانوا ينتظرون شيئًا مّا. لكنّ الراديو كان مجرّد صندوقٍ خشبيٍّ بأزرار ودائرة من القماش ممتدّةٍ على مكبّر صوت عالٍ وفارغ.

قال تينكي هولواي:

- لقد سبق أن سمعنا مثل هذا الصوت.

فردّ تشيك موريسون:

- لا يمكننا فعلُ أيّ شيء تجاه هذه الواقعة.

كان السيّد طومسون يجلس على صندوق. أمّا ويسلي ماوتش فكان يجلس على الأرضيّة. وبعيدًا خلفهما، مثل جزيرة واسعة في شبه ظلامٍ بمساحة الأستوديو، كانت هناك غرفة استقبال أُعدَّت من أجل البثّ ظلّت مهجورة تمامًا، غرفة كانت مضاءة ومكتظّة بالمايكروفونات التي لم يجرؤ أحدٌ على إيقافها.

وكانت عينا السيّد طومسون ترمقان الوجوهَ المحيطة به، كما لو أنّه يبحث عن بعض

الذبذبات الخاصّة التي يعرفها وحدَه. أمّا البقية فكانوا يحاولون القيام بذلك خلسةً، فكان كلّ واحد منهم يحاول أن يلتقط لمحة عن الآخرين من دون أن يسمح لهم بالتقاط نظرته الخاصّة.

- أخرجني من هنا.

هكذا صرخ مساعد صغير من الدرجة الثالثة فجأةً، لكنّ صراخه لم يكن موجّهًا إلى أيّ شخص من الحاضرين.

قاطعه السيّد طومسون قائلًا:

- ابقَ في مكانك.

يبدو أنّ هذا الأمر قد ساعده على استعادة نسخة مألوفة من الواقع. ثمّ أضاف بصوت مرتفع:

- من سمح بحدوث هذا...

لكن سرعان ما توقّف عن الكلام. وبعد برهة من الزمن سألهم:

- ماذا تستنتجون من ذلك؟

لكنه لم يتلقَّ أيَّ جواب، فأضاف:

- حسنًا، لتقولوا شيئًا.

- يجب علينا ألّا نصدّق هذا، أليس كذلك؟

هكذا صاح جيمس تاجرت، ثمّ أدار وجهه نحو السيّد طومسون، وأضاف:

- أليس كذلك؟

وكان وجه تاجرت مشوّشًا، كانت ملامح وجهه تخلو من أيّ تعبير.

ردّ عليه السيّد طومسون:

- اصمت.

- يجب علينا ألّا نصدّق ذلك. ما قيل لم يسبق أن تفوّه به أيّ شخص. إنّه مجرّد إنسان واحد. يجب علينا ألّا نصدّق ذلك.

ردّ عليه السيّد طومسون:

- هوّن عليك.

- لماذا هو متأكّد جدًّا من كونه على حقّ؟ من هو ليواجه العالم كلّه، ويواجه كلّ ما قيل على مدى قرون وقرون؟ من هو ليكون متأكّدًا؟ لا أحد يمكن أن يكون متأكّدًا. لا يمكن لأحدٍ أن يعرف ما هو الصحيح.. لا وجود لأيّ حقّ.

صاح السيّد طومسون:

- اخرس، ما الذي تحاول فعله...

ثمّ أوقفه انفجار صوت الموسيقى العسكريّة وقد صدر فجأةً من الراديو. لقد توقّفت الموسيقى العسكريّة قبل ثلاث ساعات. واستغرق الأمر منهم بضع ثوانٍ من الذهول لفهم ما يجري، أمّا أوتار البهجة فقد ظلّت ترنّ بحماس أثناء الصمت الذي خلدوا إليه، وبدت غير مفهومة على نحو غريب. لقد كان مدير برنامج المحطّة يطيع بشكل أعمى المقولة المطلقة التي تقول إنّ الإذاعة لا تحتمل الفراغ.

صرخ ويسلي ماوتش من الفزع وقال:

- اطلب منهم أن يقطعوا الموسيقى العسكريّة، لأنّها ستجعل الجمهور يعتقد أنّنا سمحنا بهذا الخطاب.

فصاح السيّد طومسون وقال:

- أيّها الأحمق اللعين! هل تفضّل أنّ يظنّ الناس أنّنا لم نفعل؟

فتوقّف ماوتش فترةً قصيرةً، ونظر في عينَي السيّد طومسون نظرةً تضجّ تقديرًا

وإجلالًا.

ثمّ أمرهم السيّد طومسون قائلًا:

- واصلوا البثّ كالمعتاد. اطلب منهم بثَّ أيّ برنامج أُعِدّ في الأصل لهذه الساعة، أخبرهم أن يستمرّوا كأنّ شيئًا لم يقع.

أمّا الموظّفون الذين كلّفهم تشيك موريسون بتكييف معنويات الشعب فقد انطلقت نصف دزينة منهم مسرعين نحو الهواتف.

- كمّم أفواه المعلّقين. لا تسمح لهم بالتعليق. أرسل رسالة إلى كلّ محطّة في البلاد. دع الجمهور يتساءل. لا تدعهم يظنّوا أنّنا قلقون، لا تدعهم يعتقدوا أنّ هذا الأمر جلل.

فصرخ يوجين لاوسون:

- لا، لا، نحن لا نرغب في إعطاء الناس انطباعًا بأنّنا نؤيّد ذلك الخطاب. إنّه خطاب فظيع.

قاطعه السيّد طومسون:

- ومن يقول إنّنا نؤيّد هذا الخطاب؟

- هذا خطاب فظيع. هذا خطاب غير أخلاقيّ. إنّها أنانيّة عديمة الرحمة، عديمة الرحمة. إنّه أفظع خطاب على الإطلاق! هذا الخطاب.. سيجعل الناس يطالبون بأن يكونوا سعداء.

ردّ عليه السيّد طومسون بشكل غير حازمٍ:

- إنّه ليس أكثر من خطاب.

فقال تشيك موريسون كأنّما يسعى إلى مدِّ يد المساعدة:

- يبدو لي أنّ للناس طبيعةً روحيّةً من طينة أنبل. أنتم تعلمون ما أعنيه، فالناس..

حسنًا، هم أصحاب بصيرة صوفيّة.

ثمّ توقّف فجأة عن الكلام، كما لو أنّه كان ينتظر صفعة، لكن لا أحد تحرّك، ثم كرّر بقوّة:

- نعم، هم أصحاب بصيرة صوفيّة، ولن يتأثّروا بهذا الخطاب. فالمنطق في نهاية المطاف ليس كلّ شيء.

فقال تينكي هولواي:

- إنّ العمّال لن يوافقوا على ذلك، فهو لم يبدُ صديقًا للعمّال.

وقالت تشالمرز:

- نساء البلاد لن يوافقن أيضًا على هذا الخطاب. أعتقد أنّ المرأة لا تحبّ تلك الأشياء عن العقل. فالنساء يتمتّعن بمشاعر أكثر دقّة، لذلك يمكنك الاعتماد على النساء.

وقال الدكتور سيمون بريتشيت:

ويمكنك الاعتماد أيضًا على العلماء. إنّه ليس صديقًا للعلماء.

وقال ويسلي ماوتش:

- إنّه ليس صديقًا لأيّ شخص.. ما عدا أصحاب الأعمال الكبيرة.

فصاح السيّد موين مذعورًا:

- لا تتّهمنا. لا تقل ذلك! لن أسمح لك أن ترمينا بهذه التهمة.

- ماذا؟

- إنّ... أيّ شخص هو صديق للتّجّار ورجال الأعمال.

قال الدكتور فلويد فيريس:

- لا تثر ضجّةً حول هذا الخطاب. لقد كان خطابًا نخبويًا جدًّا. إنّه خطاب فكريّ

أكثر من اللزوم، ولن يؤثّر في الإنسان العاديّ. إنّ الناس غير قادرين على فهم مضمون هذا الخطاب.

قال ماوتش متفائلا:

- نعم، هو كذلك.

قال الدكتور فيريس بعد أن استعاد شجاعته:

- أوّلًا، الناس عاجزون عن التفكير. وثانيًا، هُم ينفرون من التفكير.

وقال فريد كينان:

- وثالثا، إنّهم يخافون الجوع. فماذا تقترح أن نفعلَ في هذا الموضوع؟

لكنّه لم يتلقَّ أيَّ جواب، وكلّ ما رآه هو الرؤوس المتوغّلة بشكل خافت بين الأكتاف، واقتراب الأجساد بعضها من بعض بشكلٍ باهت مثل مجموعة صغيرة تحت وطأة مساحة الأستوديو الفارغة. وعمّت أصوات الموسيقى العسكريّة المكانَ، وبعد ذلك أرخى الصمت سُدوله على الجميع.

صاح السيّد طومسون وهو يشير إلى الراديو:

- أطفئ هذا الجهاز اللعين.

أطاعَ شخصٌ مّا أمره، لكنّ الصمت المفاجئ كان أسوأ. ثمّ قال السيّد طومسون بعد أن رفع عينيه على مضض باتّجاه فريد كينان:

- حسنًا، ما الذي يجب علينا أن نفعله؟

فضحك كينان، ثمّ قال:

- من؟ أنا لا أدير هذا العرض.

فضرب السيّد طومسون قبضته على ركبته، ثمّ أمره:

- قُلْ شيئًا.

وبعد أن رأى فريد كينان يستدير ويبتعد أضاف:

- ليقل أحدكم شيئًا.

لكن لا أحدَ ردّ عليه. فصرخ وهو يعلم أنّ الإنسان الذي سيجيب سيكون بعد ذلك في السلطة:

- ماذا سنفعل؟ ألا يمكن لأحدٍ أن يخبرنا بما يتوجّب علينا فعله؟

- أنا أستطيع أن أخبركم بما يجب عليكم فعله.

كان صوت امرأةٍ، فالتفت الجميع إلى داغني التي نشرت الرعب بينهم، لأنّ وجهها بدا خاليًا من الخوف.

فقالت مخاطبةً السيّد طومسون:

- أنا أستطيع أن أخبرك بما يجب عليك فعله. يجب أن تستسلم.

فكرّر بشكل فظّ:

- أستسلم.. أستسلم.

- لقد ولّى زمنك. ألا ترى أنّك انتهيت؟ استسلم وابتعد عن الطريق. دع الناس يعيشون أحرارًا في الوجود.

كان ينظر إليها، فلم يعترض أو يحرّك أيّ ساكن. ثمّ أضافت:

- وهل أنتَ ما تزال حيًّا لتستعمل لغة إنسانيّة، وتبحث عن الأجوبة، وتعتمد على العقل؟ أَمازلت تعتمد على العقل؟ عليك لعنة الله. أنت لست قادرا على الفهم. لا تحاول الاستيلاء على أيّ شيء، لأنّه ما من شيء أمامنا سوى الدمار. إنّ الدمار هو ما ينتظر العالم وينتظرك. فاستسلم وارحل.

كانوا يستمعون إليها باهتمام كبير، لكنّهم بَدَوْا كمَن لم يسمع كلماتها. ثمّ أضافت بنبرة

قوية:

- هل تتمنّى العيش؟ ابتعد عن الطريق إذا كنت تريد أن تحظى بآخر فرصة. دع من يستطيع أخذَ بزمام الأمور يتصرّف. فهو قادر على خلق وسائل تضمن للناس أسبابَ البقاء، أمّا أنت فقد صرت عاجزًا عن ذلك.

- لا تستمع إليها.

هكذا صرخ الدكتور روبرت ستادلر، وعلامات الخوف تعلو وجهه. وردّ عليه السيّد طومسون:

- اصمت يا بروفيسور.

وكانت عينا السيّد طومسون تراقبان داغني التي أضافت:

- أنتم جميعًا تعرفون الحقيقة، وكذلك أنا، وكذا كلّ إنسان سمع جون جالت، فماذا تنتظرون بعد أن قدّم لكم الدلائل أم إنّكم تنتظرون الحقائق؟ إنّ الحقائق تحيط بكم من كلّ جانب. كم عدد الرؤوس التي تنوون حصدها قبل أن تتخلّوا عن أسلحتكم وقوّتكم؟ إذا كنتم تريدون العيش فاستسلموا. إذا كنتم تريدون للإنسان أن يستمرّ على هذه الأرض فاستسلموا.

صاح يوجين لاوسون:

- إنّها تدعونا إلى الخيانة.

فردّ عليه السيّد طومسون:

- لا مبررّ للتطرّف في المواقف الآن.

وسأله تينكي هولواي:

- كيف؟

وتساءل تشيك موريسون من جهته:

- أليس هذا موقفًا شنيعًا؟

وسأله ويسلي ماوتش أيضا:

- هل تتّفق معها؟

قال السيّد طومسون بنبرة هادئة على نحو مفاجئ:

- لا تحاول أن تستبق الأمور. لا تحاولوا أن تستبقوا الأمور. ليس هناك ضرر في الاستماع إلى أيّ وجهة نظرة، أليس كذلك؟

فسأله ويسلي ماوتش:

- هل تسمّي ما تتفوّه به داغني وجهة نظر؟

ردّ عليه السيّد طومسون:

- يجب الاستماع لأيّ وجهة نظر، يجب ألّا نكون متعصّبين.

- لكنّها خيانة وغدر وأنانيّة ودعاية تجاريّة كبيرة.

فقال السيّد طومسون:

- أوه، لا أعلم، لكن علينا أن نظلّ منفتحين على جميع الآراء. يجب أن نأخذ بعين الاعتبار وجهةَ نظر الجميع. ربّما لديها شيء تخبرنا به عندما قالت إنّها تعرف ما يجب فعله. ينبغي أن نكون مَرِنِينَ.

فقاطعه ماوتش متسائلا:

- هل تقصد أنّك على استعداد للاستقالة؟

ردّ عليه السيّد طومسون بغضب:

لا تقوّلني ما لم أقل، ودعك من الاستنتاجات. في مثل هذا الظرف العصيب يجب أن نكون مرنين.

ورأى الحيرة تكتسح جميع الوجوه. ابتسم، ثمّ نهض، والتفت إلى داغني، وقال:

- شكرًا لك يا آنسة تاجرت. شكرا لك لأنّك أدليت بوجهة نظرك. أودّ أن أخبرك بأنّني مستعدّ للإنصات إليك، فنحن لسنا أعداء يا آنسة تاجارت. ولا تعيري الأولادَ أيَّ اهتمام فهم فقط غاضبون. نحن لسنا أعداءك، ولا أعداء للبلاد. لقد ارتكبنا أخطاء، لأنّنا بشرٌ، لكنّنا نحاول أن نبذل قصارى جهودنا من أجل الناس.. في هذه الأوقات العصيبة لا يمكننا أن نتعجّل في اتّخاذ القرارات، أليس كذلك؟ يجب أن نفكّر ونتمعّن في الأمر.. أنا فقط أريدك أن تتذكّري أنّنا لسنا أعداء لأيّ شخص.

فأجابت داغني:

- لقد قلت كلّ ما أريد قوله.

وابتعدت عنه، من دون أن تتحصّل على أيّ فكرة قد تقودها إلى معنى كلماته. ثمّ التفتت إلى إيدي ويلرز، الذي كان يشاهد الرجال من حولها بنظرة سخط كبيرة إلى درجة أنّه بدا مشلولًا، كما لو أنّ دماغه كانت تصيح: «إنّه الشرّ»، ولم يتمكّن من الانتقال إلى أيّ فكرة أخرى. فهزّت داغني رأسها مشيرة إلى الباب، فتبعها مطيعًا.

وانتظر الدكتور روبرت ستادلر حتّى خرجا، ثمّ التفت إلى السيّد طومسون وقال:

- أيّها الأحمق، ألا تدرك أنّها مسألة حياة أو موت؟ إمّا أنت وإمّا هو.

ردّ عليه السيّد طومسون وهو يبتسم بازدراء:

- إنّه لأمرٌ مخجل أن يتصرّف أستاذ جامعيّ على هذا النحو. لم أكن أعتقد أنّ الأساتذة آلَ بهم الأمر إلى هذا الوضع المخزي.

- ألا تدرك أنّ الأمر مسألة موت أو حياة؟

- وماذا تريد منّي أن أفعل؟

- يجب أن تقتله.

كانت حقيقة لم يجهر بها الدكتور ستادلر بقوّةٍ، بل قالها بصوت منخفض، وهو ما جعل الصمت يخيّم على جميع الحاضرين في القاعة. وأضاف الدكتور ستادلر:

- يجب أن تجده وتدمّره، لأنّه سيدمرنا جميعًا إذا ظلّ حيًّا.

فسأله السيّد طومسون:

- وكيف أجده؟

- يمكنني أن أخبرك بما يجب عليك فِعله. يمكنني أن أعطيك دليلًا. راقب داغني تاجرت وجهّز رجالك لمراقبة كلّ حركة تقوم بها وسوف تقودك إليه عاجلًا أم آجلًا.

- وكيف عرفت ذلك؟

- أليس هذا واضحًا؟ هل كان من محض الصدفة أنّها لم تهجرك منذ وقت طويل؟ ألست ذكيًا لتكتشف أنّهما ينتميان إلى المذهب نفسه؟

ردّ عليه السيّد طومسون:

- نعم، هذا صحيح. سنأخذ بوجهة نظر البروفيسور.

ثمّ أمر ماوتش قائلا:

- ضع الآنسة تاجارت تحت المراقبة، تعقّبها ليل نهار حتّى نهتدي إليه.

ردّ عليه ماوتش:

- حاضر يا سيّدي.

وسأله الدكتور ستادلر متوتّرا:

- هل ستقتله عندما نلقي القبض عليه؟

فصاح السيّد طومسون:

- لماذا أقتله أيّها الأحمق؟ نحن في أمسّ الحاجة إليه.

قال ماوتش:

- لم أفهمك يا سيّد طومسون.

فقال السيّد طومسون بغضب شديد:

- الأمر بسيط جدّا أيّها السادة. جون جالت رجل عمليّ. ثمّ لا ينبغي أن ننسى أنّ الرجل يحتجز الكفاءات. إنّه يعرف ما يجب فِعله. سنجده ويخبرنا بما ينبغي علينا أن نفعل كي تعود المياه إلى مجاريها. إنّه سينتشلنا من هذا المستنقع.

- وهل سينتشلنا فعلًا يا سيّد طومسون؟

- بالتأكيد. سنبرم معه صفقة.

- معه؟

- بالتأكيد. يجب أن نبرم معه صفقة. يجب أن نتنازل قليلًا، صحيح أنّ أبناءنا في الرعاية الاجتماعيّة لن يعجبهم هذا الأمر، لكنّنا لا نملك أيّ خيار. هل ترى أيّ مخرج آخر من هذه الأزمة؟

- لكنّ أفكاره..

- لا أحد يبالي بالأفكار.

قال ماوتش باختناق:

- كلّ ما أخشاه يا سيّد طومسون أن يكون هذا الرجل ممّن لا يقبلون الصفقات.

- لا يوجد إنسان لا يقبل الصفقات.

***

هزّت الرياح الباردة اللّافتات المكسورةَ على نوافذ المحلّات المهجورة في الشارع خارج محطّة الإذاعة. وبدت المدينة هادئة بشكل غير طبيعيّ. وبدا ضجيج حركة المرور البعيد أقلَّ من المعتاد ممّا جعل صوت الريح يعلو بوضوح. وامتدّت الأرصفة الفارغة

في الظلام. كانت هناك خيالات لأناس معزولين وقفوا في شكل مجموعات تتهامس تحت الأضواء.

لم يتكلّم إيدي ويلرز إلى أن أصبح هو وداغني على بعد منازل عديدة من المحطّة. ثمّ توقّف إيدي فجأةً عندما وصلا إلى ساحة مهجورةٍ حيث كانت مكبّرات الصوت العموميّة ما تزال واقفة. مكبّرات تبثّ الآن كوميديا محلّيّة على نغمات الأصوات الحادّة لشجار زوج وزوجته حول تاريخ ميلاد ابنهم الصغير. وخلف الساحة، كانت هناك نقاط من الضوء المتناثرة عموديًّا فوق الطابق الخامس والعشرين من المدينة، توحي بوجود شكل صاعد وبعيدٍ. لقد كان مبنى شركة تاجارت.

توقّف إيدي وأشار إلى المبنى. وكانت أصابعه ترتعش عندما صاح:

- داغني.

ثمّ خفّض صوته تلقائيًّا وهمس:

- داغني أنا أعرفه، إنّه.. يعمل هناك.. هناك..

وظلّ يشير إلى المبنى وهو يضيف:

- إنّه يعمل لدى شركة تاجرت العابرة للقارّات.

فأجابته بصوت رتيب:

- أعرف ذلك.

- عاملًا بالمسار.. عاملًا بسيطًا..

- أعرف ذلك.

- لقد تحدّثت معه.. كنت أتحدّث معه سنوات.. في كافتيريا المحطّة.. لقد تعوّد على طرح الأسئلة.. كلّ أنواع الأسئلة حول السكك الحديديّة. يا داغني، هل كنت أحمي السكّة الحديديّة أم كنت أساعد على تدميرها؟

- كلاهما ولا أحد منهما، هذا غير مهمّ الآن.

- كان يمكن أن أراهن بحياتي على أنّه يحبّ السكّة الحديديّة.

- طبعًا هو يحبّها.

- لكنّه دمّرها.

- نعم.

ثمّ أحكمت داغني طوق معطفها وأخذت تمشي في مواجهة عاصفة من الرياح. وقال إيدي بعد لحظات من الصمت:

- لقد كنت أتحدّث معه. إنّه لا يملك وجه عاملٍ.. كان يفهم الكثير.. أسعد كثيرًا حين ألتقي به في الكافتيريا.. وكنت أحدّثه ببساطة.. ولا أظنّني أدركتُ أنّه كان يطرح أيّ أسئلة.. لكنّه كان يفعل.. لقد طرح أسئلةً كثيرةً حول السكك الحديديّة... وكان يسأل عنك.

- هل سألك يومًا كيف أبدو عندما أكون نائمة؟

نعم.. نعم، لقد سألني.. لقد وجدتك ذات مرّة نائمة في المكتب وعندما تحدّثت معه عن هذه الواقعة..

ثمّ توقّف إيدي فجأةً والتفت إليها تحت شعاع مصباح الشارع، وعلى امتداد لحظةٍ صامتة ومتعمّدة، تأمّل وجهها على الضوء الكامل، ثمّ أغلق عينيه وهمس:

- يا إلهي يا داغني.

ثمّ واصلا مسيرهما في صمت. ثمّ سألها:

- لقد رحل الآن، أليس كذلك؟ أعني لم يعد يعمل بمحطّة تاجرت.

فردّت بنبرة حزينة:

- يا إيدي، إذا كانت حياته تعني لك الكثير، فلا تطرح هذا السؤال أبدًا. أنت لا

تريدهم أن يصلوا إليه، أليس كذلك؟ لا تعطِهم أيّ أدلّة. ولا تتفوّه بأيّ كلمة عن جون جالت لأيّ أحد من معارفك، ولا تحاول معرفة ما إذا كان يواصل العمل بالمحطّة أم لا.

- أنت لا تقصدين أنّه ما يزال يعمل هناك؟

- لا أعرف. كلّ ما أعرفه أنّه قد يكون هناك.

- الآن؟

- نعم.

- أمَا يزال يعمل هناك؟

- نعم. إذا كنت لا تريد أن تتسبّب في تدميره، فاكتم هذا السرّ.

- أعتقد أنّه رحل ولن يعود. فأنا لم أرَه منذ ذلك الحين.. منذ..

فسألته بحدّة:

- منذ متى؟

- منذ أواخر مايو، منذ الليلة التي غادر فيها إلى ولاية يوتاه.

ثمّ توقّف، وهو يستذكر لقاءه بجون جالت في تلك الليلة، ثمّ أضاف بجهد:

- لقد رأيته في تلك الليلة. ولم ألتقِ به منذ ذلك الحين.. انتظرته في الكافتيريا.. لكنّه لم يعد البتّةَ.

- لا أعتقد أنّه سيسمح لك برؤيته الآن، بل سيبتعد عن طريقك. لكن لا تبحث عنه ولا تستفسر عنه.

- أنا لا أعرف حتّى اسمه المستعار. كان اسمه جوني أو شيء من هذا القبيل، ثمّ إنّي نسيت لقبَه..

فردّت وقد رافقتها ضحكة خافتة:

- كان يدعى جون جالت. فلا تنظر إلى جدول الرواتب النهائيّ. فالاسم ما يزال هناك.

- أبهذه البساطة؟ طَوال كلّ هذه السنوات؟

- مدّة اثني عشر عامًا فقط.

- أَمَا يزال هناك الآن؟

- نعم.

- أعلم أنّ هذا لا يثبت شيئًا. فمكتب الموظّفين لم يأخذ اسمًا واحدًا من قائمة الرواتب منذ صدور القانون التوجيهيّ عدد 289-10. وإذا انسحب أيّ عامل، فإنّهم يمنحون الاسمَ نفسه والوظيفة ذاتَها لرجل آخر يتضوّر جوعًا.

- لا تستجوب مكتب الموظّفين أو أيّ شخص. ولا تلفت الانتباه إلى اسمه. فإذا استفسرت أنا أو أنت عنه فإنّ هذا الأمر سيثير الشبهات. فلا تبحث عنه، وإذا حدث أن التقيت به صدفةً فتصرّف كما لو أنّك لا تعرفه.

فأومأ برأسه، وقال بصوت متوتّر ومنخفض:

- لن أساعدهم على الوصول إليه، حتّى لو كان ذلك في سبيل إنقاذ السكك الحديديّة.

- يا إيدي..

- ماذا؟

- إذا التقيت به.. أخبرني.

فأومأ برأسه في إشارة موافقةٍ. وبعد مرورهما بمبنَيين، سألها بهدوء:

- أنت ستستقيلين وستتركيننا في الأيّام القليلة المقبلة، أليس كذلك؟

- لماذا تقول ذلك؟

- ألن تفعلي ذلك؟

لم تجبه على الفور، وعندما ردّت كانت نبرة اليأس واضحةً في صوتها على نحو رتيب وخانق:

- يا إيدي، إذا استقلتُ يومًا، فماذا سيحدث لقطارات شركة تاجرت؟

- ستتوقّف قطارات شركة تاجرت خلال أسبوع، أو ربّما أقلّ من ذلك.

- ستختفي حكومة اللصوص خلال عشرة أيّام. فرجال من أمثال كوفي ميغز سيلتهمون محرّكاتنا. كيف يمكنني أن أسمح باندثار شركة تاجرت العابرة للقارّات، وإمكانيّة إنقاذها ما تزال ممكنة؟ إذا كنت قد تحمّلت كلّ هذه الأشياء كلَّ هذا الوقت، فإنّه يمكنني أن أتحمّلها فترةً أطول قليلًا. أنا لا أمدّ يد العون إطلاقاً للصوص، لأنّه لا شيء يمكن أن ينقذهم الآن.

- ماذا سيفعلون؟

- لا أعرف ما الذي يستطيعون فعلَه؟ لقد انتهوا.

- أفترض ذلك.

- إنّهم بائسون مثل الجرذان المذعورة. إنّهم يفرّون من حياتهم.

- هل تعني أيّ شيء لهم؟

- ماذا؟

- أعني حياتهم.

- هم ما يزالون يكافحون، أليس كذلك؟ لكنّهم انتهوا وهم يعرفون ذلك.

- هل سبق لهم أن تصرّفوا وفقًا لما كانوا يعرفون؟

- يجب عليهم فعل ذلك. لكنّهم سيستسلمون ولن يطول الأمر أكثر، وسنكون هنا لإنقاذ ما تبقّى.

***

في صباح الثالث والعشرين من نوفمبر، أعلن البث الإذاعيّ الرسميّ البيان التالي: إنّ السيد طومسون يؤكّد للجميع أنّه لا يوجد ما يدعو إلى القلق. ويحثّ الشعب على عدم استخلاص أيّ استنتاجات متسرّعة. ويجب أن نحافظ على انضباطنا ومعنويّاتنا ووحدتنا وشعورنا بالتسامح. إنّ الخطاب غير التقليديّ، الذي قد يكون بعضكم سمعه على الراديو ليلةَ أمس، كان إسهامًا مثيرًا للتفكير في مجموعة أفكارنا بشأن مشاكل العالم. ويجب أن ننظر في الأمر بعقلانيّة، ونتفادى التطرّف في إبداء الإدانة الكاملة أو في إبداء الاتّفاق المتهوّر. ويجب أن ننظر إليه على أنّه موقفٌ من وجهة نظر الكثيرين في محفلنا الديمقراطيّ إلى الرأي العامّ، وهو، كما أثبتُّ ليلة أمس، مفتوحٌ للجميع. الحقيقة، كما يقول السيّد طومسون، لها جوانب عديدة. ويجب أن نظلّ محايدين.

وكتلخيصٍ لمحتوى تقريرٍ أنجزَه أحد العملاء الميدانيّين الذين أرسلهم في مهمّة بعنوان جسّ نبض عامّة الشعب، كتب تشيك موريسون: «إنّهم صامتون»، ثمّ كتب بتجهّم وعدم ارتياح عبارة «الصمت» في تلخيص تقريره إلى السيّد طومسون، وأضاف: «يبدو أنّ الناس صامتون».

ثمّ ارتفعت ألسنة اللهب في سماء ليلة شتويّة، والتهمت منزلًا بولاية وايومنغ ولم يرَها الناس في ولاية كانساس، أولئك الذين شاهدوا ارتجافَ توهّجٍ أحمر بأفق المرج وقد أتت عليه نيرانٌ ارتفعت لتلتهم مزرعة. ولم ينعكس التوهّج من خلال النوافذ في أحد الشوارع بولاية بنسلفانيا، هناك كان الالتواء الأحمر لألسنة اللهب انعكاسًا للنيران التي ارتفعت لتلتهم المصنع. ولم يذكر أحد، في صباح الغد، أنّ تلك النيران لم تنفجر بالصدفة وأنّ أصحاب الأماكن الثلاثة اختفوا. لقد لاحظ الجيران تلك

الحوادث من دون إبداء أيّ تعليق ومن دون إظهار أيّ دهشة. وعُثِرَ على عدد قليل من المنازل المهجورة في زوايا عشوائيّة بجميع أنحاء البلاد، بعضها تُرِك مغلقًا، وبعضها الآخر تُرِك مفتوحًا، وقد أتت النيران على كلّ ما فيها من أثاث، لكنّ الناس شاهدوا ذلك في صمتٍ من خلال الركام الثلجيّ في الشوارع تحت الظلام المنبعث من ضباب مطلع كلّ صباح وهُم يلتحقون بوظائفهم على نحو أبطأ قليلًا من المعتاد.

وقد تعرّض أحد المتكلّمين للضرب في اجتماع سياسيّ بمدينة كليفلاند في اليوم السابع والعشرين من نوفمبر، واضطرّ إلى الهرب عبر الأزقّة المظلمة. لقد دبّت الحياة فجأةً في جمهوره الصامت عندما صاح فيهم بأنّ سبب كلّ مشاكلهم هو اهتمامهم الأنانيّ بمشاكلهم الخاصّة.

وفي صباح التاسع والعشرين من نوفمبر، اندهش عمّال مصنعٍ للأحذية في ولاية مساشوستس، عند دخولهم الورشةَ، بسبب معرفة أنّ رئيس العمّال قدم في وقتٍ متأخّرٍ. ولكنّهم التحقوا بمواقعهم كالمعتاد وواصلوا أعمالهم الروتينيّة وأنشطتَهم الاعتياديّة التي تتكوّن من سحب العتلات، والضغط على الأزرار، وتمرير الجلد في جهاز التقطيع الأوتوماتيكيّ، وتكويم الصناديق على الحزام المتحرّك. وبعد مرور ساعات، تعجّبوا من عدم رؤية رئيس العمّال أو المشرف أو المدير العامّ أو رئيس الشركة. كان الوقت ظهرًا قبل أن يكتشفوا أنّ مكاتبَ المصنع الأماميّةَ فارغة.

- أنتم آكلو لحوم البشر.

هكذا صرخت امرأةٌ في وسط قاعة سينما مزدحمة، ثمّ أجهشت فجأة بالبكاء على نحو هستيريّ، ولم تظهر على وجوه الجمهور أيّ علامة من علامات الدهشة، كما لو أنّها كانت تصرخ من أجلهم جميعًا.

ثمّ أعلن البثّ الإذاعيّ الرسميّ في الخامس من شهر ديسمبر:

- لا داعي إلى القلق، يؤكّد السيّد طومسون للجميع أنّه مستعدّ للتفاوض مع جون جالت بغاية التوصّل إلى حلٍّ سريع لمشاكلنا. السيّد طومسون يحثّ الناس على التحلّي

بالصبر، فلا تقلقوا، ولا تشكّوا، ولا تفقدوا الأمل.

ولم يبدِ عمّال المستشفى في ولاية إلينوي دهشتَهم عندما أُحضر رجلٌ ضَرَبَه أخوه الأكبر الذي كان يدعمه طوال حياته. لقد كان الأخ الصغير يصرخ في وجه أخيه الأكبر، متهمًا إيّاه بالأنانيّة والطمع. ولم يبدِ عمّال المستشفى في مدينة نيويورك دهشتَهم من حالة امرأة دخلت بفكٍّ مكسور، فقد صفعها على وجهها شخصٌ غريب سمعها وهي تأمر ابنَها البالغ من العمر خمس سنوات بأن يمنح أطفالَ الجيران أفضلَ لعبة يملكها.

وحاول تشيك موريسون القيام بجولة لدعم معنويّات البلاد بخطاباتٍ عن التضحية بالنفس من أجل الرفاه العامّ. غير أنّه قوبل بوابل من الحجارة رجمته في أوّل محطّاته ممّا حتّم عليه العودة إلى واشنطن.

لا أحد منحهم مطلقًا لقبَ «أفضل الرجال» ولا أحد توقّف لفهم معنى هذا اللقب، لكنّهم كانوا يعرفون ذلك كلٌّ من موقعه سواء أكان بين أهله أم بين عشيرته، في الحيّ أم في المكتب. وكلّ واحدٍ منهم كان يعبّر عن ذلك بمعجمه الخاصّ في وصف الرجال الذين سيفشلون الآن في الظهور في مواقعهم خلال الأيّام المقبلة؛ الرجال الذين سيتلاشون في صمتٍ وهم يبحثون عن الحدود المجهولة؛ هؤلاء الرجال الذين كانت وجوهُهم أشدَّ من وجوه مَن يحيطون بهم، ونظرةُ عيونهم أكثرَ حدّةً، وطاقتُهم أكبرَ، وضمائرُهم حيّةً؛ الرجال الذين ينزلقون الآن بعيدًا، واحدًا تلو آخر، من كلّ ركنٍ من أركان البلاد التي تبدو الآن مثل سليلِ مَن كان ذات يوم يُدَعى بالمجد الملكيّ العظيم وقد أقعده داء الهيموفيليا وخَسِر أفضل دمائه من جرح لا يندمل ولا يرجى شفاؤه.

- لكنّنا على استعداد للتفاوض.

هكذا صاح السيّد طومسون في وجه مساعديه، وهو يأمر أن يتكرّر هذا الإعلان في جميع المحطّات الإذاعيّة ثلاث مرّات في اليوم، ثمّ أضاف:

- نحن على استعداد للتفاوض. سيسمعها، وسيجيب.

وأمر المستمعين الخاصّين بمراقبة أجهزة الراديو ليل نهار، وضبط تلك الأجهزة وفق كلّ التردّدات الصوتيّة المعروفة في انتظار إجابةٍ من مرسل مجهول. لكن لم يأتِ أيُّ جواب.

وأصبحت الوجوه خاليةً من أيّ معنى، شاحبةً يعلوها اليأس، تجوب شوارع المدن فاقدةً التركيزَ ومتجهّمةً، ولكن لا أحد يمكنه فهمُ معناها. وكانت فئة من الناس تفرّ بجلودها إلى باطن الأرض في المناطق غير المأهولة، أمّا الفئة الأخرى فتحاول إنقاذ نفسها من الهلاك باللجوء إلى الذات. ولا قوّة على الأرض استطاعت الجزمَ بما إذا كانت العيون الخالية وغير المبالية مصاريعَ حمايةٍ لكنوزٍ مخبّأةٍ في الجزء السفليّ من مغاوير لم تُكتَشَفْ بعدُ أم كانت مجرّد فجواتٍ للفراغ الطفيليّ الذي لا يمكن ملؤه.

وقال المدير المساعد بإحدى مصافي النفط رافضًا قبولَ وظيفة المشرف العامّ الذي اختفى فجأة:

- لا أعرف ماذا أفعل.

ولم يتمكّن وُكلاءُ مجلس الاتّحاد من معرفة ما إذا كان يكذب أم لا. فهو لم يقدّم لهم سوى الدقّة في نبرة صوته، مع غياب الاعتذار أو الخجل، وهو أمرٌ جعلهم يتساءلون عمّا إذا كان متمرّدًا أم أحمق. وكان من الخطر إجبارُه على العمل بناءً على أيّ صفة من تينك الصفتين.

وبدأ صوت دعواتٍ تقول: «أعطونا رجالا» يرتفع تدريجيًّا على طاولة مجلس الاتّحاد، من جميع أنحاء البلاد التي مزّقها الجوع والبطالة، ولم يجرؤ المحتجّون ولا المجلس على إضافة الكلمات الخطيرة التي كانت تعني «أعطونا أصحاب القدرة». على مدى سنوات طويلة، كانت هناك طوابير انتظارٍ لوظائف مثل عمّال النظافة والتشحيم والحمّالين وفتيان الحافلات، ولم يتقدّم أحدٌ لوظائف مثل وظيفة المدير التنفيذيّ، ووظيفة المدير، ووظيفة رئيس المصلحة، ووظيفة المهندس.

كانت البلاد تشهد حوادث متكرّرة مثل انفجارات في مصافي النفط، وتعطّل

الطائرات المعيبة، وتشقّقات في الأفران، وحوادث اصطدام القطارات، وشائعات عن حالات السُّكر والعربدة في مكاتب المديرين التنفيذيّين المعيّنين حديثًا، وكلّها إشارات بثَّت الخوف في أعضاء المجلس بسبب هذه النوعيّة من الناس الذين يشغلون هذه الوظائف الحسّاسة.

ثمّ أعلن البثّ الإذاعيّ الرسميّ في الخامس عشر من ديسمبر وفي كلّ يوم بعد ذلك:

- لا تيأسوا، لا تستسلموا، سوف نتوصّل إلى اتّفاق مع جون جالت... جون جالت سيقودنا وسيحلّ كلّ مشاكلنا، سيجعل المياه تعود إلى مجاريها. لا تستسلموا نحن سنصل إلى جون جالت.

وحظي بالمكافآت جميع الذي تقدّموا لشغل الوظائف الإداريّة، ابتداءً برؤساء العمّال، مرورًا بالعمّال المَهَرَةِ، وصولًا إلى أيّ إنسان يبذل جهدًا يستحقّ الترقية في الرتبة، مكافآت كانت عبارة عن علاوات في الأجور وإعفاءات ضريبيّة، وميداليّات كالتي وضعها ويسلي ماوتش، وهي تعرف باسم «وسام الاستحسان العامّ». وسمع الناس عن عروض الراحة المادّيّة فرفضوها بلامبالاةٍ وكسل كأنّهم فقدوا مفهوم (القيمة). وظنّ من كلّفهم ماوتش بجسّ نبض عامّة الناس أنّ هؤلاء هم الذين لا يهتمّون بالعيش أو أنّهم لا يهتمّون بالعيش وفقًا للشروط الحاليّة.

- لا تيأسوا، ولا تستسلموا، إنّ جون جالت سيحلّ كلّ مشاكلنا.

هذا هو الخطاب الذي ما انفكّ يتردّد في جميع المحطّات الإذاعيّة وفي كلّ الأوقات.

- لا تخبرهم بأنّنا لم نلقِ القبض عليه.

هكذا صاح السيّد طومسون في وجه مساعديه، قبل أن يضيف:

- أخبروهم بأن يجدوه حالا.

لقد تمّ تشكيل فرق خاصّة تكوّنت من الأولاد الذين عيّنهم موريسون لمهمّة اختلاق الشائعات وبثّها بين الناس، فكان نصفهم يذيع بين الناس قصّةً تقول إنّ جون

جالت في واشنطن لحضور مؤتمر مع مسؤولين في الحكومة، بينما كان النصف الآخر يذيع بين الناس قصّةَ أنّ الحكومة سوف تعطي خمسمائة ألف دولار مكافأةً لمن يدلي بمعلومات من شأنها أن تساعد على الوصول إلى جون جالت.

- لم نجد أيّ دليل يقود إليه.

هذا ما قاله ويسلي ماوتش للسيّد طومسون ملخّصًا تقارير العملاء الخاصّين الذين أُرسِلوا للتحقّق من كلّ رجل باسم جون جالت في جميع أنحاء البلاد. وأضاف:

- ثمّة معلومات كثيرة، لكنّها لا تفي بالغرض. يوجد رجل اسمه جون جالت ويشتغل أستاذًا في علم الطيور يبلغ من العمر ثمانين عامًا، وآخر يعمل خضّارًا، وهو رجل متقاعد متزوّج وأب لتسعة أطفال، ويوجد عامل بالسكك الحديديّة غير ماهر يشغل الوظيفة نفسها منذ اثني عشر عامًا.

- لا تيأسوا، سنصل إلى جون جالت.

وكانت المحطّات الإذاعيّة تبثّ ليل نهار، على نحو سرّيّ، أمرًا رسميًّا ونداءً أرسل على الموجات القصيرة من أجهزة البثّ لتصل إلى الفضاء الخارجيّ:

- نداء إلى جون جالت.. نداء إلى جون جالت.. هل تسمعنا يا جون جالت؟ إنّنا نريد أن نتفاوض معك. نريد أن نتشاور معك. أخبرنا كيف يمكننا الوصول إليك.. هل تسمعنا يا جون جالت؟

غير أنّهم لم يتلقّوا أيّ جواب.

كانت رزم الأوراق الماليّة التي تفتقد لأيّ قيمة تزداد تراكمًا في جيوب الناس، أوراق لا تصلح إلّا لشراء النزر القليل. ففي أيلول/ سبتمبر، بلغت قيمة مكيالٍ من القمح أحدَ عشر دولارًا، وبلغت ثلاثين دولارًا في تشرين الثاني/ نوفمبر، ثمّ أصبحت في شهر كانون الأوّل/ ديسمبر مائة دولار، وهي الآن تناهز مائتي دولار. وقد ظلّت مطابع خزينة الحكومة تعمل على سكّ مزيد من المال في سباق محموم ضدّ الموت

جوعًا.

وعندما ضرب عمّالُ أحد المصانع رئيسَهم وحطّموا الآلات في نوبة من اليأس، لم تُتَّخَذ أيّ إجراءات ضدّهم. فالاعتقالات كانت عقيمة، والسجون كانت ممتلئة، وكان ضبّاط الاعتقال يسمحون للسجناء بالهروب وهم في طريقهم إلى السجن. لقد كان الناس يتصرّفون وفقًا للاقتراحات المحدّدة في تلك اللحظة ويفتقرون إلى أدنى فكرة يمكن اتّباعها. ولم تتّخذ أيّ إجراءات عندما كانت حشود الجياع تهاجم المستودعات في ضواحي المدن.

- هل تسمعنا يا جون جالت؟ إنّنا نريد أن نتفاوض معك. قد نلبّي شروطك.. هل تسمعنا؟

وكانت هناك شائعات تتحدّث عن وجود عربات مغطاة تتنقّل ليلًا عبر المسارات المهجورة، والمستوطنات السرّيّة المسلّحة لمقاومة هجمات أولئك الذين يسمّونهم «الهنود» وصدّ هجمات أيّ همجيّ ناهب، سواء أكان من الدهماء أم من عملاء الحكومة. وقد شوهدت الأضواء، من حين إلى آخر، في أفق المروج البعيد، وفي التلال، وعلى حوافّ الجبال، حيث لا توجد أيّ مبانٍ. ولكن لا يمكن إقناع أيّ جنديّ بالتحقيق في مصادر تلك الأضواء.

وظهرت على أبواب المنازل المهجورة، وعلى أبواب المصانع المتداعية، وعلى جدران المباني الحكوميّة، من حين إلى آخر، كتابات بالطباشير، وكتابات بالدم، وعلامة الدولار.

- هل تسمعنا يا جون جالت؟ ابعث لنا رسالة. سنفي بأيّ شروط تضعها. هل تسمعنا؟

غير أنّهم لم يتلقّوا أيّ جواب.

واندلعت أعمدة من اللهيب الأحمر في السماء ليلة الثاني والعشرين من يناير، وامتدّت بشكل غير طبيعيّ فترةً من الزمن مثل مسلّة تأبين تذكاريّة رسميّة، ثمّ تحرّكت

مثل الأمواج واجتاحت السماء ذهابًا وإيابًا، وهي ترسل مثل الكشّاف رسالةً مستحيلة بشفرةٍ غير قابلة للفكّ، ثمّ خرجت فجأةً كما أتت، لتعلن نهاية شركة ريردن للفولاذ، لكنّ سكّان المنطقة لم يعلموا بذلك. ولم يعلموا بهذا الأمر إلّا في الليالي اللّاحقة عندما شاهدوا الفراغَ الأسود في الخارج بدلًا من الوهج النابض بالحياة في أفقهم المألوف، هم الذين كانوا يلعنون الطواحين بسبب الدخان والأبخرة والسخام والضجيج، ها هم يُترَكون الآن مع الفراغ.

لقد تمّ تأميم المطاحن كممتلكات للهاربين. وأوّل حامل للقب «مدير الشعب» عُيّن لتشغيل المطاحن رجلٌ من الفصيل الذي يحسب على أورين بويل. كان رجلًا بدينًا متخصّصًا في الصناعات المعدنيّة، ولا يريد شيئًا سوى متابعة موظّفيه أثناء المرور بحركات القيادة. ولكن في نهاية الشهر، وبعد مصادمات عديدةٍ مع العمّال؛ وفي مناسبات عديدة أيضًا عندما كان يجيب بأنّه لم يستطع تحمّل ذلك؛ وبعد طلبات عديدة لم تُسلَّم أيضًا؛ وأمام أوامر هاتفيّة كثيرة وضغوط كثيرة من رفاقه، أصبح يتوسّل نقلَه إلى موقع آخر. ثمّ انهار فصيل أورين بويل وكان ذلك منذ أن أصبح السيّد بويل محاصرًا في بيته طلبا للراحة، إذ كان طبيبه قد منعه من مزاولة أيّ عمل وأوصاه بحبك خيوط النسيج في السلال كوسيلة من وسائل العلاج الوظيفيّ. وكان «مدير الشعب» الثاني الذي أرسل إلى شركة ريردن للفولاذ محسوبًا على فصيل كوفي ميغز. كان يرتدي سروالا جلديّا ويُكثِر من استعمال مستحضرات الشعر المعطّرة. ويأتي إلى العمل شاهرًا مسدّسًا، رجل ما يفتأ يقول إنّ الانضباط هو هدفه الأساسي، وإنّه بحول الله سيحقّقه أو سيفرضه بالقوّة. والقاعدة الوحيدة التي ميّزته في الانضباط هي أوامره التي تمنع كلّ الأسئلة. وبعد أسابيع من النشاط المحموم لشركات التأمين، ورجال الإطفاء، وسيّارات الإسعاف، ووحدات الإسعافات الأوّليّة التي عملت في سلسلة حوادث لا يمكن تفسيرها، اختفى «مدير الشعب» في صباح أحد الأيّام. حدث ذلك بعد أن باع وشحن، دون استثناء للمبتزّين من أوروبا وأمريكا اللاتينية، جلَّ الرافعات الأوتوماتيكيّة والناقلات والإمدادات من الطوب الحراريّ ومولّد طاقة الطوارئ

وحتّى السجّاد الذي كان سابقًا في مكتب ريردن.

لا أحد كان قادرًا على حلّ المشاكل ووضع حدّ لحالة الفوضى العنيفة. كلّ هذه المشاكل لم يتمّ الحديث عنها، بل إنّ جميع الأطراف لم تعترف بها، لكنّ الجميع يعرفون أنّ مواجهات دامية كانت تجدّ بين العمّال القدامى والعمال الجدد في المصنع. وكانت هناك أسباب عميقة تُشعل فتيل هذه المواجهات، ولم يكن الحرس ولا رجال الشرطة ولا جنود الدولة قادرين على الحفاظ على النظام مدّةَ يوم واحد، ولم يكن بوسع أيّ فصيل حشدُ مرشّحٍ لقبول منصب «مدير الشعب». ثمّ صدر أمر في الثاني والعشرين من يناير بتعليق عمليّات شركة ريردن للفولاذ وإيقافها عن العمل مؤقّتًا.

ارتفع عمود الدخان الأحمر، في تلك الليلة، بسبب عاملٍ يبلغ من العمر ستّين عامًا، أشعل النار في أحد المباني. وعندما أُلقِي القبض عليه متلبّسًا كان يضحك ويحدّق في النيران ويصيح بشجاعة وتحدٍّ:

- إنّما أقدمتُ على هذا العمل انتصارًا لهانك ريردن.

وقالت داغني في نفسها، وهي جالسة بمكتبها ورأسُها على الطاولة التي كانت فوقها صفحة جريدة كُتِبَتْ فيها فقرة قصيرة تعلن عن النهاية (المؤقّتة) لشركة ريردن للفولاذ: لا تدعي هذا الأمر يؤذيك كثيرًا...

وظلّت تتخيّل وجهَ هانك ريردن، وهو يقف عند نافذة مكتبه، يشاهد رافعة تتحرّك في السماء بحمولة من السكك الحديديّة الخضراء المائلة إلى الزرقة...لا تدعيه يؤذيك، هكذا تكرّر النداء في عقلها. لا تدعيه يسمع به، لا تدعيه يعرف... ثمّ رأت وجهًا آخر يقول لها بصوت عنيدٍ يكتنفه احترام الحقائق:

- عليك أن تسمعي بذلك... ستسمعين عن كلّ حطام، وعن كلّ قطار توقّف... فلا أحد في هذا الوادي يزيّف الواقع..

ثمّ جلست بسكونٍ وقد غابت عن ذهنها الصور والأصوات. لم تكن تشعر بأيّ شيء سوى الألم، حتّى سمعت صرخةً مألوفةً تحوّلت إلى مخدّر قاتلٍ لكلّ الأحاسيس

إلّا القدرة على الفعل:

- يا آنسة تاجرت، إنّنا لا نعرف ما ينبغي علينا فعلُه.

وكتبت الصحف في السادس والعشرين من يناير أنّ دولة غواتيمالا رفضت الطلب الذي تقدّمت به الولايات المتّحدة الأمريكيّة للحصول على قرضٍ بألف طن من الفولاذ.

وفي ليلة الثالث من فبراير، كان هناك طيّار شابّ يقود في مساره المعتاد رحلةً أسبوعيّة من مدينة دالاس إلى مدينة نيويورك. وعندما بلغ الظلامَ الخالي بعد مدينة فيلادلفيا، أي المكان الذي يقع فيه مصنع ريردن، ذلك المكان الذي كان يمثّل معلمَه المفضّل على مدى سنواتٍ وموقعَ تحيّته في الوحدة أثناء الليل، ومنارةَ عيشه على الأرض، رأى الطيّار امتدادًا شاسعًا تغطّيه الثلوج البيضاء الغامقة والفسفوريّة التي بَدَتْ مثل تلألؤ النجوم المنتشرة على القمم والحفر في مشهد يشبه سطح القمر. لقد استقال الشابّ من عمله في صباح الغد.

عبر أمواج الراديو، خلال الليالي المتجمّدة، وفوق المدن المحتضرة، استمرّ النداء الموجّه إلى جون جالت يقرع عبثًا النوافذَ التي لم تجب، ويرتدّ على الجدران التي كانت بلا صدى، ثمّ يرتفع فوق أسطح المباني الخالية من الضوء والعوارض الهيكليّة، وظلّ يخترق الفضاء، ويصرخ في مواجهة حركة النجوم الثابتة:

- هل تسمعنا يا جون جالت؟ هل تسمعنا؟

وقال السيّد طومسون:

- يا آنسة تاجارت، إنّنا لا نعرف ما الذي ينبغي علينا فعله.

لقد دعاها إلى حضور مؤتمر شخصيّ في إحدى رحلاته الخاطفة إلى مدينة نيويورك. ثمّ أضاف:

- نحن مستعدّون للاستسلام، ونحن مستعدّون لتلبية كلّ شروطه، بل والسماح له

بتولّي زمام الأمور.. لكن أين هو الآن؟

فردّت، وقد تصلّب وجهها وصوتها بشدّة ضدّ أيّ انهيارات عاطفية:

- سأقول لك للمرة الثالثة إنّني لا أعرف مكانه. فما الذي يجعلك تعتقد أنّني أعرف أين يتوارى عن الأنظار؟

- حسنًا، لا أعرف، لكن لا بدّ أن أحاول.. كنت أظنّ فقط أنّك تعرفين أين يختفي.. ربّما لو كانت لديك طريقة للوصول إليه..

- لا أملك أيّ طريقة.

- نحن لا نستطيع الإعلان، ولا حتّى عن طريق أمواج الراديو القصيرة، عن كوننا نرغب في الاستسلام كلّيًّا. قد يسمعه الناس، لكن إن كانت لديك طريقة للوصول إليه وإخباره بأنّنا مستعدّون للاستسلام، وإلغاء سياساتنا..

- قلت لك إنّني لا أملك أيّ طريقة.

- إذا وافق فقط على حضور مؤتمر، مجرّد مؤتمر، فإنّه لن يلزمه بأيّ شيء، أليس كذلك؟ سندعه يتدبّر أمر الاقتصاد كلّه، فقط لو يحدّد لنا الزمان والمكان والطريقة. وإذا كان سيعطينا كلمةً أو توقيعًا.. وإذا كان سيجيبنا.. لماذا لا يجيب؟

- لقد سمعت خطابه.

- لكن ماذا سنفعل؟ لا يمكننا على الإطلاق تركُ البلاد من دون أيّ حكومة. فأنا أرتعد عندما أفكّر بما سيحدث. ومع وجود هذا النوع من العناصر الاجتماعيّة التي أطلق لها العنان.. يا آنسة تاجرت، هذا كلّ ما يمكنني فعلُه للحفاظ على الأمن وإلّا سينتشر النهب والقتل الدمويّ في وضح النهار. لا أعلم ما حصل للناس، لكن يبدو أنّهم لم يعودوا متحضّرين بتاتًا. ولا يمكننا الاستقالة في مثل هذا الظرف العصيب. إنّنا لا نستطيع الاستقالة، ولا نستطيع أن ندير الأمور على هذا النحو أكثر ممّا فعلنا. ما الذي ينبغي علينا فعلُه يا آنسة تاجرت؟

- اشرع في التطهير.

- ماذا؟

- أَلغِ الضرائب وكلّ القوانين.

- أوه، لا، لا. هذا غير واردٍ على الإطلاق.

- لمن؟

- أعني، ليس في هذا الوقت يا آنسة تاجارت، ليس في هذا الوقت. البلاد ليست مستعدّةً لذلك. شخصيًّا، أنا أتّفق معك، فأنا رجل يحبّ الحرّيّة يا آنسة تاجارت، وأنا لا أبحث عن السلطة، لكنّها حالة طوارئ. فالناس ليسوا مستعدّين للحرّيّة. ولا يمكننا أن نتبنّى نظريّة مثاليّة..

قالت وهي تهمّ بالنهوض:

- إذن لا تسألني عمّا يجب عليك فعلُه.

- لكن يا آنسة تاجارت..

- أنا لم آتِ إلى هنا لأتجادل معك.

وعندما بلغت داغني الباب تنهّد طومسون وقال:

- آمل أن يكون على قيد الحياة، آمل ألّا يكون قد لحق به أيّ مكروه.

وبعد لحظة سألته:

- من؟

فتجاهلها وأشرع يدَيه ثمّ تركهما تنزلان بعجزٍ وقال:

- لا أستطيع أن أضبط أولادي فترةً أطول ممّا فعلت. ولا يمكنني الجزم بما قد يحاولون الإقدامَ عليه. فهناك زمرة من الناس مثل جماعة فيريس وجماعة لاوسون

وجماعة ميغز، وهم يدعمونني على مدى أكثر من عامٍ لتبنّي تدابير أقوى واتّخاذ سياسة أكثر صرامة. إنّ ما يقصدونه، بصراحة، هو اللجوء إلى الإرهاب، وإعدام الناس الذين يقترفون جرائم مدنيّة بدعوى أنّ الناس لن يتعاونوا، ولن يتصرّفوا طوعًا من أجل المصلحة العامّة. وهكذا، فإنّ علينا إجبارهم على ذلك. يقولون إنّه لا شيء سيجعل نظامنا يعمل سوى الإرهاب. وقد يكونوا على حقّ، بالنظر إلى ما عليه الأمور هذه الأيّام. لكنّ ويسلي لن يختار أساليب قوّيةً، لأنّه رجل مسالم وليبراليّ، وكذلك أنا. ونحن نحاول إبقاء فتيان فيريس تحت السيطرة، لكن... كما ترين، هم يعارضون فكرة الاستسلام لجون جالت. ولا يريدوننا أن نتعامل معه، ولا أن نصل إليه. أنا لا أستطيع لومَهم أو تعقّبهم. فإذا وجدوه قبلي، فلا يمكن التنبّؤ بما قد يفعلونه به.. وهذا تحديدًا ما يقلقني. لماذا لا يجيب؟ لماذا لم يجبنا على الإطلاق؟ ماذا لو وجدوه وقتلوه؟ أنا لا أعرف.. لذلك تمنّيت لو أنّ لديك طريقة مّا.. بعض الوسائل لمعرفة أنّه ما يزال على قيد الحياة..

كلّ مقاومتها ضدّ الذعر المائع ذهبت في محاولةٍ للحفاظ على صوتها متصلّبًا بثباتٍ يشبه ثبات ركبتيها، امتدّ الأمر فترة طويلة تكفي لتقول إنّها لا تعرف أيّ طريقة قد تساعد على الوصول إليه.

***

من وراء الأعمدة المتعفّنة لما كان ذات يومٍ موقفًا لمساحة خضراء في الزاوية، نظرت داغني خلسةً إلى الشارع. فالمصابيح القليلة لأعمدة الإنارة بالشارع قسّمت المكانَ إلى جزر منفصلة، وأمكن لها أن ترى محلَّ قمار عند أوّل بقعة من الضوء، وصالونًا في البقعة التي تليه، وكنيسةً في مكان أبعد، وفجواتٍ مظلمةً بينها. كانت الأرصفة مهجورةً، وكان من الصعب معرفة ذلك، لكنّ الشارع بدا فارغًا.

ثمّ توقّفت فجأةً للاستماع، لم يكن بوسعها الجزم بما إذا كان مصدر الضيق غير الطبيعيّ داخل صدرها هو صوت دقّات قلبها، وصعب عليها تمييزه من صوت

عجلات بعيدةٍ أو صوت خرير المياه في النهر بمكان مّا قريب منها، ولكنّها لم تسمع صوت خطوات بشريّة خلفها. فهزّت كتفيها، بحركة كانت في جزءٍ منها رعشةً وفي الجزء الآخر قشعريرة، فحثّت خطاها ومشت بنسق أسرع. كانت في أحد الكهوف المظلمة ساعةٌ صدئة تشير إلى الرابعة صباحًا.

لم تشعر بالخوف من أن يتبعها أحدٌ، فلا خوفَ الآن يمكن أن يكون حقيقيًّا بالنسبة إليها. وتساءلت عمّا إذا كانت خفّةُ جسدها غير الطبيعيّة حالةَ توتّرٍ أم حالةَ استرخاء. وبدا جسدها مشدودًا بإحكامٍ حتّى إنّها شعرت كما لو أنّها اختُزِلت في سمة واحدة هي قوّة الحركة. لقد بدا عقلها مرتاحًا مثل محرّك وقع تشغيله في وضعيّة سيطرة أوتوماتيكيّة على قيمة مطلقة لم تعد محلّ تساؤل. وظنّت أنّ تحرّكها يشبه حركة رصاصة عارية مطلقة في الفضاء في نصف طريقها لبلوغ الهدف؛ لمجرّد الحركة والهدف، ولا شيء آخر. وفكّرت في الأمر على نحوٍ مبهم وبعيدٍ، كما لو أنّ جسدها لم يكن واقعيًّا؛ فقط كلمة «عارية» بدت وكأنّها تصل إليها: عارية... مجرّدة من كلّ قلق ما عدا الهدف.. ظلّ عقلها يكرّر الرقم «367»، وهو رقم منزل على ضفاف النهر الشرقيّ، ذلك الرقم الذي كانت ممنوعة من النظر إليه منذ فترة طويلة.

وظلّت تردّد بأغوار نفسها رقم «367» وهي تبحث عن شكل غير مرئيّ أمامها بين أشكال المباني، «367» هذا هو رقم المنزل الذي يعيش فيه.. إذا كان ما يزال على قيد الحياة.. وكان سبب هدوئها وتحرّرها وثقتها بخطواتها ناتجٌ عن يقين من أنّ تلك الفرضيّة التي أسبقتها بلفظة «إذا» لم تعد موجودةً بعد الآن.

لقد تعايشت مع تلك الوضعيّة عشرة أيّام، وكانت الليالي التي خلفها تمثّل تسلسلًا طبيعيًّا جلبها إلى هذه الليلة، كما لو أنّ الزخم الذي يقودها هو صوت خطواتها الرنّانة بلا رجع صدًى في أنفاق المحطّة. لقد بحثت عنه في الأنفاق، وكانت تمشي ساعاتٍ، ليلةً تلو أخرى، وأثناء ساعات المناوبة التي سبق أن عمل فيها. كانت تبحث عنه في الممرّات تحت الأرض، في المنصّات، في المحلّات التجاريّة، وفي كلّ منعطف لأيّ مسار مهجور، ومن دون أن تطرح أيّ سؤال على أيّ شخص أو تقدّم أيّ تفسيرات حول

سبب وجودها في هذه الأمكنة. مشت، من دون شعور بالخوف أو الأمل، متأثّرةً بشعور الولاء المستميت الذي كان تقريبًا يشبه شعورها بالفخر. وكان أصل هذا الشعور متأتّيًا من اللحظات التي توقّفت فيها فجأةً في ذهولٍ بإحدى الزوايا الجوفيّة المظلمة وقد سمعت هذه الكلمات: هذه هي سككي الحديديّة. وعندما نظرت إلى قبو مرتعش على وقع صوت عجلات بعيد قالت في نفسها: هذه هي حياتي. وعندما شعرت بتوتّرٍ جامدٍ يعبّر عن كلّ ما هو متوقّف وعالق بداخلها قالت في نفسها: هذا هو حبّي. هذا ما تبادر إلى ذهنها عندما فكّرت في الرجل الذي ربّما كان في مكان مّا بتلك الأنفاق. وبما أنّه لا يمكن أن يكون هناك صراع بين هؤلاء الثلاثة تساءلت: ما الذي أشكّ فيه؟ وما الذي يمكن أن يبقينا منفصلين، هنا، إلى حيث ننتمي أنا وهو فقط؟ ثمّ استعادت سياق الحاضر، ومشت بثباتٍ، يرافقها الشعور بالولاء الثابت نفسه، ولكن بصوت كلمات مختلفة: لقد منعتني من البحث عنك، قد تلعني، وقد تختار التخلّي عنّي.. لكن، لأنّي على قيد الحياة، يجب أن أعرف أنّك أيضًا على قيد الحياة.. يجب أن أراك هذه المرّة...لا لأتحدّث إليك أو لألمسك، بل فقط لأنظر إليك... لكنّها لم ترَه فتخلّت عن بحثها، عندما لاحظت نظرات العاملين تحت الأرض الغريبةَ والمتعجّبةَ وهي تلاحق خطواتها.

ثمّ طلبت عقد اجتماع مع عمّال مسار المحطّة بهدف تعزيز معنويّاتهم، وكانت قد عقدت الاجتماع مرّتين، وواجهت جميع الرجال مكرّرةً الكلام نفسه، وشعرت بطعنة من العار أمام العموميّات الفارغة التي نطقت بها، وقد رافقتها طعنة من الفخر بأنّ ذلك لم يعد يهمّها. لقد نظرت إلى وجوه منهكة لرجال كانوا لا يهتمّون بما إذا أمروا بالعمل أو الاستماع إلى أصوات لا معنى لها. ولم ترَ وجهه بينهم فسألت رئيس العمّال:

– هل حضر جميع العمال؟

فأجابها بلامبالاةٍ:

– نعم، أعتقد ذلك.

كانت تتسكّع عند مداخل المحطّة، تراقب الرجال وهم قادمون إلى العمل. وكانت تنزوي في مكان قصيّ حيث يمكنها أن تشاهد الناس دون أن ينتبه إليها أيّ شخص. ووقفت في مواجهة الشفق الرطب على رصيف يتلألأ بالمطر، وهي تضغط بجسدها على جدار مستودع، وطوق معطفها مرفوع إلى عظام وجنتيها، وكانت قطرات المطر تتساقط على حافّة قبّعتها. كانت تقف على مرأى المارّة، وهي تعلم أنّ نظرات الناس الذين مرّوا بها هي نظرات الاعتراف والدهشة، وكانت تدرك أنّ وقفتها الاحتجاجيّة تمثّل خطرًا واضحًا. واعتقدت أنّه إذا كان هناك جون جالت من بين المارّة، فإنّه يمكن لأيّ شخص تخمين طبيعة سعيها.. وإذا لم يكن جون جالت من بين المارّة، فإنّه لن يوجَد أيّ خطر أو أيّ عالم.

كانت تعتقد أنّه لا يوجد أيّ خطر أو أيّ عالم، وهي تمشي في شوارع الأحياء الفقيرة نحو المنزل رقم «367» الذي قد يكون منزله. وتساءلت عمّا إذا كان هذا ما يشعر به المرء أثناء انتظاره حكمَ الموت.

وتناثرت علبة من الصفيح تحت أصابع قدميها، وكان صدى الصوت عاليًا جدًّا وطويلًا جدًّا، كما لو أنّه رجع صدًى بين جدران مدينة مهجورة. وكانت الشوارع تبدو مدمّرةً بسبب الإرهاق، لا منهارة بسبب الراحة، كما لو أنّ الناس ليسوا نائمين، بل محطّمين. وظنّت أنّه ربّما عاد من العمل إلى منزله في هذه الساعة.. إذا كان يعمل.. وإذا كان ما يزال يملك منزلًا.. ثمّ نظرت إلى أشكال مباني الأحياء الفقيرة، والجبس المتهالك، والطلاء المتقشّر، واللّافتات الباهتة للمحلّات الفاشلة مع البضائع غير المرغوب فيها وقد عُرِضَت في نوافذ غير مغسولة، وسلالم غير آمنة، وحبال غسيل نُشِرت عليها ملابس غير صالحة للارتداء، ومبانٍ غير منجزة ومهملة وغير مكتملة وكلّ المعالم الملتوية وقد واجهت سباقًا خاسرًا ضدّ عدوّين: «لا وقت» و«لا قوّة» وظنّت أنّ هذا هو المكان الذي عاش فيه مدّة اثني عشر عامًا، هو الذي امتلك مثل تلك القوّة العظيمة لإنارة وظيفة الوجود الإنسانيّ.

وظلّت بعض الذكريات تكافح من أجل الوصول إليها، ثمّ عادت: لقد كان اسم

تلك المدينة ستارنسفيل. ثمّ شعرت بالقشعريرة فصرخت في أغوار ذاتها: لكن هذه مدينة نيويورك! وصاحت للدفاع عن العظمة التي كانت تحبّها، ثمّ واجهت بصرامة ثابتة الحكمَ الصادر عن عقلها: إنّ المدينة التي تركته في هذه الأحياء الفقيرة مدّةَ اثني عشر عامًا أصبحت ملعونةً ومصيرها يشبه ما وقع بمدينة ستارنسفيل.

ثمّ أحسّت فجأةً أنّ الأمر لم يعد مهمًّا، فقد شعرت بصدمة غريبة مثل صدمة الصمت المفاجئ، والشعور بالسكون في داخلها، وقد اعتبرته شعورًا بالهدوء، إذ رأت الرقم «367» على باب مبنى قديم.

كانت المرّة الوحيدة التي فقدت فيها فجأةً معنى الاستمرارية وتشتّت ذهنها، فأدركت معنى اللحظة عندما شاهدت الرقم، ثمّ اللحظة التي نظرت فيها إلى قائمةٍ كُتِبَت بلوحةٍ في مدخل عفنٍ نصف مضاء ورأت الكلمات الآتية: جون جالت، الطابق الخامس، الجناح الخلفيّ. كانت مكتوبة بقلم رصاص. ثمّ لحظةَ توقّفت عند أوّل الدرج، وأخذت تحدّق في تلاشي زوايا السور ثمّ اتّكأت فجأةً على الجدار، وبدأت ترتجف من الرعب، ثمّ اللحظة التي شعرت فيها بحركة قدمها وهي ترتاح على أوّل الدرجات، ثمّ التقدّم المنفرد والمتواصل للخفّة والنهوض دون جهد أو شكّ أو خوف من الشعور بالتواء أقساط الدرج المتدلّي تحت قدميها غير المتردّدتين، كما لو أنّ زخم صعودها الذي لا يقاوَم كان متأتّيًا من استقامة جسدها واتّزان كتفيها وارتفاع رأسها واليقين المهيب من أنّها لم تكن تتوقّع في لحظة القرار النهائيّ، حصولَ كارثة لحياتها، في نهاية السلم الصاعد الذي كانت بحاجة إلى سبعة وثلاثين عامًا كي تصعده.

وفي الطابق العلويّ، رأت رواقًا ضيّقًا تتقارب جدرانه إلى باب غير مضاء. ثمّ سمعت تحت خطواتها صريرَ ألواح الأرضيّة تخترق الصمت. وشعرت بضغط إصبعها على جرس الباب وسمعت صوت الرنين في الفضاء المجهول، ثمّ انتظرت. وسمعت طقطقة خاطفة لإحدى اللوحات، صدرت بالطابق السفليّ. ثمّ سمعت صوت زورق سحب يمخر العباب في مكان مّا على النهر. ثمّ أدركت أنّها سرحت فترةً من الزمن، لأنّ اللحظة التي استعادت فيها وعيَها لم تكن بلحظة استفاقة، بل

كانت تشبه لحظة الولادة، كما لو أنّ صوتين يسحبانها من الفراغ، صوت خطوة وراء الباب وصوت قفل أغلق، لكنّها ظلّت شاردة الذهن حتّى لحظةٍ لم يعد فيها أمامها فجأةً أيّ باب وكان الجسد الواقف عند العتبة هو جون جالت يقف بشكل عرضيّ في المدخل، ويرتدي بنطلونًا وقميصًا، وكانت زاوية خصره مائلةً قليلًا باتّجاه الضوء.

كانت تدرك أنّ عينيه تستوعبان تلك اللحظة، ثمّ تجتاحان ماضيها ومستقبلها، وتدرك أنّ عمليّة حسابيّة خاطفة مثل البرق كانت تجلبها إلى سيطرته الواعية. وفي الوقت الذي تحرّكت فيه طيّة قميصه مع حركة أنفاسه، كان يعرف جملة ما قام به. وكان المجموع ابتسامة تحيّة مشرقة.

لم تكن قادرة على التحرّك. ها هو يمسك بذراعها الآن، ويجذبها إلى داخل الغرفة. ثمّ شعرت بضغط فمه، وأحسّت برقّة جسده من خلال تصلّب غريبٍ ومفاجئ في معطفها. ثمّ لاحظت ابتسامةً في عينيه، وشعرت بلمسة فمه مرارًا وتكرارًا، وهي تترنّح بين ذراعيه مرتخيةً في استسلام. كانت تتنفّس في شكل لهاث لم تشعر به بعدَ صعودها خمسةَ طوابق من السلالم، وكان وجهها مضغوطًا بالزاوية بين رقبته وكتفه، وهي تحتضنه بذراعيها ويديها وبشرة خدّها.

- جون.. أنت على قيد الحياة..

فأومأ برأسه، كما لو أنّه يعرف ما تسعى تلك الكلمات إلى تفسيره. ثمّ التقط قبّعتها التي سقطت على الأرض، وخلع معطفها ووضعه جانبًا، ونظر إلى جسدها المرتجف الرشيق، وبريق الموافقة في عينيه، ويده تتحرّك فوق سترة ضيّقة، ذات طوق عالٍ، زرقاء داكنة أضفت على جسدها رشاقةَ تلميذة وتوتّرَ مقاتلٍ. وقال:

- حين أراك في المرّة القادمة، سأرتدي سترة بيضاء. ستبدو رائعة.

واكتشفت أنّها ترتدي ملابس لم يسبق أن ظهرت بها في الأماكن العموميّة. كانت ترتدي الملابس ذاتها التي ارتدتها في المنزل طوالَ ساعات الأرق من تلك الليلة. فضحكت. لقد استعادت القدرة على الضحك، كانت تتوقّع أن تكون كلماته الأولى

أيّ شيء غير هذه الكلمات.

وأضاف بهدوء:

- هذا إذا التقيتُ بك مرّةً أخرى.

- ماذا؟ هل تعني...

فسار نحو الباب وأغلقه، ثمّ قال:

- اجلسي.

لكنّها ظلّت واقفةً، وأخذت قليلًا من الوقت لإلقاء نظرة على الغرفة ولم تلاحظ وجود حجرة علويّة تفتقر إلى الأثاث باستثناء سرير في أحد أركانها وموقدِ غازٍ في ركن آخر، وبضع قطع من الأثاث الخشبيّ، وألواح عارية تؤكّد طول الأرضيّة، ومصباح واحد فوق المكتب، وباب مغلق في الظلال خارج دائرة ضوء المصباح، ومدينة نيويورك مطلّة خارج نطاق نافذة هائلة، وانتشار المباني والأضواء المتناثرة، وبرج مبنى تاجارت على بعد مسافة. فقال:

- اسمعيني الآن باهتمام. لدينا حوالي نصف ساعة. أعرف سبب مجيئك إلى هنا. لقد أخبرتك مسبّقًا بأنّه سيكون من الصعب عليك الصمود وأنّ من المرجّح أن تنهاري. فلا تندمي على ذلك. وأنا أيضًا لا يمكنني أن أندم على ذلك. لكن علينا أن نعرف كيف ينبغي أن نتصرّف من الآن فصاعدًا. فخلال نصف ساعةٍ سيصل عملاء اللصوص الذين يتعقّبون خطواتك إلى هنا لاعتقالي.

فشهقت وقالت:

- أوه، لا.

- يا داغني، إنّ أيّ فرد منهم يدرك جيّدا أنّك لست واحدة منهم، وأنّك آخر صلة تربطهم بي. ولا شكّ أنّهم يتعقّبون كلّ خطواتك...

- لم يتعقّبني أيّ شخص، لقد تأكّدت من هذا الأمر..

- أنت لا تعرفين الحيل التي يلجؤون إليها في ترصّد خطواتك. إنّهم خبراء في هذا المجال، وأيًّا كان من تعقبك، فهو سيبلّغ رؤساءه بوجودك في هذه المنطقة. ولا تنسي أنّ اسمي مكتوب على اللوحة في الطابق السفليّ..

- دعنا، إذَن، نخرج من هنا.

فهزّ رأسه وقال:

- إنّهم يحاصرون الحيّ الآن. كلّ ما أريدك أن تكوني على بيّنة منه هو كيف ينبغي عليك التصرّف عندما يأتون إلى هنا. داغني، لديك فرصة واحدة لإنقاذي. إذا كنت لا تفهمين تمامًا ما قلته في الراديو عن الرجل الذي يقف في الوسط، فستفهمين ذلك الآن. لا يوجد وسط مناسب لك حتّى تتّخذيه، وأنت لا تستطيعين الوقوف في صفّي، على الأقلّ مادمنا سقطنا تحت رحمة أيديهم. الآن يجب أن تقفي إلى جانبهم.

- ماذا؟

- يجب عليك أن تصطفّي إلى جانبهم، وذلك بثباتٍ وبصوتٍ عالٍ بقدر ما تسمح به قدرتك على الخداع. ويجب أن تتصرّفي كواحدة منهم. ويجب أن تتصرّفي كأشرس عدوٍّ لي. فإذا تصرّفت على هذا النحو، فإنّني سأحظى بفرصة للخروج من هنا حيًّا. إنّهم يحتاجون إليَّ كثيرًا، غير أنّهم لا يملكون أيّ شيء يبتزّونني به. ولكن إذا فطنوا إلى حقيقة أنّك تعنين لي الكثير فإنّك ستتحوّلين إلى وسيلة لابتزازي، وهذا ما لا يمكن أن أقبل به على الإطلاق.

لقد قالها من دون تأكيد، بتلك النبرة غير الشخصيّة نفسها، نبرة الحسابات العمليّة، تمامًا مثل بقيّة أفعاله. وكانت تعرف أنّه يقصد ذلك وأنّه محقٌّ في قوله. وأدركت كيف أنّها وحدَها قادرةٌ على النجاح في تدميره، في مقابل فشل كلّ قوّة أعدائه في ذلك. أمّا هو فرأى نظرة السكون في عينيها، نظرة الفهم والرعب. فأومأ برأسه بابتسامة خافتة. وقال:

- ليس عليّ أن أخبرك بأنّك إذا فعلت ذلك، لن يكون الأمر فعل تضحية بالنفس. فأنا لا أبالي بشروطهم، ولا أطيع أوامرهم، ولا يهمّني أن أعيش من دون قيم. وليس عليّ أن أخبرك بأنّنا لا ندين بأيّ أخلاق لأولئك الذين يحتجزوننا تحت التهديد بالسلاح، لذلك استخدمي كلّ قوّة خداع يمكنك توظيفها، لكن أقنعيهم بأنّك تكرهينني. عندها فقط سأحظى بفرصة البقاء على قيد الحياة والهروب. أنا لا أعرف متى أو كيف، ولكن سأعرف أنّني حرٌّ في التصرّف. هل هذا مفهوم؟

فأجبرت نفسها على رفع رأسها، للنظر إليه مباشرة مشيرةً إليه بإيماءة. ثمّ قال لها:

- حين يصلون إلى هنا أخبريهم بأنّك كنت تحاولين الوصول إليّ من أجلهم، وأنّك كنت تشكّين بي عندما رأيت اسمي في قائمة رواتب شركتك وأنّك أتيت إلى هنا للتحقّق من هذا الأمر.

فأومأت برأسها في إشارة إلى أنّها فهمت كلامه. ثمّ أضاف: مكتبة سُر مَن قرأ

- سأتماطل قبل أن أعترف بهويّتي، قد يتبيّنون صوتي، لكنّي سأحاول إنكاره، كي تخبريهم بأنّني جون جالت الذي يبحثون عنه.

واستغرق الأمر بضع ثوان لتجيبه، لكنّها أومأت برأسها لتخبره بأنّها ستمتثل لأوامره.

- وبعد ذلك، ستطالبين بمكافأة الخمسمائة ألف دولار التي وعدوا بها كلَّ من يساعدهم على الوصول إليّ.

فأغمضت عينيها، ثمّ أومأت برأسها. ثمّ قال ببطء:

- يا داغني، ليس هناك طريق لخدمة قيمك في ظلّ نظامهم. كان عليهم جلبك إلى نقطة يكون فيها الشيء الوحيد الذي يمكنك فعله من أجلي هو الوقوف ضدّي. فاجمعي قواك وأقدِمي على ذلك عندها نستحقّ هذه المدّة القصيرة وربّما المستقبل.

فردّت بحزمٍ:

- سأفعل ذلك.. وإذا كان هذا هو ما سيحدث، وإذا كانوا..

- لا تندمي على ذلك، وأنا أيضًا لن أندم عليه. فأنت لم تدركي بعدُ طبيعة أعدائنا، لكنّك ستدركينها الآن. وإذا كان عليّ أن أكون القربان الذي يجعلك تقتنعين بهذه الحقيقة، فأنا على استعدادٍ لذلك، وأفوز بك بعد ذلك مرّة واحدةً وإلى الأبد. يبدو أنّك لم تكوني قادرةً على الانتظار أكثر؟ أنا أيضًا لم أكن قادرًا على تحمّل غيابك، يا داغني.

كانت الطريقة التي حملها بها والطريقة التي قبّل بها فمها هي التي جعلتها تشعر وكأنّ كلّ خطوة اتّخذتها، وكلّ خطرٍ، وكلّ شكّ بها في ذلك خيانتها له -إذا كان ما قامت به يعتبر خيانة- كلّها أشياء منحتها الحقّ في السعادة إلى حدّ الآن. أمّا هو فرأى ملامح الصراع في تقاسيم وجهها، والتوتّر من احتجاج غير معقول ضدّ نفسها، وسمعت نبرة صوته من خلال خصلات شعرها المضغوطة على شفتيه:

- لا تفكّري فيهم الآن. لا تفكّري في الألم أو الخطر أو الأعداء أكثر من اللزوم. أنت هنا، وهذا زمننا لا زمانهم. فلا تكافحي كي لا تكوني سعيدةً فأنت تستحقّين كلّ سعادة الدنيا.

فهمست:

- ألن يكون هذا الأمر على حساب خطر تدميرك؟

- لن تفعلي ذلك، لكن.. أجل، حتّى لو وقع ذلك. هل تعتقدين أنّ ما أفعله ضربٌ من ضروب اللامبالاة؟ هل كانت اللّامبالاة هي التي حطّمتك وجلبتك إلى هنا؟

- أنا..

ثمّ جعلها عنف الحقيقة تسحب فمَه إلى فمها لتلثمه بشدّة، ثم ألقت الكلمات في وجهه:

- لا يهمّني ما إذا كان أيّ واحد منّا سيعيش بعد ذلك. لقد أتيت إلى هنا لأراك فقط ولو للمرّة الأخيرة.

- كنت سأصاب بخيبة أملٍ كبيرة لو أنّي لم أرَكَ هنا.

- هل تعلم أنّي كنت أقاسي جدًّا بسبب الانتظار..

فضحك وقال بلطف:

- وهل تعتقدين أنّني لم أكن أيضًا أقاسي؟

فأسقطت يدَها في إشارة عجز، وفكّرت في سنواته العشر. ثمّ قالت:

- عندما سمعت صوتك في الراديو، وسمعتُ خطابك الذي لم أسمع بمثله من قبل.. لا، ليس لي الحقّ في إخبارك بموقفي منه.

- لماذا؟

- هل تعتقد أنّني لم أقبل بما جاء فيه؟

- بل ستقبلينه عن طيب خاطر.

- هل كنت تتحدّث من هنا عندما أذعت الخطاب في الراديو؟

- لا، لقد أذعته من الوادي.

- وهل عدت بعد الخطاب مباشرةً إلى نيويورك؟

- في صباح الغد.

- وهل أنت هنا منذ ذلك الحين؟

- نعم.

- وهل سمعت تلك النداءات التي كانوا يطلقونها كلّ ليلة؟

- طبعًا.

ثمّ ألقت ببطءٍ نظرةً حول الغرفة. ومن خلال النافذة، كانت عيناها تتنقّلان بين أبراج المدينة ثمّ تعودان إلى عوارض سقفه الخشبيّة، وقالت:

- لقد كنت هنا كلّ هذا الوقت، وعشت هنا مدّة اثني عشر عامًا.. هنا.. وعلى هذا النحو..

- طبعًا.

ثمّ فتح الباب الذي كان في نهاية الغرفة فاندهشت. كان عبارة عن مساحة شاسعة مغمورة بالضوء، بفضاءٍ لا نوافذ فيه، مغلق على شكل قوقعة صُنِعت بعناية من معدنٍ لامعٍ مثل قاعة رقص صغيرة على متن غوّاصة، وكان يمثّل أحد المختبرات الحديثة الأكثر كفاءة، تلك التي لم يسبق لها مطلقًا أن رأت مثلها في حياتها. وقال لها وهو يبتسم:

- ادخلي، لا يجب عليّ إخفاء أي سرّ عنك بعد الآن.

كان الأمر أشبه بعبور الحدود إلى كونٍ مختلف. فنظرت إلى المعدّات المعقّدة المتلألئة في وهج لامع، ورأت السبّورة الممتلئة بصيغ رياضيّة مكتوبة بالطباشير، وعدّادات طويلة لأشياء شكّلها انضباط صارم لهدف مّا، ثمّ ألقت نظرة على الألواح البالية وجبس السقيفة المتهالك. وقالت في نفسها: إمّا أنّها روح بشريّة في صورة شخصٍ أو العكس.

فقال:

- أريدك أن تعرفي المكان الذي كنت أعمل فيه مدّة أحدَ عشر شهرًا في السنة.

فسألته وهي تشير إلى المختبر:

- هل أنشأت كلّ هذا بفضل راتب عامل يوميّ غير ماهر؟

- أوه، لا! بل من حقوق الملكيّة التي يدفعها لي ميداس موليغان مقابل طاقته، وشاشة الأشعّة، وجهاز الإرسال للراديو وبعض الوظائف الأخرى من هذا النوع.

- ولماذا كان عليك أن تشتغل عاملًا بسيطًا في السكك الحديديّة؟

- لأنّ ما أجنيه من مالٍ في الوادي لا يمكن إنفاقه في الخارج.

- ومن أين حصلت على هذه المعدّات؟

- أنا الذي صمّمتها ومسبك أندرو ستوكتون هو الذي صنعها.

وأشار إلى جسم غير حادّ بحجم خزانة راديو في زاوية الغرفة، ثمّ أضاف:

- ذلك هو المحرّك الذي أردت تطويره.

فضحكت وشهقت من الدهشة، على وقع هزّة لاإراديّة ألقتها إلى الأمام.

- لا تزعجي نفسك بتفحّصه، فأنت لن تعطِهم إيّاه الآن.

كانت تحدّق في الأسطوانات المعدنيّة اللّامعة ولفائف الأسلاك المتألّقة مثل بقايا جثّة مقدّسة في تابوت زجاجيّ في قبوٍ بمحطّة تاجرت.

قال:

- إنّه يزوّدني بالطاقة الكهربائيّة التي يحتاج إليها المختبر. لكي لا يتساءل الناس عن السبب الذي يجعل عاملًا بسيطا في السكك الحديديّة يستهلك كمّيّات كبيرة من الكهرباء.

- لكن إذا وجدوا هذا المكان..

فضحك وقال:

- لن يجدوه.

- منذ متى وأنت..

ثمّ توقّفت، لكن في هذه المرّة لم يصدر عنها أيّ لهاث، إذ لم يكن بوسعها استقبال المشهد الذي واجهته بأيّ شيء ما عدا إبداء لحظة من السكون الداخليّ التامّ. لقد رأت على الجدار خلفَ صفٍّ من الآلات صورةً اجتُزِئت من صحيفة، صورتها وهي ترتدي بنطلونًا وقميصًا، وهي واقفة بجانب قاطرة المحرّك في افتتاح خطّ جون جالت،

ورأسها مرفوع وابتسامة منسجمة مع السياق والمعنى وضوء أشعّة الشمس في ذلك اليوم.

وكان الأنين هو إجابتها الوحيدة، عندما التفتت إليه، لكنّ النظرة على وجهه طابقت ملامح وجهها في الصورة.

فقال:

- لقد كنتُ رمزًا إلى ما أردت تدميره في العالم. لكنّك كنت رمزي إلى ما أردتُ تحقيقه.

ثمّ أشار إلى الصورة وأضاف:

- هذا هو الإحساس الذي يبحث عنه الجميع.

وجعلت ملامح وجهه، والشدّة الصافية في عينيه ورجاحة عقله، الأمرَ يبدو حقيقيًّا بالنسبة إليها في تلك اللحظة، وفي ذلك السياق الكامل، وفي تلك المدينة.

وعندما قبّلها، علمت أنّ أيديهما متماسكة، وأنّهما كانا يحصلان على أعظم انتصارٍ لهما، وأنّ هذا هو الواقع الذي لم يمسسه الألم أو الخوف، بواقع كونشرتو هالي الخامس، ذلك الواقع الذي كان بمثابة المكافأة التي تبحث عنها، وقاتلا من أجلها وفازا بها.

ثم رنّ جرس الباب. وكان ردّ فعلها الأوّل أن تتراجع إلى الخلف، أمّا ردّ فعله فهو أنّه اقترب منها أكثر. وعندما رفع رأسه كان يبتسم. فقال لها:

- لا مجال للخوف الآن.

تبعته إلى السقيفة وسمعت باب المختبر يغلق أوتوماتيكيًّا خلفهما. ثمّ أمسك معطفها بصمت، وانتظرها حتّى ربطت حزامها ووضعت قبّعتها، ثمّ مشى إلى باب المدخل وفتحه.

فدخل أربعة رجال، ثلاثة منهم يرتدون الزيّ العسكريّ ويشهرون المسدّسات. أمّا

الرابع، فهو قائدهم، وكان ضعيف البنية بزيّ مدنيّ ومعطف باهظ الثمن وشارب أنيق وعينين زرقاوين شاحبتين، أمّا سلوكه فكان يشبه سلوك مثقّف مختصّ في العلاقات العامّة.

ثمّ نظر إلى جالت وفي أرجاء الغرفة، ثمّ خطا خطوةً إلى الأمام، ثمّ توقّف، ثمّ خطا خطوةً أخرى وتوقّف مجدّدًا. فقال جالت:

- من؟

ثمّ سأله بصوت عالٍ جدًّا:

- هل أنت جون جالت؟

- هذا هو اسمي.

- هل أنت جون جالت؟

- أيّ واحد منهم؟

- هل أنت من تحدّث في الراديو؟

- متى؟

- قالت داغني وهي تتوجّه بكلامها إلى القائد:

- لا تدعه يخدعك. إنّه جون جالت وسأوافيكم بالدليل على ذلك.

فالتفت جالت إليها مثل الغريب:

- هل ستخبرينني الآن من أنتِ؟ وماذا تريدين؟

فكان وجهها خاليًا من أيّ معنى مثل وجوه الجنود:

- اسمي داغني تاجرت. أردت أن أقنع نفسي بأنّك الرجل الذي تبحث عنه البلاد.

فالتفت جالت إلى القائد وقال وهو يشير بيده إلى داغني:

- حسنًا، أنا هو جون جالت، ولكن إذا كنت تريد منّي أن أجيب، فأبعد تلك الحمامة المتّسخة.. أبعدها عنّي.

- صاح القائد فرحًا:

- يا سيّد جالت. إنّه لشرفٌ لي أن ألتقي بك، إنّه لشرف كبير. يا سيّد جالت، رجاء لا تسئ فهمنا، فنحن مستعدّون لتحقيق أمنيّاتك. بالطبع، إن كنت لا تريد أن تتعامل مع الآنسة تاجارت، فأنت حرّ. إنّ الآنسة تاجارت كانت تحاول فقط أن تؤدّي واجبها الوطنيّ، لكن..

- قلت لك أبعدها عنّي.

- نحن لسنا أعداءك يا سيّد جالت، أؤكّد لك أنّنا لسنا أعداءك.

ثمّ التفت إلى داغني، وأضاف:

- يا آنسة تاجرت، لقد أدّيت خدمةً لا تقدّر بثمن لشعبنا. ونحن ممتنّون لكِ كثيرًا. اسمحي لنا بأن نتولّى الأمر من الآن فصاعدًا.

وحرّك يده ليأمُرها بالتراجع إلى الخلف، للحفاظ على مسافة بعيدة عن جالت.

وسأله جالت:

- ماذا تريدون منّي؟

- إنّ الأمّة تنتظرك بلهفة يا سيّد جالت. كلّ ما نريده هو أن نحظى منك بفرصة لتبديد سوء الفهم، مجرّد فرصة للتعاون معك.

وكانت يده القائمة تلوّح بإشارة إلى رجاله الثلاثة، وقد تشقّقت ألواح الأرضيّة، بينما كان الرجال يتابعون بصمتٍ مهمّةَ فتح الأدراج والخزانات. كانوا يفتّشون الغرفة. ثمّ أضاف:

- يا سيّد جالت، إنّ روح الأمّة ستنتعش في صباح الغد عندما يبلغهم خبر العثور

عليك.

- ماذا تريدون منّي؟

- نريد فقط أن نحيّيك باسم كلّ الشعب.

- هل أنا معتقل؟

- لماذا تفكّر على هذا النحو؟ مهمّتنا هي أن نوصلك في أمانٍ إلى أعلى مجالس القيادة الوطنيّة، حيث الحاجة الماسّة إليك.

ثمّ سكت، لكنّ جالت لم يردّ فاستأنف حديثه:

- إنّ كبار زعماء البلاد يرغبون في التشاور معك والتوصّل إلى حلّ ودّيّ.

ولم يجد الجنود شيئًا سوى الملابس وأواني المطبخ، ولم تكن هناك رسائل، ولا كتب، ولا حتّى صحيفة، كما لو أنّ الغرفة مسكن رجلٍ أمّيّ.

- يا سيّد جالت، إنّ هدفنا هو مساعدتك على الوصول إلى المنزلة التي تستحقّها في المجتمع. فلا يبدو أنّك تدرك قيمتك.

- بل أدركها حقّ الإدراك.

- نحن هنا فقط من أجل حمايتك.

قال أحد الجنود وهو يشير إلى باب المختبر:

- إنّه مغلق.

ثمّ أخذ يضرب بقبضته باب المختبر، فابتسم القائد ثمّ سأل جالت:

- ماذا يوجد خلف هذا الباب يا سيّد جالت؟

- إنّه ملكيّة خاصّة.

- هل يمكنك أن تفتح هذا الباب؟

- لا.

- إنّ يديّ، لسوء الحظّ، مقيّدتان. إنّها الأوامر، يجب أن نكتشف هذه الغرفة.

- تفضّل.

- إنّه مجرّد إجراء شكليّ، ومجرّد عمل روتينيّ. ولا يوجد سبب لعدم التعامل مع الأمور بشكل وديّ، فهلّا تعاونت معنا؟

- لا.

- أنا متأكّد من أنّك لا تريد أن نلجأ إلى أيّ.. وسائل غير ضروريّة.

لكنّ جالت لم يبدِ أيّ ردّ، فأضاف:

- نحن نتمتّع بالسلطة الكاملة لتحطيم هذا الباب، ولكنّنا لا نريد اللجوء إلى مثل هذه الأساليب.

وإذ لم يحصل على أيّ ردّ من جالت، أمر الجنديّ:

- اخلع ذلك القفل.

فنظرت داغني خلسةً إلى وجه جالت الذي بقي جامدًا على نحو سلبيّ، لقد حافظ رأسه على درجة الاتّزان نفسها، ورأت تقاسيم جسده غير المشوّشة. كانت عيناه موجّهتين نحو الباب. وكان القفل عبارةً عن صفيحة مربّعة صغيرة من النحاس المصقول من دون ثقب مفتاح أو أيّ مكوّنات أخرى.

خيّم الصمت والجمود المفاجئ على الجنود الثلاثة على نحو غير إراديّ، بينما ظلّت أدوات اللصوص في يدي الجنديّ الرابع تحدث صريرًا على خشب الباب.

فتلاشى الخشب بسهولة وسقطت شظايا صغيرةٌ إثر دويّ ضخم صدرَ من فوّهة بندقيّة واخترق الصمت عندما هاجم اللصّ جيمي الصفيحة النحاسيّة، فسمعوا صوتًا حفيفًا خافتًا خلف الباب، لم يكن سوى تنهيدة عقلٍ مرهق. وبعد دقيقة أخرى،

سقط القفل وارتجف الباب إلى الأمام بمقدار بوصة. ثمّ قفز الجنديّ إلى الخلف بينما اقترب القائد، بخطوات غير منتظمة مثل الحازوقة، وفتح الباب. لقد واجهوا ما يشبه ثقبًا أسود من محتوى مجهول وظلمة غير مريحة.

فنظر بعضهم إلى بعضٍ وإلى جالت الذي لم يتحرّك وظلّ يحدّق في الظلام. فتبعتهم داغني، عندما تجاوزوا العتبة وقد سبقتهم أشعّة أضوائهم الكاشفة. كان الفضاء بعد ذلك يشبه صَدَفَةً معدنيّة طويلة وفارغة باستثناء أكوامٍ ثقيلة من الغبار على الأرضيّة، غبار غريب يبدو أنّه كان ينتمي إلى الأنقاض التي لم يزعجها أحدٌ على مدى قرونٍ. وكانت هذه الغرفة تبدو ميّتةً مثل جمجمة فارغة. فأدارت داغني ظهرها والتفتت بعيدًا حتّى لا يروا في وجهها صراخ معرفة ما كان عليه ذلك الغبار قبل بضع دقائق. وتذكّرت عندما خاطبها جالت أمام باب مولّد الطاقة بوادي أطلانطس: لا تحاولي فتح ذلك الباب.. وإذا حاولت كسرَه، فإنّ الآلات في الداخل سوف تتحوّل إلى أنقاض قبل فترة طويلة من فتح الباب.. لا تحاولي فتح ذلك الباب، هكذا كانت تفكّر، لكنّها عرفت أنّ ما تراه الآن هو الشكل البصريّ لخطابه: لا تحاول إجبار العقل.

فتراجع الرجال في صمتٍ وتوجّهوا نحو باب الخروج، ثمّ توقفوا بريبةٍ، واحدًا تلو آخر، في نقاط عشوائيّة من السقيفة، كما لو أنّهم تراجعوا بسبب تيّار جارفٍ. فقال جالت بعد أن مدّ يده لارتداء معطفه وتوجّه إلى القائد:

– حسنًا، دعنا نذهب الآن.

***

لقد تمّ إخلاء ثلاثة طوابق من فندق واين فوكلاند وتحويلها إلى معسكر مسلّح. وكان الحرّاس المزوّدون بالبنادق الرشّاشة يقفون في كلّ منعطف من الممرّات الطويلة ذات السجّادات المخمليّة. أمّا الحرّاس المزوّدون ببنادق مجهّزة بالحراب فقد وقفوا بسلالم المطافئ. وأقفل باب المصعد في الطابق التاسع والخمسين والطابق الستّين والطابق الحادي والستين. وتُرك بابٌ واحدٌ ومصعدٌ واحد كوسيلة وحيدة للوصول،

وكان يحرسه جنودٌ بملابس حربيّة فخمة. وظلّ الرجال أصحاب المظهر الغريب يتسكّعون في الردهات والمطاعم والمحلّات التجاريّة في الطابق الأرضيّ. كانت ملابسهم جديدة ومكلفة جدًّا، ثمّ إنّها لم تنجح في تقليد رعاة الفندق الاعتياديّين، وهو تمويه زادَت من فشله حقيقةُ عدم تناسق الملابس مع التركيبة البدنيّة لمرتديها أصحاب الأجسام الخشنة التي تشوبها انتفاخاتٌ في بعض الأماكن من الملابس ممّا لا يوحي بهيئة رجال الأعمال، لأنّ سبب الانتفاخ كان الأسلحة التي يحملونها. لقد وُضِعت مجموعات من الحرّاس المزوّدين بالرشّاشات من طراز تومي في كلّ مدخل ومخرج من الفندق، وكذلك في النوافذ الاستراتيجيّة بالشوارع المجاورة.

وفي وسط هذا المعسكر الذي كان في الطابق الستّين، في ما كان يعرف باسم الجناح الملكيّ من فندق واين فوكلاند، وكانت تؤثّثه ستائر من الساتان وشمعدانات الكريستال وأكاليل الزهور المنحوتة، جلس جون جالت مرتديًا سروالًا وقميصًا، على كرسيّ ذي ذراعَين مزركشَين، بساقٍ واحدة ممدودةٍ على منضدة مخمليّة، بينما كانت يداه تحفّان رأسه، وهو ينظر إلى السقف.

تلك كانت الهيئة التي وجدَه عليها السيّد طومسون عندما دخل، بعد أن استقبله الحرّاس الأربعة الذين كانوا واقفين خارج باب الجناح الملكيّ منذ الخامسة صباحًا. ثمّ فتحوا له الباب على الساعة الحادية عشرة صباحًا، ثمّ أغلقوه مجدّدًا.

لقد شعر السيّد طومسون ببعض القلق وعدم الارتياح عندما سمع نقرةَ قفل الباب خلفَه من قبل الحرّاس وتركوه وحيدًا مع السجين، لكنّه تذكّر عناوين الصحف والأصوات الإذاعيّة التي كانت تعلن للبلاد منذ الفجر: تمّ العثور على جون جالت - جون جالت في نيويورك - جون جالت انضمّ إلى قضيّة الشعب- جون جالت في مؤتمرٍ مع قادة البلاد، وهو يعمل على إيجاد حلّ سريع لجميع مشاكلنا.. عناوين جعلته يصدّق هذا الأمر.

قال بتعالٍ وهو يقترب من كرسيّ جالت:

- حسنًا.. أنت هو الشابّ الذي بدأ كلّ المشاكل..

ثمّ قال فجأة عندما ألقى نظرة فاحصة على العينين الخضراوين الداكنتين اللتين تراقبانه:

- حسنًا، أنا.. مسرور جدًّا بلقائك يا سيّد جالت. نعم، أنا مسرور جدًّا. أنا السيّد طومسون.

فقال جالت:

- كيف حالك؟

وتمدّد السيّد طومسون على الكرسيّ، وقال:

- لا تجنح بخيالك بعيدًا، ولا تعتقد أنّك تحت الإقامة الجبريّة أو أيّ شيء من هذا القبيل.

أشار إلى الغرفة، ثمّ أضاف:

- هذا المكان ليس سجنًا كما ترى. يمكنك أن تدرك أنّنا سنعاملك بشكل لائق، فأنت شخص عظيم، شخص عظيم جدًّا، ونحن نقرّ بذلك. اعتبر نفسك في منزلك واطلب أيّ شيء. وأطلق النار على أيّ شخص لا يطيعك، وإذا كنت تكره أيَّ رجلٍ من رجال الجيش في الخارج، فقط انبس بالأمر، ونحن نعوّضه برجل آخر.

ثمّ توقّف يترقّب إجابةَ جالت لكنّه لم يتلقّ أي ردٍّ، فاسترسل في الكلام:

- السبب الوحيد وراء جلبك إلى هنا هو أنّنا نريد أن نتحدّث معك، ولم نكن لنلجأ إلى هذه الطريقة، لكنّك لم تترك لنا أيّ خيار آخر. لقد بقيت مختبئًا وكلّ ما أردناه هو فرصة لإخبارك بأنّك أسأت فهمنا جميعًا.

وأشرع يدَيه راسما ابتسامة، وكان جالت يراقبه دون أن ينبس بأيّ كلمة. ثمّ أضاف:

- لقد كان خطابك بليغًا. أنت خطيب بارع، لقد أثرت شيئًا مّا في البلاد، لا أعرف

السبب، لكنّك نجحت في ذلك. ويبدو أنّ الناس يريدون شيئًا أنتَ وحدَك يملكه. لكنّك تعتقد أنّنا سنصطفّ ضدّك. والحقيقة أنّنا لسنا أعداءك. أعتقد، شخصيًّا، أنّ في ذلك الخطاب أمورًا كثيرةً منطقيّة. نعم، سيّدي، أنا أقرّ بذلك. بالطبع، أنا لا أتّفق مع كلّ كلمة جاءت في خطابك. وأنت، بالتأكيد، لا تتوقّع منّا أن نتّفق معك في كلّ شيء، أليس كذلك؟ فالاختلاف في الرأي لا يفسد للودّ قضيّة. وأنا مستعدّ دومًا لأغيّر رأيي.

ثمّ انحنى إلى الأمام بشكل جذّاب. لكنّه لم يحصل على أيّ إجابة، فقال:

- إنّ العالم يعيش، كما قلت، فوضى عارمةً. وأنا أتّفق معك تمامًا في هذه النقطة. توجَد، إذَن، نقطة مشتركة يمكننا الانطلاق منها، ويجب أن نفعل شيئًا حيال ذلك. كلّ ما أردته هو..

ثمّ صاح فجأة:

- لماذا لا تدعني أتحدّث إليك؟

- أنت تتحدّث معي.

- أنا.. حسنًا، أعني.. حسنًا، أنت تعرف ما أعنيه.

- نعم، أستوعبك تمامًا.

- حسنًا.. حسنًا، ماذا يمكنك أن تقول؟

- لا شيء.

- ماذا؟

- لا شيء.

- أوه، تفضّل وقل ما تودّ قوله.

- أنا لم أسع إلى التحدّث إليك.

- لكن.. اسمع ... هناك أشياء مهمّة ينبغي أن نناقشها.

- ليس لديّ ما أناقشه معك.

فقال السيّد طومسون بعد لحظات من الصمت:

- اسمع، أنت إنسان عمليّ. أليس كذلك أيّها الرجل؟ لست متأكّدا من أيّ شيء آخر يتعلّق بك، لكنّني متأكّد من أنك إنسان عمليّ، أليس كذلك؟

- عمليّ؟ أجل أنا كذلك.

- حسنًا، أنا أيضا رجل عمليّ. يمكننا، إذن، أن نتحدث بشكل مباشر، وأن نضع النقاط على الحروف، وبغضّ النظر عمّا تسعى إليه، فأنا أعرض عليك صفقة.

- أنا دائمًا منفتح على الصفقات.

صاح السيّد طومسون ضاربًا قبضته على ركبته:

- كنت أعرف ذلك.. لقد أخبرتهم بذلك، أخبرت كلّ هؤلاء المغفّلين، أصحاب النظريّات الفكريّة مثل ويسلي.

- أنا منفتحٌ دومًا على أيّ صفقة مع أيّ شخص يملك شيئًا يقدّمه لي.

لم يعرف السيّد طومسون ما الذي جعله يفوّت الإيقاع قبل أن يجيب:

- حسنًا، أَمْلِ علينا شروطك يا أخي.. أخبرنا فقط بشروطك، ونحن سنلبّيها فورًا.

- ماذا تملك لتقدّمه لي؟

- اطلب أيّ شيء.

- مثل ماذا؟

- يمكنك أن تطلب أيّ شيء ترغب فيه. هل سمعت نداءات الراديو؟

- نعم.

- لقد وعدناك بأن نلبّي شروطك، أيّ شروط.

- ألم تسمعني أقول في الراديو إنّه ليس لديّ شروط أساوم عليها؟

- أوه، اسمعني لقد أسأت فهمنا. كنت تعتقد أنّنا سنقاتلك، لكنّنا لن نفعل. فنحن لسنا بتلك الصرامة. نحن على استعداد للنظر في أيّ فكرة. لماذا لم تجب على اتّصالاتنا ولم تحضر المؤتمر؟

- ولماذا يجب عليّ أن ألبّي نداءاتكم؟

- لأنّنا.. أردنا أن نتحدّث إليك باسم البلاد.

- أنا لا أعترف بحقّك في الكلام باسم البلاد.

- اسمعني.. أنا لست معتادًا على.. حسنًا، ألن أحظى بفرصة الحديث إليك؟ ألن تسمعني؟

- أنا أسمعك جيّدًا.

- البلاد في حالة فظيعة، فالناس يتضوّرون جوعًا ويستسلمون، والاقتصاد ينهار، ولا أحد ينتج ما نحتاج إليه. نحن لا نعرف ما يجب علينا أن نفعله. أمّا أنت فتملك حلولًا لهذه الأزمة. ثمّ إنّك تعرف كيف تجعل الأشياء تعمل. حسنًا، نحن مستعدّون للاستسلام. نريدك فقط أن تخبرنا بما يجب علينا القيام به.

- لقد أخبرت آنفًا بما يجب عليك القيام به.

- ماذا؟

- ابتعد عن الطريق.

- هذا مستحيل. إنّه فعل أحمق، هذا غير وارد بالمرّة.

- لهذا السبب قلت لك آنفًا إنّه ليس لدينا ما نناقشه.

- الآن، انتظر.. لا تكن متطرّفًا. يوجَد دومًا حلٌّ وسطٌ. لا يمكنك الحصول على

كلّ شيء، لأنّ الناس ليسوا مستعدّين لذلك، ولا يمكنك أن تتوقّع منّا التخلّص من آليّة الدولة. إذ يجب أن نحافظ على النظام، لكنّنا على استعداد لتعديل ذلك. سنعدّله وفق الطريقة التي تريدها. نحن لسنا أهل عِناد، ثمّ إنّنا لا ننطلق من نظريّات دغمائيّة. نحن نتمتّع بالمرونة. وسنفعل أيّ شيء تقوله ونمنحك الحرّيّة المطلقة. وسنمسك العصا من الوسط، ونتقاسم معًا كلّ الأعباء. نحن سندبّر المجال السياسيّ، ونفوّض إليك مسؤوليّة تدبير المجال الاقتصاديّ.. وأنت تديره بأيّ طريقة تريدها، فأنت ستعطي الأوامر، وتصدر التوجيهات...وكلّ قوّة الدولة ستكون تحت إمرتك حتّى تفرض قراراتك. وسيطيع الجميع أوامرك. وفي مجال الإنتاج، سنفعل كلّ ما تقوله. ستكون.. دكتاتور الأمّة الاقتصاديّ.

فانفجر جالت ضاحكًا. فسأله السيّد طومسون:

- ما خطبك؟

- هذه، إذَن، هي فكرتك عن التسوية، أليس كذلك؟

- ماذا؟ لا تجلس بهذه الطريقة... لا تضحك على هذا النحو. أعتقد أنّك لم تفهمني جيّدًا. أعرض عليك وظيفة ويسلي ماوتش ولا يوجد شيء أكبر من ذلك يمكن لأيّ شخص أن يعرضه عليك.. ستكون حرًّا في فعل أيّ شيء، وإذا كنت لا تحبّ السيطرة، فأنت حرٌّ في إلغائها. وإذا كنت تريد أرباحًا أعلى وأجورًا أقلّ.. وإذا كنت تريد امتيازات خاصّة لكبار أباطرة المال والأعمال فأنت حرٌّ. وإذا كنت لا تحبّ النقابات العمّاليّة، فأنت حرٌّ في حلّها. وإن أردت اقتصادًا حرًّا، فاطلب من الناس أن يكونوا أحرارًا. شغّلها بأيّ طريقة تريدها، ولكن يجب أن تعيد المياه إلى مجاريها. نظّم البلاد واجعل الناس يعملون مجدّدًا واجعلهم ينتجون. وأعد رجالك، أصحاب الأدمغة، ليقودوا البلاد إلى عصر سلميّ وعلميّ وصناعيّ مزدهر.

- هل سأفعل كلّ هذه الأشياء متأبّطًا البندقيّة؟

- اسمعني الآن، أنا.. ما المضحك في الأمر؟

- أنت تحاول أن تتظاهر بأنّك لم تسمع أيّ كلمة في خطابي، غير أنّني لا يمكن أن أصدقك.

- لا أعلم ماذا تعني؟ أنا...

مكتبة
t.me/soramnqraa

- انس هذا الأمر.

- ماذا؟

- لا يمكنني أن أشارككم اللعبة نفسها.

- هل تعني أنّك ترفض عرضي؟

- نعم

- ولماذا؟

- لقد استغرق منّي الأمر ثلاث ساعات على الراديو لأقول لكم السبب.

- أوه، لكنّ ذلك مجرّد كلام نظريّ. أنا أتحدّث عن العمل وأعرض عليك أعظم وظيفة في العالم، فهلّا أخبرتني بعيبها؟

- ما قلته لك، في ثلاث ساعات، هو أنّ ذلك لن ينجح.

- أنت تستطيع أن تجعل هذا الأمر ناجحًا؟

- كيف؟

- لا أعرف. إن كنت أعرف أصلًا لماذا جئت بك إلى هنا. إليك يعود أمر اكتشاف الحلّ، لأنّك العبقريّ الوحيد الذي يستطيع حَلَّ أيّ شيء.

- لقد قلت إنّ الأمر لن ينجح.

- أنت تستطيع أن تجعل هذا الأمر ناجحًا؟

- كيف؟

- بطريقة مّا.

ثمّ سمع ضحكة جالت فأضاف:

- لِمَ لا؟ أخبرني فقط لِمَ لا؟

- حسنًا، سأخبرك. أنت تريد أن أكون الدكتاتور الاقتصاديّ؟

- نعم.

- وأنّكم ستطيعون أيّ أمر أصدره.

- طبعا.

- ألغِ، إذن، جميع الضرائب المفروضة على الدخل.

- أوه، لا.

هكذا صرخ السيّد طومسون ونهض، ثمّ أضاف:

- نحن لا نستطيع أن نفعل ذلك.. إنّه.. مجال الإنتاج وما تتحدّث عنه يتعلّق بمجال التوزيع. فكيف سنتمكّن من دفع أجور موظّفي الحكومة؟

- اطرُد موظّفيك الحكوميّين.

- أوه، لا. هذا الأمر لا يدخل في مجال اختصاصك، إنّه مجال اختصاصنا. لا يمكنك أن تتدخّل في الأمور السياسية.

فوضع جالت ساقًا على ساقٍ فوق المنضدة الصغيرة التي كانت أمامه، ممدّدًا نفسه بشكل مريح أكثر على الكرسيّ المزركش وقال:

- هل تريد مواصلة النقاش؟ وهل فهمت المغزى من حديثي؟

- كلّ ما أريده فقط..

لكنّه سرعان ما توقّف عن الكلام، فقال جالت:

- هل أنت راضٍ عن فهمي لتلك النقطة؟

- اسمع، أنا لا أريد أن أجادلك. فأنا لست خبيرًا في الجدال. أنا رجل عمليّ، ولم يتبقّ أمامنا وقت كثيرٌ. كلّ ما أعرفه هو أنّك تتمتّع بعقل كفء من نوع العقول التي نحتاج إليها، ويمكنك أن تفعل أيّ شيء، وأن تنجز أيّ شيء.

- حسنًا، أنا لا أريد أن أفعل أيّ شيء، ولا أريد أن أكون دكتاتورًا اقتصاديًّا، ولا يمكنني أصلًا أن أتبنّى مثل هذا النظام، لأنّ أيّ إنسان عقلانيّ لن يقبل به، فحقوقه لا ينبغي أن تنتظر إذنًا منّي أو منك.

فقال السيّد طومسون وهو ينظر إليه بتأمّل:

- أخبرني، ما الذي تسعى إليه؟

- لقد أخبرتك به على الراديو.

- أنا لم أستوعبه. قلت إنّك خارج لمصالحك الأنانيّة الخاصّة وذلك يمكنني فهمه. لكن ما الذي يمكن أن تريده في المستقبل ولا يمكنك الحصول عليه منّا الآن؟ لقد كنت أعتقد أنّك رجل أنانيّ وعمليّ، لذلك عرضت عليك شيكًا على بياض، وأنت الآن ترفضه. لماذا ترفض هذا الشيك؟

- لأنّه لا توجد أموال في حساب ذلك الشيك.

- ماذا؟

- إنّك لا تملك قيمة تعرضها عليّ.

- يمكنني أن أمنحك أيّ شيء تطلبه، فقط سَمِّ طلبك؟

- سمّه ما شئت.

- حسنًا، لقد تحدّثت كثيرًا عن الثروة، إذا كان المال هو كلّ ما تريد.. فاعلم أنّني قادر على مَنْحِك ثلاثةَ أضعاف ما ستكسبه طيلة حياتك، ويمكنني أن أوفّره لك نقدًا

في دقيقة واحدة. فهل تريد مليار دولار؟

- ما الذي يجب أن أنتجه لك كي تعطيني إيّاه؟

- أعني أنّني سأمدّك به مباشرة من الخزانة العامّة، وعلى شكل أوراق ماليّة جديدة... أو حتّى ذهبًا إذا كنت تفضّل ذلك.

- هذا المبلغ لن يمكّنني من شراء أيّ شيء.

- أوه، حين تقف البلاد على قدمَيها مجدّدًا...

- هل تقصد عندما سأوقفها على قدميها؟

- حسنًا، إذا كان ما تريده هو إدارة الأمور بطريقتك الخاصّة، وإذا كانت القوّة هي التي تسعى إليها، فسأضمن لك أنّ كلّ رجل وامرأة وطفل في هذه البلاد سيطيع أوامرك.

- بعد أن أعلّمهم أن فعلَ ذلك؟

- إذا كنت تريد أيّ شيء لعصابتك، ولكلّ أولئك الرجال الذين اختفوا سواء أكان وظيفة أم منصبًا أم إعفاءات ضريبيّة فأنت حرّ في منحهم ما يريدون.

- بعد أن أعيدهم إلى هنا؟

- حسنًا، ماذا تريد؟

- وهل أنا أحتاج إليك أصلًا؟

- ماذا؟

- ماذا تملك ولم أستطع، من دونك، الحصول عليه؟

كانت هناك نظرة مختلفة في عينَي السيّد طومسون عندما تراجع إلى الوراء، كما لو أنّه كان محاصرًا بنظرات جالت المباشرة، وللمرّة الأولى قال ببطء:

- من دوني لا يمكنك الخروج من هذه الغرفة الآن.

فابتسم جالت وقال:

- هذا صحيح.

- ولن تكون قادرًا على إنتاج أيّ شيء. ويمكنني أن أتركك تموت جوعًا هنا.

- صحيح.

- حسنًا، ألا ترى...

عاد المرح إلى صوت السيّد طومسون، فأضاف:

- ما سأقدّمه لك هو حياتك.

فردّ جالت بهدوء:

- إنّ حياتي ليست ملكًا لك حتّى تهبني إيّاها يا سيّد طومسون.

شيء مّا في صوت جالت جعل السيّد طومسون يحدّق فيه، ثمّ أسرع لينظر بعيدًا. كانت ابتسامة جالت تبدو لطيفة.

قال جالت:

- الآن، هل فهمت ما قصدته عندما قلت إنّ مَن لا يملك لا يمكن أن يتحكّم في مَن يملك. إنّ ما تعدني به من أمانٍ ليس هديّةً، وما تعدني به من حياة ليس مكافأة، وتهديدك بالقتل لا قيمة له.

- ومن... قال أيّ شيء عن قتلك؟

- لو لم تحتجزني هنا تحت تهديد السلاح وتهديد الموت لما أتيحت لك فرصة التحدّث معي على الإطلاق، وهذا كلّ ما تستطيع بنادقكم تحقيقَه. فأنا لا أدفع ثمنًا مقابل أمني، ولا أشتري حياتي من أيّ شخص.

فقال السيّد طومسون بوضوح:

- هذا ليس صحيحًا، فإذا كنت تعاني من كسرٍ على مستوى الساق، فإنّك لا محالة ستلجأ إلى الطبيب لجبرها.

- لكنّني لن أؤدّي الفاتورة إذا كان هو من كسرها.

ثمّ ابتسم بسبب صمت السيّد طومسون وأضاف:

- أنا رجل عمليّ يا سيّد طومسون. ولا أظنّ أنّ من العمليّ بقاءَ شخص لا يملك وسيلةً أخرى للبقاء على قيد الحياة غير كسر عظامي.

أخذ السيّد طومسون يفكّر في هذا الأمر بعمق، ثمّ هزّ رأسه وقال:

- لا أعتقد أنّك رجل عمليّ. فالإنسان العمليّ لا يتجاهل حقائق الواقع، ولا يضيّع وقتَه وهو يتمنّى أن تكون الأشياء مختلفة. إنّه يأخذ الأمور كما هي.. نحن نحتجزك، إنّها حقيقة شئت ذلك أم أبيت، إنّها حقيقة. ويجب أن تتصرّف وفقًا لذلك.

- وهذا ما أفعله تمامًا.

- ما أعنيه هو أنّه يجب أن تتعاون. يجب أن تتعرّف على الوضع الحاليّ وتتقبّله وتتكيّف معه.

- هل يستطيع المرء الذي يعاني من تسمّم في الدم أن يتكيّف معه أو يحاول تغييره؟

- أوه، هذا أمر مختلف.

- هل تعني أنّ الحقائق المادّيّة قابلة للتغيير، أمّا نزواتك فهي لا تقبل أيّ تغيير؟

- ماذا؟

- هل تعني أنّ الطبيعة الجسديّة يمكن أن تتكيّف مع المتغيّرات، وأنّ عليَّ في مقابل ذلك أن أتكيّف مع نزواتك؟

- أعني أنّني أنا من يملك اليد الطولى على كلّ شيء.

- مع بندقيّة تدعم ذلك.

- أوه، اِنْسَ أمر البنادق، أنا...

- يا سيّد طومسون، لا يمكنني أن أنسى حقيقة واقعيّة، لأنني سأكون حينئذٍ رجلًا غير عمليّ.

حسنًا، أنا أحمل بندقيّة. فماذا ستفعل حيال ذلك؟

- سأطيعك.

- ماذا؟

- سأفعل كلّ ما تأمرني به.

- هل تعني ذلك؟

- أنا أعني ذلك حرفيًّا.

ورأى اللهفة في وجه السيّد طومسون تنحسر ببطء تحت نظرة من الحيرة فأضاف:

- سأؤدّي أيّ حركة تأمرني بها. فإذا أمرتني بالانتقال إلى مكتب دكتاتور اقتصاديّ، فإنّني سأنتقل إليه. وإذا أمرتني بالجلوس في مكتب، فإنّني سأجلس فيه. وإذا أمرتني بإصدار توجيه، فإنّني سأصدر التوجيه الذي تأمرني به.

- أوه، لكن أنا لا أعرف ما هي التوجيهات التي يجب عليَّ إصدارها.

- أنا أيضًا لا أعرف التوجيهات التي ينبغي إصدارها.

ثمّ توقّف عن الكلام مدّة طويلة وبعدها قال:

- حسنًا، هات أوامرك.

- أريدك أن تنقذ اقتصاد البلاد.

- أنا لا أعرف كيف أنقذه.

- أريدك أن تجد طريقة لإنقاذه.

- أنا لا أعرف كيف أجدها.

- أريدك أن تفكّر فيها.

- لا أستطيع ومسدّسك على رقبتي.

فنظر إليه السيّد طومسون في صمتٍ، ثمّ أخذ جالت يحدّق في شفتَي السيّد طومسون المشدودتين، وذقنه البارز، وعينَيه الضيّقتين، ولاحظ نظرةَ المراهق الذي يستعدّ لقول: سأحطّم أسنانك. فابتسم جالت، ونظر إليه مباشرة، كما لو أنّه كان يسمع الجملة غير المنطوقة ويؤكّدها. لكنّ السيّد طومسون كان ينظر بعيدًا. فقال جالت:

- لا، أنت لا تريدني أن أفكّر. فعندما تجبر إنسانًا على التصرّف ضدّ اختياره وقراره الشخصيّ، فأنت تعطّل ذهنه عن التفكير وتحوّله إلى مجرّد روبوت مطيع.

فتنهّد السيّد طومسون وقال بنبرة تنمّ عن عجز حقيقيّ:

- لم أفهم ما تعنيه. ثمّة شيء غريب لا أستطيع فهمه. لماذا تبحث عن المشاكل؟ بمثل عقلك يمكنك هزيمة أيّ شخص، أنا لست ندًّا لك، وأنت تعرف ذلك. فلمَ لا تتظاهر بالانضمام إلينا ثمّ تسيطر بعد ذلك على كلّ شيء؟

- للسبب نفسه الذي يجعلك تعرض ذلك لأنّك ستفوز.

- ماذا؟

- لأنّ محاولة مَن هم أفضل منك للفوز عليك وفقًا لشروطك هي التي سمحت لنوعك بالإفلات من العقاب قرونًا. فمن منّا سينجح إذا تنافست معك للسيطرة على رجالك؟ بالتأكيد يمكنني أن أتظاهر، لكنّني لن أنقذ اقتصادك أو نظامك، فلا شيء يمكنه إنقاذهما الآن، ولكن ربّما أموت، وكلّ ما ستفوز به سيكون مثل ما فزت به دائمًا في الماضي وهو التأجيل. هذا كلّ ما تسعى إليه وهذا كلّ ما تسمح به قدرتك. لقد كنت تعتقد أنّ هناك دومًا ضحيّة لتنقذك. أنت الآن أمام ضحيّتك الأخيرة التي ترفض لعب

دورها التاريخيّ. لقد انتهت اللعبة يا أخي.

- أوه إنّ ما تتفوّه به مجرّد كلام نظريّ.

وجنّ جنون السيّد طومسون، وتصرّف بشكل حادّ جدًّا. كانت عيناه تمسحان الغرفة بدلًا من السير في أرجائها. ثمّ نظر إلى الباب، كما لو أنّه يتوق إلى الهرب. ثمّ سأل جالت:

- أنت تقول إنّنا سنهلك إذا لم نتخلَّ عن هذا النظام؟

- نعم.

بما أنّنا نحتجزك، فإنّك ستهلك معنا.

- نعم.

- ألا تريد أن تعيش؟

- بلى، أريد أن أعيش بشغف وحماس.

ثمّ لاحظ شرارةً في عينَي السيّد طومسون فابتسم وأضاف:

- سأخبرك بأكثر من ذلك: أعلم أنّني أريد أن أعيش بشدّة أكثر منك. وأعلم أنّ هذا ما تعتمد عليه، وأعلم أنّك، في الواقع، لا تريد أن تعيش على الإطلاق. أنا أريد أن أعيش ولأنّني أريده بشدّة، فلن أقبل بأيّ بديل.

فانتفض السيّد طومسون وصاح:

- هذا ليس صحيحًا. إنّ زعمك أنّي لا أرغب في الحياة ليس صحيحًا! لماذا تتحدّث على هذا النحو؟

ثمّ بقي متجهّمًا وقد اقتربت أطرافه بعضها من بعض كما لو أنّ بردًا مفاجئًا تسلّل إليه، ثمّ أضاف:

- لماذا تتفوّه بمثل هذه الأشياء؟ أنا لا أعرف ما تعني.

ثمّ تراجع بعيدًا بضعَ خطوات وقال:

- واعتقادك أنّني مسلّح ليس صحيحًا. فأنا لست كذلك ولا أنوي إيذاءك. ولم أكن أنوي إيذاء أيّ شخص. أريد فقط أن يحبّني الناس، أريد أن أكون صديقك.

وصرخ في الفضاء الواسع. وكانت عينا جالت تراقبانه، من دون تعابير، ولم تعطياه أيّ فكرة عمّا كان يراه، إلّا أنّهما كانتا تريانه.

وقام السيّد طومسون فجأةً بحركات صاخبة وغير ضروريّة، كما لو أنّه في عجلة من أمره وقال:

- يجب أن أذهب.. لأنّ ثمّة مواعيد كثيرة تنتظرني. سنتحدّث أكثر. فكّر في الأمر وخُذ وقتك. أنا لا أحاول الضغط عليك. خُذ الآن الأمور بكلّ بساطة، ولا تنسَ أنّك في بيتك واطلب ما تريد من طعام ومشروبات وسجائر، وكلّ شيء تريده.

ثمّ لوّح بيده نحو ملابس جالت وأضاف:

- سأطلب من أغلى خيّاط في المدينة أن يصمّم ملابس تليق بمقامك. أريدك أن تعتاد على الأفضل في كلّ شيء. أريدك أن تكون مرتاحًا..

ثمّ سأله بشكل مفاجئ:

- قل لي هل عندك عائلة أو أيّ أقارب تودّ رؤيتهم؟

- لا.

- أيّ صديق؟

- لا.

- هل لديك حبيبة؟

- لا.

- كلّ ما في الأمر أنّني لا أريدك أن تكون وحيدًا. إذ يمكنني أن أسمح لأيّ شخص

بزيارتك.

- ليس عندي أيّ صديق.

ثمّ توقّف السيّد طومسون عند الباب، واستدار لينظر إلى جالت لحظةً وهزّ رأسه وقال:

- لم أكن قادرًا على فهمك.

فابتسم جالت بتجاهل وتساءل:

- من هو جون جالت؟

***

انهمرت دوّامة من المطر المثقلة بالبرد والصقيع فوقَ مدخل فندق واين فوكلاند، وفي دائرة الضوء بدا الحرّاس المسلّحون عاجزين على نحو موحشٍ وغريب. كانوا يقفون في انحناءٍ، يعانقون البنادق بحثًا عن الدفء، وحتّى لو أطلقوا على العاصفة وابلًا عنيفا من الرصاص، فإنّ ذلك لن يوفّر الدفء لأجسادهم.

من الجانب الآخر للشارع، كان تشيك موريسون -المكلّف بتكييف معنويّات الشعب- في طريقه لحضور مؤتمر في الطابق التاسع والخمسين. لقد لاحظ ندرة المارّة الذين كانوا يعبرون من دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء إلقاء نظرة على الحرّاس، ثمّ إنّهم لا يبالون بإلقاء نظرة على عناوين الصحف المعروضة بكشك بائعٍ مرتعش من الطراز القديم وهي تعلن: جون جالت يعدكم بالرخاء.

ثمّ هزّ موريسون رأسَه بصعوبة. لقد مرّت ستّة أيّام على نشر القصص في الصفحات الأولى من الجرائد، قصص تحكي عن جهود قادة البلاد العاملين مع جون جالت لابتداع سياسات جديدة لم تؤدِّ إلى أيّ نتيجة. ولاحظ أنّ الناس كانوا يتحرّكون وكأنّهم لا يهتمّون برؤية أيّ شيء. ولم يتفطّن أحدٌ إلى وجوده سوى امرأة عجوز تلبس ثيابًا باليةً مدّت، في صمت، يدها إليه، حين اقترب من أضواء المدخل، وسارع في

المرور، ولم تسقط سوى قطرات من الصقيع على راحة اليد العارية للعجوز.

لقد منحته ذاكرته عن الشوارع صوتًا خشنًا عندما تحدّث إلى دائرة من الوجوه في قاعة السيّد طومسون بالطابق التاسع والخمسين. وكانت نظرة تلك الوجوه مطابقةً لنبرة صوته. وقال وهو يشير إلى كومة من التقارير الواردة من جواسيسه الذين بعثهم لجسّ نبض عامّة الناس:

– لا يبدو أنّ الأمر نجح. فكلّ البيانات الصحفيّة بشأن تعاوننا مع جون جالت لا يبدو أنّها تحدث أيّ فارق، لأنّ الناس لا يهتمّون إطلاقًا بهذا الأمر. إنّهم لا يصدّقون أيّ كلمة منها. فبعضهم يقول إنّه لن يتعاون معنا أبدًا، أمّا البعض الآخر فيشكّ أصلًا في خبر إلقاء القبض على جون جالت.. لا أعرف ماذا حدث للناس، فهم ما عادوا يصدّقون أيّ شيء.

ثمّ تنهّد وأضاف:

– توقّفت ثلاثة مصانع عن العمل في مدينة كليفلاند قبل يوم أمس. وخمسة مصانع أخرى توقّفت في مدينة شيكاغو بالأمس، أمّا في مدينة سان فرانسيسكو...

فقاطعه السيّد طومسون، بعد أن شدّ وشاحه الشتويّ حول عنقه وقال:

– أعرف أنّ فرن المبنى تعطّل. ما باليدِ من حيلة.. يجب أن نستسلم وندعَه يتولّى زمام الأمور. عليه أن يفعل ذلك.

فنظر ويسلي ماوتش في السقف وقال:

– لا تطلب منّي التحدّث معه مرّة أخرى.

ثمّ ارتجف وأضاف:

– لقد حاولت، لكن لا يمكن للمرء أن يصل إلى أيّ نتيجة مع ذلك الرجل.

صاح تشيك موريسون، ردًّا على نظرة السيّد طومسون التي كانت تتصفّح الوجوه:

- وأنا.. كذلك لا أستطيع يا سيّد طومسون.. سأستقيل إذا طلبت منّي ذلك. أنا لا أستطيع التحدّث معه مرّة أخرى، فلا تجبرني على ذلك.

فقال الدكتور فلويد فيريس:

- لا أحد يستطيع التحدّث معه. إنّ الحديث معه مجرّد مضيعة للوقت. إنّه لا يسمع كلمة ممّا يقول المرء.

فضحك فريد كينان وقال:

- ألست تقصد أنّه يسمع كثيرًا؟ والأسوأ من كلّ ذلك أنّه يجيب.

فقاطعه ماوتش وقال:

- حسنًا، لماذا لا تحاول أن تتحدّث إليه مرّة أخرى؟ يبدو أنّك استمتعت بذلك. لماذا لا تحاول إقناعه؟

فقال كينان:

- بل أعرف أفضل من ذلك، فلا تخدع نفسك يا أخي، لن يقنعه أحدٌ. لن أحاول مرّتين.. فهل استمتعت بالتحدّث إليه؟ نعم.. نعم، أعتقد أنّني استمتعت كثيرا بالتحدّث إليه.

- ما خطبك؟ هل وقعت في غرامه؟ هل سمحت له بالتغلّب عليك؟

فضحك كينان وقال:

- أنا؟ ما الفائدة التي سأجنيها منه؟ سأكون أوّل من يسقط في البالوعة عندما يربح.. إنّه فقط..

ثمّ نظر ببهجة في السقف وأضاف:

- إنّه فقط رجل يتحدّث باستقامة.

فقاطعه السيّد طومسون وقال:

- لن يربح هذه المعركة. هذا أمرٌ مستحيل.

وخيّم الصمت على الحضور مدّة طويلة قبل أن يقول ويسلي ماوتش:

- تحدث أعمال شغب بسبب الجوع في ولاية فرجينيا الغربية. والمزارعون في ولاية تكساس لديهم...

وقال تشيك موريسون بيأس:

- يا سيّد طومسون، ربّما.. ينبغي علينا أن نتيح لعامّة الشعب فرصةَ رؤية جون جالت.. إمّا في تجمّع حاشد.. أو على شاشة التلفاز.. لأنّ هذا الأمر هو ما سيجعلهم يتأكّدون من أنّنا حصلنا عليه حقًّا.. ثمّ إنّ هذا الأمر سيعيد الأمل إلى الناس.. إنّه سيتيح لنا بعض الوقت..

فقاطعه الدكتور فيريس وقال:

- إنّ ما تطالب به خطير جدًّا، لا ينبغي أن نتيح له الاحتكاكَ بالعامّة. إذ لا يوجد حدّ لما سيسمح لنفسه بفعله.

فقال السيّد طومسون بعناد:

- يجب أن يستسلم، وينضمّ إلينا. ويجب على كلّ واحد منكم أن..

فصرخ يوجين لاوسون:

- لا، ليس أنا. أنا لا أريد رؤيته مطلقًا، ولو مرّةً واحدةً. لا أريد أن أصدّق ذلك.

فسأله جيمس تاجارت:

- ماذا تقول؟

حمل صوت تاجارت نبرةً خطيرةً من السخرية المتهوّرة. لكنّ لاوسون لم يردّ عليه، فأضاف:

- ما الذي يخيفك؟

بدا الازدراء في صوت تاجرت شديدًا على نحوٍ غير طبيعيّ، ثمّ استرسل في الكلام:

- ما الذي تخاف أن تصدّقه يا لاوسون؟

- لن أصدّق ذلك.. لن أصدّقه.

وفي صوت لاوسون امتزجت الزمجرة بالأنين، ثمّ أضاف:

- لا يمكنك أن تجعلني أفقد إيماني بالإنسانيّة. يجب ألّا تسمح لمثل هذا الرجل بأن يجعل ذلك ممكنًا. إنّه رجل مغرور، رجل أنانيّ لا يرحم...

فقال السيّد طومسون بازدراء:

- هل تعتبرون أنفسكم من خيرة المثقفين حقًّا؟ كنت أعتقد أنّه يمكنكم أن تجاروا جالت في لغته الخاصّة، ألا يخاف جالت هو أيضًا منكم ومن أفكاركم؟ أين أفكاركم الآن؟ افعلوا شيئًا، اجعلوه ينضمّ إلينا، تغلّبوا عليه.

فقال ماوتش:

- المشكلة التي تواجهنا هي أنّه لا يريد أيّ شيء. ماذا يمكننا أن نقدّم لرجل لا يريد شيئًا؟

فقال كينان:

- تعني: ماذا يمكننا أن نعرض على رجل يريد العيش؟

فصرخ جيمس تاجرت:

- اخرس، لماذا قلت ذلك؟ ما الذي يدفعك إلى التفوّه بمثل هذا الكلام؟

فسأله كينان:

- وما الذي يجعلك تصرخ؟

فخاطب السيّد طومسون الجميع:

- التزموا جميعًا بالهدوء. إنّكم لا تجيدون سوى القتال فيما بينكم، لكن عندما يتعلّق الأمر بقتال رجل حقيقيّ..

صاح لاوسون:

- هو، إذَن، تغلّب عليك.

فردّ عليه السيّد طومسون:

- اصمت. إنّه أقوى وغدٍ واجهته في حياتي. لن تفهم ذلك، فهو يزداد قوّة كلّما أتاه أيّ واحد منّا.. إنّ قوّته تزداد كلّما جادلوه..

فردّ الدكتور فيريس:

- توجَد طرقٌ لإقناع الأوغاد الأقوياء كما سبق أن شرحت لك.

فصاح السيّد طومسون:

- لا، اسكت. لن أستمع إليك. أنا لن أسمع منه.. لقد أخبرته.. بأنّ هذا ليس صحيحًا.. وأنّنا لسنا كذلك.. وأنّني لست.. لا، انتبهوا أيّها الأولاد، ما أعنيه هو أنّنا يجب أن نكون عمليّين.. وحذرين جدًّا. يجب أن نتعامل مع الأمر بسلميّة، لأنّه لا يمكننا أن نتحمّل عداوته أو.. أن نلحق به الأذى. نحن لن نجرؤ على المجازفة.. بأيّ شيء، لأنّنا سنهلك إذا مات. إنّه أملنا الأخير، فحاولوا أن تتجنّبوا أيّ خطإٍ، لأنّنا سنموت معه إذا مات.

وجالت عيناه في الوجوه التي فهمت المطلوب منها.

وسقط صقيع صباح يوم الغد على الصفحات الأولى للصحف التي كانت تعلن أنّ مؤتمرًا بنّاء ومتناغمًا بين جون جالت وزعماء البلاد انعقدَ بعد ظهر يوم أمس، وقد تمخّض عن «خطّة جون جالت»، التي سيعلن عنها قريبًا. وسقطت رقاقات الثلج في المساء على أثاث منزل سكنيّ انهار حائطه الأماميّ وعلى حشد من الناس كانوا ينتظرون في صمتٍ عند نافذة الصرّاف المغلقة لمصنع اختفى مالكه.

وفي صباح يوم الغد أبلغ ويسلي ماوتش السيّد طومسون بما يحدث فقال:

- إنّ المزارعين في ولاية داكوتا الجنوبيّة يسيرون باتّجاه عاصمة الولاية، ويحرقون كلّ مبنى حكوميّ يصادفونه في الطريق، وكذا كلّ منزل تفوق قيمته عشرة آلاف دولار.

ثمّ أخبره في المساء:

- لقد انفجر الوضع في ولاية كاليفورنيا وتحوّلت المنطقة إلى أشلاء. لقد اندلعت حربٌ أهليّة هناك. وأعلنوا أنّهم سينفصلون عن الاتّحاد لكن لا أحد يعرف من يملك السلطة الآن. لقد عمَّ قتالٌ مسلّح جميعَ أنحاء الولاية بين «حزب الشعب» بقيادة تشالمرز والمعجبين بعقيدة فول الصويا من جهة، ومريدي عقيدة ما يسمّى «العودة إلى الله» بقيادة بعض المُلّاك السابقين لحقول النفط من جهة أخرى.

فقال السيّد طومسون بشيء من الأنين عندما دخلت داغني الفندقَ في صباح الغد ملبّيةً دعوته:

- يا آنسة تاجرت، ماذا ينبغي علينا أن نفعل؟

وتعجّب من السبب الذي يجعله يشعر بطاقة مطمئنة كلّما رأى داغني. كان ينظر إلى ملامح وجهٍ خالٍ من التعابير وقد بدا متماسكًا، ولكنّ رباطة الجأش تصبح مقلقةً عندما يلاحظ المرء أنّه ستستمرّ بعض الوقت، من دون تغييرٍ في التعبير، أو أيّ علامة على الشعور. وكان يعتقد أنّ لوجه داغني النظرة نفسها التي تعلو وجوه الآخرين، باستثناء شيء مّا مختلف في هيئة فمها الذي كان يوحي بالقدرة على التحمّل.

وأخذ السيّد طومسون يستنجد بها قائلا:

- أنا أثق بك يا آنسة تاجرت. فأنت تتمتّعين بعقل راجح أكثر من كلّ أولادي. لقد قدّمت الشيء الكثير للبلاد. أنت من وصل إلى جون جالت من أجل مصلحة البلاد. فماذا يجب علينا أن نفعل؟ إنّه الوحيد الذي يستطيع إخراجنا من هذه الفوضى العارمة. لكنّه رفض لسببٍ بسيطٍ هو أنّه يكره القيادة. لم أرَ رجلًا مثل جون جالت من قبل. إنّ

هذا الرجل لا يرغب في القيادة. نحن نرجوه أن يعطي الأوامرَ وهو يجيب بأنّه يريد أن يطيع الأوامر. هذا أمر منافٍ للعقل.

- هذا الأمر مناف للعقل فعلًا.

- ماذا تستنتجين من ذلك؟

- إنّه مجرّد أنانيّ متغطرس. إنّه مجرّد مغامر طموح. إنّه إنسان ذو جرأة غير محدودة ويسعى نحو أكبر رهان في العالم.

لقد وجدت الأمر سهلا جدًّا بالقياس إلى الصعوبة التي واجهتها في القديم عندما كانت تعتبر اللغة أداة للشرف، وحين كانت لا تستخدمها دائمًا إلّا بعد أداء اليمين، يمين الولاء للواقع واحترام البشر. أمّا الآن فإنّها لا تعدو أن تكون سوى جعل الأصوات غير مفصلية، تلك الأصوات الموجّهة إلى الجهاد والتي لا تربطها أيّ صلة بمفاهيم مثل حقيقة الإنسان أو الشرف.

في الصباح الأوّل، كان من السهل أن تُبلغ السيّد طومسون كيف تعقّبت جون جالت إلى منزله. وكان من السهل أيضًا مشاهدة ابتسامات السيّد طومسون البشوشة وصرخاته المتكرّرة: «هذه هي ذراعي اليمنى» تنطق بنظرات الانتصار في وجه مساعديه، انتصار رجل يبرّر حكمه بواسطة الثقة فيها. وكان من السهل عليها التعبير عن الكره الذي تكنّه لجالت:

- لقد كنت أتّفق مع أفكاره، لكنّني لن أسمح له بتدمير سككي الحديديّة.

وسمعت السيّد طومسون وهو يقول:

- لا تقلقي يا آنسة تاجرت، فنحن سنحميك منه.

كان من السهل أن تفرض نظرةً من الفطنة الباردة وتذكّر السيّد طومسون بجائزة الخمسمائة ألف دولار، بصوتها الواضح والجازم، مثل صوت آلة الجمع وهي تصدر مجموع فاتورة. ثمّ رأت لحظةَ توقّفٍ في عضلات وجه السيّد طومسون، ثمّ لاحظت

ابتسامته المشرقة، التي كانت بمثابة خطاب صامت يقول إنّه لم يتوقّع ذلك، ولكنّه كان مسرورًا لمعرفة ما جعلها تشير إلى ذلك وأنّه كان نوعًا من الإشارات التي يفهمها فقال:

- بالطبع يا آنسة تاجارت، هذه المكافأة لك، كلّها لك، ستتوصّلين بالمبلغ كاملا.

كان الأمر سهلًا، لأنّها شعرت كما لو أنّها في عالم كئيبٍ غير العالم الواقعي، عالم لم تعد فيه الكلمات ولا التصرّفات تمثّل الحقائقَ أو تأمّلاتٍ في الواقع، ولكن فقط هيئات مشوّهة تظهر في إحدى تلك المرايا الجانبيّة التي تعكس تشوّه تصوّر مخلوقاتٍ لا يعامَل وعيها على أنّه وعي. وكلّ ما كان يشغل بالها هو تلك الفكرة الرقيقة والوحيدة والساخنة، التي كانت تشبه الضغط المحترق لسلك بداخلها، مثل إبرة تختار مسارها وهي التفكير في سلامته. أمّا بقيّة أفكارها فكانت ضبابيّة تمثّل انحلالًا لا شكل له، نصفه حامض، ونصفه الآخر ضباب.

ثمّ تساءلت وقد انتابتها القشعريرة: هل هذه هي الحالة التي يعيشون فيها، ويعيش فيها كلّ الناس الذين لم تفهمهم البتّةَ؟ هل هذه هي الحالة التي يرغبون فيها؟ هل هؤلاء الذين يرغبون في هذه الحالة يرغبون فعلًا في الحياة؟

ثمّ قال السيّد طومسون:

- ما هو أكبر رهانٍ في العالم يا آنسة تاجارت؟

ثمّ أضاف بقلق:

- ما الأمر؟ ماذا يريد؟

- إنّه يريد الواقع. إنّه يريد هذه الأرض.

- أنا لا أعرف تمامًا ما تعنينه، ولكن.. اسمعي يا آنسة تاجرت، إذا كنت تعتقدين أنّك تفهمينه.. فهل بمقدورك أن تتحدّثي إليه مرّة أخرى؟

فشعرت كما لو أنّها كانت تسمع صوتها، على بعد سنوات ضوئيّة، وهي تصرخ بأنّها مستعدّة أن تهب حياتها من أجل رؤيته، لكن في هذه الغرفة سمعت صوتًا غريبًا بلا

معنى يقول ببرود:

- لا يا سيّد طومسون لن أفعل ذلك. أتمنى ألّا أراه مجدّدًا.

- أعرف أنّك لا تطيقينه، ولا أستطيع لومَك على ذلك، لكن ألا يمكنك أن تحاولي..

- لقد حاولت التفاهم معه ليلةَ وجدته. ولم أتلقَّ منه شيئًا سوى الإهانات.. أعتقد أنّه يستاء منّي أكثر ممّا يستاء من أيّ شخص آخر. ولن يسامحني على حقيقة أنّني أوقعته في الفخ. وسأكون آخر شخص يستسلم له.

- نعم.. نعم، هذا صحيح.. هل تعتقدين أنّه سيستسلم؟

وجدت نفسَها في موقف محرجٍ، فهي لا تدري ما إذا كان يجب عليها أن تقول إنّه لن يستسلم، لأنّهم قد يقتلونها، أو يجب عليها أن تقول إنّه سيستسلم، لأنّهم قد يتمسّكون بالقوّة حتّى يدمّروا العالم. ثمّ قالت بحزم:

- سوف سيستسلم إذا عاملته بالشكل الصحيح. إنّه طموح جدًّا. فلا تدعه يهرب، لكن لا تهدّده أو تؤذيه، لأنّ تخويفه لن ينجح، إنّه لا يعرف الخوف أصلًا.

- لكن ماذا لو.. أعني أمام الكيفيّة التي تنهار بها الأمور... ماذا لو صمد طويلًا؟

- لن يصمد أكثر من اللّازم. إنّه عمليّ جدًّا. بالمناسبة هل سمحت له بسماع الأخبار عن حال البلاد؟

- لماذا؟ لا.. نحن لم نسمح له بذلك.

- أقترح عليك أن تدعه يحصل على نسخ من تقاريرك السرّيّة وسترى أنّ الأمر لن يطول أكثر.

فقال فجأة بصوت مستميت:

- هذه فكرة جيّدة. إنّها فكرة جيّدة جدًّا.. يا آنسة تاجارت، أنا أشعر بالتحسّن كلّما تحدّثت إليك. لأنّني أثق بك ولا أثق بأيّ شخص من هؤلاء الذين يحيطون بي، أنت

مختلفة، أنت امرأة صلبة.

كانت تنظر إليه مباشرة فقالت:

- شكرًا لك يا سيّد طومسون.

كان الأمر سهلًا، هكذا اعتقدت حين خرجت إلى الشارع ولاحظت أنّ بلوزتها كانت ملتصقةً تحت معطفها بلَوْحَي كتفيها. ثمّ أخذت تفكّر، وهي تعبر قاعة المحطّة، في أنّها لو كانت قادرة على الشعور، لما أدركت أنّ اللّامبالاة الثقيلة التي أحسّت بها الآن تجاه سكك حديدها هي الكراهية. ولم تستطع التخلّص من الشعور بأنّها لا تستطيع تسيير أيّ شيء سوى قطارات الشحن، فالركاب، بالنسبة إليها، لم يكونوا أحياء أو بشريّين. وبدا أنّه من غير المنطقيّ أن تهدر مثل هذا الجهد الهائل على منع الكوارث، وعلى حماية سلامة القطارات التي لا تحمل سوى الأشياء الجامدة. ثمّ نظرت إلى الوجوه في المحطّة، وفكّرت في أنّه لو مات وقتله حكام نظامهم، واستمرّ هؤلاء في الأكل والنوم والسفر، فهل ستعمل على تزويدهم بالقطارات؟ وإذا صرخت طلبًا لمساعدتهم، فهل سينهض أيّ واحد منهم للدفاع عنها؟ فهل يريدون أن يعيش؟

بعد ظهر ذلك اليوم، سلّموا مكتبَها شيكا بمبلغ خمسمائة ألف دولار؛ ومعه باقة زهور من السيّد طومسون. فنظرت إلى الشيك وتركته يسقط مرفرفًا على مكتبها، هذا الشيك الذي لم يكن يعني لها أيّ شيء، ولم يجعلها تشعر بأيّ شيء، ولا حتّى بالذنب. كانت مجرّد قصاصة ورقٍ لا تحظى بأيّ أهمّيّة بالقياس إلى الأوراق الأخرى التي تتراكم في سلّة نفايات المكتب، وسواء كان بإمكان المبلغ شراء عقد ماسيّ أو تفريغ المدينة أو آخر طعامها، فإنّ ذلك لا يحدث أيّ فرق. لن يُنفَق أبدًا، ولم يكن علامةَ قيمةٍ ولا شيء سيُشتَرى به يمكن أن يكون قيّمًا. لكن اعتقدت أنّ هذه اللّامبالاة الجامدة هي حالةُ الناس الدائمةُ من حولها، حالةُ البشر الذين لا هدف لهم أو عاطفة. هذه كانت حالة الروح التي لا قيمة لها، وتساءلت في نفسها: هل أولئك الذين أرادوا هذه الحالة يريدون العيش؟

كانت الأضواء معطلّة في بهو شقّتها، عندما عادت إلى المنزل في ذلك المساء، مخدّرةً من الإرهاق، ولم تلاحظ الظرف الذي كان عند قدميها حتّى أشعلت الضوء في ردهتها. كان ظرفا فارغًا ومختومًا، ولقد تمّ تمريره من تحت بابها فالتقطته، وبعد ذلك، وفي لحظة قصيرة، بدأت تضحك بلا صوتٍ. كانت شبهَ راكعة، وشبهَ جالسة على الأرض من دون أن تبتعد عن ذلك المكان، ولم تفعل أيّ شيء سوى التحديق في مذكّرةٍ كَتَبَتْهَا يدٌ تعرف صاحبها، تلك اليد التي كتبت آخر رسالة على التقويم فوق المدينة. وجاء في الملاحظة ما يلي:

داغني: اثبتي في مكانك وراقبيهم، وعندما يكون في حاجة إلى مساعدتنا، اتّصلي بي على الرقم6-5693.

في صباح الغد، حذّرت الصحفُ عامّة الناس من تصديق الشائعات التي تقول إنّ هناك أيّ مشكلة في الولايات الجنوبيّة، وذكرت التقارير السرّيّة المرسلة إلى السيّد طومسون أنّ القتال المسلّح اندلع بين ولايتي جورجيا وألاباما، من أجل امتلاك مصنع تصنيع المعدّات الكهربائيّة، وهو مصنع توقّف عن العمل بسبب القتال والانفجارات التي طالت أغلبَ المسارات فتوقّفت السكك الحديديّة عن إمداده بالموادّ الخام.

وقال السيّد طومسون:

- هل قرأت التقارير السرّيّة التي أرسلتها إليك؟

في تلك الليلة، كان يواجه جون جالت مجدّدًا. وقد رافقه جيمس تاجرت الذي تطوّع لمقابلة السجين لأوّل مرّة. وكان جالت جالسًا على كرسيّ باستقامة وهو يدخّن سيجارة. كان يبدو مرتاحًا. ولم يتمكّنا من فكّ شفرة التعبير على وجهه، إلّا أنّه لم يظهر أيّ علامة على الخوف. فأجابه:

- نعم، لقد قرأتها.

فقال السيّد طومسون:

- لم يتبقّ الكثير من الوقت.

- طبعًا، لم يتبقّ الكثير من الوقت.

- هل ستترك البلاد تنهار؟

- وماذا عنك؟

فصاح جيمس تاجارت:

كيف لك أن تكون متأكّدًا من كونك على حقٍّ؟ لماذا تتمسّك بأفكارك في مثل هذا الظرف العصيب الذي تتّجه البلاد فيه نحو الهاوية؟

- وما الأفكار التي تراها آمنة حتّى أتمسك بها؟

- كيف يمكنك أن تكون متأكّدًا من كونك على حقٍّ؟ كيف لك أن تعرف؟ فلا أحد يمكن أن يكون متأكّدًا من أيّ شيء. لا أحد. أنت لست أفضل من الآخرين.

- لماذا، إذَن، تلجأ إليّ؟

- لماذا تغامر بحياة الآخرين؟ لماذا تصرّ على أن تبقى أنانيًّا والناس في أمسّ الحاجة إليك؟

- تعني عندما يحتاجون إلى أفكاري.

- لا أحد يمتلك الحقيقة. لا يمكنك أن تحتكر الحقيقة.

وكان السيّد طومسون يعتقد أنّ في طريقة تاجرت شيئًا خاطئًا، وأنّها تحمل استياءً شخصيًّا غريبًا جدًّا، كما لو أنّ القضيّة التي جاء إلى هنا لحلّها ليست سياسيّة.

كان تاجرت يقول:

- لو كنت تتمتّع بحسّ المسؤولية لانضممت إلينا، بل لمددتَ إلينا يدَ المساعدة...

واستمرّ تاجرت في الحديث بإصرار محمومٍ، لكنّ السيّد طومسون لم يستطع معرفة

ما إذا كان جالت يستمع. لقد نهض جالت، وشرع يسير في الغرفة. ولاحظ السيّد طومسون خفّة الخطوات، والعمودَ الفقري المستقيم، والمعدة المسطّحة، والكتفين المسترخيَين. مشى جالت كما لو أنّ كليهما يفقدان الوعي بجسده وبمظهر كبريائه الكبير أثناء سيره. ثمّ نظر السيّد طومسون إلى جيمس تاجرت، وراقب هيئة جسده القذرة، ثمّ أمسك به وهو يشاهد حركات جالت بكراهية شديدة إلى درجة أنّ السيّد طومسون وقف خشية أن يصبح مسموعًا في الغرفة. لكنّ جالت لم يكن ينظر إلى تاجرت.

وكان تاجرت يقول:

- ضميرك.. لقد جئت إلى هنا لمناشدة ضميرك.. كيف تستطيع أن تبقى مكتوف اليدَين والناس يموتون جوعًا؟

وسرعان ما فقد تاجارت أعصابه، وأمر جالت قائلًا:

- توقّف عن السير.

فتوقّف جالت وقال:

- هل هذا أمر؟

فقال السيّد طومسون متعجّلًا:

- لا، لا، هذا ليس أمرًا. لا نريد أن نملي عليك أوامر...على رسلك يا جيم.

فعاد جالت إلى سيره. فقال تاجارت:

- إنّ العالم ينهار.. والناس يهلكون، وأنت وحدَك تستطيع إنقاذهم.. يجب أن تنضمّ إلينا، حتّى لو كنت تعتقد أنّنا على خطإ، يجب أن تضحّي بعقلك لإنقاذهم.

- وبأي وسيلة سأنقذهم؟

- ومن تكون أصلًا؟

فتوقّف جالت عن المشي وقال:

- أنت تعرف ذلك.

- أنت أنانيّ.

- نعم، أنا كذلك.

- هل تدرك أيّ نوع من الأنانيّين أنت؟

- حقًّا؟

هكذا ردّ عليه جالت وهو ينظر مباشرة في وجهه. فانكمش تاجرت في كرسيّه، بينما كانت عيناه تراقبان عيني جالت، ممّا جعل السيّد طومسون خائفًا من اللحظة التي ستلي ذلك. فقاطع جدال الرجلين بصوت غير رسميّ وقال مخاطبًا جالت:

- أيّ نوع من السجائر تدخّن؟

فالتفت جالت إليه مبتسمًا، وقال:

- لا أعرف.

- من أين حصلت عليها؟

- أحد حرّاسك أحضر لي علبة منها وقال إنّ رجلًا مّا طلب منه أن يعطيني إيّاها هديّةً... لا تقلق.. لقد اختبره رجالك. إنّه لا ينطوي على رسائل خفيّة.. إنّه مجرّد هديّة من معجب مجهولٍ.

كانت السيجارة بين أصابع جالت تحمل علامة الدولار. واستنتج السيّد طومسون أنّ جيمس تاجرت لم يكن جيّدًا في عمليّة الإقناع. لكنّ تشيك موريسون، الذي جلبه في الغد، لم يكن أفضل منه. قال تشيك موريسون وقد رافقته ابتسامة مسعورة:

- أضع نفسي تحت رحمتك يا سيّد جالت. فأنت على حقٍّ، سأعترف بأنّك على حقٍّ وكلُّ ما أستجديه الآن هو شفقتك. وأقول ذلك من أعماق قلبي، فأنا لا أستطيع

تصديق أنّك من النوع الذي لا يشفق على الناس إطلاقًا.

ثمّ أشار إلى كومة من الأوراق التي نشرها على الطاولة، وأضاف:

- ما تراه هناك هو التماس موقَّع من قبل الآلاف من أطفال المدارس، يتوسّلون إليك الانضمام إلينا وإنقاذهم. وهنا التماس آخر من ذوي الاحتياجات الخاصّة. وهنا عريضة من قساوسة مائتي ديانة مختلفة. وهذا نداء من أمّهات البلاد. فاقرأها جميعًا.

- هل هذا أمر؟

فصاح السيّد طومسون:

- لا، هذا ليس أمرًا.

فبقي جالت بلا حراكٍ، ولم يمدّ يده إلى الصحف. ثمّ قال تشيك موريسون بلهجة تهدف إلى إظهار تواضعهم:

- هؤلاء مجرّد أناس عاديّين يا سيّد جالت. وهم لا يستطيعون إخبارَك بما ينبغي عليك القيام به. إنّهم يستجدونك، لأنّهم ضعفاء وجهلاء، ألا يمكنك أن تمدّ إليهم يد المساعدة؟

- هل بإسقاط ذكائي واتّباع عماهم؟

- قد يكونون مخطئين، لكنّهم لا يعرفون أفضل من ذلك.

- أنا الذي يعمل، فهل يجب عليّ أن أطيعهم؟

- أنا غير قادر على مجادلتك يا سيّد جالت. أنا فقط أستجدي شفقتك. إنّهم يعانون وأنا أتوسّل إليك أن تشفق على أولئك الذين يعانون. أنا..

ثمّ سأله حين لاحظ أنّ جالت كان ينظر بعيدًا:

- ما خطبك؟ في من تفكّر؟

- هانك ريردن.

- آه.. لماذا؟

- هل ساورتهم الشفقة تجاه هانك ريردن؟

- أوه، ولكن هذا أمر مختلف، فهو..

- اخرس.

- أنا فقط..

فقاطعه السيّد طومسون:

- اصمت. لا تهتمّ به يا سيّد جالت، فهو لم ينم منذ ليلتين. إنّه خائف جدًّا.

وفي الغد، لم يكن الدكتور فلويد فيريس خائفًا، لكنّه كان أسوأ من ذلك، فقد لاحظ السيّد طومسون أنّ جالت ظلّ صامتًا ولم يردّ على فيريس مطلقًا.

كان الدكتور فيريس يقول لجالت:

- إنّها قضيّة مسؤوليّة أخلاقيّة ولعلّك لم تدرسها بما فيه الكفاية يا سيّد جالت. ويبدو أنّك لم تتحدّث في خطابك عن أيّ شيء سوى الجرائم التي اقترفها البشر. ولكن يجب النظر أيضًا في جرائم اللّامبالاة. فالفشل في إنقاذ حياةٍ هو أمر غير أخلاقيّ تمامًا مثل القتل، وبما أنّنا يجب أن نحكم على الأعمال بعواقبها، فإنّ المسؤوليّة الأخلاقيّة هي نفسها... فعلى سبيل المثال، على ضوء النقص الحادّ في الغذاء، من بين الاقتراحات المطروحة أنّه قد يصبح من الضروريّ إصدار توجيه يطالب بإعدام ثلث الأطفال الذين هم دون العاشرة، ويتوجّب إعدام جميع البالغين ممّن هم فوق سنّ الستّين لضمان حياة الآخرين. أنت لا تريد لمثل هذه الكارثة أن تَحُلَّ بالناس، أليس كذلك؟ يمكنك أن تمنع هذه الكارثة، لأنّ كلمة واحدة منك ستحول بيننا وبين هذه الكارثة. لكن إذا رفضت وأُعدِم كلّ هؤلاء الناس، فإنّك تتحمّل المسؤوليّة.

فصرخ السيّد طومسون بعد أن استفاق من وقع الصدمة، ثمّ قفز على قدميه وقال:

- أنت مجنون! لم يسبق لأحدٍ أن اقترح مثل هذا الشيء. لم يفكّر أحد في ذلك مُطلقًا. أرجوك يا سيّد جالت، لا تصدّقه. إنّه لا يعني ذلك.

فردّ عليه جالت:

- بالعكس هو يعني كلّ ذلك، قل للوغد أن ينظر إليّ، ثمّ ينظر في المرآة، ثمّ يسأل نفسه عمّا إذا كنت سأعتقد أبدًا أنّ مكانتي الأخلاقيّة ستكون تحت رحمة أفعاله.

فصاح السيّد طومسون وقال:

- اخرج من هنا.

كان يدفع فيريس إلى الخروج وهو يضيف:

- اخرج. لا أريد أن أسمع منك كلمة أخرى.

ثمّ فتح الباب ودفع فيريس في وجه حارس بالخارج. وبعد ذلك التفت إلى جالت، وأشرع ذراعيه وتركهما تسقطان دلالةً على العجز الذي ينخره. أمّا ملامح وجه جالت فكانت تخلو من أيّ تعبير. ثمّ قال السيّد طومسون محتجًّا:

- ألا يوجد أحدٌ يستطيع التحدّث إليك؟

- لا يوجد شيء نتحدّث عنه.

- يجب علينا أن نتحدّث إليك، يجب أن نقنعك. هل يوجد أيّ شخص تريد التحدّث معه؟

- لا.

- أعتقد ربّما.. لو أرسلت إليك الآنسة داغني تاجرت التي تتحدّث مثلك أحيانًا، لتخبرك..

- تلك المرأة؟ بالتأكيد كانت تتحدّث مثلي. إنّها فشلي الوحيد، لقد ظننت أنّها من النوع الذي ينتمي إلى صفّي، لكنّها خدعتني للحفاظ على سكّة حديدها. كانت تبيع

روحَها من أجل سكّة حديدها. أدخلها إذا أردت أن أصفع وجهها.

- لا، لا، لا.. ليس عليك أن تراها إذا كان هذا ما تشعر به تجاهها. أنا لا أريد أن أضيّع مزيدًا من الوقت مع الناس الذين يثيرون حفيظتك.. فقط .. لا أعرف من سأختار ليتولّى هذه المهمّة..

فردّ عليه جالت:

- لقد غيّرت رأيي. هناك شخص أودّ التحدّث معه.

صاح السيّد طومسون بلهفة:

- من؟

- الدكتور روبرت ستادلر.

فأطلق السيّد طومسون تصفيرةً طويلة وهزّ رأسه بتردّد وقال في لهجة تحذير صادقة:

- لكنّ هذا الرجل ليس صديقك.

- هو الوحيد الذي أرغب في رؤيته.

- حسنًا، إذا كنت ترغب في ذلك فإنّي سألبّي طلبك. سأحضره إلى هنا صباحَ الغدِ.

في ذلك المساء، تناول السيّد طومسون الطعامَ مع ويسلي ماوتش بجناحه الخاصّ، وظلّ يحدّق بغضب في كوب من عصير الطماطم وضع أمامه ثمّ زجر:

- ماذا؟ ألا يوجد عصير الزنباع؟

لقد سبق أن نصحه طبيبه بعصير الزنباع ليحميه من البرد. وردّ عليه النادل:

- لا يوجد عصير الزنباع.

وقال ماوتش بكآبة:

- لقد هاجمت عصابةٌ قطارًا عند جسر تاجرت على نهر المسيسيبي. ففجّرت المسار

ودمّرت الجسر. لكن لا شيء يدعو إلى القلق، لأنّه سيتمّ إصلاح كلّ ما دُمِّرَ، غير أنّ حركة المرور متوقّفة الآن والقطارات القادمة من ولاية أريزونا لا يمكنها العبور.

- هذا أمر سخيف! أليس هناك أيّ شيء آخر؟

ثمّ توقّف السيّد طومسون عن الكلام. كان يعلم أنّه لا توجد جسور سكّة حديد أخرى عبر نهر المسيسيبي. وبعد لحظة استأنف حديثه بصوتٍ متقطّع فقال:

- اطلب من الجيش أن يحرس هذا الجسر ليلًا ونهارًا، واطلب منهم أن يختاروا أفضل الجنود لهذه المهمّة، وإذا حدث أيّ شيء لذلك الجسر...

ولم يتمَّ كلامه، ثمّ جلس يحدّق في الأطباق الصينيّة النفيسة وأطباق المقبّلات الشهيّة. غير أنّ عدم وجود سلعة عاديّة مثل عصير الزنباع أصبحَ فجأةً حقيقةً مُرّةً لأوّل مرّة. ما كان لذلك أن يحدث لمدينة نيويورك لو لم يقع أيّ شيء لجسر تاجرت.

وقال إيدي ويلرز في ذلك المساء مخاطبًا داغني:

- الجسر ليس المشكلة الوحيدة يا داغني.

ثمّ أنار مصباحَ مكتبها الذي أهملت تشغيله عند اقتراب الغروب، وذلك بسبب التركيز الاضطراريّ على عملها. ثمّ أضاف:

- لا يمكن للقطارات العابرة للقارّات مغادرة مدينة سان فرانسيسكو. فإحدى الجماعات المسلّحة هناك استولت على محطّتنا وفرضت «ضريبة المغادرة» على القطارات، ممّا يعني أنّهم يحتجزون القطارات من أجل الفدية. ومدير المحطّة استقال ولا أحد، الآن، يعرف ما يجب فعله.

فأجابته بحزم:

- أنا لا أستطيع تركَ نيويورك الآن.

فردّ عليها بهدوء:

- أعرف ذلك، ولهذا السبب سأذهب بنفسي إلى هناك لأعيد الأمور إلى نصابها أو على الأقلّ لإيجاد رجل يتولّى المسؤوليّة.

- لا.. لا أريدك أن تذهب إلى هناك، هذا أمر خطير جدًّا. ما الغاية منه أصلًا؟ لا شيء يهمّ الآن. لا يوجد شيء لإنقاذه.

- ما تزال شركة تاجرت العابرة للقارّات قائمة وأنا سأقف بجانبها. داغني، أينما ذهبت، ستكونين قادرة على بناء سكّة حديد، أمّا أنا فلا أقدر على ذلك. أنا لا أريد أن أبدأ من جديدٍ. ليس بعد الآن، ليس بعد ما رأيته. أمّا أنت فتستطيعين فعل ذلك. أمّا أنا فلا أستطيع، دعيني أفعل ما أقدر عليه.

- إيدي! ألا تريد..

ثمّ توقّفت وهي تعلم أنّ ما ستقوله بلا جدوى. ثمّ أضافت:

- حسنًا يا إيدي، إذا كنت ترغب في الذهاب إلى هناك، فأنت حرّ.

- سأسافر إلى كاليفورنيا الليلة. لقد رتّبت للسفر على متن طائرة عسكريّة.. أنا على يقين من أنّك ستستقيلين في أقرب وقت.. وقد تستقلين في الوقت الذي تستطيعين فيه مغادرة نيويورك، وقد تغادرين في الوقت الذي سأعود فيه. لكن عندما تكونين مستعدّة، غادري فحسب ولا تقلقي بشأني، ولا تنتظري لإخباري بذلك. غادري بسرعة.. أمّا أنا فسأودّعك من الآن.

فنهضت داغني ووقفا في متواجهَين. في منتصف ضوء المكتب الخافت، علّقت صورة نات تاجارت على الجدار بينهما. كانا يتذكّران ذلك اليوم البعيد عندما تعلّما السير على مسار سكّة الحديد. فانحنى إيدي برأسه وطأطأه إلى أسفل برهةً طويلةً. فمدّت داغني يدها وقالت:

- وداعًا يا إيدي.

فأمسك يدها بقوّة، ولم ينظر إلى أصابعه، بل كان ينظر إلى وجهها. ثمّ همّ بالذهاب

لكنّه توقّف والتفت إليها وسألها بصوت منخفض وثابت:

- داغني.. هل تعرفين.. ما أشعر به تجاهك؟

فردّت بهدوء:

- نعم، أعرف ذلك.

- وداعًا يا داغني.

في صباح الغد، كان الثلج يتساقط، وقد نزلت القطرات الذائبة مثل لمسة من الجليد على صُدْغَي الدكتور روبرت ستادلر، بينما كان يعبر الممرّات الطويلة لفندق واين فوكلاند باتّجاه باب الجناح الملكيّ. كان يرافقه رجلان قويّان من قسم تكييف روح الشعب المعنويّة، لكنّهما لم يواجها مشكلةً في إخفاء طريقة التكييف التي كانوا يوظّفونها. وقال له أحدهما بازدراء:

- لا تنسَ أوامر السيّد طومسون. لو أصدرتَ صرخة خاطئة واحدة منك، فإنّك ستندم عليها يا أخي.

ظنّ الدكتور ستادلر أنّ ما كان بصدغَيه ليس ثلجًا ذائبًا، بل عرقًا من آثار الضغط الحارق، وهو الضغط نفسه الذي عاشَه منذ ذلك المشهد ليلةَ أمس عندما كان يصرخ على السيّد طومسون أنّه لا يمكن أن يرى جون جالت. لقد صرخ حينها وهو في حالة رعبٍ أعمى يتوسّل دائرةً من الوجوه الجامدة ألّا تجعله يفعل ذلك، وظلّ ينتحب أمامهم مؤكّدًا أنّه مستعدّ لفِعلِ أيّ شيء ما عدا مقابلة جالت. تلك الوجوه لم تنزل إلى مستوى جداله أو حتّى تهديده، بل أمروه فقط بفعل ذلك. لقد أمضى ليلةً بلا نوم، وهو يقول في نفسه إنّه لن يطيع، وها هو الآن يسير نحو الباب. كان مصدر الضغط المحترق على صدغَيه والغثيان الخافت والدوّار هو عدم قدرته على تقبّل حقيقة أنّه عجز عن استعادة الشعور بكونه الدكتور روبرت ستادلر.

ثمّ لاحظ بريقَ البنادقِ المعدنيَّ، وهي بنادق ذات حراب كان الحرّاس يحملونها عند

الباب، وسمع صوت مفتاح القفل. ثمّ وجد نفسه يمشي إلى الأمام وسمع الباب يقفل خلفَه. ثمّ عبر الغرفة الطويلة، ورأى جون جالت جالسًا عند عتبة النافذة، بقامته الطويلة الرشيقة وهو يرتدي سروالًا وقميصًا، يميل بساق إلى الأرض، ويثني الساق الأخرى. أمّا رأسه ذو الشعر الذهبيّ فكان مرفوعًا يواجه انتشار السماء الرماديّة، وفي الآن نفسه شاهد ستادلر جسد صبيّ صغير يجلس على شرفة سور منزله بالقرب من حرم جامعة باتريك هنري والشمس تسطع بنورها على الشعر الكستنائيّ لرأسٍ مرفوع يواجه سماء الصيف الزرقاء، وسمع شدّة صوته العاطفيّ وهو يقول قبل اثنين وعشرين عامًا:

- إنّ القيمة المقدّسة الوحيدة في العالم يا جون هي العقل البشريّ. إنّه العقل البشري المنيع..

ثمّ صاح خلف شخصيّة ذلك الفتى عبر الغرفة وعبر السنين:

- لم أكن قادرًا على المقاومة يا جون.

ثمّ أمسك بحافّة الطاولة لتسنده وتكون بمثابة الحاجز الواقي، على الرغم من أنّ الجسد الذي كان عند عتبة النافذة لم يتحرّك.

ثمّ صاح مجدّدا وقال:

- لست أنا من أوصلك إلى هنا. لم أقصد ذلك. لم أستطع منعَ نفسي. وليس هذا ما قصدته.. جون، أنا لا أتحمّل أيّ مسؤولية، لأنّني لم أحظَ بأيّ فرصة للانتصار عليهم، لأنّهم يملكون العالم. لم يتركوا لي أيّ مكان... ماذا يعني العقل بالنسبة إليهم؟ وماذا يعني لهم العلم؟ أنت لا تعرف كم هم مميتون. أنت لا تفهمهم. إنّهم لا يفكّرون. إنّهم مجرّد حيوانات طائشة تتحرّك بمشاعر غير عقلانيّة. إنّ كلّ ما يحرّكهم هو الطمع والجشع. إنّهم يستولون على كلّ ما يريدونه، وهذا كلّ ما يعرفونه. إنّهم يريدون ذلك، بغضّ النظر عن السبب أو النتيجة أو المنطق. إنّهم يريدون ذلك، هؤلاء الخنازير الملطّخة بالدماء.. العقل؟ ألا تعلم كم يكون العقل عديمَ الجدوى في مواجهة تلك

الحشود الطائشة؟ أسلحتنا لا حول لها ولا قوّة، إنّها طفوليّة، فلا تحدّثني عن الحقيقة والمعرفة والعقل والقيم والحقوق. القوّة هي كلّ ما يعرفون ويتقنون. القوّة والاحتيال والنهب.. لا تنظر إليّ هكذا يا جون، ماذا يمكنني أن أفعل ضدّ قبضتهم الحديديّة؟ كان عليّ أن أعيش، أليس كذلك؟ ولم يكن ذلك فقط من أجلي، بل من أجل مستقبل العلم أيضًا. وكان عليّ أن أبقى بمفردي، وكان عليَّ أن أكون محميًّا، فاضطررتُ إلى إبرام صفقات معهم، لأنّه لم تكن هناك من طريقة للعيش إلّا وفق شروطهم.. لم تكن بيدي حيلة.. هل تسمعني؟ ماذا تريد منّي أن أفعل؟ هل تطلب منّي أن أستجدي الوظائف؟ هل أردت أن يعتمد عملي على رحمة الأشرار الذين يتمتّعون بموهبة خارقة في كسب المال؟ لم يكن لديّ وقت لمنافستهم من أجل المال أو الأسواق أو أيّ مسعى من مساعيهم المادّيّة البائسة. هل كانت فكرتك عن العدالة هي أن ينفقوا أموالَهم على الخمور واليُخوت والنساء بينما تضيع الساعات الثمينة من حياتي بسبب نقص المعدّات العلميّة؟ الإقناع؟ كيف أقنعهم؟ ما هي اللغة التي يمكنني التحدّث بها مع البشر الذين لا يفكّرون؟ أنت لا تعلم أنّني قاسيتُ بمفردي، وكم كنت متعطّشًا إلى الالتقاء بأيّ ذكاء وقّاد؟ ولماذا يجب على عقل مثل عقلي مساومة حمقى جاهلين مثلهم؟ هم لن يساهموا ببنس واحد من أجل العلم. لماذا لا يجب إجبارهم على فعل ذلك؟ لم تكن أنت من أردتُ إجباره. وذلك المسدّس لم يكن موجهًا إلى العقل، ولم يكن موجّهًا إلى أناس مثلي ومثلك، بل كان موجّها فقط ضدّ المجانين الطائشين.. لماذا تنظر إليّ بهذه الطريقة؟ لم يكن لديّ خيار آخر. لا يوجد أيّ خيار سوى هزيمتهم وفقًا للعبتهم الخاصّة. أوه نعم وفقها.. أعلم جيّدًا أنّهم وضعوا القواعد.. فما الذي نمثّله نحن بالقياس إليهم، فما نحن سوى قلّة من الذين يمكنهم التفكير؟ يمكننا فقط أن نسعى إلى الحصول على أشياء من دون أن يلاحظها أحدٌ أو خداعهم لخدمة أهدافنا.. ألا تعلم كم كان هدفي نبيلًا؟ وهل تدرك قيمة رؤيتي إلى مستقبل العلم حين تتحرّر المعرفة البشريّة من الروابط المادّيّة؟ أنا لست خائنًا يا جون، لست كذلك. كنت، على عكس ما قد تعتقدُ، أخدم العقل. فما رأيته مسبقًا، وما أردته، وما شعرت به لا يقاس بدولاراتهم البائسة. لقد كنت أرغب في مختبر. كنت في حاجة إليه. لماذا عليَّ أن أهتمّ؟

من أين سيأتي أو كيف؟ أستطيع أن أفعل الكثير.. أستطيع أن أصل إلى مثل تلك المرتفعات، ألا تملك حسّ الشفقة؟ لقد أردت ذلك.. فماذا لو كان علينا إجبارهم؟ لماذا علّمتهم التمرّد؟ كان الأمر سينجح لو لم تسحبهم. كان يمكن أن يعمل، وأنا أقول لك لن يكون الأمر هكذا.. فلا تتّهمني.. لا يمكن أن نكون مذنبين.. جميعنا.. على مدى قرون.. لا يمكن أن نكون مخطئين تمامًا.. ولن نكون ملعونين، لأنّنا لم نكن نملك القرار. ثمّ إنّه لا توجد طريقة أخرى للعيش على الأرض.. لماذا لا تجيبني؟ ماذا ترى؟ هل تفكّر في الخطاب الذي ألقيته؟ أنا لا أريد أن أفكّر فيه. كان مجرّد كلام منطق، والمرء لا يمكنه أن يعيش بالمنطق. هل تسمعني؟ ألن تنظر إليّ. أنت تطلب المستحيل، لا يمكن أن يوجد بشرٌ وفق طريقتك التي لا تسمح بلحظات ضعف ولا تسمح بالضعف البشريّ أو بالمشاعر الإنسانيّة، فماذا تريد منّا؟ العقلانيّة على امتداد أربع وعشرين ساعةً في اليوم من دون ثغرة أو راحة أو هروب.. ألن تنظر إليّ، عليك لعنة الله! أنا لست خائفًا منك بعد الآن، هل تسمعني؟ أنا لست خائفًا. من أنت لتلومني أيّها الفاشل البائس؟ هذا هو ما أوصلك إليه طريقك الخاصّ. أنت الآن محتجزٌ هنا، عاجز وتحت حراسة مشدّدة، وسيقتُلك هؤلاء الوحوش في أيّ لحظة.. أنت تجرؤ على اتّهامي بكوني غير عمليّ. أوه نعم، أنت ستقتل، ولن تفوز. ولا يمكن أن أسمح لك بالانتصار.. أنت هو الإنسان الذي يجب تدميره.

ورافقت لهاثَ الدكتور ستادلر صيحةٌ مكتومةٌ، كما لو أنّ جمود الشكل عند عتبة النافذة كان بمثابة عاكس زجاجيّ صامت جعله يرى فجأة المعنى الكامل لكلماته الخاصّة.

- لا، لا..

هكذا تكلّم الدكتور ستادلر مجدّدا، ثمّ حرّك رأسَه من جانب إلى آخر ليهرب من العينين الخضراوين الثابتتين.

كان لصوت جالت الصرامة نفسها التي لا تنضب مثل عينيه:

- لقد قلت كلّ شيء أردتُ أن أقوله لك.

ثمّ أمسك الدكتور ستادلر الباب بقبضته، وعندما فتحه هرب من الغرفة.

***

لم يدخل أيّ شخص جناحَ جالت مدّةَ ثلاثة أيّام متتالية إلّا الحرّاس الذين كانوا يقدّمون له الطعام. وفي وقت مبكّر من مساء اليوم الرابع، فُتح الباب بعد قدوم تشيك موريسون مع اثنين من رفاقه. كان تشيك موريسون يرتدي ملابس العشاء وقد بدت ابتسامته متوتّرةً، لكنّ ظلّه بدا أكثر ثقةً من المعتاد. وكان أوّل من رافقه هو أحد الخدم، أمّا المرافق الآخر فكان رجلًا مفتول العضلات، أمّا وجهه فبدا غير منسجم مع بدلته الرسميّة. كان وجهًا صخريًّا بجفون غلب عليها النعاس، وعينين شاحبتين، وجمجمة محلوقة باستثناء بقعة من تجعيد الشعر الأشقر الباهت في الأعلى، وقد يضع يده اليمنى في جيب سرواله.

قال تشيك موريسون وهو يشير إلى باب غرفة النوم حيث تنزوي خزانة تحتوي على ملابس فاخرة:

- من فضلك ارتدِ ملابسَك. ارتدِ رجاءً بدلة العشاء.. هذا أمر يا سيّد جالت.

فمشى جالت بصمت إلى غرفة النوم وتبعه الرجال الثلاثة بينما جلس تشيك موريسون على حافّة الكرسيّ يحدّق في السجائر واحدةً تلو أخرى، ثمّ يرميها. وقام الخادم بالكثير من حركات اللياقة ليساعد جالت على ارتداء الملابس، فقد زرَّر قميصه، وحمل معطفه. أمّا الرجل ذو العضلات المفتولة فوقف في الزاوية واضعًا يده في جيبه. ولم ينبس أيٌّ منهما بكلمة.

ثمّ قال تشيك موريسون عندما استعدّ جالت، وأشار إلى الباب مع لفتة لطيفة من الدعوة إلى المضيّ قدمًا:

- هلّا تعاونت معنا يا سيّد جالت.

وبسرعة كبيرة، وعلى نحو غير متوقّع أمسك الرجل القويّ ذراع جالت وضغط بمسدّس غير مرئيّ على جسده، ثمّ:

- لا تقم بأيّ حركة خاطئة.

فردّ عليه جالت:

- لن أفعل ذلك أبدًا.

ثمّ فتح تشيك موريسون الباب، وبقي الخادم في الخلف. وسارت الأجساد الثلاثة التي كانت ترتدي بدلات العشاء بصمت من القاعة نحو المصعد.

كانوا صامتين في المصعد، وظلّت نقرات الأرقام الوامضة عند الباب تشير إلى علامة تقدّمهم نحو الأسفل.

ثمّ توقّف المصعد على أرضيّة الطابق الأرضيّ. وسبقهما جنديّان مسلّحان وتبعهما جنديّان آخران، كانا يمشيان عبر الممرّات الطويلة. وكانت الممرّات مهجورةً باستثناء حرّاس مسلّحين انتشروا في المنعطفات. وكانت يُمنى الرجل المسلّح مرتبطةً بيُسرى جالت، وكان السلاح غير مرئيّ لأيّ مراقب محتمل. لقد شعر جالت بالضغط الصغير من فوّهة المسدّس على جانبه، وقد حافظ الآخر على الضغط بخبرةٍ كي لا يشعر بأنّه عائق ولا ينسى وجوده لحظةً.

أدّى الممرّ إلى مدخل واسع ومغلق، ويبدو أنّ الجنود تلاشوا في الظلال. وعندما لمست يد تشيك موريسون مقبض الباب كانت هي التي فتحته، ولكنّ التباين المفاجئ للضوء والصوت جعل الأمر يبدو كما لو أنّ الباب انفتح بسبب انفجار، ثمّ انبعث ضوء مّا من ثلاثمائة مصباح مثبّتة بثريّات قاعة الرقص الكبرى بفندق واين فوكلاند، ثمّ صدر صوت تصفيق من خمسمائة شخص.

ثمّ قاد تشيك موريسون مرافقَه في الطريق المؤدّية إلى طاولة مكبّرات الصوت التي كانت موضوعة على منصّة فوق طاولات ملأت الغرفة. وبدا أنّ الناس يعرفون، من

دون سابق إعلان، أنّهم يصفّقون لذلك الرجل النحيل الطويل القامة ذي الشعر الذهبيّ. وقد بدا وجهه من نوع الصوت ذاته الذي سمعوه على الراديو، صوت هادئ وواثق وصعب المنال.

خُصِّصَ لجالت مقعدٌ وسط منضدةٍ طويلة مع السيّد طومسون الذي جلس على يمينه. أمّا الرجل الذي كان يرافقه فقد جلس على يساره، كي لا يتخلّى عن ذراعه أو الضغط على الزّناد. على أكتاف النساء العارية، عكست المجوهرات بريقَ الثريّات على ظلال الطاولات المزدحمة والجدران البعيدة؛ وأنقذت الملابس السوداء والبيضاء الرسميّة التي كان يرتديها الرجال جوّ القاعة، فأوحت بالفخامة الملكيّة المهيبة وميّزتها من الخطوط الضوئيّة المخترقة التي صنعتها كاميرات الأخبار والمايكروفونات ومجموعة خاملة من معدّات التلفزيون. كان الحشد واقفًا يصفّق. أمّا السيّد طومسون فكان يبتسم ويشاهد وجه جالت بنظرةٍ متلهّفة ومتحمّسة. جلس جالت يواجه الحفاوة، التي لم يتجاهلها ولم يتفاعل معها في الآن نفسه.

وبأحد زاويا القاعة كان مذيعٌ بالراديو يصرخ في المايكروفون:

- أنتم الآن تسمعون تصفيقات الحاضرين وهم يحيّون جون جالت الذي أخذ مكانه على المنصّة.. أجل يا أصدقائي. إنّه جون جالت شخصيًّا. أمّا أولئك الذين يملكون جهاز تلفازٍ فستُتاح لهم فرصة رؤيته بأمّ أعينهم بعد مدّة قصيرة.

وقالت داغني في نفسها وقبضتُها تتشبّث بمفرش المنضدة، تحت ظلمة الطاولة الجانبيّة: لا بدّ لي من تذكّر ضوابط المكان. كان من الصعب عليها أن تحافظ على شعور الواقع المزدوج أثناء حضور جالت الذي كان بعيدًا عنها مسافةَ ثلاثين قدمًا. لقد شعرت بأنّه لا يمكن أن يوجد أيّ خطر أو ألم في العالم مادامت تستطيع رؤية وجهه. وفي الوقت نفسه، أحسّت بالرعب، عندما نظرت إلى هؤلاء الذين كانوا يحتجزونه، وعندما تذكّرت عبثَ هذا الحدث الذي نظّموه. وكافحت لتَظهَر عضلاتُ وجهها صلبةً، كي لا تخون نفسها بابتسامة سعادة أو بصرخة ذعرٍ.

وتساءلت كيف تمكّنت عيناه من إيجادها في ذلك الحشد. ولاحظت وقفة قصيرة في نظرته لا يمكن لأحد آخر أن يلاحظها. كانت تلك النظرة أكثر من قبلةٍ، بل مصافحةً تدلّ على الموافقة والدعم.

ولم ينظر مرّة أخرى في اتّجاهها. لم تستطع إجبار نفسها على النظر بعيدًا، إذ كان من المذهل رؤيته وهو يرتدي ملابس سهرةٍ. وما يثر الدهشة أكثر أنّه كان يرتديها بشكل طبيعيّ جدًّا، وقد جعلها تبدو كزيّ يتناسب مع تكريم مشرّف، وكان مظهره يوحي بنوع المأدبة، في أيّام الماضي البعيد، حيث سيحصل على جائزة صناعيّة. وتذكّرت كلماتها الخاصّة: ينبغي أن تكون الاحتفالات فقط لأولئك الذين يملكون شيئًا يُحتَفل به.

ثمّ التفتت بعيدًا. وناضلت حتّى لا تنظر إليه كثيرًا، وحتّى لا تثير انتباه أصحابها. كانت تجلس في طاولة بارزة يمكن للجميع الانتباه إلى حضورها، لكنّها مظلمة بما فيه الكفاية للحفاظ عليها من نظرات جالت، وكانت جنبًا إلى جنب مع أولئك الذين عانوا من استياء جالت، أي رفقة الدكتور فيريس ويوجين لاوسون.

لاحظت أنّ شقيقها جيم كان يجلس بالقرب من المنصّة؛ وكان بإمكانها أن ترى وجهه الكئيب بين الشخصيّات العصبيّة مثل تينكي هولواي، وفريد كينان، والدكتور سيمون بريتشيت. ولم تنجح الوجوه المعذّبة أعلى منصّة المتحدّثين في جهودها الرامية إلى الاختفاء. كانوا يشبهون أناسًا يواجهون كارثة، وبدا هدوء وجه جالت متألّقًا فيما بينهم، فتعجّبت داغني من الأمر وتساءلت: من السجين؟ ومن السجّان؟ وجالت بنظرها بطيئًا تراقب من كانوا بالطاولة مع جون جالت فشاهدت السيّد طومسون، وويسلي ماوتش، وتشيك موريسون، وبعض الجنرالات، وبعض أعضاء الهيئة التشريعيّة، والسيّد موين الذي جيء به لإغراء جون جالت، لأنّه يعتبر رمزًا إلى الأعمال التجاريّة الكبيرة. ثمّ جالت بنظرها في جلّ أرجاء القاعة تبحث عن وجه الدكتور ستادلر؛ لكنّه لم يكن حاضرًا.

ثمّ اعتقدت داغني أنّ الأصوات التي كانت تملأ الغرفة تشبه مخطّط الحمى، لقد ظلّ اندفاعهم عاليًا جدًّا، ثمّ انهار تدريجيًا ليعمّ الصمتُ المكانَ باستثناء بعض قهقهات تثير فضول الحاضرين. وخيّم على الوجوه أكثرُ أشكال التوتّر وضوحًا وأقلّها كرامة، توتّر يظهر في الابتسامات المصطنعة. وكانت تعتقد أنّ هؤلاء الناس يعرفون، لا عن طريق عقولهم ولكن عن طريق الذعر، أنّ هذه المأدبة تمثّل ذروةَ عالمهم النهائيّةَ وجوهَرَه العاري. كانوا يعرفون أنّه لا إلهم ولا أسلحتهم يمكنها أن تجعل هذا الاحتفال يعني ما كانوا يكافحون للتظاهر بأنّه يعنيه.

ولم تتمكّن من ابتلاع الطعام الذي وضع أمامها، إذ بدا حلقها مغلقًا بتشنّجات جامدة. ولاحظت أنّ الآخرين على طاولتها يتظاهرون فقط بالأكل ما عدا الدكتور فيريس الذي لم تتأثّر شهيّته.

وعندما رأت قطع الآيس كريم في وعاء بلّوريّ أمامها، لاحظت الصمت المفاجئ بالقاعة وسمعت صراخ التلفزيون الذي انطلق في العمل. لقد كانوا جميعًا يحدقّون في جالت، أمّا وجهه فلم يتحرّك ولم يتغيّر.

لم يكن على أحد أن يدعو الناس إلى الصمت، لكن عندما لوّح السيّد طومسون إلى المذيع خيّم الصمت القاعة.

ثمّ صاح المذيع في المايكروفون:

– أيّها المواطنون، أيّتها المواطنات، أخواتي وإخواني من هذه البلاد ومن أيّ بلد آخر حيث تستطيعون متابعة هذا الحدث من القاعة الكبرى بفندق واين فوكلاند في مدينة نيويورك، نقدّم لكم إشارة انطلاق خطّة جون جالت.

وظهر مستطيل من الضوء الأزرق الكثيف على الجدار خلفَ طاولة المتكلّمين، وهو شاشة تلفزيونيّة لعرض صور الضيوف الذين تشاهدهم البلاد الآن.

– خطّة جون جالت للسلام والازدهار والربح.

هكذا صاح المذيع، بينما كانت صورة القاعة ترتجف قبل أن تظهر على الشاشة.

- إنّه فجر عصر جديدٍ. إنّه نتاج تعاون متناغم بين ما في زعمائنا من روحٍ إنسانيّة وما في جون جالت من عبقريّة علميّة. إذا كان إيمانكم بالمستقبل قد تزعزع بسبب الشائعات المغرضة، فإنّ بإمكانكم الآن أن تروا بأنفسكم عائلتنا القياديّة الموحّدة والسعيدة... سيّداتي، سادتي..

ثم تحوّلت الكاميرا التليفزيونيّة إلى طاولة المتحدّثين، فملأ رأس السيّد موين الشاشة:

- تشاهدون الآن السيّد هوراس بوسبي موين الصناعيّ الأمريكيّ.

ثمّ انتقلت الكاميرا إلى مجموعة من الوجوه المسنّة التي كانت ترسم ابتسامة مزيّفة:

- في الصورة الآن جنرال الجيش ويتنجتون إس ثورب.

ثمّ تحوّلت الكاميرا بين الوجوه التي كانت تعاني، فهذا وجه به ندوبٌ وتلك وجوه تشوبها ويلاتُ الخوف والتهرّب واليأس وعدم اليقين وكراهية الذات والشعور بالذنب:

- على الشاشة الآن زعيم الأغلبيّة في الهيئة التشريعيّة الوطنية، السيّد لوسيان فيلبس والسيّد ويسلي ماوتش والسيّد طومسون.

ثمّ توقّفت الكاميرا عند السيّد طومسون الذي رسم ابتسامة كبيرةً، ثمّ أدار وجهه ونظر بعيدًا من الشاشة كالمنتصر. ثمّ قال المذيع:

- أيّها السيّدات والسادة، نقدّم لكم الآن جون جالت.

ثمّ قالت داغني في نفسها حين بدا وجه جون جالت على الشاشة وهو ينظر إلى الأمّة: يا إلهي.. ماذا يفعلون؟ هذا الوجه الذي يبدو بلا ألمٍ أو خوفٍ أو ذنب، هذا الوجه العنيد بحكم الصفاء، والمنيع بحكم احترام الذات. أيّا كان ما يخطّطون له فإنّه لن يتحقّق. لا شيء أكثر يمكن أن يقال أو يجب أن يقال، يوجد خياران: إمّا اختيار قانون

جالت الأخلاقيّ أو قانون من يصطفّون على المنصّة، وكلّكم تعرفون الخيار المناسب.

وقال المذيع:

- هذا هو السكرتير الشخصيّ للسيّد جالت.

غير أنّ الكاميرا مرّت سريعًا على هذا الوجه، ثمّ تواصل بعد ذلك تقديم الحضور واحدًا تلو آخر.

ثمّ نظرت إلى الوجوه من حولها متسائلةً: هل لاحظوا البونَ الشاسع بين وجه جالت ووجوههم؟

وقال تشيك موريسون الذي تولّى رئاسة الاحتفال:

- هذه المأدبة هي تكريم لأعظم شخصيّة في عصرنا، تكريم للمنتِج الأنيق، رجل «المعرفة»، الزعيم الجديد لاقتصادنا، تكريم لجون جالت. إذا كنتم قد سمعتم خطابَه الإذاعيّ الاستثنائيّ، فلا يمكن أن يكون لديكم أيّ شكّ في أنّه يمكن أن يجعل الأمور تعمل. الآن هو هنا لإخباركم بأنّه سيعيد المياه إلى مجاريها. إذا كان هؤلاء المتطرّفون من الطراز القديم قد ضلّلوكم إذ زعموا أنّه لن ينضمّ إلينا أبدًا، وأنّه لا اندماج يمكن أن يحدث طريقته في الحياة وطريقتنا، فإنّ حدث الليلة سيثبت لكم أنّه يمكن التوفيق بين كلّ الأشياء وأنّنا متّحدون.

فقالت داغني في نفسها: هل سيرغبون بعدَ رؤية جالت في رؤية أيّ شخص آخر؟ وبمجرّد أن يعرفوا أنّه ممكنٌ، وأنّ هذا ما يمكن أن يكون عليه الإنسان، فما الذي يمكن أن يرغبوا فيه غير ذلك؟ هل يشعرون الآن بأيّ رغبة أخرى غير تحقيق ما حقّقه جالت أم إنّهم سيثقون مجدّدًا في آل ماوتش وآل موريسون وآل طومسون الذين لم يحقّقوا أيّ شيء؟ فهل سيعتبرون أنّ آل ماوتش هم من يمثّلون الإنسان وأنّ جالت يمثّل المستحيل؟

وكانت الكاميرا تتجوّل في فضاء القاعة الضخمة، وتنقل إلى الشاشة والبلاد وجوهَ

الضيوف البارزين، ووجوهَ القادة المحترمين. وكانت الكاميرا، من حين إلى آخر، تركّز على وجه جون جالت. لقد بدا كما لو أنّه يتطلّع بعينَين حكيمتَين ويتخيّل الناس خارج تلك القاعة، والناس الذين يشاهدونه في جميع أنحاء البلاد، فلا يمكن للمرء أن يجزم بما إذا كان جالت يستمع، لأنّه لم يبدِ أيّ ردّ فعل غير الهدوء ورباطة الجأش.

ثمّ قال زعيم الهيئة التشريعيّة:

- إنّني فخور هذه الليلة، لأنّني أجلس مع أعظم منظّم اقتصاديّ اكتشفه العالم على الإطلاق، وأكثر مدير موهوب، وأذكى مخطّط. إنّه جون جالت، الرجل الذي سينقذنا.. أنا هنا لأشكره باسم الشعب.

وكانت داغني تعتقد أنّ هذا المشهد ينطوي على صدقٍ مزيّف. أمّا الجزء الأكثر احتيالًا في ذلك التزييف فيتمثّل في أنّهم يعنون ذلك. كانوا يقدّمون لجالت وجهة نظرهم إلى الوجود، ويحاولون إغراءَه بقيمهم، أي بالموافقة بلا معايير، والإشادة بلا مضمون، والشرف بلا أسباب، والإعجاب بلا أسباب، والحبّ بلا أخلاق.

وكان ويسلي ماوتش يقول في المايكروفون:

- لقد وضعنا الخلافات جانبًا من أجل أن نعمل تحت قيادة جون جالت.

كانت داغني تتساءل في أعماقها: لماذا يستمعون؟ ألا يرون علامات الموت في وجوههم وعلامات الحياة في وجهه؟ ما هي الحالة التي يرغبون في اختيارها؟ وأيّ حالة يبحثون عنها من أجل البشريّة؟ ثمّ نظرت إلى الوجوه الحاضرة في قاعة الرقص. كانت مغيّبَة، ولم تظهر شيئًا سوى ثقل الخمول المتهالك وترقّب الخوف المزمن. كانوا ينظرون إلى جالت وماوتش، وكأنّهم غير قادرين على إدراك الفرق الكبير بينهما أو الشعور بالقلق لوجود فرقٍ مهولٍ بينهما. كانت نظراتهم الفارغة تقول: من أنا لأعلم؟ فارتعدت وقد تذكّرت جملته: «إنّ الإنسان الذي يقول: مَن أنا لأعلم؟ هو في الحقيقة يقول: من أنا لأعيش؟». ثمّ قالت في نفسها: هل كانوا يهتمّون بالعيش؟ يبدو أنّهم لا يهتمّون حتّى بالجهد المبذول لإثارة هذا السؤال... لقد رأت بعض الوجوه التي بدت

مهتمّة، فكانوا ينظرون إلى جالت باعتراف يائسٍ، وإعجاب مأسويٍّ جدًّا. هؤلاء كانوا البشر الذين اكتشفوا حقيقته، والذين عاشوا في شوقٍ محبط إلى عالمه، ولكن إذا رأوه غدًا يُقتَل أمامهم، فإنّهم لن يجرؤوا على التدخّل، بل سيقولون: «من أنا لأتدخّل؟».

مكتبة
t.me/soramnqraa

ثمّ قال ماوتش:

- إنّ وحدة العمل والهدف ستقودنا إلى عالم أكثر سعادة..

وانحنى السيّد طومسون نحو جالت وهمس له بابتسامة ودّية:

- عليك أن تقول بضع كلمات للشعب. لا، لا تقدّم خطابًا طويلًا، فقط جملة أو اثنتين، لا أكثر. فقط قُل: مرحبا يا رفاق أو أيّ شيء من هذا القبيل، فقط لكي يتعرّف الناس على صوتك.

لكنّ جالت لم يجب السيّد طومسون.

وكان ويسلي ماوتش يقول:

- إنّ خطة جون جالت ستضع حدًّا لجميع النزاعات. وستحمي ممتلكات الأغنياء وتعطي حصّة أكبر للفقراء. وهذا الأمر سيخفّف أعباءكم، سيمكّنكم من مزايا حكوميّة كثيرة. هذه الخطّة تقوم على تخفيض الأسعار والرفع من الأجور، وستعطي الفردَ مزيدًا من الحرّيّة، وستعزّز أواصر الالتزامات الجماعيّة. إنّها ستجمع بين كفاءة المشاريع الحرّة وسخاء الاقتصاد.

ولاحظت داغني أنّ بعض الوجوه كانت تنظر إلى جالت بكراهية. ولاحظت أيضًا أنّ جيم كان واحدًا من هؤلاء. فعندما كانت الكاميرا تنقل صورة جالت، تصلّبت شفاههم وضاقت وازدادت ملامحهم حدّةً. لقد شعرت داغني باليقين المفاجئ من أنّهم يخشون صلابةَ وجهه، والوضوح الثابت في ملامحه. وظنّت أنّهم يكرهونه لأنّه لا يتصنّع. إنّهم يكرهونه لقدرته على العيش. فهل يريدون العيش؟ ثمّ تذكرت جملة

جالت: «إنّ الرغبة في ألّا تكون أيّ شيءٍ، هي الرغبة في ألّا تكون».

كان السيّد طومسون الآن يصرخ في المايكروفون بحماس كبير:

- وأقول لكم: اصفعوا وجوهَ كلّ هؤلاء المشكّكين الذين ينشرون الفرقة والخوف بين الناس. لقد أخبروكم أنّ جون جالت لن ينضمّ إلينا أبدًا، أليس كذلك؟ حسنًا، ها هو شخصيًّا، باختياره الحرّ، على هذه الطاولة وعلى رأس دولتنا. ها هو مستعدّ وجاهز، لخدمة قضايا الشعب. لا مبرّر لأن تشكّوا مجدّدًا، أو أن تفكّروا في الهروب أو الاستسلام، فالمستقبل أمامكم، ويا له من مستقبل مشرق! نعدكم بثلاث وجباتٍ في اليوم، وسيّارة في كلّ مرآب، مع تزويد الجميع بالطاقة الكهربائيّة مجّانًا. فكلّ ما عليكم الآن هو أن تتحلّوا بالصبر قليلًا. الصبر والإيمان والوحدة، هذه هي وصفة التقدّم ويجب أن نكون متّحدين كعائلة كبيرة. لقد وجدنا قائدًا سينفخ الروحَ من جديدٍ في اقتصادنا. إنّ حبّه للبشريّة هو الذي جعله يأتي إلى هنا ليخدمكم ويحميكم ويعتني بكم. لقد سمع نداءاتكم واستجاب للنداء الإنسانيّ. كلّ إنسان هو حارس لأخيه. ولا إنسان يمثّل جزيرةً في حدّ ذاته. والآن ستسمعون صوتَه، والآن ستسمعون رسالته الخاصّة... أيّها السيّدات والسادة.. جون جالت هنا من أجل البشريّة جمعاء.

وانتقلت الكاميرا إلى جالت الذي بقي ثابتًا لحظةً، ثمّ قام بحركة سريعة وخبيرة إلى درجة أنّ يدَ سكرتيره لم تكن قادرةً على الانسجام معها، ثمّ مال وخرج تاركًا فوّهة المسدّس مكشوفةً لحظاتٍ على مرأى من العالم، ثمّ وقف باستقامةٍ في مواجهة الكاميرات، ونظر إلى كلّ مشاهديه غير المرئيّين، وقال:

- ابتعدوا عن طريقي.

الفصل التاسع

المولّد

- ابتعدوا عن طريقي.

لقد سمعها الدكتور روبرت ستادلر على أمواج الراديو وهو على متن سيارته. لم يعلم ما إذا كان الصوت القادم جزءًا من لهاث أو من صراخ أو من ضحك، أو كان ينبع من أغوار ذاته أو من الراديو، لكنّه سمع صوت نقرة قطعت كلّ ذلك على حدّ سواء. لقد تعطّل الراديو، ولا جديد يطلع من فندق واين فوكلاند.

انتقل بيده من زرّ إلى آخر، لكن لا شيء صدر منه؛ لا تفسيرات، ولا توسّلات، ولا موسيقى لتدارك الموقف. لقد كانت كلّ المحطّات خارج البثّ. ثمّ ارتجف، وأمسك المقود، ومال إلى الأمام مثل فارس في نهاية سباقٍ، وضغط بقدمه على دوّاسة السرعة. وارتدّ امتداد الطريق السريع الصغير بهزّة من أضوائه الأماميّة. لم يكن هناك شيء وراء الشريط المضاء سوى فراغ براري ولاية آيوا.

ولم يكن يعرف السبب الذي جعله يستمع إلى البثّ، ولا عرف سبب ارتجافه الآن. ثمّ ضحك فجأةً، وبدا كأنّ ما انتابه هو تذمّر حاقد إمّا تجاه الراديو أو تجاه تلك المدينة، أو تجاه السماء.

كان يراقب الدعامات النادرة التي تحمل أرقام الطرق السريعة. ولم يكن في حاجة إلى استعمال خارطة، فالخارطة طُبِعَت على مدى أربعة أيّام في ذهنه، مثل شبكة من

خطوط مرسومة فوق حمض. وقال في نفسه إنّهم لن يستطيعوا انتزاع الخارطة من ذهنه، ولن يقدروا على منعه. وشعر كما لو أنّه مُطاردٌ، ولكن لا شيء خلفَه ما عدا الأضواء الحمراء في الجزء الخلفيّ من السيّارة وهو يهرب من في ظلام سهول ولاية آيوا.

كان الدافع الذي يوجّه يدَيه وقدميه يرجع إلى أربعة أيّام خَلَتْ، عندما رأى وجه الرجل الذي وجدَه عند عتبة النافذة والوجوه التي واجهها عندما هرب من تلك الغرفة. لقد سبق أن صاح في وجوههم جميعًا بأنّه لا يستطيع التعامل مع جالت ولا هم أيضًا يقدرون على فعل ذلك وأنّ جالت سيدمِّرهم جميعًا ما لم يدمّروه أوّلًا.

- لا تتهرّب يا بروفيسور

هكذا خاطبه السيّد طومسون، قبل أن يضيف:

- لقد عبّرت طويلًا عن كرهك لجالت، لكنّك لم تقدّم لنا يد العون على الإطلاق. لا أعرف في أيّ جانب تصطفّ. إذا لم يستسلم لنا بهدوء، فقد نضطرّ إلى استعمال القوّة، وستكون أنت في أوّل القائمة.

قال الدكتور روبرت ستادلر وهو يرتجف من الرعب:

- أنا؟ لكنّه يلعنني أكثر من أيّ شخص آخر على وجه الأرض.

فأجابه السيّد طومسون:

- كيف لي أن أعرف؟ لقد سمعت أنّك كنت معلّمه وأذكّرك بأنّك الشخص الوحيد الذي طلب مقابلته.

وتملّك الرعبُ الدكتور روبرت ستادلر. كان يشعر وكأنّه على وشك أن يُسْحَق بين جدارين. إذا رفض جالت الاستسلام فإنّه لن يحظى بأيّ فرصة للنجاة، أمّا إذا انضمّ جالت إلى هؤلاء الرجال فإنّ فرصته ستكون شبه منعدمة. ثمّ خطر بباله شكل مبنى بعيد؛ صورة هيكل ذي قبّة تشبه الفطر في منتصف سهل ولاية آيوا.

وبدأت جميع الصور تندمج في عقله بعد ذلك. واعتقد أنّ ما تخيّله كان المشروع إكس. لكنّه لم يعرف الشيء الذي عرّفه معنى العصر والعالم الذي ينتمي إليه ذلك الهيكل وما إذا كان يرى ذلك المبنى أو القلعة الإقطاعيّة التي تتحكّم في الريف.. ثمّ قال في نفسه: أنا روبرت ستادلر، وهذه ملكيّتي الخاصّة، لقد كسبتها بفضل اكتشافاتي، وهم قالوا إنّني اخترعتها... سأريهم، هكذا خطر له من دون أن يعلم ما إذا كان يعني الرجل الذي رآه عند عتبة النافذة أو يعني الآخرين أو كلّ البشريّة... وأصبحت أفكاره مثل الرقائق العائمة في سائل بلا وصلات. وقال في نفسه مجدّدًا: يجب أن أستولي على السلطة.. الاستيلاء على السلطة والحكم.. لا توجد طريقة أخرى للعيش على هذه الأرض...

بهذه الكلمات عبَّر عن الخطّة التي كانت تدور في ذهنه، أمّا باقي الأفكار فقد شعر بأنّها واضحة، وأنّه سيسيطر على المشروع إكس وسيحكم جزءًا من البلاد على أنه مجال إقطاعيّ خاصّ به. وما هي الوسائل التي ستحقّق ذلك؟ فأجاب بأنّ مشاعره ستكون، بطريقة أو بأخرى، هي وسائله لإنجاز ذلك. وما هو الدافع؟ فكرّر عقله بإصرار أنّ دافعه هو الإرهاب الذي يتهدّده من عصابة السيّد طومسون وأنّه لم يعد آمنا بينهم، وأنّ خطّته كانت ضرورةً عمليّةً. والحقيقة هي أنّ الرعب كان يستبدّ به.

كان يقود سيّارته في الطرق السريعة المهجورة في جميع أنحاء البلاد. وكانت البلاد تنهار في حالة من الفوضى، بينما يطوّر هو هوَسَه الماكر للحصول على المشتريات غير القانونيّة من الغاز، وينتزع ساعات عشوائيّة من النوم المضطرب، في الفنادق المظلمة، تحت أسماء مستعارة.. أنا روبرت ستادلر، هكذا كان يقول في نفسه وهكذا كرّرها كصيغة من القوّة المطلقة.. للاستيلاء على السلطة، وهكذا اعتقد وهو يسرع أثناء مواجهة إشارات المرور العقيمة في نصف المدن المهجورة، كان يسرع فوق الفولاذ المرتعش لجسر تاجارت عبر نهر المسيسيبي.. سوف أريهم.. دعهم يتابعوا، لن يوقفوني هذه المرّة... لقد اعتقد ذلك، على الرغم من أنّه لم يكن ملاحقًا من طرف أيّ شخص. لا أحد يطارده الآن.

ثمّ نظر إلى الراديو الصامت وضحك. إنّها الأنا العمليّة التي حسب أنّها لا تملك أيّ خيار.. ولا أيّ سبيل أخرى.. سأظهر لكلّ رجال العصابات الوقحين الذين ينسون أنّني روبرت ستادلر.. سينهارون جميعًا، وأنجو أنا.. سأفوز..

كانت الكلمات مثل قطع من الأرض الصلبة في عقله، وفي وسط مستنقع صامت بشدّة وكانت الصلات مغمورة في القاع. ولو كانت تلك القطع متّصلة فيما بينها، لكان لكلماته أن تشكّل الجملة التالية: سأريهم أنّه لا توجد طريقة أخرى للعيش على الأرض..

كانت الأضواء المتناثرة هي الثكنات التي أقيمت في موقع المشروع إكس، المعروف الآن باسم مدينة هارموني. ولاحظ، وهو يقترب، أنّ شيئًا خارجًا عن المألوف يحدث في المشروع إكس. فالسياج الشائك محطّم، ولم يقابله أيّ حارس عند البوّابة. ولكن كان هناك نوع من النشاط الشاذّ يتمايل في رقع الظلام وفي وهج بعض الأضواء الثابتة. كانت هناك شاحنات مدرّعة وشخصيّات تركض وصيحات تطلق الأوامر وبريق البنادق. ولم يوقف أحدٌ سيّارته. وفي زاوية كوخٍ، رأى جثّة جنديّ ممدّدة على الأرض. وكان يعتقد أنّ الجنديّ سكران، لكن سرعان ما ساوره الشكّ في أمره.

على الربوة أمامه، جثَم الهيكل ذو القبّة التي تشبه الفطر، لقد كانت هناك أضواء في شقوق النوافذ الضيّقة، وبرزت من تحت قبّته أقماع بشعة موجّهة صوب ظلام البلاد. ثمّ اعترض جنديّ طريقه، عندما ترجّل من سيارته. كان الجنديّ مسلّحًا بشكل صحيح، لكنّه من دون قبّعة، وبدا زيّه الرسميّ قذرًا جدًّا. فسأله:

- إلى أين أنت ذاهب يا صديقي؟

فردّ الدكتور ستادلر بازدراء:

- اسمح لي بالدخول.

- ما وظيفتك هنا؟

- أنا الدكتور روبرت ستادلر.

- أنا جو بلو. ما الوظيفة التي تشغلها هنا؟ هل أنت من الموظّفين الجدد أم من الموظّفين القدماء؟

- اسمح لي بالدخول أيّها الأحمق، أنا الدكتور روبرت ستادلر.

لم يكن الاسم هو ما دفع الجنديّ إلى السماح للدكتور ستادلر بالدخول، بل نبرة صوته، وقال الجنديّ:

- أنت، إذَن، من الموظّفين الجدد.

ثمّ فتح الباب، وأمر شخصًا مّا في الداخل قائلا:

- مهلًا يا ماك، اعتنِ بهذا الموّظف الجديد، فهو في مثل عمر جدّي.

وفي البهو العاري، قابله رجلٌ قد يكون ضابطًا، إلّا أنّ سترته كانت مفتوحة عند الرقبة وسيجارة معلّقة بوقاحة في زاوية فمه. فلوّح إليه الرجل بيده ليستوقفه بينما امتدّت يده الأخرى بسرعة إلى جراب مسدّسه وقال:

- من أنت؟

- أنا الدكتور روبرت ستادلر.

ويبدو أنّ هذا الاسم لم يؤثّر في الرجل، فقال:

- ومن أمرك بالقدوم إلى هنا؟

- أنا لست بحاجة إلى أمرٍ.

يبدو أنّ هذا الكلام قد أثَّر في الرجل؛ فأزال السيجارة من فمه وسأله وهو في ريبة من أمره:

- ومن أرسل في طلبك؟

فقال الدكتور ستادلر وقد نفد صبره:

- من فضلك، أريد أن أتحدّث إلى القائد.

- القائد؟ أنت متأخّر جدًّا يا أخي.

- دعني، إذَن، أتحدّث إلى رئيس المهندسين.

- ومن هو الرئيس؟ أتقصد السيّد ويلي؟ ويلي بخير، إنّه واحدٌ منّا، لكنّه الآن في مهمّة بالخارج.

في القاعة، كانت شخصيّاتٌ أخرى تستمع بدافع الفضول والجزع. فاستدعت يد الضابط أحدهم للاقتراب. كان رجلًا مدنيًّا يرتدي معطفًا رثّا. فردّ على ستادلر قائلا:

- ماذا تريد؟

فسأله الدكتور ستادلر:

- أين الطاقم العلميّ؟

فنظر الرجلان أحدهما إلى الآخر، كما لو أنّ مثل هذا السؤال لا يحظى بأيّ قيمة في هذا المكان. فسأله الرجل المدنيّ بشكل مريب:

- هل أتيت من واشنطن؟

- لا. سأجعلك تفهم أنّني قد دمّرت تلك العصابة.

فبدا الرجل مسرورًا وقال:

- أوه، أنت إذَن صديق الشعب.

قال الدكتور ستادلر مشيرًا بيده إلى كلّ الأشياء التي تحيط به:

- أودّ أن أخبركم بأنّني أفضل صديق للناس. أنا الرجل الذي وهبهم كلّ هذه الأشياء.

فردّ الرجل بإعجاب:

- حقًّا؟ هل أنت واحدٌ من أولئك الذين عقدوا صفقةً مع الرئيس؟

- أنا الرئيس هنا من الآن فصاعدًا.

فتبادل الرجلان نظرةً، ثمّ تراجعا بضع خطوات، ثمّ سأله الضابط:

- هل قلت إنّ اسمك هو ستادلر؟

- روبرت ستادلر. وإذا كنت لا تعرف ما يعني ذلك فإنّك ستكتشفه.

قال الضابط بأدب مهزوز:

- هلّا تبعتني يا سيّدي؟

ما حدث بعد ذلك لم يكن واضحًا للدكتور ستادلر، لأنّ عقله رفض الاعتراف بحقيقة الأشياء التي كان يراها. ثمّة شخصيّات كانت تتنقّل في مكاتب نصف مضاءة وغير منظّمة، وكان هناك الكثير من الأسلحة الناريّة التي يحملها الجميع، وأسئلةٌ لا معنى لها من قبل أصوات متشنّجة تمتزج فيها الوقاحة والخوف. ولم يعلم ما إذا كان أحدهم قد حاول تقديم تفسيرٍ لذلك، فما كان له أن يسمع أو يسمح بأن يكون ذلك صحيحًا. وظلّ يقول في أغوار نفسه بنبرة الملك الإقطاعيّ:

- أنا الرئيس هنا من الآن فصاعدًا.. أنا من يعطي الأوامر.. جئت إلى هنا لأتولّى المسؤوليّة.. أنا من يملك هذا المكان.. أنا الدكتور روبرت ستادلر، وإذا كنتم لا تعرفون قيمة هذا الاسم في هذا المكان، فليسَ لكم أيّ عمل تؤدّونه هنا. هل سبق أن حضرتم درسًا في الفيزياء بالمدرسة الثانوية؟ ما الذي تفعلونه هنا؟ من أنتم؟

استغرق الأمر منه وقتًا طويلًا لفهم الأمور. وأدرك أنّ هؤلاء الرجال، الذين أطلقوا على أنفسهم اسم أصدقاء الشعب، قد استولوا على المشروع إكس قبل ساعات قليلة، فضحك في وجوههم، باحتقار مرير. ثمّ أضاف:

- أيّها البائسون، أنتم لا تعلمون ما تفعلون، هل تعتقدون أنّكم تستطيعون التعامل مع أداة عالية الدقّة في العلم؟ من هو قائدكم؟ أريد أن أقابل قائدكم.

كانت نبرتُه المتعجرفة، واحتقارُه لهم وذعرُهم هو ما جعلهم يتردّدون ويتساءلون عمّا إذا كان عضوًا من أعضاء قيادتهم السرّية، وكانوا على استعداد أيضًا لتحدّي أيّ سلطة أو طاعتها. وبعد أن تمّ تحويله من قائد عصبيّ متوّتر إلى آخر، وجد نفسه أخيرًا يُقتَاد إلى أسفل عبر سلالم حديديّة وممّرات طويلة حتّى وصل إلى «الرئيس» شخصيًّا.

لقد لجأ الرئيس إلى غرفة التحكّم تحت الأرض بين اللوالب المعقّدة للآلة العلميّة الدقيقة التي تنتج الأمواج الصوتيّة قبالة جدارٍ يحتوي على لوحة تحكّم متألّقة تتكوّن من العتلات، والعدّادات، وأجهزة القياس، تلك الآلة المعروفة بالإكسيليفون. ثمّ واجه روبرت ستادلر الحاكم الجديد لمشروع إكس. لقد كان كوفي ميغز.

كان يرتدي رداءً ضيّقا وشبه عسكريّ وسروالًا جلديًّا، وقد انتفخ لحم عنقه على حافّة طوقه، وغمر العرق تجاعيده السوداء. وكان يسير بشكل غير مستقرّ، وعلى نحو غير ثابت أمام الإكسيليفون، ويملي الأوامر على الرجال الذين استمرّوا في الاندفاع داخل الغرفة وخارجها، ثمّ قال:

- أرسل رجالنا إلى كلّ نائب في أيّ مقاطعة تقع تحت سيطرتنا، وأخبرهم بأنّ أصدقاء الشعب قد فازوا. أخبرهم بأنّهم لن يتلقّوا الأوامر من واشنطن بعد الآن، وأنّ العاصمة الجديدة هي مدينة هارموني وأنّها ستُعرَف من الآن فصاعدًا باسم ميغزفيل. أخبرهم بأنّني أتوقّع خمسمائة ألف دولار لكلّ خمسة آلاف نسمة من السكان بحلول صباح الغد وإلّا..

واستغرق الأمر بعض الوقت قبل أن يلتفت كوفي ميغز إلى الدكتور ستادلر فقال:

- حسنًا، ما خطبك؟

- أنا الدكتور روبرت ستادلر.

- أوه، نعم. أنت الرجل الكبير في الفضاء الخارجيّ، أليس كذلك؟ أنت الشخص الذي يفهم في الذرّات، ماذا تفعل هنا؟

- أنا من يجب عليه أن يطرح هذا السؤال.

- اسمع يا بروفيسور، أنا لست في مزاج جيّدٍ حتّى أمزح معك.

- لقد جئت إلى هنا من أجل السيطرة..

- السيطرة؟ على ماذا؟

- على هذه المعدّات. وعلى كلّ المكان الريفيّ الذي يقع في محيطها وضمن نطاق عمليّاتها.

فأخذ ميغز يحدّق فيه برهةً من الزمن، ثمّ سأله بهدوء:

- وكيف وصلت إلى هنا؟

- بالسيّارة.

- أعني من رافقك إلى هنا؟

- لا أحد.

- وما الأسلحة التي أحضرتها؟

- لا سلاح معي سوى اسمي، فهو يكفيني.

- هل جئت إلى هنا وحدك مع اسمك وسيّارتك؟

- نعم.

فانفجر كوفي ميغز ضاحكًا في وجه ستادلر. فسأله الدكتور ستادلر:

- هل تعتقد أنّك تستطيع أن تشغّل تركيبًا من هذا النوع؟

- اخرج من هنا، اغرب عن وجهي قبل أن أطلق النار عليك، فلا فائدة من المثقّفين

هنا.

قال الدكتور ستادلر وهو يشير إلى الإكسيلوفون:

- ماذا تعرف عن هذا الجهاز؟

- لا يهمّني هذا الأمر، فالتقنيّون يمكن شراؤهم بعشرة سنتات هذه الأيّام. اغرب عن وجهي، هذه ليست واشنطن. لقد فقدت الأمل في أولئك الحالمين في واشنطن الذين لن يصلوا إلى أيّ نتيجة مع جون جالت، كلّ ما نحتاج إليه الآن هو العمل المباشر. اغرب عن وجهي يا دكتور، لقد ولّى زمانك.

كان يترنّح بشكل غير مستقرّ ذهابًا وإيابًا، يمسك برافعة من الإكسيلوفون من حين إلى آخر. فأدرك الدكتور ستادلر أنّ ميغز كان في حالة سكر، فقال له:

- لا تلمس تلك العتلات أيّها الأحمق.

فجذب ميغز يدَه بشكل لاإراديّ، ثمّ لوّح بها على اللوحة متحدّيًا، وقال:

- سألمس أيّ شيء كما يحلو لي. لا تأمرني.

- ابتعد عن تلك اللوحة. اخرج من هنا. إنّ هذا الجهاز ملك لي، هل تفهم؟

فضحك ميغز ملء شدقيه فترةً وجيزةً وقال:

- ملكيّة؟

- أنا الذي اخترعته وصنعته، أنا الذي جعل ذلك ممكنًا.

- حقًّا؟ شكرًا جزيلًا يا دكتور. شكرًا جزيلًا، لكنّنا لا نحتاج إليك بعد الآن، لأنّنا نملك ما يكفي من التقنيّين.

- هل تعرف حجم المعاناة التي كابدتها من أجل أن أجعل ذلك ممكنًا؟

فهزّ ميغز كتفيه وقال:

- ربّما لا أعرف.

- فكيف، إذَن، تجرؤ على التفكير في امتلاكه؟ كيف تجرؤ على المجيء إلى هنا؟

فربّت ميغز على جراب مسدّسه، وقال:

- هذا هو ما سمح لي بذلك.

فصاح الدكتور ستادلر وقال:

- اسمع أيّها المغفّل، هل تعرف بماذا تلعب؟

- لا تتحدّث معي بهذه الطريقة أيّها العجوز الأحمق، من تكون لتتحدّث معي بهذا الأسلوب؟ يمكنني أن أحطّم رقبتك بيديّ العاريتين، ألا تعرف من أكون؟

- أنت سفّاح، لكنّ الخوف يستبدّ بك.

- أوه، أنا؟ أنا الرئيس، أنا الرئيس ولن يثنيني عن القيادة عجوز مثلك. اخرج من هنا.

ووقفا يحدّقان أحدهما في الآخر لحظةً بجانب لوحة الإكسيلوفون، وكلاهما محاصران بالرعب. وأصل الرعب الذي لم يعترف به الدكتور ستادلر هو كفاحه المحموم لعدم الاعتراف بأنّه كان ينظر إلى منتجه النهائيّ، وأنّ ذلك بمثابة ابنه الروحيّ. أمّا أصل رعب كوفي ميغز فجذوره أوسع، وقد شملت الوجود كلّه؛ لقد عاش في رعبٍ مزمن طيلة حياته، ولكنّه يكافح الآن من أجل عدم الاعتراف بما كان يخشاه، ففي لحظة انتصاره، عندما توقّع أن يكون آمنًا، حضر ستادلر، الذي هو من السلالة الفكريّة الغريبة والغامضة ليتحدّى قوّته.

فزمجر كوفي ميغز وقال:

- اخرج من هنا، سأتّصل برجالي. سأطلق عليك النار.

فزمجر الدكتور ستادلر قائلًا:

- اخرج من هنا أيّها الأمّيُّ، اخرج أيّها المعتوه المتعجرف، هل تظنّني أسمح لك بأن تستمتع بمجهودي؟ هل تعتقد أنّني سأبيعك...

توقّف عن الكلام لحظةً، ثمّ أضاف:

- توقّف عن لمس تلك العتلات.

- لا تأمرني. أنا لست بحاجة إلى أن تملي عليّ ما يجب أن أفعله. سأفعل ما يحلو لي.. أنا لم أقاتل إلّا من أجل أن أفعل ما يحلو لي؟

ثمّ ضحك ومدّ يده إلى الرافعة.

- هوّن عليك يا كوفي.

هكذا صاح بعض الأشخاص في الجزء الخلفيّ من الغرفة، قبل أن يندفعوا باتّجاهها. فقال كوفي ميغز:

- تراجعوا إلى الخلف، تراجعوا جميعًا، أنا لست خائفًا، سأريكم من هو الرئيس.

فقفز الدكتور ستادلر لإيقافه، لكنّ ميغز دفعه جانبًا بذراع واحدة، وارتفع ضحكه عند رؤية ستادلر وهو يسقط على الأرض، وبيده الأخرى نزع رافعة من الإكسيلوفون. فحدث صوت تحطّم صاخب يشبه صرير تحطّم معدن متصدّع، لكنّ الصوت سُمع فقط داخل الهيكل ولم يُسمَع أيّ صوت في الخارج. ففي الخارج، ارتفع الهيكل في الهواء فجأةً وبصمت، وتصدّع إلى قطع كبيرة محدثًا بعض الصفير قبل أن يتحوّل إلى كومة من الأنقاض. وفي داخل دائرة نصفُ قطرها مائة ميل، تضمّ أجزاء من أربع ولايات، سقطت أعمدة التلغراف مثل أعواد الثقاب، وانهارت بيوت المزارع على شكل رقائق، وانهارت مباني المدينة وتحوّلت إلى ركام، ولم يكن هناك وقت لسماع جثث الضحايا. وعلى محيط دائرةٍ تقع بمنتصف الطريق عبر نهر المسيسيبي، طارت قاطرة المحرّك ومعها أوّل ستّ عربات ركّاب مثل وابل من المعدن وسقطت في مياه النهر، بالإضافة إلى انقسام القناطر الغربيّة من جسر تاجارت إلى نصفين.

وفي موقع ما كان يسمّى سابقا بالمشروع إكس، لم يبق شيء على قيد الحياة بين الأطلال ما عدا تجمّع من اللحم الممزّق والآلام الجسديّة والصراخ الذي دام بضع دقائق.

***

كانت داغني تعتقد أنّ كشك الهاتف هو هدفها الوحيد والمطلق، من دون أن تنشغل بأيّ هدف آخر في الشوارع التي تحيط بها. ولم يشعرها ذلك بالانفصال والغربة عن المدينة، بل جعلها تشعر، لأوّل مرّة، بأنّها تملك المدينة وأنّها تحبّها، وأنّها لم تحبّها من قبل كما فعلت في تلك اللحظة، مع شعور خاصّ مهيبٍ وواثق بامتلاكها. وكان الليل ساكنًا وصافيًا، فنظرت إلى السماء، لأنّ شعورها كان أكثر من الفرح، بل إنّه حمل إحساسًا بالفرح الذي ينتظرها في المستقبل.

- ابتعدوا عن طريقي.

هكذا قالت داغني في نفسها من دون أيّ استياء، وهي تنظر إلى المارّة الذين يعيقون تقدّمها السريع. قبل أقلّ من ساعة سمعته يقول تلك الجملة، وصوته ما زال يرنّ في فضاء الشوارع.

لقد ضحكت بسرور في قاعة الرقص بفندق واين فولكلاند، عندما سمعته يقولها، وضحكت وكتمتها حين ضغطت بيدها على فمها، فكانت الضحكة في عينيها فقط، عندما نظر إليها مباشرة وعرفت أنّه سمعها. وقد نظر أحدهما إلى الآخر مدّةً قصيرة جدًّا، فوق الرؤوس التي كانت تلهث، وفوق صراخ الحشد، وتحطّم المايكروفونات، على الرغم من أنّ جميع المحطّات قطعت البثّ على الفور، وفوق رشقات الزجاج المكسور على الطاولات المتساقطة.

ثمّ سمعت السيّد طومسون يصيح، ويلوّح بيده نحو جالت قائلًا:

- أعيدوه إلى غرفته، أفدوه بحياتكم.

كان الحشد قد افترق فقاده ثلاثة رجال مثل القطيع. وفي لحظة بدا أنّ السيّد طومسون ينهار، فأسقط جبهته على ذراعه، لكنّه استجمع قواه، وقفز على قدميه، ولوّح بشكل مبهم إلى أتباعه ليتبعوه إلى مخرج جانبيّ خاصّ. لم يخاطب أحدٌ الضيوفَ أو يأمرهم بالهروب. كان البعض منهم يركض بشكل أعمى، أمّا البعض الآخر فقد ظلّ جالسًا في مكانه من دون أن يجرؤ على التحرّك. وكانت قاعة الرقص مثل سفينة بلا قبطان. أمّا داغني فمرّت بين الحشود وتتبّعت الزمرة ولم يحاول أحدٌ إيقافَها. ثمّ وجدتهم مجتمعين في مكتب خاصّ. كان السيّد طومسون مستلقيًا على الكرسيّ، يمسك رأسه بكلتا يديه، أمّا ويسلي ماوتش فكان يئنّ، وأمّا يوجين لوسون فأخذ ينتحب مثل طفل غاضب، أمّا جيم فكان يراقب الآخرين بنوع من الفضول.

قال الدكتور فيريس وهو يصرخ:

- لقد أخبرتك مسبّقًا بما سيقع، أليس كذلك؟ هذه هي الحالة التي يقود إليها «الإقناع السلميّ».

ظلّت داغني واقفةً بجانب الباب، ويبدو أنّهم لاحظوا حضورها، لكنّهم لم يبالوا بهذا الأمر.

وصاح تشيك موريسون قائلًا:

- سأقدّم استقالتي، لقد انتهت مهمّتي، لا أعرف ماذا سأقول للبلاد، ولا أستطيع حتّى التفكير في ذلك، بل لن أحاول أصلًا، إذ لا فائدة ترجى من ذلك، لا تحمّلوني ما لا طاقة لي به. أقدّم لكم الآن استقالتي.

ثمّ لوّح بيديه مودّعًا، ثم فرّ خارج الغرفة.

وقال تينكي هولواي:

- إنّ موريسون يملك مخبأ في ولاية تينيسي.

وقال ماوتش:

- لن يصل إلى المخبإ أصلًا، ففي جميع الطرقات تنتشر عصاباتٌ، ثمّ إنّ حركة النقل متوقّفة..

كانت تدرك الفكرة التي تدور بخلدهم. إنّها فكرة الهروب، لكنّهم لا يدركون أنّهم محاصرون جميعًا.

لم تلاحظ داغني أيّ رعب في وجوههم. كانت تعابير وجوههم تتراوح بين اللّامبالاة والمظهر المريح للغشّاشين الذين اعتقدوا أنّ اللعبة لا يمكن أن تنتهي بأيّ طريقة أخرى غير ما حصل. فلم يبذلوا أيّ جهد للطعن فيها أو الندم عليها.

وسألهم الدكتور فيريس وقد نفد صبره:

- حسنًا.. ماذا ستفعلون به الآن؟ هل ستتحدّثون إليه مجدّدًا؟ هل ستفتحون معه قنوات الحوار مرّة أخرى؟

ردّ عليه ماوتش:

- يجب عليه.. أن ينقذنا.. يجب عليه أن يتولّى زمام الأمور.. وأن ينقذ النظام.

فردّ عليه فيريس:

- لماذا لا نبعث إليه رسالة حبّ في هذا الشأن؟

فقال ماوتش:

- يجب علينا.. أن نجبره على الحكم وعلى تولّي زمام الأمور.

فقال فيريس فجأة:

- هل أدركتم الآن قيمةَ معهد الدولة للعلوم؟

فلم يجبه ماوتش، لكنّ داغني لاحظت أنّهم جميعا كانوا يعرفون ما يعنيه. ثمّ أضاف بهدوء:

- لقد اعترضتم على مشروع بحثي الخاصّ ووصفتموه بأنّه مشروع غير عمليّ. لكن

ماذا قلت لكم؟

لم يجبه ماوتش الذي كان يفرقع مفاصل أصابعه. ثمّ تحدّث جيمس تاجارت بحماسٍ غير متوقّع:

- لا مجال الآن للمشاعر المقزّزة والحساسيّة المفرطة. ليس علينا أن نتصرّف مثل المخنّثين بشأن هذا الموضوع.

وقال ماوتش:

- يبدو لي.. أنّ الغاية تبرّر الوسيلة..

فردّ فيريس قائلًا:

- لقد فات أوان الورع والمبادئ، وحدَه العمل المباشر يستطيع أن ينقذنا الآن.

قال تينكي هولواي:

- لن ننقذ أيّ شيء، فهو يرفض الاستسلام.

فردّ فيريس وهو يضحك:

- أهذا ما تؤمن به؟ أنت لم تشاهد نموذجنا التجريبيّ أثناء العمل. ففي الشهر الماضي، حصلنا على ثلاثة اعترافات في ثلاث قضايا قتل ظلّت عالقة ردحًا طويلًا من الزمن.

قال السيّد طومسون بنبرة يشوبها الأنين:

- إذا مات، سنهلك جميعًا.

فردّ عليه فيريس قائلا:

- لا تقلق، هو لن يموت، لأنّ جهاز فيريس للإقناع يأخذ بعين الاعتبار هذا الاحتمال.

فلم يجبه السيّد طومسون. فقال ماوتش:

- يبدو لي.. أنّه ليس لدينا خيار آخر..

وظلّوا صامتين، أمّا السيّد طومسون فكان يحاول تجنّب نظراتهم. ثمّ صاح فجأة:

- أوه، فلتفعل أيّ شيء تريده. افعل ما يحلو لك.

فالتفت الدكتور فيريس إلى لاوسون وقال له:

- جين اذهب إلى مكتب التحكّم في الراديو، واطلب من جميع المحطّات أن تستعدّ، لأنّني سأقدم السيّد جالت على الهواء مباشرة خلال ثلاث ساعات.

فقفز لاوسون من الفرح، ثمّ خرج مسرعًا من الغرفة.

وتفطّنت داغني إلى ما يخطّطون له. غير أنّهم لم يكونوا مؤمنين بأنّ مخططهم سينجح، وأنّ جالت سيستسلم، فهم لا يريدون أن يستسلم. إنّهم لا يعتقدون أنّ أيّ شيء يمكن أن ينقذهم الآن. لقد تحرّكوا فقط بسبب الذعر. قاتلوا ضدّ الواقع طوال حياتهم، والآن وصلوا إلى لحظةٍ شعروا فيها أخيرًا أنّهم في وطنهم، وأنّه ليس عليهم أن يعرفوا لماذا شعروا بذلك، هم الذين اختاروا ألّا يعرفوا أبدًا ما يشعرون به. إنّهم ما كادوا يعيشون معنى الاعتراف، لأنّ هذا هو ما سعوا إليه، وهذا هو نوع الواقع الذي حلموا به. إنّهم لا يريدون العيش، بل يريدون فقط أن يموت جالت.

أمّا الرعب الذي شعرت به داغني فكان مجرّد طعنة قصيرة. لقد أدركت أنّ الأشياء التي حسبتها بشريّةً لست في الحقيقة كذلك. وتركت بإحساس من الوضوح والإجابة النهائيّة والحاجة إلى العمل. كان جون جالت في خطرٍ، ولا وقتَ ولا مجال في وعيها لتضييع العاطفة على أفعال من هم دون البشر.

كان ويسلي ماوتش يهمس:

- يجب أن نتأكّد أن لا أحد سيعلم بذلك مطلقًا...

فردّ عليه فيريس:

- لن يعلم بذلك أيّ شخص. إنّها وحدة سرّية منفصلة على أرض المعهد...محصنّة وعازلة للصوت وبعيدة بأمان عن بقيّة المباني.. ولم يدخلها سوى عدد قليل جدًّا من موظّفينا..

- لو كنّا سنطير..

هكذا ردّ ماوتش، ثمّ توقّف فجأة، كما لو أنّه تلقّى تحذيرًا من وجه فيريس.

ولاحظت داغني فيريس وهو ينظر إليها، كما لو أنّه تذكّر فجأةً حضورها. فالتقطت نظرتَه، وجعلته يرى اللّامبالاة غير المضطربة، وتظاهرت بأنّها لا تهتمّ أو تفهم ما يحدث. ثمّ، استوعبت الأمر وأدركت أنّ ما يريدونه منها هو مجرّد التقاط إشارة إلى أنّهم يُجرون مناقشة خاصّة، فاستدارت ببطء، وغادرت الغرفة. كانت تعلم أنّهم تجاوزوا الآن مرحلة الانشغال بها.

وبتلك اللّامبالاة غير المقصودة، مشت عبر القاعات وعبر مخرج الفندق. لكن بعد تجاوز مبنى سكنيّ بعيدٍ، وعند أوّل منعطف لها في الزاوية هزّت رأسها وأخذت طيّاتُ ثوب السهرة ترتطم مثل شراعٍ بين ساقيها بسبب عنف مفاجئ في سرعة خطواتها.

والآن، وهي تندفع عبر الظلام، وتفكّر فقط في العثور على كشك مزوّد بهاتف، شعرت بإحساس جديدٍ يتصاعد بشكل لا يقاوم بداخلها، أمام التوتّر الفوريّ للخطر والقلق، لقد كان الشعور بالحرّيّة من العالم الذي لا يجب عرقلته.

ثمّ لاحظت وجود شعاع من الضوء على الرصيف يتسلّل من نافذة حانةٍ. وعندما دخلت وعبرت تلك القاعة، لم يُلقِ عليها أحدٌ أيَّ نظرة، ولا أعاروها أيّ اهتمام، فالزبائن القلائل مازالوا ينتظرون ويتهامسون بتوتّر أمام فراغ أزرق متلألئ لشاشة تلفزيون فارغة لا تعرض أيّ صورة.

ثمّ وقفت في مساحة كشك الهاتف الضيّقة، كما لو أنّها في كابينة مكّوك فضائيّ على

وشك الإقلاع إلى كوكب مختلف، واتّصلت بالرقم 5693-6.

الصوت الذي ردّ عليها كان صوت فرانسيسكو:

- مرحبًا.

- فرانسيسكو؟

- مرحبًا، داغني. كنت أتوقّع منك أن تتّصلي بنا.

- هل استمعت للبثّ الإذاعيّ؟

- نعم، لقد تابعته.

- إنّهم يخطّطون الآن لإجباره على الاستسلام.. إنّهم عازمون على تعذيبه.. إنّهم يملكون آلة تدعى جهاز فيريس للإقناع، في وحدة معزولة على أرض معهد الدولة للعلوم. إنّها في ولاية نيو هامبشاير، وقد ذكروا الطيران أيضًا. وذكروا أنّهم سيجعلونه يخاطب الشعب على أمواج الراديو خلال ثلاث ساعات.

- فهمت. هل تتّصلين من هاتف عموميّ؟

- نعم.

أَمَازِلت ترتدين ملابس السهرة؟

- نعم.

- أنصتي إليَّ بعناية. اذهبي إلى البيت، وغيّري ملابسك، واحزمي بعض الأشياء التي ستحتاجين إليها، وخذي مجوهراتك أو أيّ شيء ثمين يمكنك حمله، وخذي بعض الملابس الدافئة. لن يكون لدينا الوقت للقيام بذلك لاحقًا. وقابليني بعد أربعين دقيقة في الركن الشماليّ الغربي على بعد مبنيين شرق المدخل الرئيسيّ من محطّة تاجارت.

- حاضر.

- وداعًا يا سبيكة.

- وداعًا فريسكو.

ثمّ كانت في غرفة نوم شقّتها، في أقلّ من خمس دقائق، وأخذت تنزع فستان السهرة. وتركته ملقًى في منتصف الأرضيّة مثل زيّ مهمل لجيش لم تعد تخدمه. ثمّ ارتدت بدلة زرقاء داكنة وتذكّرت كلمات جالت «سترة بيضاء ذات طوق». ثمّ حزمت حقيبة ومخلاة بحزامٍ يمكن أن تحملها على كتفها فوضعت مجوهراتها في زاوية الحقيبة، بما في ذلك سوار معدن ريردن الذي كسبته في العالم الخارجيّ، والقطعة الذهبيّة من فئة خمسة دولارات التي كسبتها في الوادي.

كان من السهل مغادرة الشقّة وقفل الباب، وإن كانت تعلم أنّها قد لا تفتحه مرّة أخرى. وفي لحظةٍ، بدا الأمر أصعب عندما أتت إلى مكتبها ولم يرَها أحدٌ وهي تدخل، وكانت قاعة مكتبها خاليةً، وبدا مبنى تاجرت العظيم هادئًا على نحو غير عاديّ. ثمّ وقفت لحظةً تنظر في تلك القاعة وفي كلّ السنوات التي احتوتها. ثمّ ابتسمت وقالت في نفسها: لا، لم يكن ذلك صعبًا جدًّا. ثمّ فتحت خزانتها وأخذت الوثائق التي جاءت من أجلها إلى هنا. ولم يكن هناك شيء آخر أرادت أن تأخذه من مكتبها ما عدا صورة ناث تاجرت وخارطة شركة تاجرت العابرة للقارّات، فكسرت بلور الإطارين، وطوت الصورة والخارطة، ووضعتهما في حقيبتها.

كانت تقفل الحقيبة عندما سمعت صوتَ الخطوات السريعة. ثمّ انفتح الباب واندفع مدير المحطّة إلى الداخل، وقد ظهرت عليه علامات الخوف والارتباك. ثمّ صاح:

- آنسة تاجرت، أوه الحمد لله يا آنسة تاجارت أنّك هنا. كنّا نتّصل بك في كلّ مكان.

نظرت إليه مستفسرة، فأضاف:

- هل سمعت بما حدث؟

- ماذا؟

- أنت، إذَن، لم تسمعي بما وقع، يا إلهي.. لا أستطيع أن أصدّق ذلك يا آنسة تاجرت، مازلت لا أستطيع أن أصدّق ذلك، ولكن.. يا إلهي، ماذا سنفعل؟ الجسر.. جسر تاجرت اختفى نهائيًّا.

فحدّقت فيه وهي غير قادرة على التحرّك، ثمّ استرسل في الكلام:

- يبدو أنّه دُمِّر في ثانية واحدة. ولا أحد يعرف على وجه اليقين ما حدث.. ولكن يبدو.. أنّهم يعتقدون أنّ شيئا مّا حدث بالخطإ في المشروع إكس.. نحن لا نستطيع العبور إلى أيّ منطقة.. هذا غير ممكن، ولا يمكن أن يحدث هذا الأمر.. لا معلومة لدينا حول ما حدث.. لا أحد يملك أيّ معلومة بها في ذلك الصحف ومحطّات الراديو والشرطة. مازلنا نحقّق في الأمر، لكنّ القصص والأخبار التي تأتي من محيط تلك الدائرة... تؤكّد شيئًا واحدًا هو أنّ الجسر اندثر. يا آنسة تاجرت إنّنا لا نعرف ما ينبغي علينا فعله.

فقفزت إلى مكتبها وأمسكت بسمّاعة الهاتف، لكنّ يدها توقّفت في الهواء. ثمّ، ببطء بدأت بتحريك ذراعها إلى أسفل لإعادة السمّاعة إلى مكانها. وبدا لها أنّ الأمر استغرق وقتًا طويلًا، كما لو أنّ ذراعها اضطّرت إلى التحرّك في مواجهة ضغط جويّ لا يستطيع أيّ جسم بشريّ مكافحته، وخلال تلك اللحظات الوجيزة، وفي سكون ألم شديد، علمت بما عاشه فرانسيسكو في تلك الليلة منذ اثني عشر عامًا مضت، وما شعر به شابٌّ في السادسة والعشرين من عمره عندما نظر إلى محرّكه للمرّة الأخيرة.

صاح مدير المحطّة مجدّدا:

- يا آنسة تاجرت إنّنا لا نعرف ما ينبغي علينا فعله.

فوضعت السمّاعة في مكانها برفق ثمّ أجابته:

- أنا أيضًا لا أعرف ما يجب فعله.

وفي لحظة، أدركت أنّ الأمر انتهى وسمعت صوتَها وهي تقول للرجل أن يتثبّت

أكثر من الأمر وأن يقدّم لها تقريرًا في وقت لاحقٍ، وانتظرت أن يختفي صوت خطواته من خلال صمت الصدى في القاعة.

وعندما عبرت الممرّ للمرّة الأخيرة، نظرت إلى تمثال ناث تاجرت وتذكّرت وعدًا قطعته على نفسها واعتقدت أنّه لم يعد سوى رمزٍ الآن، لكنّه سيكون نوعًا من الوداع الذي يستحقّه ناث تاجرت. لم تكن لديها أيّ أداة للكتابة ما عدا أحمر الشفاه في حقيبتها، فأخذته وهي تبتسم أمام الوجه الرخاميّ، وكتبت للرجل الذي سيفهم ما ستكتبه، ورسمت علامة الدولار تحت قدمَي التمثال.

كانت أوّل من وصل إلى الزاوية على بعد شارعَين شرق مدخل المحطّة. وبينما كانت تنتظر لاحظت علامات الذعر التي سرعان ما اجتاحت المدينة، إذ كان الناس يقودون السيّارات بسرعة جنونيّة وهي تحمل الأمتعة المنزليّة، وكان هناك عدد كبير من سيّارات الشرطة تطلق صفّارات الإنذار بسبب وقوع انفجارٍ على بعد مسافة. ويبدو أنّ أخبار تدمير الجسر كانت تنتشر في المدينة كالنار في الهشيم. وسيعلمون أنّ المدينة محكوم عليها بالفشل وسيبدؤون بالفرار منها، ولكن لم يعد لديهم مكان يذهبون إليه، وكلّ ذلك لم يعد يعنيها بالمرّة.

ثمّ رأت خيال فرانسيسكو وهو يقترب من مسافة بعيدة، فتعرّفت على سرعة مشيته، قبل أن تتمكّن من تمييز وجهه الذي حجبه لثامٌ كان يضعه، فلم ترَ منه سوى عينيه قبل أن يزيله. والتقطت اللحظة التي رآها فيها، بينما كان يقترب. فلوّح إليها بيده وهو يلقي ابتسامة تحيّة. كان في حركة يده نوعٌ من الإجهاد الواعي جعلها تفهم أنّها إشارة من دانكونيا ترحّب بوصول مسافرٍ طال انتظاره على بوّابات مملكته الخاصّة.

وعندما اقترب، وقفت بشكل مستقيم ورسميّ، وهي تنظر إلى وجهه وإلى مباني أعظم مدينة في العالم، ثمّ قالت ببطء وبصوت واثق وثابت أمام الشاهد الذي أرادته:

– أقسم بحياتي وحبّي لها أنّني لن أعيش أبدًا من أجل إنسان آخر، ولن أطلب من إنسان آخر أن يعيش من أجلي.

فأمال فرانسيسكو رأسه، كما لو أنّه يشير إشارة قبولٍ. وأصبحت ابتسامته الآن تحيّة. ثمّ أخذ حقيبتها بيدٍ واحدة، وأمسك ذراعها باليد الأخرى، وقال:

- هيّا بنا، لنسرع.

***

الوحدة المعروفة باسم «مشروع فاء»، تكريمًا لمنشئها الدكتور فيريس، كانت عبارةً عن هيكل صغير بُنِي من الخرسانة المسلّحة، هيكلٍ منخفض على منحدر التلّ الذي كان يدعم معهد الدولة للعلوم على أعلى مستوى عامّ. ولم يكن الهيكل ظاهرًا للعيان باستثناء بقعة رماديّة صغيرة. ويمكن أن يُرى من نوافذ المعهد مخبأً في غابةٍ من الأشجار القديمة، فلم يبدُ أكبر من غطاء فتحة.

تتكوّن الوحدة من طابقين على شكل مكعّب صغير وُضع بشكل غير متناظر على قمّة مكعّب أكبر. ولم يكن بالطابق الأوّل أيّ نوافذ، بل كان به فقط باب مرصّع بالمسامير الحديديّة، أمّا الطابق الثاني ففيه نافذةٌ واحدة، كما لو أنّه ممانع لامتياز ضوء النهار، مثل وجه بعينٍ واحدة. ولم يشعر الناس العاملون في المعهد بأيّ فضول إزاء هذا الهيكل وتفادوا المسارات التي تؤدّي إلى بابه، ولم يذكره أحد من قبل، ولكن كان لديهم انطباع بأنّ الهيكل يضمّ مشروعًا مكرّسًا للتجارب على جراثيم الأمراض الفتّاكة.

لقد تمّ احتلّت الطابقين مختبراتٌ تحتوي على الكثير من أقفاص خنازير غينيا والكلاب والجرذان. ولكنّ قلبَ الهيكلِ النابضَ كان في غرفة في قبوٍ عميق تحت الأرض. كانت الغرفة مبطّنة على نحوٍ سيّئ بألواح من مادّة عازلة للصوت، وقد بدأت الأوراق في التصدّع وظهرت من خلالها صخرة الكهف العارية.

وكانت الوحدة محميّة دائمًا من قبل فرقة تتكوّن من أربعة حرّاس خاصّين. أمّا في تلك الليلة، فقد عزّزت الفرقة بستّة عشر حارسًا، وقد استُدعي الآخرون لأداء واجب الطوارئ. وقد تمّ اختيار الحرّاس وغيرهم من موظّفي (المشروع فاء) بعناية

على أساسٍ مؤهّل واحد هو القدرة غير المحدودة على الطاعة.

كان الحرّاس الستّة عشر متمركزين في الليل خارج المبنى وفي المختبرات المهجورة فوق الأرض، حيث ظلّوا في الخدمة دون أن ينتقدوا الوضع، أو يتملّكهم الفضول حول أيّ شيء قد يحدث في الأسفل.

أمّا في غرفة القبو، تحت الأرض، فكان الدكتور فيريس وويسلي ماوتش وجيمس تاجارت يجلسون في كراسيّ مصفوفة على جدار واحدٍ. وبدت آلة مثل خزانة صغيرة ذات شكل غير منتظم واقفةً في الزاوية المقابلة لهم. وحملت واجهةُ الآلة صفوفًا من أزرار زجاجيّة تحمل أرقامًا، وكلّ زرّ كانت بجانبه شاشة صغيرة مربّعة الشكل مثل مُضَخِّم كَهْرَبائِيّ، وبجانبها صفوف أخرى من الأرقام، وصفوف لمقابض خشبيّة وأزرار بلاستيكيّة، وبجانبها رافعة واحدة للتحكّم في مفتاح تبديل من جانب واحد والتحكّم في زرّ زجاجيّ أحمر من الجانب الآخر. وكانت واجهة الآلة تعكس تعابير من ملامح وجه الميكانيكيّ المسؤول عنها. كان شابًّا مفتول العضلات ملطّخًا بالعرق ويرتدي قميصًا بكمَّين ملفوفَين إلى المرفقين، وتنمّ عيناه عن تركيز شديد على مهمّته، وكان يحرّك شفتيه من حين إلى آخر، وكأنّه يتلو درسًا حفظه عن ظهر قلب.

وكان هناك سلك قصير ينطلق من الآلة إلى بطّاريّة تخزين تتراكم خلفها لفائف طويلة من الأسلاك، تمتدّ إلى الأمام عبر الأرض الحجريّة، من الآلة إلى فراش جلديّ منتشر تحت مخروط من الضوء العنيف. وكان جون جالت مربوطًا بالفراش. وكان عاريًا، والأقراص المعدنيّة الصغيرة من الأقطاب الكهربائيّة في نهاية الأسلاك موصولة بمعصمَيه وكتفَيه ووركيه وكاحلَيه، وكان هناك جهاز يشبه سمّاعة الطبيب وُصِلَ بصدره ورُبِطَ بالمضخّم.

فقال الدكتور فيريس وهو يوجّه خطابه إلى جالت للمرّة الأولى:

– نريدك أن تسيطر على اقتصاد البلاد، نريدك أن تصبح ديكتاتورًا، نريدك أن تحكم. هل هذا مفهوم؟ نريدك أن توجه الأوامر. إنّ سلبيّتك لن تنقذك الآن. نحن نريد

أفكارًا وإلّا لن ندعك تخرج من هنا حتّى تخبرنا بالتدابير التي ينبغي علينا اتّخاذها لإنقاذ نظامنا. ثمّ سنطلب منك إخبار الناس بهذه التدابير عبر أمواج الراديو.

ثمّ رفع معصمه ليريه الساعة، ثمّ قال:

- سأمهلك ثلاثين ثانية لتقرّر ما إذا كنت تريد أن تتحدّث إلى الناس أم لا. وإذا لم تتحدّث فإنّنا سنعذّبك. هل هذا مفهوم؟

كان جالت ينظر إليهم مباشرةً، أمّا وجهه فبدا خاليًا من أيّ تعبير كما لو أنّه فهم أكثر من اللّازم، فلم يجبهم.

ثمّ سمعوا صوت الساعة وهي تعدّ الثواني، وبعد ذلك لوّح فيريس بإشارةٍ من يده إلى الميكانيكيّ المسؤول عن الآلة، فضغط الميكانيكيّ على مفتاح التبديل، فأضاء زرّ الزجاج الأحمر، ثمّ صدر صوتان من الآلة؛ أحدهما منخفض، هو أزيز مدوٍّ من مولّد كهربائيّ، والآخر إيقاعٌ غريبٌ، يشبه في انتظامه دقّات الساعة، ولكن بصدى رنين مكتومٍ وغريبٍ. واستغرق الأمر منهم لحظةً لإدراك أنّه صدر من مُضَخِّم كَهْرَبائِيّ وأنّهم كانوا يسمعون دقّات قلب جالت.

- ثلاثة.

هكذا كان فيريس يعدّ الثواني الأخيرة، ثمّ أمر بالضغط، فضغط الميكانيكيّ على زرٍّ تحت أحد الأقراص. فانتابت جالت ارتعاشة طويلة، واهتزّت ذراعه اليسرى في تشنّجات ارتداديّة، وتزعزعت من شدّة التيّار الكهربائيّ الذي مرّ بين معصمه وكتفه. وسقط رأسه إلى الخلف، ثمّ أغلق عينيه دون أن يصدر أيّ صوت.

وعندما رفع الميكانيكيّ إصبعه عن الزرّ، توقّفت ذراع جالت عن الارتعاش ولم يتحرّك. فنظر الرجال الثلاثة بعضهم إلى بعض نظرةً سريعة يشوبها الاضطراب. وكانت عينا فيريس فارغَتَين من المعنى، أمّا ماوتش فكان مرعوبًا، وأمّا تاجرت فمُحبَطٌ. واستمرّ صوت الإيقاع خلال الصمت.

فقال فيريس:

- اثنان.

فالتوت ساق جالت اليمنى تحت وقع التشنّجات، مع التيّار الذي كان يسري الآن بين وركه وكاحله. فأمسكت يداه بحوافّ الفراش. واهتزّ رأسه مرّة من جانب إلى آخر، ثمّ بقي ساكنًا لكنّ نبضات قلبه تزايدت بشكل أسرع.

كان ماوتش يتراجع إلى الخلف، ويضغط على مؤخّرة كرسيّه. أمّا تاجرت فكان يجلس على حافّة كرسيّه ويميل إلى الأمام.

ثمّ قال فيريس:

- واحد.

فارتعد جذع جالت إلى أعلى، ثمّ التوى في ارتجاف طويل، ضاغطًا على معصمَيه المربوطين، بينما كان التيّار يسري الآن من معصم إلى آخر، وعبر رئتيه. وكان الميكانيكيّ يدوّر المقبض ببطء، ويرفع تدريجيًّا في شدّة التيّار. وكانت الإبرة بشاشة الاتّصال تتحرّك نحو الجزء الأحمر الذي يشير إلى الخطر. فأصبحت أنفاس جالت متقطّعة، وسمعوا أصوات لهاثه، ولاحظوا تشنّج رئتيه.

فزمجر فيريس في وجه جالت عندما انقطع التيّار الكهربائيّ:

- هل تريد المزيد؟

فلم يجبه جالت، بل حرّك شفتَيه بشكل ضعيف، وفتح فمَه لأخذ جرعة من الهواء. وكانت نبضات السمّاعات الطبيّة متسارعة، لكنّ أنفاسه جرت في إيقاعٍ منتظمٍ.

فصرخ تاجرت وهو يحدّق في الجسد العاري على الفراش:

- لقد كنت متساهلًا جدًّا معه.

ففتح جالت عينيه ونظر إليهم لحظةً فلم يستطيعوا قولَ أيّ شيء له. إلّا أنّ نظرته

كانت ثابتة وواعية تمامًا، ثمّ أسقط رأسَه مرّة أخرى وبقي ساكنًا كما لو أنّه نسيهم.

وبدا جسده العاري غريبًا في مكانه بهذا القبو. وكانوا يعرفون ذلك، وإن لم يكن أيّ واحدٍ منهم يجرؤ على الاعتراف بهذه الحقيقة. كانت تقاسيم جسده الطويلة بدءًا من كاحلَيه مرورًا بالوركين وزاوية خصره، وصولًا إلى كتفيه المستقيمتين، قد جعلته يبدو كتمثالٍ يونانيّ قديم، وقد شارك ذلك التمثال في المعنى، لكنّه صُمّم من جديدٍ في شكلٍ أخفّ وزنًا، وأكثر نشاطًا، لنموذج نحيل بقوّة هائلة، ممّا يشير إلى الطاقة التي لا تهدأ. أمّا الجسد فلم يكن لسائق عربة، بل لمنشئ طائرات. ومعنى هذا التمثال -أي تمثال الإنسان بوصفه إلهًا- اصطدم بروح قاعات هذا القرن، لذلك اصطدم جسده بقبوٍ مكرَّس لأنشطة ما قبل التاريخ. وكان التصادم أكبر، إذ يبدو أنّه ينتمي إلى الأسلاك الكهربائيّة، مع الفولاذ المقاوم للصدإ، مع أدوات دقيقة، وربما كانت هذه الفكرة الأكثر مقاومة والتي دفنت عميقًا في قاع أحاسيس مشاهديه، تلك الفكرة التي يعرفونها فقط بوصفها كراهية منتشرة وإرهابا غير مركّز، وربما كان غياب مثل هذه التماثيل عن العالم الحديث الذي حوّل المولّد إلى أخطبوط وجلب جسدًا مثل جسده إلى مخالبه.

فقال فيريس وهو يضحك:

- أعرف أنّك خبير في الكهرباء، نحن أيضا خبراء في هذا المجال، ألا تعتقد ذلك؟

ولم يسمع غير دويّ المولّد وخفقان قلب جالت.

فأمر فيريس الميكانيكيّ وهو يلوّح إليه بإصبع واحد وقال:

- السلسلة المختلطة.

وأصبحت الصدمات الآن تصدر واحدةً تلو أخرى في فترات غير منتظمة، لا يمكن التنبّؤ بها. وحدَها التشنّجات المرتعشة لساقي جالت وذراعَيه وجذعِه وكاملِ جسده أظهرت ما إذا كان التيّار يسري بين قطبين معيّنين أو من خلالها جميعًا في وقتٍ واحدٍ. وكانت الإبر بالشاشات تقترب من العلامات الحمراء، ثمّ تنحسر. لقد صمّمت الآلة

لإلحاق أقصى ما يمكن من الألم الشديد دون إلحاق الضرر بجسد الضحيّة.

وكان المراقبون هم الذين وجدوا أنفسهم لا يطيقون الانتظار خلال دقائق التوقّف التي تضجّ بصوت دقّات القلب، وكان القلب يتسارع الآن في إيقاع غير منتظم. لقد تمّ حساب الإيقاف لترك ذلك الضرب يتباطأ، لكنّه لا يسمح للضحيّة بالراحة، فالضحيّة كان لا بدّ أن ينتظر صدمة في أيّ لحظة.

كان جالت مسترخيًا، كما لو أنّه لا يحاول محاربة الألم، بل يستسلم له، ولم يحاول إنكارَه، بل كان يتحمّله. وكلّما انفصلت شفتاه للتنفّس جاءت صدمةٌ أقوى فتجعلهما تلتصقان بشدّة مرّة أخرى. فلم يقدر على مقاومة تصلّب جسده المرتعش، لكنّه كان يتركه يختفي في اللحظة التي يتركه فيها التيّار. وحدها بشرة وجهه كانت تنكمش بإحكام ويلتوي خطّ شفتيه المختوم من حين إلى آخر. وحين تسري صدمةٌ في صدره ورأسه، تتطاير جدائلُ شعره الذهبيّة مع اهتزاز جمجمته كما لو أنّه يلوح في عاصفة من الرياح. فتساءل المشاهدون: لماذا أصبح شعره يبدو أكثر قتامةً؟ ثمّ أدركوا أنّه كان غارقًا في العرق.

كان القصد من إحداث الرعب، أثناء سماع دقّات القلب وهو يكافح كما لو أنّه على وشك الانفجار في أيّ لحظة، هو أن يشعر به الضحية. وكان المعذّبون هم الذين ارتجفوا من الرعب، وهم يستمعون إلى الإيقاع المتعرّج المكسور ويفقدون أنفاسهم مع كلّ ضربة مفقودة. وبدا الآن كما لو أنّ القلب يقفز من مكانه، وينبض بشكل محموم في عذاب وغضب يائس. وكان القلب يحتجّ، لكنّ الرجل لم يكن كذلك. كان ممدّدًا، وهو يسمع قلبه يقاتل من أجل حياته.

كان ويسلي ماوتش أوّل من كسر الصمت وصرخ:

- لا تقتله، يا فلويد، لأنّه إذا مات سنموت معه جميعًا.

فزمجر فيريس وقال:

- لن يموت. هو يتمنّى الموت، لكنّه لن يموت، فالآلة لن تسمح له بذلك، لأنّ

الأمر محسوب رياضيًّا. إنّه في مأمن من الموت.

- أليس هذا كافيًا؟ سيطيعنا الآن. أنا متأكّد أنّه سيطيعنا.

- لا، هذا لا يكفي، أنا لا أريده أن يطيع، بل أريده أن يصدّق، وأن يقبل. علينا أن نجعله يخدم مصالحنا بشكل طوعيّ.

وصاح تاجرت:

- واصل، ماذا تنتظر؟ ألا يمكنك أن تجعل التيّار أقوى؟ إنّه لم يصرخ بعد.

- ما خطبك؟

هكذا قاطعه ماوتش، قبل أن يلقي عليه نظرة خاطفة، بينما كان التيّار يلوي جسد جالت، فأخذ تاجارت يحدّق فيه بتمعّن، ولكنّ عينيه كانتا برّاقتين وميّتتين، غير أنّ شيئًا مّا بخصوص تلك النظرة الجامدة سحب عضلات وجهه وحوّلها إلى كاريكاتير فاضح للمتعة.

وظلّ فيريس يصرخ في وجه جالت:

هل نكتفي بهذا القدر؟ هل أنت مستعدّ لتطيع أوامرنا؟

لكنّهم لم يسمعوا أيّ ردّ. كان جالت يرفع رأسه بين فينة وأخرى وينظر إليهم، فتبدو من تحت عينيه حلقات مظلمة ، لكنّ العينين كانتا واضحتَين وواعيتَين.

وأثناء حالة الذعر المتصاعد، فقد المراقبون إحساسهم بالسياق واللغة، واختلطت أصواتهم الثلاثة في سلسلة من الصرخات العشوائيّة:

- نريدك أن تتولّى زمام الأمور.. نريدك أن تحكم.. نحن نأمرك بإصدار الأوامر.. ونطلب منك أن تصدر التعليمات.. نحن نأمرك بإنقاذنا.. نحن نأمرك بأن تفكّر..

ولم يسمعوا أي ردّ سوى نبضات القلب التي تعتمد عليها حياتهم. فقد كان التيّار يسري في صدر جالت والصدمات تتردّد وفق ضربات غير منتظمة، كما لو أنّه يتسابق

ويتعثّر، وعندما يسقط جسده فجأة، تتوقّف الصدمات.

كان الصمت بمثابة صفعة مذهلة، وقبل أن يجدوا الوقت للصراخ، كان رعبٌ آخر يفوق رعبَهم يتجلّى في أنّ جالت يفتح عينيه ويرفع رأسه.

ثمّ أدركوا أنّ دويّ الآلة توقّف أيضًا، وأنّ الضوء الأحمر انطفأ على لوحة التحكّم. لقد توقّف التيّار، وتعطّل المولّد.

وكان الميكانيكيّ يضغط بإصبعه على الزرّ دون جدوى. ثمّ سحب ذراع المفتاح مرارًا وتكرارًا، لكن دون جدوى، فركل جانب الآلة، لكنّ الضوء الأحمر لم يظهر، والصوت لم يعد يصدر. فانفجر فيريس وقال:

- حسنًا، ماذا وقع؟

فقال الميكانيكيّ:

- لقد تعطّل المولّد.

- لماذا؟

- لا أعرف.

- حسنًا، حاول أن تصلح العطب.

ولم يكن الرجل مدرّبًا على إصلاح الأعطاب الكهربائيّة، لقد تمّ اختياره، ليس بسبب جدارته وكفاءته، بل بسبب قدرته على الانصياع لأوامر بالضغط على الأزرار، بينما كان الجهد الذي يحتاج إليه لتعلّم مهمّته يعتمد على وعيه، وليس على أيّ شيء آخر. ففتح اللوحة الخلفيّة للآلة وحدّق بحيرة في اللفائف المعقّدة. ولم يتمكّن من العثور على أيّ شيء خارج النظام. ثمّ تخلّص من القفّازين، والتقط كمّاشتين، وأغلق بشكل عشوائيّ بضعة براغيّ.

ثمّ قال بنبرة تضجّ يأسا:

- لا أعرف كيف أصلح العطب، من أنا أصلًا لأعرف؟

وقفَ الرجال الثلاثة وراء الآلة يحدّقون في مكوّناتها المعقّدة. وكانوا يتصرّفون بشكل عشوائيّ، لأنّهم على يقين من أنّهم لا يعرفون أيّ شيء.

فصاح فيريس:

- لكن يجب عليك أن تصلح العطب، يجب أن يعمل المولّد، نحن في أمسّ الحاجة إلى الكهرباء.

وصاح تاجرت وهو يرتجف:

- يجب أن نستمرّ في تعذيب جالت، أنا لن أتركه ينجو بجلده.

كان فيريس يصيح في وجه الميكانيكيّ:

- افعل شيئا، لا تقف هكذا، افعل شيئا، أصلح المولّد.

- لكنّني لا أعرف مشكلة المولّد.

- عليك أن تكتشف العطب.

- كيف لي أن أعرف؟

- آمرك بإصلاحه.. هل تسمعني؟ اجعله يعمل أو سأزجّ بك في السجن.

فتنهّد الرجل بذهول وقال:

- لكنّني لا أعرف طبيعة العطب. ولا أعرف ما الذي يجب عليَّ فعله.

فانبعث صوت من الخلف يقول:

- الهزّاز هو الذي تعطّل عن العمل.

فالتفتوا إليه. كان جالت يتحدّث بنبرة مهندس خبير، ثمّ أضاف:

- استخرج الهزّاز، واخلع غطاء الألمونيوم تَجِدْ زوجًا من الوصلات تنصهر معًا.

فرّق بينهما بالقوّة، وخذ الملفّ الصغير ونظّف الأسطح المحفورة. ثمّ استبدل الغطاء وصِلْه بالماكينة، بعد ذلك فقط سيعمل المولّد.

وخيّم الصمت طويلًا، وفي هذه الأثناء كان الميكانيكيّ يحدّق في وجه جالت، وبالتحديد في طبيعة بريق عينيه الخضراوين. لقد كان بريقًا ينضح بالسخرية والاستهزاء.

ثمّ تراجع خطوةً إلى الوراء. وفي عتمة وعيه غير المتماسك، وبطريقة صامتة وغير مفهومة، أدرك فجأةً معنى ما كان يحدث في ذلك القبو. ثمّ نظر إلى جالت وإلى الرجال الثلاثة وإلى الآلة. ارتجف، ثمّ أسقط كمّاشته ولاذ بالفرار. فانفجر جالت ضاحكًا.

وأخذ الرجال الثلاثة يتراجعون ببطءٍ بعيدًا عن الآلة. كانوا يكافحون كي لا يسمحوا لأنفسهم باستيعاب ما فهمه الميكانيكيّ. ثمّ صاح تاجرت فجأةً وهو ينظر إلى جالت:

- لا، لن أدعه يفلت بفعلته هذه.

ثمّ جثا على ركبتَيه، يتحسّس بشكل محموم للعثور على أسطوانة الألمونيوم التي في الهزّاز. ثمّ أضاف:

- سأصلحه بنفسي. يجب أن نعذّبه. يجب أن نحطّمه.

فردّ عليه فيريس بانزعاج:

- هوّن عليك، خذ الأمور ببساطة يا جيم.

- أليس من الأفضل لنا.. أن نتوقّف الليلة؟

هكذا ردّ ماوتش متوسّلًا، وهو ينظر إلى الباب الذي فرّ منه الميكانيكيّ، وكانت نظرته توحي بالعجز عن القيام بما قام به الميكانيكيّ. وصاح تاجرت:

- لا، لن أسمح بذلك.

- جيم، ألم ينل ما يكفي من العذاب؟ ينبغي أن نتوخّى الحيطة والحذر.

- لا، لم يتعذّب بما فيه الكفاية. إنّه لم يصرخ بعد.

صاح ماوتش فجأة، مرعوبًا من شيء مّا لاحظه في وجه تاجرت:

- جيم، نحن لا نستطيع أن نتحمّل عواقب مقتله، أنت تدرك جيّدا هذا الأمر.

- أريد أن أحطّمه، أريد أن أسمعه يصرخ، أريد..

ثمّ صرخ تاجرت. كانت صرخة طويلة ومفاجئة، وكأنّه رأى مشهدًا مفاجئًا، على الرغم من أنّ عينيه تحدّقان في الفضاء. كان المشهد الذي واجهه معشّشًا بداخله، وهو يتكوّن من جدران واقية عازلة للعاطفة، والتهرّب، والتظاهر، وشبه التفكير، والكلمات الزائفة، بُنِيت من قبله خلال كلّ سنوات حياته، وقد تحطّمت في لحظة واحدة، اللحظة التي علم فيها أنّه يريد موت جالت وهو يدرك أنّ موتَه هو نتيجةٌ حتميّة لموت جالت.

فجأة رأى الدافع الذي يوجّه كلّ أفعال حياته. ولم يكن الدافع هو روحه المتحفّظة أو حبّه للآخرين أو واجبه الاجتماعيّ، بل الرغبةَ في تدمير كلّ ما سيعيش قبل أن يموت. لقد كانت الرغبة في تحدّي الواقع من خلال تدمير كلّ قيمة من أجل أن يثبت لنفسه أنّه يمكن أن يوجَد في تحدٍّ للواقع ولن يكون ملزمًا بأيّ حقائق راسخة ثابتة. قبل لحظةٍ، كان قادرًا على الشعور بأنّه يكره جالت أكثر من كلّ البشر، وأنّ الكراهية دليلٌ على شرّ جالت، وأنّه يريد تدمير جالت من أجل البقاء على قيد الحياة. الآن هو يعرف أنّه يريد تدمير جالت كمقابل لتدمير نفسه، ويعلم أنّه لم يكن يريد البقاء على قيد الحياة. كان يعلم أنّه يريد تعذيب عظمة جالت وتدميرها، وأنّه يراها عظمةً باعترافه، عظمة وفقًا للمعيار الوحيد الذي كان موجودًا. وهي عظمة الإنسان الذي كان سيّد الواقع بطريقة لم يضاهيه فيها أحدٌ. ولحظةَ وجدَ جيمس تاجارت نفسَه في مواجهة الإنذار النهائيّ لقبول الواقع أو الموت، اختارت عواطفه الموتَ بدلًا من الاستسلام لتلك المملكة التي يعتبر جالت ابنَها المتألّق. كان يعلم أنّ تدمير الوجود

كلّه يتلخّص في شخص جالت.

ولم تواجه تلك المعرفة وعيَه بواسطة الكلمات، بما أنّ كلّ معرفته كانت تتكوّن من المشاعر، فهو كذلك الآن متأثّر بعاطفة ورؤية ليس لديه القدرة على تبديدهما. فهو لم يعد قادرًا على استدعاء الضباب لإخفاء رؤية كلّ تلك الطرق المسدودة التي كان يكافح لعدم رؤيتها. الآن، وفي نهاية كلّ زقاقٍ كان يرى كراهيته للوجود، ويرى وجه تشيريل تاجرت ومعها الفرحة الشديدة والشغف في أن تعيش وأنّ هذا الشغف الخاصّ هو الذي كان يريد دائمًا هزيمته، ويرى وجهه كوجه قاتل يجب على جميع البشر أن يبغضوه بحقٍّ، قاتل دمّر القيم لكونها قيمًا، ذلك القاتل الذي قتل كي لا يكتشف قيمة شرّه الذي لا يمكن إصلاحه.

ثمّ انحنى محدّقًا في تلك الرؤية، وهزّ رأسه للهروب منها وقال:

- لا.. لا.. لا..

ردّ عليه جالت:

- بل نعم.

ثمّ رأى عينَي جالت تنظران مباشرةً في عينيه كما لو أنّ جالت كان يرى الأشياء التي رآها. فقال جالت:

- لقد أخبرتك بذلك على الراديو، أليس كذلك؟

كان هذا هو الطابع الذي يخشاه جيمس تاجارت، ولم يكن أمامه مفرّ منه، أي الطابع والدليل على الموضوعيّة. فقال مرّة أخرى بصوت منخفض:

- لا..

ثمّ وقف لحظةً، يحدّق بشكل أعمى في الفضاء، ثمّ جلس على الأرض، وهو ما يزال يحدّق في الفضاء غير واعٍ بمحيطه.

- جيم..

هكذا ناداه ماوتش، لكن دون أن يتلقّى منه أيّ جواب.

ولم يسأل ماوتش وفيريس نفسَيهما أو يتساءلا عمّا حدث لتاجارت. كانا يعتقدان أنّ عليهما ألّا يحاولا اكتشافَه البتّةَ كي لا يعيشا المصير ذاته. كانا يعرفان من انكسر في تلك الليلة. ويعرفان أنّ تلك نهاية جيمس تاجرت، سواء نجا جسده المادّيّ أو لم ينج.

فقال فيريس وهو يرتجف:

- دعنا.. نخرج جيم من هنا. دعنا نأخذه إلى الطبيب.. أو إلى مكان مّا..

وسحبا تاجرت بعد أن أوقفاه على قدَمَيه، فتجاوب معهما من دون أن يبدي أيّ مقاومة، فحرّك قدميه عندما دفعاه. لقد بلغ الحالةَ التي أراد أن يصل إليها جالت.

لقد أنقذهما من ضرورة الاعتراف لنفسيهما بأنّهما يريدان الهروب من عينَي جالت الذي كان يراقبهم بنظرة حادّة.

ثمّ واجه فيريس رئيس الحرّاس قائلًا:

- سنعود. ابق هنا ولا تدع أحدًا يدخل. هل هذا مفهوم؟

ثمّ دفعا تاجرت إلى سيّارتهما التي كانت مركونةً بجانب الأشجار عند المدخل. فقال فيريس:

- سنعود.

ولم يكن يوجّه خطابه إلى أيّ شخص بعينه ما عدا الأشجار وظلام السماء.

في تلك اللحظة، لم يكونوا واثقين إلّا من اضطرارهم إلى الهروب من ذلك القبو، حيث رُبِطَ المولّد الحيّ بجانب المولّد الميّت.

الفصل العاشر

باسم الأفضل فينا

مشت داغني مباشرةً نحو الحارس الذي وقف عند باب «مشروع فاء». كانت خطواتها مستقيمة ومتّزنة، بعد أن سارت بإيقاع صامت في الطريق بين الأشجار. ثمّ رفعت رأسها إلى شعاع ضوء القمر، لتسمح للحارس بالتعرّف على وجهها. وقالت:

- دعني أدخل.

فأجابها بصوت إنسان آليّ:

- الدخول ممنوعٌ بأمر من الدكتور فيريس.

- أنا هنا بأمر من السيّد طومسون.

- أنا... لم يخبرني أيّ شخص بهذا الأمر.

- أنا أخبرك بذلك.

- أعني أنّ الدكتور فيريس لم يخبرني بذلك.. يا سيّدتي.

- أنا أخبرك بذلك.

- ولكن لا يُفتَرض بي أن أتلقّى أيّ أوامر من أيّ شخص آخر ما عدا الدكتور فيريس.

- هل أنت مستعدّ لعصيان أوامر السيّد طومسون؟

- أوه، لا يا سيّدتي، لكن.. بما أنّ الدكتور فيريس أمرني بألّا أسمح لأيّ شخص بالدخول، فهذا يعني أن لا أحد..

- هل تعلم أنّني داغني تاجرت وأنّك رأيت صوري في الصحف مع السيّد طومسون وجميع كبار قادة البلاد؟

- نعم يا سيّدتي.

- لك الآن أن تقرّر ما إذا كنت ترغب في عصيان أوامرهم.

- أوه، يا سيّدتي، لا أودّ أن أعصي أوامرهم.

- اسمح لي، إذَن، بالدخول.

- ولكن لا أستطيع أن أعصي أيضًا أوامر الدكتور فيريس.

- عليك أن تختار بين أوامر السيّد طومسون وأوامر الدكتور فيريس.

- لكنّني لا أستطيع الاختيار بينهما يا سيّدتي. من أنا لأختار؟

- يجب عليك أن تختار بينهما.

- انتظري لحظة.

ثمّ أخرج مفتاحًا من جيبه على عجلٍ والتفت إلى الباب وأضاف:

- سأستشير الرئيس. هو..

فقالت داغني:

- لا.

وبسبب نبرة صوتها الحادّة، لم يبرح مكانه. ثمّ أضافت:

- أنصت إليَّ جيّدًا، إمّا أن تسمح لي بالدخول أو سأطلق النار عليك... ما من اختيار آخر أمامك غير هذا، فقرّر الآن.

فأصبح فمه مشدوهًا وسقط المفتاح من يده. فقالت:

- ابتعد عن طريقي.

فهزّ رأسه بشكل محمومٍ، وضغط ظهره على الباب وقال:

- يا سيّدتي.. لا أستطيع أن أطلق النار عليك، بما أنّك قدمت إلى هنا بأمر من السيّد طومسون. لكن لا يمكنني أن أسمح لك بالدخول، لأنّني سأعصي أوامر الدكتور فيريس، ماذا عليَّ أن أفعل؟ أنا مجرّد شابّ صغير، أنا أطيع الأوامر فقط والاختيار ليس بيدي.

- إنّها حياتك التي تواجه الآن خطرًا.

- إذا تركتني أستشير الرئيس فهو سيخبرني..

- لن أدعك تستشير أيّ شخص.

- لكن كيف يمكنني أن أعرف أنّ لديك أمرًا من السيّد طومسون؟

- ومن يدري أنّك أنت أيضًا لم تتلقّ أيّ أمر.. قد لا يكون لديّ أيّ أمر، ولعلّي أتصرّف بمفردي، وستعاقب على طاعتي... وربّما يكون لديّ أوامر وسيزجّ بك في السجن لأنّك عصيت الأوامر... وقد يكون الدكتور فيريس والسيّد طومسون قد اتّفقا على ذلك.. وربّما لم يتّفقا عليه. عليك أن تتحدّى واحدًا منهما، هذا هو القرار الذي ينبغي عليك اتّخاذه الآن. ولن أدعك تستشير أيّ شخص، لأنّه ما من شخص سيخبرك بما يجب عليك القيام به. عليك أن تقرّر بنفسك.

- ولكنّني لا أستطيع أن أقرّر، لماذا ينبغي عليَّ أن أقرّر؟

- لأنّ جسدك هو ما يعرقل طريقي.

- ولكنّني لا أستطيع أن أقرّر، ليس من حقّي أن أقرر.

- سأعدّ ثلاثا، ثمّ أطلق النار.

- انتظري.. انتظري.. لم أقرّر بعد..

هكذا صاح متذلّلا وهو يتمسّك بالباب. ثمّ أخذت تعدّ:

- واحد.

كان بإمكانها أن ترى عينيه اللّتين يغشاهما الرعب.

- اثنان.

كان بإمكانها أن تكتشف أنّ المسدس أقلّ رعبًا بالنسبة إليه من البديل الذي عرضته عليه.

- ثلاثة.

وبهدوء ووقاحة ضغطت على الزناد، هي التي كانت ستتردّد في إطلاق النّار على حيوان، أطلقت النارَ مباشرة على قلب رجل أراد الوجود بتجرّدٍ من الوعي.

وكان مسدّسها مجهّزًا بكاتم صوت، ولم يصدر أيّ صوت قد يلفت انتباهَ أي شخص، ما عدا الصوت الذي نتج عن ارتطام الجثة بالأرض.

ثمّ التقطت المفتاح من الأرض، وانتظرت بضع لحظات قصيرة، كما تمّ الاتّفاق على ذلك.

كان فرانسيسكو هو أوّل من انضمّ إليها قادمًا من خلف ركنٍ من المبنى ثمّ التحق بهما هانك ريردن، ثمّ راجنر دانيسكولد. وكان هناك أربعة حرّاس على مسافات متباعدة بين الأشجار حول المبنى. وقد تخلّصوا منهم الآن، فالحارس الأوّل أردوه قتيلًا، وقيّدوا الحارس الثاني.

ثمّ سلّمت المفتاح إلى فرانسيسكو من دون أن تنبس بكلمة. ففتح الباب، ودخل بمفرده وتركه مفتوحًا بعرض بوصة. وانتظر الثلاثة الآخرون بالخارج عند تلك الفتحة.

كانت القاعة مضاءةً بمصباح واحد عارٍ عالق في منتصف السقف. وكان هناك حارس واقفٌ أسفلَ الدرج الذي يؤدّي إلى الطابق الثاني.

فصاح الحارس حين رأى دخول فرانسيسكو كما لو أنّه كان يملك المكان:

- من أنت؟ لا أحد يفترَض به أن يأتي الليلة إلى هنا.

قال فرانسيسكو:

- أنا يفترض بي أن أفعل ذلك.

- لماذا سمح لك راستي بالدخول؟

- لا شكّ أنّ لديه أسبابًا.

- لم يكن يُفترَض به أن يفعل.

- شخص مّا غيّر افتراضاته.

وأخذ فرانسيسكو يمشّط المكان بسرعة البرق. كان حارسٌ آخر يقف عند منعطف الدرج، ينظر ويستمع إليهما.

- ما هو عملك؟

- أعمل في تعدين النحاس.

- ماذا؟ أعني من أنت؟

- سأخبر رئيسك، فأين هو الآن؟

- أنا من يطرح الأسئلة هنا..

ثمّ تراجع خطوة إلى الوراء وأضاف:

- لا تفعل.. لا تتصرّف كما لو أنّك شخصيّة بارزة ومرموقة وإلّا..

صاح الحارس الثاني:

- يا بييت، إنّه كذلك.

قال الحارس الأوّل مخاطبًا فرانسيسكو:

- ما الذي تسعى إليه؟

- سأخبر به رئيسك. أين هو الآن؟

- أنا من يطرح الأسئلة هنا.

- وأنا لن أجيب عليها.

- أوه، أنت فعلًا لا تجيب، فهلّا أجبت عن أسئلتي؟

هكذا ردّ بييت بانزعاجٍ، ولم يكن لديه سوى ملجإٍ واحد في حالة الشكّ، فاتّجه بيده نحو المسدّس. لكنّ يد فرانسيسكو كانت أسرع ممّا يمكن أن يتيح للرجلين رؤيةَ حركتها، وكان سلاحه صامتًا جدًّا، فكان ما شاهداه وسمعاه بعدها هو المسدّس وهو يطير من يدِ بييت، جنبًا إلى جنب مع بقع من الدم من أصابعه المحطّمة وهو يولول ويئنّ في صمت. وفي اللحظة التي أمسك بها الحارس الثاني لاحظ أنّ مسدّس فرانسيسكو كان موجّها نحوه. فصاح:

- لا تطلق النار يا سيّدي.

- انزل إلى هناك.. وارفع يديك..

هكذا أمره فرانسيسكو وهو يصوّب المسدّس، وفي الوقت نفسه يشير بيده إلى شقّ الباب..

وفي الوقت الذي نزل فيه الحارس الدرج، كان ريردن هناك لنزع سلاحه ودانيسكولد جاهزًا لربط يديه وقدميه. ويبدو أنّ رؤية داغني أرعبته أكثر من رؤية البقيّة. فهو لم يكن بوسعه فهم الأمر: ثلاثة رجال يرتدون قبّعات وسترات واقية، ولكنّ أسلوبهم يشبه أسلوب العصابات، أمّا وجود سيّدة معهم فلم يستطع تفسيره.

ثمّ قال فرانسيسكو:

- الآن، أين رئيسك؟

فهزّ الحارس رأسه باتّجاه السلالم:

- إنّه في الأعلى.. هناك.

- وكم عدد الحرّاس في المبنى؟

- تسعة حرّاس.

- أين هم الآن؟

- واحد على سلّم القبو. والآخرون في الأعلى.. هناك.

- أين؟

- في المختبر الكبير. تلك القاعة ذات النافذة الوحيدة.

- كلّهم؟

- نعم.

قال فرانسيسكو مشيرًا إلى الأبواب المؤدّية إلى القاعة:

- وما هذه الغرف؟

- إنّها مختبرات أيضًا. وكلّها مغلقة طوال الليل.

- ومن يملك المفتاح؟

قال وهو يشير برأسه إلى بييت:

- هذا..

فاستلّ ريردن ودانيسكولد المفتاحَ من جيب بييت وسارعا بصمت إلى التحقّق من

أمر الغرف، وتابع فرانسيسكو:

- وهل يوجد أيّ رجل آخر في المبنى؟

- لا.

- ألا يوجد سجين هنا؟

- أوه...نعم، أعتقد ذلك. لابدّ أنّ هناك سجينًا، وإلّا ما كنّا هنا أصلا.

- أما يزال هنا؟

- هذا ما لا أعرفه، لأنّهم لم يخبرونا مطلقًا.

- وهل الدكتور فيريس هنا؟

- لا. لقد غادر منذ دقائق.

- ذلك المختبر في الطابق العلويّ، هل يفتح مباشرة عند مهبط الدرج؟

- نعم.

- كم بابًا هناك؟

- ثلاثة.

- وما طبيعة الغرف الأخرى؟

- في هذا الجانب يوجد مختبر صغير، أمّا في الجانب الآخر فيوجد مكتب الدكتور فيريس.

- وهل ثمّة أبواب تصل بينهما؟

- نعم.

كان فرانسيسكو يلتفت إلى رفاقه، عندما قال الحارس:

- سيّدي، هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالا؟

- تفضّل.

- من أنت؟

- فرانسيسكو دومينغو كارلوس أندريس سيباستيان دانكونيا.

فترك الحارس مشدوهًا واستدار للتشاور مع أصحابه. وبعد لحظة، صعد ريردن الدرج بسرعة وفي صمت.

كانت هناك أقفاص تحتوي على الفئران وخنازير غينيا التي تتكدّس في جدران المختبر. هناك وضَعَها الحرّاس الذين كانوا يلعبون البوكر على طاولة المختبر التي تتوسّط مركز الغرفة. ستّة منهم كانوا يلعبون، أماّ اثنان منهما فوقفا في الزوايا المتقابلة، يراقبان باب المدخل، وهما يحملان الأسلحة. كان وجه ريردن المعروف عند الجميع هو ما أنقذه من الرصاص لحظة دخوله الغرفة. فقد كان وجهه مشهورًا، أمّا وجوده هنا فلم يكن متوقّعًا. لقد رأى ثمانية رؤوس تحدّق فيه وهم عاجزون عن تصديق ما شاهدوه.

وقف عند الباب، بطريقة واثقة. ثمّ سألهم بنبرة مؤدّبة:

- من المسؤول هنا؟

قال شخص نحيل ومتجهّم الوجه كان يجلس على طاولة لعب الورق:

- أنت.. ألست أنت المسؤول هنا؟

- أنا هانك ريردن. هل أنت الرئيس؟

- نعم، لكن من أين أتيت؟

- من نيويورك.

- وماذا تفعل هنا؟

- سؤالك يدلّ على شيء واحد وهو أن دوائر القرار لم تبلّغك مسبّقًا بقدومي إلى هنا.

- وهل يجب أن أكون على علم.. أعني، ما الذي ينبغي أن أكون على علم به؟

لقد بدا واضحًا من صوت الرئيس أنّه يحسّ بالاستياء، لأنّ رؤساءه أهانوا سلطته. كان رجلًا طويل القامة، يعاني من النحافة، ويتمتّع بوجه شاحب وعينين مضطربتَين مثل عيون مدمني المخدّرات.

- لا شكّ أنّهم أبلغوك بشيء مّا يخصّ عملي هنا.

- أنت.. لا يمكنك أن تزاول أيّ عمل هنا.. ألست خائنًا وهاربًا و..

- يبدو أنّ الأحداث قد فاتتك أيّها الرجل الطيّب.

وكان الرجال الآخرون يحدّقون في ريردن بذهول. أمّا الرجلان اللذان يحملان الأسلحة فكانا يصوّبان سلاحيهما نحوه. غير أنّ ريردن لم ينتبه أصلًا إلى وجودهما. فقاطعه الرئيس وقال:

- هلّا أخبرتني عن عملك هنا؟

- أنا هنا لأتولّى مسؤوليّة السجين الذي ستسلّمه إليّ.

- إذا كنت قد جئت من المقرّ العامّ، فأنت تعلم أنّه لا يُفتَرَض بي معرفة أيّ شيء يخصّ أيّ سجين، وأنّه لا ينبغي على أيّ شخص الاقتراب منه.

- باستثنائي أنا.

فنهض الرئيس بجزع، واندفع إلى الهاتف واستولى على السمّاعة. وبمجرّد أن رفعها، أسقطها على نحو مفاجئ بإيماءة أثارت الذعر في القاعة. لقد اكتشف أنّ الهاتف معطّل وأنّ جميع الأسلاك قطعت.

وتلاشت نظرة الاتّهام في عينيه، بينما كان يلتفت إلى ريردن الذي خاطبه بالقول:

- هذه ليست طريقة جيّدة لحراسة المبنى.. إذا كان هذا هو ما سمحت بحدوثه، فمن الأفضل أن تدعني أحصل على السجين قبل أن يحدث له أيّ مكروه.. سلّمني السجين وإلّا أخبرت رؤساءك بأنّك تعصي أوامرهم.

فانهار الرئيس بشدّة على كرسيّه، واستلقى إلى الأمام، ونظر إلى ريردن بنظرة جعلت وجهَه الهزيل يشبه الحيوانات التي كانت تتحرّك في الأقفاص. ثمّ سأله:

- عن أيّ سجين تتحدّث؟

- أيّها الرجل الطيّب، إذا لم يخبرك رؤساؤك بهذا الأمر، فإنّه لا يتعيّن عليّ إخبارك به.

- لعلّهم لم يروا أنّ من المناسب إخباري بقدومك إلى هنا.. وكيف لي أن أعرف أنّك معيّنٌ من أعلى مستوى بالسلطة؟ وفي ظلّ تعطّل الهاتف، من سيخبرني؟ ومن أنا أصلا لأعرف ما يتعيّن عليّ القيام به؟

- هذه مشكلتك وليست مشكلتي.

- أنا لا أصدّقك.. لا أعتقد أنّ الحكومة سترسلك في مهمّة من هذا النوع وأنت واحد من الخونة الذين لاذوا بالفرار..

- لكن ألم تسمع..

- بماذا؟

- لقد عقد جون جالت صفقة مع الحكومة ولبّينا نداءه جميعًا.

صاح أحد الحراس:

- أوه، الحمد لله.

قاطعه الرئيس قائلًا:

- اخرس، يجب ألّا تكون لديك أيّ آراء سياسيّة.

ثمّ سأل بعد ذلك هانك ريردن:

- لماذا لم يتمّ الإعلان عن ذلك على أمواج الراديو؟

- هل ينبغي على الحكومة أن تتشاور معك في مثل هذه الأمور؟ أعتقد أنّ عليّ تذكيرك بأنّ وظيفتك ليست الشكَّ في الأوامر، بل طاعتها، وأنّه ينبغي عليك ألّا تعرف أو تفهم سياسات رؤسائك، وأنّه ينبغي عليك ألّا تحكم أو تختار أو تشكّك.

- لكنّني لا أعرف ما إذا كان يُفتَرض بي أن أطيعك.

- لكن إذا رفضت ستتحمّل وحدك كلّ العواقب.

وظلّ الرئيس جالسًا على الطاولة يمسح ببصره وجهَ ريردن ووجهَي الرجلين المسلّحين. وقد ثبّت هذان الرجلان هدفَهما بحركة تكاد تكون غير محسوسة. وسمع حفيفًا عصبيًّا داخل القاعة لجلبةٍ أحدثها حيوانٌ في أحد الأقفاص. فقال ريردن بنبرة حادّة قليلًا:

- أعتقد أنّ عليّ إخبارك أيضا بأنّني لست وحيدًا. فأصدقائي ينتظرونني في الخارج.

- أين؟

- في جميع أنحاء هذه القاعة.

- وكم عددهم؟

- ستكتشف عددهم.

فصاح صوت مهزوز من بين الحرّاس:

- أيّها الرئيس، نحن لا نريد التشابك مع هؤلاء الناس، إنّهم..

قال الرئيس وهو يصوّب المسدّس باتّجاه المتحدّث:

- اخرس.. تحلّوا بالشجاعة أيّها الرجال.

ثمّ أخذ يصرخ وهو يقول:

- ليس هناك ما يدعو إلى الخوف.. لا شيء يدعو إلى الخوف.. سأريكم.

التفت، وإذا بيده تهتزّ وذراعه ترتعش ثمّ أطلق النار على ريردن. ورأى بعضهم أنّ ريردن كان يتمايل ويده اليمنى تمسك بكتفه اليسرى، أمّا البعض الآخر فرأى، في اللحظة ذاتها، المسدّس يسقط من يد الرئيس ويصطدم بالأرضيّة والدم يتدفّق من معصمه. ثمّ رأوا جميعًا فرانسيسكو دانكونيا واقفًا عند الباب بالجانب الأيسر وهو يحمل مسدّسه المزوّد بكاتم صوتٍ وهو ما يزال مصوّبًا نحو الرئيس. كانوا جميعًا واقفين وقد سحبوا أسلحتهم، لكنّهم لم يجرؤوا على إطلاق النار. فقال فرانسيسكو:

- لن أفعل ذلك لو كنت مكانكم.

صاح أحد الحرّاس وهو يحاول أن يتذكّر اسمًا منزويا في أقاصي الذاكرة:

- هذا... هو الرجل الذي فجّر كلّ مناجم النحاس في العالم.

ردّ عليه ريردن:

- إنّه هو بلحمه وشحمه.

كانوا يتراجعون تلقائيًّا بعيدًا عن فرانسيسكو، ثمّ استداروا فرأوا ريردن واقفًا عند باب المدخل، يحمل المسدّس بيده اليمنى، وقد انتشرت على كتفه اليسرى بقعةٌ قاتمةٌ.

صرخ الرئيس على الرجال المتردّدين:

- أطلقوا النّار أيّها الأوغاد. ماذا تنتظرون؟ أطلقوا النار..

كان يميل بيد واحدة على الطاولة، والدم ينزف من اليد الأخرى. ثمّ أضاف:

- سأبلّغ عن أيّ رجل لا يقاتل. كلّ رجل لا يقاتل سيُحكَم عليه بالإعدام.

قال ريردن:

- ألقوا أسلحتكم.

ووقف الحرّاس السبعة بلا حراك ولم يطيعوا أيّ واحد منهما.

- أخرجوني من هنا.

هكذا صرخ أصغر الحرّاس، قبل أن يندفع نحو الباب، لكن سرعان ما تراجع إلى الوراء، بعد أن صادف داغني تاجرت واقفة عند العتبة تحمل مسدّسا في يدها.

وأخذ الحرّاس ينسحبون إلى وسط القاعة، وهم يعانون من الصدمة أمام حضور شخصيّات أسطوريّة لم يتوقّعوا رؤيتها هناك.

قال ريردن مجدّدًا:

- ألقوا أسلحتكم. فأنتم لا تعرفون لماذا أنتم هنا، أمّا نحن فنعرف. أنتم لا تعرفون من هو سجينكم، أمّا نحن فنعرف. أنتم لا تعرفون لماذا يريد رؤساؤكم أن تحرسوه، أما نحن فنعرف لماذا نريد إخراجه. أنتم لا تعرفون الغرض من معركتكم، أمّا نحن فنعرف الغرض منها. أنتم لا تعرفون ما الذي تخاطرون من أجله، أمّا نحن فنعرف ما الذي نخاطر من أجله.

قال الرئيس مزمجرًا:

- لا تفعلوا.. لا تستمعوا إليه.. أطلقوا النار.. آمركم بأن تطلقوا النار عليهم.

فنظر أحد الحرّاس إلى الرئيس، ثمّ رمى مسدّسه أرضًا، ورفع يديه، وتراجع بعيدًا عن المجموعة وسار نحو ريردن.

صاح الرئيس:

- لعنة الله عليك.

ثمّ استولى الرئيس على السلاح بيده اليسرى وأطلق النار على الهارب.

وبالتزامن مع سقوط جسم الرجل، انفجرت النافذة وتناثرت قطع الزجاج، واندفع رجل طويل ونحيل مثل قذيفة. دخل القاعة ثمّ أطلق النار على أوّل حارس واجهه.

صرخ أحد الحراس وهو يرتعد من الخوف.

- من أنت؟

- راجنار دانيسكولد.

رمى أربعة حرّاس أسلحتهم على الأرض، وفي الوقت نفسه أطلق أحد الحرّاس النار على جبين الرئيس.

ولم يستفق الحرّاس الأربعة من هول الصدمة إلّا بعد أن وجدوا أنفسهم ممدّين على الأرض، وقد قُيِّدت أيديهم وكُمِّمت أفواههم، أمّا الخامس فكان واقفًا وهو مقيّد اليدين. فسأله فرانسيسكو:

- أين السجين؟

- أعتقد أنّه في القبو..

- ومن يملك المفتاح؟

- الدكتور فيريس.

- وأين السلالم التي تؤدّي إلى القبو؟

- خلف بابٍ داخل مكتب الدكتور فيريس.

- قدني إليه.

وهما ينطلقان إلى مكتب الدكتور فيريس، سأل فرانسيسكو ريردن:

- هل أنت بخير يا هانك؟

- بالتأكيد.

- هل تحتاج إلى الراحة؟

- قطعًا لا.

ومن عتبة بابٍ في مكتب فيريس، نظروا إلى أسفل سلّم حجري حادّ ورأوا حارسًا

ينزل إلى أسفل. فأمره فرانسيسكو قائلًا:

- تعالَ إلى هنا رافعًا يديك إلى السماء.

ورأى الحارس خيال شخص غريب ووميضَ المسدّس، فأطاع على الفور. ثمّ تُرِك مقيّدًا على أرضيّة المكتب إلى جانب الحارس الذي قادهم.

ثمّ وجد المنقذون الأربعة أنفسَهم أحرارًا في الهبوط أسفلَ الدرج إلى الباب الفولاذيّ المقفل في القاع. وكانوا يتصرّفون ويتحرّكون بانضباط كبير. وكان الأمر كما لو أنّ قبضتهم الداخليّة انكسرت.

كان لدى دانيسكولد أدوات لتحطيم القفل. وكان فرانسيسكو أوّل من دخل القبو، وبذراعه سدّ الطريق على داغني في جزءٍ من الثانية، فجال بنظره للتأكّد من أنّ الأفق خالٍ وأنّ المشهد يمكن تحمّله، ثمّ تركها تندفع لتسير وراءه. ثمّ نظر خلف الأسلاك الكهربائيّة المتشابكة فوجد جالت يرفع رأسه لتحيّتهم.

لقد سقطت داغني على ركبتيها بجانب الفراش، بينما كان جالت ينظر إليها، وتذكّر أوّل صباح لهما في الوادي، ثمّ رسم ابتسامةً وقال بصوت منخفض:

- لم نضطرّ قطّ إلى أَخْذ الأمر على محمل الجدّ، أليس كذلك؟

فأخذت الدموع تنهمر على وجنتيها، ولكنّ ابتسامتها كانت تدلّ على يقين تامّ ومشرق، فأجابته:

- لا، لم نكن مضطرّين قطّ إلى فعل ذلك.

وأخذ ريردن ودانيسكولد يفكّان قيوده. أمّا فرانسيسكو فَوَضَع قارورة من البراندي على شفتَي جالت. فشرب، ورفع نفسه للاتّكاء على مرفق صديقه، ثمّ قال:

- أريد سيجارة.

فأخرج فرانسيسكو علبة سجائر تحمل شعار الدولار ومدّ سيجارة إلى صديقه.

فارتجفت يد جالت قليلًا، وهو يحمل السيجارة وينتظر إشعالها، فبحث فرانسيسكو عن ولاّعة، لكنّ يده ارتجفت أكثر أثناء إضرام النار. وعندما نظر جالت بعينيه إلى اللهب ابتسم وقال كأنّما يجيب على الأسئلة التي لم يطرحها فرانسيسكو:

- نعم، لقد كان الأمر سيّئًا جدًّا، وعلى الرغم من ذلك يمكن للمرء أن يتحمّل، لأنّ نوع الشدّة التي استخدموها لا تخلّف أيّ ضرر.

قال فرانسيسكوا:

- سأجدهم يوما مّا، أينما كانوا..

فردّوا عليه:

- حين تصل إليهم، لن تجد فيهم أيّ شيء يستحقّ أن يُقتل.

ونظر جالت في الوجوه التي تحيط به، ولاحظ الارتياح في عيونهم، والغضب في ملامحهم، فأدرك المعاناة الطويلة التي عاشوها قبل الوصول إليه. فقال:

- لقد انتهى الأمر. فلا تجعلوا الأمر يبدو أسوأ ممّا كان عليه معي.

فأدار فرانسيسكو وجهه بعيدًا وقال:

- لقد غامرنا، لأنّ الأمر كان يتعلّق بك.. أنت.. وما كنّا لنغامر لو أنّ الأمر يتعلّق بشخص آخر..

- ولكن كان لا بدّ عليّ أن أفعل ذلك. لقد يؤدّون محاولتهم الأخيرة، لقد حاولوا.. لكن دون جدوى.

ثمّ حاول جالت أن يجلس ويسيطر مجدّدًا على جسده، ثمّ نظر إلى وجه داغني، بينما كانت يدها تتقدّم لمساعدته. ورأى ابتسامتها التي تقاوم دموعها. كانت تقاوم لأنّها تدرك أنّه لا شيء يهمّ أمام رؤية جسده العاري، هذا الجسد الذي تشبّث بالحياة على الرغم من كلّ العذابات التي كابدها. فالتقط نظرتَها، ورفع يده ولمس طوق سترتها

البيضاء بأطراف أصابعه، اعترافًا وتذكيرًا بالأشياء الوحيدة التي تهمّ من الآن فصاعدًا. وأخبرته هزّةُ شفتيها الخافتةُ، وارتخاؤها لترسم ابتسامة، بأنّها كانت تفهم.

ووجد دانيسكولد قميص جالت وبنطلونه وبقيّة الملابس التي كانت ملقاةً على الأرض في زاوية من الغرفة. ثمّ سأله:

- هل تستطيع أن تمشي يا جون؟

- بالتأكيد.

وبينما كان فرانسيسكو وريردن يساعدان جالت على ارتداء ملابسه، تحرّك دانيسكولد بهدوء ليحوِّل آلة التعذيب إلى شظايا.

لم يكن جالت ثابتًا تمامًا على قدميه، لكنّه استطاع الوقوف، متكئًا على كتف فرانسيسكو. وكانت الخطوات القليلة الأولى صعبة، ولكن في الوقت الذي وصلوا فيه إلى الباب، تمكّن من استئناف المشي. لقد طوّقت إحدى ذراعيه كتفَي فرانسيسكو بهدف الاتّكاء، ووضع ذراعَه الأخرى على كتفي داغني، من أجل الحصول على إسناد.

ولم يتحدّثوا وهم يمشون في التلّ، وقد خيّم الظلام على الأشجار فوفّر لهم الحماية، وانعكس الوهج الميّت من ضوء القمر وقسوة المسافة خلفهم على نوافذ معهد الدولة للعلوم.

كانت طائرة فرانسيسكو مخبّأة بين الأشجار على حافّة المرج خلف التلّ حيث لا توجد مساكن بشرية، ولا عيون تراقبهم، بينما كانت أضواء الطائرة الأماميّة تنير الدرب الذي كان خَلَا إلّا من الأعشاب الطفيليّة الميّتة.

ومع سماع صوت الباب وهو يغلق من خلفهم والدفع الأماميّ للعجلات تحت أقدامهم، ابتسم فرانسيسكو لأوّل مرّة وقال وهو يساعد جالت على التمدّد فوق الكرسيّ:

- هذه فرصتي الأولى والوحيدة لأملي عليك الأوامر. استلقِ الآن.. وهوّن عليك.

ثمّ أضاف وهو يلتفت إلى داغني ويشير إلى المقعد بجانب جالت:

- أنتِ أيضًا.

وتسارعت حركة العجلات، كما لو أنّها تسعى إلى اكتساب السرعة والخفّة، متجاهلةً العقبات العاجزة للهزّات الصغيرة من أخاديد الأرض. وعندما تحوّلت الحركة إلى سلسلة طويلة ناعمة، ورأوا الأشكال المظلمة للأشجار التي كانت تتمايل في الأسفل وتلوّح إليهم عبر نوافذ الطائرة، انحنى جالت بصمت وضغط بشفتيه على يد داغني. كان يغادر العالم الخارجيّ بقيمة واحدة أراد الفوز بها.

ثمّ حاول فرانسيسكو أن يسعف ريردن. فقد أزال قميصه ليضمّد جرحه. ورأى جالت القطرات الحمراء تسيل من كتف ريردن أسفل صدره. فقال:

- شكرًا لك يا هانك.

فابتسم ريردن وقال:

- سأكرّر ما قلته لي عندما شكرتك في أوّل اجتماع لنا: «إذا فهمت أنّني تصرّفت من أجل نفسي، فستعلم أنّه لا حاجة إلى الامتنان».

فقال جالت:

- وأنا أيضًا سأكرّر الإجابة التي تلقّيتها منك في ذلك الاجتماع: «ولهذا أشكرك».

ولاحظت داغني أنّهما كانا ينظران أحدهما إلى الآخر ممّا ينمّ عن الرابطة القويّة التي تجمع بينهما. فرآها ريردن وهي تراقبهما، فكان الانقباض في عينيه بمثابة ابتسامةِ جزاءٍ، كما لو أنّ نظرته تردّد الرسالة التي أرسلها من الوادي.

ثمّ سمعوا فجأة صوت دانيسكولد يتكلّم بمرحٍ في حديث متقطّع، فعلموا أنّه يتحدّث عبر جهاز الطائرة اللّاسلكي:

- نحن جميعا سالمون.. نعم، هو غير مصاب، فقط يرتعش قليلًا، لكنّ وضعه مستقرّ وهو مرتاح.. لا، لا إصابات خطيرة.. نعم، كلّنا هنا. هانك ريردن أصيب بجرح في كتفه، لكنّه يبتسم لي الآن.. هل توجد أيّ خسائر؟ أعتقد أنّنا فقدنا أعصابنا بضع دقائقَ هناك لكنّنا سنتعافى.. لا تحاول أن تضربني في وادي جالت، سأهبط أوّلًا، وسأساعدك في إعداد وجبة الفطور.

فسألته داغني:

- هل يستطيع أيّ غريب أن يسمع ما كنت تقوله؟

فردّ عليها فرانسيسكو:

- لا.

فسأله جالت:

- مع من يتحدّث؟

فردّ عليه فرانسيسكو:

- إنّه يخاطب حوالي نصف سكان الوادي.. إنّهم يحلّقون خلفنا الآن. هل تعتقد أنّ أيّ واحد منهم سيبقى في المنزل ويتركك في أيدي اللصوص؟ لقد كنّا مستعدّين للحصول عليك حتّى لو منّا اقتضى الأمر أن نشنّ هجومًا مسلّحا على ذلك المعهد أو على فندق واين فوكلاند. لكنّنا نعلم أنّنا في هذه الحالة سنخاطر بحياتك عندما يلاحظون أنّهم يتعرّضون للهجوم. لهذا قرّرنا أن نحاول وحدَنا أوّلًا، وإذا فشلنا سيكون الآخرون قد شرعوا في شنّ هجوم كبير. كانوا ينتظرون على بعد نصف ميل، وكان لدينا رجال ينتشرون بين الأشجار على التلّ.. بالمناسبة، إليس وايت كان المسؤول، وهو يحلّق الآن بطائرتك، بسبب عجزنا عن الوصول إلى ولاية نيو هامبشاير بسرعة الدكتور فيريس نفسها، وهو ما اضطرّنا إلى أخذ طائراتنا من أماكن هبوط خفيّة وبعيدة، بينما كانت لديه ميزة المطارات المفتوحة. وبالمناسبة، لن يكون لديه الكثير من

الوقت.

فقال جالت:

- فعلًا لن يكون لديه الكثير من الوقت.

- تلك كانت عقبتنا الوحيدة. أمّا ما تبقّى فكان سهلًا، سأخبرك بالقصّة الكاملة لاحقًا.

فقال دانيسكولد:

- سيتعلّم المتوحّشون، الذين يعتقدون أنّهم يستطيعون حكمَ الأذكياء بالقوّة، درسًا مهمًا، وهو أن لا شيء يمكن أن ينتصر على العقل.

فقال جالت:

- لقد تعلّموه، أليس هذا هو الدرس الذي كنت تلقّنهم إيّاه منذ اثني عشر عامًا؟

- أنا؟ أجل، أجل. لكنّ الفصل الدراسيّ انتهى. وما فعلته الليلة هو آخر أعمال العنف التي سأقدم عليها. لقد بدأ رجالي ببناء منازلهم في الوادي، أمّا سفينتي فهي مخبّأة بمكان لن يجدها فيه أحدٌ إلى أن أتمكّن من بيعها لاستخدام أكثر تحضّرًا. سوف يتمّ تحويلها إلى سفينة ركّاب عبر المحيط الأطلسيّ وستكون باخرة ممتازة حتّى لو كان حجمها متواضعًا. أمّا أنا، فسأشرع في تقديم نوع مغاير من الدروس. أعتقد أنّني سأضطرّ إلى تحسين أعمال معلّمنا الأوّل.

فضحك ريردن وقال:

- أريد حضورَ محاضرتك الأولى عن الفلسفة. وأريد أيضًا أن أرى كيف سيتمكّن الطلّاب من التركيز على الموضوع، وكيف ستجيب على أسئلتهم التي تتّصل بالموضوع.

- سأخبرهم بأنّهم سيجدون الإجابات في الموضوع في حدّ ذاته.

لم تكن هناك أضواء كثيرة على الأرض في الأسفل، وكان الريف صفحةً سوداء خاليةً، مع بعض الومضات العرضيّة في نوافذ بعض الهياكل الحكوميّة، ووهج ارتجاف الشموع في نوافذ المنازل المثيرة. لقد انحدر مستوى عيش معظم سكّان الريف منذ فترة طويلةٍ إلى عيش حياة تلك العصور التي كان الضوء الاصطناعيّ فيها ترفًا باهظًا، وقد وضع غروب الشمس حدًّا للنشاط البشريّ. كانت المدن منتشرةً في البرك، ومازالت تحتجز بعض قطرات ثمينة من الكهرباء، لكنّها تجفّ في صحراء التموين والحصص والضوابط وقواعد الحفاظ على الطاقة.

ولكن عندما يكون المكان الذي مثَّل ذات يومٍ مصدرَ المدّ والجزر، مثل مدينة نيويورك التي ارتفعت أمامهم على مدى مسافة، فإنّ أنوارَه ستظلّ ممتدّةً في السماء ومتحدّيةً للظلام البدائيّ. هذا هو حال نيويورك كما لو أنّها تبذل جهدًا نهائيًّا، في نداء أخير للمساعدة. كانت تمدّ أكفَّها إلى الطائرة التي تعبر سماءها. لذلك جلسوا بشكل لاإراديّ، كما لو أنّهم يحترمون الانتباه عند فراش الموت إلى ما مثّل في يوم مّا معنى العظمة.

وعند النظر إلى أسفل كان يمكنهم رؤية تشنجّات الماضي: كانت أضواء السيّارات المندفعة في الشوارع مثل الحيوانات المحاصرة في متاهةٍ، تبحث بشكل محمومٍ عن مخرج. وكانت الجسور مزدحمةً بالسيّارات، وقد اكتظّت بها أيضًا الشوارع القريبة منها، وكان الازدحام الشديد يعطّل حركة المرور. وبلغ صراخ صفّارات الإنذار اليائس مستوى ارتفاع الطائرة. لقد انتشرت الآن أنباء قطع شريان حياة القارّة، فهي الآن تبتلع المدينة. لقد تخلّى الناس عن مناصبهم، وهم يبحثون عن ملاجئ خارج نيويورك، لكنّ جميع الطرق مقطوعةٌ.

كانت الطائرة فوق قمم ناطحات السحاب عندما اختفت المدينة فجأةً، كما لو أنّ الأرض ابتلعتها. واستغرق الأمر منهم لحظةً ليدركوا أنّ الذعر بلغ محطّات الطاقة، وأنّ أضواء نيويورك انطفأت.

فشهقت داغني، فأمرها جالت بحدّة:

- لا تنظري إلى أسفل.

فرفعت عينيها إلى وجهه. كان وجهه يُظهِر الصرامة ذاتها التي كانت تراها دائمًا فيه عندما يواجه الحقائق.

وتذكّرت القصّة التي سردها فرانسيسكو على مسامعها:

- استقال من مصنع القرن العشرين، وكان يعيش في حيّ فقيرٍ. لقد صعد إلى النافذة وأشار إلى ناطحات السحاب في المدينة وقال إنّ علينا إطفاء أضواء العالم، وعندما نرى أضواء نيويورك تنطفئ، سنعرف أنّ مهمّتنا قد أنجزت.

فكّرت في ذلك عندما رأت جون جالت وفرانسيسكو دانكونيا وراجنار دانيسكولد ينظرون بصمت بعضهم إلى بعض مستمتعين بتلك اللحظة.

ثمّ نظرت إلى ريردن الذي لم يكن ينظر إلى أسفل، بل ينظر إلى الأمام، حيث يقف ريف بكر.

وعندما نظرت في الظلام الذي كان يحاصرها، تفتّقت ذكرى أخرى في عقلها، ذكرى اللحظة التي كانت تحوم فيها فوق مطار أفتون، حين رأت جسمًا فضّيًّا لطائرة تنبعث مثل العنقاء من ظلام الأرض. كانت تدرك أنّها طائرتهم وهي تحمل كلّ ما تبقّى من مدينة نيويورك.

فنظرت إلى الأمام. ستكون الأرض فارغة كالفضاء، إذ كانت طائرتهم تقطع مسارًا فارغًا وحرًّا. كانت تعرف ما شعر به ناث تاجرت في بدايته ولماذا الآن، وللمرّة الأولى، ها هي تتبعه بولاء كاملٍ، لقد حدث ذلك بسبب شعورها بالثقة ومعرفتها بأنّ ثمّة قارّة أخرى للإعمار.

وشعرت بماضيها يتألّق ثمّ يخبو، فابتسمت، لأنّ الكلمات التي خامرتها هي الشجاعة والفخر والتفاني، وهي كلماتٌ لم يفهمها معظم البشر.

ولم تشهق، ولم تشعر بأيّ هزّة عندما شاهدت، في الأسفل، سلسلةً صغيرة من النقاط المضاءة تكافح ببطءٍ جهةَ الغرب من خلال الفراغ، باندفاعة طويلة ومشرقة لمصباح أماميّ يتلمّس مساره لحماية سلامة الطريق، ولم تشعر بأيّ شيء، على الرغم من أنّه كان قطارًا، لأنّها تدرك أنّه لا يملك أيّ وجهة.

ثمّ التفتت إلى جالت. كان يراقب وجهَهَا كما لو أنّه يتابع أفكارها. فرأت انعكاسَ ابتسامتها على ابتسامته فقالت:

- إنّها النهاية.

فأجابها:

- بل إنّها البداية.

ثمّ استلقوا بسكون، متّكئين على كراسيّهم، ينظرون في صمت بعضهم إلى بعض. ثمّ ملأت شخصيّاتهم بعضهم وعي بعضٍ، لأنّها تجسّد المستقبل، ولكنّ الخلاصة شملت معرفة كلّ ما كان يجب الحصول عليه.

كانت نيويورك بعيدةً عنهم، عندما سمعوا دانيسكولد وهو يجيب على اتّصال من اللّاسلكيّ:

- نعم، هو مستيقظ. لا أعتقد أنّه سينام الليلة.. نعم، أعتقد أنّه يستطيع.

فاستدار ليلقي نظرة على كتفه وأضاف:

- جون، الدكتور أكستون يريد أن يتحدّث إليك.

- ماذا؟ هل هو في إحدى الطائرات التي تحلّق خلفنا؟

- طبعا.

فقفز جالت إلى الأمام ليستولي على المايكروفون، ثمّ قال:

- مرحبًا دكتور أكستون.

- مرحبًا جون... لقد أردت فقط أن أسمع صوتك.. لأتأكّد أنّك بخير.

فضحك جالت، ثمّ أجابه بكلّ سرور:

- أنا بخير يا أستاذ. كان عليَّ أنّ أكون كذلك. فـ«أ» هي «أ».

***

تحطّمت قاطرة المذنّب بالخطّ الشرقيّ وسط الصحراء في ولاية أريزونا. توقّفت فجأةً ومن دون سبب. وعندما استدعى إيدي ويلرز الكمساريّ، انتظر وقتًا طويلًا قبل أن يأتي الرجل، وأدرك الجوابَ فقط من نظرة الاستسلام التي تعلو محيّا الرجل.

فأجابه بهدوء:

- يا سيّد ويلرز، إنّ سائق القطار يحاول أن يكتشف سبب العطب.

- ألم يتعرّف على السبب بعدُ؟

- إنّه يعمل على ذلك.

ثمّ انتظر الكمساريّ بأدبٍ مدّةَ نصف دقيقة واستدار ليذهب، لكنّه توقّف ليفسّر ما وقع، كما لو أنّ إحدى العادات العقلانيّة أخبرته بأنّ أيَّ محاولة للتوضيح ستجعل من أيّ رعب غير معترف به أسهل في التحمّل.

- إنّ قاطراتنا المزوّدة بمحرّكات الديزل ليست قادرةً على العمل. إنّها لم تخضع لعمليّات الصيانة منذ وقت طويل.

فردّ إيدي ويلرز بهدوء:

- أعرف ذلك.

فشعر الكمساريّ بأنّ تفسيره ورّطه في نقاش لا يرغب فيه، فهزّ رأسه وخرج.

وجلس إيدي ويلرز ينظر إلى الظلام الفارغ وراء النافذة. كانت هذه أوّل قاطرة مذنّب متّجهة شرقًا خارج مدينة سان فرانسيسكو منذ أيّام طويلة. لقد كانت ثمرة

جهوده الحثيثة لإعادة إحياء خدمة النقل عبر القارّات. ولم يتمكّن من معرفة ما كلّفته الأيّام القليلة الماضية أو ما فعله لإنقاذ محطّة سان فرانسيسكو من الفوضى العارمة الناجمة عن الحرب الأهليّة التي كان الناس يخوضونها. ولم يكن هناك سبيل لتذكّر الصفقات التي عقدها لهذا الغرض. هو يعرف فقط أنّه حصل على إذنٍ لإدارة المحطّة من قادةٍ مختلف الفصائل المتحاربة، وأنّه وجد رجلًا لمنصب مدير المحطّة الذي لا يبدو أنّه استسلم تمامًا. لقد بدأ بتشغيل قاطرة مذنّب تاجرت بخطّ الشرق مع أفضل محرّك ديزل وأفضل طاقم متاحٍ، وأنّه قد استقلّها في رحلة عودته إلى نيويورك، دون معرفة المدى الزمنيّ الذي سيستغرقه هذا الإنجاز.

لم يضطرّ قطّ إلى العمل بجدٍّ. لقد أدّى عملَه بضمير حيٍّ، ولكنّ الأمر بدا كما لو أنّه يعمل دون جدوى.. لقد ارتجف وشعر بنوعٍ من القرابة مع محرّك القطار المتوقّف. وبعد مدّةٍ زمنيّةٍ، استدعى الكمساريّ مرّة أخرى فسأله:

- كيف تسير الأمور هناك؟

فهزّ الكمساريّ رأسه متجاهلًا، فأضاف إيدي ويلرز:

- أرسل رجل الإطفاء إلى هاتف المسار. واطلب منه أن يخبر مقرّ القسم بأن يرسل إلينا أفضل ميكانيكيّ هناك.

- حاضر سيّدي.

بعد أن أطفأ الضوء، كان في وسع إيدي ويلرز أن يتبيّن انتشارًا رماديًّا لمنطقة كثرت فيها البقع السوداء من الصبّار. وتساءل عن الكيفيّة التي عبر بها الناس هذه المناطق في الأيّام الخوالي. فحرّك رأسَه بعيدًا وأشعل الأنوار مجدّدًا.

كان يعتقد أنّ المذنّب منفيّ هنا، وهو ما جعله يشعر بقلق كبيرٍ. وكانت قاطرة المذنّب متوقّفةً على سكّة حديديّة غريبة على المسار المستعار لشركة جنوب المحيط الأطلسيّ الذي كان يمرّ عبر ولاية أريزونا، ذلك المسار الذي كانوا يستخدمونه دون مقابلٍ. وكان عليه أن يخرجها من هناك. لكنّ هذا الأمر يبدو مستحيلًا.

وقال في نفسه: لا، هذا ليس كلّ شيء. وكان عليه أن يعترف لنفسه بالصور التي تزعجه دون أن يستطيع فهمها أو يقدر على تبديدها، فهي بلا معنى ولا يمكن تفسيرها. وكانت إحدى هذه الصور لمحطّةٍ مرّوا بها من دون توقّف لأكثر من ساعتَين. لقد لاحظ المنصّة الفارغة والمتألّقة والنوافذ المضاءة لمبنى المحطّة الصغيرة، وجاءت الأضواء من غرف فارغة، فلم يرَ أيَّ خيال بشريّ، لا في المبنى، ولا في المسارات بالخارج. أمّا الصورة الأخرى فكانت لمحطّة الطريق التي مرّوا بها بعد ذلك، وكانت منصّتها مزدحمةً بحشد هائج. هم الآن بعيدون كلّ البعد عن متناول أيّ ضوء أو صوت أو أيّ محطّة.

وكان يعتقد أنّ عليه إخراجَ قاطرة المذنّب من هنا، وتساءل عن سبب هذا الإلحاح. فالقطار لا يحمل سوى حفنة صغيرة من الركاب. كانت العربات من الدرجة الأولى فارغةً، إذ لم يعد للناس مكانٌ يقصدونه ولا أهدافٌ يبلغونها. وهو لم يكن يكافح من أجلهم، غير أنّه لا يستطيع تحديد الطرف الذي يكافح من أجله. فقط عبارتان وقفتا كإجابة في عقله؛ العبارة الأولى كانت تقول: من المحيط إلى المحيط، وإلى الأبد، أمّا الأخرى فكانت تقول: لا تتخلَّ عنه.

ثمّ عاد الكمساريّ، بعد ساعة، مع رجل الإطفاء الذي بدا وجهه متجهّمًا بشكل غريب. فقال هذا الرجل ببطء:

- سيّد ويلرز، إنّ مقرّ القسم لا يجيب.

فجلس إيدي ويلرز رافضًا التصديقَ، لكنّ هذا الأمر هو، في الواقع، كلّ ما كان يتوقّعه. فقال:

- هذا مستحيلٌ.

كان صوته منخفضًا، وكان رجل الإطفاء ينظر إليه بلا حراكٍ، ثمّ أضاف:

- لا شكّ أنّ هاتف المسار كان خارج الخدمة.

- لا يا سيّد ويلرز. لم يكن الخطّ خارج الخدمة.. أعني، لم يوجد أحدٌ ليجيب، أو لم يكن هناك أيّ شخص يبالي بنداءاتنا.

- لكنّك تعرف أنّ هذا الأمر مستحيل.

فتجاهل رجل الإطفاء كلامَه، لأنّ الناس لا يستبعدون أيّ كارثة هذه الأيّام. ثمّ نهض إيدي ويلرز وقال آمرًا الكمساريّ:

- أُطرق كلّ الأبواب، أعني أبواب العربات العامرة، وابحث عن أيّ مهندس كهربائيّ قد يكون على متنها.

- حاضر سيّدي.

وأدرك إيدي أنّهم مقتنعون، تمامًا مثله هو، بأنّهم لن يجدوا مثل هذا الرجل بين المسافرين.

والتفت إيدي إلى رجل الإطفاء وأمره بالانصراف:

- هيّا انطلق.

فصعدا معًا على متن القاطرة. وكان سائق القطار يجلس على كرسيّه يحدّق في الصبّار على ضوء المحرّك الأماميّ الذي ظلّ يعمل طوال الليل.

فقال إيدي وهو ينزع معطفه:

- دعونا نحاول معرفة مصدر العطب، دعونا نحاول أكثر.

فردّ عليه سائق القطار:

- حاضر سيّدي.

وكان سائق القطار قد تحقّق من كلّ الأماكن التي قد تكون مصدرَ العطب. لقد زحف فوق الآلات وتحتها، وفكّ أجزاءَها وشدّها مرّة أخرى، وقطّع أوصالَ المحرّكات عشوائيًّا مثل طفلٍ يفكّك مكوّنات ساعةٍ، فوضع كلّ عنصر على حدة،

ولكن دون جدوى.

وظلّ رجل الإطفاء ينحني على كلّ نافذة بكلّ عربة، وينظر من خلال سكون الظلام وهو يرتجف، كما لو أنّه أصيبَ بهواء الليل الذي كان يزداد برودةً.

فقال إيدي ويلرز بنبرة واثقة:

- لا تقلق، علينا أن نبذل قصارى جهودنا، لكن إن فشلنا.. سنتلقّى الدعم قريبًا. إنّهم لا يتركون القطارات في مكان مجهولٍ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ردّ عليه رجل الإطفاء:

- طبعًا، فهم لم يعتادوا على هذا الأمر.

وكان سائق القطار يرفع، بين فينةٍ وأخرى، وجهَه الملطّخ بالدهون لينظر إلى وجه إيدي ويلرز وقميصه الملطّخين بالشحوم. ثمّ سأله:

- يا سيّد ويلرز، لا فائدة ترجى ممّا نفعله؟

أجابه إيدي بنبرة حادّة:

- لا يمكننا أن نتخلّى عنه.

كان يعرف بشكل غامض أنّ ما يعنيه أكثرُ من القطار المذنّب.. وأكثرُ من السكك الحديديّة.

وأثناء انتقاله من غرفة السائق عبر الوحدات ذات المحرّكات الثلاثة، وعودته إلى غرفة السائق مرّةً أخرى، ويداه تنزفان، وقميصُه عالق على ظهره بسبب العرق، كان إيدي ويلرز يكافح من أجل تذكّر كلّ شيء عرفه عن المحرّكات، وكلّ شيء تعلّمه في الجامعة وحتّى قبل ذلك... أيّ شيء كان قد التقطه في تلك الأيّام عندما كان عملاء المحطّة في محطّة روكديل يطاردونه من درجات محرّكات التبديل المتثاقلة. لم تكن القطع مرتبطةً بأيّ شيء، وبدت دماغه مشوّشةً وأفقه ضيّقًا. كان يعلم أنّ المحرّكات ليست

مهنتَه، لكنّ المعرفة تمثّل الآن مسألة حياة أو موت. وكان ينظر إلى الأسطوانات والشفرات والأسلاك ولوحات التحكّم التي ما تزال تنير، ويقاوم كي لا يلبّي نداء الاستسلام الذي يتردّد في داخله.

وقال سائق القطار متذمّرا:

- لا فائدة ترجى من كلّ هذا التعب، يا سيّد ويلرز.

فصاح إيدي:

- لا يمكننا أن نتخلّى عنه.

لم يكن يعرف عددَ الساعات التي مرّت عندما سمع الإطفائيّ وهو يصرخ فجأة:

- سيّد ويلرز، انظر..

وكان رجل الإطفاء منحنيًا خارج النافذة، يشير إلى الظلام، فنظر إيدي ويلرز. كان هناك ضوء صغير وغريب يترنّح من مسافة بعيدة، ويبدو أنّه كان يتقدّم بنسق غير ملحوظ، لكنّه ليس من الأضواء التي اعتاد عليها.

وبعد لحظات، صار في وسعه أن يتبيّن بعض الأشكال السوداء وهي تتقدّم ببطءٍ. كانت تتحرّك في خطّ موازٍ للمسار. إنّها بقعةٌ من الضوء تظهر من ارتفاع منخفضٍ فوق الأرض.

ثمّ التقط إيقاعًا خافتًا بدا مثل خبب حوافر الخيول. وكان الرجلان بجانبه يشاهدان الأشكال السوداء بنظرة من الرعب المتزايد، كما لو أنّه ظهور لأحد الخوارق في ليلة دامسة في الصحراء. ثمّ أصابهم الذهول فجأةً عندما تعرّفوا على الأشكال. كانت الأشكال التي رأوها قطارًا من العربات المغطّاة.

ثمّ توقّف الفانوس المتأرجح بجانب المحرّك. وخاطبهم الرجل الذي يبدو أنّه قائد القطار:

- مرحبًا أيّها الشباب، هل تريدون أن نوصلكم إلى أيّ مكان؟

ثمّ أخذ في الضحك وأضاف:

- قطاركم عالق، أليس كذلك؟

كان بعض ركّاب قطار المذنّب يحدّقون من النوافذ، أمّا البعض الآخر فكانوا يهبطون من السلالم ويقتربون من القطار الجديد. أمّا النساء فكنّ ينظرن خلسةً من العربات، وكان هناك طفل يبكي في مكان مّا خلف القافلة بين أكوام السلع المنزليّة.

فسأله إيدي ويلرز:

- هل أنت مجنون؟

- لا، بل أعني ذلك يا أخي. إذا أردتم الخروج من هنا، فإنّنا نستطيع أن نمدّ إليكم يدَ العون، ولكن بمقابل.

قال إيدي ويلرز بحنق:

- ألا تعلم أنّ هذا القطار هو القطار المذنّب لآل تاجرت؟

- المذنّب؟ إنّه يبدو لي أشبه بيرقة ميّتة. ما خطبك يا أخي؟ لن يوصلك هذا القطار إلى أيّ مكان.

- ماذا تعني؟

- هل تعتقد أنّه يمكنك الذهاب إلى نيويورك؟

- نحن ذاهبون إلى نيويورك.

- أنت، إذَن، لم تسمع بما حدث؟

- وماذا حدث؟

- متى كانت آخر مرّة تواصلت فيها مع إحدى محطّاتكم؟

- لا أذكر.. ماذا وقع؟

- لقد دُمّر جسر تاجرت بالكامل. ولا أحد يعرف ما حدث بالضبط. لا يوجد أيّ جسر لعبور نهر الميسيسيبي.. لا يمكنك الوصول إلى مدينة نيويورك.

ولم يكن إيدي ويلرز يعلم بما حدث بعد ذلك، فقد عاد إلى جانب كرسيّ سائق القطار، محدّقًا في باب وحدة المحرّكات المفتوح، ولم يكن يعرف المدّة التي قضّاها هناك، ولكن عندما أدار رأسه، وجد نفسه وحيدًا. لقد غادر سائق القطار والإطفائيّ العربةَ. وكان في الخارج صياحٌ وضوضاء. فسحب إيدي نفسه إلى نافذة العربة، فلاحظ أنّ ركّاب القطار وطاقمه يحتشدون حول زعيم القافلة ورفاقه المسعورين. ويبدو أنّ أزواج بعض السيّدات اللّائي كنّ يرتدين أفضل الملابس على متن القطار المذنّب كانوا أوّل من عقد صفقة معه. لقد كانوا يتسلّقون العربات المغطّاة.

وكان المنادي يصرخ ببهجة:

- تقدّموا يا رفاق، تقدّموا.. سنفسح المجالَ للجميع. العربات مزدحمة قليلًا، لكنّها تتّسع للجميع.. لقد ولّى زمن الحصان الحديديّ، فكلّ ما لدينا الآن هو الحصان العاديّ من الطراز القديم الذي يتنقّل ببطء ولكن بثبات.

ثمّ تسلّق إيدي ويلرز السلّم لرؤية الحشد وليكون صوتُه مسموعًا. ثمّ خاطب ركّابه:

- أنتم لن تتخلّوا عن القطار المذنّب، أليس كذلك؟

فابتعدت عنه جموعُ الركّاب قليلًا كما لو أنّهم لا يريدون النظر إليه أو الردّ على سؤاله. لم يكونوا يرغبون في سماع الأسئلة والنداءات التي كانت عقولهم عاجزةً عن فهمها. لقد رأى الوجوه وقد أعماها الذعر.

قال المنادي مشيرًا إلى إيدي:

- ما خطب هذا القرد؟

وقال سائق القطار بهدوء:

- يا سيّد ويلرز، لا فائدة ترجى من...

فقاطعه إيدي ويلرز:

- لا تتخلَّ عن المذنّب.. لا تتركه.. يا إلهي، لا تتخلَّ عنه.

فصاح المنادي:

- هل أنت مجنون؟ أنت لا تملك فكرةً عمّا يجري في محطّاتكم وكذا في مقرّكم الرئيسيّ.. لا أعتقد أنّ إحدى السكك ستصمد في هذا الجانب من نهر الميسيسيبي بحلول صباح الغد.

قال سائق القطار:

- من الأفضل أن تأتي معنَا يا سيّد ويلرز.

- لا..

هكذا صرخ إيدي، ممسكًا بالدرجة المعدنيّة كما لو أنّه يريد أن تصل يدُه إليه بسرعة.

فتجاهله المنادي وقال:

- حسنًا، ستكون جنازتك هنا.

فسأله سائق القطار من دون أن ينظر إلى إيدي:

- أيّ طريق ستسلكون؟ وما هي وجهتكم؟

- لا شيء يهمّ الآن سوى التنقّل.. مجرّد البحث عن مكان مّا للتوقّف... في مكان مّا. نحن من مدينة إمبريال فالي بولاية كاليفورنيا. لقد استولى أنصار «حزب الشعب» على المحاصيل والغذاء الذي كنّا نخزّنه في الأقبية... لم يكن أمامَنا من حلٍّ سوى الرحيل لذلك.. وكان ينبغي علينا السفر ليلًا بسبب عصابات واشنطن.. نحن فقط نبحث عن مكانٍ لنعيش فيه.. مرحبًا بك معنا يا صديقي، إذا لم يكن لديك أيّ منزل..

ويمكنك أن تهبط في أقرب بلدة.

وقال إيدي في نفسه بلامبالاةٍ: يبدو أنّ الناس في ذلك القطار يمتلكون من الدهاء ما يجعلهم يؤسّسون إحدى المستوطنات السرّيّة والحرّة، لكنّهم ليسوا أذكياء ليشكّلوا عصابة من الغزاة.

لقد بقي على السلّم، ينظر إلى ذلك الشعاع. لكنّه لم يشاهد أنّ آخر راكبٍ في القطار المذنّب قد انتقل إلى العربات المغطّاة. كان سائق القطار آخر المغادرين، هذا السائق الذي نادى إيدي:

- سيّد ويلرز، تعالَ معنا.

ردّ عليه إيدي:

- لا

فلوّح المنادي بيده إلى إيدي قائلًا:

- أتمنّى أن تكون متأكّدًا ممّا تفعل.. قد يأتي شخص مّا من هذا الطريق فيأخذك معه في الأسبوع القادم أو الشهر القادم.. بالله عليك من سيفعل ذلك في هذه الأيّام؟

ردّ عليه إيدي ويلرز:

- ابتعد من هنا.

فتسلّق عائدًا إلى عربة السائق. وعندما أدرك أنّ العربات التي كانت مجرورةً بالخيول اندفعت إلى الأمام وذهبت تتمايل مع جلبة صريرها في الليل، جلس على كرسيّ سائق القطار، ثمّ ضغط جبهته على دوّاسة الوقود، فشعر وكأنّه قبطان سفينة بَحرِيّة فضّل أن يغرق مع سفينته بدلًا من أن ينقذَه زورقٌ من المتوحّشين الذين يسخرون منه بسبب تفوّق مركبهم.

ثمّ شعر، فجأةً، بغضب شديد. فنهض واستمرّ في الضغط على دوّاسة الوقود. كان

عليه تشغيل هذا القطار، يجب أن يشغّل هذا المحرّك ويجعله يتحرّك.

وبعد أن تجاوز مرحلةَ التفكير والحسابات والخوف، انتقل إلى مرحلة التحدّي المشروع، فأخذ يسحب العتلات عشوائيًّا، ويهزّ دوّاسةَ الوقود إلى الأمام وإلى الخلف. كان يدرك أنّ معركته اليائسة تغذّيها تلك الرؤية التي يحارب من أجلها.

- لا تتخلَّ عنه.

هذا ما كان يقول في نفسه، وهو يستذكر شوارعَ نيويورك وأضواءَ إشارات السكك الحديديّة والدخانَ الذي يتصاعد بفخرٍ من مداخن المصانع.

لقد أخذ يسحب لفائف الأسلاك، ويربطها ثمّ يمزّقها إربًا إربًا، بينما استمرّ الإحساس المفاجئ للشمس وأشجار الصنوبر بالسحب في زوايا عقله. كان يصيح في نفسه بلا صوت: داغني، باسم الأفضل فينا.. كان يرتجف على عتلات لا طائل من ورائها، وكان يضغط على دوّاسة الوقود. داغني، باسم الأفضل فينا.. يجب أن أشغّل هذا القطار الآن.. داغني، هذا ما كان عليه.. وكنت تعرفين ذلك حينها، أمّا أنا فلم أكن أعرف.. كنت تعرفين ذلك عندما التفتِّ للنظر إلى القضبان.. وقلت لك: إنّ الأمر لا يتعلّق بالعمل أو كسب لقمة العيش.. لكن، يا داغني، إنّ العمل وكسبَ لقمة العيش هما ما يجعلان ذلك ممكنًا. إنّه الشيء الذي يجب الدفاع عنه.. يجب أن أشغّل هذا القطار الآن...

وعندما وجد نفسه قد انهار على أرضيّة عربة السائق ورأى أنّه لم يعد هناك شيء يمكنه فعله هنا بعد الآن، تسلّق السلّم، وهو يفكّر في عجلات المحرّك، رغم أنّه يعرف أنّ السائق قد تفحّصها. ثمّ شعر برمال الصحراء تحت قدميه عندما ترك نفسه يسقط على الأرض وبقي ساكنًا يسمع حفيفَ الأعشاب وهي تتحرّك بشكل بهلوانيّ في الظلام مثل ضحكة مكتومة لجيش خفيف الحركة. لقد سمع حفيفًا حادًّا بالقرب من مكانه ورأى شكلَ الأرنب الرماديَّ الصغيرَ يرتفع ليشمّ درج عربة مذنّب تاجرت، فاندفع في اتّجاه الأرنب، كما لو أنّه يمكن أن يهزم تقدّم العدوّ في شخص ذلك الشكل

الرماديّ الصغير. فتسللّ الأرنب في الظلام.

ثمّ وقف أمام المحرّك ونظر إلى الحرفين (ت - ت). ثمّ انهار وهو ينتحب عند قدم قاطرة المحرّك.

***

كانت موسيقى الكونشرتو الخامس لريتشارد هالي تنساب من لوحة مفاتيحه، وتعبر زجاجَ النافذة، لتنتشر في الجوّ فوق أضواء الوادي. إنّها سيمفونيّة النصر. وانسابت النوتات التي تتحدّث عن النهوض، بينما كانت هي في حدّ ذاتها تجسّد النهوض. كانت تجسّد كلّ فعلٍ وفكر بشريّ يسعى إلى الرقيّ والازدهار. كان نغمًا بمثابة إشراقة الشمس، يعبّر عن حرّيّة الخلاص وتوتّر الهدف. لقد كنس الفضاء وتركه نظيفًا ولم يترك من شيّءٍ سوى بهجة جهد من دون عائق. كان هناك فقط صدى خافت من بين الأنغام تحدّثَ عن الصوت الذي كانت الموسيقى تهرب منه، لكنّه تكلّم بدهشة ضاحكة عن الاكتشاف الذي يقول إنّه لا يوجد قبحٌ أو ألمٌ، وليس في الأمر من داعٍ إلى وجودهما. كانت أغنية الخلاص العظيم.

وسقطت أضواء الوادي في رقع متوهّجة على الثلج الذي ما يزال يغطّي الأرض. كانت هناك رفوف من الثلج على حوافّ الجرانيت وعلى الأطراف الثقيلة من الصنوبر. لكنّ الأغصان العارية من أشجار البتولا كانت لها قوّة دفع ضعيفة، كما لو أنّها واثقة من اقتراب بزوغ أوراق الربيع القادمة.

وكان مستطيل الضوء على جانب الجبل نافذةَ مكتب موليغان. لقد جلس ميداس موليغان في مكتبه، وأمامه خارطة وجدول. كان يسجّل أصولَ مصرفه ويعمل على خطّة استثمارات جديدة، ويشير إلى المواقع التي كان يختارها:

- نيويورك - كليفلاند - شيكاغو.. نيويورك - فيلادلفيا.. نيويورك.. نيويورك... نيويورك..

أمّا مستطيل الضوء الذي كان في قاع الوادي فهو نافذة منزل دانيسكولد. لقد

جلست كاي لودلو أمام المرآة تتفحّص بعنايةٍ مكياج الأفلام في علبة محطّمة. أمّا راجنار دانيسكولد فقد استلقى على الأريكة يقرأ مجلّدًا من أعمال أرسطو:

- لأنّ هذه الحقائق تحمل خيرًا لكلّ ما هو كائنٌ، وليس فقط لبعض الأجناس الخاصّة، وكلّ البشر يستخدمونها لأنّها حقيقية لازمة للوجود.. للمبدإ الذي يجب أن يكون لكلّ شخص يفهم كلَّ ما هو موجود، وليس فرضيّة... ومن الواضح أنّ هذا المبدأ هو الأكثر صوابًا على الإطلاق، دعونا نشرع في شرح هذا المبدإ. هو يقول إنّ الخاصّيّة نفسها لا يمكن أن تنتمي ولا تنتمي في الوقت نفسه إلى الموضوع ذاته..

أمّا مستطيل الضوء الذي كان في فدان المزرعة فهو نافذة مكتبة القاضي ناراغاناسيت الذي جلس على الطاولة موجّهًا ضوء المصباح على نسخةٍ من وثيقةٍ قديمةٍ. كان يشطب ويضع علامات على التناقضات التي تنطوي عليها تصريحاته، والتي كانت ذات يوم سببًا في تدميره. وكان يضيف الآن بندًا جديدًا إلى صفحاته يقول:

- لا يجوز للكونغرس أن يضع قانونًا يحدّ من حرّيّة الإنتاج والتجارة..

أمّا مستطيل الضوء الذي كان في وسط الغابة فهو نافذة كوخ فرانسيسكو دانكونيا. كان فرانسيسكو ممدّدًا على الأرض وهو يحاول إنهاءَ رسم مصهره. بينما جلس هانك ريردن وإليس وايت بجانب المدفأة. وكان ريردن يقول:

- جون سيصمّم القاطرات الجديدة، وداغني ستدير أوّل سكّة حديد بين نيويورك وفيلاديلفيا.

وفجأةً، عند سماع الجملة الثانية، رفع فرانسيسكو رأسه وانفجر ضاحكًا. كانت ضحكة انتصارٍ وارتياحٍ. ولم يتمكّنوا من سماع موسيقى الكونشرتو الخامس لهالي وهي تنساب من مكان فوقَ السطح، لكنّ ضحكات فرانسيسكو طابقت نغمها. وبعد أن استوعب فرانسيسكو الجملةَ التي سمعها، شاهد ضوء شمس الربيع وهو يشرق على مروج المنازل في جميع أنحاء البلاد، ورأى بريقَ المحرّكات وناطحات السحاب، وبريقَ عيون الشباب وهي تتطلّع إلى المستقبل من دون شكّ أو خوفٍ.

وأضاف ريردن:

- من المحتمل أنّ داغني ستحاول تمزيق قميصي من جهة الظهر بسبب أسعار الشحن التي سأتحمّلها، ولكن سأكون قادرًا على الإيفاء بها.

أمّا بريق الضوء الخافت الذي كان يتماوج ببطءٍ عبر الفضاء، فكان ضوءَ النجوم المنعكسة على خصلات شعر جالت. لقد وقف ينظر، لا إلى الوادي في الأسفل، بل إلى ظلام العالم وراء جدرانه. وكانت يدُ داغني على كتفه، والرياح تهبّ على شعرها فيندمج مع شعره. كانت تعلم السبب الذي جعله يريد المشي عبر الجبال في تلك الليلة وكذا السبب الذي جعله يتوقّف عن التفكير فيه، وتعلم أيضًا الكلمات التي سيقولها، وتدرك أنّها ستكون أوّل من سيسمعها.

لم يكن بإمكانهما رؤية عالم ما وراء الجبال، لأنّه ليس هناك سوى الظلام، ولكنّ هذا الظلام يخبّئ أنقاضَ قارّة تتكوّن من المنازل المهجورة والجرّارات الصدئة، والشوارع الخالية من الضوء والسكك الحديديّة المهجورة. لكن بعيدًا، على حافّة الأرض، لاح لهب صغير يتماوج في مهبّ الرياح، ذلك اللهب العنيد لشعلة حقول نفط وايت التي لم تنطفئ، ويبدو أنّه كان يتّصل بهما وينتظر الكلمات التي كان جون جالت سينطقها، فقال جالت:

- الطريق خاليةٌ، ونحن عائدون إلى العالم.

ثمّ رفع يدَه ورسم على فضاء الأرض المهجورة علامة الدولار.

مكتبة
t.me/soramnqraa

آين راند

telegram
@soramnqraa

أطلس متململا

يعتقد الناس أنّ الكاذب يكسب انتصارَه على حساب ضحيّته. أمّا ما تعلّمته فهو أنّ الكذبَ فعلٌ من أفعال التنازل عن الذات، لأنّ المرء يسلّم حقيقتَه إلى الشخص الذي يكذب عليه ويجعل منه سيّدًا عليه، وفي مقابل ذلك يُدين ذاتَه منذ ذاك الحين لتزييف نوع الواقع الذي يحتاج ذاك الشخصُ إلى تزييفه. وإذا كان المرء يظفر بالغرض المباشر من الكذب، فإنّ الثمنَ الذي سيدفعه في مقابل ذلك هو تدمير ما كان ذاك الظفرُ يقصد إلى خدمته. فالإنسان الذي يكذب على العالم هو عبدُ ذلك العالم. وعندما اخترتُ إخفاءَ حبّي لك، بهدف التنصّل منه في العلن وعيشه مثل كذبةٍ، جعلته ملكيّةً عامّةً، ولم تكن لديّ أيّ وسيلة لتجنّب ذلك ولا أيّ قوّة لإنقاذك. وعندما استسلمت للصوص -بعد توقيع شهادة الهديّة قصدَ حمايتك- كنت لا أزال أزيّف الواقع، ولم يبقَ لي من حلٍّ آخر. فأنا يا داغني، كنت أفضّل أن يُنظَر إلينا بوصفنا أمواتًا على أن أسمح لهم باقتراف ما هدّدوا به. لكن لا توجد أكاذيب بيضاء، وما يوجد فقط هو سوداويّة الدمار، فالكذبة البيضاء هي الأكثر سوادًا على الإطلاق.

ISBN:978-603-91630-3-9
9 786039 163039
WWW.PAGE-7.COM